التفسير المظهري

تأليف

الشيخ القاضي محمد ثناء الله
العثماني الحنفي المظهري الپاني پتي
المتوفى ١٢٢٥ هـ

وضع حواشيه وخرج آياته وأحاديثه
إبراهيم شمس الدين

الجزء الخامس

المحتوى:
من أول سورة الحج - إلى آخر سورة الأحزاب

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Title: AL-TAFSĪR AL-MAẒHARI
(The exegesis of the Holy Qur'an)
Author: Al-qāḍi Muḥammad Ṯanā'ullāh al-Maẓhari
Editor: Ibrāhīm Šamseddīn
Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah
Pages: 3784 (7 volumes)
Year: 2007
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: التفسير المظهري
المؤلف: الشيخ القاضي محمد ثناء الله العثماني المظهري
المحقق: إبراهيم شمس الدين
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 3784 (7 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007 م
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الأولى (لونان)

ISBN 2-7451-4069-8
90000
9 782745 140692

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحج

ثمان وسبعون آية بعضها مدنية وأكثرها مكية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ أي عقابه بأن تطيعوه ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي تحريكها الأشياء على الإسناد المجازي، أو تحركها فيها فأضيف إليها إضافة معنوية بتقدير في أو إضافة المصدر إلى الظرف على إجرائه مجرى المفعول به ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي هائل أن مع صلتها في مقام التعليل، علل أمرهم بالتقوى بفظاعة الساعة ليتصوروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يؤمنهم منها سوى التدرع بلباس التقوى. اختلفوا في هذه الزلزلة؟ فقال علقمة والشعبي هذا من أشراط الساعة تكون قبل قيام الساعة، قال جلال الدين المحلي قبل طلوع الشمس من مغربها، واختار هذا القول ابن العربي والقرطبي بقرينة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي الساعة أو الزلزلة ظرف لقوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ بسببها ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ أي امرأة ألقمت الرضيع ثديها، يقال امرأة مرضع بلا هاء إذا أريد بها الصفة مثل حائض وحامل يعني من شأنها أن ترضع وإذا أريد به الفعل حالاً يقال مرضعة ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ ما موصولة أو مصدرية يعني تدهش من هول تلك الزلزلة فتذهل عمن ترضعها وتنزع ثديها من فيه أو تذهل عن إرضاعها، هذه الجملة خبر ثان لأن والرابط ضمير ترونها، أو تعليل بعظم شأنها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي تسقط جنينها من هول تلك الزلزلة عطف على تذهل، قال الحسن تذهل

المرضعة عن ولدها يعني فطام وتضع الحامل ما في بطنها من غير تمام ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ قال الحسن ترى الناس سكارى من الخوف ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ من الشراب قرأ حمزة والكسائي سكرى وما هم بسكرى، قال البغوي هما لغتان لجمع السكران، قال البيضاوي وقرأ سكرى كعطشى إجراء للسكر مجرى العلل أفرد الضمير في ترى الناس بعد جمعه في ترونها لأن الساعة يراها الجميع وأثر السكر إنما يراه كل واحد على غيره ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فأرهقهم هوله بحيث طير عقولهم وأذهب تميزهم، استدراك لدفع توهم خفة الأمر الناشىء عن نفي السكر قالوا هذه الآية تدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل ولا رضاع، ويرد عليه أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ﴾ إما خطاب للناس عامة وإما للموجودين عند نزول الآية خاصة، وعلى كلا التقديرين كون زلزلة الساعة التي هي من شرائطها شديدة هائلة لا يصلح تعليلاً للأمر بالتقوى في حق المخاطبين لأن شدتها وهولها لا تلحق إلا بالموجودين عندها لا بجميع الناس ولا بالموجودين في زمن النبي ﷺ، وقال ابن عباس ﷺ زلزلة الساعة قيامها وذلك بعد نفخة البعث وقيام الناس من قبورهم واختاره الحليمي وغيره، قالوا: أخرج هذه الآية مخرج المجاز والتمثيل لشدة الهول والفزع لا على الحقيقة نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] ولا شيب فيه إنما هو مجاز لشدة الهول.

واستدلوا على ذلك بما أخرجه أحمد والترمذي وصححه عن عمران بن حصين قال كنا مع رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال «أتدرون أي يوم ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار»(١) الحديث، وقال البغوي روي عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري وغيرهما «أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً فنادى رسول الله ﷺ فقرأ عليهم فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدراً والناس من بين باك أو جالس حزين متفكر فقال رسول الله ﷺ «أتدرون يوم ذلك»؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله عز وجل لآدم قم فابعث بعث النار من ولدك، فيقول آدم من كل كم كم؟ فيقول الله عز وجل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد إلى الجنة» فكبر ذلك على المسلمين وبكوا وقالوا: فمن ينجو يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ «أبشروا وسددوا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانتا في قوم إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج»، ثم قال «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: «لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وإن أهل الجنة مائة وعشرين صفاً ثمانون منها أمتي وما المسلمون في الكفار إلا كالشامة في جنب البعير وكالرقمة في ذراع الدابة بل كالشعرة

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٢٢، باب ١، ٢.

السوداء في الثور الأبيض وكالشعرة البيضاء في الثور الأسود»، ثم قال: «تدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب»، فقال عمر سبعون ألفاً، قال «نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً»، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله أن يجعلني الله منهم فقال ﷺ «أنت منهم»، فقام رجل من الأنصار فقال «ادع الله أن يجعلني منهم» فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة»[١] وأجاب أصحاب القول الأول أن هذا الحديث لايدل على أن الزلزلة تكون حين الأمر ببعث النار بل يكون ذلك اليوم والأمر متأخر عنها فكأنه ﷺ لما أخبر عن الزلزلة التي كانت متقدمة عن النفخة الأولى ذكر ما يكون في ذلك اليوم من الأهوال العظام وهو قوله لآدم ابعث بعث النار فيكون ذلك في أثناء ذلك اليوم، ولا يقتضي أن يكون ذلك متصلاً بالنفخة الأولى. قلت: وهذا الجواب ضعيف لأن حديث أبي سعيد الذي أخرجه الشيخان في الصحيحين عنه عن النبي ﷺ ورد بلفظ «يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: أخرج بعث النار قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»، قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: «أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف»، ثم قال: «والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبرنا، قال «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض وكشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[٢] فإن هذا الحديث صريح في اقتران مشيب الصغير ووضع ذات حمل حملها بالأمر ببعث النار بل تقدم البعث على الزلزلة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في ذات الله وصفاته وأحكامه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في النضر بن الحارث كان كثير الجدل وكان يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وكان ينكر البعث وإحياء من صار تراباً كذا أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في المجادلة في عامة أحواله ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾ اعترضه من الجن والإنس ﴿مَّرِيدٍ﴾ المرد المتجرد العري ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر والمريد والمارد بمعنى العاري من الخير المسقر في الشر، وفي القاموس مرد كنصر وكرم مرود أو مرادة فهو مارد ومريد ومتمرد أقدم أو عتا أو هو أن يبلغ الغاية التي تخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف ومرده قطعه ومرق عرضه وعلى الشيء مرن واستمر ﴿كُتِبَ﴾ أي قضي ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الشيطان ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي تبعه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ أن المفتوحة مع جملتها خبر لمبتدأ محذوف

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الرقاق باب ٥٠، واللباس باب ١٨، ومسلم في الإيمان حديث ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٤.

(٢) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٧، وتفسير سورة ٢٢، باب ١، والرقاق باب ٤٥، ٤٦، والتوحيد باب ٣٢، ومسلم في الإيمان حديث ٣٧٩.

والجملة بعد الفاء جزاء لمن إن كانت شرطية وجوابه إن كانت موصولة، والمعنى أن من تبع الشيطان فالأمر أن الشيطان يضل تابعه عن سواء السبيل فلم يجبل عليه ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ أي يريه طريق النار أو يوصله ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بالحمل إلى ما يوصله، وقيل ضمير أنه راجع إلى الشيطان ومن موصولة أو موصوفة مع صلتها أو صيغتها خبر لأن والضمير المنصوب في تولاه راجع إلى التابع، والفاء في فإنه يضله للعطف على أنه من تولاه، والمعنى قضي على الشيطان أنه نفس تولى تابعه أو الذي تولى تابعه أي أحبه أو استولى عليه فقضى أن الشيطان يضله كذا قال الزجاج، وجملة ومن الناس من يجادل في الله حال من فاعل اتقوا تقديره يا أيها الناس اتقوا ومنكم من يجادل ولم يتق ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة أو معترضة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ في شك ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ أي من إمكانه وكونه مقدوراً لنا ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ يعني خلقنا جنسكم وهو شامل لمن يولد ومن يسقط لكونه مستعداً لأن يصير إنساناً، يعني فانظروا في بدء خلقكم فإنه يزيل ريبكم فإنا خلقناكم من تراب بخلق أبيكم آدم منه أو المعنى خلقناكم من الأغذية التي تنبت من التراب التي يتولد منها المني ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي مني مشتق من النطف بمعنى الصب ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم وهي في الأصل قدر ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال ابن عباس أي تامة الخلق وغير تامة الخلق، وقال مجاهد مصورة وغير مصورة، وقيل: المخلقة الولد يأتي به المرأة لوقته غير مخلقة السقط، فالمراد بغير المخلقة على هذا لأقوال السقط، وقيل: المخلقة المسواة التي لا نقص فيها ولا عيب وغير المخلقة ما فيه نقص وعيب كان الله عز وجل يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلق أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقتهم وصورهم وطولهم وقصرهم وكمالهم ونقصانهم، فعلى هذا ليس المراد بغير المخلقة السقط فحينئذ لا حاجة إلى ما قلنا إن السقط من جنس الإنسان من حيث الاستعداد لكن الصحيح هو الأول والمراد بغير المخلقة السقط، قال البغوي روى علقمة عن ابن مسعود قال: إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه فقال: أي رب مخلقة أو غير مخلقة فإن قال غير مخلقة قذفها الرحم دماً ولم يكن نسمة وإن قال مخلقة قال الملك أذكر أو أنثى أشقي أم سعيد؟ ما الأجل ما العمل ما الرزق؟ فيقال له اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ تتعلق بخلقناكم مقيداً بما ذكر يعني لنبين وتظهر لكم بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا حتى تستدلوا به على البعث بأن ما قبل التغير والفساد والتكون مرة في بدء الخلق يقبلها ثانياً عند الإعادة ومن قدر على تغييره وتصويره أولاً قدر على ذلك ثانياً وحذف المفعول إيماء إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذكر، وقيل: معناه لنبين لكم ما تأتونه وما تذرونه وما تحتاجون إليه في العبادة يعني خلقناكم لأجل التكليف ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ حال بتقدير ونحن نقر أو عطف على إنا خلقناكم يعني

نثبت ونسكن في الأرحام فلا تمجه ولا تسقطه ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي مدة نشاء أن نقر فيه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي معلوم عند الله تعالى وهو وقت الخروج من الرحم مولود ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي أطفالاً حال من الضمير المنصوب في نخرجكم أجريت عليه بتأويل كل واحد، أو الدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ﴾ متعلق بمحذوف تقديره ثم نربيكم لتبلغوا ﴿أَشُدَّكُمْ﴾ شدة كالنّعم جمع نعمة يعني ليبلغوا كل شدة وكمال قدر لكم في القوة والعقل وغير ذلك قالوا وبلوغ الأشد ما بين ثلاثين إلى أربعين سنة ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله جملة معترضة، أو حال أو معطوفة على ما سبق ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ بالهرم والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ متعلق بيرد واللام للعاقبة يعني حتى يعود إلى الهيئة الأولى التي كانت في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر ما عرفه، قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصير بهذه الحالة، والآية استدلال ثان على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي ميتة يابسة من همدت النار إذا صارت رماداً ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أي زادت وانتفخت. قرأ أبو جعفر ربأت بالهمزة وكذلك في حم السجدة أي علت وارتفعت، قال المبرد أراد اهتز وربا نباتها فحذف المضاف، لأن الاهتزاز في النبات أظهر ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ من زائدة أي أنبتت كل صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ أي حسن، في القاموس البهيجة السرور بهج ككرم فهو بهج وهو مبهاج وكخجل فرح فهو بهيج وبهج وكمنع أفرح وسر كأبهج والابتهاج السرور، وجملة ترى الأرض عطف على أنا خلقناكم أو رد جملة فعلية ليدل على حدوث هذه الصفة مرة بعد أخرى فهذه دليل ثالث كررها الله تعالى في كتابه لظهوره وكونه مشاهداً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله على أحوال متضادة ومن إحياء الأرض بعد موتها وهو مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي بسبب أن الله هو الثابت المتحقق في نفسه الواجب وجوده الذي به يتحقق الأشياء لولاه لاستحال خروج الممكن من مخدع العدم ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ منه النطفة والأرض الموات ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته لذاته ونسبة ذاته إلى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على كلها وإن كان عظماً رميماً ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ يعني ساعة انقراض الدنيا ﴿ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن التغير من مقدمات الانصرام ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يحتمل الخلف. الجمل الثلاث الأول منها لبيان العلة الفاعلية لخلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله على أحوال متضادة وإحياء الأرض بعد موتها، والجملتين الأخيرتين لبيان العلة الغائية أي ما هو بمنزلة العلة الغائية، فإن خلق الإنسان ونحوه لمعرفة الله سبحانه وحسن عبادته وإلا لكان إيجاده عبثاً وخلق سائر الكائنات لتكون برهاناً لمعرفة الديان، ويترتب على وجوب المعرفة وجوب العبادة وعليه يترتب الجزاء إذ

لولا البعث والجزاء لزم التسوية بين المسلمين والمنكرين المجرمين فيختل أمر العدل قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ
عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ
وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ
ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ
فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن
يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ضروري ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي استدلال يهدي إلى المعرفة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ مظهر للحق منزل من الله تعالى على أحد من الناس فإن أسباب العلم للإنسان إنما هو أحد هذه الأمور الثلاثة ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ العطف الجانب والعطفان الجانبان يميناً وشمالاً وهو الموضع الذي يعطف الإنسان أي يلوي ويميله عند الإعراض، قال مجاهد أي لاوي عنقه، حاصل المعنى معرضاً عما يدعي إليه من الحق تكبراً أو تبختراً، كذا قال ابن عطية وابن زيد وابن جريج ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بيجادل، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من المجرد والباقون بضم الياء من الأفعال يعني يجادل حتى يضل غيره ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو القتل والأسر، فقتل نضر بن الحارث وعقبه بن أبي معيط يوم بدر صبراً، وقتل معهما سبعون وأسر سبعون، وقال جلال الدين المحلي نزلت الآية في أبي جهل فقتل يوم بدر ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي المحرق وهو النار ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب أو التقدير ويقال لهم يوم القيامة إذا عذبوا ذلك العذاب بسبب ما فعلته من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أورد صيغة المبالغة نظراً إلى كثرة العبيد والجملة معطوفة على ما قدمت يداك، ونفي الظلم كناية عن العدل كما أن عدم الحب في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨]، كناية عن البغض والعدل سبب لمجازاة الكفر والمعاصي بالتعذيب.

أخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال كان الرجل يقدم المدينة فيسلم فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته

ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء فأنزل الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾ قال المفسرون: معناه على شك من حرف الشيء وهو طرفه فالشاك والمنافق كأنه على طرف من الفريقين المؤمنين والكافرين قد يميل إلى هؤلاء وقد يميل إلى هؤلاء أو هو كالذي على طرف الجيش فإن أحسَّ الظفر قرَّ وإلا فرَّ، وأخرج ابن أبي حاتم وكذا قال البغوي إنها نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة والمهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله، قال: هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيراً واطمأن إليه وهو المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ أي بتعبد الله والإسلام وإن صابه مرض وولدت امرأته جارية وأجهضت رهاكه وقل ماله قال: ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلا شراً فينقلب عن دينه، وهو المعنى لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ بلاء وشدة ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي ارتد عن دينه ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر، وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن أبي سعيد قال أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام فأتي النبي ﷺ فقال أقلني فقال النبي ﷺ: «إن الإسلام لا يقال[1]»، فقال لم أصب من ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي فنزلت الآية فقال رسول الله ﷺ: «يا يهودي إن الإسلام يسبك الرجال كما يسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة»[2] ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ﴾ يعني هذا الذي ارتد من الدين لأجل بلاء في الدنيا خسر الدنيا لفوات ماله وولده وما كان يؤمل ولذهاب عصمته وخسر الآخرة بالخلود في النار وحبط عمله» ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ لا خسران مثله ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إن لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ إن عبده ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الحق مستعار من ضل في التيه إذا أبعد عن الطريق المستقيم ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ اللام زائدة، والمعنى يدعو أمن ضره أي ضر عبادته هكذا قرأ ابن مسعود رضي الله عنه ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ﴾ الموهوم الذي يتوقعه الكافر بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى، وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون لما لا يكون موجوداً أصلاً هذا شيء بعيد، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] أي لارجع أصلاً، ولما كان النفع من الصنم بعيداً بمعنى أنه لا نفع فيه أصلاً، قيل ضره أقرب من نفعه لأنه كائن لا محالة، قيل يدعو من تتمة الكلام السابق تكرير لقوله يدعو في قوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ تأكيد لفظي له وما بعده كلام مستأنف واللام في لمن ضره جواب لقسم محذوف والموصول مع صلته مبتدأ خبره ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي الناصر، وقيل: المعبود ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي الصاحب والمخالط يعني الوثن والعرب يسمي الزوج عشير الأجل المخالطة والجملتان إلزامتان مستأنفتان على قراءة ابن مسعود وما في معناه،

---

(١) من الإقالة: أي لا ينبغي للإسلام أن يُرجع عنه.

(٢) أخرجه القرطبي في تفسيره ١٢/١٧، والذهبي في ميزان الاعتدال ٦٥٠٣.

وقيل اللام متعلقة ليدعو من حيث إنه بمعنى يزعم والزعم قول مع اعتقاد أو يقال يدعو داخلة على الجملة الواقعة مقولاً إجراء له مجرى القول، وعلى هذين التقديرين اللام جواب قسم محذوف ومن مع صلته مبتدأ خبره لبئس المولى ولبئس العشير والمعنى يقول الكافر ذلك يوم القيامة حين يرى استضرار به، وقيل تقدير الكلام يدعو لمن ضره أقرب من نفعه يدعو فحذف يدعو الأخير احتزاء بالأول والمفعول ليدعو الأول محذوف والموصول منصوب بيدعو الثاني واللام في لمن ضره جواب قسم محذوف، وقيل اللام بمعنى أن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ يعني أنه تعالى يريد إثابة المؤمن الصالح وعقاب المشرك ولا دافع لمراده ولا مانع لقضائه.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي محمداً ﷺ بمعنى الوهم يقتضي مفعولاً واحداً وهو أن مع جملتها وإمكان الظن بمعناه فالجملة قائمة مقام المفعولين ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذا كلام فيه اختصار تقديره إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه لأجل غيظه الرسول ﷺ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سماء بيته يعني ليشدد حبلاً في سقف بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق من قطع إذا اختنق فإن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه يعني يستعض في إزالة غيظه وليفعل كل ما يفعل الممتلىء غيظاً حتى يموت، وهذا أمر للتعجيز يقال للحاسد إن لم ترض بهذا فاختنق ومت غيظاً، وقال ابن زيد المراد بالسماء السماء الدنيا، والمعنى من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيده في أمره ليقطعه من أصله حتى يبلغ عنان السماء فيجتهد في دفع نصر الله إياه أو ليمدد بحبل إلى السماء الدنيا وليذهب السماء وليقطع الوحي الذي يأتيه من السماء، قال البغوي روي أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وكان بينهم وبين اليهود حلف فقالوا: لا يمكننا أن نسلم لأنا نخاف أن لا ينصر الله محمداً ولا يظهر أمره فينقطع الحلف بيننا وبين اليهود فلا يميروننا ولا يأووننا فنزلت هذه الآية، وقال مجاهد النصر بمعنى الرزق يقول العرب من نصرني نصره الله يعني من أعطاني أعطاه الله، وقال أبو عبيدة يقول العرب أرض منصورة أي ممطورة مرزوقة بالمطر، والضمير المنصوب في ينصره راجع إلى الموصول والآية نزلت في من أساء الظن بالله وخاف أن لا يرزقه والمعنى من كان ليظن أن لن يرزقه الله فليمدد بحبل إلى سماء بيته ثم ليختنق ويمت غيظاً على عدم ترزيقه أو ليمدد حبلاً إلى السماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عناناً وليأت من هناك رزقه، قرأ ورش وأبو عمرو ابن عامر ثم ليقطع بكسر لام الأمر والباقون بجزمها.

﴿فَلْيَنظُرْ﴾ فليتصور في نفسه بعد إرادة مد السبب وقطع المسافة أو الاختناق ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ يعني هل يدفع فعله ذلك غيظه أو الذي يغيظه من نصر الله سماه كيداً لأنه منتهى سعيه، والاستفهام للإنكار وجملة من كان يظن إلى آخرها تأكيد لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤] يعني كما أن غيظ الحاسد لا يدفع ما أراد الله تعالى من نصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة لا يدفع أحد شيئاً مما أراد الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي

إنزالاً مثل ذلك الإنزال أي مثل إنزالنا الآيات الدالة على إمكان البعث والتوحيد وصدق الرسول والوعد بنصره ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن كله حال كونه ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على صدق الرسول ﷺ وما جاء به فلا منافاة بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] لاختفاء المراد منها مع ظهور إعجازها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾، الجملة في محل الجر بلام التعليل معطوفة على محذوف متعلق بقوله أنزلناه، يعني أنزلناه لمصالح ولأن يهدي به أو يثبت على الهدى من يريد الله هدايته أو ثباته على الهداية، وجاز أن يكون في محل النصب عطفاً على الضمير المنصوب في أنزلناه يعني وأنزلنا أن الله يهدي من يريد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ يعني عبدة الأوثان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالحكومة بينهم وإظهار المحق منهم من المبطل وبالجزاء فيجاري كلاً ما يليق به ويدخل فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير أدخلت كلمة أن على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد ثم أكده بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به بمراقب لأحواله فلا يجوز أن يجعل المسلمين كالمجرمين ولا بمنزلة المحقق من المبطل مع كمال علمه بظواهر أحوال كل وبواطنها ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الإنس والجن يعني المؤمنين منهم وكلمة من وإن كان يعم المؤمن والكافر لكن خص منه الكافر بكلام مستقل وهو قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] فبقي المؤمنون مراداً وإنما فسرت هكذا لأن كلمة من لذوي العقول ولما عطف عليه قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ فإن حقيقة العطف للمغايرة وحمل البيضاوي كلمة من على العموم، وقال: من يجوز أن تعم أولي العقل وغيرهم أو على التغلب، وقال أكثر المحققين إن من لا يعبر به عن غير الناطقين إلا إذا جمع بينهم وبين غيرهم فعلى تقدير إرادة العموم قوله والشمس الخ من قبيل عطف الخاص على العام أفردها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها، والمراد بالسجود عند المحدثين والعلماء المتقدمين الطاعة الاختيارية فإن الجمادات وإن كانت أمواتاً عندنا لكن لها حياة ما وهي مطيعة طاعةً اختيارية لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقال في وصف الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال رسول الله ﷺ: «إن الجبل ينادي الجبل يا فلان هل مر بك أحد يذكر الله» رواه الطبراني من حديث ابن مسعود، قال البغوي هذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ ﴿وَكَثِيرٌ﴾ تكرير للأول تأكيداً ومبالغة في الكثرة وخبره ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ لعدم انخراطهم في الساجدين فهذا الجملة مخصصة بكلمة من مخرجة للكافرين من أن يرادوا بها، وقيل كلمة من في قوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨] بمعنى ما للعموم والمراد بالسجود كون الممكنات كلها متسخرة لقدرته غير آبية عند تدبيره دالة بذواتها على عظمة تدبرها وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ خبره محذوف دل عليه

خبر قسيمه يعني حق لهم الثواب، أو فاعل لفعل محذوف تقديره ويسجد له سجود طاعة أي بوضع الجبهة على الأرض كثير من الناس، وعلى التقديرين قوله كثير من الناس جملة مستأنفة وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ مستأنفة أخرى، ومن قال بجواز عموم المشترك يعني استعمال لفظ واحد مشترك في المعنيين في كل واحد من مفهوميه معاً وإسناده باعتبار أحد المعنيين إلى أمر وباعتبار المعنى الآخر إلى أمر آخر، قالوا قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ مفرد معطوف على ما سبق والمعنى يسجد له سجود التسخر جميع الكائنات وسجود الطاعة كثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب لأجل إبائهم عن سجود الطاعة جملة مستأنفة، وجاز أن يكون مفرداً معطوفاً على الساجدين بالمعنى الأعم موصوفاً بقوله حق عليهم العذاب ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ﴾ مبتدأ فيه معنى الشرط وخبره المتضمن بمعنى الجزاء قوله: ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يعني من يهينه الله بالشقاوة لا يكرمه أحد بالسعادة، هذه الجملة معطوفة على الاسمية السابقة أو حال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الإكرام والإهانة، والسعادة والشقاوة مختصان بمشيئة الله تعالى.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)﴾

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ فوجان متخاصمان، يعني المؤمنون خصم والكافرون من الأنواع الخمسة خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة ﴿اخْتَصَمُوا﴾ أو رد صيغة الجمع حملاً على المعنى ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾ أي في دينه أو في ذاته وصفاته وأمره. روى الشيخان في الصحيحين عن أبي ذر قال: نزلت قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ في حمزة وعبيدة وعلي بن أبي طالب ﵃ وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة» وأخرج البخاري والحاكم عن علي قال: فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر، وأخرج الحاكم عنه بوجه آخر قال نزلت في الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، وروى البغوي عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يحثو بين يدي الرحمة للخصومة يوم القيامة، قال قيس وفيهم نزلت هذه الآية، وقال قيس هم الذين بارزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، قال محمد بن

إسحاق خرج يعني يوم بدر عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا وصلوا إلى الصف دعوا إلى المبارزة فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة عوف ومعاذ ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بْن رواحة فقالوا من أنتم فقالوا: رهط من الأنصار حين انتسبوا أكفاء كرام، ثم نادى مناديهم يا محمد اخرج إلينا أكفائنا من قومنا فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن أبي طالب» فلما دنوا قالوا: من أنتم؟ فذكروا قالوا: نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز علي الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة وعليّ الوليد، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه فكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فدففا[1] عليه واحتملا عبيدة إلى أصحابه وقد قطعت رجله ومخها ليسيل فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله ﷺ قال: ألست شهيداً؟ قال: بلى، فقال عبيدة لو كان أبو طالب حياً لعلم أنا أحق بما قال منه حيث يقول[2] (شعر):

كذبتم وبيت الله يُبزى[3] محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضلِ[4]

ونسلمه حتى نصرع حوله ... نذهل عن أبنائنا والحلائل

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة إن الآية نزلت في المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد ﷺ ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم به حسداً فهذا خصومتهم في ربهم، وقال مجاهد وعطاء بن رباح الكلبي هم المؤمنون والكافرون من أي ملة كانوا، وقال بعضهم جعل الأديان ستة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [البقرة: ٦٢] الآية فجعل خمسة للنار وواحد للجنة فقوله هذان خصمان ينصرف إليهم فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم لأن الكفر ملة واحدة ومبنى هذين القولين عموم اللفظ وسياق القصة ولا شك أن العبرة لعموم اللفظ دون خصوص السبب، وقال عكرمة هما الجنة والنار اختصما روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتبخترين وقالت الجنة فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعرّتهم[5]، قال الله تعالى للجنة إنما

(١) دففا عليه أي أسرعا قتله.
(٢) البيتان من الطويل، وهما في ديوان أبي طالب ص٩٦.
(٣) على صيغة المجهول أراد لا يبزى حذف لا في جواب القسم وهي مراده أي لا يقهر ولا يغلب والبز بالزاء المعجمة الغلبة والقهر.
(٤) التناضل الترامي بالسهام.
(٥) عِرّة جمع عرير وهو الفقير تتعرض السؤال من غير طلب ومنه المعتر.

أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحد منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله رجله تقول قط قط فهنالك تمتلىء ويزوي[١] بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحداً وأما الجنة فإن الله تعالى يُنشأ لها خلقاً»[٢] ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فصل لخصومتهم وهو المعنى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧] ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي قدرت لهم على مقادير حيثيتهم، قال سعيد بن جبير ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شيء إذا حمي أشد حراً منه وتسمى باسم الثياب لأنها تحيط بأبدانهم كإحاطة الثياب وقال بعضهم يلبس أهل النار مقطعات من النار، روى أحمد بسند حسن عن جويرية قالت: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا ألبسه الله يوم القيامة ثوباً من نار»[٣] وأخرج والبزار وابن أبي حاتم والبيهقي بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ؛ «أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من بعده وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقال لهم لا تدعوا ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً»[٤] وأخرج أبو نعيم عن وهب بن منبه قال: كسي أهل النار والعري كان خيراً لهم وأعطوا الحياة والموت كان خيراً لهم، وأخرج عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[٥] رواه ابن ماجه بلفظ «إن النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع لها ثياباً من قطران ودرعاً من لهب النار»[٦].

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ حال من الضمير في لهم أو خبر ثان والحميم الماء الحار الذي انتهى حرارته ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ أي يذاب بذلك الحميم المنصب من فوقهم رؤوسهم ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم والأحشاء والجلود ويصهر به الجلود يعني يؤثر حرارته في بواطنهم كما يؤثر في ظواهرهم والجملة حال من الحميم أو من ضميرهم. أخرج الترمذي وحسنه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ

---

(١) أي تجتمع وتنصرف.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٠، باب ١، ومسلم في الجنة حديث ٣٦، والترمذي في الجنة باب ٢٢، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٥، ١٥٦.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٥٢، ١٥٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٢، والطبري في تفسيره ١٨/ ١٤١.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٤، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٥١، والتبريزي في مشكاة المصابيح ١٧٢١.

(٦) أخرجه مسلم في الجنائز حديث ٢٩، وابن ماجه في الجنائز باب ٥١، وأحمد في المسند ٥/ ٣٤٢، ٣٤٣.

الحميم حتى تخلص إلى جوفه فيسيل ما في جوفه ثم يهراق من بين قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان»[١] ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ جمع مقمعة وحقيقتها ما يقمع به أي يكف بعنف، قال الليث المقمعة شبه الجزر وهو بالفارسية گرز بالكاف الفارسي، قال البغوي هو من قولهم قمعت رأسه إذا ضربته ضرباً عنيفاً والجملة حال من الضمير المجرور في بطونهم، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال يضربون بها أي بالمقامع فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور، وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن مقمعاً من حديد وضع على الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتعثت ثم عاد كما كان»[٢] ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أي من النار من غم وكرب يلحقهم بأنفاسهم بسبب النار، بدل اشتمال من الضمير المجرور بإعادة الجار ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ تقديره كمال أرادوا أن يخرجوا منها فخرجوا منها أعيدوا فيها لأن الإعادة لا يكون إلا بعد الخروج، والجملة الشرطية أعني كلما أرادوا إلى آخرها صفة لمُقامع والرابط محذوف أي أعيدوا بها فيها، وأخرج ابن أبي حاتم عن الفضيل بن عياض في الآية أنه قال والله ما طمعوا في الخروج لأن الأرجل مقيدة موبقة ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها، قلت: لعل المراد بقوله: ﴿أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أنهم يزعمون حين يرفعهم لهبها أن يقعوا خارج النار ولا يكون كذلك بل يردهم مقامعها، وأخرج البيهقي عن أبي صالح قال إذا ألقي الرجل في النار لم يكن له منتهى حتى يبلغ قعرها ثم تحيش به جهنم فترفعه إلى أعلى جهنم وما على عظامه مضغة لحم فتضرب الملائكة بالمقامع فيهوي بهم إلى قعرها فلا يزال كذلك، وذكر البغوي أن في التفسير أن جهنم لتحيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فيضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعون خريفاً ﴿وَذُوقُواْ﴾ هذه الجملة معطوفة على أعيدوا بتقدير وقيل لهم ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي النار المحرقة البالغة في الإحراق فعيل بمعنى الفاعل كالأليم بمعنى المؤلم والوجيع بمعنى الوجع، قال الزجاج هؤلاء يعني الذين مر ذكرهم في تلك الآيات أحد الخصمين وقال في الآخر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ غير الأسلوب فيه وأسند الإدخال إلى الله تعالى وأكده بإن إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ من حليت المرأة إذا ألبست الحلي حال من الموصول ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة وهو جمع سوار صفة لمفعول محذوف يعني يحلون حلياً كائناً من أساور ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيان له ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ معطوف على أساور على قراءة نافع وعاصم بالنصب ها هنا وفي سورة فاطر حملاً على محل أساور أو بإضمار الناصب يعني ويؤتون لؤلؤاً والباقون بالجر

---

(١) أخرجه الترمذي في جهنم باب ٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٢٩.

حملاً على لفظة أساور أو عطفاً على ذهب، قال القرطبي قال المفسرون ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاث أسورة سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ، قلت: والألف المكتوب في الرسم بعد الواو يؤيد النصب، وقال أبو عمرو أثبتوا الألف كما أثبتوا في قالوا وكانوا، وقال الكسائي ألف صورة الهمزة وترك أبو بكر وأبو عمرو إذا خفف الهمزة الأولى من لؤلؤ واللؤلؤ في جميع القرآن، وحمزة إذا وقف سهل الهمزتين على أصله وهشام يسهل الثانية في غير النصب على أصله والباقون يحققونهما، أخرج الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري «أن النبي ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾﴾ فقال: عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤ ليضيء ما بين المشرق والمغرب»[١] وأخرج الطبراني الأوسط والبيهقي بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله تعالى به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً»[٢] وأخرج أبو شيخ في العظمة عن كعب الأحبار قال: إن لله تعالى ملكاً يصوغ حلي أهل الجنة من يوم خلقه إلى أن تقوم الساعة ولو أن حلياً أخرج من حلي أهل الجنة لذهب بضوء الشمس، وأخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٣] وأخرج في الزهد من طريق عمران بن خالد عمن أدرك أصحاب النبي ﷺ أنهم قالوا من ترك لبس الذهب وهو يقدر عليه ألبسه الله إياه في حظيرة القدس ومن ترك الخمر وهو يقدرعليه سقاه الله إياه من حظير القدس، وأخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر ﵁ أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهل الحلية والحرير ويقول: «إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا»[٤] وعن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[٥] ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ حال من فاعل يحلون أو عطف عليه وغير أسلوب الكلام للدلالة على أن الحرير لباسهم المعتاد أو للمحافظة على رؤوس الآي، أخرج البزار وأبو يعلى والطبراني من حديث جابر بسند صحيح عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال: «في الجنة شجرة تنبت السندس يكون ثياب أهل الجنة»[٦] روى النسائي والطيالسي والبزار والبيهقي بسند جيد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «تنشق عنها يعني ثياب أهل الجنة ثمر الجنة مرتين»[٧]

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنة باب ٢٣، وأحمد في المسند ٣/ ٧٥.
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٠١، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٢١.
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٤٠، والنسائي في الطهارة باب ١٠٩، وأحمد في المسند ٢٣٢، ٣٧١.
(٤) أخرجه النسائي في الزينة باب ٣٩.
(٥) أخرجه البخاري في اللباس باب ٢٥، ومسلم في اللباس حديث ١١، ١٢.
(٦) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٧) الحديث لم أجده.

وأخرج ابن المبارك عن أبي هريرة، قال: إن دار المؤمن درة مجوفة فيها أربعين بيتاً في وسطها شجرة تنبت الحُلل فيذهب فيأخذ بأصبعه سبعين حلة منظم باللؤلؤ والزبرجد والمرجان.

فصل: وأخرج الشيخان عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»(١) وأخرج الشيخان عن عمر ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»(٢) وأخرج مثله من حديث أنس والزبير، وأخرج النسائي والحاكم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب بها في الآخرة». وأخرج الطيالسي بسند صحيح والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وإن دخل الجنة لم يلبسه» وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا انطلق به إلى طوبى فيفتح له أكمامها فيأخذ من أي ذلك شاء إن شاء أبيض وإن شاء أحمر وإن شاء أخضر وإن شاء أصفر وإن شاء أسود مثل شقاق النعمان وأرق وأحسن»(٣) وأخرج أيضاً عن كعب قال لو أن ثوباً من ثياب الجنة لبس في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم، وأخرج الصابوني في المائتين عن عكرمة، قال: إن الرجل من أهل الجنة ليلبس الحلة فتكون من ساعته سبعون لوناً، وأخرج مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة فنعم فيها لا يبأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه»(٤) ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ حال بتقدير قد من الموصول المفعول ليدخل يعني والحال أنهم قد هدوا في الدنيا إلى الطيب من القول يعني شهادة أن لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله كذا قال ابن عباس وقال السدي يعني هدوا إلى القرآن، وقيل الماضي ها هنا بمعنى المستقبل يعني ويهدون في الجنة إلى الطيب من القول وهو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ أي قد هدوا في الدنيا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي إلى دين الله وهو الإسلام والحميد هو الله المستحق للحمد لذاته أو المعنى ويهدون إلى صراط الجنة التي هي الحميد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعون الناس من أن يدخلوا في دين الإسلام لا يريد بالمضارع حالاً ولا استقبالاً وإنما يريد استمراراً لصد كقولهم فلان يعطي

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة باب ٢٩، والأشربة باب ٢٨، ومسلم في اللباس حديث ٤، ٥.
(٢) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.
(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٤) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٢١.

ويمنع ولذلك حسن عطفه على الماضي، وقيل: هو حال من فاعل كفروا وخبر إن محذوف دل عليه آخر الآية إن نذقه من عذاب أليم ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على سبيل الله أو على اسم الله، والمراد بالمسجد الحرام خاصة عند الشافعي وعند أبي حنيفة رحمه الله الحرم كله كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] على ما قيل إن الإسراء من بيت أم هانيء أطلق المسجد على الحرم كله لأن الغرض الأصلي من عمران مكة إقام الصلاة، قال الله تعالى حكاية لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وقد فسر الشافعي رحمه الله المسجد الحرام في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] بالحرم حيث قال: يمنع الكفار مطلقاً عن دخول الحرم بهذه الآية وقد ذكرنا الكلام عليه في سورة التوبة ويؤيد إرادة الحرم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ قرأ ابن كثير بإثبات الياء في الحالين وورش وأبو بكر في الوصل فقط، وقرأ حفص سواء بالنصب على أنه مفعول ثان لجعلنا وللناس ظرف لغو أو حال من الضمير المستكن في للناس وللناس مفعول ثان والعاكف مرفوع به، وقرأ الباقون سواء بالرفع على أن العاكف مبتدأ وسواء خبره مقدم عليه أو سواء مبتدأ من قبيل الصفة والعاكف فاعله والجملة مفعول ثان لجعلناه وللناس حال من الهاء أو ظرف لغو، وجاز أن يكون للناس مفعولاً ثانياً والجملة بيان لما سبق يعني جعلناه للناس بحيث مستو فيه المقيم والبادي أي المسافر المنسوب إلى البدو، وقال في القاموس البدو والبادية والبداوة والبداة خلاف الحضر يعني ليس أحد أحق بالمنزل فيه من غيره فمن سبق إلى مكان منه لا يجوز لغيره أن يزعجه، كذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا: هما سواء في البيوت والمنازل.

وقال عبد الرحمن بن سابط كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم، كذا قال البغوي، قلت: روي أثر عمر عبد الرحمن بن عبد بن حميد بن نافع عن ابن عمر عنه وعن عمر بن الخطاب أن رجلاً قال له عند المروة يا أمير المؤمنين اقطع مكاناً لي فاعقب[1] وأعرض عنه وقال: هو حرم الله سواء العاكف فيه والباد إزالة الخفاء، وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر قال: يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث شاء، وقال عبد الرزاق عن ابن جريج كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم وأخبرني أن عمر نهى أن يبوب دور مكة لأن الحاج في عرصاتها فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو واعتذر لذلك لعمر فإن قيل صح عن عمر أنه اشترى داراً بمكة للسجن بأربعة آلاف درهم رواه البيهقي وكذا روى البيهقي عن ابن الزبير أنه اشترى حجرة سودة،

(١) هكذا في الأصل ولعله تصحيف والصواب فأعقب وأعرض.

وعن حكيم بن حزام أنه باع دار الندوة، وعن عمر أنه اشترى الدور من أهلها حتى وسع المسجد وكذلك عن عثمان، قال وكان الصحابة في رباط متوافرين ولم ينقل إنكار ذلك؟
قلت: يحمل تلك الآثار على بيع بنائها فإن البناء ملك المباني لا محالة وإنما المنهي بيع الأرض، ومن ها هنا، قال أبو حنيفة وأحمد في أصح الروايتين عنه لا يجوز بيع رباع مكة ولا إجارة دورها فإن أرض الحرم عتيق غير مملوك لأحد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣] ولا شك أن المراد بالبيت العتيق أرض الحرم كله لاختصاص أرض الحرم بذبح الهدايا والقول بأن المعنى ثم محلها إلى مكان يقرب منه البيت العتيق تكلف وتقديره بلا ضرورة، وكذا قال مالك لكن مبنى قوله إن مكة فتحت عنوة وكل بلدة فتحت عنوة فهي وقف لا يجوز بيع أراضيها، وقال الشافعي بيع دور مكة وإجارتها جائزة وهي مملوكة لأهلها وبه قال الحسن وطاوس وعمرو بن دينار وجماعة والمراد بالمسجد الحرام في الآية نفسه ومعنى الآية جعلناه للناس قبلة لصلاتهم ومنسكاً متعبداً بحيث مستوفيه العاكف والبادي في تعظيم الكعبة، وفضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف بالبيت.
قلنا: سياق الآية يقتضي اختصاص تسويته العاكف والبادي بالمسجد الحرام مع أن المساجد كلها بهذه المثابة العاكف والبادي في جميع المساجد سواء يجب على كل أحد تعظيم كل مسجد وكل مسجد يستوي فيه ثواب الصلاة والطاعة لجميع الناس لا يختلف باختلاف الحضر والسفر، قال البغوي قال مجاهد وجماعة مثل ما قال الشافعي.

قلت: بل المروي عن مجاهد مثل قول أبي حنيفة رحمه الله روى الطحاوي من طريق إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد أنه قال مكة مباح لا يحل بيع رباعها ولا إجارة بيوتها وروى عبد الرزاق من طريق إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر لا يحل بيع بيوت مكة ولا إجارتها، ومن الحجة لقولنا هذا ما رواه محمد في كتاب الآثار أخبرنا أبو حنيفة عن عبد الله بن أبي زياد عن أبي نجيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم مكة فحرام بيع رباعها وأكل ثمنها»(١) وكذا روى ابن الجوزي في التحقيق بسنده عن أبي حنيفة بذلك السند مرفوعاً بلفظ «مكة حرام وحرام رباعها حرام أجر بيوتها»(٢) قال الدارقطني وهم فيه أبو حنيفة رحمه الله والصحيح أنه موقوف دعوى الوهم على أبي حنيفة شهادة على النفي فلا يقبل وهو ثقة والرفع من الثقة مقبولة وروى محمد بذلك السند مرفوعاً «من أكل من أجور بيوت مكة شيئاً فإنما يأكل ناراً»(٣) ورواه الدارقطني بسنده عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه عن عبد الله بن باباه عن عبد بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مكة مناخ لايباع رباعها

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ٣/ ٥٧.
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣، والدارقطني في سننه ٣/ ٥٧.
(٣) أخرجه الدارقطني في سننه ٣/ ٥٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٤٦٨٤.

ولا يؤجر بيوتها»[١] قلت إسماعيل بن إبراهيم ضعفه يحيى والنسائي وأبوه إبراهيم بن مهاجر بن جابر النحلي ضعفه البخاري، وقال أبو حاتم منكر الحديث وقال ابن المديني والنسائي ليس بالقوي، لكن قال سفيان وأحمد ويحيى بن معين وابن مهدي لا بأس به، وقال أبو بكر البيهقي الصحيح أن هذا الحديث موقوف وروى ابن الجوزي بسنده عن سعيد بن منصور قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مكة حرام حرمها الله عز وجل لا يحل بيع رباعها ولا أجر بيوتها»[٢] وهذا مرسل والمرسل عندنا حجة. احتج الخصم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠] وقوله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[٣] قاله يوم فتح مكة وجه الاحتجاج أن الإضافة تدل على الملك قالوا ولو كانت الدور غير مملوكة لهم لما كانوا مظلومين في الإخراج عنها، والجواب أن الإضافة للسكنى أو للبناء يقال مسجد النبي ﷺ ومسجد بني فلان وكون الإخراج ظلماً لا يدل على أنهم، أخرجوا عن ديار مملوكة لهم لتحقق الظلم بإخراجهم عن المسجد الحرام الذي جعل الله للناس كلهم فيه سواء ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: ١١٤] وأقوى حججهم في الباب حديث أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله أين تنزل غداً في حجته؟ فقال: «هل ترك عقيل منزلاً»؟ قال: نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة، ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر»[٤] متفق عليه، وروى ابن الجوزي هذا الحديث، قال أسامة: يا رسول الله أتنزل دارك بمكة، قال: «وهل ترك عقيل من رباع أو دور»؟ قال الزهري وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ولم يرثه جعفر ولا علي شيئاً كانا مسلمين وكان عقيل وطالب كافرين يعني حتى مات أبو طالب.

قال الحافظ وفي رواية محمد بن أبي حفصة قال في آخره ويقال إن الدار التي أشار إليها النبي ﷺ كانت دار هاشم بن عبد مناف ثم صارت لعبد المطلب ابنه فقسمها بين ولده حين عمر ثم صار للنبي ﷺ حق أبيه عبد الله وفيها ولد النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ لما هاجر استولى عقيلاً وطالب على الدار كلها باعتبار ما ورثاه من أبيهما لكونهما كانا لم يسلما وباعتبار ترك النبي ﷺ حقه منها بالهجرة وقتل طالب ببدر فباع عقيل الدار كلها، وروى الفاكهاني أن عقيل لم يبع الدار وقال: إن الدار لم يزل بيد أولاد عقيل إلى أن باعوا

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ٣/ ٥٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٤٦٤٥.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٨٤، و٨٦، وأبو داود في الخراج باب ٢٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩٢، ٥٣٨.

(٤) أخرجه البخاري في الحج باب ٤٤، والمغازي باب ٤٨، والفرائض باب ٢٦، ومسلم في الفرائض حديث ١.

لمحمد بن يوسف أخي الحجاج بمائة ألف دينار، والجواب أن بيع عقيل الدار كافراً لا يكون حجة على جواز البيع، وتأويل الحديث عندي أن الدار لعلها كانت مشغولة بحوائج عقيل إن لم يبع وبحوائج المشتري إن باع فالنبي ﷺ يجدها خالية يسكن فيها ولذا، قال: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً» أي منزلاً خالياً، فحينئذ قول الراوي كان عقيل ورث أبا طالب وشبهه مبني على زعمه وقوله ﷺ: «لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر» لعله واقعة حال آخر فضم الراوي الحديثين زعماً منه أن قوله ﷺ: «لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر» هو الباعث على قوله ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟» فحينئذ قوله ﷺ: «لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر» كلام مستأنف فلا حجة في الحديث على كون رباع مكة مملوكة، ولو سلمنا أن الحديث تدل على كون رباع مكة جائز البيع فنقول إن ما ذكرنا من الأحاديث التي تدل على حرمة بيعها نص في الحرمة يدل بالعبارة وهذا الحديث يدل على إباحة البيع بالإشارة فدلالة ما روينا أولى أقوى، ثم لو سلمنا التعارض فعند التعارض يجب تقديم المحرم على المبيح ولذلك قال أبو حنيفة بالكراهة تحريماً على أصله ولو كان حصة عبد الله للنبي ﷺ فلا يتصور أن يصل تلك الحصة إلى عقيل إلا بالاستيلاء كما هو مذهب أبي حنيفة أن الكافر يملك مال المسلم بالاستيلاء ولم يقل به الشافعي، ولو ملك بالاستيلاء فلا معنى لقول رسول الله ﷺ في هذا الحديث «لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر» ولو كانت كلها لأبي طالب فلا يتصور كونها للنبي ﷺ ولو فرضنا كون أبي طالب مسلماً لأنه ﷺ لم يكن من ورثة أبي طالب فعلى كل من التقادير يجب صرف قوله ﷺ: «هل ترك لنا عقيل منزلاً» عن ظاهره فما ذكرت من التأويل أولى وكيف لا يكون التأويل ما ذكرت فإنا لو سلمنا أن علياً وجعفراً لم يرثا أبا طالب وإنما ورثه عقيل فالنبي ﷺ كان له أن ينزل في علي وجعفر عارية كما كان له أن ينزل في ملك عقيل عارية.

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ أي في المسجد الحرام سواء كان المراد منه المسجد أو الحرم كله على القولين ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ وقيل: إلحاد في محل النصب على المفعولية والباء زائدة كما قوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقول الأعمش ضمنت برزق عيالنا أرماحنا، وبظلم ظرف لغو متعلق بيرد أو ظرف مستقر صفة لإلحاد أو حال من فاعل يرد، وقيل مفعول يرد محذوف يتناول كل متناول تقديره من يرد قولاً أو فعلاً، فعلى هذا قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترادفان، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له أي يلحد بسبب الظلم أي بأن ارتكب منهياً ولو شتم الخادم ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جواب لمن روى البخاري في الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرىء بغير حق ليهريق دمه»[(١)] وروى الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل ورزين في كتابه عن عائشة

(١) أخرجه البخاري في الديات باب ٩.

قالت قال رسول الله ﷺ: «ستة لعنتهم لعنهم الله وكل نبي مجاب الزائد في كتاب والمكذب بقدر الله والمتسلط بالجبروت فيعز بذلك من أذل الله ويذل بذلك من أعز الله والمستحل لحرم الله والمستحل من عترتي ما حرم الله والتارك لسنتي»(١) وروى الحاكم عن علي مرفوعاً نحوه، وهذان الحديثان يشعران بأن المراد بالمسجد الحرام الحرم فإن استحلال الحرم والإلحاد فيه حرام مسجداً كان أو غيره، والإلحاد في اللغة الميل والعدول عن قصد السبيل والمراد ها هنا على قول مجاهد وقتادة هو الشرك وعبادة غير الله، وقال قوم هو كل شيء كان منهياً عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم، وقال عطاء هو دخول الحرم غير محرم أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم من قتل صيد أو قطع شجر، وقال ابن عباس هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك، وهذا معنى قول الضحاك، وعن مجاهد تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال حبيب بن أبي ثابت احتكار الطعام بمكة، وقال عبد الله بن مسعود في قوله من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم قالوا إن رجلاً هم بخطيئة لم يكتب عليه ما لم يعملها ولو أن رجلاً هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم، قال السدي إلا أن يتوب، وروي عن عبد الله بن عمرو أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الآخر فسئل عن ذلك فقال كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله وبلى والله.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي عيناً وجعلنا له ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ مبوّءاً أي منزلاً كذا قال الزجاج، وقيل اللام زائدة ومكان ظرف والمعنى وإذ أنزلناه فيه، قال في القاموس بوأه منزلاً وفيه أنزله والمباءة المنزل وإنما ذكر مكان البيت لأن الكعبة رفعت إلى السماء من الطوفان ثم لما أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ببناء البيت لم يدر أين يبني فبعث الله ريحاً خجوجاً(٢) فنكست له ما حول البيت عن الأساس كذا قال البغوي، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن السدي بعث الله ريحاً يقال لها ريح الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فنكست لها ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، وقال البغوي قال الكلبي بعث الله سبحانه بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابن علي قدري فبنى عليه ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ أن مصدرية متعلق بفعل محذوف أي عهدنا إلى إبراهيم أن لا تشرك أو المعنى فعلنا ذلك لأن لا تشرك أو مفسرة لبوأنا لأجل تضمنه معنى تعبد إذ التبوية لأجل التعبد والتعبد تشتمل الأمر والنهي فهو بمعنى القول بي أي بعبادتي ﴿شَيْئًا وَطَهِّرْ﴾ من الأوثان والأقذار ﴿بَيْتِيَ﴾ قرأ نافع وحفص وهشام بفتح الياء والباقون بإسكانها أضاف البيت إلى نفسه تشريفاً ولكونه مهبطاً لتجليات مخصوصة به، قال المجدد

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر باب ١٧.

(٢) خجوجاً أي شديدة الروح وغير استواء.

للألف الثاني رضي الله عنه إن الكعبة بيت الله مع كونها متجسداً مرئياً لها شبه بما لا كيف له لأن جدرانها وتراب أرضه إلى الثرى ليست قبلة، ألا ترى أنه لو أزيل عن ذلك المكان جدرانها وترابها ونقلت إلى مكان آخر فالقبلة ذلك المكان لا المكان الذي نقلت إليه جدرانها وترابها ولو بني ذلك المكان بجدران أخر ونقل إلى ذلك ونقل إلى ذلك المكان تراب آخر فهو كذلك قبلة فعلم أن القبلة أمر لا كيف لها وينهبط هناك تجليات غير متكيفة يدركها من يدركها ﴿لِلطَّآيِفِينَ﴾ أي الذين يطوفون حوله ﴿وَٱلْقَآيِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ جمع راكع وساجد ذكرهما بغير العاطف، فإن المراد به المصلين ولأن الركوع بلا سجود لم يعرف في الشرع عبادة، وعبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء الطهارة، وقالت الروافض إن الطهارة في الصلاة إنما يشترط في السجود لموضع الجبهة لا غير.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي أعلمهم وناد فيهم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ الظاهر أنه عطف على طهر ذكر البغوي وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه أن إبراهيم عليه السلام حين أمر به قال وما يبلغ صوتي؟ قال الله تعالى عليك الأذان وعلينا الإبلاغ، فقام إبراهيم على المقام فارتفع المقام حتى صار كأطول الجبال فأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد بنى بيتاً كتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من يحج من أصل الإماء وأرحام الأمهات لبيك اللهم لبيك، قال ابن عباس فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجاً، وروي أن إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى وقال ابن عباس عنى بالناس في هذه الآية أهل القبلة، قال البغوي وزعم الحسن أن قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ كلام مستأنف والمخاطب النبي ﷺ أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا»(١) رواه مسلم وروى أحمد والنسائي والدارمي عن ابن عباس نحوه ﴿يَأْتُوكَ﴾ يعني يأتون حاجين لندائك بالحج مجزوم في جواب الأمر والمعنى أن تؤذن يأتوك ﴿رِجَالًا﴾ أي مشاة على أرجلهم جمع راجل كقائم وقيام ونائم ونيام وهذا إخبار عن الواقع وليس فيه إيجاب الحج على من لم يجد الراحلة، فليس فيه حجة لداود ولا لمالك وقد ذكرنا خلافهما في اشتراط الزاد والراحلة في مسألة كون الحج فريضة وما يشترط للفرضية في سورة آل عمران في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

مسألة: الأفضل عند أبي حنيفة رحمه الله لمن يقدر على المشي أن يحج ماشياً لأن الله سبحانه قد ذكر الإتيان راجلاً على الإتيان راكباً، ولأن المشقة في المشي أشد والخضوع والتواضع فيه أكثر لأنه ﷺ أوجب على من نذر الحج ماشياً والهدي بفواته فعلم أن المشي في الحج طاعة وأدناها الندب، وقال بعض العلماء الحج راكباً أفضل لأن بالمشي في الحج يختل كثير من العبادات ولا رهبانية في الدين ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل

(١) أخرجه مسلم في الحج حديث ٤١٢، والنسائي في المناسك باب ١، وأحمد في المسند ٢/٥٠٨.

ضامر أي بعير مهزول أتعبه بعد السفر فصار مهزولاً، أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كانوا لا يركبون فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فأمرهم بالزاد ورخص لهم في الركوب والمتجر ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لضامر محمولة على معناه حيث أضيف إليه لفظ كل أو صفة لكل والتأنيث حينئذ أيضاً بالنظر إلى المعنى، يعني يأتوك على كل ضامر يأتين إلى مكة مركوب لأن يحج ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ أي طريق ﴿عَمِيقٍ﴾ أي بعيد ﴿لِّيَشْهَدُوا﴾ متعلق بأذن أو بيأتوك أي ليحضروا ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ دينية أو دنيوية وتنكيرها لأن المراد بها نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة، قال محمد بن علي بن الحسين بن علي الباقر عليه السلام وسعيد بن المسيب المراد بها العفو والمغفرة وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[1] متفق عليه، وقال سعيد بن جبير والمراد بها التجارة وهي رواية عن زيد عن ابن عباس حيث قال الأسواق وقال مجاهد التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ كنى بالذكر عن الذبح والنحر لاشتراطه في حل الذبائح وتنبيهاً على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ يعني عشر ذي الحجة وهو قول أكثر المفسرين، قيل لها معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل كون وقت الحج في آخرها، وروي عن علي رضي الله عنه أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق، وقال مقاتل المعلومات التشريق ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني الهدايا والضحايا واجبة كانت أو مستحبة لإطلاق النص، علق الفعل بالمرزوق بينه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر، احتج الشافعي بهذه الآية على أنه لا يجوز ذبح شيء من الهدايا غير دم الإحصار إلا يوم النحر وثلاثة أيام بعده، قلنا: هذا القيد خرجت مخرج العادة ونحن لا نقول بالمفهوم وفي تفسير الآية اختلاف كما ذكرنا، والحجة لنا على عدم اشتراط يوم النحر وأيام التشريق في هدى التطوع والنذر والكفارة ما صح أنه ﷺ ساق عام الحديبية سبعين بدنة يريد العمرة وكان ذلك في ذي القعدة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد المقام بمكة إلى يوم النحر، وهذا صريح في جواز نحر هدي التطوع في ذي القعدة وإذا ثبت كون النحر فيما عدا يوم النحر طاعة وكل طاعة مقصورة يكون واجباً بالنذر فثبت جواز نحر الهدي المنذور وأيضاً في غير أيام النحر وكذا دم جزاء الصيد والكفارات لا يختص عندنا بيوم النحر لأن الكفارة، لا يكون إلا عبادة فإذا ثبت كونه عبادة جاز جعله كفارة، وقد قال الله تعالى في جزاء الصيد ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] من غير تقييد بيوم النحر ولا يجوز قيد في كتاب الله إذ هو في معنى النسخ، لكن دم القرآن والتمتع مختصان بيوم النحر وكذا دم الإحصار عند أبي حنيفة خلافاً لأبي يوسف ومحمد وقد مرت المسألتين في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٤، ومسلم في الحج حديث ٤٣٨.

أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾ [البقرة: ١٩٦] ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ أمر استحباب وليس للوجوب إجماعاً، وقال الشافعي أمر بالإباحة وإنما قال الله تعالى ذلك لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم.

مسألة: اتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعاً لا يجوز للمهدي أن يأكل منه لحديث طويل لجابر بن عبد الله في قصة الوداع وفيه «وقدم علي ببدن من اليمن وساق رسول الله ﷺ مائة بدنة فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بدنة بيده ثم أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه في هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها»(١) رواه مسلم، وهذا الحديث دليل على استحباب الأكل من الهدي إذ لو لم يكن الأكل من هديه مستحباً لما أمر أن يجعل من كل بدنة بضعة بل يكفيه لحم من واحدة.

مسألة: واتفقوا على عدم جواز الأكل من جزاء الصيد ولعله لأجل أن جزاء الصيد بدل من الصيد قال الله تعالى: ﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥] وقد ذكرنا بيان المماثلة من حيث الصورة أو من حيث القيمة في تفسير سورة المائدة، ولما كان الصيد عليه حراماً كان بدله حراماً مثله قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم الشحوم أجملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه»(٢) متفق عليه من حديث جابر، وكذا لا يجوز الأكل من الدم المنذور عند الجمهور خلافاً لمالك، وكذا لا يجوز عند الجمهور الأكل من الدماء الواجبة بالجنايات والواجب بإفساد الحج، وفي رواية عن أحمد وإليه ذهب إسحاق أنه لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك كذا ذكر البخاري عن ابن عمر معلقاً، والحجة لتحريم الأكل من دماء النذر وكفارات الجنايات القياس على حرمة الأكل من جزاء الصيد وهي مجمع عليها والجامع أنها دماء كفارات فلا بد من تسليمها بجميع أجزائها إلى مستحقها لكن قياس المنذور على جزاء الصيد غير صحيح إلا أن يقال إن النذر يقتضي تسليم المنذور بجميع أجزائه.

مسألة: واتفقوا على جواز الأكل من الأضاحي، أما على قول أبي حنيفة فلأنه دم نسك وقد صح قوله ﷺ في الضحايا «كلوا وأطعموا وادخروا»(٣) متفق عليه من حديث سلمة ابن الأكوع، وأما عند الشافعي وغيره فلأنه دم تطوع مسنون وقد ذكرنا الإجماع على جواز الأكل من دماء التطوع.

مسألة: واختلفوا في دم التمتع والقران؟ فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يجوز الأكل منه لأنه دم نسك وقد ذكرنا حديث جابر أنه ﷺ أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت

---

(١) أخرجه مسلم في الحج حديث ١٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع باب ١١٢، ومسلم في المساقاة حديث ٧١، ٧٢.

(٣) أخرجه بلفظ: «كلوا وأطعموا واحسبوا وادخروا»، البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٢٩٢، وابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٢٤.

فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، واستدل ابن الجوزي لما روى عبد الرحمن بن أبي حاتم في سننه من حديث علي، قال أمرني رسول الله ﷺ بهدي التمتع أن أتصدق بلحومها سوى ما نأكل وهذا صريح في الدلالة، وقال الشافعي لا يجوز الأكل من دم التمتع والقران ومن شيء من دماء الواجبة سواء أوجبه على نفسه بالنذر أو وجب بسبب غير ذلك محتجاً بحديث ناحية الخزاعي وكان صاحب بدن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية وحديث ابن عباس وحديث ذؤيب بن حلمة، وقد ذكرنا الأحاديث الثلاثة والجواب عنها في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] قلت: والظاهر أن الآية في جواز الأكل من الهدايا واجبة كانت الهدايا كالتمتع والقران أو نافلة كما أشرنا إليه نظراً إلى إطلاق اللفظ وخص منها المنذور بالإجماع أو يقال الكلام في الحج والمنذور ليس من باب الحج في شيء، وأما جزاء الصيد ودماء الكفارات فإنها وإن كانت من باب الحج لكن الظاهر من حال المسلم الاجتناب من المحرمات فهي غير مرادة بهذه الآية إذ المأمور به الحج المبرور والله أعلم.

﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ﴾ أي الذي اشتد بؤسه والبؤس شدة الفقر ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ بدل من الأول أو عطف بيان له.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ﴾ قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر وقنبل بكسر اللام والباقون بإسكانها ﴿تَفَثَهُمْ﴾ أي يزيلوا وسخهم بحلق الرأس وقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال الأول وذلك قبل طواف الزيارة ويحل على المحرم بعد الحلق كل شيء إلا النساء وتحل النساء بعد الطواف كذا قال المفسرون، والقضاء في الأصل بمعنى الفعل والأداء يقال قضى دينه، وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] و﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] ويستلزمه الفراغ منه كما أيد بقوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨] وفي إزالة الوسخ الفراغ منه، وقال البغوي قال ابن عمر وابن عباس قضاء التفث مناسك الحج كلها يعني أداء مناسك الحج، وقال مجاهد هو يعني التفث مناسك الحج وأخذ الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقلم الأظفار، وقيل: التفث رمي الجمار فالمعنى فعل هذه الأمور وأداها، قال الزجاج لا نعرف التفث ومعناه إلا من القرآن يعني هذا اللفظ غير مستعمل في كلام العرب غالباً ولفظه ثم يوجب تأخير الحلق والطواف من الذبح فهو حجة لأبي حنيفة رحمه الله حيث قال: الترتيب بين الرمي ونحر القارن والحلق واجب وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والحسن والنخعي، فمن ترك الترتيب عمداً أو خطأ يجب عليه الدم لحديث ابن عباس من «قدم شيئاً من نسكه أو أخره فليهرق دماً» رواه ابن أبي شيبة موقوفاً والموقوف له حكم المرفوع لأن القضاء بمثل غير معقول لا يدرك بالرأي.

فإن قيل: في سنده إبراهيم بن مهاجر قال أبو حاتم منكر الحديث، وقال ابن المديني والنسائي ليس بالقوي وقال ابن عدي يكتب حديثه في الضعفاء؟ قلنا: إنه صدوق من كبار التابعين أخرج له مسلم متابعه وقال سفيان وأحمد وابن مهدي لا بأس به ثم الحديث ليس منحصراً عليه بل أخرجه الطحاوي من غير طريقه أيضاً، قال: ثنا وهيب عن أيوب عن سعيد بن جبير عنه مثله. وقال أحمد الترتيب واجب يجب عليه الدم بتركه عمداً لكن يسقط وجوب الترتيب بالجهل والنسيان كذا روى الأثرم عنه وكذا يشعر كلام البخاري وهو المختار عندي للفتوى. وقال الشافعي وكثير من السلف الترتيب سنة وليس بواجب، وقال مالك تقديم الحلق على الرمي والذبح لا يجوز للشافعي قول مثله. احتج الشافعي بحديث ابن عباس أن النبي ﷺ قيل له في الذبح والرمي والحلق والتقديم والتأخير فقال: «لا حرج» متفق عليه، وفي رواية للبخاري قال كان النبي ﷺ يسأل يوم النحر بمنى فيقول: «لا حرج» فسأل رجل فقال: حلقت قبل أن أذبح؟ قال: «اذبح ولا حرج» قال رميت بعدما أمسيت؟ فقال: لا حرج» في رواية للبخاري أتى رجل إلى النبي ﷺ قال: زرت قبل أن أرمي قال: «لا حرج» قال: ذبحت قبل أن أرمي؟ قال: «لا حرج»[1] وروى الطبراني بلفظ أن رجلاً قال: يا رسول الله طفت بالبيت قبل أن أرمي؟ قال: «ارم ولا حرج» وقد ثبت بحديث علي رضي الله عنه التصريح بالسؤال بالطواف قبل الذبح أيضاً رواه أحمد. وجه الاحتجاج للشافعي أنه لو كان الترتيب واجباً لأمرهم النبي ﷺ بإعادة ما قدم من المناسك لكون الوقت وقت أداء المناسك يوم النحر أو أمرهم النبي ﷺ بإراقة الدم ولو أمرهم بشيء من ذلك لنقل إلينا لاشتراك خلق كثير في الواقعة وحرص كل منهم على حفظ مناسك وتبليغها فلما لم ينقل علم أنه لم يأمر ولما لم يأمر علم أنه لم يجب لأنه وقت الحاجة وترك تبليغ الواجب مع الحاجة محال فظهر أنه ليس بواجب وما ليس بواجب لا بأس تركه عمداً، قال أبو حنيفة من رواة هذه القصة ابن عباس رضي الله عنه وقد قال ابن عباس من قدم شيئاً من نسكه أو أخره فليهرق لذلك دماً وقول الراوي على خلاف روايته جرح في الحديث لدلالته على أن الراوي اطلع على الناسخ، لكن هذا القول لا ينتهض دفعاً لقول الشافعي إذ عنده قول الراوي على خلاف روايته ليس بحرج في الحديث بل على أصل أبي حنيفة أيضاً لا ينتهض دفعاً لأن قول الراوي على خلاف روايته إنما يكون جرحاً إذا كان الموقوف في قوة المرفوع حتى يكون بمنزلة الناسخ والأمر ليس كذلك. قلت: لكن الجمع بين الأحاديث متى أمكن أولى من ترك العمل على بعضها فنحمل أثر ابن عباس وهو في حكم المرفوع وقد بلغ بالاعتصام درجة الحسن على ترك الترتيب عمداً، وما احتج به الشافعي على الجهل والنسيان فقلنا الترتيب واجب لكن يسقط بالجهل والنسيان كالترتيب في الفوائت من الصلوات واجب عند أبي حنيفة ويسقط بالنسيان والإمساك في الصوم واجب ويسقط بالنسيان وتكبيرات التشريق واجبة تسقط بالنسيان.

---

(١) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٨٧، والنسائي في الحج باب ٢٢٤، وابن ماجه في المناسك باب ٧٤، والدارمي في المناسك باب ٥٠.

مسألة: الحلق من واجبات الإحرام ليس بركن عند أبي حنيفة رحمه الله، وقال الشافعي رحمه الله وبعض العلماء إنه ركن من أركان الحج وفي رواية ضعيفة عن الشافعي وهي رواية عن أبي يوسف وعن أحمد وبه قال بعض المالكية إنه ليس بنسك بل أمر مباح، وحجتنا وحجة الشافعي هذه الآية فإنه أمر بقضاء التفث والمراد به الحلق والأمر للوجوب فكان ركناً عنده، قلنا: ثبوته وإن كان بالآية القطعية لكن دلالة الآية عليه إنما هي بتأويل ظني لاختلاف في تفسير الآية فلا يوجب القطع، وأيضاً قال الشافعي الحلق تحلل من الإحرام والإحرام ركن للحج فكذا التحلل عنه كالسلام في الصلاة فإنه ركن عند الشافعي، قلنا: كون الإحرام شرطاً وركناً للحج لا يستلزم كون التحلل عنه كذلك وكون السلام ركناً ممنوع عندنا وأيضاً هذا قياس مع الفارق لأن النبي ﷺ جعل السلام انتهاء لتحريمة الصلاة حيث قال: «تحليلها التسليم»(١) فلو لم يوجد التسليم ويتأتى على التحريم ما ينافيها بطلت التحريمة وقد كانت التحريمة شرطاً للصلاة وركناً لها على اختلاف الأقوال فبطلت الصلاة ببطلان التحريمة وأما إحرام الحج فلا يبطل. . . بالمحظورات كما يبطل إحرام الصلاة، ألا ترى أن الجماع قبل الوقوف بعرفة يوجب الفساد حتى يجب عليه القضاء ولا يوجب البطلان حتى يجب المضي في الفاسد.

مسألة: أول وقت الحلق الرمي من طلوع الفجر الثاني يوم النحر وعند الأكثر بعد نصف الليل من ليلة النحر، لنا حديث عروة بن مضرس فيه قال رسول الله ﷺ: «من شهد معنا هذا الصلاة صلاة الفجر بمزدلفة وقد كان وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه»(٢) رواه أصحاب السنن الأربع والحاكم وقال صحيح على شرط كافة أهل الحديث ولم يخرجاه على أصلهما لأن عروة بن مضرس لم يرو عنه إلا الشعبي وقد وجدنا عروة بن الزبير قد حدث عنه، واختلفوا في آخر وقته؟ فقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد وأكثر العلماء لا آخر لوقته، واختلفوا أيضاً في أن الحرم هل هو شرط للحلق؟ فقال أبو يوسف وزفر وأكثر العلماء ليس بشرط، وقال أبو حنيفة للحلق اعتباران أحدهما أنه محل للإحرام وثانيهما أنه نسك من مناسك الحج فباعتبار أنه محلل لا آخر لوقته ولا يختص أيضاً بمكان وباعتبار أنه نسك يختص بيوم النحر وبالحرم لأنه كونه عبادة لا يدرك بالرأي فيراعى خصوصياته الواردة من الشارع وهو الزمان والمكان، وأما كونه محللاً فأمر يدرك بالرأي لأن المحلل إنما يكون ما يكون جناية في غير أوانه وهو كذلك، فإن وجد الحلق بعد وقته أو في غير الحرم يكون

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة باب ٣١، والصلاة باب ٧٣، والترمذي في الطهارة باب ٣، والصلاة باب ٦٢، وابن ماجه في الطهارة باب ٣، والدارمي في الوضوء باب ٢٢، وأحمد في المسند ١/١٢٣، ١٢٩.

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٦٨، والترمذي في الحج باب ٥٧، والنسائي في الحج باب ٢١١، وابن ماجه في المناسك باب ٥٧، وأحمد في المسند ٤/١٥، ٢٦١، ٢٦٢.

محللاً من إحرامه ولا يكون عبادة فيلزم الدم لترك نسك واجب. واحتج أبو يوسف بأن النبي ﷺ قال: «اذبح ولا حرج» لمن قال حلقت قبل أن أذبح وأنه ﷺ حلق عام الحديبية بالحديبية وهي من الحل، قلنا قوله ﷺ: «اذبح ولا حرج» لمن قال حلقت قبل أن أذبح لبيان سقوط الترتيب لعلة الجهل والنسيان لا لتعميم الزمان لأن يوم النحر كان موجوداً عند السؤال لأنه كان بعد الظهر يوم النحر، وحلق النبي ﷺ بالحديبية لم يكن عند أبي حنيفة نسكاً بل ليعرف استحكام الانصراف حيث لا يجب الحلق على المحصر عند أبي حنيفة، والجواب عندي أن المحصر معذور لا يقاس عليه غيره ألا ترى أن الحلق قبل دخول وقته جائز للمحصر لا لغيره إجماعاً فكذا الحلق في غير مكان. والحجة لنا في اشتراط الحرم للحلق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣] وسيجيء تفسيره وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] حيث جعل الحلق والتقصير من خواص دخول المسجد، والتوارث فإن النبي ﷺ ومن بعده توارثوا على الحلق في الحج بمنى والعمرة عند مروة وهما من الحرم.

مسألة: واختلفوا في القدر الواجب من الحلق والتقصير؟ فقال مالك وأحمد لا يتحلل ما لم يحلق أو يقصر كل الرأس، وقال أبو حنيفة حلق ربع الرأس أو تقصيره يكفيه، وقال الشافعي يكفيه إزالة شعرة أو ثلاث شعرات، قال الشافعي هذه الآية لإيجاب قضاء التفث وليس الواجب منه الاستقصاء إجماعاً حيث يجوز التقصير وفي التقصير قضاء بعض التفث ولا شك أن قضاء بعض التفث يحصل بإزالة شعرة أو ثلاث شعرات، وقال أبو حنيفة لا يقال في العرب في من أزال شعرة أو ثلاثاً أنه حلق رأسه أو قضى تفثه فلا بد من قدر معتد به شرعاً وقد أقام ربع الرأس في الوضوء مقام الكل حيث أوجب مسح ربع الرأس وأوجب في سائر الأعضاء غسلها بتمامها كما ذكرنا تحقيقه في سورة المائدة في آية الوضوء فقلنا ها هنا بحلق ربع الرأس، وقال مالك وأحمد لا نسلم ما قال أبو حنيفة من إقامة ربع الرأس مقام الكل فإن الفريضة في الوضوء عندهم مسح كل الرأس ولم يرو عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة أنه اقتصر على حلق بعض الرأس أو تقصيره.

مسألة: الحلق أفضل من التقصير إجماعاً لحديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ارحم المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: «اللهم ارحم المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله قال: «اللهم ارحم المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله قال: «والمقصرين»[١] في رواية قال في الرابعة والمقصرين، وحديث أبي هرير نحوه والحديثان في الصحيحين ﴿وَلْيُوفُواْ﴾ قرأ ابن ذكوان بكسر اللام والباقون بإسكانها، وقرأ أبو بكر عن عاصم ليوفوا بتشديد الفاء من التفعيل والباقون بالتخفيف من الأفعال ﴿نُذُورَهُمْ﴾ قيل: أراد به الخروج عما وجب عليه نذراً ولم ينذر فإن العرب يقول لمن خرج

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ١٢٧، ومسلم في الحج حديث ٣١٦ ـ ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١.

عن الواجب عليه وفي بنذره، والجمهور على أن المراد بالنذر ما أوجب إنسان على نفسه مما ليس بواجب عليه وهو على نوعين منجز كأن يقول لله عليَّ أن أصلي ركعتين ومعلق بشرط، ثم المعلق بالشرط إن كان الشرط مرضياً كأن قال إن شفى الله مريضي أو قدم غائبي فعلي أن أصوم يسمى نذر تردد وإن كان الشرط مكروهاً كأن قال إن كلمت زيداً فعليَّ أن أحج يسمى نذر لجاج، وإذ علمت أن النذر إيجاب ما ليس بواجب عليه فإيجاب ما هو واجب من الله تعالى إخبار محض كمن قال لله عليَّ أن أصوم رمضان أو أصلي الظهر فلا يترتب عليه شيء أصلاً ولا يتغير وصف الواجب وقدره بتغير العبد. فلو قال لله عليّ أن أؤدي زكاة كل مائتي درهم عشرة لا يلزمه إلا خمسة كمن قال لله عليَّ أن أصلي الظهر ست ركعات، وكذا لو قال لله على أن أصلي كل فريضة بوضوء جديد أو بجماعة لأن الله سبحانه أجزى الصلاة بغير هذه القيود فلو قلنا بعدم الإجزاء لعزم نسخ حكم من أحكام الله تعالى ولو قلنا بإجزاء الصلاة بدونها فلا فائدة في القول بإيجاب هذه الأمور إذ لا يمكن قضائها بمثلها لعدم استقلالها وقضائها بمثل غير معقول يتوقف على ثبوتها من الشرع ولم يثبت، وهذا معنى قولهم يشترط للوجوب بالنذر كونه طاعة مقصودة مستقلة بنفسها وهذا بخلاف من نذر أن يحج ماشياً، فإن قضاء المشي بإراقة الدم عرف من الشرع لكن ما ذكرنا يشكل فيمن نذر أن يؤدي زكاة كل مائتي درهم عشرة حيث يمكن إيجاب خمسة زائدة على الخمسة التي وجبت بإيجاب الله تعالى من غير لزوم نسخ حكم من الأحكام والله أعلم.

ثم اعلم أن ما ليس بواجب فهو على ثلاثة أقسام إما طاعة وإما معصية وإما أمر مباح ليس فيه معنى الطاعة ولا العصيان فالقسم الأول أي النذر بالطاعة يجب الوفاء به إجماعاً وهو المأمور به بهذه الآية فقيل هو ليس بفرض على أصل أبي حنيفة بثبوته بهذه الآية وهي عامة خص منها البعض فصارت ظنية الدلالة، وقيل هو فرض على أصله لما انعقد عليه الإجماع فصار قطعياً في مقدار ما انعقد عليه الإجماع، ثم النذر بالطاعة إن كان منجزاً لا يجوز العدول عنه إلى الكفارة إجماعاً إلا أن يكون بما لا يطيقه حيث، قيل فيه كفارة يمين، وإن كان معلقاً بشرط فوجد الشرط فكذا عند أبي حنيفة ومالك وأكثر العلماء لأن المعلق بالشرط كالمنجز عنده فصار كأنه قال عند وجود الشرط لله عليّ كذا، وروي عن أبي حنيفة أنه رجع عنه قبل موته بسبعة أيام فقال إذا كان معلقاً بالشرط فهو مخير بين فعله بعينه وبين كفارة يمين وهو قول محمد. فإذا قال إن فعلت كذا فعليّ حجة أو صوم سنة إن شاء وفى بنذره وإن شاء كفر فإن كان فقيراً صار مخيراً بين صوم سنة وصوم ثلاثة أيام والأول ظاهر المذهب والتخيير عن أبي حنيفة في النوادر، وجه الظاهر هذه الآية والأحاديث الواردة، ووجه رواية النوادر ما في صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر عنه ﷺ قال: «كفارة النذر كفارة اليمين»(١) وهو يقتضي أن يسقط النذر بالكفارة مطلقاً فيتعارض النصوص فيحمل

---

(١) أخرجه مسلم في النذر حديث ١٢، وأبو داود في الأيمان باب ٢٥، والترمذي في النذور باب ٤، =

مقتضى الإيفاء بعينه على المنجز ومقتضى سقوطه بالكفارة على المعلق، ووجه الفرق أن المعلق منتف في الحال فالنذر فيه معدوم فيصير كاليمين في أن سبب الإيجاب وهو الحنث منتف حال التكلم فيلحق به بخلاف النذر المنجز لأنه نذر ثابت في وقته فيعمل فيه حديث الإيفاء والمختار عند صاحب الهداية والمحققين من العلماء الحنفية أن المراد بالمعلق الذي يتخير فيه الناذر نذر اللجاج، فإنه لا يريد وجود الشرط فلا يريد وجوب النذر بل جعله مانعاً من فعل الشرط فإن الإنسان لا يريد إيجاب العبادات دائماً وإن كانت مجلبة للثواب مخافة أن يثقل عليه فيتعرض للعقاب، ولهذا صح عنه أنه ﷺ نهى عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير»[1] لاسيما إذا كان المنذور عبادة شاقة كالحج وصوم سنة، وأما نذر التردد فلا يجزئه إلا فعل عين المنذور به لأنه إذا أراد وجود الشرط أراد وجود النذر فكان المعلق في معنى المنجز فيندرج في حكمه وهو وجوب الإيفاء وعدم جواز العدول عنه إلى الكفارة، فصار مجمل ما يقتضي الإيفاء المنجز ونذر التردد ومجمل ما يقتضي إجزاء الكفار نذر اللجاج ومذهب أحمد فيه هكذا التفصيل الذي اختاره صاحب الهداية، وهو أظهر أقوال الشافعي كذا في المنهاج، وفي رواية عنها نذر اللجاج يوجب الكفارة لا غير وفي قول الشافعي فيه إيفاء لا غير.

مسألة: يشترط للوجوب بالنذر عند أبي حنيفة أن يكون من جنسه واجب بإيجاب الله تعالى، وفي المنهاج للشافعي أن الصحيح عند الشافعي انعقاد بكل طاعة وإن لم يكن من جنسه واجب بإيجاب الله كعيادة المريض وتشييع الجنازة والسلام، قلت: ويرد على قول أبي حنيفة أن الاعتكاف يجب بالنذر إجماعاً وليس من جنسه واجب بإيجاب الله وكون الصوم شرطاً للاعتكاف ممنوع ولو سلمنا فكون بعض شرائطه من جنس ما وجب بإيجاب الله سبباً للزومه بالنذر يقتضي لزوم كل قربة مقصودة وغير مقصودة بالنذر إذ كل قربة مشروطة بالإسلام والإخلاص وهما فريضتان واجبتان بإيجاب الله تعالى، ولو كان وجوب الاعتكاف بالنذر تبعاً لوجوب الصوم بالنذر فمع كونه قلب الموضوع لزم أن لا يجب الاعتكاف لو نذر أن يعتكف في رمضان والله أعلم.

مسألة: وإذا فات الوفاء بنذر الطاعة يجب عليه القضاء عند الجمهور وهل يجب عليه كفارة يمين أيضاً أو لا؟ فقال سفيان الثوري يجب عليه القضاء والكفارة جميعاً، وقال أبو حنيفة إن لم ينو اليمين وتكلم بصيغة النذر سواء نوى النذر أو لا يجب عليه القضاء دون الكفارة وإن نوى اليمين مع نفي النذر يجب عليه الكفارة دون القضاء وإن نوى يميناً ولم يخطر بباله النذر أصلاً أو نوى نذراً ويميناً يجب عليه القضاء والكفارة جميعاً، وقال أبو يوسف إنه يمين في الأول حتى يجب عليه الكفارة فقط دون القضاء حيث نوى المجاز ونذر

= والنسائي في الأيمان باب ٤١، وأحمد في المسند ١٤٦، ١٤٧.

(١) أخرجه البخاري في القدر باب ٦، والأيمان باب ٢٦، ومسلم في النذر حديث ٤، ٦.

في الثاني فيجب عليه القضاء فقط دون الكفارة لترجح الحقيقة على المجاز عند إرادتهما وامتناع الجمع بين الحقيقة والمجاز، وجه قول سفيان إنه نذر بصيغة لا يحتاج إلى النية ولا ينتفي بالنفي لكونه إنشاء كالنكاح والطلاق والرجعة والإعتاق، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة»[١] أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وفي مصنف عبد الرزاق من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلق وهو لاعب فطلاقه جائز ومن أعتق وهو لاعب فعتقه جائز»[٢] وروى ابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة مرفوعاً قال: «ثلاث ليس فيهن لعب من تكلم بشيء منهن لاعباً فقد وجب عليه الطلاق والعتاق والنكاح»[٣] أخرج عبد الرزاق عن عمر وعلي موقوفاً أنهما قالا: ثلاث لا لعب فيهن النكاح والطلاق والعتاق، وفي رواية عنهما أربع وزاد والنذر ويمين بموجبه لأن إيجاب ما ليس بواجب يستلزم تحريم ما ليس بحرام يمين حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى قوله: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التحريم: ٢] فلا يحتاج كونه يميناً أيضاً إلى النية ولا ينتفي بالنفي كشراء القريب عتق بموجبه لا يحتاج إلى النية ولا ينتفي بالنفي، ووجه قول أبي حنيفة أن تحريم ما ليس بحرام ليس بيمين على الإطلاق ألا ترى أن الطلاق والعتاق والبيع ونحو ذلك يستلزم تحريم ما ليس بحرام وهي الزوجة والأمة وليس شيء منها يميناً بل إذا كان التحريم قصدياً منوياً باليمين كتحريم مارية أو العسل ولا يكون التزاماً فحينئذ يكون يميناً وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إنما هو في التحريم القصدي دون الالتزامي فما لم ينو يميناً يكون نذراً نواه أو لم ينوه حملاً على الحقيقة وإذا نوى اليمين ونفى النذر يكون يميناً فقط حملاً على المجاز وإذا لم ينف النذر سواء نواه أو لم ينوه ونوى اليمين يكون نذراً بصيغته يميناً بموجبه والله أعلم.

فصل

وأما القسم الثاني وهو النذر بالمعصية فهو على نوعين: منها ما لا ينفك شيء من أفراد جنسه عنها كالنذر بالشرب والزنا ونحو ذلك فقال أبو حنيفة إذا قصد به اليمين ينعقد للكفارة وإلا يلغو ضرورة أنه لا فائدة في انعقاده وليس هو مراد بهذه الآية ومأموراً بالإيفاء إجماعاً فإن الله لا يأمر بالفحشاء وبه قال مالك والشافعي، وقال أحمد ينعقد النذر لأجل الكفارة سواء نوى به اليمين أو لا، قال ابن همام وعليه مشى أكثر مشايخ الحنفية وبه قال الطحاوي أنه لو أضاف النذر إلى سائر المعاصي كقوله لله عليَّ أن أقتل فلاناً كان يميناً

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق باب ٩، والترمذي في الطلاق باب ٩، وابن ماجه في المقدمة باب ٧، والطلاق باب ١٣.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١٠٢٤٩، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٨٦.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٠٣٣.

ولزمته الكفارة بالحنث، قلت: وذلك لأنه لما تعذر حمل اللفظ على معناه الحقيقي وجب حمله على المعنى المجازي وهو مقتضى قوله ﷺ: «لا نذر في معصية وكفارته كفارة اليمين»[1] ومحمل الحديث عند أبي حنيفة إذا نوى به اليمين، ومنها ما كان من جنسه طاعة خالصة عن العصيان كالنذر بصوم يوم العيد والصلاة عند طلوع الشمس وهذا القسم من النذر ينعقد عند أبي حنيفة رحمه الله وعليه أن يفطر ويقضي ولا كفارة عليه وإن صام أجزأه وإن نوى يميناً مع نفي النذر فعليه كفارة يمين وإلا فعليه القضاء والكفارة جميعاً كما ذكرنا في النذر بالطاعة، وقال أحمد عليه أن يفطر ويقضي ويكفر وإن صام لا يجزئه وعنه إن صام أجزأه، وقال مالك والشافعي لا ينعقد هذا النذر كالنذر بالنوع الأول من المعصية المحضة إذ لا فرق بين معصية ومعصية وما نهى الله عنه لا يجب بإيجاب العبد، وجه الفرق لأبي حنيفة أنه نذر الصوم وهو مشروع بأصله وإنما النهي فيه لغيره وهو ترك إجابة دعوة الله فينعقد نذره ويجب عليه أن يفطر احترازاً عن المعصية المجاورة ويقضي لإسقاط ما وجب عليه فإن صام في يوم العيد يخرج عن العهدة لأنه أداه كما التزمه وهذا الخلاف مبني على خلافية أصولية وهي أن النهي عن الأفعال الشرعية توجب القبح لغيره ومشروعيته عند أبي حنيفة رحمه الله وعند الشافعي توجب القبح لعينه وعدم مشروعية، وقال أحمد إنما ينعقد من حيث كونه طاعة لا من حيث كونه معصية فيجب به الصوم كاملاً ولا يتأدى إن صام يوم العيد وكثيراً ما يجب الفعل ليظهر أثره في القضاء مع حرمة الأداء نظيره صوم رمضان في حق الحائض يجب ليظهر أثره في القضاء مع أدائه في الوقت حرام ولا يتأدى عنها الفريضة إن أدت.

فصل

وأما القسم الثالث وهو النذر بأمر مباح فيلغو ولا ينعقد عند أبي حنيفة إلا أن ينوِ به اليمين فيكفر إن لم يأت به، وقال الشافعي لا يجب عليه إتيان ولكنه ينعقد يميناً نوى أو لم ينو فإن حنث لزمه كفارة يمين على المرجح كذا في المنهاج، والوجه ما ذكرنا أنه إذا تعذر الحمل على الحقيقة وهو الإيجاب لعدم صلاته لكونه طاعة يحمل على المجاز لتعينه وهو تحريم المباح، قلت: وهذا الدليل لا ينتهض حجة إلا عند من قال تحريم المباح يمين والله أعلم. ولنذكر ها هنا من الأحاديث الشاهدة لما ذكرنا من الأقوال حتى يظهر الراجح منها من المرجوح عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»[2] رواه البخاري، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله ﷺ: «إنما النذر ما ابتغي به وجه الله»[3] رواه أحمد في قصة الرجل الذي نذر أن يقوم في الشمس ورواه

(١) أخرجه مسلم في النذر حديث ٨، وأبو داود في الأيمان باب ١٢، ١٩، والترمذي في النذور باب ١.
(٢) أخرجه البخاري في الأيمان باب ٢٨، و٣١، وأبو داود في الأيمان باب ١٩.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٨٣.

البيهقي في قصة أخرى وروى نحوه أبو داود، وهذه الأحاديث بعمومها تدل على أن النذر بالطاعة ينعقد سواء كان من جنسها واجب بإيجاب الله أولا، وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية ولا فيما نذر لا يملك العبد»(١) رواه مسلم وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً «لا نذر لابن آدم فيما لا يملك»(٢) ولأجل هذا الحديث قال ابن همام.

مسألة: لو قال أحد إن فعلت كذا فألف درهم من مالي صدقة ففعله وهو لا يملك إلا مائة مثلاً، الصحيح من مذهب أبي حنيفة أنه لا يلزمه التصدق إلا بما ملك لأن فيما لم يملك لم يكن النذر مضافاً إلى الملك ولا إلى سبب الملك.

مسألة: ولو قال مالي صدقة في المساكين ولا مال له لا يلزمه شيء.

مسألة: ولو قال لله عليّ أن أهدي هذه الشاة إلى بيت الله وأشار إلى شاة مملوكة لغيره لا يلزمه شيء وعن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ قال: «كفارة النذر كفارة اليمين»(٣) رواه مسلم، ورواه الطبراني بلفظ «النذر يمين وكفارته كفارة يمين» وهذا الحديث لعمومه يدل عليه.

مسألة: من نذر نذراً فلم يف به إما لكونه معصية ممنوعة شرعاً أو لكونه ممنوعاً طبعاً بأن كان النذر مما لايطيقه كصوم الأبد أو كان مما يطيقه لكن فات وقته ولا يمكن التدارك أو لكونه مباح الترك ولعدم تسمية المنذور به بأن قيل لله علي نذر يجب عليه كفارة اليمين سواء نوى اليمين أو لا، وحمل أبو حنيفة هذا الحديث على ما نوى اليمين، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً أطاقه فليف به»(٤) رواه أبو داود وابن ماجه ووقفه بعضهم على ابن عباس وهذا الحديث كالبيان لما سبق من الحديث وهذا الحديث يدل عليه.

مسألة: من نذر نذر طاعة وهو مطلق به لا يجوز له العدول عنه إلى الكفارة ولا يجزىء عنه الكفارة، وعن عمران بن حصين قوله ﷺ: «لا نذر في معصيته وكفارته كفارة يمين»(٥) رواه النسائي والحاكم والبيهقي وهذا الحديث بإطلاقه حجة لأحمد في انعقاد نذر المعصية ووجوب الكفارة، ومداره على محمد بن الزبير الحنظلي عن أبيه عن عمران بن حصين ومحمد ليس بالقوي وقد اختلف عليه فيه رواه ابن المبارك عن عبد الرزاق عن أبيه، قال

---

(١) أخرجه مسلم في النذر حديث ٨، وأبو داود في الأيمان باب ٢١، ٢٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الأيمان باب ٢٢.

(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٤) أخرجه أبو داود في الأيمان باب ٢٥، وابن ماجه في الكفارات باب ١٧.

(٥) تقدم الحديث مع تخريجه.

الحافظ وله طريق آخر إسناده صحيح إلا أنه معلول، ورواه أحمد وأصحاب السنن والبيهقي من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وهو منقطع لم يسمع الزهري من أبي سلمة وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن حديث سليمان بن بلال عن موسى بن عقبة ومحمد بن عتيق عن الزهري عن سليمان بن أرقم عن يحيى بن كثير عن أبي سلمة بن عائشة، قال النسائي سليمان بن أرقم متروك وقد خالفه غير واحد من أصحاب يحيى بن كثير فرووا عن يحيى بن كثير عن محمد بن الزبير الحنظلي عن أبيه عن عمران فرجع إلى الرواية الأولى، قال الحافظ وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن يحيى بن كثير عن رجل من بني حنيفة وأبي سلمة كلاهما عن النبي ﷺ والحنفي هو محمد بن الزبير قاله الحاكم وقال إن قوله من بني حنيفة تصحيف إنما هو من بني حنظلة، وله طريق آخر عن عائشة مرفوعاً رواه الدارقطني وأبو داود والترمذي والنسائي من رواية غالب بن عبد الله الجوزي عن عطاء عن عائشة مرفوعاً «من جعل عليه نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين»(١) وغالب متروك الحديث وللحديث طريق آخر رواه أبو داود عن كريب عن ابن عباس وإسناده حسن فيه طلح بن يحيى وهو مختلف فيه قال النووي حديث «لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين» ضعيف باتفاق المحدثين، وقال الحافظ قد صححه الطحاوي وأبو علي بن السكن فأين الاتفاق، قلت: وقد كتب السيوطي في الجامع الصغير على هذا الحديث علامة الصحة. واحتج أبو حنيفة بقوله بعدم وجوب الكفارة في النذر بالمعصية بحديث عمران بن حصين، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «النذر نذران فمن كان نذر في طاعة فذلك لله وفيه الوفاء ومن كان نذر في معصية فذلك للشيطان ولا وفاء فيه» وجه الاحتجاج أن وجوب الكفارة يعتمد على وجوب الوفاء فإنه ليكفر الإثم فإذا لم يجب الوفاء لم يجب الكفارة، وهذا احتجاج في مقابل النص بالمعقول ومنقوض بأنه من حلف بالله على إتيان المعصية وجبت عليه الحنث والكفارة ليكفر هتك حرمة اسم الله تعالى هذه في هذا المقام فكذا ها هنا، وعن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببواته فأتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال رسول الله ﷺ هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية تعبده؟ قالوا لا، قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم»(٢) رواه أبو داود بسند صحيح، وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة قالت يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك الدف، قال: «أوفي بنذرك» رواه أبو داود وزاد أنها قالت يا رسول الله ونذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا مكان يذبح فيه أهل الجاهلية، قال: هل كان بذلك المكان وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ قالت: لا، قال: هل كان فيه عيد من أعيادهم؟ قالت: لا، قال: أوفي بنذرك. قلت الأمر بالإيفاء ها هنا ليس للوجوب إجماعاً جمعاً بين هذه الأحاديث وقوله ﷺ: «إنما النذر ما ابتغي به وجه الله» ونظراً

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ٤/ ١٦٠.
(٢) أخرجه أبو داود في الأيمان باب ٢٢، ٢٥.

إلى أن ما ليس بطاعة لا يصلح للوجوب ولا لكونه تحية بوجه الله تعالى فالأمر ها هنا للإباحة وإذا كان ترك المعصية فيما كان النذر بالمعصية موجباً للتكفير نظراً إلى المعنى فها هنا أولى.

مسألة: من نذر بطاعة مقيدة بقيود وأوصاف فإن كانت تلك القيود والأوصاف مرغوبة عند الله موجبة للمزية وكثرة الثواب يجب الإيفاء مع تلك القيود والأوصاف وإن كانت عما لا مزية له عند الله لا يلزمه الشرط، وهل يجب الكفارة عند فقد تلك القيود والصفات فالخلاف فيه كالخلاف في ترك كل منذور مباح فمن نذر أن يصلي في السوق أو في يوم السبت أو نذر أن يصوم ولا يقعد ولا يتكلم ولا يستظل أو نذر أن يتصدق بهذا الدرهم على هذا الفقير في هذا البلد وجب عليه الصوم والصلاة وجاز له أن يصلي في أي مكان أي وقت شاء ويصوم مع التكلم والقعود والاستظلال ويتصدق بدرهم أي درهم شاء على أي فقير في أي بلد، لحديث ابن عباس قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم فلا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»[(١)] رواه البخاري وليس فيه الأمر بالكفارة ومن نذر أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات أو نذر أن يصلي قائماً يجب عليه أن يفي بنذره، فإن صام متفرقاً أو صلى قاعداً لا يجزئه ويجب عليه الإعادة لأن «صلاة القاعد نصف صلاة القائم»[(٢)] كذا قال رسول الله ﷺ رواه أحمد والنسائي وابن ماجه بسند صحيح عن أنس وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو والطبراني عن ابن عمر وعن عبد الله بن السائب، وعن المطلب بن أبي وديعة وأحمد وأبو داود عن عمران بن حصين نحوه، ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عمرو نحوه، والتتابع في الصيام مرغوب ولذا وجب في الكفارات.

مسألة: ولو نذر بالصلاة مطلقاً يجب الصلاة قائماً لأن الأصل هو القيام ولو نذر بالصلاة قاعداً أجزأته قاعداً وقائماً.

مسألة: ولو نذر بالصلاة على جنبه أو مستلقياً يجب عليه الصلاة قاعداً أو قائماً لأن الرقود في الصلاة لم يعرف في حالة الاختيار بخلاف القعود غير أن المريض الذي لا يقدر على القعود لو نذر أن يصلي راقداً أجزاه أن يصلي راقداً فإن صح قبل أدائه لا يجزئه إلا قائماً.

مسألة: من نذر أن يصلي في المسجد الحرام جاز له أن يصلي في أي مكان شاء عند أبي حنيفة ومحمد رحمهما الله، وقال زفر وبه قال أبو يوسف في إملائه إنه من نذر أن يصلي في مسجد بيت المقدس فصلى في مسجد رسول الله ﷺ أو في المسجد الحرام أجزأته، ومن نذر أن يصلي في مسجد رسول الله ﷺ فإن صلى في المسجد الحرام أجزأته وإن صلى في غيره لم يجزه، ومن نذر أن يصلي في المسجد الحرام لم يجزه إن صلى في غيره احتج أبو حنيفة بحديث جابر بن عبد الله أن رجلاً، قال يوم الفتح يا رسول الله إني نذرت لله عز وجل

---

(١) أخرجه الترمذي في الأيمان باب ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة باب ١٥٧، وابن ماجه في الإقامة باب ١٤١.

أن فتح الله عليك أن أصلي في بيت المقدس ركعتين فقال: صل ها هنا ثم أعاد عليه، فقال صل ها هنا، ثم أعاد عليه فقال: «شأنك إذاً»(١) رواه أبو داود والدارمي والطحاوي، قال أبو يوسف وزفر نحن نقول بهذا الحديث إنه من نذر أن يصلي ببيت المقدس جاز له أن يصلي بالمسجد الحرام وقد كان رسول الله ﷺ يوم الفتح بالمسجد الحرام وأما من نذر أن يصلي في المسجد الحرام فصلى في غير ذلك كيف يجوز وقد قال رسول الله ﷺ: «وصلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمس مائة صلاة وصلاته في الأقصى بألف صلاة وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة وصلاته في المسجد الحرام مائة ألف صلاة»(٢) رواه ابن ماجه من حديث أنس وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»(٣) وروى الطحاوي، عنه وعن سعد بن أبي وقاص وعن عائشة وعن ميمونة وعن أبي سعيد الخدري كلهم عن النبي ﷺ مثل حديث الصحيحين عن أبي هريرة، وروى الطحاوي عن عطاء بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في ذلك أفضل من مائة ألف صلاة في هذا»(٤) وعن عمر بن الخطاب موقوفاً وعن جابر بن عبد الله مرفوعاً مثله. فأجاب أبو حنيفة أن هذه الأحاديث مختصة بالمكتوبات فإن فضل المكتوبات في المساجد على الترتيب المنكور حق وليس ذلك في النوافل حيث قال رسول الله ﷺ: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة»(٥) رواه الشيخان في الصحيحين من حديث زيد بن ثابت، وروى أبو داود والترمذي عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة»(٦) وذكر الطحاوي حديث عبد الله بن سعد مرفوعاً «لأن أصلي في بيتي أحب إلي من أن أصلي في المسجد».

مسألة: من قال: إذا قدم غائبي أو شفي مريضي فلله علي صوم شهر يجب عليه صيام شهر بعد وجود الشرط فلو صام عنه، قبل وجود الشرط لم يجز ويجب عليه الإعادة خلافاً للشافعي لأن الشرط عندنا مانع من انعقاد السبب والأداء قبل وجود السبب لا يجوز، وعنده مانع من الحكم دون السبب فيجوز الأداء كما يجوز الزكاة بعد النصاب قبل الحول.

مسألة: لو أضاف الوجوب إلى الوقت جاز تقديمه على ذلك عند أبي حنيفة وأبي

---

(١) أخرجه أبو داود في الأيمان باب ٢٠، والدارمي في النذور باب ٤.
(٢) أخرجه ابن ماجه في الإقامة باب ١٣٢.
(٣) أخرجه مسلم في الحج حديث ٥٠٥ ـ ٥٠١، والترمذي في الصلاة باب ١٢٦.
(٤) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار ١/٢٤٧.
(٥) أخرجه البخاري في الأذان باب ٨١، والأدب باب ٧٥، والاعتصام باب ٣، ومسلم في المسافرين حديث ٢١٣.
(٦) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٩٩، والترمذي في الصلاة باب ٢١٣.

يوسف رحمهما الله خلافاً لمحمد هو يقول الإضافة إلى الوقت كالتعليق بالشرط وهما يقولان ليس كذلك بل هو إيجاب منجز مقيداً بقيد والقيود ملغاة، كمن قال لله عليّ أن أصلي في السوق جاز أينما صلى فكذا من قال لله عليّ أن أصوم رجب أو أحج في السنة الثالثة من هذه السنة جاز له أن يصوم ويحج قبله أو بعده، قال زفر إن كان الوقت الذي أضاف إليه فاضلاً شرعاً فصام قبل ذلك الوقت في وقت أقل منه فضيلة لم يجزه بل يجب عليه الإعادة حتى يدرك فضيلة الوقت وإن لم يكن كذلك أجزأه وهذا عندي أظهر فمن نذر بصوم يوم عرفة أو يوم عاشوراء أو تسع من ذي الحجة إلى عرفة أو شهر المحرم لايجزئه إن صام قبل ذلك، وكذا من نذر أن يصلي في جوف الليل لا يجزئه إن صلى في النهار قبله ولا بعده لأن الحياة إلى الليلة المقبلة غالب عادة قال رسول الله ﷺ: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده وصيام عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»[1] رواه مسلم وابن حبان والترمذي وابن ماجه من حديث أبي قتادة، وروى ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري عن قتادة بن نعمان نحوه، وفي الباب حديث زيد بن أرقم وسهل بن سعد وابن عمر رواه الطبراني وحديث عائشة رواه أحمد وقال الحافظ وفيه عن أنس وغيره وقال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام» يعني أيام التشريق من ذي الحجة، قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»[2] رواه أبو داود من حديث ابن عباس وقال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد له فيها من أيام العشر وإن صيام يوم منها ليعدل سنة وليلة منها بليلة القدر»[3] رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وهذا الحديث ضعيف، وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[4] رواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة والروياني في مسنده والطبراني عن جندب.

مسألة: من نذر أن يحج ماشياً؟ ذكر في المبسوط من مذهب أبي حنيفة أنه مخير بين الركوب والمشي يعني لا يجب عليه المشي وبه قال قوم وهذا القول مبني على ما سبق أنه من نذر بطاعة وشرط فيه ما ليس بطاعة لا يلزمه الشرط، وفي القدوري وأكثر المتون أنه يمشي ولا يركب حتى يطوف طواف الزيارة واختلفوا في محل ابتداء المشي؟ فقيل من الميقات لأن شروع الحج من هناك والأصح أنه من بيته لأنه المراد عرفاً إلا أن ينوي خلاف ذلك فعليه ما

(١) أخرجه مسلم في الصيام حديث ١٩٦.
(٢) أخرجه أبو داود في الصوم باب ٦٠.
(٣) أخرجه ابن ماجه في الصيام باب ٣٩.
(٤) أخرجه مسلم في الصيام حديث ٢٠٢، والترمذي في المواقيت باب ٢٠٧، والنسائي في قيام الليل باب ٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٤٤.

نوى، قال صاحب الهداية هذا يعني ما ذكر في القدوري إشارة إلى وجوب المشي بالنذر، قال الطحاوي وبه قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، والحجة لأهل المقالة الأولى أما على من يقول الحج راكباً أفضل من الحج ماشياً فظاهر أن المنذور لا بد أن يكون عبادة وفي المشي ترك الأولى وأما على قول أبي حنيفة فالمشي مع القدرة وإن كان أفضل لكن من شرط المنذور عنده أن يكون من جنسه واجب بإيجاب الله تعالى من الواجبات المقصودة وليس المشي كذلك، ولهم من السنة حديث أنس بن مالك «أن النبي ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنيه، قال: ما بال هذا؟ قالوا: نذر أن يمشي، قال: إن الله غني عن تعذيب هذا نفسه وأمره أن يركب»[1] متفق عليه. وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة قال «اركب أيها الشيخ فإن الله غني عنك وعن نذرك» وحديث عقبة بن عامر الجهني قال: نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله فأمرتني أن أستفتي لها النبي ﷺ، فقال: «لتمش ولتركب»[2] متفق عليه. والحجة لأهل المقالة الثانية أن المشي عبادة مقصودة واجبة في طواف الزيارة عند أبي حنيفة كما سنذكر فيجب بالنذر، والجواب عن استدلالهم بالسنة أن النبي ﷺ إنما أمر بالركوب إذا رأى أنه لا يطيق المشي كما هو صريح في حديث أنس أنه رأى شيخاً يهادى بين ابنيه وكذا في قصة أخت عقبة مذكور في رواية أبي داود أنها لا تطيق فثبت بهذين الحديثين أنه جاز له الركوب إذا لم يطق المشي وذا لا يدل على عدم الوجوب بل على جواز الركوب بعذر.

مسألة: فإن ركب بعذر أو بغير عذر لا يجب عليه إعادة الحج ماشياً إجماعاً وكان مقتضى القياس على أصل أبي حنيفة أن لا يخرج عن عهدة مندوب إذا ركب كما لو نذر بصيام أيام متتابعات وبالصلاة قائماً لكنا تركنا القياس لثبوت الرخصة في الركوب بالنص فإن قيل الأحاديث المذكورة إنما توجب الرخصة لمن لا يطيق على المشي والمطيق على المشي ليس في معناه فلا بد أن لا يخرج المطيق على المشي من العهدة إذا ركب بغير عذر؟ قلنا: جوابه بوجهين: أحدهما أن أحكام الشرع عامة غالباً والغالب في الحج أن لا يطيق على المشي ولذلك قالت العلماء إن الزاد والراحلة في الحج من القدرة الممكنة دون الميسرة فقلنا بالرخصة يؤيد ما قلنا حديث عمران بن حصين قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة وقال: «إن من المثلة أن ينذر الرجل أن يحج ماشياً فمن نذر أن يحج ماشياً فليهد هدياً وليركب»[3] رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ثانيهما إن ترك الواجب بعذر أو بغير عذر شأنهما في اقتضاء القضاء واحد فإن كان عبادة مستقلة يقضي ما ترك وإن كان جزاء أو شرطاً أو وصفاً للعبادة لا يتصور قضاؤه بمتاع معقول لعدم استقلاله ويتصور قضاؤه بمثل غير معقول كسجدة السهو قضاء لواجبات الصلاة

(١) أخرجه البخاري في الأيمان باب ٣١، والصيد باب ٢٧، وأبو داود في الأيمان باب ١٩.
(٢) أخرجه البخاري في الصيد باب ٢٧، ومسلم في النذر حديث ١١.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٠٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/١٨٩.

لكن القضاء بمثل غير معقول لا يدرك بالرأي بل يتوقف على الشرع، فإن ظهر له من الشرع مثل غير معقول تقضي بتلك المثل ولا يعاد العبادة وإلا يعاد تلك العبادة ولما لم يدرك للتابع في الصيام والقيام في الصلاة مثل غير معقول حكمنا بإعادة الصوم والصلاة وإذا عرف للمشي مثل غير معقول وهي الهدي لم يحكم بإعادة الحج بل بالهدي، والفرق بين المعذور وغير المعذور لا يظهر إلا في الإثم ونظير ترك الوقوف بمزدلفة بلا عذر لا يجوز وبعذر يجوز على كلا التقديرين يجب عليه الهدي والله أعلم.

مسألة: من نذر أن يحج ماشياً فحج وترك المشي بعذر أو بلا عذر يجب عليه بدنة، وقال أبو حنيفة وصاحبيه لزم دم وأدناه شاة وإذا أراد بقوله لله عليّ أن أحج ماشياً اليمين لزمه كفارة اليمين أيضاً كذا ذكر الطحاوي قول أبي حنيفة وصاحبيه، وقيل: لا يجب عليه إلا كفارة يمين والحجة لوجوب الهدي بالركوب حديث عقبة بن عامر أن أخته نذرت أن يمشي إلى البيت فأمرها النبي ﷺ أن تركب وتهدي هدياً رواه أبو داود وسنده حجة، وبهذا يظهر أن ما في الصحيحين من حديث عقبة بن عامر فيه اختصار على ذكر بعض المروي والزيادة من الثقة مقبولة، وهذا الحديث حجة لأبي حنيفة في إيجاب مطلق الهدي ولو بشاة. ولنا على تخصيص الهدي بالبدنة ما رواه أبو داود من حديث ابن عباس بلفظ أن أخت عقبة بن عامر نذرت أن تحج ماشية وإنها لا تطيق ذلك فقال النبي ﷺ: «وإن الله لغني عن مشي أختك فلتركب ولتهد بدنة» وما رواه الطحاوي من حديث عقبة بن عامر قال نذرت أختي أن تمشي إلى الكعبة فقال: «إن الله لغني عن مشيها مروها فلتركب لتهد بدنة» قلت: وهذا حديث حسن لأنه من رواية ابن أبي داود ثنا عيسى بن إبراهيم ثنا عبد العزيز بن مسلم ثنا مطر الوراق عن عكرمة عنه، فإن قيل عبد العزيز بن مسلم استجهل ومطر الوراق قال ابن سعد فيه ضعف في الحديث، قلنا: قال الذهبي عبد العزيز معروف فلا يضر جهل من استجهل ومطر الوراق من رجال مسلم قال الذهبي ثقة وقال أحمد وابن معين ضعيف في عطاء خاصة وهذا من رواية عكرمة، قال ابن همام عمل أبو حنيفة بإطلاق الهدي من غير تعين بدنة لقوة رواتها، قلنا: قوة رواة الإطلاق ممنوع ولو سلمنا فالترجيح بالقوة إنما يطلب عند التعارض ولا تعارض ها هنا بل مطلق ومقيد في حكم واحد في قضية واحدة فيحمل المطلق على المقيد البتة، وما اخترت مروي عن علي وغيره من الصحابة ﷺ والموقوف في الباب له حكم الرفع، روى الشافعي إيراد عليه عن سعد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن علي في الرجل يحلف على المشي قال يمشي وإن عجز ركب وأهدي بدنة، وروى عبد الرزاق بسند صحيح عن علي فيمن نذر أن يمشي إلى البيت قال يمشي فإن أعيى ركب وأهدى جزوراً وأخرج نحوه عن ابن عمر وابن عباس وقتادة والحسن.

مسألة: من قال عليّ المشي إلى بيت الله أو الكعبة ولم يذكر حجاً ولا عمرة فعليه أن يحج أو يعتمر ماشياً استحساناً وفي القياس شيء عليه، وجه الاستحسان تعورف النسك بهذا اللفظ، ولو قال علي المشي إلى الحرم لا شيء عليه عند أبي حنيفة لعدم العرف في التزام

النسك به وعند صاحبيه يلزمه النسك احتياطاً واتفقوا على أنه لو قال إلى الصفا أو المروة أو عرفة أو مزدلفة أو منى أو مقام إبراهيم لا يجب شيء وكذا لو قال مكان المشي غيره كقوله الذهاب إلى بيت الله أو الخروج أو السفر لا يجب شيء والمدار على تعارف إيجاب النسك بلفظ دون لفظ ولو نوى بقوله عليّ المشي إلى بيت الله المشي إلى مسجد المدينة أو مسجد بيت المقدس أو مسجد آخر لم يلزمه شيء لصحة إطلاق بيت الله على كل مسجد.

مسألة: من نذر بطاعة لزمه ذلك الطاعة وما يتوقف عليه ذلك فمن نذر أن يصلي ركعتين بلا وضوء أو بلا قراءة أو نذر أن يصلي ركعة واحدة أو ثلاث ركعات لزمه الركعتان بالوضوء والقراءة وفي ثلاث أربع ركعات، وقال محمد لايصح النذر لو نذر الركعتين بلا وضوء لأن الصلاة بلا وضوء ليست بطاعة بخلاف الصلاة بغير قراءة فإنها قد تكون طاعة كصلاة الأمي وفي غير ذلك قوله كقولنا، وقال زفر يلزمه الركعتان إن نذر ثلاثاً ولا يلزمه شيء فيما سوى ذلك لأن الصلاة بلا وضوء أو بلا قراءة أو ركعة منفردة أو مع شفع يقدمها ليست بقربة فلا يجوز به النذر، قلنا الالتزام بالشيء يستلزم استلزام ما لا صحة له إلا به والله أعلم.

مسألة: من نذر أن يحج ماشياً فحج راكباً بعذر أو بلا عذر وأهدى بدنة هل يجب عليه الكفارة أم لا؟ قال أبو حنيفة لا يجب عليه الكفارة إلا إذا نوى به اليمين والخلاف في هذه المسألة مثل الخلاف في فوات أصل المنذور وقد مر من قبل.

مسألة: من نذر أن يعتكف؟ قال أبو حنيفة ومالك يجب عليه أن يصوم ويعتكف، وقال الشافعي وأحمد لا يجب عليه الصوم، مبنى الخلاف على اختلافهم في أنه هل يشترط الصوم للاعتكاف أم لا؟ فقال الشافعي وأحمد لا يشترط ويصح الاعتكاف بغير صوم وبالليل وأقله ساعة، وقال مالك يشترط وهو رواية عن أحمد ورواية الحسن عن أبي حنيفة وفي الأصل مذهب أبي حنيفة أن الصوم شرط لصحة الواجب من الاعتكاف دون التطوع منه وبه قال محمد، والحجة على اشتراط الصوم للاعتكاف ما رواه الدارقطني والبيهقي عن سويد بن عبد العزيز عن سفيان بن حسين عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لا اعتكاف إلا بصوم»(١) قال الدارقطني تفرد به سويد عن سفيان وقال أحمد سويد متروك الحديث وقال البخاري في حديثه نظر وقال يحيى ليس بشيء وسفيان قال: يحيى لم يكن بالقوي وقال ابن حبان يروى عن الزهري المقلوبات، قلت: قال الذهبي صدوق مشهور وقال بعضهم ليس به بأس إلا في الزهري أخرج له مسلم وذكر ابن همام قال في الكمال قال ابن حجر سألت عنه هشيماً فأثنى عليه خيراً، فالحديث لم يصح لأجل سويد وسفيان إذ هو من رواية الزهري وهو في الزهري ضعيف، وما رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن إسحاق عن

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٣١٧، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٤٠، والدارقطني في سننه ٢/ ٢٠٠، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٠٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٤٠١٣.

الزهري عن عروة عن عائشة قالت السنة على المعتكف أن لا يعود مريضاً ولا يشهد جنازة ولا يمس امرأة ولا يباشرها ولا يخرج لحاجة إلا لما لا بد منها ولا اعتكاف إلا بصوم ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع، فإن قيل قال أبو داود غير عبد الرحمن بن إسحاق لا يقول فيه السنة فالحديث موقوف فقال الدارقطني عبد الرحمن ضعيف؟ وأجيب بأن الرفع زيادة عبد الرحمن ثقة إلا أنه قدري كذا قال أبو داود ووثقه ابن معين وقال أحمد صالح الحديث وأخرج له مسلم، قلت: هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج لأن كلمة لا اعتكاف الظاهر أنه ليس تحت قوله السنة على المعتكف أن لا يعود لتغير نسق الكلام ولو سلمنا فكون الصوم سنة في الاعتكاف لا نزاع فيه، إنما الخلاف في كونه شرطاً وهذا أمر لا بد له من دليل وروى هذا الحديث ابن الجوزي في التحقيق من طريق الدارقطني عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ: «كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان»(١) وأن السنة للمعتكف أن لا يخرج إلا لحاجة الإنسان ولا يتبع الجنازة ولا يعود مريضاً ولا يمس امرأة ولا يباشرها ولا اعتكاف إلا في مسجد جماعة ويأمر من اعتكف أن يصوم، واعترض عليه ابن الجوزي بأن فيه إبراهيم بن محسر قال ابن عدي له أحاديث مناكير وقال الدارقطني يقال إن قوله إن السنة للمعتكف الخ ليس من قول رسول الله ﷺ بل هو من كلام الزهري ومن أدرجه في الحديث فقد وهم.

ومن الحجة في الباب ما رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن بديل عن عمرو بن دينار أن عمر جعل عليه أن يعتكف في الجاهلية ليلةً أو يوماً عند الكعبة فسأل النبي ﷺ فقال: «اعتكف وصم»(٢) وفي لفظ للنسائي أمره أن يعتكف ويصوم، قال الدارقطني تفرد به ابن بديل وهو ضعيف ورواه نافع عن ابن عمر ولم يذكر فيه الصوم وهو أصح، وقال: سمعت أبا بكر النيسابوري يقول هذا حديث منكر لأن الثقات من أصحاب عمرو بن دينار لم يذكروه منهم ابن جريج وابن عيينة وحماد بن سلمة وغيرهم وما قال ابن همام إن ابن بديل ثقة قال فيه ابن معين صالح وذكره ابن حبان في الثقات، قلت: لم يذكر الذهبي في توثيقه شيئاً بل قال فيه ضعيف ثم لو ثبت الأمر بالصوم تحمله على أن عمر كان قد نذر بالاعتكاف والصوم جميعاً وسأل عنهما فبسقط ذكر الصوم من الراوي في رواية السؤال كما سقط ذكر الصوم عن الجواب في أكثر الطرق وأصحها، وما رواه الدارقطني بسنده عن سعيد بن بشير عن عبد الله بن(٣) عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر نذر أن يعتكف في الشرك ويصوم فسأل رسول الله ﷺ بعد إسلامه فقال: «أوف بنذرك»، قال: قيل قال عبد الحق تفرد به سعيد بن بشير قال ابن الجوزي قال يحيى وابن نمير ليس بشيء، قلنا: قال الحافظ هو

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف باب ١، ٦، ومسلم في الاعتكاف حديث ٢.
(٢) أخرجه أبو داود في الصوم باب ٨.
(٣) كذا في الأصل وفي شرح معاني الآثار للطحاوي عبيد الله بن عمر إلخ.

مختلف فيه وقال الذهبي سعيد بن بشير صاحب قتادة وثقه شعبة وقال البخاري يتكلم في حفظه وقيل: كان قدريّاً، قلت: ولا شك أن سعيد بن بشير ليس أضعف من ابن بديل، واحتج الشافعي وأحمد بحديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ليس على المعتكف صيام إلا أن يجعله على نفسه»(١) رواه الحاكم وصححه ولم يطعن فيه ابن الجوزي احتج البخاري بحديث ابن عمر أن عمر سأل رسول الله ﷺ قال: كنت نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال: «فأوف بنذرك» متفق عليه، وجه الاستدلال أن الليل ليس وقتاً للصوم واعترض عليه بين في رواية شعبة عن عبيد الله عند مسلم يوماً بدل ليلة، فجمع ابن حبان وغيره بين الروايتين بأنه نذر اعتكاف يوم وليلة فمن أطلق يوماً أراد بليلتها ومن أطلق ليلة أراد بيومها، وأجيب بأن رواية من روى يوماً شاذ أو نقول لما نذر اعتكاف يوم ولم يأمره النبي ﷺ بالصوم دل على أن الصوم ليس بشرط، ومن الحجة في الباب حديث عبد الله بن أنيس قال: قلت: يا رسول الله: إن لي بادية أكون فيها وأنا أصلي فيها بحمد الله فمرني بليلة أنزلها إلى هذا المسجد فقال: «انزل ليلة ثلاث وعشرين» فقيل لابنه كيف كان أبوك يصنع؟ قال: كان يدخل المسجد ويصلي العصر فلا يخرج منه لحاجة حتى يصلي الصبح فإذا صلى الصبح وجد دابته على باب المسجد فجلس عليها ولحق بباديته» رواه أبو داود وهذا صريح في جواز الاعتكاف ليلاً، لا يقال لانسميه اعتكافاً فالقول لا مشاحة لنا في الاصطلاح بعدما ثبت أن اللبث في المسجد بنية التقرب طاعة والطاعة تجب بالنذر.

مسألة: من نذر أن يعتكف رمضان لزمه ولا يلغوا اشتراط رمضان لما ثبت أن الطاعة في رمضان أكثر ثواباً من الطاعة في غيره قال رسول الله ﷺ: «من تقرب فيه ـ أي في رمضان ـ خصلةً من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه»(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان في حديث طويل عن سلمان الفارسي(٣) فإن أطلقه فعليه أن يعتكف في أي رمضان شاء وإن عليه لزمه فيه، كذا قال ابن همام لكن هذا لا يوافق ما مر أن كل شرط لا مزية فيه من حيث الطاعة لايلزمه ولا مزية لرمضان على رمضان آخر فأولى أن يقال إن عين أول رمضان أدركه لزمه ذلك لأن الاستعجال في الطاعة طاعة قال الله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] وإن عين رمضان آخر فأدى في أول رمضان أدركه ينبغي أن يجزيه بل الظاهر أنه يلزمه الأداء في أول رمضان أدركه لأن الحياة إلى رمضان ثان غير غالب الوقوع عادة.

مسألة: فإن صام رمضان عينه للاعتكاف ولم يعتكف يلزمه قضاؤه بصوم مقصود للنذر

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٣١٩، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٣٩، والدارقطني في سننه ٢/ ١٩٩.

(٢) أخرجه الألباني في السلسلة الضعيفة ٨٧١.

(٣) وفي الأصل القاري وتصحف الفقير الدهلوي.

عند أبي حنيفة ومحمد وهو إحدى الروايتين عن أبي يوسف وعن أبي يوسف أنه لا يقضي أصلاً وهو قول زفر لأن الاعتكاف في رمضان أفضل من الاعتكاف في غيره فلا يتأدى بالاعتكاف في غيره كمن نذر أن يصلي قائماً أو يصوم متتابعاً فصلى قاعداً أو صام متفرقاً لا يجزيه فتعذر للقضاء فسقط، قلنا: كان عليه أن يعتكف في رمضان فلما فات ذلك بقي عليه مطلق الاعتكاف لإمكان التدارك وسقط عنه فضل الوقت لعدم إمكان التدارك، والحياة إلى رمضان آخر غير متيقن بل غير مظنون لطول الزمان، فصار المسألة كمن فاته صلاة الوقت أو صوم رمضان وجب عليه قضاء أصل الصلاة والصوم لإمكان التدارك وسقط عنه فضل الوقت لعدم إمكان التدارك، بخلاف من صلى قاعداً وكان قد نذر الصلاة قائماً حيث يحكم بالإعادة لإمكان التدارك. فإن قيل: لما فات الاعتكاف في رمضان كان ينبغي أن يحكم بوجوب قضائه في رمضان آخر وإذا لم يحكم بذلك لاحتمال الموت قبل ذلك وحكمتم بوجوب القضاء بعد رمضان بصوم مقصود فإذا اعتكف قضاء بعد رمضان بصوم مقصود ثم أدرك رمضان[1] آخر ينبغي أن يحكم بوجوب الإعادة، كمن وجب عليه الحج ولم يحج وعجز عن الحج فأحج عنه غيره ثم قدر على الحج بنفسه بطل حينئذ إحجاج الغير ولزمه أن يحج بنفسه؟ قلنا: قال أبو حنيفة إن اشتراط الصوم للاعتكاف ثبت بالنص كما ذكرنا فكان القياس أن لا يتأدى الاعتكاف المنذور في رمضان أصلاً لأنه إذا وجب الاعتكاف بالنذر وجب الصوم مقصوداً أيضاً شرطاً له والصوم المنذور مقصوداً لا يتأدى في رمضان لكون الوقت مشغولاً بحق الله تعالى فلا يتأدى الاعتكاف أيضاً، لكنا جوزنا الاعتكاف في رمضان ضرورة إدراك فضل الوقت، فإذا فات عنه فضل الوقت عاد الحكم إلى الأصل ووجب الصوم للاعتكاف مقصوداً، ثم إذا أدرك رمضان من قابل لا يسقط ما وجب مقصوداً فلا يتأدى ذلك الاعتكاف في رمضان آخر أصلاً للزوم الصوم المقصود والله أعلم. ولأجل ذلك لا يجوز عند أبي حنيفة وصاحبيه أن يقضي اعتكاف رمضان في رمضان آخر لكن لو لم يصم في رمضان ولم يعتكف جاز أن يعتكف في صيام القضاء وكان مقتضى القياس على ما ذكرنا أن لا يتأدى بعد رمضان إلا بصوم مقصود لفوات فضل الوقت والله أعلم.

وما ذكرنا من قول أبي حنيفة مبني على اشتراط الصوم للاعتكاف عنده فمن لم يقل باشتراط الصوم جاز عنده أن يقضي بعد رمضان بلا صوم، أو في رمضان آخر إن أدرك أو في صيام القضاء أو الكفارة أو غير ذلك ثم إذا قضى بعد رمضان بلا صوم أو بصوم ثم أدرك رمضان آخر لا تجب عليه الإعادة كمن فاته صلاة وقتية وهو واجد للماء فقضاه بعد الوقت بالتيمم ثم وجد الماء أو صلى عارياً ثم وجد الثوب.

مسألة: من نذر بطاعة في حالة الكفر ثم أسلم؟ قال مالك وأحمد يجب عليه الوفاء لما مر من أن عمر بن الخطاب نذر في الجاهلية بالاعتكاف فسأل رسول الله ﷺ فقال: «أوف

(١) وفي الأصل رمضانًا.

بنذرك»، وقال أبو حنيفة والشافعي لا يجب عليه الوفاء لأن الكافر ليس أهلاً للطاعة وطاعته معصية لعدم الإخلاص والنذر بالمعصية لا يجب الوفاء به، وإذا علمنا من ضرورات الدين أن الكافر ليس أهلاً للعبادة نحمل حديث عمر على أن إيفاء النذر وإن لم يكن واجباً عليه لكنه لما رغب في اعتكاف بعد الإسلام أمره النبي ﷺ بذلك ابتداء لا قضاء لما كان واجباً عليه.

مسألة: من نذر بطاعة ثم ارتد والعياذ بالله منه ثم أسلم لا يلزمه موجب النذر عند أبي حنيفة رحمه الله لأن نفس النذر بالقربة قربة فيبطل بالردة كسائر القرب فلا يترتب عليه موجبه.

مسألة: من نذر صوم الأبد فضعف عن الصوم لاشتغاله بالمعيشة له أن يفطر ويطعم لكل يوم نصف صاع من بر كذا في الفتاوى الكبرى وكذا قال ابن همام، وقال: فإن لم يقدر على الإطعام لعسرته يستغفر الله ويستقيله، والفتوى على أنه من نذر بصوم الأبد إن شاء صام وإن شاء كفر كذا في فتاوى الحجة، وكذا الخلاف فيمن نذر أي نذر يشق عليه ولم يطق والحجة على إجزاء الكفارة قوله ﷺ: «من نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين» وقد مر فيما سبق من حديث ابن عباس.

مسألة من نذر عشر حجج أو مائة حجة، اختلف فيه هل يلزمه كلها فيلزمه الإيصاء بها أو يلزمه قدر ما عاش؟ ففي الخلاصة نص على لزوم الكل وذكر غيره عن أبي يوسف ومحمد الثاني واختاره السرخسي، ولو قال عشر حجج في هذه السنة لزمه عشر في عشر سنين على رواية اختارها السرخسي ولزمه الكل في الحال على رواية الخلاصة، فإن أحج عنه عشرة رجال أجزأه إن مات قبل إدراك السنين وإن بقي حيًا فكلّما أدرك وقت الحج من كل سنة يجب عليه أن يحج بنفسه ويبطل حينئذ إحجاج غيره عنه لأنه قدر بنفسه فظهر عدم صحة إحجاجهم فإن لم يطق أن يحج كل سنة فالخلاف في إجزاء الكفارة ما سبق والله أعلم.

مسألة: من قال: أنا أحج لا حج عليه لأنه وعد وليس بنذر لكن يندب الوفاء بالوعد.

مسألة: إن قال: إن عافاني الله من مرضي فعليّ أن أحج لزمه حج غير حجة الإسلام فإذا حج ولم ينو شيئاً وقع عن حجة الإسلام ثم إذا حج في السنة الثانية ولا نية له فقيل: هي تطوع ولا بد للمنذر من تعيين النية.

مسألة: من قال: عليّ حجة إن شاء فلان لزمه إن شاء فلان ولا يقتصر مشيئته على مجلس بلوغه الخبر، بخلاف تعليق الطلاق بمشيئته لأن الطلاق يقبل التمليك والتمليك يستدعي جواباً في المجلس وهذا شرط محض.

مسألة: من نذر أن يتصدق بجميع ماله لزمه التصدق بجميع ما يجب فيه الزكاة استحساناً لأن إيجاب العبد معتبر بإيجاب الله تعالى، فيصرف إيجابه إلى إيجاب ما أوجب الشرع فيه الصدقة من المال، ولأن الظاهر التزام الصدقة من فاضل ماله وهو مال الزكاة بخلاف الوصية فإنها تقع في حالة الاستغناء، ومن نذر أن يتصدق بملكه لزمه أن يتصدق بالجميع عند أبي حنيفة وصاحبيه كذا في الهداية، وقال أحمد وزفر والشافعي يجب التصدق بالجميع في الصورتين، وقال مالك يلزمه في الصورتين أن يتصدق بثلث ما يملكه لحديث أبي

لبابه أنه قال للنبي ﷺ: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله صدقة فقال رسول الله ﷺ: «يجزيء عنك الثلث»[١] رواه رزين، قلنا: هذا الحديث لا دلالة له على أنه كان نذر يتصدق جميع ماله بل أراد الصدقة فأشار إليه النبي ﷺ أن يتصدق بالثلث كيلا يفوت حقوق الناس التي عليه ألا ترى أن النبي ﷺ لم يذكر الثلث في حديث كعب بن مالك رواه الشيخان في الصحيحين أنه قال: قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك بعض مالك فهو خير لك» قال: قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر»[٢].

مسألة: لو قال: مالي صدقة في المساكين لا يدخل ماله ديون على الناس.

مسألة: من نذر أن يتصدق بجميع ما هو ملكه في الحال وما يملكه في الاستقبال يمسك نفقة نفسه وزوجته ومن وجب عليه نفقته كما أن من نذر بصوم الأبد لا يجب عليه الفدية بدلاً من صوم رمضان لأنه مشغول بحق الغير، فمن شق عليه ذلك كفر على ما ذكرنا فيمن شق عليه المنذور.

مسألة: من قال: لله عليّ أن أذبح شاةً أو بقرةً أو بعيراً وقال إن شفي مريضي فعليّ أن أذبح يجب عليه ذلك حالاً في التنجيز وعند وجود الشرط في التعليق وجاز له أن يذبح حيث شاء ويتصدق بلحمه على الفقراء، وفي نوادر ابن سماعة لا شيء عليه إن قال لله عليّ أن أذبح ولم يقل صدقة، قلنا: إنه التزم بمال من جنسه واجب إلا أن يقصد نفس الذبح، ولو قال لله عليّ هدي يجب عليه ما يجزيء في الأضحية من الضأن والمعز أو الإبل أو البقر إلا أن ينوي بعيراً أو بقرةً فيلزمه ذلك وأن لا يذبح إلا في الحرم، فإن كان في أيام النحر فالسنة أن يذبح بمنى وإلا ففي مكة، وجاز له أن يذبح حيث شاء من أرض الحرم، ولو قال: علي أن أهدي جزوراً تعيّن الإبل والحرم، ولو قال: علي جزوراً ولم يذكر الهدي جاز في غير الحرم، ولو قال بدنة ولم يذكر الهدي فعن أبي يوسف أنه يتعين الحرم لأن اسم البدن لا يذكر في مشهور الاستعمال إلا في معنى المهداة ولو صرح بالهدي يتعين بالحرم فكذا البدنة، وعند أبي حنيفة في البدنة لا يشترط الحرم إلا أن يزيد فيقول بدنة من شعائر الله، فإذا ذبح الهدي في الحرم يتصدق بلحمه على مساكين الحرم وإن تصدق على غيرهم جاز أيضاً وهل يجوز التصدق بالقيمة في الحرم في نذر الهدي؟ ففي رواية أبي سليمان يجوز أن يهدي قيمتها اعتباراً بالزكاة، وفي رواية أبي حفص لا يجوز لأن في اسم الهدي زيادة على مجرد اسم الشاة وهو الذبح فالقربة فيه يتعلق بالذبح، ثم التصدق بعد ذلك تبع بخلاف الزكاة فإن القربة فيه التصدق بالشاة وهو ثابت في القيمة.

مسألة: من نذر شاة وأهدى مكانها جزوراً فقد أحسن، وليس هذا من القيمة لثبوت

---

(١) أخرجه أبو داود حديث ٣٣١٩، وأحمد في المسند ٣/ ٤٥٣، ٥٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان باب ٢٤، والوصايا باب ١٦، ومسلم في التوبة حديث ٥٣.

الإراقة في البدل الأعلى كالأصل، ولو قال: لله عليَّ أن أهدي شاتين فأهدى شاة تساوي أربع شياه في القيمة لم يجزئه إلا من شاة واحدة.

مسألة: لو قال: لله عليَّ أن أهدي هذه الشاة لزمته فإن سُرِقَتْ أو ماتت لا يلزم غيرها، وكذا لو قال لله عليَّ أن أتصدق بهذه الدراهم فهلكت قبل أن يتصدق بها لم يلزمه شيء غيرها ولو لم تهلك وتصدق بمثلها جاز، ولو نذر أن يتصدق بخبز كذا أفتصدق بقيمته جاز.

مسألة: ولو قال لله عليَّ أن أهدي ثوباً فأعطاه لحجبة البيت جاز إن كانوا فقراء وإلا فلا، ولو جعل الثوب لباساً للبيت لم يجزئه.

مسألة: قوله هذه الشاة هدي إلى البيت أو إلى مكة أو إلى الكعبة فوجب وإلى الحرم أو إلى المسجد الحرام غير موجب عنده وموجب عندهما وإلى الصفا غير موجب اتفاقاً، فإن قيل: مجرد ذكر الهدي موجب فزيادة ذكر الحرم أو الصفا لا يرفع الوجوب بعد الثبوت؟ قلنا: إذا ذكر الهدي مطلقاً يعتبر هناك ذكر البيت أو مكة مقدراً فيوجب وإذا نص على المسجد أو الحرم تعذر الإضمار فلا يوجب.

مسألة: لو قال ثوبي هذا ستر للبيت أو أضرب به حطيم البيت يلزمه استحساناً لأنه يراد بهذا اللفظ هدية عرفاً.

مسألة: من قال: إن اشتريت هذه الشاة (وأشار إلى شاة مملوكة لغيره) فعليَّ أن أهدي إلى الكعبة؟ قال الشافعي لا يلزمه الوفاء لأن التعليق عنده يمنع الحكم دون السبب عن الانعقاد، فعند انعقاد السبب الشاة مملوكة لغيره فيلغو النذر بها لقوله ﷺ: «لا نذر فيما لا يملكه ابن آدم» وعند أبي حنيفة يلزم لأن التعليق عنده يمنع السبب عن الانعقاد وإنما ينعقد بعد وجود الشرط يعني بعد الشراء فلا يلغو.

مسألة: من قال: لله عليَّ أن أذبح نفسي أو ولدي أو عبدي يلزمه شاة استحساناً عند أبي حنيفة رحمه الله ولو كان له أولاد لزمه زمان مكان كل واحد شاة وعند محمد يلزمه الشاة في الولد دون العبد والنفس وعند أبي يوسف لا يلزمه شيء في واحد منها وهو القياس لأنه نذر بالمعصية وجه الاستحسان أن الله سبحانه أوجب شاةً بدلاً من إسماعيل عليه السلام حين وجب على إبراهيم ذبحه، ولما كان قتل النفس أو الولد حقيقة مهجوراً شرعاً لكونه معصية جعلنا إيجابه على نفسه مجازاً عن إيجاب بدله عليه، كذا روي عن محمد بن المنتشر أنه قال: إن رجلاً نذر أن ينحر نفسه إن نجاه الله من عدوه فسأل ابن عباس فقال سل مسروقاً فسأله فقال له: لا تنحر نفسك فإنك إن كنت مؤمناً قتلتَ نفساً مؤمنة وإن كنت كافراً تعجلت إلى النار فاشتر كبشاً فاذبحه للمساكين فإن إسحاق خير منك فدي بكبش، فأخبر ابن عباس فقال: هكذا كنتُ أردتُ أن أفتيك رواه ابن رزين.

مسألة: من قال كل منفعة تصل إلى من مالك فعليَّ أن أتصدق بها لزمه أن يتصدق بكل ما ملكه، لا بما أباحه له كطعام أذن أن يأكله.

مسألة: لو قال: إن فعلتُ كذا فكل ما أكلتُ فعليَّ أن أتصدق فعليه عند وجود الشرط

بكل لقمة درهم لأن كل لقمة أكلة ولو قال كلما شربت فإنما يلزمه بكل نفس لا بكل مصة.

مسألة: من قال: لله عليَّ أن أصوم اليوم الذي يقدم فيه زيد شكراً لله وأراد به اليمين فقدم فلان في يوم رمضان، كان عليه كفارة يمين ولا قضاء عليه لأنه لم يوجد شرط البر وهو الصوم بنية الشكر، ولو قدم قبل أن ينوي الصوم فنوى به الشكر لا عن رمضان برَّ بالنية وأجزأه عن رمضان ولا قضاء عليه، وإن لم يرد به اليمين لا شيء عليه لأن رمضان مشغول بحق الله تعالى فلا يجب فيه صوم النذر.

مسألة: إذا نذر المريض صوم شهر ومات قبل الصحة لا شيء عليه.

مسألة: من نذر صوم هذا اليوم أو يوم كذا من شهر أو سنة لزمه ما تكرر في الشهر والسنة.

مسألة: ولو نذر صوم يوم الاثنين والخميس فصام ذالك مرةً كفاه إلا أن ينوي الأبد.

مسألة: النذر إذا جرى على لسانه بغير قصد لزمه الوفاء لأنه إنشاء قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد» وقد مرَّ.

مسألة: من قال: لله علي صوم هذه السنة قيل لزمه أن يصوم اثني عشر شهراً من وقت النذر، وفي فتاوى قاضي خان والخلاصة أن السنة مبدَأها المحرم وآخرها ذو الحجة فإذا أشار إلى السنة التي هو فيها لزمه صوم ما بقي من السنة إلى آخر ذي الحجة ويلغو في حق ما مضى كما يلغو قوله لله عليَّ أن أصوم أمس، وكذا من قال لله عليَّ صوم هذا الشهر لزمه صوم ما بقي من الشهر الذي هو فيه.

مسألة: من قال لله عليَّ صوم أمس اليوم أو اليوم أمس لزمه صوم اليوم ولا يلزمه قضاء أمس.

مسألة: من نذر صوم السنة يجب عليه أن يفطر الأيام المنهية، وكذا المرأة تفطر أيام حيضها وتقضي[1]، وقال زفر لا قضاء عليه وعليها، فإن صامها[2] أثم وسقط عنه القضاء.

مسألة: من قالت: لله عليَّ أن أصوم أيام حيضتي لا يصح النذر ولا يجب عليها القضاء لأنها أضافت إلى وقت غير صالح للصوم كمن قال عليَّ أن أصوم ليلة كذا.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ قال البغوي: قال ابن عباس والزبير ومجاهد وقتادة سمي عتيقاً لأن الله تعالى أعتقه من أيدي الجبابرة إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط، أخرج الترمذي وحسنه عن ابن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار»[3] لكن يردّ هذا القول حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) وكذا يقضيان الأيام المنهية إذا افطرا.

(٢) الأولى فإن صاما إلخ.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٢٢، باب ٣.

«يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»[١] متفق عليه وحديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كأني به أسود أفحج[٢] يقلعها حجراً حجراً»[٣] رواه البخاري، وحديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة»[٤] رواه أبو داود والحاكم وصححه، فإن هذه الأحاديث تدل على تسلط جبار عليه في المستقبل، وذلك ينافي كونه عتيقاً بهذا المعنى، وقيل: سمي عتيقاً لأن الله أعتقه من الغرق فإنه رفع أيام الطوفان، وقال ابن زيد والحسن سمي عتيقاً لأنه قديم وهو: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] يقال دينار عتيق أي قديم، وقيل العتيق بمعنى الكريم يقال عتاق الخيل لكرامها، وعتق الرقيق خروجه من ذل العبودية إلى كرم الحرية، والمختار عندي قول سفيان بن عيينة أنه سمي عتيقاً لأنه غير مملوك لبشر ولم يملك قط بل لم يملك ما حوله من الحرم ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج: ٢٥].

اعلم أن الطواف بالبيت عبادة معقولة مقصودة كالصلاة، منها ما هو فريضة ركن للحج والعمرة ومنها ما هو واجب كطواف القدوم والصدر على ما نذكر فيه من الاختلاف وما سوى ذلك تطوع غير مؤقت بوقت، قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد مناف من ولي منكم في أمور الناس شيئاً فلا يمنعن أحداً طاف بالبيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار»[٥] رواه الشافعي وأحمد وأصحاب السنن وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم من حديث أبي الزبير عن عبد الله بن باباه عن جبير بن مطعم وصححه الترمذي، ورواه الدارقطني من وجهين آخرين عن نافع بن جبير عن أبيه ومن طريقين آخرين عن جابر وهو معلول، ورواه الدارقطني أيضاً عن ابن عباس ورواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان والخطيب في التلخيص من طريق عامر بن عبيدة عن أبي الزبير عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه وهو معلول ورواه ابن عدي من طريق سعيد بن راشد عن عطاء عن أبي هريرة.

مسألة: وطواف التطوع يكون واجباً بالنذر كالصلاة، والمراد بهذه الآية طواف الزيارة في الحج إجماعاً وهو ركن من أركان الحج إجماعاً، وليس شيء[٦] من الأطوفة ركناً من الحج سوى طواف الزيارة.

مسألة: وأما طواف القدوم فهو سنة عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد، وعند مالك واجب وبه قال أبو الثور من الشافعية يجب الدم بتركه ولا يفوت بفواته الحج إجماعاً، عن عروة بن الزبير قال: «قد حج النبي ﷺ فأخبرتني عائشة أن النبي ﷺ أول شيء بدأ به حين

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٤٧، ومسلم في الفتن حديث ٥٧، ٥٨، ٥٩.
(٢) الفحج: تباعد ما بين الفخذين.
(٣) أخرجه البخاري في الحج باب ٤٩.
(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم باب ١١.
(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٦١، والشافعي في مسنده ١٦٧.
(٦) في الأصل: شيئاً.

قدم مكة أن توضأ ثم طاف بالبيت ثم لم يكن عمرة ثم حج أبو بكر فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم تكن عمرة ثم عمر ثم عثمان مثل ذلك»(١) متفق عليه، وعن ابن عمر قال كان رسول الله ﷺ: «إذا طاف في الحج والعمرة أول ما يقدم سعى ثلاثة أطواف ومشى أربعة ثم سجد سجدتين ثم يطوف بين الصفا والمروة»(٢) متفق عليه، احتج مالك بحديث عروة بن الزبير على أن النبي ﷺ كان مفرداً بالحج لقوله ثم لم يكن عمرة وعلى وجوب طواف القدوم بالحديثين المذكورين لأنه ﷺ أول ما قدم طاف طواف القدوم، وقد صح عنه: «إنه قال ﷺ: «خذوا عني مناسككم»(٣) فصار واجباً بأن السعي بين الصفا والمروة جائز بعد طواف القدوم إجماعاً مع أن السعي بين الصفا والمروة واجب إجماعاً، وتقدم الطواف على السعي شرطاً لجواز السعي إجماعاً والواجب لا يتبع التطوع و لهذا لا يجوز للمكي أن يسعى بين الصفا والمروة إلا بعد طواف الزيارة، إذ ليس عليه طواف القدوم ولا يجوز له السعي بعد طواف نافلة فإن قلت: قد دل كثير من الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ كان قارناً لحديث أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ: يلبي بالحج والعمرة يقول: «لبيك عمرةً وحجاً»(٤) متفق عليه وحديث عمران بن حصين أنه ﷺ جمع بين حجته وعمرته، وحديث ابن عمر قال: «تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدي»(٥) الحديث متفق عليه، وبهذا الحديث ونحوه قال أحمد بن حنبل إنه ﷺ كان متمتعاً، قلنا: المراد بالتمتع في هذا الحديث هو القرآن، فإن التمتع بالعمرة إلى الحج يشتمل لغةً من أتى بهما جميعاً في عام واحد في أشهر الحج سواء أتى بهما بإحرام واحد أو بإحرامين كما أريد بقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وإطلاق التمتع على ما يقابل القرآن اصطلاح جديد للفقهاء، وما ذكرنا من الحديثين وغيرهما صريحة في أنه ﷺ أهل بهما جميعاً.

ثم اختلف الناس أنه ﷺ حين دخل المكة هل طاف طوافاً واحداً، أم طاف طوافين أحدهما للقدوم وثانيهما للعمرة، فالجمهور على أنه ﷺ أنه طاف حين قدومه طوافاً واحداً وقال أبو حنيفة طاف طوافين احتج الجمهور بما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «قدم النبي ﷺ وطاف وسعى بين الصفا والمروة ولم يقرب الكعبة لطوافه بها حتى رجع من عرفة» وحديث ابن عمر أنه أراد الحج عام نزل الحجاج بابن الزبير فقيل إن الناس كائن بينهم وإنا نخاف أن يصدون، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] إذن أصنع كما صنع رسول الله ﷺ أني أشهدكم إني قد أوجبت عمرة، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٦٣، ٧٨.
(٢) أخرجه البخاري في الحج باب ٦٣، ومسلم في الحج حديث ٢٣١.
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ١٢٥، وابن حجر في فتح الباري ١/ ٢١٧، ٤٩٩.
(٤) أخرجه البخاري في الحج باب ٣٤، ومسلم في الحج حديث ١٨٥، ٢١٥.
(٥) أخرجه البخاري في الحج باب ١٠٤، ومسلم في الحج حديث ١٧١، ١٧٣.

خرج حتى إذا كان بظاهر البيداء فقال: ما شأن الحج والعمرة إلا واحداً أشهدكم أني أوجبت حجاً مع عمرتي وأهدي هدياً اشتراه بقديد، فلم ينحر ولم يحل من شيء يحرم منه ولم يحلق ولم يقصر حتى كان يوم النحر فنحر وحلق ورأى أنه قد قضى الحج والعمرة بطوافه الأول قال ابن عمر وكذلك فعل رسول الله ﷺ متفق عليه، وفي رواية قال الراوي في آخر الحديث كان يقول ابن عمر من جمع بين الحج والعمرة كفاه طواف واحد لم يحل حتى يحل منهما جميعاً، وفي رواية لمسلم حتى إذا جاء البيت فطاف سبعاً وسعى بين الصفا والمروة سبعاً لم يزد عليه ورأى أنه مجزىء عنه. واحتجت الحنفية بحديث علي أنه جمع بين الحج والعمرة فطاف لهما طوافين وسعى لهما سعيين وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ فعل، رواه الدارقطني والنسائي بطرق ورواه محمد في كتاب الآثار عن أبي حنيفة بسنده عن علي موقوفاً أنه قال إذا أهللتَ بالحج والعمرة فطف لهما طوافين واسع لهما سعيين بين الصفا والمروة، وروى الطحاوي بسنده عن علي وابن مسعود قال: القارن يطوف طوافين ويسعى سعيين قال الحافظ ما روي عن علي وابن مسعود طرقه ضعيفة مرفوعاً، لكن روى الطحاوي وغيره موقوفاً عن علي وابن مسعود بأسانيد لا بأس بها إذا اجتمعت، قلت: هذا الحديث لو ثبت لا يدل على أنه ﷺ طاف حين قدومه بمكة قبل رواحه إلى منى طوافين طوافاً للعمرة وطوافاً للقدوم بل معنى هذا الحديث أنه ﷺ طاف لعمرته وسعى لها وذلك قبل رواحه إلى منى وطاف للحج يوم النحر وسعى له وكذا معنى حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ طاف طوافين وسعى سعيين، رواه الدارقطني، ولم يرد عنه ﷺ في شيء من الأحاديث الصحيحة ولا الضعيفة أنه طاف للقدوم بعد طواف عمرته إلا ما في مسند أبي حنيفة عن الضبي بن معبد قال أقبلت من الجزيرة حاجاً قارناً فمررت بسليمان بن ربيعة وزيد بن صوحان فسمعاني أقول لبيك بحجة وعمرة معاً فقال أحدهما هذا أضلُّ من بعيره وقال الآخر هذا أضل من كذا وكذا، فمضيتُ حتى قضيتُ نسكي ومررتُ بأمير المؤمنين عمر فساقه إلى أن قال فيه، قال يعني عمر له فصنعت ماذا قال مضيتُ فطفت طوافاً لعمرتي وسعيتُ لعمرتي ثم عدتُ ففعلت مثل ذلك لحجي ثم بقيت حراماً ما أقمنا أصنع كما يصنع الحاج حتى قضيتُ آخر نسكي، قال هديت لسنة نبيك ﷺ، ومسند الإمام أبي حنيفة بين جامعه وبين الإمام رجال لا يعرف حالهم فأحاديث المسند لا يصلح أن يعارض ما في صحيح البخاري من حديث ابن عباس أنه لم يقرب بطوافه بها حتى رجع من غرفة والله أعلم ولما ثبت أن النبي ﷺ كان قارناً ولم يطف حين قدومه سوى طواف العمرة، ظهر أن طواف القدوم ليس ركناً من أركان الحج ولا واجباً مستقلاً برأسه بل هو سنة مثل ركعتي تحية المسجد يتأدى في ضمن واجب أو سنة أخرى، ألا ترى أنه من أتى المسجد وصلى فريضة أو سنة مؤكدةً حين دخول المسجد أجزأته عن تحية المسجد فالنبي ﷺ قدم مكة وطاف للعمرة أجزأته عن طواف القدوم.

مسألة: وأما طواف الصدر فهو أيضاً ليس بركن إجماعاً بل هو واجب عند أبي حنيفة

وأحمد وهي رواية عن الشافعي لكن عند أبي حنيفة ﷺ هو من واجبات الحج، فمن طاف للوداع ثم اتفق له المقام بمكة ثم خرج بعد زمان لا يجب عليه الإعادة، وقال محمد هو واجب برأسه على من يريد أن يخرج من مكة مسافراً ففي الصورة المذكورة يجب عليه إعادة الطواف عنده وسنة عند مالك وهو أحد قولي الشافعي ويسقط بعذر الحيض والإحصار إجماعاً، لنا حديث ابن عباس قال: كان الناس ينصرفون في كل وجه فقال النبي ﷺ: «لا ينفر أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت»[(١)] رواه أحمد ورواه الدارقطني بلفظ كان الناس ينفرون من منى إلى وجوههم فأمرهم رسول الله ﷺ أن يكون آخر عهدهم بالبيت ورخص للحائض ورواه مسلم بلفظ «لا ينفر أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت»[(٢)] وفي المتفق عليه بلفظ أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خفف عن الحائض وحديث ابن عمر قال: «من حج البيت فليكن آخر عهده بالبيت الطواف إلا الحيض رخص لهّن رسول الله ﷺ، رواه الترمذي وقال هذا الحديث حسن صحيح وحديث عبد الله بن أوس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من حج هذا البيت أو اعتمر فليكن آخر عهده بالبيت» رواه الترمذي احتج أبو حنيفة بهذا الحديث أنه من واجبات الحج لقوله ﷺ من حج البيت الخ حيث جعل الطواف من واجبات الحج، قلت فعلى هذا يلزم أن يكون من واجبات العمرة أيضاً ولم يقل به أحد، ولأحمد عموم قوله ﷺ: «لا ينفر أحد حتى يكون آخر عهده» ولا يلزم على أصل أبي حنيفة حمل المطلق على المقيد لكون التقييد داخلاً على السبب كما في قوله ﷺ: «أدوا عن كل حر وعبد» وقوله ﷺ أدوا عن كل حر وعبد من المسلمين» بل يقال النفور مطلقاً سبب للطواف والنفور عن الحج أيضاً سبب ولا منافاة بينهما والله أعلم.

فصل

وللطواف بالبيت شرائط وأركان وواجبات وسنن وآداب. أما الشرائط فمنها النية فإنها شرط لكل عبادة مقصودة بالنصوص والإجماع لكن يكفي لطواف الزيادة نية مطلق الطواف ولا يشترط تعين نية الفرض، فإن قيل طواف الزيارة ركن من أركان الحج كالوقوف بعرفة وليست النية شرطاً للوقوف حتى من وقف بعرفة نائماً أو مغمى عليه أو وقف على جبال ولم يعرف أي منها العرفة يجزئه، قال عروة بن مضرس جئت يا رسول الله من جبل طي أكللتُ مطيتي وأتبعتُ نفسي والله ما تركت من جبل إلا وقفتُ عليه فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من أدرك معنا لهذه الصلاة يعني صلاة الصبح بجمع وأتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه»[(٣)] رواه أبو داود وغيره فما وجه الفرق بين الطواف والوقوف، ثم إن كانت شرطاً فما وجه قولكم يكفيه نية مطلق الطواف ولا يشترط نية تعين

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٢٢.
(٢) أخرجه مسلم في الحج حديث ٣٧٩.
(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.

الفرض مع أن تعين النية شرط لكل فريضة وقتها ظرف لها وليس بمعيار كالصلاة، قلنا: تحقيق المقام أن النية بجميع المناسك قد اقترن بالإحرام في ضمن نية الحج، فما لم يعترض نية أخرى منافية لنية النسك يعتبر ذلك النية السابقة موجودة عند كل ركن ولا يشترط تجديدها كما في أفعال الصلاة، إلا أنه ما كان من المناسك عبادة مستقلة كالطواف وركعتي الطواف ويشترط تجديد مطلق النية عند شروعه لأن الصلاة والطواف لكل منهما جهتان عبادة في نفسه وجزء عبادة، فمن حيث إنه عبادة في نفسه لا بد فيه من اقتران النية بأول جزء من أجزائه، ومن حيث إنه جزء عبادة يكفيه النية السابقة المقترنة للإحرام، فعملنا بالشبهين وقلنا لا بد فيه مطلق النية عند الشروع لأنه عبادة ولا يشترط تعيين النية لأنه جزء من عبادة، وما ليس بعبادة إلا من حيث كونه جزءاً للحج كالوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة فقلنا إنه لا يشترط اقتران النية به بل يكفيه اقتران النية بالإحرام.

مسألة: من طاف حاملاً غيره فإن كان الحامل حلالاً والمحمول محرماً ونوى طواف المحمول ونوى المحمول طوافه أو كان على العكس ونوى الحامل طواف نفسه أجزأه إجماعاً، وإن كان محرمين فإن قصد للمحمول فقط فله وإن طاف لنفسه فلنفسه وإن طاف لهما فللحامل فقط عند الشافعي وعند أبي حنيفة إن طاف لنفسه أو لهما ونوى المحمول طواف نفسه يتأدى طوافهما لوجود النية منهما ولا منافاة بينهما.

مسألة: ومنها الطهارة عن الحدث الأكبر والأصغر، ومنها طهارة البدن والثوب والمكان عن الأحداث، ومنها ستر العورة عند الجمهور لما مر من حديث عائشة قالت أول شيء بدأ به حين قدم النبي ﷺ أنه توضأ ثم طاف مع قوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم» وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قدمتُ مكة وأنا حائض، إلى قوله ﷺ: «افعلي كما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري»[1] وفي رواية لمسلم «حتى تغتسلي» وعن عائشة قالت: «حاضت صفية ليلة النفر وفيه قال النبي ﷺ أطافت يوم النحر؟ قيل: نعم قال: «فانفري»[2] متفق عليه، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن أبا بكر الصديق بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان[3]، وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] الآية فإنه أمر بتطهير المكان عبادةً وبتطهير الثوب والبدن دلالة بالطريق الأولى وكذا بالتطهير عن الأحداث بالطريق الأولى إذ الأخباث أخف من الأحداث شرعاً حيث يجوز الصلاة مع النجاسة عند الضرورة بخلاف الحدث، قال ابن عباس قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] فالطواف قيل قبل الصلاة وقد

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٨١، والحيض باب ١، ٧، ومسلم في الحج حديث ١١٩، ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في الحج باب ١٥١، ومسلم في الحج حديث ٣٨٧.

(٣) أخرجه البخاري في الحج باب ٦٧، والمغازي باب ٦٦، ومسلم في الحج حديث ٤٣٥.

قال رسول الله ﷺ: «الطواف بمنزلة الصلاة إلا أن الله قد أحلَّ فيه النطق فمن نطق فلا ينطق إلا بخير»[١] رواه الحاكم في المستدرك وصححه والطبراني والبيهقي وروى أبو نعيم في الحلية المرفوع فقط، وروى الترمذي والحاكم والدارقطني وابن خزيمة وابن حبان والبيهقي وصححه ابن السكن قوله ﷺ: «الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام» وعند أبي حنيفة رحمه الله الطهارة عن الأخباث سنة وستر العورة والطهارة عن الأحداث واجب يأثم بتركه ويجب بدنة إن طاف الفرض جنباً أو عرياناً ودم مطلقاً، فإن طاف للفرض محدثاً أو غيره جنباً أو عرياناً، وصدقته بنصف صاع من بر على مسكين إن طاف غير الفرض محدثاً وليس شيء من ذلك شرطاً عنده لأن ثابت بالكتاب مطلق الطواف والزيادة على الكتاب في حكم النسخ عنده ولا يجوز نسخ الكتاب بأحاديث الآحاد فقال بالوجوب عملاً بالأحاديث ولم يقل بالاشتراط لئلا يلزم نسخ الكتاب.

مسألة: ومن شرائط طواف الزيارة الوقت لا يتأدى قبله ويقضى بعده إجماعاً فإن أخر عن الوقت بتقصيره يجب عليه الدم عند أبي حنيفة رحمه الله خلافاً للجمهور، وإن أخَّرَ بعذر كالإحصار والحيض ونحو مما لا يجب الدم، ووقته من طلوع الفجر يوم النحر عند أبي حنيفة رحمه الله وعند الأئمة الثلاثة بعد نصف الليل من ليلة النحر لحديث عائشة قالت: «أرسل رسول الله ﷺ ليلة النحر فرمت الجمرة قبل الفجر ثم مضت فأفاضت» رواه الدارقطني والحديث ضعيف لأن في سنده ضحاك بن عثمان لينه القطان ومعارض بحديث ابن عباس «أن رسول الله ﷺ قدم ضعفة أهله وقال: لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[٢] رواه الترمذي وقال هذا الحديث صحيح وأخرجه أبو داود والنسائي والطحاوي وابن حبان من طريق الحسن الغربي وهو حديث حسن وأخرجه الترمذي والطحاوي وله طرق آخر عند أبي داود والنسائي والطحاوي وابن حبان يقوي بعضها بعضاً وأيضاً الإضافة معطوفة في حديث عائشة على الرمي بكلمة ثم والفاء فلا يدل تقدم الإفاضة على طلوع الفجر، وآخر وقته عند أبي حنيفة إلى غروب الشمس من ثاني أيام التشريق وقيل: وقته يوم النحر خاصة، وقد ذكرنا في سورة البراءة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ[٣] إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] أن عند الجمهور هو يوم النحر رواه أبو داود والحاكم وصححه من حديث ابن عمر مرفوعاً وهو المروي عن علي عليه السلام، وروى ابن جريج عن مجاهد يوم الحج الأكبر أيام منى كلها وكان الثوري يقول يوم الحج الأكبر أيام منى كلها مثل يوم صفين ويوم الجمل ويوم بعاث يراد به الحين من الزمان.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٤٥٩، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/١٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في الحج باب ٩٨، ومسلم في الحج حديث ٣٠٤، والترمذي في الحج باب ٥٨، وأحمد في المسند ١/٣٢٦، ٣٤٤.

(٣) وفي الأصل وأذان من الله إلى الناس.

مسألة: ومن شرائط الطواف الترتيب عند مالك والشافعي وأحمد وبه قال محمد وهو أن يبتدىء الطواف من الحجر الأسود يقوم مستقبلاً بحيث يكون جميع الحجر عن يمينه فيطوف جاعلاً للبيت عن يساره فلو طاف جاعلاً للبيت عن يمينه لا يجوز ولو بدأ بغير الحجر لم يحتسب فإذا انتهى إليه ابتدأ منه، وقال أبو حنيفة الترتيب ليس بشرط فعند أكثر الحنفية سنة يكره تركه والصحيح أنه واجب عند أبي حنيفة رحمه الله يلزم بتركه دم لمواظبة النبي ﷺ على ذلك وقوله: «خذوا عني مناسككم» ولم يقل بالاشتراط لئلا يلزم الزيادة على الكتاب.

مسألة: ويشترط أن يطوف في المسجد لا حول المسجد إجماعاً للنقل المستفيض المتواتر كذلك قالوا من طاف حول المسجد لا يقال إنه طاف بالبيت بل يقال إنه طاف بالمسجد فكان هذا القصر قصراً بدلالة العرف.

فصل

وركن الطواف سبعة أشواط فإن قيل الأمر لا يقتضي التكرار؟ قلنا كما لا يقتضي التكرار لا ينفيه وقد نقل إلينا بالنقل المستفيض عدد الطواف كعدد الركعات.

مسألة: من طاف أربعة أشواط وترك ثلاثة أجزأه عند أبي حنيفة ويلزمه الدم في طواف الزيارة والصدقة في غيره لأن للأكثر حكم الكل ويجبر النقصان بالدم والصدقة ولا يجزئه عند غيره كما لا يجزىء من ترك ركعة من الظهر، فإن عدد الأشواط كعدد الركعات والله أعلم.

مسألة: الحطيم قطعة من البيت يجب الطواف وراءه لحديث عائشة قالت: «سألت النبي ﷺ عن الجدر أمن البيت هو؟ قال: «نعم»، قلتُ: فما لهم لم يدخلوه في البيت قال: «إن قومَكِ قصرت لهم النفقة»، قلتُ: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: «فعل ذلك قومك يدخلها من شاؤوا ويُمنع من شاؤوا، لولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن ينكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت وأن ألصق بابه بالأرض»[(١)] متفق عليه، وروى الترمذي والنسائي عنها قالت كنت أحب أن أصلي في البيت فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فأدخلني الحجر وقال: «صلي فيه فإنما هو قطعة من البيت»[(٢)] الحديث، وروى أبو داود نحوه، واختار المحققون أن بعض الحطيم من البيت وهو ستة أذرع وشيء لما روى مسلم عن عائشة قوله ﷺ: «لولا قومك حديث عهد بالشرك لهدمت الكعبة وألزقتُها بالأرض وجعلتُ لها بابين باباً شرقياً وباباً غربياً ورددتُ فيها ستة أذرع من الحجر، وفي رواية لمسلم «علمي لا ريبك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع» وروى البخاري بسنده عن جرير بن حازم قال قال يزيد بن رومان شهدتُ ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه الحجر وقد رأيت أساس إبراهيم حجارةً كأسنمة الإبل فأشار إلى مكان، قال جرير فخرزت من الحجر ستة أذرع أو نحوها، وروى عن مجاهد أن ابن الزبير زاد فيه ستة أذرع مما يلي الحجر، وفي رواية ستة أذرع وشبر.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٤٢، وأحاديث الأنبياء باب ١٠، ومسلم في الحج حديث ٣٩٩، ٤٠٤.
(٢) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٩٢، والنسائي في المناسك باب ١٢٩.

مسألة: من طاف داخل الحطيم يجزئه عند أبي حنيفة ويلزمه دم لأن كونه من البيت ثبت بحديث الآحاد فلا يجوز به الزيادة على الكتاب، وقال الجمهور لا يجزئه لأن الزيادة على الكتاب بخبر الآحاد عندهم جائز، قلت: ليس هذا زيادة على الكتاب لأن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت العتيق واللام للعهد، والمراد البيت الذي بناه إبراهيم كما يقتضيه سياق الآية من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] وإذا ثبت بدليل ظني أن الحطيم قطعة من البيت فمن طاف داخل الحطيم وقع الشك في كونه مجزئاً وقد وجب عليه طواف البيت قطعاً فلا يخرج من العهدة بالشك، أو يقال البيت الذي بناه إبراهيم مجمل في حق المقدار والتحق الحديث به بياناً.

مسألة: جاز الطواف للزيارة راكباً بعذر إجماعاً، وإما لغير عذر فالمشي في الطواف واجب عند أبي حنيفة، فمن طاف راكباً بلا عذر يجب عليه أن يعيد ما دام بمكة فإن لم يعد يجب عليه الدم، وقال الجمهور المشي سنة وليس بواجب الحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ: طاف بالبيت وهو على بعيره كلما أتى الركن أشار إليه بشيء في يده وكبر» متفق عليه، وحديث جابر «طاف النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليراه الناس وليشرف وليسألوه» رواه مسلم، وفي حديث عائشة طاف النبي ﷺ في حجة الوداع حول الكعبة على بعيره يستلم الركن كراهة أن يضرب عنه الناس قالت الحنفية كان ذلك لأجل المرض لما روى أبو داود عن ابن عباس أنه ﷺ قدم مكة وهو يشتكي فطاف على دابته كلما أتى الركن استلم الركن بمحجنه فلما فرغ من طوافه أناخ فصلى ركعتين، وأجيب بأن مجرد الاحتمال لا يكفي وما رواه أبو داود ضعيف لأنه من رواية يزيد بن أبي زياد وهو ليس بالقوي لا يحتج بحديثه وقد أنكره الشافعي وقال: لا أعلمه اشتكى في هذه الحبة، قلت: ولو كان قدوم النبي ﷺ بمكة مشتكياً لكان شكواه مانعاً من المشي في طواف القدوم أيضاً، وقد صح عنه ﷺ من حديث جابر وغيره أنه ﷺ طاف طواف القدوم فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، وصح عنه ﷺ أنه سعى بين الصفا والمروة وكان يدور إزاره من شدة السعي، فثبت أنه ﷺ إنما طاف للزيارة راكباً لبيان الجواز وتعليم الناس مناسكهم وأما طواف النافلة فيجوز عند الجمهور بلا كراهة ولعله مكروه على أصل أبي حنيفة، لنا أنه ﷺ لما فتح مكة وطاف عند قدومه طاف على راحلته كما ذكرنا رواية البخاري في سورة الفتح.

مسألة: والموالاة ليس بشرط في الطواف إجماعاً بل هو سنة، روى سعيد بن منصور عن ابن عمر أنه طاف بالبيت فأقيمت الصلاة فصلى مع القوم ثم قام فبنى على ما مضى من طوافه، وكذا روى عبد الرزاق عن عبد الرحمن بن أبي بكر وروى سعيد بن منصور عن عطاء أنه كان يقول في الرجل يطوف بعض طوافه ثم يحضر الجنازة فيخرج فيصلي عليها ثم يرجع فيقضي ما بقي من طوافه، وقال نافع طول القيام في الطواف بدعة، وروي عن الحسن أنه قال: من أقيمت عليه الصلاة وهو في الطواف فقطعه أن يستأنفه.

مسألة: ويكره قطع طواف فريضة وإن أقيمت الصلاة المكتوبة، ألا ترى إلى حديث أم سلمة أنها طافت للصدر والنبي ﷺ يصلي الصبح.

مسألة: يقطع الطواف النافلة لو أقيمت للفريضة أو خاف فوت صلاة الجنازة أو نحوها لا لعبادة نافلة والأولى أن يقطع على الوتر لما ذكرنا من أثر عبد الرحمن بن أبي بكر.

مسألة: يجب بعد كل أسبوع ركعتان عند أبي حنيفة وهو رواية عن مالك وأحد قولي الشافعي فيلزم بتركه دم، وقد ذكرنا المسألة وما يتعلق بها في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] في سورة البقرة.

مسألة: وآداب الطواف أنه إذا رأى البيت كبر وهلل ودعا روى الطبراني أن الدعاء مستجاب عند رؤية الكعبة، ثم استقبل الحجر وكبر وهلل وقبَّله بشفتيه إن قدر غير مؤذٍ، روى البخاري عن ابن عمر أنه ﷺ كان يستلمه ويقبله، وروى الشافعي مرفوعاً وضع شفتيه عليه طويلاً، وعند ابن ماجه وضع عليه شفتيه يبكي طويلاً، وعند الحاكم قبَّله وسجد[(١)] عليه، وإن لم يقدر يمس شيئاً وقبله لما مرَّ أنه ﷺ طاف على بعيره يستلم الركن بمحجنه وإن عجز استقبله عن سعيد بن المسيب عن عمر أنه ﷺ قال له: إنك رجل قوي لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فاستقبله وكبر وهلل، رواه أحمد.

مسألة: وإذا أتى الركن اليماني استلم عند الجمهور وعند أبي حنيفة استلام الركن اليماني مستحب ليس بسنة، وفي الصحيحين عن ابن عمر «رأيت رسول الله ﷺ يستلمهما يعني الحجر الأسود والركن اليماني»[(٢)] وروى الدارقطني مرفوعاً «كان يقبّل الركن اليماني ويضع عليه خده» وروى ابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً «وكل يعني بالركن اليماني سبعون ملكاً فمن قال: اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] قالوا: آمين»[(٣)].

مسألة: ويرمل في الثلاثة الأول من أشواط طواف القدوم مضطبعاً[(٤)] وهو سنة من الحجر إلى الحجر صح عنه ﷺ أنه رمل من الحجر إلى الحجر ثلاثاً ومشى أربعاً وكلما مر بالحجر والركن فعل كما فعل أول مرة وختم الطواف باستلام الحجر، كذا صح عنه ﷺ ثم يصلي شفعاً عند المقام ويقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] والإخلاص ثم يرجع فيستلم الحجر ويكبّر ويهلّل، روى مسلم في حديث جابر «أنه ﷺ جعل المقام بينه وبين البيت وصلى ركعتين قرأ فيهما: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] ثم رجع إلى الركن الأسود فاستلمه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف، أو فاعل لفعل محذوف أو

---

(١) عن ابن عباس قال رأيت عمر بن الخطاب قبّل الحجر وسجد عليه ثم قال رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا.

(٢) أخرجه النسائي في المناسك باب ١٥٨، والدارمي في المناسك باب ٢٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه حديث ٢٩٥٧.

(٤) الأضطباع: أن يدخل جانب ردائه الأيمن تحت إبطه الأيمن فيلقيه على كتفه اليسرى فتكون كتفه اليمين مكشوفة.

منصوب بفعل محذوف يعني الأمر ذلك أو ذلك ثابت واجب الامتثال أو وجب ذلك أو عرفت ذلك أو احفظ ذلك، وذلك إشارة إلى ما سبق من الأحكام وهو وأمثاله يطلق للفصل بين كلامين ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني معاصي الله ومنهي عنه وتعظيمها أن يشق عليه اقترابها، فإن المؤمن يرى خطيئته صدرت منه كمثل جبل على رأسه يخاف أن يقع عليه، وإن المنافق يرى خطيئته كمثل ذباب على أنفه فعل بيده هكذا فطارت كذا وقع في الحديث، وقال الليث حرمات الله ما لا يحل انتهاكها يعني أو أمر الله ونواهيه، وقال الزجاج الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، وذهب قوم إلى أن معنى حرمات الله المناسك، وقال ابن زيد الحرمات ها هنا البلد الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام ﴿فَهُوَ﴾ يعني تعظيم الحرمات ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه حيث قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [البقرة: ١٧٣] الآية يعني فلم تحرمون منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وهذه جملة معترضة ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي الرجس الذي هو الأوثان سماه رجساً أي قذراً لأن العقول والطباع السليمة يتنفر عنها كما يتنفر المرء عن القاذورات، فهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها، وقيل: هو بمعنى الرجز وهو العذاب سماه رجساً لأنه سبب للتعذيب ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ يعني الكذب مشتق من الزَّور بفتح الزاء بمعنى الانحراف كما أن الإفك من الإفك بمعنى الصرف، فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع، والمراد ها هنا قولهم الملائكة بنات الله والأوثان شفعاؤنا عند الله وقولهم في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملكه، واللفظ عام يعم جميع أنواع الكذب في الحكايات والمعاملات روى أحمد وأبو داود وابن ماجه والطبراني وابن المنذر وغيرهم عن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: «عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله ثلاث مرات»(١) ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ قال قتادة كانوا في الشرك يحجون ويمنعون البنات والأمهات والأخوات وكانوا يسمون أنفسهم حنفاء والحنيف عند العرب من كان على دين إبراهيم عليه السلام فنزلت هذه الآية يعني اجتنبوا الشرك وقول الزور حتى تكونوا على دين إبراهيم.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن

---

(١) أخرجه أبو داود في الأقضية باب ١٥، والترمذي في الشهادات باب ٣، وابن ماجه في الأحكام باب ٣٢، وأحمد في المسند ٤/١٧٨، ٢٣٣، ٣٢١، ٣٢٢.

شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٌۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ أي مخلصين له الدين من الحنف محركة وهو الاستقامة كذا في القاموس والاستقامة على الحق هو الإخلاص لله والإعراض عما سواه ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ في العبادة ولا في إثبات وجوب الوجود والألوهية، يعني من أشرك لا يكون حنيفاً ولا على إبراهيم فإنه لم يك من المشركين، قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾ مع ما عطف عليه معطوف على قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ﴾ متفرع عليه وهو خبر لفظاً لكنه أمر معنى فإن معناه عظموا حرمات واجتنبوا الأوثان لأن عبادة الأوثان من أعظم المحرمات وأشدها فعلاً، والقول بما كان المشركون يقولونها ندباً أعظمها وأشدها قولاً ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ غيره ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني أن عبادة الله تعالى كمال ورفعة لا رفعة فوقه، فيفوق كل شيء كمن هو مستو على السماء فهو فوق كل شيء في الحس ولا يعدله غيره في الارتفاع، ثم إذا عبد مع الله غيره من الممكنات فكأنما سقط من السماء إلى الحضيض، إذ لا مذلة فوق من أذلّ نفسه حتى عبد ممكناً مثله بل دونه من الحجارة وأمثالها ﴿فَتَخۡطَفُهُ﴾ قرأ نافع[1] بفتح الخاء وتشديد الطاء من التفعيل للمبالغة والباقون بإسكان الخاء وتخفيف الطاء من المجرد ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾ استعارة بالكناية أراد بالطير الأهوية المردية فإنها تخطفه أي تسلبه وتوزع أفكاره ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ استعارة مثله أراد بالريح الشيطان فإنه يهوي ويطرح به ﴿فِي مَكَانٖ﴾ من الضلالة ﴿سَحِيقٖ﴾ بعيد من الحق يعني من أشرك استولى عليه النفس أو الشيطان وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع، وقال البيضاوي أو للتنويع فإن من المشركين من لا خلاص له أصلاً فكأنما اختطفه الطير فلم يبق من جسده شيء، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة كمن أوقعه الريح في مكان بعيد يمكن أن يأتي من هناك إلى مأواه، والظاهر أنه من التشبيهات المركبة والمعنى أنه من يشرك بالله فهو كمن سقط من السماء فإنه لا يملك لنفسه حيلة ويهلك لا محالة إما باستلاب الطيران وإما بسقوطه في مكان سحيق، قال الحسن شبه أعمال الكفار بهذا الحال في أنها تذهب وتبطل فلا يقدرون على شيء منها وعن البراء بن

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

عازب في حديث طويل ذكرنا بعضه في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] قوله ﷺ في ذكر موت العبد الكافر «إن الملائكة يصعدون بروحه حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ الآية فيقول الله اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فيطرح روحه طرحاً ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾(١) الآية.

﴿ذَٰلِكَ﴾ تفسيره مثل ما سبق ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس شعائر الله البدن والهدي وأصلها من الإشعار وهو إعلامها ليعرف أنها هدي وتعظيمها استسمانها، وقد صح أنه ﷺ أهدى مائة بُدنة، وروى أبو داود أن عمر ﷺ أهدى بختية طُلِبت منه بثلاث مائة دينار ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي تعظيمها ﴿مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذف هذه المضافات وذكر القلوب لأنها منشأ التقوى والفجور والآمرة بهما ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ يعني لكم في تلك الشعائر أي البُدن والهدي منافع يعني جاز لكم الانتفاع بها بركوبها والحمل عليها وشرب لبنها غير مضربها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت معلوم يعني إلى أن تنحروها كذا قال عطاء بن رباح وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق أنه جاز ركوب الهدي والحمل عليها وشرب لبنها غير مضر بها، ويؤيده حديث أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة فقال أركبها فقال: إنها بدنة قال: أركبها قال: إنها بدنة قال: اركبها ويلك في الثانية أو الثالثة»(٢) متفق عليه وحديث أنس نحوه رواه البخاري وحديث ابن عمر رأى رجلاً يسوق بدنة فقال: اركبها، وما أنت بمستن سنة أهدى من سنة محمد ﷺ رواه الطحاوي، وقال أبو حنيفة لا يجوز ركوبها ولا الحمل عليها ولا شرب لبنها إلا لضرورة لأنه لمَّا جعلها كلها لله تعالى فلا ينبغي أن يصرف منها شيئاً لمنفعة نفسه وهذا المعنى يقتضي المنع مطلقاً سواء كان به ضرورة أو لا، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ولا شك أن الركوب والحمل ينافي التعظيم والاستسمان لكن لما ثبت بالآحاديث جواز الركوب قلنا بالجواز في حالة الضرورة حملاً للأحاديث المذكورة على تلك الحالة كيلا يلزم ترك العمل بالسنة، ويدل على اشتراط الضرورة ما روى الطحاوي بسندين عن حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة وقد جهد قال: «اركبها» قال: يا رسول الله إنها بدنة قال: «اركبها» وفي رواية قال «اركبها وإن كانت»، وروي أيضاً عن ابن عمر أنه كان يقول في الرجل إذا ساق بدنة فأعيى ركبها وما أنتم بمستن سنة هي أهدى من سنة محمد ﷺ، وروى مسلم عن أبي الزبير قال: «سمعتُ جابر بن عبد الله يُسأل عن ركوب البدن قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «اركبها بالمعروف إذا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٢٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في الحج باب ١٠٣، ١١٢، والأدب باب ٩٥، ومسلم في الحج حديث ٣٧١ ـ ٣٧٣، وأبو داود في المناسك باب ١٧، والترمذي في الحج باب ٧٢.

ألجأت إليها حتى تجد ظهراً»[١] والمراد بالمنافع في الآية عندنا دفع الضرورة عند الإلجاء وقال مجاهد وقتادة والضحاك معنى الآية: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى أن تسميها وتوجبها[٢] هدياً فإذا فعل ذلك لم يكن شيء من منافعها ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي موضع حلول أجلها يعني منحرها، وقيل معناه وقت نحرها وحلول أجلها ومحلها معطوف على منافعها وكلمة ثم يحتمل التراخي في الوقت فإن وقت الانتفاع قبل وقت النحر، أو التراخي في الرتبة لأن المراد بالمنافع المنافع الدنيوية ونحرها للثواب وهو من المنافع الأخروية يعني لكم فيها منافع دنيوية ثم لكم فيها محلها يعني نحرها وهما مما ينتفع به في الآخرة ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ حال من محلها وهو فاعل للظرف المستقر بواسطة حرف العطف يعني لكم محلها كائناً إلى البيت العتيق، وجاز أن يكون محلها مبتدأ محذوف الخبر والظرف حال منه على طريقة ضربي زيداً قائماً يعني محلها كائن منتهياً إلى البيت العتيق، وجاز أن يكون مَحِلّها مبتدأ والظرف خبره والجملة معطوفة على جملة سابقة، والمراد بالبيت العتيق الحرم كله إذ هو في حكم البيت في كونه عتيقاً غير مملوك لأحد وهو حريم البيت ويقال في العرف بلغت البلد إذا بلغت فناءه وجاز أن يكون التقدير ثم محلها الحرم من أقصى أطرافه إلى البيت العتيق وهذه الآية حجة على جواز النحر في أي موضع شاء من الحرم، وقال مالك لا ينحر الحاج إلا بمنى ولا المعتمر إلا بمروة لأن النبي ﷺ فعل هكذا.

قلنا: نحر النبي ﷺ في الحج بمنى لا ينفي جواز النحر في غيره إذا ثبت بالكتاب والسنة وقال رسول الله ﷺ: «منى كلها منحر وكل فجاج مكة طريق ومنحر وكل عرفة وكل المزدلفة موقف»[٣] رواه أبو داود وابن ماجه من حديث جابر، وقيل: شعائر الله أعلام دينه ولا شك أن تعظيمها من أفعال أهل التقوى، وعلى هذا التأويل قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ولكم فيها﴾ ولكم فيها أي في الأنعام منافع دنيوية تنتفعون بها إلى أجل مسمى وهو الموت ثم محلها منتهية[٤] إلى البيت الذي يرفع إليه الأعمال أو يكون فيه ثوابها، وقيل: شعائر الله فرائض الحج ومشاهد مكة لكم فيها منافع دنيوية بالتجارة في الأسواق إلى أجل مسمًّى إلى وقت المراجعة والخروج من مكة ومنافع أخروية بالأجر والثواب في قضاء المناسك إلى أجل مسمى أي إلى انقضاء أيام الحج ثم محلها أي محل الناس فيها من إحرامهم منتهى إلى البيت العتيق أن يطوفوا فيه طواف الزيارة يوم النحر، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي جماعة مؤمنة سلفت منكم ﴿جَعَلْنَا

---

(١) أخرجه مسلم في الحج حديث ٣٧٥، ٣٧٦، وأبو داود في المناسك باب ١٧، والنسائي في المناسك باب ٧٦.

(٢) الأولى تسموها وتوجبوها إلخ.

(٣) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٢٤، وابن ماجه في المناسك باب ٧٣، والدارمي في المناسك باب ٥٠، وأحمد في المسند ٣/٣٢٦.

(٤) هكذا في الأصل ولعل الصواب منته فتأمل.

﴿مَنسَكًا﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر السين ها هنا وفي آخر السورة يعني موضع نسك أي متعبد والباقون بفتح السين بمعنى الموضع أو المصدر أي إراقة الدماء وذبح القرابين أو قرباناً يتقربون به إلى الله ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ دون غيره ويجعلوا نسيكهم لوجهه علّل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود من جعل المناسك تذكر المعبود وفيه دليل على كون الذكر شرطاً للذبح ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عند نحرها وذبحها سماها بهيمة لأنها لا تتكلم وقيدها بالأنعام لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير ولا يجوز ذبح شيء منها في القرابين إلا الأنعام بل الأهلية منها إجماعاً، وهذه الجملة معترضة لتحريض أمة محمد ﷺ على التأسي بمن سبق ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ يعني سموا على الذبائح اسم الله وحده إذ لا إله لكم غيره، جملة معللة يعني جعلنا لكل أمة متعبداً ليذكروا الله وحده لأن إله كلهم واحد وإن كانوا أمماً شتى ﴿فَلَهُ﴾ دون غيره ﴿أَسْلِمُوا﴾ انقادوا وأطيعوا يعني أخلصوا التقرب أو الذكر ولا تشوبوه بالإشراك ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ عطف على قوله وأذن في الناس بالحج إن كان خطاباً لنبينا ﷺ وإلا فعلى وإذ بوأنا يعني اذكر وقت تبوأتنا ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ الخبيت الشيء الحقير يعني من خشع وعدَّ نفسه حقيراً يقال أخبت إذا خشع وتواضع كذا في القاموس، ومن ها هنا قال ابن عباس وقتادة معناه المتواضعين وقال الأخفش الخاشعين وقيل: الخبت المكان المطمئن من الأرض ومن ها هنا قال مجاهد المطمئنين إلى الله وقال النخعي المخلصين فإن الاطمئنان هو الإخلاص وقال الكلبي هم الرقيقة قلوبهم، وقال عمرو بن أوس هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هيبة منه لإشراق أشعة جلاله عليها وعرفان عظمته ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من المصائب ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ عطف على صلة اللام الموصول يعني بشر الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم ﴿وَالْبُدْنَ﴾ جمع بدنة كخشب وخشبة، قال الجزري في النهاية البدنة يقع على الجمل والناقة والبقرة وهي بالإبل أشبه وسميت بدنة لعظمها وسمنها، وقال في القاموس البدنة محركة من الإبل والبقر وبه قال أبو حنيفة رحمه الله، وقال عطاء والسدي البدن الإبل والبقر وأما الغنم لا يسمى بدنة، وقال الشافعي هو من الإبل خاصة، قال البيضاوي إنما سميت بها الإبل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة، وقال البغوي سميت بدنة لعظمها وضخامتها يريد الإبل العظام الضخام الأجسام يقال بدن الرجل بدناً وبدانة إذا ضخم، وأما إذا أسنَّ واسترخى يقال بدّن تبديناً واحتج القائلون بأنها من الإبل خاصة بحديث جابر قال: «نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البقر عن سبعة والبدنة عن سبعة»[1] رواه الترمذي وقال هذا حديث صحيح، قلنا: روى مسلم عن جابر بلفظ قدمنا مكة فقال لنا رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الترمذي في الحج باب ٦٦.

«من لم يكن معه هدي فليحلل وأمرنا أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة»[١] قوله والبدن مفعول أول منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم﴾ مفعول ثانٍ ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي كائناً من أعلام دينه التي شرعها الله حال من المفعول الأول قيل: سميت شعائر لأنها تشعر أي يطعن بحديدة في سنانها ليعلم أنها هدي ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ منافع دينية ودنيوية ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس موقوفاً أنه قال: إن كانت بدنة فليقمها ثم ليقل الله أكبر الله أكبر الله أكبر اللهم منك ولك ثم ليسمّ الله ثم لينحر، وروى أبو داود وابن ماجه والحاكم في المستدرك عن جابر مرفوعاً أنه ﷺ كان يقول: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] على[٢] ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣] اللهم منك ولك بسم الله والله أكبر[٣]» ﴿صَوَآفَّ﴾ أي مصفوفة، قال في القاموس فواعل بمعنى مفاعل أي قياماً على ثلاثة قوائم قد صفت رجليها وإحدى يديها ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك، روى البخاري عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها فقال ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الأضاحي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن أبي ظبيان قال سألت ابن عباس عن قوله ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ قال إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ثم قل بسم الله والله أكبر اللهم منك ولك، وعلق البخاري قول ابن عباس صواف أي قياماً وذكره سفيان بن عيينة في تفسيره عن عبيد الله بن يزيد وأخرجه سعيد بن منصور وقال مجاهد الصواف إذا عقلت رجله اليسرى وقامت على ثلاث قوائم، وقرأ ابن مسعود صوافن وهو أن يعقل منها يد وينحر على ثلاث قوائم. وقرأ أبي والحسن ومجاهد صوافي بالياء أي خوالص لوجه الله ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ أي سقطت على الأرض ﴿جُنُوبُهَا﴾ أي ماتت ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أمر إباحة وقد مر مسألة جواز الأكل من الهدايا فيما سبق، الجملة الشرطية معطوفة على ﴿فَٱذْكُرُوا۟﴾ يعني ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ قال عكرمة وإبراهيم وقتادة القانع الجالس في بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل والمعتر الذي يسأل، وروى العوفي عن ابن عباس القانع الذي لا يتعرض ولا يسأل والمعتر الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل، فعلى هذين التأويلين يكون القانع من القناعة يقال قنع قناعةً إذا رضي بما قسم له، وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبي القانع الذي يسأل والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل فيكون

---

(١) أخرجه مسلم في الحج حديث ١٣٨.

(٢) قوله على ملة إبراهيم ثابت في الحديث الصحيح ولكن ليس من القرآن الحكيم وقوله الآتي وأنا من المسلمين صحيح ثابت في دعائه ﷺ ولكنه في القرآن المجيد وأنا اول المسلمين ـ وهذا التنبيه لدفع الالتباس فتنبه.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١١٩، وابن ماجه في الأضاحي باب ١.

القانع من قنع يقنع قنوعاً إذا سأل، وقرأ الحسن والمعتري وهو مثل المعتر يقال عرَّه واعترّهُ وعَرَاه واعتراه إذا أتاه يطلب معروفه إما سؤالاً وإما تعرضاً، وقال ابن زيد القانع المسكين والمعتر الذي ليس بمسكين ولا يكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي تسخيراً مثل تسخير وصفناه من نحرها قياماً ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع عظمها وقوتها منقادةً وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون في لبّاتها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص.

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها فقال أصحاب النبي ﷺ فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ الآية، وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينتضحون بها نحو الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فأنزل الله تعالى ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ قال مقاتل أي لن يرفع الله لحومها ولا دماؤها ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾ قرأ يعقوب لن تَنال وتناله بالتاء المثناة من فوق فيهما والباقون بالياء المثناة من تحت أي ولكن يرفع الله ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ يعني الأعمال الصالحة المترتبة على التقوى والإخلاص المراد بها وجه الله ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر غيره فتوحدوه بالكبرياء شكراً ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أرشدكم إلى معالم دينه ومناسك حجه وإلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها، وما مصدرية أو موصولة وعلى متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر، وقيل المراد التكبير عند الإحلال والذبح على إنعام هداكم الله إلى تسخيرها ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس يعني الموحدين عطف على بشر المخبتين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ[(١)] يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو يدفع بفتح الياء والفاء وإسكان الدال والمفعول محذوف، أي يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم من المؤمنين والباقون يدافع من المفاعلة أي يبالغ في الدفع مبالغة من يغالب فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ أي يبغض ﴿كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته، قال ابن عباس خانوا الله يعني كفار مكة فجعلوا معه شريكاً وكفروا نعمته، وقال الزجاج من تقرب إلى الأصنام بذبيحة وذكر عليه اسم غير الله فهو ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ولهذه الجملة في مقام التعليل للدفع.

أخرج أحمد والترمذي والسدي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر أخرجوا نبيهم ليهلكنَّ فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ﴾ قرأ نافع[(٢)] وعاصم وأبو عمرو على البناء للمفعول والباقون على البناء للفاعل أي أذن الله ورخص في

---

(١) وقوله إن الله يدافع تمهيد للإذن بالقتال يعني لمّا كان دفع الكفار بالمؤمنين سنة مستمرة من الله تعالى أذن بالقتال وهذا يتضمن الوعد بالنصر حتى يحصل الدفع.

(٢) وأبو جعفر ويعقوب ورويس عن خلف من طريق الشعبي ـ أبو محمد ـ.

القتال ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص[١] بفتح التاء على البناء للمفعول يعني للمؤمنين الذين يقاتلهم المشركون والباقون بكسر التاء على البناء للفاعل يعني للمؤمنين الذين أذن لهم في الجهاد وأن يقاتلوا الكفار، قال البغوي قال المفسرون كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون بين مضروب ومشجوج ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال فنزلت هذه الآية بالمدينة، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها أول آية نزلت في القتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية، وأخرجه ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير، وأخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري وقال البغوي قال مجاهد نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فكانوا يمنعون فأذن الله لهم في قتال الكفار والذين يمنعونهم من الهجرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي أذنوا في القتال بسبب أنهم ﴿ظُلِمُوا﴾ أي اعتدوا عليهم[٢] بالإيذاء ومن ها هنا لا يجوز قتل نساء أهل الحرب بالإجماع إلا أن يكون ذوات رأي أو مالٍ تُعِنَّ الكفار بأموالهنَّ على قتال المسلمين، ولا يجوز قتل الشيخ الغاني ولا الرهبان ولا العميان ولا الزمني خلافاً لأحد قولي الشافعي إلا أن يكون لهم رأي وتدبير فيجوز قتلهم اتفاقاً، ولا يجوز عند أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ قتل المرتدة بل تحبس أبداً حتى تموت أو تتوب وقال مالك والشافعي وأحمد الرجل والمرأة في حكم الردة سواء لنا حديث عبد الله بن عمر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[٣] متفق عليه، وحديث رباح بن الربيع قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء فبعث رجلاً فقال انظروا على ما اجتمع هؤلاء فجاء فقال على امرأة قتيل فقال: «ما كانت هذه تقاتل» وعلى المقدمة خالد بن الوليد فبعث رجلاً فقال: قل لخالد لا تقتل امرأة ولا عسيفاً»[٤][٥] رواه أبو داود، وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة»[٦] الحديث رواه أبو داود، والمرأة في تلك الأحاديث مطلقة تحت النفي تعم الكافرة الأصلية والمرتدة وعلل في النص عدم قتلها بعدم حرابها، قالت الحنفية الأصل في الأجزية أن تتأخر إلى دار الجزاء وهي الدار الآخرة، وأما دار الدنيا فهي دار

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٢) وعن محمد بن سيرين قال أشرف عليهم عثمان من القصر وقال ايتوني برجل تالي كتاب الله فأتوه بصعصعة بن صوحان ـ فتكلم فقال أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. فقال له عثمان كذبت ليس لك ولا لأصحابك ولكنها لي ولأصحابي.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٤٧، ١٤٨، ومسلم في الجهاد حديث ٢٥، ٢٦.

(٤) العسيف الأجير وقيل هو الشيخ الغاني وقيل العبد.

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١١١.

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٨٣.

التكليف والابتلاء قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فكل ما شرع جزاءً في هذه الدار إنما هو لمصالح تعود إلينا في هذه الدار كالقصاص وحد الشرب والقذف والزنى والسرقة فإنها شرعت لحفظ النفوس والأعراض والعقول والأنساب والأموال، فالقتل بالردة لا يجب إلا لدفع شر حرابه لا جزاءً على كفره لأن جزاء الكفر أعظم من ذلك عند الله فيختص القتل بمن يتأتى منه الحراب وهو الرجل، ولو كان جزاءً للكفر لما نهى رسول الله ﷺ عن قتل نساء أهل الحرب ولو كان جزاءً للكفر لزم تطهيره بالقتل كما في القصاص والحدود احتجوا على وجوب قتل المرتدة بعموم قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»[(١)] رواه البخاري من حديث ابن عباس، وفي الباب عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده في معجم[(٢)] الكبير للطبراني وعن عائشة في الأوسط، وأجاب الحنفية بأنا خصصنا النساء عن عموم كلمة من لما ذكرنا من أحاديث النهي عن قتل النساء بعد أن عمومه مخصص بمن بدل دينه من الكفر إلى الإسلام أو من اليهودية إلى النصرانية، قلت: لكن حديث ابن عباس رواه الحاكم وصححه بلفظ «من بدل دينه من المسلمين فاقتلوه» قال الحافظ هو من طريق حفص بن عمر العدني وهو مختلف فيه واحتجوا أيضاً بحديث جابر أن امرأة يقال لها أم مروان ارتدت فأمر النبي ﷺ أن يعرض عليها الإسلام فإن تابت وإلا قتلت، رواه الدارقطني من طريقين ولا في أحدهما فأبت أن تسلم فقتلت، قال الحافظ إسناداهما ضعيفان قال ابن همام الأول مضعف بعمر بن رواحة والثاني بعبد الله بن أدينة قال ابن حبان لا يجوز الاحتجاج به، وروى حديث آخر عن عائشة ارتدت امرأة يوم أحد فأمر النبي ﷺ أن تستتاب وإلا قتلت وفي سنده محمد بن عبد الملك قالوا فيه يضع الحديث، ثم هذه الأحاديث معارضة بأحاديث أخر مثلها منها ما أخرجه الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ؛ «لا تقتل المرأة إذا ارتدت»[(٣)] وفيه عبد الله بن عليس الجزري قال الدارقطني كذاب يضع الحديث وعن أبي هريرة أخرج ابن عدي في الكامل أن امرأة على عهد رسول الله ﷺ ارتدت فلم يقتلها وضعفه بحفص بن سليمان وأخرج الطبراني في معجمه عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن قال: «أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه فإن تاب فاقبل منه وإن لم يتب فاضرب عنقه وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن تابت فاقبل منها وإن أبت فاستتبها»[(٤)]، وروى أبو يوسف عن أبي حنيفة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي رزين عن ابن عباس لا تقتل النساء إذا هن ارتددن عن الإسلام ولكن يحبسن ويدعين إلى الإسلام ويجبرن عليه، وفي بلاغات محمد عن ابن عباس نحوه وروى عبد الرزاق أثر عمر أن امرأة تنصرت فأمر أن تباع في أرض ذات مؤنة عليها ولا تباع

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٤٩، والاعتصام باب ٢٨، والاستتابة باب ٢، وأبو داود في الحدود باب ١.

(٢) هكذا في الأصل ولعل الأولى المعجم ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه ٣/ ١١٧.

(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٦٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٩٠، وابن حجر في فتح الباري ١٢/ ٢٧٢.

في أهل ديتها فبيعت في دومة الجندل وروى الدارقطني أثر على المرأة تستتاب ولا تقتل وضُعِّفَ بجلاس.

مسألة: لو أمر الإمام بقتل بعض من نساء أهل الحرب مرتدة كانت أو غيرها لمصلحة فلا بأس به وقد ذكرنا في تفسير سورة الفتح أن رسول الله ﷺ عهد إلى أمرائه من المسلمين يوم الفتح حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا تقتلوا أحداً إلا من قاتلهم إلا نفراً سماهم فأمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وذكرنا هُناك أسماءهم منهم نساء منهن قينتان لعبد الله بن خطل قرنة وقرينة فقتلت قرينة وأسلمت قرنة وكانتا مرتدتين ومنهم سارة مولاة عمر بن هاشم وهند امرأة أبي سفيان كانتا كافرتين أصليتين أسلمتا يوم الفتح والله أعلم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وعد لهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾[1] التي كانت لهم بمكة الموصول مجرور بدل من الموصول في ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] أو منصوب بتقدير أعني أو أمدح أو مرفوع بتقدير المبتدأ أي هم الذين أخرجوا[2] وعلى جميع التقادير المال واحد ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ استحقوا به الجلاء ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ أن مع صلته في محل الجر بدل من الحق استثناء منه وإطلاق الحق عليه مبني على زعمهم الباطل، والغرض منه التنبيه على وضوح ظلمهم وكونهم على الباطل حيث زعموا ما هو بديهي البطلان وهو استحقاق الإخراج بالتوحيد حقاً، وهذا نظير قوله فلان لا خير فيه إلا أنه يسيء بمن يحسن إليه يعني أنه يزعم الإساءة إلى من أحسن إليه خيراً فكيف يكون فيه خير فهو بمنزلة الدعوى مع البرهان ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا﴾ [الأعراف: ١٢٦] ونظيره قول الشاعر[3]:

وبلدة ليس بها أنيس ... إلا اليعافير وإلا العيس

وقيل هذا استثناء منقطع بمعنى لكنهم أخرجوا بسبب قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ وهذا القول حق فالإخراج به إخراج بغير حق، وجاز أن يكون استثناء من كلام محذوف تقديره ما أخرجوا الشيء إلا بأن قالوا ربنا الله وهذا القول حق فالإخراج به إخراج بغير حق فهو في مقام التعليل لما سبق ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ﴾[4] ﴿ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم﴾ بدل من الناس ﴿بِبَعۡضٍ﴾ أي

---

(١) وعن عثمان بن عفان قال فينا نزلت هذه الآية الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق ثم مكنا في الأرض فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهي لي ولأصحابي - ١٢ - إزالة الخفا - منه رحمه الله.

(٢) إلى المدينة يعني محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه كذا قال ابن عباس - إزالة الخفاء منه رحمه الله.

(٣) الرجز لجران العود في ديوانه ص٩٧.

(٤) عن ثابت بن عرفجة الحضرمي قال حدثني سبعة وعشرون من أصحاب علي وعبدالله أن علياً قال إنما نزلت هذه الآية لولا دفع الله الناس الآية قال لولا دفع الله بأصحاب محمد من التابعين لهدمت صوامع - ١٢ - منه رحمه الله.

ببعضهم بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين، قرأ نافع[١] **لولا** دفاع الله بكسر الدال وألف بعد الفاء بمعنى المدافعة للمبالغة والباقون بفتح الدال وإسكان الفاء من غير ألف ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ قرأ نافع وابن كثير[٢] بتخفيف الدال والباقون بتشديدها ﴿صَوَامِعُ﴾ أدغم حمزة والكسائي وأبو عمرو وابن ذكوان[٣] تاء هدمت في الصاد ولم يدغم غيرهم[٤] قال مجاهد والضحاك يعني صوامع الرهبان وقال قتادة صوامع الصابئين ﴿وَبِيَعٌ﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ وهي كنائس اليهود يسمونها بالعبرانية صلوات ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ المسلمين من أمة محمد ﷺ ومعنى الآية لولا دفع الله الناس لهدمت في كل شريعة نبي مكان عبادتهم فهدمت في زمن موسى الكنائس وفي زمن عيسى البيع والصوامع وفي زمن محمد ﷺ المساجد ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ أي في المساجد أو في جميع الأربعة ﴿اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفة لمصدر محذوف أي ذكراً كثيراً ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ أي ينصر دينه، جواب قسم محذوف والجملة معترضة للوعد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على نصرهم ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمكن ممانعته تأكيد للوعد.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ﴾ أن ها هنا بمعنى إذا بدليل ما سبق من الوعد بالدفع والنصر فهو إخبار ووعد بالتمكين ﴿فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء وهو برهان على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يحصل المكنة في الأرض لغيرهم من المهاجرين، وأما معاوية رضي الله عنه فلم يكن من الذين أخرجوا، وقيل: الموصول بدل ممن ينصره والمعنى لينصرن الله من يكون هذا صفته ولا شك أن الله تعالى نصر الخلفاء الراشدين وأنجز وعده، حتى سلّطهم على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورث المسلمين على عهدهم أرض الكفار وديارهم وأموالهم ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وفيه تأكيد لما وعده.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

---

(١) ويعقوب وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٣) وخلف وهشام بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.
(٤) وفي الأصل: غيره.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا
نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ
فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي
مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ
بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ
ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ
مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ
ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن
تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ
يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد يعني كفار مكة ﴿فَقَدۡ كَذَّبَتۡ﴾ تعليل لجزاء محذوف لشرط مذكور تقديره فإن كذبوك فلا تحزن لأنه ليس بأمر مبدع فقد كذّبت ﴿قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَ﴾ جملة معترضة لتسلية النبي ﷺ ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غير فيه النظم وبنى للمفعول لأن قومه بني إسرائيل لم يكذبوه وإنما كذبه القبط ولأن تكذيبه كان أشنع لكون آياته أعظم وأشيع ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي أمهلتهم وأخرت عقوبتهم عطف على كذبت ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ بالعذاب عاقبة أمرهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أثبت الياء ورش[1] في الوصل حيث وقعت والباقون حذفوها، يعني كيف كان إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنةً والحياة هلاكاً والعمارة خراباً استفهام للتعجيب أو التهويل أو التقرير أي هو واقع موقعه ﴿فَكَأَيِّن﴾ فكم ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ كلمة كأين مرفوع بالابتداء أو منصوب بإضمار فعل يفسره ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب أهلكتها بتاء مضمومة على صيغة المتكلم المتوحد والباقون بنون مفتوحة وألف بعدها على التعظيم، يعني أهلكنا أهلها حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وكذا في قوله: ﴿وَهِيَ﴾ يعني وأهلها ﴿ظَالِمَةٞ﴾ أي واضعة للعبادة في غير

(١) ويعقوب في الحالين ـ أبو محمد ـ.

موضعها كافرة بالله مؤمنة بالطواغيت ﴿فَهِيَ﴾ أي حيطانها ﴿خَاوِيَةٌ﴾ أي ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي سقوفها يعني تهدمت عمرانها فسقطت السقوف أولاً ثم وقعت عليها الجدران فالظرف لغو متعلق بخاوية، أو المعنى خاوية أي خالية على عروشها يعني كائنة على عروشها أي مع بقاء عروشها وسلامتها وعلى هذا التأويل الظرف المستقر أما منصوب على الحال أو مرفوع خبر بعد خبر أي هي خالية وهي معطلة على عروشها بأن سقطت وبقيت الحيطان مائلة مشرفة عليها، والجملة معطوفة على أهلكناها لا على وهي ظالمة فإنها حال والإهلاك ليس حال خوائها، وعلى تقدير نصب كأين لا محل لهذه الجملة من الإعراب ﴿وَبِئْرٍ﴾ كانت في القرى أهلكنا أهل تلك الآبار فصارت كبئر[1] ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ متروكة لا تسقى عطف على قرية أي وكم من بئر معطلة ﴿و﴾ كم من ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أهلكنا أهلها يعني كم من قرية ساقطة عمران بعضها بعد خرابها ومرفوعة مشيدةً عمران بعضها أهلكنا أهلها، قال قتادة والضحاك ومقاتل معنى مشيدٌ رفيع طويل من قولهم شاد بناه إذا رفعه، وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد أي مجصص من الشيد وهو الجص، وجملة كأين من قرية بدل من قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ومن ثم عطف بالفاء، قال البغوي قيل: إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن أما القصر فعلى قُلة جبل والبئر في صفحه ولكل واحد منهما قوم في نعمة فكفروا فأهلكهم الله وبقي القصر والبئر خاليين، وروى أبو روق عن الضحاك أنه كان هذه البئر بحضرموت في بلدة يقال لها حاصورا وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح عليه السلام نجوا من العذاب فاتوا بحضر موت ومعهم صالح فلمّا حضروه مات صالح عليه السلام فسمي حضرموت لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حاصورا وقَعَدوا على هذه البئر وأمّروا عليهم رجلاً فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا، ثم إن أخلافهم عبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان وكان حمالاً فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عطف على محذوف وتقديره ألم يخرجوا من بيوتهم أفلم يسيروا في الأرض ﴿فَتَكُونَ﴾ منصوب بتقدير أن معطوف على مصدر مدلول تضمناً لقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني ألم يحصل منهم خروجهم من بيوتهم وسير في الأرض لأن تكون ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ وتكون إما تامة ولهم حال من فاعله، وأما بمعنى تصير والظرف خبره وبعده اسمه ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ صفة لقلوب والمفعول محذوف والمعنى يعقلون بها ما يجب تعقله من التوحيد بما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال ﴿أَوْ آذَانٌ﴾ عطف على قلوب ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الاستفهام للإنكار والإنكار راجع إلى كون قلوبهم عاقلة بعد السير وآذانهم سامعة للحق وفيه حثٌّ على التعقل والاستماع ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الإبصار في قوله

---

(١) وفي الأصل: فصارت معطلة إلخ وإنما زدنا لفظة كبئر لأن معطلة مجرورة لا تصلح أن تقع خبراً لصارت وتغيير الإعراب غير جائز فلا بد من تقدير والله أعلم ـ الفقير الدهلوي ـ.

تعالى: ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وفي تعمى ضمير راجع إلى الأبصار المقدم رتبة أو الظاهر أقيم مقامه، والفاء للتعليل أي تعليل استعقاب السير كون قلوبهم عاقلة وآذانهم سامعة يعني ليست أبصارهم عامية حتى لا يروا مشاهد الآثار الخالية بعد السير ولمّا كان حال الكفار من عدم الاعتبار بعد ظهور الآيات ومشاهدة الآثار شاهداً على كونهم عمياناً وموحباً لإنكار السامع لأبصارهم أكد هذه الجملة بأن وضمير القصة أو الضمير المبهم المفسر بما بعده إنزالاً للسامع منزلة المنكر لنفي العمى، ثم قال استدراكاً لدفع توهم نفي العمى عنهم مطلقاً وإزاحة لشبهة حارت عقول العقلاء في أنهم يرون آيات التوحيد ولا يعتقدون به ويسمعون براهين التحقيق ولا يصغون إليها ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ذكر الصدور للتأكيد ونفي احتمال التجوّز كما في قوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وفيه تنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص المبصر، قال قتادة البصر الظاهر بلغة ومتعة وبصر القلب هو البصر النافع قال رسول الله ﷺ: «شر العمى عمى القلب»[1] رواه البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عقبة بن عامر الجهني وأبو نصر السنجري في الإبانة عن أبي الدرداء ورواه الشافعي عن ابن مسعود موقوفاً، وذكر في الآية عمى القلب وأراد سلب المشاعر كلها عن قلوبهم كأنه قال ولكن تعمى وتصم القلوب التي في الصدور، قال البيضاوي قيل لما نزلت: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى فنزلت هذه الآية، قلتُ: وهذا ما أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قوله ذكر لنا أنها نزلت في عبد الله بن زائدة يعني ابن أم مكتوم ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ المتوعد به هذه الآية في مقام الاستشهاد على عمى قلوبهم بهم فإن استعجال العذاب دليل على العمى قال البغوي نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لامتناع الخلف في خبره فيصيبهم ما أوعدهم به البتة ولو بعد حين لكونه صبوراً لا يعجل بالعقوبة وأنجز الله الوعد يوم بدر والجملة حال أو معترضة وكذا قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ حال أو معترضة كأنه قال لم تستعجلونه وهو لا يجوز فواته وهذه الآية تدل على أنه كما لا يجوز الخلف في وعده لا يجوز التخلف في وعيده أيضاً، وذا لا ينافي المغفرة فإن آيات الوعيد مخصوصة بالنصوص والإجماع بمن لا يتداركه المغفرة ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي يعدون بالياء التحتانية ها هنا لقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ وقرأ الباقون بالتاء الفوقانية لأنه أعم لأنه خطاب للمستعجلين والمؤمنين جميعاً، قال ابن عباس في رواية عطاء معنى الآية أن يوماً عنده تعالى وألف سنة في الإمهال سواء، لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخيره وقيل: معناه أن يوماً من أيام

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٥.

العذاب الذي استعجلوه في الثقل والاستطالة والشدة كألف سنة مما تعدون فكيف يستعجلونه، وهذا كما يقال أيام الهموم طوال وأيام السرور قصار، وقيل: إنه بيان لتناهي صبره يعني أن الله لا يخلف وعده لكنه قد يؤخر العذاب إلى يوم هو عند ربك كألف سنة، قال مجاهد وعكرمة يعني يوماً من أيام الآخرة والدليل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وإن يوماً عند ربك كألف سنة»[١] رواه أحمد والترمذي وحسنه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام ونصف يوم»[٢] رواه الترمذي.

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي وكم ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب وإرجاع الضمائر والأحكام مبالغة في التعميم، وأورد هذه الجملة معطوفة بالواو على قوله: يستعجلونك ولن يخلف لأنه في مقام الاستشهاد لعدم التخلف وبيان أن المتوعد به واقع لا محالة، والتأخير مبني على عادة الله سبحانه، فإن كثيراً من القرى ﴿أَمْلَيْتُ﴾ أي أمهلت ﴿لَهَا﴾ كما أمهلتكم ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلكم حال من القرية ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني إلى حكمي مرجع الجميع، ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني لستُ بقادر على إتيان العذاب ﴿مُّبِينٌ﴾ أوضح لكم ما أنذركم به ولما كان الخطاب مع المشركين المستعجلين بالعذاب وإنما كان ذكر المؤمنين وثوابهم زيادةً في غيظهم اقتصر على ذكر الإنذار، ويمكن أن يقال: إن الإنذار مقدم على الإبشار وعام للفريقين والإبشار يخص بمن أطاعه بعدما أطاعه ولذلك اقتصر عليه. روى الشيخان في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال يا قوم إني رأيتُ الجيش بعيني وإني أنا النذير العُريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا[٣] وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم[٤]، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئتُ به ومثل من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحق»[٥] ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جئت به ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على حسب ما أمرتهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما سلف منهم قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يهدم ما كان قبله» رواه مسلم عن عمرو بن العاص ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالرد والإبطال ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ حال من

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم باب ١٣، وأحمد في المسند ٣/ ٦٣، ٩٦.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٣٧.

(٣) الدلجة: هو سير الليل، يقال: أدلج بالتخفيف: إذا سار من أول الليل، وادّلج، بالتشديد: إذا سار آخره.

(٤) اجتاحهم: أي من الجائحة، وهي الآفة التي تهلك.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٦، والاعتصام باب ٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٦.

فاعل سعَوا قرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين بالتشديد من التفعيل ها هنا وفي سورة سبأ أي مثبطين الناس عن الإيمان ينسبونهم إلى العجز والباقون بالألف من المفاعلة أي معاندين مشاقين، قال قتادة معنى معجزين ظانين مقدرين أنهم يعجزوننا بزعمهم أن لا بعث ولا نشر ولا جنة، ولا نار، أو معنى يعجزوننا أي يفوتوننا فلا نقدر عليهم، وقيل معنى معاجزين مغالبين يريدون أن يظهروا عجزنا عن إدراكهم، قلتُ يمكن أن يكون معناه معاجزين الرسول فإنه يمنعهم عن دخول النار وهم يقتحمون فيها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»(١) واللفظ للبخاري ولمسلم نحوه.

قال البغوي: قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين إنه لما رأى رسول الله ﷺ تولى قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاء به من الله عز وجل تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم فكان يوماً في مجلس لقريش فأنزل الله سورة النجم فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه لِمَا كان يحدث به في نفسه ويتمنى تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فلمَّا سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها وسجد في آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وسعيد بن العاص فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليه لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فإذا جعل لها محمد نصيباً فنحن معه، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبرائيل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوتَ على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كثيراً فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ الآية يعزيه وكان به رحيماً، وسمع من كان بحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ وبلغهم سجود قريش، وقيل أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم وقالوا هم أحب إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفياً ﴿مِن رَّسُولٖ﴾ من زائدة للتعميم، قال البغوي الرسول هو الذي يأتيه جبرائيل عياناً ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ هو الذي يكون نبوته إلهاماً أو مناماً، وقيل الرسول من بعثه الله

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٦، ومسلم في الفضائل حديث ١٧، ١٨.

بشريعة مجددة يدعو الناس إليها والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً.

عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله: أي الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم»، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: «نعم نبي مكلَّم». قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيراً»[١] وفي رواية عن أبي أمامة قال أبو ذر قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيراً»[٢] رواه أحمد وابن راهويه في مسنديهما وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك صحيح رواية أبي أمامة ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قال بعض المفسرين معناه إذا أحب شيئاً واشتهاه وحدث به نفسه ما لم يؤمر به، استثناء مفرغ من رسول ونبي على الحال تقديره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ في حال من الأحوال إلا مقداراً في شأنه أنه إذا تمنى ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي وسوس إليه ووجد إليه سبيلاً وألقى في مراده، وما من نبي إلا إذا تمنى أن يؤمن قومه، ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى الشيطان ﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ عليه ما يرضى قومه، وقال البيضاوي إذا زور نفسه ما يهويه ألقى الشيطان فيما يشتهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي يبطله ويُذهبه بعصمته عن الركون ويرشده إلى ما يزيحه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة، وقال أكثر المفسرين معنى قوله إلا إذا تمنى أي قرأ كتاب الله ألقى الشيطان في أمنيته أي في قراءته قال الشاعر في عثمان رضي الله عنه حين قتل (شعر)[٣]:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حمام المقادر

فإن قيل: كيف يجوز الغلط في التلاوة على النبي ﷺ وكان معصوماً من الغلط في أصل الدين وقال الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] يعني إبليس، ومن ها هنا قال البيضاوي هو يعني ما ذُكر في شأن نزول الآية وإلقاء الشيطان في قراءة سورة النجم مردود عند المحققين، لكن قال الشيخ جلال الدين السيوطي هذه القصة رواها البزار وابن مردويه والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس، قلتُ: يعني عن سعيد بن جبير عنه قلتُ: قال البزار لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد تفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور، وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر بسند صحيح عن سعيد بن جبير مرسلاً قال: «قرأ رسول الله ﷺ بمكة والنجم فلمَّا بلغ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى أن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٧٨، ١٧٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٦٦.

(٣) البيت من الطويل، وهو لحسان بن ثابت في تفسير ابن حيان ٦/ ٣٨٢، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (منى)، ومقاييس اللغة ٥/ ٢٧٧، وكتاب العين ٨/ ٣٩٠، وتاج العروس (منى).

شفاعتهن لترتجى فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا فنزلت: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية، وأخرجه النحاس عن ابن عباس متصلاً بسند فيه الواقدي وأخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس وأورد ابن إسحاق في السيرة عن محمد بن كعب وموسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب وابن جرير عن محمد بن كعب ومحمد بن قيس وابن أبي حاتم عن السدي كلهم بمعنى واحد وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى طريق سعيد بن جبير الأول الذي ذكره البزار وابن مردويه والطبراني، وقال الحافظ ابن حجر لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً مع أن لها طريقين صحيحين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين أحدهما ما أخرجه الطبراني من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب الزهري حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وثانيهما ما أخرجه أيضاً من طريق المقيم بن سليمان وحماد بن سلمة عن داود عن أبي هند عن أبي العالية.

قلنا: اختلف العلماء في الجواب عن الإشكال فقال بعضهم إن الرسول لم يقرأه ولا سمع منه أصحابه ولكن الشيطان ألقى ذلك بين قراءته في أسماع المشركين فظن المشركون أن الرسول ﷺ قرأه، وقال قتادة أغفى النبي ﷺ إغفاء فجرى على لسانه بإلقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان فلم يلبث حتى نبهه الله عليه(١)، قيل: إن شيطاناً يقال له أبيض عمل هذا العمل وكان ذلك فتنة ومحنة والله يمتحن عباده بما يشاء. فإن قيل: كلا التقديران سواء قرأ الشيطان وحسب الناس أن النبي ﷺ قرأه أو جرى على لسانه في حالة إغفائه يخل

(١) قال القاضي عياض في الشفاء لم يخرجه أحد من العلماء أهل الصحة ولا رواه ثقة سليم متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المؤلفون بكل غريب المتلفقون من الصحف كل صحيح وسقيم ـ وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال لقد ابتلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلق بذلك الملحدون من مع ضعف نَقَلَتُهُ واضطراب رواياته وانقطاع أسانيده واختلاف كلماته ـ فقائل يقول إنه في الصلاة وآخر يقول قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه سورة النجم وآخر يقول بل حدث نفسه فسهى وآخر يقول قالها وقد أصابته سنة وآخر يقول ان الشيطان قالها على لسانه وان النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبرئيل قال ما هكذا أقرأتك وآخر يقول بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم قال والله ما هكذا نزلت إلى غير ذلك من اختلاف الرواة وممن حكيت هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحبها قال الخفاجي في تسليم الرياض أي إلى أصحابي من أصحاب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قالها وقيل المعنى لم يعزها لصاحب لها قد قالها ـ الفقير الدهلوي ـ وأكثر الطرق عنهم ضعيفة واهية والمرفوع فيه في حديث سعيد عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال فيما أحسب الشك في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة ـ قال أبو بكر البزار هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم باسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا ـ ولم يسنده عن سعيد إلا أمية بن خالد وغيره مرسلة عن سعيد بن جبير ـ وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ وقد بين ذلك أبو بكر أن لا يعرف من طريق يجوز ذكره إلا هذا وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه وأحاديث الكلبي مما لا يجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه ـ منه رحمه الله ـ.

بالوثوق بالقرآن؟ قلنا قد تكفل الله تعالى الوثوق بقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢] أي يبطل ويذهبه ويظهر على الناس أنه من إلقاء الشيطان ثم يحكم الله آيته المنزلة أي يثبتها ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان. فإن قيل: هذه الآية حينئذ أيضاً يحتمله؟ قلنا: إذا ضمت هذه الآية بالبرهان العقلي المستدعي صحة رسالة الرسل وعصمتهم عن الخطأ والزلل في أصول الذين يفيد يقيناً في قوة البداهة أن هذه الآية وكلما أثبته الله وأحكمه من الآيات والشرائع والأحكام إنما أثبته وأحكمه الله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس واستعداداتهم فيفعل بكل ما يستحقه من الهداية أو الإضلال ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله لا يسع لأحد الاعتراض عليه، أو عليم بما أوحى إلى نبيه وبقصد الشيطان حكيم لا يدعه حتى يكشفه ويزيله.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عليه بتمكين الشيطان منه ﴿فِتْنَةً﴾ أي محنة وبلاء ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي المشركين ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني أهل النفاق والشرك وضع الظاهر موضع ضميرهم قضاءً عليهم بالظلم ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ خلاف عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين ﴿بَعِيدٍ﴾ قال البغوي لما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان في أمنيَّته ﷺ قد وقع في فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه وشدةً على من أسلم ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ عطف على ليجعل واللام متعلق بمقدر يعني فعلنا تمكين الشيطان على الإلقاء ونسخ ما يلقي الشيطان لأمرين لنجعل ما يلقي الشيطان إلى آخره وليعلم، وجاز أن يكون اللام متعلقاً بقوله: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وحينئذٍ يكون اللام في ليجعل وليعلم للعاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ [القصص: ٨] ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله وأحكامه وقال السدي أي التصديق بنسخ الله ﴿أَنَّهُ﴾ أي الذي أحكمه الله من آيات القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ النازل من عنده أو إنه، أي تمكين الشيطان حق لأنه جرت به عادة الله في جنس الإنسان من لدن آدم ﷺ ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ويعتقدوا أنه من الله أو بالله تعالى وعطف يؤمنوا على يعلم بالفاء دليل على أن مجرد العلم ليس بإيمان بل هو أمر وهبي مترتب على العلم غالباً بجري العادة ﴿فَتُخْبِتَ﴾ أي تخشع ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ بالانقياد والخشية وتطمئن عنده ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فيما أشكل عليهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي اعتقاد صحيح وطريق قويم وهو الإسلام.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي شك ﴿مِّنْهُ﴾ أي ناشئة من القرآن أو الرسول أو الذين آمنوا أو مما ألقى الشيطان في أمنيته ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي وقت الموت ﴿بَغْتَةً﴾ أي إتياناً فجاءة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال عكرمة والضحاك عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة، وقيل: المراد بالساعة يوم القيامة وبيوم عقيم يوم بدر إذ لم يكن للكافرين في ذلك اليوم خير والعقيم في اللغة المنع ومنه

الريح العقيم، وجاز أن يكون المراد بالساعة وبيوم عقيم واحداً وهو يوم القيامة فيكون الثاني وضع الظاهر موضع المضمر للتهويل ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم تزول مريتهم ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده ظرف مستقر ﴿يَحْكُمُ﴾ الله ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بالمجازاة جملة مستأنفة أو في محل النصب على الحال والضمير يعم المؤمنين والكافرين لتفصيله بقوله ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إدخال الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى وعقاب الكافرين مسبب بأعمالهم ولذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ولم يقل هم في عذاب، قال رسول الله ﷺ: «لن ينجي أحداً عمله قالوا»: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١) رواه الشيخان في الصحيحين، ورويا فيهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدخل الجنة أحداً عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني بمغفرة ورحمة»(٢) ولمسلم من حديث جابر نحوه، وقد ورد نحوه من حديث أبي سعيد عند أحمد وابن أبي موسى وشريك بن طارق وأسامة بن شريك والسد بن كرز عند الطبراني وأما قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] فمحمول على أن للجنة منازل تنال بالأعمال وأما أصل دخولها والخلود فيها فبفضل الله المتعال أخرج هناد في الزهد عن ابن مسعود قال: تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقسمون المنازل بأعمالكم، وأخرج أبو نعيم عن عون بن عبد الله مثله.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ فارقوا الأوطان والعشائر ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طلب مرضاته ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ في الجهاد قرأ ابن عامر قُتِّلوا بالتشديد من التفعيل للتكثير والمبالغة والباقون بالتخفيف ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾ حتف أنوفهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي والله ليرزقنهم الله في الجنة ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي نعيمها التي لا تنقطع فلا مثل لها ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أي الجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال البشر ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال معانديهم ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في العقوبة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك أو ذلك حق أو تحقق ذلك أو عرفت ذلك الذي قصصنا عليك ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي جازى الظالم بمثل ما ظلم به عليه أطلق لفظ العقاب الذي هو الجزاء على ابتداء الظلم للازدواج أو للمشاكلة ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة على الظلم ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ لا محالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٨، والمرضى باب ١٩، ومسلم في المنافقين حديث ٧١ ـ ٧٣. ٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٩، والرقاق باب ١٨، والمرضى باب ١٩، ومسلم في المنافقين حديث ٧٦ ـ ٧٨، والبر حديث ٥٢.

للمنتصر حيث أتبع هواه في الانتقام وأعرض عماندب الله إليه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣] وفيه تعريض بالحث على المغفرة فإنه تعالى مع كمال قدرته وعلو شأنه لما كان يعفو ويغفر فغيره بذلك أولى وتنبيه على أنه قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على العقوبة، قال البغوي قال الحسن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ معناه قاتل المشركين كما قاتلوه ثم بغى عليه أي ظلم بإخراجه من منزله وقيل نزلت الآية في قوم من المشركين أتوا قوماً من المسلمين لليلتين بقِيتا من المحرم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفوا من القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون فنصروا عليهم، قلتُ فعلى هذا قوله: وإن الله لعفو عن المؤمنين غفور لهم في قتالهم في الشهر الحرام وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل نحوه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ قادر على كل شيء وقد جرى عادته على المداولة بين الأشياء المتعاندة ومن ذلك أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ يعني يزيد في أحد الملوين ما ينقص من الآخر أو يحصل ظلمة الليل مكان ضوء النهاء بمغيب الشمس وعكس ذلك بطلوعها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ يسمع أقوال المعاقِب والمعاقب أو سميع دعاء المؤمنين فيجيبهم ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما ﴿ذَٰلِكَ﴾ الاتصاف بكمال العلم والقدرة والسمع والبصر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت في نفسه الواجب لذاته وحده لأن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ لكل ما يوجد سواه عالمٌ بذاته وبما عداه متصف بجميع صفات الكمال، إذ من ثبت ألوهيته لا يمكن إلا أن يكون قادراً عالماً سميعاً بصيراً ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر هنا وفي لقمان في الموضعين بالتاء الفوقانية خطاباً للمشركين والباقون بالياء التحتانية أي ما يدعونه أي المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي المعدوم الممتنع وجوده في حد ذاته أو باطل الألوهية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المتعالي من أن يكون له شريك ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الذي ليس كمثله شيء ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تبصرو أو ألم تعلم والاستفهام للإنكار يعني تعلم وتبصر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ يعني أصبحت مخضرة، بالنبات أورد لفظ المضارع للماضي لاستحضار صورة ما مضى وللدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، والجملة دليل آخر على كمال علمه وقدرته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه أو لطفه إلى كل ما دقَّ وجل ﴿خَبِيرٌ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة وبأحوال عباده وما احتاجوا إليه من الأرزاق.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ في ذاته عن كل شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله أو المحمود في ذاته وإن لم يوجد حامد غيره ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعلها مذلّلة لكم معدة لمنافعكم ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ بالنصب عطف على ما أو على اسم أن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حال منها أو

استئناف وقيل: معناه ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الدواب لتركبوها في البر وسخر لكم الفلك لتركبوه في البحر ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني من أن تقع على الأرض ومن هذا يظهر أن الأجسام الفلكية مثل الأجسام الأرضية في الميل إلى ما تحته وإنما أمسكها الله تعالى بقدرته، وقال البيضاوي أمسكها بأن خلقها على صور متداعية إلى الاستمساك ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ استثناء من مضمون قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني لا تقع على الأرض في حال من الأحوال إلا متلبساً بإذنه أي بمشيئته، قال البيضاوي وذلك يوم القيامة، قلتُ: ولم نعلم وقوع السماء على الأرض يوم القيامة بل الانشقاق والانفطار وكونه كالمهل ووردة كالدهان وطيُّه كطي السجل، فالأولى أن يقال الاستثناء تكلم بالباقي بعد الثنيا وذلك لا يقتضي وجود المستثنى، فمعنى الآية لا يقع السماء على الأرض بغير إذنه ولا يقتضي ذلك الإذن بالوقوع في وقت من الأوقات ولا لا[1] وقوعها والله أعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث جعل لهم أسباب الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفع عنهم، أنواع المصائب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بنفخ الأرواح في أجسادكم بعد أن كنتم جماداً عناصر ونطفاً وعلقاً ومضغاً وأجساداً لا روح فيها ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم بنزع الأرواح من أجسادكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة بإعادة الأجسام ونفخ الأرواح فيها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المشرك ﴿لَكَفُورٌ﴾ لجحود للنعم بعد ظهورها لا يعرف نعمة الإنشاء المبدىء للوجود ولا الإفناء المقرب إلى الموعود ولا الإحياء الموصل إلى المقصود أو المعنى كفور بربه مع قيام البراهين القاطعة على وجوده ووحدته وصفاته الكاملة.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا
كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ
عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن
نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ
وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ

(١) وفي الأصل: ولا وقوعها ـ الفقير الدهلوي ـ.

تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا﴾ لم يذكر ها هنا بالواو للعطف كما ذكر فيما سبق لأن هُناك وقعت الآية مع ما يناسبها من الآي الواردة في النسائك فعطفت على أخواتها وهذه وقعت مع التباعد عن معناها فلم يعطف ﴿مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ﴾ قال ابن عباس يعني شريعةً عاملون بها وروي أنه قال عيداً، وقال مجاهد وقتادة قربان يذبحون فيه، وقيل: موضع عبادة، وقيل مألفاً يألفونه والمنسك في كلام العرب الموضع المعتاد لعمل خير أو شر ومنه مناسك الحج لتردد الناس إلى أماكن الحج، وفي القاموس النسك العبادة ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨] متعبداتنا ونفس النسك وموضع يذبح فيه والنسيكة أي الذبيحة والنسك المكان المألوف والمنسك المقعد ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ سائر أرباب الملل ﴿فِي ٱلْأَمْرِۚ﴾ أي في أمر الدين أو النسائك لأنهم إما جهال أو أهل عناد ولو لم يعاند أهل العلم منهم فلا سبيل لهم إلى منازعتك لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع، قال البغوي نزلت في بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب محمد ﷺ ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله، قال الزجاج معنى قوله: لا ينازعنك لا تنازعهم أنت كما يقال لا يخاصمَنَّك فلان أي لا تخاصمه وهذا جائز فيما يكون بين اثنين فلا يجوز لا يضربنك زيد تريد لا تضربه وجاز لا يضاربنك زيد بمعنى لا تضربه، وذلك لأن المنازعة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين فإذا ترك أحدهما ذهبت المخاصمة ﴿وَٱدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ إلى توحيده وعبادته، قلت: بل إلى ذاته والوصول إليه بلا كيف ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق سوي إلى الحق ومدارج القرب ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ بعد ظهور الحق ولزوم الحجة ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فمجازيكم عليها الجملة الشرطية معطوفة على قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ وفي هذه الجملة وعيد مع رفق وكان ذلك قبل الأمر بالقتال ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يقضي بين المؤمنين منكم والكافرين فيظهر الحق من الباطل بإثابة المؤمنين وعقاب الكافرين يوم القيامة كما فصل بينهم في الدنيا بالحجج والآيات ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين الاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ استفهام تقرير ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ يعني اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه قبل خلق ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ ما كان وما يكون فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿إن ذلك﴾ أي الإحاطة به أو إثباته في اللوح أو المحكم بينكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأن علمه مقتضى ذاته ونسبة المعلومات كلها إلى علمه سواء ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ عطف على مضمون ما سبق من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى وكمال قدرته يعني أتعلمون تلك الدلائل الواضحة والبراهين

القاطعة في التوحيد والألوهية وهو مع ذلك يعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ الله ﴿بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي حجة تدل على جواز عبادته ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله أو بالنقل الصحيح المفيد للعلم من المخبر الصادق الذي دل على صدقه برهان أو المتواتر المنتهي إلى إحدى الحواس الخمس ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي المشركين الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يمنعهم من عذاب الله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الشرط مع الجزاء معطوف على يعبدون ﴿ءَايَـٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحات إتياناً من الله تعالى أو واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الإلهية ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي الإنكار يعني يظهر في وجوههم آثار الإنكار من العبوس والغيظ وضع المظهر موضع الضمير للدلالة على أن الباعث على الإنكار إنما هو شدة كفرهم لا غير ذلك، أو المراد بالمنكر ما يقصدونه بالمؤمنين من الشر ﴿يَكَادُونَ﴾ حال من الذين كفروا ﴿يَسْطُونَ﴾ أي يبطشون أو يبسطون إليهم أيديهم بالسوء وأصله من سطا الفرس يسطو إذا قام على رجليه رافعاً يديه إما مرحاً أي أشراً وإما نزواً على الأنثى، وفي القاموس سَطَا عليه وبه سطواً وسطوةً صال أو قهر بالبطش ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ يعني بمحمد ﷺ وأصحابه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ﴾ لكم وأكره إليكم ﴿مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي من هذا القرآن أو من غيظكم على التالين ومن سطوكم عليهم أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوا عليكم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي هو النار كأنه جواب سائل ما هو ويجوز أن يكون مبتدأ خبره ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ أي وعدها(١) الله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأن مصيرهم إليها وعلى الأول هذه جملة مستأنفة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي بين لكم حال مستغرب أو قصة عجيبة ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي للمثل استماع تدبر وتفكر، وقيل: معنى الآية جعل لي مثل يعني جعل الكفار لله سبحانه مثلاً مماثلاً في استحقاق العبادة وهي الأصنام فاستمعوا حالها ثم احكموا هل يجوز به التمثيل له تعالى ثم بين ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ قرأ يعقوب بالياء التحتانية والضمير راجع إلى الكفار والباقون بالتاء على الخطاب للكفار والراجع إلى الموصول محذوف يعني إن الذين تدعونها أيها الكفار آلهة كائنة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ أي لا يقدرون على خلق ذباب واحد مع صغره وقلته وخسته، لأن لن بما فيها من تأكيد النفي دالّة على منافاة ما بين المنفي والمنفي عنه، والذباب مشتق من الذب لأنه يذب وجمعه أذبة للقلة وذِبّانٌ للكثرة كغُرابٍ وأغربة وغربان ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟﴾ أي الأصنام ﴿لَهُۥ﴾ أي لخلق الذباب وهو بجوابه المقدر في موضع الحال جيء بها للمبالغة أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين قالوا وحينئذ للحال، وقيل للعطف على

---

(١) تكرار محض ولعل منشأه توهم عدم الضمير الراجع إلى النار في هذه الآية ولذلك لم يكتبه المفسر العلامة رحمه الله تعالى في نسخته التي بايدينا فقال وعد الله أي وعدها الله فالبيان عين المبين ـ الفقير الدهلوي ـ.

معطوف محذوف تقديره مستوٍ حالهم في عدم القدرة على الخلق لو لم يجتمعوا لخلقه ولو اجتمعوا له أي لا يقدرون عليه في شيء من الأحوال ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ويضعون بين يديها الطعام وكانت الذباب تقع عليه وتسلب منه فقال الله سبحانه إن يسلب الذباب شيئاً منهم لا يقدرون على استنقاذه ولا يقوون على مقاومته فضلاً من أن يخلقوه، جهَّل الله سبحانه الكفار غاية التجهيل حيث أشركوا بالله القادر على الممكنات كلها المتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها أعجز الأشياء الذي لا يقدر على خلق أقل الإحياء وأذلها ولو اجتمعوا له بل لا يقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل، ويعجز عن دفعه عن نفسها واستنقاذ ما يتخطفه منها ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب عن الصنم والمطلوب الصنم يطلب الذباب منه السلب ولا شك أن الطالب ضعيف والمطلوب أضعف منه، وقيل: على العكس الطالب طالب الاستنقاذ تقديراً والمطلوب الذباب وقال الضحاك الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عظَّموه حتى تعظيمه وما عرفوه حق معرفته وما وصفوه حق توصيفه حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء وآلهتهم عجزة عن أقلها مقهورة من أذلِّها، ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ أي يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي وبين الناس بقبض الأرواح وإيصال الأرزاق وغير ذلك، قال البغوي هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ويختار من الناس رسلاً يدعون سائرهم إلى الحق ويبلِّغونهم ما نزل عليهم من الله تعالى أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ، قال البغوي نزلت حين قال المشركون ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] فأخبر أن الاختيار إلى الله تعالى يختار من يشاء من خلقه، وقال البيضاوي لمَّا قرَّر وحدانيته ونفي أن يشاركه غيره في الألوهية وصفاتها بين أن له عباداً مصطفين للرسالة يتوصل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادته سبحانه وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن عداه من الموجودات تقريراً للنبوة وتزييفاً لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] والملائكة بنات الله ونحو ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ مدرك للأشياء كلها ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ قال ابن عباس يعني ما قدموا وما خلفوا، وقال الحسن ما عملوا وما هم عاملون بعد، وقيل: الضمير راجع إلى الرسل أي يعلم ما بين أيديهم أي الرسل أي ما قبل خلقهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي ما هو كان بعد فنائهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليه مرجع الأمور كلها لأنه مالكها بالذات لا يسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيره وهم يسألون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ أي صلوا عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما ركنان لها لازمان لا تنفك عنهما بخلاف غيرهما من الأركان فإن القراءة تسقط عن الأخرس والقيام عمن لا يستطيعه، وأما الركوع والسجود فلا يسقطان أبداً عند أبي حنيفة رحمه الله حيث قال من لم يقدر على

الإيماء برأسه للركوع والسجود يتأخر عنه الصلاة ولا يتأدى بالإيماء بالحاجب أو القلب ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بكل ما يصلح كونه عبادةً له تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس هو صلة الرحم ومكارم الأخلاق والظاهر أنه يعم الأفعال كلها يعني اختاروا ما هو خير وأصلح فيما تأتون به وما تذرونه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الجملة في محل النصب على الحال أي افعلوا هذه كلها وأنتم راجون الفلاح غير متيقنين له ولا واثقين بأعمالكم، قال رسول الله ﷺ: «أوحي إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عبداً لحساب[١] يوم القيامة أشاء أن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»[٢] رواه أبو نعيم عن علي عليه السلام، وأخرج البزار عن أنس عن النبي ﷺ: «يخرج لابن آدم ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى، يقول الله لأصغر نعمه في ديوان النعم خذي منك من العمل الصالح فتستوعب العمل الصالح فيقول: وعزتك استوعبت ويبقى الذنوب وقد ذهب العمل الصالح كله، فإذا أراد الله أن يرحم عبداً قال: يا عبدي قد ضاعفتُ لك حسناتك وتجاوزتُ عن سيئاتك ووهبتُ لك نعمتي»[٣].

مسألة: اختلف أهل العلم في سجود التلاوة عند هذه الآية؟ فقال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثوري وغيرهم أنه لا سجود ها هنا لأن المراد بالسجود ها هنا السجود الصلاتي بدليل كونه مقروناً بالركوع والمعهود في مثله من القرآن ما هو ركن الصلاة بالاستقراء نحو: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وقال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق وغيرهم لا بد ها هنا أن يسجد للتلاوة لحديث عقبة بن عامر قال قلتُ يا رسول الله أُفُضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين قال: «نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[٤] رواه أحمد وأبو داود والترمذي (واللفظ له) والدارقطني والبيهقي والحاكم وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، قال الترمذي إسناده ليس بالقوي وقال ابن الجوزي قال ابن وهب ابن لهيعة صدوق يعني إنما ضعفه لأجل حفظه وقال الحاكم عبد الله بن لهيعة أحد الأئمة وإنما نقم اختلاطه في آخر عمره وقد تفرد به، وروى أبو داود في المراسيل عنه ﷺ، قال: «فضلت سورة الحج بسجدتين»[٥] قال: وقد أسند هذا ولا يصح وحديث عمرو بن العاص أن النبي ﷺ أقرأه خمس عشرة آية سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي الحج سجدتان[٦]، رواه أبو

---

(١) وفي الأصل: عند الحساب.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٤٨، ١٠/ ٣١٦، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٨٦.

(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٩٧، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٢٦، وابن كثير في تفسيره ٤/ ٤٣٠.

(٤) أخرجه الترمذي في الجمعة باب ٥٤، ومالك في القرآن حديث ١٣، وأحمد في المسند ٤/ ١٥١.

(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٦) أخرجه أبو داود في السجود باب ١، وابن ماجه في الإقامة باب ٧١.

داود وابن ماجه والدارقطني والحاكم وحسنه المنذري والنووي وضعفه عبد الحق وابن القطان وفيه عبد الله بن منين الكلالي وهو مجهول والراوي عنه الحارث بن سعيد الثقفي المصري وهو لا يعرف أيضاً، وقال ابن ماكولا ليس له غير هذا الحديث وأكد الحاكم حديث عقبه بن عامر بأن الرواية صحت فيه من قول عمر وابنه وابن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى وعمار ثم ساقها موقوفة عليهم وأكده البيهقي بما رواه في المعرفة من طريق خالد بن معدان مرسلاً وقال البغوي وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر، قلتُ: الموقوف في الباب له حكم المرفوع وقد ذكرنا مسائل سجود التلاوة في سورة الانشقاق.

﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ الجهد بالضم الوسع والطاقة وبالفتح المشقة، وقيل: المبالغة والغاية، وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة وأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير والجهاد والمجاهدة مفاعلة منه، ولما كان بناؤه للاشتراك بين اثنين استعمل في المحاربة مع الأعداء فإن فيه تحمل المشقة من الجانبين واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل والمبالغة فيه إلى غاية ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي في سبيله وإعلاء دينه وقضاء أحكامه وقيل معناه لله ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[1] منصوب على المصدرية ومعناه جهاداً فيه حقاً خالصاً، أي حق ذلك الجهاد حقاً وخلص خلوصاً لوجهه الكريم، فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك هو حق عالم وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعاً، أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعول لوجه الله، ومن أجله قال ابن عباس هو استفراغ الطاقة فيه وأن لا يخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد، وقال الضحاك ومقاتل اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته، وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن يكون نيته خالصة لله عز وجل، وقال السدي أن يطاع فلا يعصى، وقال عبد الله بن المبارك هو مجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر وهو حق الجهاد، قال البغوي وقد روي أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2]، قال البغوي أراد بالجهاد الأصغر الجهاد مع الكفار وبالجهاد الأكبر الجهاد مع النفس، وأخرج البيهقي في الزهد عن جابر رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة فقال: «قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد لهواه»[3] قال البيهقي هذا إسناد فيه ضعف.

قلت: ليس المراد بالجهاد في هذه الآية المحاربة مع الكفار خاصة لأنه يأبى عنه

---

(١) عن عبد الرحمن بن عوف قال قال لي عمر ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ وجاهدوا في الله حق جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله ـ قلت بلى فمتى هذا يا أمير المؤمنين ـ قال إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو مغيرة الوزراء ـ ١٢ ـ إزالة الخفا ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٧٩، ٧/ ٢١٨، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٥١١، وعلي القاري في الأسرار المرفوعة ٢٠٦.

(٣) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ١١٢٦٠، ١١٧٧٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٥١.

سياق الآية لأن في نسق الآية ارتقاء من الأخص إلى الأعم في كل عطف حيث ذكر الصلاة أولاً بقوله: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ لكونها أهم العبادات ثم عطف عليه ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ وهو يشتمل العبادات كلها الصلاة وغيرها ثم قال: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ وهو يشتمل أداء حقوق الله تعالى كلها من العبادات والعقوبات وغيرها ومحاربة الكفار وأداء حقوق الناس ومكارم الأخلاق وغير ذلك وإتيان السنن والمستحبات كله، ثم قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ فلا وجه لحمله على محاربة الكفار خاصة بل المراد منه الإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال كلها ويحصل ذلك بالجهاد مع النفس ومخالفة الهوى، فإن الإخلاص إنما يحصل بصفاء القلب وفناء النفس، وهما بالجهاد مع النفس الأمارة بالسوء ومخالفة الهوى مع اقتباس أنوار النبوة وذلك في اصطلاح القوم يعبّر بالسلوك والجذب، وذلك الإخلاص هو المعنى من أقوال أوائل المفسرين المذكورة فإن الصوفي إذا صار من المخلصين بعد فناء النفس وصفاء القلب لا يخاف في الله لومة لائم ويبعد الله حق عبادته بلا رياء وسمعة بنيةٍ خالصة لله عز وجل ويطيع الله ولا يعصيه ولا شك أن ذلك هو الجهاد الأكبر، وأما الجهاد الأصغر يعني المحاربة مع الكفار فهو صورة الجهاد ولا يعتد به ولا بشيء من العبادات ما لم يكن خالصاً لوجه الله، قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها[1] أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء هو للذي عمله»[3] رواه مسلم.

فائدة: قوله ﷺ «قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» يفيد أن الجهاد الأكبر يعني المجاهدة مع النفس إنما يتأتى للمريد بمصاحبة الشيخ الكامل المكمل، فإنهم لما قدموا على النبي ﷺ بعد المحاربة مع الكفار اكتسبوا ببركة صحبته وانعكاس أشعة أنواره صفاءً في القلب وفناءً في النفس، وقوله رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر الضمير للمتكلم مع الغير والمراد منه إسناد الرجوع إلى من معه من الصحابة فإنهم كانوا في حالة الجهاد مشغولين بمحاربة الكفار وإن كانوا مع النبي ﷺ في مصاحبته لكن كان غالب هممهم مدافعة الكفار ثم إذا صاروا في المدينة مقيمين مع النبي ﷺ لم يكن حينئذ هممهم إلا الاقتباس لأنواره، والاقتفاء بمعالم آثاره وأخذ العلوم الظاهرة والباطنة من جنابه ﷺ ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي اختاركم من بين الخلائق لمصاحبة نبيه وحبيبه ﷺ: «إن الله اختارني واختار لي أصحاباً

(١) وفي الأصل: إلى الدنيا ليصبها إلخ ـ الفقير الدهلوي ـ.
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٤١، والعتق باب ٦، ومناقب الأنصار باب ٤٥، والنكاح باب ٥، والأيمان باب ٤١، ومسلم في الإمارة حديث ١٥٥.
(٣) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٤٦.

واختار لي منهم أصهاراً وأنصاراً»[١] (   )[٢] وعن واثلة بن أسقع قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»[٣] رواه مسلم وفي رواية للترمذي «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة»[٤].

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق وتكليف يشتد القيام به عليكم، قيل معناه أن المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب إلا جعل الله له منه مخرجاً بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات فليس في دين الإسلام ما لا يجد العبد سبيلاً إلى الخلاص من العقاب وكان فيما سبق من الأمم من الذنوب ما لا توبة لها، وقيل معناه ليس عليكم من ضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذ التبس عليكم وسع ذلك عليكم حتى تتيقنوا، وقال مقاتل يعني الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة في السفر والتيمم والإفطار في السفر والمرض، وأكل الميتة عند الضرورة والصلاة قاعداً أو مستقلياً عند العجز وهو قول الكلبي وذلك معنى قوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[٥] وروي عن ابن عباس أنه قال: الحرج ما كان على بني إسرائيل من الآصار التي كانت عليهم وضعها الله عزَّ وجلَّ عن هذه الأمة، قلت: ويمكن أن يقال معنى قوله تعالى: ﴿ما جعل الله[٦] عليكم في الدين من حرج﴾ أنه تعالى رفع عنكم كلفة التكاليف الشرعية حتى صارت التكاليف الشرعية أرغب إليكم من المرغوبات الطبعية، وذلك من لوازم الاجتباء قال رسول الله ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[٧] رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن أنس ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ منصوب على الإغراء أي عليكم ملة أبيكم أو على الاختصاص أي أعني بالدين ملة أبيكم، أو على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبلها بحذف المضاف أي وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف بيان والظاهر أنه خطاب للمؤمنين من قريش إذ السورة مكية ثم الناس تبع لهم قال رسول الله ﷺ: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم»[٨] متفق عليه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٣٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٢٤٦٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٧/ ١٤٠.
(٢) بياض في الأصل.
(٣) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١، وأحمد في المسند ٤/ ١٠٧.
(٤) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١.
(٥) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٦، ومسلم في الفضائل حديث ١٣٠، والحج حديث ٤١٢، والنسائي في الحج باب ١، وابن ماجه في المقدمة باب ١.
(٦) هكذا في الأصل وليس في الآية المفسرة لفظ الجلالة فتأمل (الفقير الدهلوي).
(٧) أخرجه النسائي في عشرة النساء باب ١، وأحمد في المسند ٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥.
(٨) أخرجه البخاري في المناقب باب ١، ومسلم في الإمارة حديث ١، ٢.

من حديث أبي هريرة، وفي رواية لمسلم عن جابر أنه ﷺ قال: «الناس تبع لقريش في الخير والشر»[١] وقيل: خطاب للعرب وكانوا من نسل إبراهيم وقيل خطاب لجميع المسلمين وإبراهيم كان أباً لرسول الله ﷺ وهو كالأب لأمته فإنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وقال النبي ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه»[٢] رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة ولما كان ملة إبراهيم ودينه مرغوباً لأهل مكة مؤمنهم وكافرهم، وكانت الكافرون منهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام نبّة الله سبحانه على أن ملة محمد ﷺ هو ملة إبراهيم لا غير ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٦٨] ﴿هُوَ﴾ يعني الله سبحانه ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ نزول[٣] القرآن في الكتب المتقدمة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ القرآن سماكم مسلمين، وقال ابن زيد هو يعني إبراهيم سماكم المسلمين من قبل هذا الوقت في أيامه حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] يعني أهل مكة، وتسميتهم مسلمين في القرآن وإن لم يكن من إبراهيم لكن كان بسبب تسميته من قبل، وقيل: تقدير الكلام وفي هذا القرآن بيان تسميته إياكم مسلمين هذه الجملة بيان لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ فإن الهداية إلى الإسلام الحقيقي والتسمية بالمسلمين مبنيٌّ على الاجتباء ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ متعلق بمضمون ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي أعطاكم الإسلام وجعلكم مسلمين ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة أن قد بلَّغكم، قلتُ: وجاز أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ مع ما عطف عليه ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ أنتم ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أن رسلهم قد بلَّغتهم، أخرج ابن جرير وابن المنذر عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ: «أنا وأمتي يوم القيامة على كئوم[٤] مشرفين على الخلائق ما من الناس أحدٌ إلا ودَّ أنه منا وما من نبي إلا كذَّبه قومه ونحن نشهد أنه قد بلَّغ رسالة ربه»[٥] وأخرج ابن المبارك في الزهد أنبأنا رشد بن سعد حدثني ابن العم عن أبي حبلة بسنده قال: أول من يدعى يوم القيامة إسرافيل فيقول الله هل بلَّغت عهدي؟ فيقول: نعم قد بلَّغتُه جبرائيل فيدعى جبرائيل فيقال: هل بلَّغك إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم فيخلى إسرافيل، فيقول لجبرائيل ما صنعتَ في عهدي؟ فيقول: يا رب بلّغتُ الرسل، فيدعى الرسل فيقال للرسل هل بلَّغكم جبرائيل عهدي فيقولون نعم فيقال لهم ما صنعتم في عهدي فيقولون بلَّغنا الأمم،

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ٣.
(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة باب ٤، والنسائي في الطهارة باب ٢٠، وأحمد في المسند ٥/٤١٦، ٤٢١.
(٣) الأولى أن يقال في التفسير رأى من قبل نزول إلخ، لأن فيما اختاره المفسر العلام رحمه الله تعالى يلزم جر قبل وهو مبني على الضم ـ الفقير الدهلوي ـ.
(٤) كئوم: جمع كومة: أي المكان المرتفع.
(٥) أخرجه ابن كثير في تفسيره ١/٢٧٦، والسيوطي في الدر المنثور ١/١٤٤، وفيهما: «على كوم».

فيدعى الأمم فيقال لهم هل بلَّغكم الرسل؟ فمكذِّب ومصدِّق فيقول الرسل لنا عليهم شهداء فيقول من؟ فيقولون: أمة محمد ﷺ فيدعى أمة محمد فيقال لهم أتشهدون أن الرسل قد بلَّغتِ الأمم؟ فيقولون: نعم، فيقول الأمم يا ربنا كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله تعالى كيف تشهدون عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: يا ربنا أرسلتَ إلينا رسولاً وأنزلتَ علينا كتاباً وقصصت علينا فيه أن قد بلَّغوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقد ذكرنا ما رواه البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ داوموا عليها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات لما خصّكم بهذا الفضل والشرف ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ يعني ثقوا به في جميع أموركم ولا تستعينوا في شيء إلا منه، وقال الحسن. معناه تمسكوا بدين الله، وروي عن ابن عباس سلوا ربكم يعصمكم من كل ما يكره، وقيل: معناه ادعوه ليثبتكم على دينه، وقيل الاعتصام بالله هو التمسك بالكتاب والسنة قال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله»[١] رواه مالك في الموطأ مرسلاً، وعن عصيف بن الحارث اليماني قال قال رسول الله ﷺ: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة فتمسك سنة خير من إحداث بدعة»[٢] رواه أحمد ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم وحافظكم ومتولي أموركم هذه الجملة في مقام التعليل للاعتصام ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الفاء للسببية يعني إذا ثبت أن الله مولاكم ونصيركم فنعم المولى مولاكم ونعم النصير نصيركم إذ لا مثل له في الولاية والنصر بل لا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة والله أعلم.

تم تفسير سورة الحج من تفسير المظهري ثامن ذي الحجة من السنة الثالثة بعد المائتين وألف، ويتلوه إن شاء الله تعالى سورة المؤمنين وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٠٣هجري[٣].

---

(١) أخرجه مالك في القدر حديث ٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٠٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٨.

(٣) هكذا في الأصل: مكتوب بالحمرة لعل العلامة ـ رحمه الله ـ رقمه بعد تكميل الفهرس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنين

مكية وهي مائة وتسع عشرة آية عند البصريين وثماني عشرة آية عند الكوفيين

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ
مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ
لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ
لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)
وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾

أخرج الحاكم وصححه على شرط الشيخين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ فطأطأ رأسه، وأخرج ابن مردويه بلفظ كان يلتفت في السماء فنزلت، وذكره البغوي أنه قال أبو هريرة كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزل الذين هم في صلاتهم خاشعون رموا بأبصارهم إلى مواضع السجود، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين مرسلاً كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فنزلت. قرأ ورش بإلقاء حركة همزة أفلح على دال قد وحذف الهمزة، وكلمة قد تثبت ما كان متوقعاً، كما أن لما ينفيه، وتدل على ثباته إذا دخل على الماضي ولذلك تُقربه من الحال، ولما كان المؤمنون متوقعين الفلاح بفضل الله صُدِّرت بها بشارةً لهم، والفلاح قال في القاموس هو

الفوز (يعني بالمقصود) والنجاة (يعني من المرهوب) والبقاء في الخير، وهو دنيوي وأخروي والمراد ها هنا الفلاح الأخروي الكامل، وكماله أن لا يعذب أصلاً لا في القبر ولا بالمناقشة في الحساب وشدائد يوم القيامة ولا بدخول النار ولا بصعوبة المرور على الصراط، ويفوز إلى أعلى المقاصد في الجنان ومراتب القرب والرؤية والرضوان من الملك الديان.

وأما الفلاح في الجملة فغير مختصر بالمتصفين بهذه الصفات المذكورة في تلك الآيات، بل هو لكل من قال لا إله إلا الله قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧] والإيمان والتوحيد نفسه رأسه الخيرات، ومن ها هنا قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة، وروي عن ابن عباس مرفوعاً: «خلق الله جنة عدن ودلّى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر إليها فقال تكلمي فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فقال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل»[١] رواه الطبراني. قلتُ: لعل المراد بالبخيل ها هنا هو الكافر فإنه يبخل عن أداء حق الله تعالى في التوحيد وأخرج أيضاً الطبراني بسند آخر جيد عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال: تكلمي فقالت ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾»[٢] وأخرج البزار والطبراني والبيهقي نحوه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً والبيهقي عن مجاهد وعن كعب نحوه والحاكم عن أنس نحوه، وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «خلق الله تبارك وتعالى جنة عدن من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجد خضراء وملاطها المسك وحشيشها الزعفران وحصاها اللؤلؤ وترابها العنبر، ثم قال لها انطقي قالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، قال: وعزتي لا يجاورني فيك بخيل»[٣].

قلتُ: ويمكن أن يقال إن المراد بالفلاح دخول الجنة مطلقاً لو بعد التعذيب وذلك لجميع المؤمنين كما تدل عليه الأحاديث المذكورة، والتقييد في القرآن بالصفات المذكورة ليس للاحتراز بل للمدح، فإن شأن المؤمن يقتضي الاتصاف بتلك الصفات وعلى تقدير كون المراد بالفلاح الفلاح الكامل وكون التقييد بالصفات للاحتراز لا يدل تلك الآيات إلا على الوعد بالفلاح الكامل للمؤمنين الكاملين المتصفين بتلك الصفات ولا تدل على نفي الفلاح عن غيرهم من المؤمنين، لأنا لا نقول بمفهوم الصفة كما قرر في الأصول أن التقييد بالشرط أو الصفة يجعل ما لا يوجد فيه الشرط أو الصفة في حكم المسكوت عنه وهو

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٤٧.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ١٨٤.
(٣) أخرجه بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٧، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٧، ٥/ ٢، ٦/ ١٩٦.

المراد بالاحتراز أنه يجعله في حكم المنطوق بنفي الحكم، وقد انعقد الإجماع على أن أهل الكبائر من المؤمنين وإن ماتوا بغير توبة مآلهم إلى الجنة وهم في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبهم ثم يدخلهم الجنة وإن شاء غفر لهم بلا تعذيب.

والخاشعون قال ابن عباس هم المخبتون(١) أذلاء، وقال الحسن خائفون، وقال مقاتل متواضعون، وقال مجاهد هو غض البصر وخفض الصوت، وعن علي كرم الله وجهه هو أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، وقال سعيد بن جبير لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله ولا يلتفت من الخشوع لله تعالى وقال عمرو بن دينار هو السكون وحسن الهيئة، وقال جماعة هو أن لا ترفع بصرك عن موضع سجودك، وقال عطاء هو أن لا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة، وقيل: الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواه والتدبر فيما يجري على لسانه من القراء والذكر، وأن لا يجاوز مصلاه ولا يلتفت ولا يغيب ولا يميل ولا يفرقع أصابعه ولا يقلّب الحصى ولا يفعل شيئاً مما يكره في الصلاة، وعن أبي الدرداء هو إخلاص المقال وإعظام المقام واليقين التام وجمع الاهتمام، وفي القاموس الخشوع هو الخضوعُ أي التواضع أو هو قريب من الخضوع أو هو في البدن والخشوعُ في الصوت والبصر والسكونُ والتذلل، وفي النهاية الخشوع في الصوت والبصر كالخضوع في البدن، عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الله عز وجلَّ مقبلاً على العبد ما كان في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت أعرض عنه»(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والدارمي، وعن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة قال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»(٣) متفق عليه، وعن أنس بن مالك قال قال النبي ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: «لينتهين عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم»(٤) رواه البغوي، وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام عن رفعهم أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء أو لتخطفن أبصارهم»(٥) عن جابر بن سمرة بلفظ: «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء

---

(١) الخبيت: الشيء الحقير، فالمخبت من جعل نفسه حقيراً.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٦١، والنسائي في السهو باب ١٠، والدارمي في الصلاة باب ١٣٤، وأحمد في المسند ٥/ ١٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان باب ٩٣، وبدء الخلق باب ١١، والنسائي في السهو باب ١٠، وأحمد في المسند ٦/ ٧٠، ١٠٦.

(٤) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأذان باب ٩٢، ومسلم في الصلاة حديث ١١٨، وأبو داود في الصلاة باب ١٦٣، والنسائي في السهو باب ٩، ٤٠، وابن ماجه في الإقامة باب ٦٨، والدارمي في الصلاة باب ٦٧، وأحمد في المسند ٢/ ٣٣٣، ٣٦٧، ٣/ ١٠٩، ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١٤٠، ٢٥٨، ٥/ ٢٥٨.

(٥) انظر الحاشية السابقة.

في الصلاة أو لا يرجع إليهم أبصارهم»(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه، وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ: رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»(٢) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول بسند ضعيف، وعن أبي الأحوص عن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فإن الرحمة تواجهه»(٣) رواه البغوي ورواه أحمد وابن عدي والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي ذر.

فصل

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «يا أنس اجعل بصرك حيث تسجد»(٤) رواه البيهقي في سننه الكبير، وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني إياك والالتفات في الصلاة فإن الالتفات في الصلاة هلكة فإن كان لا بد ففي التطوع لا في الفريضة»(٥).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ قال عطاء عن ابن عباس عن الشرك، وقال الحسن عن المعاصي، قلت: والأولى أن يقال عما لا يفيدهم في الآخرة كلاماً كان أو غيره ولا يحمد عليه من قول أو فعل ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ فضلاً عن ارتكابهم ما يضرهم من الشرك والمعاصي، وقيل: هو معارضة الكفار بالشتم والسب قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢] أي إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه، قال البيضاوي هو أبلغ من الذين لا يلهون بوجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبيباً وميلاً وحضوراً فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ الزكاة يطلق على القدر الواجب الذي يخرجه المزكي من النصاب وعلى ما فعل المزكي والمراد ها هنا هو الفعل لأن الفاعل إنما يفعل الفعل دون العين وجاز أن يراد العين بتقدير المضاف يعني لأداء الزكاة فاعلون، وفي لفظ فاعلون دلالة على المداومة ودخول اللام لتقدم المفعول وضعف اسم الفاعل عن العمل يقال هذا ضارب لزيد ولا يقال ضرب لزيد، وقيل: الزكاة ها هنا هو العمل الصالح أي والذين هم للعمل الصالح فاعلون ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ الفرج اسم لجميع سوءة الرجل والمرأة وحفظ الفرج

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ١١٧، وأبو داود في الصلاة باب ١٦٣، وابن ماجه في الإقامة باب ٦٨.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٨٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٨٩١.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٧١، والترمذي في الصلاة باب ١٦٢، وابن ماجه في الإقامة حديث ١٠٢٧، وأحمد في المسند ٥/ ١٥٠.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٨٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٠٠٩٨.

(٥) أخرجه الترمذي حديث ٥٨٩، وعبد الرزاق في المصنف ٢٠٤٢٥، والطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٣٢.

التعفف عن الحرام ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ صلة لحافظون من قولك احفظ علي عنان فرسي يعني لا تطلقه، واستقام المعنى لتضمن الحفظ معنى نفي البذل أو صلة لمقدر وهو لا يبذلونها لدلالة قوله غير ملومين عليه، وجاز أن يكون المستثني المفرغ منصوباً على الحال والتقدير حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا قادرين على أزواجهم أي زوجاتهم ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أي سرياتهم يعني ناكحين أو مالكين، قال البيضاوي إنما قال ما إجراء للمماليك مجرى غير ذوي العقول إذ الملك أصل شائع فيه، قلتُ: بل المراد منه الإماء فإن النساء لقلة عقلهن ملحقات بغير ذوي المعقول ولذلك يستعمل ضمائر التأنيث لغير ذوي العقول، فإيراد كلمة ما للدلالة على أن المراد به الإماء دون العبيد من المماليك فلا يجوز للنساء الاستمتاع بفروج عبيدهم ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ في إتيانها والضمير المنصوب لحافظون ولمن دل عليه الاستثناء أي فإن بذلوها على أزواجهم وإمائهم فإنهم غير ملومين.

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى أي طلب سوى الأزواج والإماء المملوكة لبذل الفرج ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أي الكاملون في الظلم والعدوان المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام وهذه الآية ناسخة لمتعة النساء، عن ابن عباس قال إنما كانت المتعة في أول الإسلام كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج بقدر ما يرى أنه مقيم فتحفظ له متاعه وتصلح له شيئه حتى إذا نزلت: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ قال ابن عباس: «فكل فرج سواهما فهو حرام» رواه الترمذي، ولا شك أن النساء اللائي يتمتع بهن لسن من الأزواج للإجماع على عدم التوارث بينهم حتى لا تقول الروافض أيضاً بالتوارث، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ [النساء: ١٢] وقد ذكرنا مسألة متعة النساء في تفسير سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ [النساء: ٢٤] وأيضاً في هذه الآية دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول العلماء قال ابن جريج سألت عطاء عنه فقال: مكروه سمعتُ أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى وأظن أنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبير قال: عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ قرأ ابن كثير ها هنا وفي المعارج لأماناتهم على التوحيد والباقون بالجمع ﴿وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ أي لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق كالصلاة والصوم وغيرهما من العبادات التي أوجبها الله تعالى، أو من جهة الخلق كالودائع والبضائع وما واعد الناس وعاقدهم فعلى العبد الوفاء بجميعها، عن أبي هريرة قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وقد خسر فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب تبارك وتعالى انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على ذلك»، وفي رواية «ثم الزكاة مثل ذلك ثم يؤخذ الأعمال على حسب ذلك»[1] رواه أبو داود ورواه أحمد عن رجل.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٨٨، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢٥.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي صلاتهم على التوحيد والباقون على الجمع ﴿يُحَافِظُونَ﴾ أي يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، ولفظ الحفظ لما في الصلاة من التجدد والتكرار، وليس تكريراً لما وصفهم به أولاً لأن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها، وفي تصدير ذكر الصلاة والختم بأمرها تعظيم لشأنها ووحدت الصلاة في الأمر بالخشوع لإفادة أنه لا بد من الخشوع في جنس الصلاة أية صلاة كانت وجمعت في المحافظة عند أكثر القراء آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الجامعون لهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الأحقاء بأن يسموا وارثاً دون غيرهم جملة معترضة للمدح ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ صفة للوارثين بيان لما يرثونه والتقييد للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً يعني يرثون منازل الكفار التي أعدت لهم إن آمنوا، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾»[1] [المؤمنين: ١٠] رواه ابن ماجه وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن أبي هريرة بلفظ «يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله»، وأخرج ابن ماجه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فر من ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة»[2] وقال بعضهم معنى الوراثة هو أنه يؤول أمرهم إلى الجنة وينالونها كما يؤول أمر الوارث إلى الميراث، والفردوس أعلى الجنة وقد مر ذكره مشروحاً في سورة الكهف ﴿هُمْ فِيهَا﴾ الضمير راجع إلى فردوس وتأنيث الضمير لكونه اسماً للجنة ﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يموتون فيها ولا يخرجون منها جملة مستأنفة، روى أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن عمر بن الخطاب قال كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي سمع عند وجهه دويّ كدوي النحل فأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنّا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارضنا وارض عنا» ثم قال: «أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ حتى ختم عشر آيات[3]، قال النسائي: منكر وصححه الحاكم، وهذه الآية جامعة لأبواب الخير كلها فإن الله تعالى وصف المؤمنين بالخشوع في الصلاة والمواظبة على الزكاة والإعراض عن اللغو والتجنب عن المحرمات وسائر ما يوجب المروءة اجتنابه، فظهر أنهم بلغوا الغاية على الطاعات البدنية والمالية والتطهر والتنزه للتجليات الذاتية والصفاتية والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٩.
(٢) أخرجه ابن ماجه في الوصايا باب ٣.
(٣) أخرجه الدارمي في المقدمة باب ٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٤.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا﴾ جنس[1] ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أو آدم عليه السلام وهذا جواب قسم محذوف والجملة معطوفة على قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ فإنه كان في ذكر الإيمان وأصناف العبادات والطاعات وهذه الجملة لبيان استحقاقه تعالى العبادة والطاعة وسبب وجوبها، فكأنه قال وقد حق لهم أن يعبدونا ويوحدونا لأنا والله لقد خلقناهم ﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾ أي خلاصة سلّت من بين الكدر ومن للابتداء ﴿مِّن طِينٖ﴾ من للبيان أي سلالة هو طين صفة لسلالة.

أي سلالة كائنة من طين سلت من وجه الأرض، وكان آدم من طين سلت من الأرض وسائر الناس من النطف التي هي من الأغذية التي هي من الأرض، وجاز أن يكون ظرفاً لغواً متعلقاً بمعنى سلالة لأنها بمعنى مسلولة فيكون من ابتدائية وقال الكلبي المراد بالطين آدم عليه السلام والمعنى خلقنا جنس الإنسان من نطفة سلت من طين هو آدم عليه السلام، أخرج عبد الرزاق وابن جرير وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة أن المراد بالطين آدم عليه السلام وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ قال من مني بني آدم، قال البغوي وروي عن ابن عباس أنه قال: السلالة صفوة الماء، وقال عكرمة هو الماء سل من الظهر والعرب تسمي النطفة سلالة ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي السلالة وتذكير الضمير على تأويل المسلول ﴿نُطۡفَةٗ﴾ وجاز أن يكون الضمير راجعاً إلى الإنسان ونطفة منصوباً بنزع الخافض فإن كان المراد بالإنسان آدم فمضاف الضمير محذوف أقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى ثم خلقنا ذلك الجنس من نطفة أو خلقنا بنيه من نطفة كائنة ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ أي مقر حريز وهو الرحم والمكين في الأصل صفة للمستقر وصف به المحل مبالغة كما عبر عنه بالقرار وهو مصدر.

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا﴾ أي صيرنا ﴿ٱلنُّطۡفَةَ﴾ البيضاء ﴿عَلَقَةٗ﴾ حمراء ﴿فَخَلَقۡنَا﴾ صيرنا ﴿ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ قطعة لحم قدر ما يمضغ ﴿فَخَلَقۡنَا﴾ صيرنا ﴿ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا﴾ بأن صلبناها ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ مما بقي من المضغة أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها، ولحماً منصوب بنزع الخافض أي كسونا العظام بلحم أو هو مفعول ثان لكسونا لتضمنه معنى أعطينا يقال كسوت زيداً حلة أي أعطيته إياها قرأ الجمهور عظاماً والعظام في الموضعين بلفظ الجمع لاختلافها في الهيئة والصلابة، وقرأ أبو بكر وابن عامر عظماً والعظم على التوحيد اكتفاءً باسم الجنس عن الجمع ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ﴾ الضمير عائد إلى السلالة أو إلى الإنسان سواء كان المراد به الجنس أو آدم عليه السلام ولا حاجة ها هنا إلى تقدير المضاف ﴿خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ مصدر لأنشأنا من غير لفظه يعني خلقناه خلقاً آخر أو مفعول ثانٍ له بتضمينه معنى صيرنا، وجاز أن يكون بدل اشتمال للضمير المنصوب والمعنى أنشأناه أي السلالة أو الإنسان خلقاً آخر أي أنشأنا خلقاً آخر، قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وعكرمة والضحاك وأبو العالية هو نفخ الروح فيه،

---

(١) الأولى: ولقد خلقنا الإنسان: أي جنسه .... إلخ، لأن ما اختاره المفسر العلامة رحمه الله تعالى، يلزم عليه جر لفظة الإنسان، وهو منصوب، فتأمل ـ الفقير الدهلوي.

قلتُ: لعل المراد بالروح في قولهم هو الروح السفلي المسمى بالروح الحيواني وبالنفس التي هي مركب للروح العلوي الذي هو من عالم الأرواح ومقره فوق العرش في النظر الكشفي وليس هو بمكاني، والنفس هي البخار المنبعث من العناصر المصور على هيئة الجسم وهو جسم لطيف سار في الجسم الكثيف وعلى هذا يصح إرجاع ضمير أنشأناه إلى السلالة، بخلاف ما إذا كان المراد به الروح العلوي فإنه غير مأخوذ من السلالة، وأيضاً كلمة ثم تدل على ذلك فإن خلق الأرواح العلوية قبل خلق الأبدان فإن الأبدان لم تكن موجودةً حين أخذ الله الميثاق من الأرواح، وأما نفخ الروح فهو صفة من صفاته تعالى قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] وإن كان تأخره من تكسية العظام صادق باعتبار تأخر تعلق الصفة القديمة، اللهم إلا أن يقال المراد بالإنشاء نفخ الروح لا خلق الروح والله أعلم.

عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغةً مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة»[1] متفق عليه.

فإن قيل: ورد في الحديث تحويلات خلق الإنسان بكلمة ثم وهي تدل على التراخي وفي كتاب الله بكلمة الفاء وهي للتعقيب فما وجه التطبيق بينهما؟ قلت: ذكر رسول الله ﷺ ما بين كل تحويل أربعين يوماً وذلك زمان طويل يقتضي العطف بكلمة ثم لكن الله سبحانه أورد كلمة الفاء للدلالة على أن تلك المدة الطويلة وهي أربعون يوماً قصيرة جداً نظراً إلى ما يقتضي تفاوت كل طور منها إلى طور آخر، وأما إيراد كلمة ثم في بعض المواضع وكلمة الفاء في بعضها فلتفاوت الاستحالات، ألا ترى أن استحالة السلالة إلى النطفة في غاية البعد، واستحالة النطفة التي استقرت في صلب الرجل وترائب المرأة زماناً طويلاً، ثم وصلت في رحم المرأة وامتزجت هناك وبقيت في الرحم نطفة أربعين يوماً، ثم تحولت إلى العلقة أيضاً لطول زمانه وتراخيه يقتضي العطف بكلمة ثم بخلاف التحويلات الأخر من العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظام وإلى تكسية العظام لحماً فكل ذلك ليس بتلك المثابة من البعد، ولأجل ذلك أوردها بلفظة الفاء وأورد كلمة ثم في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ للتراخي في الرتبة وكمال التفاوت بين الخلقتين والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، وأحاديث الأنبياء باب ١، والقدر باب ٨٢، والتوحيد باب ٢٨، ومسلم في القدر حديث ١، وأبو داود في السنة باب ١٦، والترمذي في القدر باب ٤، وابن ماجه في المقدمة باب ١٠، وأحمد في المسند ١/٣٨٢، ٤١٤، ٤٣٠.

مسألة: هذه الآية تدل على أنه من غصب بيضةً فأفرخَتْ عنده ثم مات الفرخ، أو أخذ من الحرم بيضة فأخرجها إلى الحل ثم أفرخت لزمه ضمان البيضة دون الفرخ لأنه خلق آخر وفيه الروح السفلي وهو الروح الحيواني والله أعلم، وقال قتادة معنى قوله: ثم أنشأناه خلقاً آخر نبات الأسنان والشعر، وروى ابن جرير عن مجاهد أنه استواء الشباب، وعن الحسن قال: ذكر أو أنثى، وروى العوفي عن ابن عباس إن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الارتضاع إلى القعود إلى القيام إلى المشي إلى الفطام إلى أن يأكل ويشرب إلى أن يبلغ الحلم وينقلب في البلاد إلى ما بعدها، قلتُ ويمكن أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ الولادة الثانية التي يكون للفقراء بالفناء والانخلاع من الصفات البهيمية والسبعية والبشرية إلى الصفات الملكية والارتقاء منها إلى الصفات الرحمانية والبقاء بذات الله تعالى أو بصفاته القدسية وهذا التأويل أليق بالعطف بكلمة ثم............. (١)

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي تعالى وتعظَّم من أن يتخذ له شريكاً أو يتهاون في امتثال أوامره أو الانتهاء عن مناهيه، والفاء للسببيَّة فإن اتصافه تعالى بما ذكر من الخلق دليل على كمال قدرته وحكمته يقتضي الحكم بكبريائه وعظمته وعلو منزلته واستحالة شريكه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بدل من الله أو خبر مبتدأ محذوف وليس بصفة لأنه نكرة وإن أضيف لأن المضاف إليه عوض من من التفضيليّة والتميز ها هنا محذوف تقديره أحسن الخالقين خلقاً فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه، واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن العباد خالقون لأفعالهم الاختياريَّة حتى يتحقق التفضيل، وقد دلت البراهين العقليَّة والأدلة الشرعية على أن الأفعال الاختيارية للعباد مخلوقة لله تعالى حيث قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ولأن الممكن الذي لا يقتضي ذاته وجوده لا يتصور أن يقتضي ذاته وجود غيره وعليه انعقد إجماع الصحابة ومن بعدهم من علماء النصيحة، فالجواب عن استدلال المعتزلة إنا لا ننكر أن للعباد في أفعالهم الاختيارية نوعاً من الإرادة والاختيار وذلك الإرادة والاختيار مناط التكليف ومنشأ الثواب والعقاب وموجب لإسناد الأفعال إليهم ونسمِّيه بالكسب، لكن ذلك الإرادة والاختيار غير كافية لإيجاد معدوم أصلاً جوهراً كان أو عرضاً وإنما الإيجاد بقدرة الله الكاملة وإرادته واختياره، وتعلق قدرته وإراداته واختياره بمخلوق نسمِّيه خلقاً وذلك كاف لإيجاد كل معدوم، غير أن الله سبحانه اقتضت حكمته (وإن خفيت علينا) أن يجعل لكسب العبد أيضاً مدخلاً في بعض أفعالهم، فنزاعنا مع المعتزلة في المعنى فإنهم يقولون إن قدرة العبد وإرادته كاف لإيجاد المعدوم ونحن لا نقول به ولا نزاع لنا في جواز إطلاق لفظ الخلق على كسب العبد فإنه نزاع لفظي، وكلمة ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ إنما تدل على صحة إطلاق لفظ الخلق لغة على معنى الكسب والخلق المصطلحين ومن ها هنا قال مجاهد معناه

(١) بياض بالأصل.

يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين، يقال رجل خالق أي صانعٌ وقال الله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال الله تعالى حكاية عن عيسى ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] وقيل معنى الخالقين ها هنا المصورين أو المقدرين، والخلق في اللغة التقدير وقيل: هذا على سبيل الفرض وفرض المحال ليس بمحال يعني لو فرضنا تعدد الخالقين، وكما هو رأي المعتزلة مجوس هذه الأمة فالله تعالى أحسنهم.

أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال: «وافقتُ ربي في أربع نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآيات فلمَّا نزلت قلتُ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ الحديث، وهذه القصة تدل على أن ما دون الآية ليس بمعجز يقدر عليه البشر حيث نطق به عمر رضي الله عنه، وقيل: إن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ فنطق بذلك قبل إملائه فقال رسول الله ﷺ «اكتب هكذا نزلت» فقال عبد الله: إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إليَّ فارتد ولحق بمكة، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة أهدر دمه فيمن أهدر من الدماء فجاء عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله فصمتَ طويلاً ثم قال نعم فلما انصرف عثمان قال النبي ﷺ «ما صمتُّ إلا لتقتلوه»، فقال رجل: هَلاً أومأت إلينا يا رسول الله، فقال: «ما كان لنبي أن يكون له خائنة الأعين»[(١)] ثم أسلم ذلك اليوم وحسن إسلامه قلتُ: ذكر في سبيل الرشاد ارتداده وإهدار النبي ﷺ دمه وشفاعة عثمان وغير ذلك لكن لم يذكر أن سبب ارتداده كان نطقه بهذه الآية قبل إملائه ولا يتصور أن يكون لهذا سبباً لارتداده لأن ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة مكية والله أعلم.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعدما ذكرنا من أمركم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ عند انقضاء آجالكم أي لصائرون إلى الموت لا محالة ولذلك ذكر صيغة النعت الذي هو للثبوت دون اسم الفاعل وهذه الجملة مع ما عطف عليه معطوف على ولقد خلقنا الإنسان إلى آخر الآيات، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب وإنما أكد الجملة بأن واللام لكون الناس مصرين على ارتكاب المعاصي وذلك دليل على إنكارهم الموت والبعث فنزلوا منزلة المنكرين لهما، قال البغوي إن الميت بالتشديد والمائت الذي لم يمت بعد وسيموت، والميت بالتخفيف من مات ولذلك لم يجز التخفيف ها هنا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠] وفي القاموس مات يموت ويمات ويميت فهو ميت بالتخفيف وميّت بالتشديد ضد حيّ، ومات سكن ونام أو الميت مخففة الذي مات والميت بالتشديد والمائت الذي لم يمت بعد ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ من القبور للمحاسبة والمجازاة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ جواب قسم محذوف معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي سبع سماوات لأنها طورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل، وكل ما فوقه مثله فهو طريقه أو لأنها طراق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ عن جنس المخلوق

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود باب ١، والجهاد باب ١١٧، والنسائي في التحريم باب ١٤.

﴿غَٰفِلِينَ﴾ أي مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر أمرها حتى يبلغ منتهى ما قدرنا لها من الكمال على ما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة فتمسك السماء أن تقع على الأرض، وهذه الجملة إما حال من فاعل خلقنا أو معطوف على قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ وهو واقع في مقام التعليل، يعني خلقنا فوقكم سبع طرائق لنفتح عليكم الأرزاق والبركات منها وتطلع عليكم الشمس والقمر والكواكب لأنا ما كنا عنكم وعما يصلح شأنكم غافلين.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً عطف على خلقنا ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار ما علمنا صلاحهم ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾ عطف على ما سبق أي جعلناه ثابتاً مستقراً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقيل: المراد به ما يبقى في الحياض والغدر أن ينتفع به الناس عن انقطاع المطر، وقيل: المراد به ما تتشربه الأرض ويدخل في مساماتها فيخرج منها في الأرض ينابيع فماء الأرض على هذا كله من السماء ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ عطف على فأسكناه يعني على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر عليكم استنباطه، وفي تنكير ذهاب إيماء إلى كثرة طرقه ومبالغة في الإيعاد ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله يعني لو فعلنا ذلك لهلكتم عطشاناً وهلكت مواشيكم ويخرب أراضيكم، قال البغوي وفي الخبر أن الله تعالى أنزل أربعة أنهار من الجنة سيحان وجيحان ودجلة والفرات. وقال: روى الإمام الحسن بن سفيان عن عثمان بن سعيد بالإجازة عن سعيد بن سابق الاسكندراني عن سلمة بن علي عن مقاتل بن حبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبرائيل عليه السلام استودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل منافع للناس فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وإذا كان عند يأجوج ومأجوج أرسل الله جبرائيل فرفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا»(١)، قلتُ ولعل جميع أنهار الدنيا من عيون الجنة، وإنما ذكر الخمسة في الحديث على سبيل التمثيل والله أعلم.

﴿فَأَنشَأْنَا﴾ عطف على أنزلنا ﴿لَكُم بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي في جنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكهون بها سوى النخيل والأعناب ﴿وَمِنْهَا﴾ أي من الجنات يعني من ثمارها وزروعها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذياً أو ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب أي لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وخص النخيل والأعناب بالذكر لأنهما أكثر فواكه العرب، وجملة: (منها تأكلون) حال من فاعل الظرف أعني لكم

(١) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٦٥.

فيها فواكه أو معطوف عليه ولجنات أو نخيل ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جنات ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهي الزيتون قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو سيناء بكسر السين، وابن عامر ويعقوب والكوفيون بفتحها، اختلفوا في معناه وفي سينين: قال مجاهد معناه البركة أي من جبل مبارك وقال قتادة والضحاك وعكرمة معناه الحسن أي جبل حسن قال الضحاك هو بالنبطية وقال عكرمة بالحبشية، وقال الكلبي معناه ذو شجر قيل هو بالسريانية الملتف بالأشجار وقال مقاتل: كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سيناء وسينين بلغة النبط، وقال مجاهد سيناء اسم حجارة بعينها أضيف إليها الجبل لوجودها عنده، وقال عكرمة هو اسم المكان الذي به هذا الجبل، وقيل: المركب منهما اسم لجبل بين مصر وإيلة نودي منه موسى كامرىء القيس كذا قال ابن زيد، ومنع صرفه للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة والعجم لا للألف لأنه فِيعال كدِيماس من السناء بمعنى الرفعة أو بالقصر بمعنى النور أو ملحق بفعلال إذ لا فعلاء بألف التأنيث هذا على قراءة أهل الحجاز، وأما على قراءة الكوفيين فهو فَيعال ككيسان أو فَعلاء كصَحراء فالألف للتأنيث لا فعلال إذ ليس في كلامهم ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بضم التاء وكسر الباء من الأفعال يعني زيتونها متلبّساً بالدهن، قال الزجاج الباء للحال أي ومعها الدهن وقيل الباء على هذا زائدة أي تنبت الدهن، وقيل: أنبت بمعنى نبت والمعنى على حسب قراءة الباقين بفتح التاء وضم الباء من المجرد أي تنبت متلبّساً بالدهن مستصحباً له، ويجوز أن يكون للتعدية فيكون معناه تنبت الدهن ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ معطوف على الدهن جار على إعرابه عطف أحد وصفي الشيء على الآخر تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به ويسرج منه وكونه آدماً يصبغ به الخبز أي يغمس فيه للائتدام، قال البغوي الصبغ والصباغ والإدام الذي يغمس فيه الخبز فينصبغ والإدام كلما يؤكل مع الخبز سواء يتصبغ به الخبز أو لا، قال مقاتل: جعل الله في هذا الشجر أدماً ودهناً فالأدم الزيتون والدهن الزيت، وقال خص الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت بها، ويقال إن الزيتون أول شجرة نبت في الدنيا بعد الطوفان.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ آية بحالها وتستدلون بها على كمال القدرة والحكمة لصانعها عطف على ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم﴾ ولما كان الناس غافلون عن الاعتبار نزلوا منزلة أهل الإنكار وأكد الجملة ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب بفتح النون على صيغة المتكلم من المجرد والباقون بضم النون على صيغة المتكلم من الأفعال كما ذكرنا في سورة النحل، وأبو جعفر ها هنا بالتاء وفتحها على صيغة المؤنث الغائب من المجرد والضمير حينئذ راجع إلى الأنعام ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الألبان أو من العلف فإن اللبن يستلون منه فمن للتبعيض أو للابتداء ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ في ظهورها وأشعارها وأصوافها وأوبارها ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ أي على الأنعام فإن منها ما يحمل عليه كالإبل والبقر وقيل المراد الإبل لأنها هي المحمول عليها عند العرب والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة سفينة بر تحت خدي زمامها، والضمير فيه كالضمير في ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ

بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ في البر والبحر وجملة نسقيكم إلى آخرها بيان للعبرة فإن ما أخرج الله تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] آية للاعتبار على كمال قدرته، وانقياد الأنام للحلب وجز الصوف والشعر والحمل والذبح وغير ذلك مع كمال قوتها وضعف الإنسان آية أخرى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ
ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً
مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ
فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾
أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ
إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ
بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ
مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾
فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ
ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ذكر في صدر السورة حال المؤمنين المطيعين، ثم عقبه بالآيات المقتضية للإيمان والطاعة ثم عقبه بذكر الكافرين الطاغين وما آل إليه أمرهم ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أطيعوه ووحدوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئناف لتعليل الأمر بالعبادة، قرأ الكسائي(١) غيره بالجر حملاً على لفظة إله والباقون بالرفع حملاً على محله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عطف على محذوف يعني أتشركون به فلا تتقون أن يزيل ما بكم من نعمائه ويعذبكم بإشراككم إياه غيره في العبادة وكفرانكم آلاءه

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ﴾ الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ فيما بينهم مَا هذا يعني نوحاً عليه السلام ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يأكل ويشرب وينام فكيف يكون رسولاً من الله، وهذا القصر قصر قلب فإن من يدعي الرسالة كأنه منكر لكونه بشراً ومدع لكونه ملكاً على زعمهم الفاسد فقالوا على قلب دعواه ليس هذا ملكاً وليس هذا شيئاً إلا بشراً، ومبنى هذا القصر على أنهم أنكروا أن يكون البشر لله رسولاً مع ما ادعوا أن يكون الحجر له تعالى شريكاً قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿يُرِيدُ﴾ بادعائه الرسالة ﴿أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلب أن يكون له الفضل عليكم ويسودكم جملة يريد صفة بعد صفة لبشر أو مستأنفة كأنه قيل ما يريد بادعائه الرسالة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يعبد غيره أو أن يرسل رسولاً، ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ رسلاً ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعيه نوح من التوحيد والمسألة والبعث بعد الموت ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وذلك إما لفرط عنادهم أو لكونهم في فترة متطاولة، جملة ما سمعنا حال من فاعل يريد والجملة الشرطية معترضة بين الحال وعامله.

﴿إِنْ﴾ أي ما ﴿هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي جنون حيث يدعي الرسالة من الله لنفسه استئناف أو تأكيد لنفي الرسالة فإن المجنون لا يكون رسولاً ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾ فاحتملوه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعله يفيق من الجنون أو يموت والفاء في فتربصوا للسببيَّة فإن كونه مجنوناً يوجب التربص وترك العجلة في الانتقام ولما أوحى إلى نوح من الله تعالى إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكهم أو بإنجاز ما أوعدتهم من العذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ يدل تكذيبهم إيايَ أو بسببه جملة مستأنفة ﴿فَأَوْحَيْنَآ﴾ عطف على مقدر تقديره فاستجبنا دعاءه ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بحفظنا أن لا يخطىء فيه أو يفسد عليك أحد، أن مفسرة لأوحينا فإنه بمعنى القول ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي أمرنا وتعليمنا كيف تصنع ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالركوب أو نزول العذاب عطف على اصنع ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي فار الماء من التنور للخباز اركب أنت ومن معك، فلما نبع الماء منه وكان ذلك علامة لنوح أخبرته امرأته فركب ومحله في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وقيل في ذروة من الشام ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي أدخل فيها جاء سلك لازماً ومتعدياً يقال سلكتُ في كذا أي دخلت وقال الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قرأ الجمهور بإضافة كل إلى زوجين فاثنين حينئذ منصوب على المفعولية يعني ادخل فيها اثنين من كل صنفين من الحيوانات يعني الذكر والأنثى وقرأ حفص كل بالتنوين عوض المضاف إليه يعني أدخل فيها زوجين كانتا من كل نوع فاثنين على هذا تأكيد للزوجين، وفي القصة أن الله تعالى حشر لنوح السباع والطيور وغير ذلك فجعل نوح يضرب بيديه في كل نوع فيقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى فيحملها في السفينة ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يعني أهل بيتك أو من آمن معك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾ في الأزل ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالإهلاك لكفره ﴿مِنْهُمْ﴾ أي حال كون من سبق عليه القول بالإهلاك من أهلك وهي امرأته وولده كنعان، وإنما جيء بعلى لأن السابق ضار وإنما يجيء باللام إذا كان نافعاً كما في

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾ عطف على اصنع أو على فاسلك يعني لا تخاطبني بالدعاء بالإنجاء ﴿فِي﴾ حق ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ على أنفسهم بالكفر ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك جملة معللة لقوله: لا تخاطبني ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ﴾ اعتدلت ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ ونجوت من مصاحبة الجار السوء ﴿فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي﴾ في السفينة بعد الركوب أو في الأرض بعد الخروج من السفينة ﴿مُنزَلٗا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وكسر الزاء على معنى موضع النزول والباقون بضم الميم وفتح الزاء بمعنى الإنزال ﴿مُّبَارَكٗا﴾ يتسبَّب لمزيد الخير في الدارين فالبركة في السفينة النجاة من مصاحبة أعداء الله والفراغ للاشتغال بعبادته، والبركة في الأرض بعد الخروج كثرة النسل والرزق والاشتغال بعبادة الله تعالى، الجملة الشرطية معطوفة على فاسلك ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ حال من فاعل أنزلني وفيه ثناء مطابق لدعائه، أمر نوحاً وحده بالدعاء وعلق الدعاء بأن يستوي هو ومن معه إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه كفاية عن دعائهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي فعلنا بنوح وقومه ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى ورأفته بالمسلمين وغضبه على الظالمين يعتبر بها أولو الأبصار ﴿وَإِن﴾ مخففة من الثقيلة تقديره وإنا ﴿كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾ اللام فارقة يعني كنا المصيبين قوم نوح ببلاء عظيم أو ممتحنين عبادنا، وقيل إن نافية واللام بمعنى إلا يعني وما كنا بإرسال نوح ووعظه وتذكيره إلا مبتلين قومه ومختبرين إياهم لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا﴾ عطف على كلام محذوف تقديره فأغرقناهم ثم أنشأنا ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ المراد بهم عاداً وثمود، قال البغوي والأول أظهر ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ﴾ يعني أوحينا بين أظهرهم ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يعرفونه بالصدق والعدالة وهو هود أو صالح عليه السلام ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أن مفسرة لأرسلنا لكونه بمعنى القول يعني قلنا لهم على لسان الرسول ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مر تفسيره ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ العلة ذكر بالواو لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول بخلاف كلام قوم نوح وحيث استأنف الله به ذكر مقال قوم هود في الأعراف وهو بغير واو بالاستئناف كأنه جواب سؤال مقدر كأنه قيل فما قال قومه في جوابه، وذكر ها هنا بالواو عطفاً لما قالوه على ما قال الرسول، على معنى أنه اجتمع في الحصول وهذا الحق مع هذا الباطل وليس متصلاً بكلام النبي جواباً له وذكر في قصة نوح بالفاء لأنه جواب لقوله واقع عقيبه ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب أو بمصيرهم إلى الحياة الآخرة ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ﴾ أي أنعمناهم بكثرة الأموال والأولاد ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ﴾ الذي يدعي النبوة ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ في الصفات والأحوال ﴿يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ ما موصولة والعائد إلى الثانية منصوب محذوف أو مجرور حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم﴾ اللام في جواب قسم محذوف أي والله لئن أطعتم ﴿بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا

﴿لَخَاسِرُونَ﴾ حيث أذللتم أنفسكم بالانقياد لمثلكم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم ما أحمقهم وما أجهلهم ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار أو التقرير أي قد يعدكم ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص بكسر الميم من مات يمات، والباقون بضم الميم من مات يموت ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ مجردة عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياءً أنكم تكرير للأول أكد به لطول الفصل بينه وبين خبره تقدير الكلام ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ كذلك قرأ ابن مسعود ﷺ وجاز أن يكون ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبتدأ خبره الظرف المقدم، أو فاعل للفعل المقدر وجواباً للشرط والجملة خبر الأول أي أنكم إخراجكم واقع إذا متم أو أنكم إذا متم وقع إخراجكم ويجوز أن يكون خبر الأول محذوفاً لدلالة خبر الثاني عليه، وجملة أيعدكم تقرير للطعن السابق في النبوة أو تعليل لقوله لئن أطعتم بشراً أنكم لخاسرون ﴿هَيْهَاتَ﴾ اسم فعل وفاعله ضمير مستكن فيه أي بعد وقوع هذا الوعد عن العقل والتصور، أو بعد التصديق والإيمان به ﴿هَيْهَاتَ﴾ تأكيد للأول ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا الاستبعاد لما توعدون كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل لهم فماله هذا الاستبعاد قالوا لما توعدون، وجاز أن يكون اللام زائدة للبيان والموصول فاعل لهيهات كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وقيل هيهات مصدر بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء على أنه مبني عليه وقرأ أبو جعفر بكسر التاء من غير تنوين، وقرىء بالكسر منوناً وقرأ نصر بن عاصم بضم التاء، وقرىء بالفتح منوناً للتنكير وبالضم منوناً على أنه جمع هيهة وغير منون تشبيهاً بقبل وبعد، وقرىء بالسكون على لفظ الوقف وبإبدال التاء هاءً ووقف عليها أكثر القراء بالتاء وجملة هيهات لما توعدون معترضة.

﴿إِنْ هِيَ﴾ أي الحياة جنسها شيء ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ودنت منا أقيم الضمير مقام الحياة الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً عن التكرير وإشعاراً بأن تعيينها مغن عن التصريح بها، فإن نافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس مثل لا التي لنفي الجنس ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني يموت بعضنا ويحيى بعضنا، قال البغوي فيه تقديم وتأخير أي نحيي ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت وهذا القول مبني على كون ضمير المتكلم مع الغير لجميع الناس، قلتُ وعلى تقدير كون الضمير لجميع الناس أيضاً لا حاجة إلى القول بالتقديم والتأخير إذ الواو لمطلق الجمع دون الترتيب فالمعنى يثبت لجميع الناس في الدنيا موت وحياة ولا حياة غير لهذه الحياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت حال أو عطف ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما الذي يدعي الرسالة ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ فيما يدعيه من الرسالة أو فيما بعدها من البعث ﴿كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين وهذه الجملة تأكيد لقولهم ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ الرسول ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي ﴿قَالَ﴾ الله ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ ما زائدة لتأكيد معنى القلة أو نكرة موصوفة بمعنى شيء والمراد به الزمان يعني عن زمان قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على

تكذيبهم إذا عاينوا العذاب، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قيل: أراد بالصيحة الهلاك وفي القاموس الصيحة والصياح الصوت بأقصى الطاقة وصيح بهم نزعوا وفيهم هلكوا والصيحة العذاب فإن كان القصة لعاد فالمراد بالصيحة ها هنا العذاب وإن كان لثمود فالمراد بها الصوت وقد ذكرنا قصتهم في سورة الأعراف أنه أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتصدعت قلوبهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالوجه الثابت الذي لا دافع له أو بالعدل كقولك فلان يقضي بالحق أو بالوعد الصدق ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي هلكى شبههم في دمارهم بغثاء الليل وهو حميله، يقول العرب لمن هلك سال به الوادي ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل الإخبار والدعاء وبُعْداً مصدر لبعد بمعنى هلك وهو من المصادر التي وجب إضمار فعلها في الاستعمال وسدها مسد الأفعال، والقوم الظالمون فاعل للمصدر الذي سد مسد الفعل واللام زائدة أو هي لتقوية عمل المصدر كما في قوله أعجبني جلوس لزيد وقيام لعمرو ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ عطف على جعلناهم غثاء ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد عاد ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من زائدة للاستغراق وأمة في محل الرفع على الفاعلية ﴿أَجَلَهَا﴾ أي الوقت الذي لهلاكها يعني لا يهلك أمة قبل الوقت الذي قدر هلاكها فيه ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ ولا يتأخر أمة عن وقت هلاكها أي لا يبقى بعد الأجل، ذكَّر الضمير بعد تأنيثه للمعنى وهذه جملة معترضة ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أصله وترى من الوتر ضد الشفع قلبت الواو بالتاء كما في التراث والتقوى منصوب على الحال من مفعول أرسلنا، قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بالتنوين وصلاً وبالألف عوض التنوين وقفاً ولذا لا يميله أبو عمرو لأن ألفه عنده كألف زيداً في النصب فهو مصدر بمعنى التواتر والمواترة وهو تتابع الأشياء وتراً وتراً يعني فرادى من غير اجتماع، قال في القاموس التواتر التتابع أو مع فترات وواتر مواترة ووتاراً تابع إذ لا يكون المواترة بين الأشياء إلا إذا وقعت بينها فترة يعني اعتبر بعض الناس في التواتر إن يكون بينها فترة، ومنه حديث أبو هريرة، لا بأس بقضاء رمضان تترى أي متفرقاً غير متتابع كذا في النهاية، قال الأصمعي يقال واترت الخبر أي أتبعت بعضها بعضاً وبين الخبرين مهلة، قلتُ: ولذلك اشترط في الخبر المتواتر أن يروى من جهات شتى ورجال غير مجتمعين بحيث لا يحتمل تواطئهم على الكذب، وقرأ أكثر القراء بالألف المقصورة للتأنيث على وزن سَكْرى من غير تنوين لعدم انصرافه للزوم التأنيث ذكر صيغة التأنيث لأن الرسل جماعة وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾ معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ وفيه مقابلة الجمع بالجمع بإرادة انقسام الآحاد عى الآحاد فاستقام التراخي كأنه قال: ثم أنشأنا قرناً ثم أرسلنا فيه رسولاً ثم أنشأنا قرناً آخر ثم أرسلنا رسولاً آخر وهكذا، إذ لا يستقيم أن يقال أرسلنا قروناً كثيرة وبعد جميع القرون أرسلنا رسلاً ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾ أضاف الرسول مع الإرسال إلى المرسل ومع المجيء إلى المرسل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأ الأمر منه والمجيء الذي هو منتهاه إليه ﴿كَذَّبُوهُ﴾ أسند التكذيب

إليهم لأجل صدوره من أكثرهم فإن للأكثر حكم الكل جملة مستأنفة ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك كما أتبعنا بعضهم بعضاً في الإنشاء وبعث الرسل إليهم عطف على كذبوه ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يعني لم يبق منهم، أثر إلا حكايات يسمونها ويعتبر بها المعتبرون جمع أحدوثة وهو ما يتحدثه الناس تلهياً وتعجباً، قال الأخفش إنما هذا أي استعمال كلمة أحدوثة وأحاديث في الشر وأما في الخير فلا يقال جعلتُهم أحاديث وأحدوثة وإنما يقال صار فلان حديثاً وقيل هو اسم جمع للحديث يقال أحاديث النبي ﷺ ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بالرسل ولا يصدقونهم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ عطف على ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ ﴿وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ بدل من أخاه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة واضحة ملزمة للخصم ويجوز أن يراد به العصا وإفرادها بالذكر لأنها أول المعجزات وتعلقت بها معجزات شتى كانقلابه حيَّةً وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر وحراستها ومصيرها شمعةً وشجرةً مثمرةً ورشاءً ودلواً، ويجوز أن يراد به المعجزات وبالآيات الحجج وأن يراد بهما المعجزات فإنها آيات للنبوة وحجة للنبي على ما يدعيه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان ومتابعة الرسول ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي كانوا يرتفعون على الناس تكبراً ويقهرونهم ظلماً ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾ الاستفهام للإنكار أي لا نعترف ولا نصدق بالفضل والنبوة ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ فإنه يطلق على الواحد كقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [يوسف: ٢٣] كما يطلق على الجمع كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ١٧] ﴿مِثْلِنَا﴾ لم يثن المثل لأنه في حكم المصدر فإن مثل وغير يوصف به الواحد والاثنان والجماعة من المذكر والمؤنث ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ مطيعون متذللون والعرب تسمي كل من أطاع وتذلل لأحد أنه عابد له، والجملة حال لفاعل نؤمن أو لبشرين أولهما ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ عطف على أرسلنا ﴿فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ الضمير عائد إلى قومهما ولا يجوز عود الضمير إلى فرعون وقومه لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم أي لكي[1] ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى المعارف والأحكام.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بولادتها إياه من غير مسيس فالآية أمر واحد وهو الولادة مضاف إليهما أو تقديره وجعلنا ابن مريم آية بأن تكلم في المهد وظهر منه معجزات أخر وأمه آية بأن ولدت من غير مسيس فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها. ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي مكان مرتفع من الأرض، قال عبد الله بن سلام هي دمشق وهو قول سعيد بن المسيب ومقاتل، وقال الضحاك غوطة[2] دمشق، وقال أبو هريرة هي الرملة، وقال عطاء عن ابن

---

(١) غير سديد لان يهتدون مرفوع وكي جازمة فلا يناسب فافهم ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٢) الغوط: عمق الأرض ولم يقرأ نهاية منه، والغوطة بالضم: بلد قريب من دمشق مجمع البحار وفيه الغوطة اسم بساتين ومياه حول دمشق وهو غوطها ـ الفقير الدهلوي ـ.

عباس هي بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب، وقال كعب هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، وقال ابن زيد هي مصر والسدي هي أرض فلسطين ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي مستوية منبسطة يستقر عليها ساكنوها، وقيل ذات ثمار وزروع يستقر فيها الناس لأجلها ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي ماء ظاهر جار فعيل من معن الماء إذا جرى وأصله الإبعاد في الشيء أو من الماعون وهو المنفعة لأن الماء نفاع أو مفعول من عانه إذا أدر له بعينه لأنه لظهوره يدرك بالعيون.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى
غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا
يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ
وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ
فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ
يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ
تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ
عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ أي الحلالات دون المحرمات فالأمر للتكليف لأنه في معنى النبي عن تناول المحرمات أو المستلذات من المباحات فالأمر للترفيه وللرد على الرهبانية في رفض الطيبيات، وقيل: هي الحلال الصافي القوام فالحلال ما لا يعصى الله فيه وضده الحرام، والصافي ما لا ينسى الله فيه وضده ما يلهيه ويوقعه في انهماك الشهوات والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل والقوي وضده القدر الزائد على الشبع ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ أي عملاً يراد به وجه الله على وفق ما أمر به خالصاً له تعالى من غير شرك جلي ولا خفي وضده الفاسد وهو ما يكرهه الله تعالى من قول أفعل وتقدير الكلام وقلنا لهم يا أيها الرسل كلوا إلى آخره فهو حكاية عما خوطب به الأنبياء كل نبي في زمانه لا على أنهم خوطبوا به دفعة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة والسدى والكلبي وجماعة خوطب به محمد ﷺ وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع، قلتُ: ومبنى ذلك على التعظيم وفيه إشارة إلى فضله أو لقيامه مقام جماعة فإنه أرسل إلى الناس كافة، وجاز أن يكون المراد به النبي ﷺ وعلماء أمته فإنهم برازخ بين الرسول وأمته كما أن الرسول

برزخ بينهم وبين الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[١] وقيل خوطب به عيسى عليه السلام عند إيوائه وأمه إلى الربوة فذكر لهما ما خوطب به الأنبياء كل نبي في زمانه ليقتديا بالرسل في تناول ما رزقا ويقتضيه سياق القصة ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم على حسب أعمالكم فالجملة في مقام التعليل ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي أكل الطيبات والعمل بالصالحات، قرأ الكوفيون بكسر الهمزة على أنه جملة في محل النصب حال من فاعل كلوا أو هي معطوفة على جملة سابقة فيكون في مقولة قلنا على تقديره، والباقون بفتحها[٢] عطفاً على ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ أو بتقدير اللام يعني ولأن هذه أمتكم أو منصوب بتقدير اعلموا أن هذه ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي ملتكم وشريعتكم التي أنتم بأجمعكم عليها ﴿أُمَّةً﴾ أي ملة ﴿وَٰحِدَةً﴾ وهي الإسلام متحداً في العقائد وأصول الشرائع والعمل في الفروع على حسب ما أمر الله به في كل زمان وعلى الناسخ بعد ترك المنسوخ، وقوله: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حال مؤكدة لقوله: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ على طريقة زيد أبوك عطوفاً والعامل فيه معنى الإشارة ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ الفاء للسببية يعني اتقوني لأجل أني ربكم.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ يعني تقطع وتفرق الذين أرسل إليهم بعد الإرسال أمر دينهم وجعلوه أدياناً مختلفة في أصول الدين، فآمن بعضهم بجميع الرسل وبجميع ما أرسل إليهم وهم أهل الحق في كل قرن، وبعضهم آمن ببعض دون بعض كاليهود والنصارى والصابئين وبعضهم كفروا بأجمعهم كالمجوس وأهل الأوثان فالتفعل بمعنى التفعيل وأجاز أن يكون معناه فتفرقوا وتحزبوا في أمر دينهم وجعلوه أدياناً مختلفة، فعلى هذا أمرهم منصوب بنزع الخافض أو على التميز من نسبة التفرق إليهم، والضمير في تفرقوا راجع إلى المرسل إليهم المذكورين في القصص المذكورة حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وأنشأنا قروناً فأرسلنا فيهم رسلنا تترى وغير ذلك، والجملة معطوفة على أرسلنا ﴿زُبُرًا﴾ أي فرقاً وطوائف وقطعاً جمع زبورٍ بمعنى الفرقة ومنه زبر الحديد، فهو إما منصوب على المصدرية من غير لفظ الفعل نحو: أنبته الله نباتاً أو حال من أمرهم أو من فاعل تقطعوا أو مفعول ثانٍ لتقطعوا لتضمنه معنى الجمل يعني قطعوا أمرهم وجعلوه زبراً فرقاً، وقيل معناه كتباً من زبرتُ الكتاب إذا كتبته كتابة غليظة وكل كتاب غليظ الكتابة يقال زبور، يعني جعلوا دينهم كتباً محرفة بعدما كان كتاباً واحداً من الله منزلاً. فيكون مفعولاً ثانياً لتقطعوا أو حال من أمرهم، والمعنى فرقوا أمرهم أي دينهم حال كون دينهم كتباً منزلةً من السماء متفقةً في أصول الدين مصدقاً بعضها بعضاً فقالوا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وعن الحسن قطعوا كتاب الله قطعاً وحرَّفوه ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين أو الهوى ﴿فَرِحُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في العلم باب ١٠، والترجمة، وأبو داود في العلم باب ١، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧، والدارمي في المقدمة باب ٣٢، وأحمد في المسند ٥/١٩٦.

(٢) وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة وتخفيف النون على أنها مخففة من الثقيلة ـ أبو محمد عفا الله عنه.

معجبون معتقدون أنهم على الحق جملة مستأنفة ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ قال ابن عباس في كفرهم وضلالتهم وقيل في غفلتهم وجهالتهم جهلاً مركباً شبَّهها بالماء الذي يغمر القامة أي يسترها ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى زمان موتهم أو إلى أن نأمرك بالقتال يعني لا تحزن على تفرقهم وكفرهم فإنا نأخذهم إما بالعذاب من عندنا أو بأيديكم.

﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ أي الذين يفرحون بما لديهم من الضلال ولا يتبعون الرسل ويكذبونهم ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أي ما نعطيهم ونجعلها مدداً لهم ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لما ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ خبر لأن والعائد محذوف، وأن مع اسمها وخبرها قائم مقام مفعولي يحسبون والاستفهام للتوبيخ والرد على حسبانهم والمعنى أيزعمون أن الذي نعطيهم في الدنيا ونمدهم بها من الأموال والأولاد نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم ثواباً لأعمالهم وعقائدهم لأجل مرضاتنا عنهم وهذا الحسبان سبب لفرحهم بما لديهم ليس الأمر كذلك ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾(١) يعني بل هم كالأنعام لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتأملوا فيعلموا أن لهذه الأعمال والعقائد غير مستوجبة للثواب والمرضاة وإنما ذلك الإمداد استدراج لا مسارعة في الخيرات، هذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم الأصلح للعباد في الدين على الله واجب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ أي من خوف عذابه ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ حذرون من موجبات العذاب أو المعنى أنهم بسبب اتصافهم بخشية الله تعالى خائفون من عقابه، وجاز أن يكون المراد بالخشية ما به الخشية والمعنى أنهم من عذاب ربهم مشفقون، قال الحسن البصري المؤمن جمع إحساناً وخشيةً والمنافق جمع إساءةً وأمناً ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة أو بآياته المنصوبة الدالة على التوحيد ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون بمدلولاتها ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ في العبادة أحداً غيره شركاً جلياً ولا خفياً فلا تكرار فإن الإيمان بالله وحده لا ينفي الإشراك في العبادة غيره.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ أي يعطون من الصدقات ما أعطوه، قال البغوي وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ يأتون ما أتوا أي يعملون ما عملوا من أعمال البر ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي خائفة... أن لا يقبل منهم أو أن لا يقع على الوجه الذي يليق بجناب كبريائه فيؤاخذوا به أو لا ينجيهم من عذاب الله لكثرة الخطايا وقلة الطاعات ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي لأن مرجعهم إلى الله أو قلوبهم خائفة من أن مرجعهم إلى الله وهو يعلم ما يخفي، قال الحسن عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، عن عائشة قالت: «سألتُ

(١) عن الحسن أن عمر بن الخطاب أتى بفروة كسرى بن هرمز فوضعت بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك ـ فأخذ عمر سواريه فرمى بهما إلى سراقة ـ فأخذهما فجعلهما في يديه فبلغتا منكبيه ـ فقال الحمد لله سوارى كسرة بن هرمز في يدي سراقة بن مالك بن جشم أعرابي من بني مدلج ـ ثم قال اللهم إني قد علمت أن رسولك قد كان حريصاً أن يصيب مالاً ينفقه في سبيلك وعلى عبادك فزويت عنه ذلك ـ اللهم إني أعوذ بك أن يكون هذا مكراً منك لعمر ثم تلا أيحسبون انما أنمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ـ ١٢ ـ منه رحمه الله ـ.

رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ الذين[١] يشربون الخمر ويسرقون قال: «لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا تقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[٢] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وروى البيهقي أنها قالت قلت يا رسول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق، قال: «لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يقوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»[٣]، الموصولات المعطوفة بعضها على بعض اسم لأن وإنما كرر الموصول ولم يعطف الصلات بعضها على بعض للدلالة على أن كل واحد من الصفات المذكورة مستقل لثبوت الخير وخبرها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيسارعون في إتيانها كيلا يفوت منهم إتيانها، أو المعنى يسارعون في نيل الخيرات الأخروية الموعودة على الطاعات بالمبادرة إليها، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها، حيث قال رسول الله ﷺ: «لا يرد البلاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»فهذه الآية حينئذ كقوله فَأَتَهُمُ الله ثَوَاب الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ فيكون إثباتاً لهم ما نفي عن أضدادهم، قلتُ لعل المراد بالخيرات التي يسارع إليها المؤمنون في الدنيا هو الاطمئنان بذكر الله والالتذاذ به والشبع بالكفاف وعدم الخوف من زوال نعماء الدنيا وعدم الخوف والرجاء عن أحد سوى الله تعالى، والمبشرات التي يدرك بالإلهام أو المنام ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي لأجل الخيرات سابقون الناس إلى الجنات أو فاعلون السبق إلى الطاعات أو الثواب أو الجنة أو سابقون إلى خيرات ينالونها في الدنيا قبل الآخرة حيث عجلت لهم، وقيل: اللام ها هنا بمعنى إلى يعني وهم إلى الخيرات سابقون كقوله تعالى: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] أي إلى ما نهوا عنه ومن ها هنا قال الكلبي سبقوا الأمم إلى الخيرات، وقال ابن عباس معنى الآية سبقت لهم من الله السعادة.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة في محل النصب على الحال من فاعل يسارعون في الخيرات يعني ما مسارعتهم إلى الاجتهاد إلا بطيب أنفسهم التذاذاً، وما كلفناهم إلا بقدر طاقتهم ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ يعني اللوح المحفوظ أو صحائف الأعمال ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما هو الثابت المتحقق في الواقع يعني أعمالهم ثابتة لدينا لا نضيع منها شيئاً بل نثيب عليها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم شيء، قوله ولدينا كتاب حال ثان مرادف للأول وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى آخره جملة معترضة لبيان أحوال المؤمنين في أثناء ذكر الكافرين، فقوله ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ الخ متصل بقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يعني بل قلوب الكفرة الذين لا شعور لهم ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ أي في غفلة غامرة

---

(١) وفي الجامع للترمذي بعد قوله تعالى وقلوبهم وجلة قالت عائشة: هم الذين إلخ ـ الفقير الدهلوي ـ.
(٢) أخرجه الترمذي حديث ٣١٧٥، وابن ماجه حديث ٤١٩٨، وأحمد في المسند ٦/ ٢٠٥.
(٣) انظر الحاشية السابقة.

﴿مِّنۡ هَٰذَا﴾ يعني من عدم شعورهم فهم كما لا يشعرون لا يشعرون أنهم لا يشعرون، أو المعنى هم في غمرة من نفس الشعور فهم كما لا يشعرون حالاً لا يشعرون في الاستقبال لانتفاء صلاحية الشعور فيهم لأجل الغمرة، أو أنهم في غمرة من أنهم تفرقوا دينهم وتركوا دين الله المرضي إلى ما اقتضته أهواؤهم، وقيل: في غمرة من هذا القرآن أو مما اتصف به المؤمنون وذكر فيما سبق أو من كتاب الحفظة ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ﴾ خبيثة كائنة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الأعمال التي اتصف بها المؤمنون أو المعنى لهم أعمال خبيثة متزايدة على ما هم عليه من الشرك ﴿هُمۡ لَهَا﴾ لتلك الأعمال الخبيثة ﴿عَٰمِلُونَ﴾ معتادون بها هذه الجملة صفة للأعمال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم﴾ يعني متنعميهم ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ أخرج ابن جرير عن ابن جريج عن ابن عباس أنه قال هو السيف يوم بدر، وقال الضحاك هو الجوع حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحترقة»[1] والدعاء عليهم مروي في الصحيحين من حديث ابن مسعود ﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ الجئر رفع الصوت بالاستغاثة جواب شرط وإذا للمفاجأة ينوب على الجملة الاسمية مناب الفاء الجزائية، وحتى ابتدائية يدل على سببيَّة ما قبلها لما بعدها كما في قولك مرض فلان حتى لا يرجونه فإن غفلتهم سبب لهلاكهم واستغاثتهم، وجاز أن يكون ﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ بدلاً من إذا أخذنا وجواب الشرط قوله: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ فإنه مقدر بالقول يعني قيل لهم: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ﴾ وعلى التأويل الأول هذا استئناف ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي يعني لا تجئروا فإنه لا ينفعكم الجئر ولا يلحقكم نصر ومعونة من جهتنا ولا يمكن دفع عذاب الله إلا من نصر من جهته ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي﴾ المنزلة في القرآن ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾ النكوص الرجوع قهقرى يعني كنتم تعرضون مدبرين عن سماعها وتصديقها والعمل بها والجملة تعليل لقوله: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ عن اتباع النبي ﷺ والإيمان به مستعلين أنفسكم على سائر الناس ﴿بِهِۦ﴾ الضمير راجع إلى غير مذكور وهو الحرم، يعني مستكبرين بالحرم قائلين نحن أهل الحرم وجيران بيت الله لا يظهر علينا أحد لا نخاف أحداً، كذا قال ابن عباس ومجاهد وجماعة ولما كان افتخارهم واستكبارهم بالبيت مشهوراً أغنى ذلك عن ذكر المرجع، وقيل: الضمير راجع إلى آياتي فإنها بمعنى كتابي والباء متعلق بمستكبرين لتضمينه معنى مكذبين أو لأن استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعهم القرآن، وقوله مستكبرين حال من فاعل تنكصون وكذا قوله ﴿سَٰمِرٗا﴾ حال منه أو من فاعل مستكبرين يعني حال كونهم تسمرون أي تتحدثون بالليل في مجالسكم حول البيت، والسمر الحديث بالليل

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٢٨، والاستسقاء باب ٢، والجهاد باب ٩٨، وأحاديث الأنبياء باب ١٩، وتفسير سورة ٣، باب ٩، وسورة ٤، باب ٢١، والأدب باب ١١٠، ومسلم في المساجد حديث ٢٩٤، ٢٩٥.

والسامر اسم جمع كالباقر للبقر والجامل للجمل، يقال سمر القوم يسمرون فهم سمار وسامر كذا في النهاية ومنه حديث قيلة إذ جاء زوجها من السامر أي من قوم يسمرون، وفي القاموس سمر سمراً وسموراً لم ينم وهم السمار والسامرة والسامر اسم الجمع والسَّمَرُ محركة الليل وحديثه وظل القمر والدهر والظلمة، قال البيضاوي السامر في الأصل مصدر جاء على لفظ الفاعل كالعافية، وقيل هو مفرد في محل الجمع كما في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي أطفالاً، وقيل السامر الليل المظلم فعلى هذا يكون سامراً منصوباً على الظرفية يعني تنكصون وتستكبرون في الليل في أحاديثكم ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم من الأهجار وهو الأفحاش أي تفحشون وتسبُّون النبي ﷺ وأصحابه، والباقون بفتح التاء وضم الجيم من هجرَ يهجر هُجراً بضم الهاء بمعنى الفحش والقول القبيح فيكون معنى القراءتين واحداً، أو هجراً بفتح الهاء بمعنى القطيعة والإعراض أو بمعنى الهذيان أي تعرضون عن القرآن أو تهذون في شأن النبي ﷺ أو القرآن وتقولون ما لا تعلمون، أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال كانت قريش تسمر حول البيت ولا تطوف به ويفتخرون فأنزل الله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والفاء للعطف على محذوف تقديره ألم يسمعوا فلم يدبروا القول أي القرآن فإن اللام للعهد يعني القول الذي جاء به محمد ﷺ، يعني قد سمعوا القرآن وتدبروا فيه حين أرادوا معارضته فلم يقدروا على إتيان مثل أقصر سورة منه فظهر عليهم بإعجازه وأخباره وقصصه أنه ليس من كلام البشر ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة التي للإنكار والمعنى بل لم يجئهم ما لم يأت آباءهم الأولين يعني بل قد جاءهم ما أتى آباءهم إسماعيل عليه السلام وأعقابه من الرسول والكتاب وقد كانت قريش يعترفون بنبوة إبراهيم وإسماعيل وفضلهما فمحمد ﷺ مثلهما ولا استحالة في ذلك ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ محمد ﷺ، يعني قد عرفوه صغيراً وكبيراً وعرفوا نسبه وأمانته وصدقه وحسن أخلاقه ووفاء عهوده وكمال علمه وأدبه من غير تعلم من البشر إلى غير ذلك كذا قال ابن عباس ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ الفاء للسببية معطوف على لم يعرِفُوا وما عطف هو عليه، يعني لا يجوز الإنكار إلا بسبب أحد هذه الوجوه المذكورة ولو يوجد شيء منها بل قد تحقق أضدادها ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أم ها هنا أيضاً منقطعة والهمزة التي في ضمنها للردع والتوبيخ يعني بل أيقولون إنه مجنون وهم يعلمون أنه أرجحهم عقلاً وأتقنهم نظراً لا ينسب الجنون إلى مثله إلا معاندٌ أو مجنون، وجاز أن يكون أم في هذه المواضع متصلة معطوفة على ما دخل عليه همزة الاستفهام لنفي المفهوم المردد، وجملة أفلم يدبروا مستأنفة كأنَّ السامع لمَّا سمع قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قال ما سبب هذا النكوص والاستكبار والهجر أكان شيئاً من هذه الأمور المذكورة وهي عدم تدبرهم في القرآن أو عدم علمهم بإتيان النبي قبلهم أو عدم معرفتهم أمانة الرسول وصدقه وغير ذلك أو زعمهم كونه مجنوناً،

فقال الله في جوابه ليس شيء من هذه الأمور ﴿بَلْ﴾ سبب ذلك المكابرة والعناد حيث ﴿جَآءَهُم﴾ محمد ﷺ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي القول الثابت المتحقق الظاهر صدقه عقلاً ونقلاً لا يخفى صحته وحسنه على عاقل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ الجملة حال من مفعول جاءهم يعني جاءهم الحق وهم له كارهون عناداً أو ظلماً لحب الرياسة واتباع الشهوات وتقليد الجهال والتمسك بالعادات لا لحكم الكياسة، وإنما قيد الحكم بالأكثر لأنه كان منهم من ترك الإيمان خوفاً من توبيخ قومه أو لقلة فطنته أو عدم فكرته لا لكراهة الحق.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بأن كان في الواقع آلهة متعددة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي لبطلت ولم يخرج شيء منها من كتم العدم لما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] في سورة الحج[1]، وقال ابن جريج ومقاتل والسدي وجماعة الحق هو الله وقال الفراء والزجاج المراد بالحق القرآن، والمعنى لو اتبع الله مراده وجعل لنفسه شركاء أو اتخذ ولداً وأنزل القرآن على حسب شهواتهم ونطق القرآن بالشرك والقبائح، لم يكن الله إلهاً فإن الألوهية لا يحتمل الشركة والله لا يأمر بالفحشاء فإن الأمر بالفحشاء رذيلة والألوهية يقتضي التنزه عن الرذائل ولو لم يكن الله إلهاً لبطل وجود الممكنات بأسرها، وقيل معناه لو اتبع الحق أهواءهم وانقلب باطلاً لذهب ما قام به العالم فلا يبقى له قوام، أو المعنى لو اتبع الحق الذي جاء به محمد ﷺ من الدين أهواءهم وانقلب شركاً لأنزل الله عليهم العذاب وأهلك العالم من فرط غضبه ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم﴾ عطف على قوله: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ الخ وجملة ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لبيان بطلان أهوائهم ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بالكتاب الذي يذكرهم الله أو هو ذكرهم أي وعظهم أو الذكر الذي تمنوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الصافات: ١٦٨ ـ ١٦٩] وقال ابن عباس يعني بما هو ذكرهم أي بما فيه فخرهم وشرفهم يعني القرآن نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي شرفكم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] فإن القرآن نزل بلغة قريش وجعل الله الناس تبعاً لقريش وانحصر الإمامة فيهم ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه ولا يريدون الشرف.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ يعني أجراً على هدايتهم والرسالة إليهم عطف على قوله: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب فالاستفهام ها هنا أيضاً للإنكار يعني لا تسألهم أجراً حتى لا يؤمنوا بك مخافة الغرامة ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ أي أجره وثوابه الذي يعطيك في الآخرة قرأ حمزة والكسائي خراجاً فخراج ربك بالألف في الموضعين وقرأ ابن عامر بغير ألف فيهما ومعناهما واحد وهو الأتاوة أي الجعل والأجر على العمل قال في القاموس الخرج الأتاوة كالخراج وقرأ الباقون أم تسألهم خرجاً بغير ألف ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ بالألف، قال

---

(١) سهو من المفسر العلامة رحمه الله تعالى، لأن الآية المذكورة إنما هي في سورة الأنبياء ـ الفقير الدهلوي.

البيضاوي والخرج بإزاء الدخل يقال لكم ما تخرجه إلى غيرك والخراج غالب في الضريبة التي يأخذها السلطان على الأرض ففي هذه القراءة في إضافة الخراج إلى الله إشعار بالكثرة واللزوم ﴿خَيْرٌ﴾ لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم هذه الجملة تعليل لنفي السؤال ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ عطف على خراج ربك خير أو حال من ربك ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة على استقامته وعدم الاعوجاج فيه، بيَّن الله سبحانه عدم الأسباب الموجبة لإنكار دعوة النبي ﷺ سوى كراهة الحق وقلة الفطنة، وذكر الداعي إلى الإيمان وهو كون المدعو إليه صراطاً مستقيماً مرغوباً بجميع العقلاء عامة وكونه شرفاً لهم، داعياً إلى إسلام قريش خاصة فظهر أن إنكارهم لم يكن إلا لكراهة الحق عندهم عناداً أو قلة تفطنهم ومبنى ذلك الشقاوة الأزلية المكتوبة عليهم، فإنهم كانوا عقلاء كانوا يدركون منافع الدنيا على ما ينبغي فعدم إدراكهم المنافع العاجلة والآجلة المؤبدة الخاصلة عن شوب الكدر لم يكن إلا الشقاوتهم ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي لمائلون لسوء استعدادهم فإنهم خلقوا من ظلال الاسم المضل فلا يمكنهم الاهتداء إلى الصراط المستقيم ويكرهون الحق بعد ظهوره.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ
﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟
مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ
وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا
يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾
ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾
وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا
فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ
أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ

﴿(١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ
(١٠٦) رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى
يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ
تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (١١١) قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ
(١١٢) قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨)﴾

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي من عذاب أخذنا مترفيهم به سواء أريد به السيف يوم بدر كما قال به ابن عباس أو الجوع كما قال به الضحاك وقد ذكرنا القولين فيما سبق ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ اللجاج التمادي في العناد وتعاطي الفعل المزجور عنه ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ أي في استبكارهم عن الحق وإفراطهم في الكفر وعداوة الرسول ﷺ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ من الهدى حال من فاعل لجوا وهذه الجملة الشرطية معطوفة على مضمون ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥)﴾ فإن معناه قيل لهم لا تجرؤوا الخ ومضمونه أنا لم نرحمهم ولو رحمناهم لتمادوا في الطغيان ولم يتوبوا فكأن هذا تعليل لعدم الترحم عليهم، أخرج النسائي والحاكم عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال يا محمد أنشدك الله والرحم قد أكلنا العهن والدم فأنزل الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر أو الجوع ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ يعني لم يرجعوا إلى ربهم بالتوبة بل أقاموا على عتوهم ومضوا على تمردهم، وما استكانوا إما معناه ما استفعلوا السكون فإن المفتقر ينتقل من كون إلى كون وإما معناه افتعلوا السكون وعلى هذا الألف من إشباع الفتحة ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ يعني ليس من عادتهم التضرع والخشوع وأخرج البيهقي في الدلائل بلفظ أن ابن أثال الحنفي لما أتى النبي ﷺ وهو أسير خلى سبيله، فأسلم فلحق بمكة ثم رجع فحال بين مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العهن فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: «بلى»، قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت هذه الآية. وفي هذه الآية استشهاد على ما سبق فإنهم لما لم يتضرعوا بالأخذ بالعذاب فلو رحمناهم وكشفنا عنهم العذاب لم يتضرعوا بالطريق الأولى فإن قيل: ما ذكرت في تفسير الآية يدل على أنه تعالى لم يكشف عنهم العذاب الذي أخذ به مترفيهم وقد قال البغوي دعا النبي ﷺ على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: «بلى»، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فادع الله يكشف عنا هذا القطح فدعى فكشف عنهم فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهذه القصة تدل على أن الله تعالى كشف عنهم عذاب الجوع بدعاء النبي ﷺ فما وجه التوفيق؟

قلت: الآية إنما دلت على نفي المرحمة وكشف العذاب في الزمان الماضي لعلمه تعالى بلجاجهم عند الكشف أيضاً ولا تدل على أنه لا يكشف عنهم في المستقبل لأمر حادث فالله سبحانه كشف عنهم العذاب لأمر معترض وهو دعاء النبي ﷺ لكنهم لم يتضرعوا ولجوا في طغيانهم يعمهون ولم يستكينوا(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ كلمة حتى ابتدائية والمراد بالعذاب ها هنا عذاب الجوع إن كان المراد بالعذاب في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٦٤] القتل والأسر ويوم بدر كما قاله ابن عباس فإن الجوع أشد من الأسر والقتل يعني إذا فتحنا عليهم باباً من عذاب الجوع ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ متحيرون آيسون من كل خير حتى جاءك أعتاهم يستعطفك وإن كان المراد بالعذاب فيما سبق عذاب الجوع كما قاله الضحاك فالمراد بالعذاب ها هنا الموت وعذاب القبر وقيل: قيام الساعة وعذاب النار، فقوله فتحنا بمعنى المستقبل أورد صيغة الماضي لتيقن وقوعه كما في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التكوير: ١] والمعنى إنا محنَّاهم كل محنة من القتل والجوع فما استكانوا ولم يتضرعوا حتى إذا عذبوا بنار جهنم، ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢﴾ [الروم: ١٢] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ لتحسوا بها الآيات المنصوبة ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا في الآيات وتستدلوا بها إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ ما زائدة للتأكيد منصوب على المصدرية أو الظرفية يعني لشاكرون شكراً قليلاً أو في زمان قليل لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجلها والأذعان لما نحها من غير إشراك، وقيل: معنى هذه العبارة في العرف لا تشكرون أصلاً ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ﴾ أي خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ﴾ أي لأمره وقضائه ﴿ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ في السواد والبياض والمنافع أو اختلاف الليالي الشتائية والصيفية في الطول والقصر والأيام كذلك ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بالنظر والتأمل إن كل ذلك منا وإن قدرتنا تعم الممكنات كلها ومن جملتها البعث بعد الموت وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم﴾ إلى هُنا جملة معترضة لتعديد النعم وشكايتهم على كفرهم بعد تلك النعم الجسام وقوله: ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٨١﴾ عطف على قوله: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ يعني بل قال كفار مكة مثل ما قال الأولون من كفار الأمم السابقة ﴿قَالُوٓاْ﴾ بدل من قالوا المذكور سابقاً ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ الاستفهام للإنكار أنكروا واستبعدوا ذلك ولم يتأملوا في بدء خلقهم أنهم كانوا قبل ذلك تراباً ولم يكونوا قبل ذلك شيئاً أصلاً فخلقوا من غير سبق مادة، ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ يعني البعث بعد الموت وعدها قوم ذكروا أنهم رسل الله ﴿مِن قَبۡلُ﴾ ظرف لفعل دل عليه حرف العطف يعني وعد بهذا آباؤنا من قبل هذا الزمان ولم يقع إلى الآن مع تطاول الزمان ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ الوعد ﴿إِلَّآ

---

(١) وفي الأصل: لم يستكانوا ـ الفقير الدهلوي ـ.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السطر هو الصف من الكتاب ومن الشجر المغروس والقوم الوقوف والمراد ها هنا الأول يقال سطر فلان كذا أي كتب سطراً وجمعه أسطر وسطور وأسطار والأساطير جمع أسطار والمعنى أن هذا ليس منزلاً من الله بل شيء كتبه الأولون كذباً، وقال المبرد الأساطير جمع أسطورة نحو أرجوجة وأراجيج وأحدوثة وأحاديث وأعجوبة وأعاجيب وأضحوكة وأضاحيك واستعماله فيما يكتب كذباً يتلهى به ولهذا فسروه بالأكاذيب، وقوله لقد وعدنا إلى آخره تعليل وتقرير للإنكار المذكور.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ جملة مستأنفة كأنه في جواب قول الرسول ماذا أقول لهم حين أنكروا البعث، والاستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة الكلام عليه تقديره إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك فأجيبوا، وفيه استهانة بهم وتقرير لفرط جهلهم فإن حالهم ومقالهم يشهد على جهلهم بمثل هذا الجلي الواضح الذي يعرفه الصبيان والمجانين وإلزام بما لا يمكن إنكاره لمن له أدنى تميز، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن العقل الصريح والنقل من كل ناطق واعتراف الناس أجمعين بذلك يضطرهم إلى هذا الجواب ﴿قُلْ﴾ بعد اعترافهم بذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة وعلي وحفص بالتخفيف بحذف إحدى التاءين من تتذكرون والباقون بالتشديد والإدغام، والاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أتعترفون فلا تتذكرون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداءً قادر على إيجادها ثانياً فما الوجه لإنكاره ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ فإنها أعظم من ذلك استئناف آخر لتلقين الإلزام بعد اللا لزام ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ باللام والجر أي هم لله كذا قرأ العامة ها هنا وفيما بعده فهو جواب على المعنى كقول القائل في جواب من مولاك لفلان أي أنا لفلان فهو مولاي، وقرأ أهل البصرة فيهما الله الله بالرفع على ما يقتضيه السؤال وكذلك في مصحف أهل البصرة وفي سائر المصاحف مكتوب بلا ألف كالأول ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني أتعترفون بأن خالق السماوات والعرش هو الله لا غير فلا تتقون عقابه حيث تشركون به بعض مخلوقاته وتنكرون قدرته على بعض مقدورات.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملكوت هو الملك أي العز والسلطان والواو والتاء فيه للمبالغة فهو غاية ما يتصور من السلطان ولهذا يختص استعمانه بملك الله تعالى، وقيل المراد به خزائنه ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي يحرس ويمنع من السوء ويؤمن من يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ عطف على ما سبق أو حال من فاعله أي لا يؤمن من أخاف الله ولا يمنع من السوء من أراد والله به سوءاً أو لا يقدر أحد على أن يضره حتى يجار عليه، وتعديته لعلى لتضمنه معنى النصرة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وشرحه قد مر ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ يعني إذا اعترفتم بذلك فمن أين تخدعون فتصرفون عن الرشد أو المعنى إذا اعترفتم فكيف يخيل إليكم الحق باطلاً ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ من التوحيد والوعد بالنشور عطف على قوله: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ إضراب عنه وبينهما معترضات ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في إنكارهم ذلك

عطف على ما سبق أو حال من الضمير المنصوب ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتقدسه عن المماثلة والمجانسة بأحدٍ من زائدة لتأكيد النفي والجملة في مقام التعليل على قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركه في الألوهية ﴿إِذًا﴾ جواب لمن أشرك وجزاء الشرط محذوف يدل عليه قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ تقديره لو كان معه آلهة إذن ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ واستبد به ومنع غيره من التصرف فيه وامتاز ملكه عن ملك الآخر ﴿وَلَعَلَا﴾ أي غلب ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي على بعضهم إذا وقع بينهم التحارب كما يقع بين ملوك الدنيا لا مكان ذلك عند تعدد الآلهة فلا يكون المغلوب إلهاً لأنه إمارة العجز والحديث ويظهر منه أنه لو لم يغلب أحدهما على الآخر لزم عجزهما وذلك مناف للألوهية ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفونه من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة غير حفص بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والباقون بالجر على أنه صفة لله، وهذا دليل آخر على نفي الشرك بناءً على اتفاقهم على أنه متفرد به ولهذا رتب عليه بالفاء قوله: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني عن إشراكهم يعني أنه أعظم من أن يوصف بالولد أو الشريك ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ أصل (إن ما تريّنني) فأدغمت النون في الميم وحذفت نون الوقاية كراهة اجتماع النونات، وهذا شرط أكدت بما المزيدة والنون فالمعنى إن كان لا بد من أن تريني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ أي ما يوعد به الكفار من العذاب في الدنيا والآخرة ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ قريناً لهم في العذاب جملة معترضة لتلقين الدعاء وتكرير النداء وتصدير كل واحد من الشرط والجزاء به لزيادة التضرع والجوار، وفي تلقين الدعاء إشارة إلى وجوب الخوف وهضم النفس، وإلى أن شؤم الظلم قد يحيق بمن ورائهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ لكننا لم نعذبهم عذاب استئصال لأنك بين أظهرهم ولعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون، جملة معترضة ثانية لرد إنكارهم الموعود أو استعجالهم استهزاءً، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى﴾ أي بالخصلة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ الخصال وهي الصفح والإعراض والصبر والإحسان ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مفعول لا دفع يعني ادفع شرهم بإحسان منك فعلى هذا أمر بالصبر على الأذى والكف عن القتال نسختها آية السيف، وقيل الحسنة كلمة التوحيد والسيئة كلمة الشرك وقيل: السيئة المنكر والحسنة النهي عنه وهذا أبلغ من أدفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل، معترضة أخرى ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالك وأقدر على جزائهم فكل إلينا أمرهم ولا تتصد على الانتقام منهم، وهذه الجملة في مقام التعليل لقوله ادفع ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي امتنع واعتصم بك ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الهمز شدة الدفع يعني من دفع الشياطين بالإغواء والوساوس إلى المعاصي ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أي يحضروني في شيء من أموري في الصلاة وغيرها فإنه إذا حضر وسوس،

قرأ يعقوب يحضروني بالياء وصلاً ووقفاً والباقون بلا ياء في الحالين، وجملة ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ عطف على قوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ حتى ابتدائية متعلق بقوله: يَصِفُونَ أو بقوله: كذبون ﴿قَالَ﴾ يعني إذا رأى مقعده من الجنة لو آمن ثم مقعده من النار ويقال له قد أبدل الله لك هذا بذلك لأجل كفرك قال ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ قرأ يقعوب بالياء وصلاًووقفاً والباقون بلا ياء في الحالين يعني ارجعني إلى الدنيا، أورد ضمير الجمع للتعظيم وقيل: لتكرير الفعل أصله أرجعني أرجعني كما قيل في قفار وأطرقا، وقيل هذا خطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه، ابتدأ بخطاب الله تعالى لأنهم استغاثوا أولاً بالله تعالى ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع إلى الدنيا ﴿لَعَلِّيٓ﴾ قرأ الكوفيون ويعقوب بسكون الياء والباقون بفتحها ﴿أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ أي عملاً صالحاً منصوب على المفعولية أو على المصدرية ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي في الإيمان الذي تركتُه أي لعلي آتي بالإيمان وأعمل فيه صالحاً، وقيل: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي في المال أو في الدنيا فعلى هذا فيما تركت ظرف كما هو الظاهر، وقيل: ما تركت مفعول به وفي زائدة أي أعمل ما تركت حال كونه صالحاً من الإيمان وغيره أو عملاً صالحاً بلا فساد، أخرج ابن جرير من حديث ابن جريج أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك إلى الدنيا فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله، وأما الكافر فيقول رب ارجعون»[(١)] وفي الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، فقالت عائشة أو بعض أزواجه إنا لنكره الموت، قال: «ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مِمَّا[(٢)] أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وأما الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»[(٣)].

﴿كَلَّآ﴾ ردع من طلب الرجعة واستبعاد أي لا رجعة إليها ﴿إِنَّهَا﴾ يعني قوله: رب ارجعون إلى آخره أنث الضمير لمجانسة الخبر ﴿كَلِمَةٌ﴾ وهو طائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض فهو لا يقع إلا على الجملة المركبة المفيدة، وإطلاق الكلمة على اللفظ المفرد إنما هو اصطلاح النحاة ﴿هُوَ﴾ أي الكافر ﴿قَآئِلُهَا﴾ لا محالة لتسلط الحسرة عليه ومخافة العذاب ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي إمامهم والضمير للجماعة ﴿بَرْزَخٌ﴾ قال مجاهد يعني حجاب بينهم وبين الرجعة، وجملة من ورائهم برزخ معطوف على مضمون كلا يعني لا يكون ما يطلبون وَمِنْ وَرَائِهِم بَرزَخٌ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وقال قتادة البرزخ بقية عمر الدنيا فإنه لا رجوع إلى الحياة ما لم ينته عمر الدنيا، وقال الضحاك البرزخ ما بين الموت إلى البعث

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٠٤.
(٢) وفي الأصل: من أمامه ـ ١٢ ـ.
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤١، ومسلم في الذكر حديث ١٤، ١٦، ١٧، ١٨.

وقيل البرزخ القبر وهم فيه إلى يوم يبعثون ﴿فَإِذَا﴾ كان يوم القيامة ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن المراد به النفخة الأولى نفخة الصعق ﴿فنفخ[1] في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾ [الزمر: ٦٨] فلا أنساب بينهم يؤمئذ ولا يتساءلون ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ [الزمر: ٦٨]﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: ٢٧] لكن الصحيح أنها النفخة الثانية نفخة البعث كذا قال ابن مسعود قال يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي منادٍ هذا فلان بن فلان، فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه فيفرح المرآن قد وجب له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه، ثم قرأ ابن مسعود ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وكذا روى عطاء عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم أي لا ينفاخرون بينهم بالأنساب كما كانوا يتفاخرون بها في الدنيا أو المعنى لا ينفعهم الأنساب يومئذ لعدم التعاطف والتراحم منهم لفرط الدهشة واستبلاء الحيرة بحيث: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦] وضمير بينهم عائد إلى الكفار لذكرهم فيما سبق دون المؤمنين وقوله تعالى في المؤمنين: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] وقوله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة خرج ولدان المسلمين بأيديهم الشراب فيقول الناس لهم اسقونا فيقولون أبوينا أبوينا حتى السقط بباب الجنة يقول: لا أدخل الجنة حتى يدخل أبوي»[2] رواه ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر الليثي وعن أبي ذرارة بمعناه فإن قيل قد ورد في الحديث «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري»[3]، رواه ابن عساكر عن ابن عمر بسند صحيح. قلتُ: نسب المؤمنين داخل في نسب النبي ﷺ فإنه أبو المؤمنين وأزواجه أمهاتهم، وقال البغوي معنى الحديث لا ينفع يوم القيامة سبب ونسب إلا نسبه وسببه وهو القرآن والإيمان، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا من أنت ومن أي قبيلة أنت، فإن قيل قد قال الله تعالى في موضع آخر ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: ٢٧] قلنا: قال ابن عباس إن للقيامة أحوالاً ومواطن ففي موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع موزون يعني عقائده وأعماله الموزونة والمراد به الصالحات منها يعني كثرت وترجحت حسناته على سيئاته، أو هو جمع ميزان والمراد به ترجحت كفة حسناته من الميزان وإيراد صيغة الجمع إما مبني على أن يكون لكل إنسان ميزان على حدةٍ،

---

(١) هكذا في الأصل: وفي القرآن الحكيم ونفخ إلخ بالواو لا بالفاء ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١٩١٥، وابن كثير في تفسيره ٥/ ٤٩٠.

وإما على أن يعتبر تعدد الميزان بتعدد الوزن والموصول مع صلته مبتدأ خبره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات والجملة معطوفة على محذوف فوضع الميزان ﴿فَمَن ثَقُلَتْ﴾ الخ، أجمع علماء أهل السنة على أن وضع ميزان وزن الأعمال حق وأنكره المعتزلة والروافض والخوارج وأكثر أهل الأهواء أخرج البيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب في حديث سؤال جبرائيل عن الإيمان قال: يا محمد ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: فإذا فعلتُ هذا فأنا مؤمن، قال: نعم، قال: صدقت»(١) وأخرج الحاكم في المستدرك وصححه على شرط مسلم عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «يوضع الميزان يوم القيامة فلو وضع فيه السماوات والأرض لوسعت»(٢) الحديث، وأخرج ابن المبارك في الزهد والآجري في الشريعة عن سلمان موقوفاً وأبو الشيخ بن حبان في تفسيره عن ابن عباس قال: الميزان له لسان وكفتان، وأخرج ابن جرير في تفسيره وابن أبي الدنيا عن حذيفة قال صاحب الميزان يوم القيامة جبرائيل عليه السلام وأحاديث الميزان قد تواترت بالمعنى.

فصل

اختلف العلماء في كيفية الوزن؟ قال بعضهم يوزن العبد مع عمله فيكون للمؤمن ثقل بقدر حسناته ولا يكون للكافرين، قال رسول الله ﷺ: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ثم قرأ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة فالمراد بمن خفت موازينه هم الكفار لا غير وقيل يوزن صحائف الحسنات وصحائف السيئات، روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «يجاء برجل من أمتي على رؤوس الأشهاد يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فيقول: أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء»(٤) وأخرج أحمد بسند حسن صحيح عن ابن عمر نحوه، وقيل يجسد العمل ويوزن قال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو جيء بالسماوات والأرض وما فيهن وما بينهن وما تحتهن ووضعت في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٠٧، بلفظ: «يا محمد ما الإسلام»؟

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٨٥.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٨، باب ٦، ومسلم في المنافقين حديث ١٨.

(٤) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ١٧، وابن ماجه في الزهد باب ٣٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢١٣.

الكفة الأخرى لرجحت بهن»[١] رواه الطبراني وأخرج ابن عبد الرزاق في فصل العلم بسنده عن إبراهيم النخعي قال يجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فيخف فيجاء بشيء أمثال الغمام فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فيثقل فيقال ما تدري ما هذا فيقول لا فيقال هذا فضل العلم الذي كنت تعلم الناس، وأخرج الذهبي في فضل العلم عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيترجح مداد العلماء على دماء الشهداء»[٢].

قلتُ: وعندي أنه يوضع العبد مع حسناته المتجسدة أو مع صحائف الحسنات في كفة ومالهما واحد فإن ثقل الصحائف بثقل الحسنات ويوضع سيئاته متجسدة أو صحائفها الثقيلة بثقل السيئات في كفة أخرى فالكافر لا تزن جناح بعوضة وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي لا يكون لميزانه ثقل أصلاً، وأما المؤمن فلا يخلو ميزانه من ثقل ولو بشهادة أن لا إله إلا الله وهو المكنى بقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ غير أن لثقله مراتب فمنهم من اجتنبوا الكبائر وكفر الله عنهم سيئاتهم فموازينهم أثقل الموازين طاشت كفة سيئاتهم خالياً فارغاً ومنهم من ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] وهم الذين قال ابن عباس فيهم أنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحد دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته دخل النار يعني ليصهر ويخلص من الذنوب كما أن الحديد يخلص في النار من الخبث فيصلح لدخول الجنة، قال ابن عباس وإن الميزان يخف بمثال حبة ويرجح ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف يعني حتى يحكم الله تعالى فيهم بدخول الجنة، روى قول ابن عباس هذا ابن أبي حاتم وليس المذكور في هذا الأثر حال الكفار إذ لا حسنة لهم أصلاً والمذكور في القرآن إنما هو حال صالحي المؤمنين وحال الكفار وأما حال عصاة المؤمنين فمسكوت عنه في القرآن غالباً، ولعل ذلك لأن المؤمنين في زمن نزول القرآن وهم الصحابة ﷺ كانوا عدولاً كلهم مجتنبين من الكبائر أو التائبين والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

فالمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ خفت أعماله الحسنة أو كفة حسناته بحيث لا يكون لها ثقل أصلاً، وذلك هو الكافر لا محالة، أخرج البزار والبيهقي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يؤتى ابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان ويؤكل به ملك فإن ثقلت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان لا يشقى بعده أبداً وإن خفت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوةً لا يسعد بعده أبداً» والمراد بالخفة في

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٢٣، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٧١، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/ ١١.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ٤١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٨٩٠١، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٧٢.

هذا الحديث أيضاً ما لا يكون له ثقل أصلاً، قلتُ لعل عصاة المؤمنين يوزن أعمالهم مرتين فإن كان في حسناته بعض خفة يدخل في النار حتى يخلص ثم يوزن ثانياً بعد التطهير فيثقل موازينه وحينئذ ينادى الملك سعد فلان سعادة لا يشقى بعده أبداً وقد ذكرنا بعض تحقيقات المقام في سورة القارعة، والدليل على أن المراد بهذه الآية هم الكفار خاصة دون عصاة المؤمنين قوله تعالى خبراً للموصول ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوها وضيعوا زمان استكمالها ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من الصلة أو خبر ثانٍ لأولئك أو خبر مبتدأ محذوف تقديره وهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحرقها كذا في القاموس، وأما المؤمن فلا يحرق وجوههم النار لما أخرج مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل قوم النار من هذه الأمة فتحرقهم إلا دارات وجوههم ثم يخرجون منها»(١) وأخرج ابن مردويه والضياء عن أبي الدرداء قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ قال: «تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم»(٢) وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلفتهم يعني فلفحتهم لفحة فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته على أعقابهم»(٣) ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ الجملة حال من الضمير المجرور المضاف إليه والكلوح تقلص الشفتين عن أسنان. أخرج الترمذي وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته»(٤) وأخرج هناد عن أبي مسعود في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال مثل الرأس النضيج بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ تقديره يقال لهم توبيخاً وتذكيراً عما استحقوا العذاب لأجله ألم تكن ﴿ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ في جواب ذلك ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين وسكون القاف وقرأ حمزة والكسائي شَقَاوَتُنا بفتح الشين والقاف وألف بعدها وهما لغتان يعني ملكتنا شقاوتنا حتى صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحق ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا فحينئذ لا تخلصنا من العذاب بعد ذلك.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه في جوابهم ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي اسكتوا سكوت هوان فإنها ليست مقام السؤال وأبعدوا، في القاموس خَسَا الكلب بالنصب كمنع أي طرده خساءً وخسوءاً وخسا الكلبُ بالرفع أي بعد كانخسا فهو لازم ومتعد ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قرأ يعقوب بالياء وصلاً ووقفاً والباقون بلا ياء، يعني لا تكلموني في رفع العذاب فإني لا أرفعه منكم فحينئذ يئسوا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣١٩، وأحمد في المسند ٣/ ٣٥٥.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥١٤، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٦، وابن كثير في تفسيره ٥/ ٤٩١.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨٩، وابن كثير في تفسيره ٥/ ٤٩٠.

(٤) أخرجه الترمذي في جهنم باب ٥، وتفسير سورة ٢٣، باب ٤، وأحمد في المسند ٣/ ٨٨.

عن الفرج، أو لا تكلموني مطلقاً، قال الحسن هذا آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعدها إلا الشهيق والزفير ويكون لهم عواء كعواء الكلب لا يفهمون ولا يفهمون، وقال القرطبي، إذا قيل لهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم. أخرج هناد والطبراني وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وعبد الله بن أحمد في روائد الزهد عن عبد الله بن عمرو قال إن أهل النار ينادون مالكاً ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الشورى: ٧٧] فيذرهم أربعين عاماً لا يجيبهم ثم يجيبهم ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ثم ينادون ربهم ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فيذرهم مثل الدنيا مرتين لا يجيبهم ثم يجيبهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] قال فيئس القوم فلا يتكلمون بعدها بكلمة ومن هو إلا الزفير والشهيق، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن محمد بن كعب أنه قال لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربع فإذا كانت الخامسة لا يتكلمون بعدها أبداً ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيجيبهم ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبهم: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] عادت وجوههم قطعة لحم ليس فيها أفواه ولا مناخر يتردد النفس في أجوافهم، وإنها ليسقط عليهم حيات من نار وعقارب من نار فلو أن حية منها نفحت بالمشرق احترق من بالمغرب ولو أن عقرباً منها ضربت أهل الدنيا احترقوا من آخرهم، وإنها لتسقط عليهم فتكون بين لحومهم وجلودهم، وإنه ليسمع لها هناك جلبة كجلبة الوحش في الفيافي.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ يعني المؤمنين ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي بضم السين ها هنا وفي سورة صاد والباقون بكسرها واتفقوا على الضم في سورة الزخرف، قال الكسائي والفراء السخر بكسر السين بمعنى الاستهزاء بالقول وبالضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل ولذلك اتفقوا في سورة الزخرف لأنه بمعنى التسخير لا يحتمل غيره، وقال الخليل هما لغتان مترادفان نحو لجى بضم اللام وكسرها وكوكب دري بضم الدال وكسرها وفي القاموس نحو ذلك حيث، قال سخروا منه وبه هزىء كاستسخروا لاسم السخرية والسخري بالضم ويكسر وسخره كمنعه سخرياً بالكسر والضم كلفه ما لا يريد وقهره وكذا في النهاية

وغير، وعلى كل تقدير مصدر زيدت فيه ياء النسبة للمبالغة والمراد ها هنا الاستهزاء بقرينة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ فإن الضحك يترتب على الاستهزاء دون التسخير وحتى ابتدائية كما في مرض فلان حتى لا يرجونه يعني حتى أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم والضحك ذكرى أسند الإنساء إلى المؤمنين مجازاً، قال مقاتل: نزلت الآية في عمار وصهيب وسلمان وغيرهم من فقراء الصحابة كان كفار قريش يستهزون بهم.

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ﴾ أي المؤمنين ﴿ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ أي بسبب صبرهم على أذاكم واستهزاءكم إياهم ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ دونكم قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها على أنه ثاني مفعولي جزيتهم، ﴿قَالَ﴾ قرأ البعض قال على أنه أمر من الله تعالى للملك أو لبعض رؤساء أهل النار يوم البعث أن يسألوا جماعة أهل النار، وقيل هو خطاب لكل واحد من أهل النار قل جواب هذا، وقرأ الباقون بالألف يعني قال الله تعالى للكفار يوم البعث ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أحياء وأمواتاً في القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تميز لكم ﴿قَالُواْ﴾ يعني الكفرة في الجواب استقصار المدة لبثهم فيها إما لأن المعذب يستطيل أيام شدته ويستقصر بأمر قبل ذلك وإما لكونها منقضية والمنقضي في حكم المعدول وإما لكون مدة حياة الدنيا وأيام القبور في غاية الاقتصار بالنسبة إلى مدة الحياة الآخرة لعدم انتهائها وأما لكونها أيام سرورهم وأيام السرور قصار، وهذا على تقدير كون السؤال مقتصراً على مدة حياتهم في الدنيا دون مدة لبثهم في القبور لأنها ليست أيام السرور لثبوت عذاب القبر فيها بالقطعيات والإجماع ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ من الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونهاعليهم فإنهم أحفظ لمدة لبثنا أو من البشر الذين يتمكنون من عد أيامها إن أردت تحقيقها فإنا لما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها ﴿قَالَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بغير ألف على صيغة الأمر من الله تعالى والباقون بالألف على صيغة الحكاية يعني قال الله تعالى: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ يعني ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا﴾ زماناً أو لبثاً ﴿قَلِيلٗا﴾ بالنسبة إلى ما تستقبلونه من مدة العذاب، قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع»(١) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن المستورد ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ﴾ يعني لو ثبت أنكم ﴿كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك وكلمة لو للتمني والتوبيخ يعني ليتكم تعلمون أن لبثكم في الدنيا قليل فلم تضيعوها في الملاهي والشهوات وما نسيتم لقاء يومكم هذا، قال رسول الله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»(٢) رواه البخاري عن ابن عمر وزاد أحمد والترمذي وابن ماجه «وعد نفسك من هل القبور»(٣) ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ﴾ الفاء للعطف على محذوف والهمزة للإنكار والتوبيخ تقديره

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٥٥، والترمذي في الزهد باب ١٥، وابن ماجه في الزهد باب ٣، وأحمد في المسند ٤/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٢٥، وابن ماجه في الزهد باب ٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤، ٤١، ١٣١.

أتوهمتم فحسبتم أي ظننتم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ ما كافة لعمل إن فدخلت على الجملة الفعلية وهي مع جملتها قائم مقام المفعولين لحسبتم وعبثاً إما مفعول مطلق من قبيل ضربته سوطاً أو مفعول له أو حال من الفاعل أو المفعول أو منصوب بنزع الخافض، يعني لم نخلقكم خلقاً عبثاً لا لحكمة أو للتلهي بكم أو عابثين أي غير مريدين من خقلكم حكمة أو حال كونكم مبعوثين غير مراد منكم حكمة التكليف بالطاعة والمعرفة والجزاء أو لتلعبوا وتعبثوا بل خلقناكم لتعرفوا وتعبدوا ربكم وتطيعوه ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وكسر الجيم على أنه مبني للفاعل من المجرد والباقون بضم التاء وفتح الجيم على أنه مبني للمفعول من الإرجاع، وإن مع جملتها عطف على إنما خلقناكم والمعنى أحسبتم عدم رجوعكم إلينا للجزاء أو هو معطوف على عبثاً يعني ما خلقناكم غير راجعين إلينا.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يحق له الملك، فإن من عداه مملوك بالذات مالك بالعرض من وجه وفي حال دون حال، والفاء للتعليل والجملة في مقام التعليل للإنكار تعالى الله وتنزه من أن يكون فعله عبثاً ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ وصفه بالكرم لاختصاصه بتجليات كريمة من أكرم الأكرمين ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعني يعبد غير الله ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة أخرى لإله لا زمة له، فإن الباطل لا برهان به جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع فضلاً عما دل الدليل على بطلانه أو اعتراض بين الشرط والجزاء لذلك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ جزاء لمن الشرطية يعني أنه تعالى مجازيه مقدار ما يستحقه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بيان لجزائهم يعني ليس لهم نجاة من النار وفوز إلى الجنة، بدأ الله السورة بتقرير الفلاح للمؤمنين وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين ثم أمر رسوله بأن يستغفر واسترحمه حتى يتأسى به المؤمنون من أمته فيفوزوا على مدارج الفلاح فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ جملة أنت خير الراحمين حال من فاعل ارحم وحذف المفعول من اغفر وارحم لتعميم الدعاء بالمغفرة متكفل لسلب جميع المضرات وبالرحمة لجلب جميع المنافع روى البغوي في التفسير عن حنش أن رجلاً مصاباً مر به على ابن مسعود فرقى في أذنيه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ حتى ختم السورة فبرأ، فقال رسول الله ﷺ «بماذا رقيت في أذنه»؟ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال»[1].

تم تفسير سورة المؤمنين خامس عشر شهر صفر سنة أربع وألف ومائتين ويتلوه

سورة النور إن شاء الله تعالى وصلى الله على محمد

وآله وصحبه وسلم آمين.

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ٥/ ٤٦، وابن كثير في تفسيره ٥/ ٤٩٤.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النور

مدنية وهي أربع وستون آية

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورة أو فيما أوحينا إليك سورة ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ صفة لسورة ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ يعني أوحينا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها وقيل: معناه قدّرنا ما فيها من الحدود، قرأ الجمهور بالتخفيف وابن كثير وأبو عمر بالتشديد من التفعيل للتكثير لثكرة فرائضها أو كثرة المفروض عليهم يعني ألزمناكم أجمعين ومن بعدكم إلى قيام الساعة، وقيل: معناه فصلنا وبينا ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على المراد ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي تتعظوا وتتقوا محارم الله.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه تقديره سنذكر حكمهما وقوله ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ بيان لحكمه الموعود تقديره إذا ثبت زناهما فاجلدوا، وقال المبرد: خبره جملة فاجلدوا أورد الفاء في الخبر تتضمن المبتدأ معنى الشرط، فإن اللام بمعنى الذي تقديره الذي زنى والتي زنت فيقال في شأنهما اجلدوا ﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ منصوب على المفعولية يقال جلده إذا ضرب جلده كما يقال رأسه وبطنه إذ ضرب رأسه وبطنه ذكر بلفظ الجلد كيلا يبرح ويضرب بحيث يبلغ اللحم ومن ها هنا قال الفقهاء.

مسألة: يضربه بسوط لا ثمرة له ضرباً متوسطاً. روى ابن أبي شيبة ثنا عيسى بن يونس عن حنظلة السدوسي عن أنس بن مالك قال كان يؤمر بالسوط فيقطع ثمرته ثم يدق بين حجرين ثم يضرب به، قلنا له: في زمن من كان هذا قال: في زمن عمر بن الخطاب، وروى عبد الرزاق عن يحيى بن أبي كثير أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه علي فدعا عليه السلام بسوط، فأتي بسوط شديد له ثمرة، فقال: «سوط دون هذا» فأتي بسوط مكسور لين فقال: سوط فوق هذا، فأتي بسوط بين سوطين، فقال: هذا

«فأمر به فجلد»[١] وروى ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم نحوه وذكره مالك في الموطأ ﴿مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ منصوب على المصدرية قدّم الزانية في هذه الآية على الزاني لأن الزنى في الأغلب يكون بتعريضها للرجل وعرض نفسها عليه بخلاف السرقة فإنها تقع غالباً من الرجال ولذلك قدم السارق على السارقة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

مسألة: أجمع علماء الأمة على أن الزانية والزاني إذا كانا حرين عاقلين بالغين غير محصنين فحدهما أن يجلد كل واحد منهما مائة جلدة بحكم هذه الآية ولا يزاد على ذلك عند أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، وقال الشافعي وأحمد يجب عليهما أيضاً تغريب عام إلى مسافة قصر فما فوقها ولو كان الطريق آمناً ففي تغريب المرأة بلا محرم قولان وفي المنهاج أنه لا تغرب المرأة وحدها في الأصح بل مع زوج أو محرم ولو بأجر وأجرته عليها في قول وفي بيت المال في قول فإن امتنع بأجرة ففي قول يجبره الإمام، وفي المنهاج أنه لا يجبر في الأصح وقال مالك: يجب تغريب الزاني دون الزانية. احتج الشافعي بحديث عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»[٢] وقد مر الحديث في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] وحديث زيد بن خالد قال: «سمعت النبي ﷺ يأمر فيمن زنى ولم يحصن جلد مائة وتغريب عام»[٣] رواه البخاري، وفي الصحيحين حديث زيد بن خالد وأبي هريرة أن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما اقض بيننا بكتاب الله وائذن لي أن أتكلم، قال: «تكلم»، قال: إن ابني كان عسيفاً[٤] على هذا فزنى بامرأته فأخبروني أن على ابني الرجم فافتديت بمائة شاة وبجارية لي ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله أما غنمك وجاريتك فرد عليك وأما ابنك فعليه جلد مائة وتغريب عام وأما أنت يا أنيس فأعد على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها»[٥] قال مالك البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام غير شامل للنساء فلا يثبت التغريب في النساء وهذا ليس بشيء فإن سياق الحديث في النساء حيث قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً» الحديث، وعدم شمول البكر المرأة ممنوع كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «البكر تستأذن»[٦]

---

(١) أخرجه مالك في الحدود حديث ١٢.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود حديث ١٢، ١٣، ١٤، وأبو داود في الحدود باب ٢٣، والترمذي في الحدود باب ٨، وابن ماجه في الحدود باب ٧.

(٣) أخرجه البخاري في الصلح باب ٥، والأحكام باب ٣٩، والحدود باب ٣٠، ٣٢.

(٤) أي أجيرًا.

(٥) أخرجه البخاري في الأحكام باب ٣٩، والحدود باب ٣٤، ٣٨، ومسلم في الحدود حديث ٢٥.

(٦) في الحديث: «لا تُنكح البكر حتى تُستأذن»، أخرجه البخاري في النكاح باب ٤١، والحيل باب ١١، ومسلم في النكاح حديث ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٦٨.

وكلمة من زنى في حديث زيد عام في الذكر والأنثى لكن الوجه الصحيح لقول مالك إن النبي ﷺ قال: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم»[١] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد وأبو داود عن ابن عمر وفي الصحيحن وعند أحمد عن ابن عباس نحوه وروى أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة نحوه ولأجل ذلك خص مالك حكم التعريب بالرجال دون النساء، وجعل الشافعي المحرم شرطاً للتغريب.

وقال الطحاوي إن تغريب النساء لما بطل لأجل نهيهن عن المسافرة بغير محرم انتفى ذلك عن الرجال أيضاً، واستدل الطحاوي على عدم التغريب في الحد بحديث أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب[٢] عليها ثم إذا زنت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إذا زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر»[٣]. متفق عليه، قال إن النبي ﷺ أمر ببيع الأمة إذا زنت ومحال أن يأمر ببيع من لا يقدر مبتاعه على قبضه من بائعه، فثبت بطلان تغريب الأمة إذا زنت وإذا بطل تغريب الإماء بطل تغريب الحرائر لقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] وإذا بطل تغريب الحرائر بطل تغريب الأحرار، وهذا القول غير سديد لأن نفي التغريب في النساء مطلقاً أو في الإماء لأجل التعارض في النصوص لا يقتضي السقوط في حق الرجال مع عدم التعارض هناك، وقال بعض الحنفية لا يجوز العمل بحديث التغريب لأنه زيادة على الكتاب وهي في حكم النسخ فلا يجوز بخبر الآحاد، وهذا القول مردود لأن الزيادة التي هي في حكم النسخ زيادة ركن أو شرط أو وصف في المأمور به حتى يجعل المجزئ غير مجز كزيادة تعين الفاتحة في أركان الصلاة وصفة الإيمان في رقبة الكفارة والتتابع في الصيام والطهارة في الطواف وهي ممنوعة، وأما مطلق الزيادة فغير ممنوعة وإلا لبطلت أكثر السنن ألا ترى أن عدة الوفاة ثبتت بنص القرآن والإحداد فيها ثبت بالسنة وليس الإحداد شرطاً في العدة حتى لو تربصت أربعة أشهر وعشراً ولم تحد عصت بترك الواجب وانقضت عدتها وجاز لها التزوج، ومن هذا القبيل القول بأن تعين الفاتحة وضم السورة وغيرهما من واجبات الصلاة على رأي أبي حنيفة حيث قال بوجوبها ولم يقل بركنيتها، وزيادة التغريب في الحد لا تجعل جلد مائة غير مجز فلا محذور فيه، فقال أصحاب الشافعي إن الآية ساكتة عن التغريب وليس في الآية ما يدفعه لينسخ أحدهما الآخر نسخاً مقبولاً أو مردوداً.

فقال المحققون من الحنفية إن قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ بيان للحكم الموعود في قوله

---

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة باب ٤، والصيد باب ٢٦، ومسلم في الحج حديث ٤١٣ ـ ٤٢٤.

(٢) أي لا يوبخها ولا يقرعها بالزنى بعد الضرب ـ وقيل أراد لا يقنع في أمرها بالتثريب بل يضرب فإن زنى الإماء لم يعده العرب مكروهاً وعيباً فامرهم بحد الإماء كما يحد الحرائر ـ منه رحمه الله ـ.

(٣) أخرجه البخاري في الحدود باب ٣٦، والبيوع باب ٦٦، ١١٠، ومسلم في الحدود حديث ٣٠.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ على قول سيبويه فكان المذكور تمام حكمه وإلا كان تجهيلاً إذ يفهم منه أنه تمام الحكم وليس تمامه في الواقع فكان مع الشروع في البيان أبعد من ترك البيان لأنه يوقع في الجهل المركب وذاك في البسيط، وجزاء للشرط على قول المبرد فيفيد أن الواقع هذا فقط فلو ثبت معه شيء آخر كان مثبته معارضاً لا مثبتاً لما سكت عنه وهو الزيادة الممنوعة، وأورد عليه بأن الحديث مشهور تلقته الأمة بالقبول فيجوز به نسخ الكتاب وأجيب بأنه إن كان المراد بالتلقي بالقبول إجماعهم على العمل به فممنوع لظهور الخلاف، وإن كان المراد إجماعهم على صحته بمعنى صحة سنده فكثير من أخبار الآحاد كذلك ولا تخرج بذلك عن كونها آحاداً فإن قيل: الآية قطعي السند لكنه ظني الدلالة لكونه عاماً.. خص منه البعض إجماعاً فإن الحكم بالجلد مائة مختص بالأحرار والحرائر دون العبيد والإماء، وبغير المحصن عند أكثر الأمة، وأيضاً دلالتها على كون الحكم الجلد فقط لا غير ظنية مستنبطة بالرأي حتى لم يدرك كثير من الفقهاء وأهل العربية، والحديث ظني السند قطعي الدلالة فتساويا فجاز أن يكون حديث الآحاد ناسخاً لحكم الكتاب فلأن يجوز به الزيادة على الكتاب أولى؟ قلنا: على تقدير تسليم المساواة سياق حديث عبادة يدل أنه أول حكم ورد في الزانيات والزواني حيث قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» فالآية عند التعارض ناسخ ليس بمنسوخ، وقد قال الشافعي الجلد المذكور في الحديث في حق الثيب منسوخ فلا مانع من كون التغريب في حق البكر منسوخاً بهذه الآية، قال ابن همام ليس في الباب من الأحاديث ما يدل على أن الواجب من التغريب واجب بطريق الحد، فإن أقصى ما فيه دلالة قوله: «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام». وهو عطف واجب على واجب وهو لا يقتضي ذلك بل ما في البخاري من قول أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: «قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفي وإقامة الحد»[1] ظاهر في أن النفي ليس من الحد لعطفه عليه وكونه مستعملاً في جزء مسماه وعطفه على جزء آخر بعيد لا يوجبه دليل وما ذكر من الألفاظ لا تفيد فجاز كون التغريب لمصلحته.

فائدة: وقد يرجح أصحاب الشافعي حديث التغريب بالمعقول حيث قالوا إن في التغريب حسم باب الزنى لقلة المعارف، وعارضه الحنفية بأن فيه فتح باب الفتنة لانفرادها عن العشيرة وعمن تستحيي منهم إن كان بها شهوة قوية وقد تفعله لحامل آخر وهو حاجتها إلى معيشتها، ويؤيده ما روى عبد الرزاق ومحمد بن الحسن في كتاب الآثار أخبرنا أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم النخعي قال: قال عبد الله بن مسعود في البكر يزين بالبكر يجلدان مائة وينفيان سنة قال وقال علي بن أبي طالب حَسبُهما من الفتنة أن ينفيا، وروى محمد عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم قال: كفى بالنفي فتنة، وروى عبد الرزاق عن الزهري عن ابن

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود باب ٣٢.

المسيب قال: غرَّب عمر ربيعة بن أمية بن خلف في الشراب إلى خيبر فلحق بهرقل فتنصر فقال عمر لا أغرِّب بعده مسلماً.

مسألة: وإذا رأى الإمام مصلحةً في التغريب مع الجلد جاز له النفي عند أبي حنيفة رحمه الله أيضاً وهو محل التغريب المروي عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، روى النسائي والترمذي والحاكم وصححه على شرط الشيخين والدارقطني من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ ضرب وغرَّب وأن أبا بكر ضرب وغرَّب وأن عمر ضرب وغرَّب[١]، وصححه ابن القطان ورجح الدارقطني وقفه وروى ابن أبي شيبة بإسناد فيه مجهول أن عثمان جلد امرأةً في زنى ثم أرسل بها إلى خيبر فنفاها، وليس التغريب مقتصراً على الزنى بل يجوز للإمام تغريب كل واع[٢] إذا رأى مصلحة، روى الطحاوي بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً قتل عبده عمداً فجلده النبي ﷺ مائة ونفاه سنة ومحا أراه سهمه من المسلمين وأمره أن يعتق رقبة، وروى سعيد بن منصور أن عمر بن الخطاب أتى برجل شرب الخمر في رمضان فضرب مائتي سوط ثم سيره إلى الشام، وعلق البخاري طرفاً عنه ورواه البغوي في الجعديات وزاد وكان إذا غضب على رجل يسيره إلى الشام وروى البيهقي عن عمر أنه كان ينفي إلى البصرة، وروى عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن نافع أن عمر نفي إلى فدك، ومن ها هنا أخذ مشايخ السلوك رضي الله عنهم وعنا أنهم يغربون المريد إذا بدا عنه قوة نفس ولجاج لتنكسر نفسه وتلين.

قلتُ: إذا رأى القاضي مسلماً يقع في المعاصي لغلبة الشهوة مع الندم والاستحياء يأمره بالغربة والسفر وأما من لا يستحيي ولا يندم فنفيه عن الأرض حبسه حتى يتوب والله أعلم.

مسألة: وإذا كان الزاني والزانية محصنين يرجمان بإجماع الصحابة ومن بعدهم من علماء النصيحة، وأنكره الخوارج لإنكارهم إجماع الصحابة وحجية خبر الآحاد وادعائهم أن الرجم لم يثبت من القرآن ولا من النبي ﷺ إلا بخبر الآحاد. والحق أن الرجم ثابت من النبي ﷺ بأخبار متواترة بالمعنى كفضل علي وشجاعته وجود حاتم وإن كانت من الآحاد في تفاصيله صورةً وخصوصياته، عن عمر بن الخطاب قال: «إن الله بعث محمد ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب وكان مما أنزل الله عليه آية الرجم رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال أو النساء إذا قامت البينة أو كانت الحبل أو الاعتراف»[٣] متفق عليه، وروى البيهقي أنه خطب وقال إن الله تعالى بعث

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود باب ١١.

(٢) أي مفسد.

(٣) أخرجه البخاري في الحدود باب ٣١، والاعتصام باب ١٦، ومسلم في الحدود حديث ١٥، وأبو داود في الحدود باب ٢٣، والترمذي في الحدود باب ٧، والدارمي في الحدود باب ١٦، وأحمد في المسند ١/ ٤٠، ٤٧، ٥٥.

محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل فيه آية الرجم فقرأناها ووعيناها «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا من بعده الحديث وفي آخره ولولا أخشى أن يقول الناس زاد في كتاب الله لأثبته في حاشية المصحف، وروى أبو داود خطبة عمر وفيه إني خشيت أن يطول بالناس زمان فيقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله، وفي رواية للترمذي بلفظ «لولا أني أكره أن أزيد في كتاب الله لكتبتُه في المصحف فإني خشيتُ أن يجيء قوم فلا يجدونه في كتاب الله فيكفرون به» وكان هذا يعني خطبة عمر بمحضر من الصحابة ولم ينكر عليه أحد، وفي الباب حديث أبي أمامة بن سهل عن خالته العجماء بلفظ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما بما قضيا من اللذة، رواه الحاكم والطبراني وفي صحيح ابن حبان من حديث كأن سورة الأحزاب توازي سورة البقرة وكان فيها آية الرجم الشيخ والشيخة الحديث، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرىءٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزاني والمارق لدينه التارك للجمَاعة»[(١)] متفق عليه، وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن عثمان بن عفان أشرف يوم الدار فقال أنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث زنى بعد إحصان أو ارتداد[(٢)] بعد إسلام أو قتل نفس بغير حق فقتل به» فوالله ما زنيتُ في جاهلية ولا في إسلام ولا ارتددت منذ بايعتُ رسول الله ﷺ ولا قتلتُ النفس التي حرم الله فبم تقتلوني[(٣)]. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي ورواه الشافعي في مسنده ورواه البزار والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين والبيهقي وأبو داود، وأخرجه البخاري عن فعله ﷺ من قول أبي قلابة حيث قال: والله ما قتل رسول الله ﷺ أحداً قط إلا في ثلاث خصال رجل قَتَلَ فَقُتِلَ أو رجل زنى بعد إحصان أو رجل حارب الله ورسوله وارتد عن الإسلام وقد صح «أنه ﷺ رجم ماعز بن مالك حين اعترف بالزنى»[(٤)] رواه مسلم والبخاري من حديث ابن عباس ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي هريرة، وفي الصحيحن من حديث أبي هريرة وابن عباس وجابر ومن لم يسم ورواه مسلم من بريدة قال «جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني»[(٥)] الحديث، ورجم رسول الله ﷺ امرأة من غامد من الأزد قالت: يا رسول الله واعترفت أنها حبلى من الزنى رجمها بعد وضع الحمل» وفي رواية رجمها حين أكل ولدها الطعام رواه مسلم من حديث بريدة «ورجم رسول الله ﷺ امرأة من جهينة حين

---

(١) أخرجه البخاري في الديات باب ٦، ومسلم في القسامة حديث ٢٥، ٢٦.

(٢) وفي الأصل: كفر إلخ.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن باب ١، وابن ماجه في الحدود باب ١.

(٤) انظر الحاشية التالية.

(٥) أخرجه مسلم في الحدود حديث ٢٢، والدارمي في الحدود باب ١٧، وأحمد في المسند ٥/٣٤٧، ٣٤٨.

اعترفت بالزنى» رواه مسلم من حديث عمران بن حصين، قال علماء الفقه والحديث وقد جرى عمل الخلفاء الراشدين بالرجم مبلغ حد التواتر والله أعلم.

مسألة: وإن كان أحدهما محصناً والآخر غير محصن يرجم المحصن ويجلد الآخر كما قضى رسول الله ﷺ في رجل كان عسيفاً لآخر فزنى بامرأته وقد مر الحديث.

مسألة: هل يجلد المحصن قبل الرجم أم لا؟ فقال أحمد يجلد أولاً بحكم هذه الآية ثم يرجم فالآية عنده غير مخصوص بغير المحصن ولا منسوخ، وهو يقول ليس الجلد المذكور في الآية تمام الحد بل بعضه فيضم بالسنة مع الجلد في غير المحصن التغريب سنة وفي المحصن الرجم وكما لا يزاحم الآية حديث التغريب كذلك لا يزاحمه حديث الرجم وإن كان متواتراً فوجب العمل بهما ويؤيده، ما ذكرنا من حديث عبادة بن الصامت قوله ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»، وروى عن سلمة بن المحبق نحوه قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» ويؤيده أثر علي بن أبي طالب رواه أحمد والحاكم والنسائي عن الشعبي أن علياً جلد سراحة الهمدانية بالكوفة ثم رجمها ضربها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة وقال: أجلدها بكتاب الله وأرجمها بسنة رسول الله ﷺ، وأصله في صحيح البخاري ولم يسم المرأة، وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي هذه الآية مخصوص بغير المحصن أو منسوخ في حق المحصن وكذا حديث عبادة بن الصامت وسلمة بن المحبق، والدليل على كونه منسوخاً أن النبي ﷺ رجم ماعزاً والمرأة الغامدية والجهينية ونقل تلك القصص بوجوهٍ وطرقٍ كثيرةٍ ولم يرو في شيء من طرقها أنه جلد ثم رجم، وقد مر في حديث زيد وخالد في قصة رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ وكان ابن أحدهما عسيفاً على الآخر فزنى بامرأته قضى رسول الله ﷺ على ابنه بالجلد والتغريب وقال: «يا أنيس اغد إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها»[1] ولم يقل اجلدها ثم ارجمها والناسخ إما أن يكون وحياً غير متلوٍّ أو وحياً منسوخ التلاوة أعني الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما وهذه الآية المنسوخ تلاوتها لا يتصور كونها ناسخاً إلا على ما قرره المحققون من الحنفية في هذه الآية أن المذكور كل الواجب فقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ﴾ يدل على كون الجلد كل الواجب، والشيخ والشيخة إذا زنيا الآية تدل على أن الرجم كل الواجب فتعارضا، فكان أحدهما ناسخاً للآخر، ولو لم يفهم من الآيتين أن المذكور كل الواجب فلا تعارض ولا نسخ بل يجب حينئذ الجمع بين الرجم والجلد كما قال أحمد والله أعلم.

وأما أثر عليّ فيعارضه أثر عمر فهو أمر اجتهادي كقول أحمد روى الطحاوي بسنده عن أبي واقد الليثي ثم الأشجعي وكان من أصحاب النبي ﷺ أنه قال: بينما نحن عند عمر بالجابية أتاه رجل فقال يا أمير المؤمنين إن امرأتي زنت فهي هذه تعترف بذلك، فأرسلني

(١) أخرجه البخاري في الشروط باب ٩، والحدود باب ٣٠، و٤٦، ومسلم في الحدود حديث ٢٥.

عمر في رهط إليها نسألها فأخبرتها بالذي قال زوجها فقالت: صدق، فبلَّغنا ذلك عمر فأمر برجمها فهذا عمر بحضرة أصحاب رسول الله ﷺ لم يجلدها قبل رجمها.

قلت: ولعل علياً رضي الله عنه جلد سراحة الهمدانية قبل ثبوت إحصانها ثم رجمها بعد ثبوت إحصانها، ومعنى قوله أجلدها بكتاب الله وأرجمها بسنة رسول الله ﷺ إن الجلد في حق غير المحصن ثابت بالقرآن والرجم في حق المحصن ثابت بسنة رسول الله ﷺ فمتى ثبت إحصانها رجمتها، وقد روي عن النبي ﷺ مثل ذلك روى الطحاوي بسنده عن جابر أن رجلاً زنى فأمر به النبي ﷺ فجلد ثم أخبر أنه كان قد أحصن فأمر به فرجم.

فائدة: اعلم أن الإحصان استعمل في القرآن لمعان منها الحرية ومنها التزويج قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] أراد به المزوجات وقال: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] أراد بقوله: أحصن إذا زوجن وبالمحصنات الحرائر، ومنها العفة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ [النور: ٢٣] والمراد بالإحصان الذي هو شرط للرجم في الزاني والزانية الدخول بنكاح صحيح فإنه ثمرة التزويج يدل على ذلك تعبير النبي ﷺ المحصن بالثيب وغير المحصن بالبكر.

وذكر العلماء من شرائط إحصان الرجم الحرية والعقل والبلوغ وإن يكون قد تزوج تزويجاً صحيحاً ودخل بالزوجة وهذه الشروط الخمسة مجمع عليها للرجم، لكن العقل والبلوغ شرطان لأهلية العقوبة بل لأهلية الخطاب مطلقاً فلا وجه لذكرهما في إحصان الرجم، والحرية شرط لتكامل الحد مطلقاً لا للرجم خاصةً حتى لا يجلد العبد مائة، بقي الدخول بنكاح صحيح معتبراً، وزاد أبو حنيفة ومالك ومحمد في شرائط إحصان الرجم الإسلام خلافاً للشافعي وأبي يوسف وأحمد احتجت الحنفية على اشتراط الإسلام بقوله ﷺ: «من أشرك بالله فليس بمحصن»[(١)] رواه إسحاق بن راهويه في مسنده ثنا عبد العزيز بن محمد ثنا عبد عن نافع عن ابن عمر قال إسحاق رفعه ابن عمر مرةً فقال عن رسول الله ﷺ ووقفه مرةً، قال ابن الجوزي لم يرفعه غير إسحاق ويقال إنه رجع عنه والصواب أنه موقوف، قال ابن همام لا شك أن مثله بعد صحة الطريق محكوم برفعه فإن الراوي يفتي على حسب ما رفع.

قلتُ: إذا رجع إسحاق عن الرفع واعترف بخطئه ولم يرفعه غيره فكيف يحكم برفعه، ولو سلمنا كونه مرفوعاً فالحديث لا يدل على إحصان الرجم خاصةً وقد ذكرنا أن الإحصان استعمل في القرآن لمعان منها العفة فلعل معنى الحديث من أشرك فليس بعفيف فلا يحد قاذفه، فلا يثبت بهذا الحديث اشتراط الإسلام للرجم مع عموم لفظ الثيب بالثيب وشموله

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢١٦، والدارقطني في سننه ٣/ ١٤٧.

للمؤمن والكافر، وقد روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر: «أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأةً زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع فإذا فيها آية الرجم فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما النبي ﷺ فرجما»[1] فهذا الحديث حجة للشافعي وأحمد وأجاب عنه صاحب الهداية بأنه كان ذلك بحكم التوراة ثم نسخ.

قلتُ: شرائع من قبلنا واجب العمل على أصل أبي حنيفة ما لم يظهر نسخه في شريعتنا لاسيما إذا عمل به النبي ﷺ فإن عمله ﷺ دليل صريح في كون ذلك الحكم باق في شريعتنا لأنه محال أن يحكم النبي ﷺ بحكم منسوخ في شريعتنا على خلاف ما أنزل الله عليه وليس شيء من الآيات والأحاديث دالاً على نسخه، فإن لفظ الزاني والزانية والشيخ والشيخة والثيب والبكر يعم المؤمن والكافر جميعاً وحديث «من أشرك فليس بمحصن» لا يدل على اشتراط الإسلام في الرجم بل هو محمول على إحصان القذف.

مسألة: وزاد أبو حنيفة رحمه الله في شرائط إحصان الرجم كون كلا الزوجين عند الدخول بنكاح صحيح حرين مسلمين عاقلين بالغين وكذا قال أحمد سوى الإسلام حتى لو تزوج الحر المسلم العاقل البالغ أمةً أو صبية أو مجنونةً أو كتابيةً ودخل بها لا يصير محصناً بهذا الدخول، فلو زنى بعده لا يرجم وكذا لو تزوجت الحَرة البالغة العاقلة عبداً أو مجنوناً أو صبيّاً ودخل بها لا تصير محصنة فلا ترجم لو زنت بعده، ولو تزوج مسلم ذمية فأسلمت بعدما دخل بها ولم يدخل بها بعد إسلامها ثم زنت لا ترجم، وكذا لو أعتقت الأمة التي تحت حر مسلم عاقل بالغ بعدما دخل بها ولم يدخل بها بعد إعتاقها ثم زنت لا ترجم، احتجت الحنفية بما رواه الدارقطني وابن عديٍّ عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن علي بن أبي طلحة عن كعب بن مالك أنه أراد تزوج يهودية أو نصرانية فسأل النبي ﷺ عن ذلك فنهاه وقال: «إنها لا تحصنك»[2] قال الدارقطني: أبو بكر بن أبي مريم ضعيف جداً وعلي بن أبي طلحة لم يدرك كعباً، وقال ابن همام ورواه بقية بن الوليد عن عتبة بن تميم عن علي بن أبي طلحة عن كعب وهو منقطع.

قلتُ: بقية بن الوليد أيضاً ضعيف مدلس قال ابن همام الانقطاع عندنا داخل في الإرسال والمرسل عندنا حجة بعد عدالة الرجال، قلتُ: ولا شك أن هذا ليس في قوة

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٦، والحدود باب ٣٧، وأبو داود في الحدود باب ٢٥، ومالك في الحدود حديث ١.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/٢١٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/١٠٣، وابن أبي شيبة في المصنف ١/٤٢٣، والدارقطني في سننه ٣/١٤٨.

حديث الصحيحين أن النبي ﷺ رجم اليهودي واليهودية فلا يجوز العمل به، وهذا الحديث لا يصلح حجةً لأحمد لأن الإسلام ليس بشرط للإحصان عنده، وقد روى البيهقي من طريق أبي وهب عن يونس عن ابن شهاب أنه سمع عبد الملك يسأل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن الأمة هل تحصن الحرَّ، قال: نعم، قيل: عمن، قال: أدركنا أصحاب رسول الله ﷺ يقولون ذلك وقال البيهقي بلغني عن محمد بن يحيى أنه قال وحدثتُ عن الأوزاعي مثله وروى البيهقي من طريق عبد الرزاق عن عمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة مثله.

مسألة[1]: وإذا كان أحد الزانيين محصناً والآخر غير محصن رجم المحصن وجلد الآخر إجماعاً لحديث زيد بن خالد وأبي هريرة في قصة عسيف حيث قال رسول الله ﷺ: «أما ابنك فعليه جلد مائة وتغريب عام وأما أنت يا أنيس فاغد على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فاعترفت فرجمها، متفق عليه.

مسألة: وإن كان أحدهما مجنوناً والآخر عاقلاً؟ فقال مالك والشافعي وأحمد يجب الحد على العاقل منهما وقال أبو حنيفة يجب الحد على العاقل دون العاقلة مع المجنون، قال أبو حنيفة فعل الزنى إنما يتحقق من الرجال وإنما المرأة محل وإنما سميت زانية مجازاً فتعلق الحد في حقها بالتمكين من قبيح الزنى وهو فعل من هو مخاطب بالكف عنه، وقال الجمهور إن العذر من جانبها لا يسقط الحد من جانبه إجماعاً فكذا العذر من جانبه ولا نسلم أن الزانية أطلق عليها بالمجاز ولو سلمنا فمعناه المجازي وهو التمكين من الزنى موجب للحد في حقها والقول بأن فعل الصبي والمجنون ليس بزنى ممنوع بل هو زنى لغة وشرعاً وعدم المأثم لأجل عدم التكليف والله أعلم.

فصل

مسألة: الزنى في الشرع واللغة وطء الرجل المرأة في القبل من غير الملك وأما الوطء في الدبر رجلاً كان المفعول به أو امرأةً فليس بزنى لغة ولا شرعاً وقد ذكرنا اختلاف العلماء في حد اللواطة في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦] فمن وطىء زوجته الحائض أو الصائمة أو المحرمة أو أمته قبل الاستبراء أو الأمة المشركة بينه وبين غيره أو الأمة المشركة أو المنكوحة لغيره أو الأمة المحرمة برضاع لا يكون زنى ولا يوجب الحد لوجود الملك لكنه يأثم، وشبه الملك ملحق بالملك شرعاً يسقط به الحد عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، خلافاً للظاهرية لقوله ﷺ: «ادرؤوا الحدود بالشبهات»[2] وهو في مسند أبي حنيفة عن مقسم عن ابن عباس قال: قال

---

(١) تقدمت هذه المسألة قبل قليل.

(٢) أخرجه الزيلعي في نصب الراية ٣/ ٣٣٣، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٧٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٩٥٧، ١٢٩٧٢.

رسول الله ﷺ: «ادرؤوا الحدود بالشبهات» وروى الترمذي والحاكم والبيهقي من طريق الزهري عن عروة عن عائشة بلفظ «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإذا كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»[١] وفي إسناده يزيد بن زياد الدمشقي وهو ضعيف وقد قال فيه البخاري منكر الحديث وقال النسائي: متروك ورواه وكيع عنه موقوفاً وهوأصح قاله الترمذي قال وقد روى عن غير واحد من الصحابة أنهم قالوا ذلك وقال البيهقي في السنن رواية وكيع أقرب للصواب، قال: ورواه رشدين عن عقيل عن الزهري ورشدين ضعيف أيضاً وروينا عن علي مرفوعاً «ادرؤوا الحدود بالشبهات ولا ينبغي. . . . للإمام أن يعطل الحدود» وفيه المختار بن نافع وهو منكر الحديث قاله البخاري وأصح ما فيه حديث سفيان الثوري عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال: «ادرؤوا الحدود بالشبهات ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم» رواه ابن أبي شيبة وروي عن عقبة بن عامر ومعاذ أيضاً موقوفاً رواه ابن أبي شيبة وروى منقطعاً وموقوفاً على عمر ورواه ابن حزم في كتاب الإيصال من حديث عمر موقوفاً عليه بإسناد صحيح وأسند ابن أبي شيبة من طريق إبراهيم النخعي عن عمر لأن أخطىء الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات. وقالت الظاهرية إن الحد بعد ثبوته لا يجوز أن يدرأ بشبهة إذ ليس في درء الحد عن رسول الله ﷺ شيء بل عن بعض الصحابة من طرق لا خير فيها وأعلوا حديث ابن مسعود الموقوف بالإرسال وما رواه عبد الرزاق عنه وهو غير رواية ابن أبي شيبة فإنها معلولة بإسحاق بن أبي فروة، قال ابن همام الحديث تلقته الأمة بالقبول وفي تتبع المروي عن النبي ﷺ والصحابة ما يوجب القطع في المسألة ألا ترى أن النبي ﷺ قال لماعز: «لعلك قبلتَ؟ لعلك لمستَ؟ لعلك غمزت؟» ليلقنه الرجوع بعد الإقرار وإنما فائدته أنه إذا قال نعم ترك وكذا قال للسارق الذي جيء به لا أخاله سرق وللغامدية مثل ذلك، وكذا قال علي لسراحة لعله وقع عليك وأنت نائمة؟ لعله استكرهك؟ لعل مولاك زوجك وأنت تكتمينه؟ وتتبع مثله عن كل واحد يوجب طولاً في الكلام، فالحاصل من هذا كله كون الحد يحتال في درئه بلا شك فمعنى الحديث والآثار مقطوع به والله أعلم.

مسألة: الشبهة إما شبهة اشتباه أي شبهة في حق من اشتبه عليه دون من لم يشتبه عليه، وذلك فيما لم يكن هُناك دليل حل أصلاً لكن الفاعل ظن غير الدليل دليلاً كجارية أبيه وأمه وزوجته والمعتدة بعد ثلاث تطليقات أو طلاق على مال وأم ولد أعتقها مولاها وهي في العدة وجارية المولى في حق العبد والجارية المرهونة، حيث لا دليل هناك تدل على الحل لكن الفاعل لو ظن حلها لأجل اتصال الأملاك لأجل الولاد والزوجية باعتبار عدم قبول الشهادة لهم أو لأجل بقاء حقوق النكاح من وجوب النفقة ومنع الغير من النكاح في العدة والملك يداً

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١١٤، والترمذي في الحدود باب ٢.

في الرهن لا يحد ولو علم الحرمة يحد لعدم الحل بدليل أصلاً، وإما شبهة للملك وذلك حيث وجد دليل يوجب الحل في ذاته كجارية ابنه نظراً إلى قوله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»[1] رواه ابن ماجه من حديث جابر في جواب من قال يا رسول الله إن لي مالاً وولداً أو أبي يريد أن يجتاح مالي، قال ابن القطان والمنذري سنده صحيح ورواه الطبراني في الأصغر والبيهقي في الدلائل في قصة والمعتدة بالكنايات لاختلاف الصحابة في كونها رواجع والجارية المبيعة والممهورة في حق البائع والزوج لكونها في ضمانه وكذا كل جهة أباحها عالم كنكاح بلا شهود، ففي هذه الصور لا يحد وإن كان الواطىء يعتقد الحرمة وكذا من زفت إليه غير امرأته في أول وهلة وقالت النساء إنها زوجتك لا حد عليه إجماعاً وعليه المهر قضى بذلك عليّ رضي الله عنه وبالعدة لأنه اعتمد دليلاً وهو الإخبار في موضع الاشتباه إذ الإنسان لا يتميز بين امرأته وغيرها في أول وهلة، بخلاف من وجد على فراشه امرأة فوطئها فإنه يجب عليه الحد عند أبي حنيفة خلافاً لمالك والشافعي وأحمد فعندهم لا يحد قياساً على المزفوفة بجامع ظن الحل، لنا أنه لا اشتباه بعد طول الصحبة فلم يكن الظن مستنداً إلى دليل، وكذا إذا كان أعمى لأنه يمكنه التمييز بالسؤال وغيره إلا إذا دعاها فأجابته أجنبية قالت أنا زوجتك فواقعها لأن الإخبار دليل وجاز تشابه النغمة خصوصاً لو لم يطل الصحبة والله أعلم.

مسألة: ومن الشبهة عند أبي حنيفة وزفر وسفيان الثوري شبهة عقد فمن نكح امرأة لا يحل نكاحها لا يجب عليه حد الزنى عند أبي حنيفة لكن يجب عليه العقوبة البليغة الشديدة، قلتُ: والأولى أن يقال فيه القتل حداً اتباعاً بالحديث، وعند مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد يجب عليه حد الزنى إن كان عالماً بذلك لأنه وطىء في فرج مجمع على تحريمه من غير ملك ولا شبهة ملك والواطىء أهل للحد عالم بالتحريم فيجب الحد كما لو لم يوجد العقد إذ العقد ليس لشبهة لأنه لم يصارف محله لأنه في نفسه خيانة يوجب عقوبة انضمت إلى زنى فلم يكن شبهة كما لو أكرهها وعاقبها وزنى بها، ولو سلمنا أن العقد شبهة والوطء بالشبهة لم يكن زنى فهو أغلظ من الزنى فأحرى أن يجب فيه ما يجب في الزنى، ولأبي حنيفة أنه عقد صادف محلاً لمطلق النكاح لكونها أنثى من بني آدم وإن لم يكن محلاً لهذا النكاح المخصوص حتى صار باطلاً فأورث شبهة فإن الشبهة ما يشابه الثابت ولا شك أن مشابه الثابت ليس بثابت فالشبهة لا يقتضي ثبوت الحل بوجه من الوجوه وإذا ثبت فيه شبهة الملك لم يكن زنى وكونه أغلظ من الزنى لا يقتضي كونه موجباً للحد، لأن أمر الحدود توقيفي ألا ترى أنه من قذف محصناً بالزنى وجب عليه حد القذف ثمانون سوطاً ومن قذف بالكفر لا يجب عليه حد القذف مع أن الكفر أغلظ من الزنى وقد قال رسول الله ﷺ: «الغيبة أشد من الزنى» رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد وجابر والمراد بما لا يحل نكاحها ما لا يحل نكاحها على التأبيد باتفاق العلماء كالمحرمات

(١) أخرجه أبو داود حديث ٣٥٣٠، وابن ماجه حديث ٢٢٩١، ٢٢٩٢، وأحمد في المسند ٢/ ٢٠٤.

بنسب أو رضاع أو صهرية، وأما إن كان النكاح مختلفاً فيه كالنكاح بلا ولي وبلا شهود فهو مسقط للحد اتفاقاً لتمكن الشبهة عند الجميع وإن كان الناح متفقاً على تحريمه لكن حرمتها غير مؤبدة كما إذا تزوج أمة على حرة أو تزوج مجوسية أو أمة بلا أذن سيدها أو تزوج العبد بلا أذن سيده أو تزوج منكوحة الغير أو معتدته أو المطلقة ثلاثاً أو خامسة أو أخت زوجته أو في عدتها فعند أبي حنيفة لا يحد وعند صاحبيه في رواية عنهما يحد وفي أخرى لا يحد ويؤيد قول أبي حنيفة ما رواه الطحاوي أن رجلاً تزوج امرأة في عدتها فرفع إلى عمر فضربها دون الحد وجعل لها الصداق وفرق بينهما وقال لا يجتمعان أبداً، قال: وقال عليّ إن تابا وأصلحا جعلهما مع الخطاب. وفي مسألة المحارم روي عن جابر أنه يضرب عنقه وكذا نقل عن أحمد وإسحاق وأهل الظاهر وقصر ابن حزم قتله على ما إذا كانت المرأة امرأة أبيه قصراً للحد على مورده وفي رواية أخرى لأحمد يضرب عنقه ويؤخذ ماله لبيت المال لحديث البراء بن عازب قال: «لقيتُ خالي ومعه راية فقلتُ له أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه أن أضرب عنقه وآخذ[1] ماله»[2] رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن ورواه الطحاوي بطرق ولم يذكر فيه أخذ المال وفي بعض طرقه أخذ المال أيضاً، وروى ابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقع على ذات محرم منه فاقتلوه»[3] وعن معاوية بن قرة عن أبيه أن النبي ﷺ بعث جده معاوية إلى رجل عرس بامرأة أبيه أن يضرب عنقه ويخمس ماله، قالت الحنفية هذه الأحاديث لا حجة فيها لمن قال بوجوب الحد من الجلد والرجم لعدم ذكر الجلد والرجم في الحديث وأيضاً ليس في الحديث ذكر الدخول بالمرأة المحرمة بل ذكر النكاح بالمحرمة ونفس النكاح ليس بموجب للحد إجماعاً، فوجب أن يقال إن النبي ﷺ إنما أمر بالقتل وأخذ المال إما سياسةً وإما لأن المتزوج بامرأة أبيه فعل ما فعل مستحلاً كما كانوا يفعلون في الجاهلية فصار بذلك مرتداً ولعله صار محارباً ولذلك أمر بقتله وأخذ ماله وتخميسه.

مسألة: ومن شبهة العقد ما إذا استأجر امرأة ليزني بها ففعل لاحد عليه عند أبي حنيفة رحمه الله ويعزر وقال أبو يوسف ومحمد ومالك والشافعي وأحمد يحدُّ لأن عقد الإجارة لا يستباح به البضع كما لو استأجرها للطبخ ونحوه من الأعمال ثم زنى بها يحد اتفاقاً له أن المستوفى بالزنى المنفعة وهي المعقود عليه في الإجارة لكنه في حكم العين بالنظر[4] إلى الحقيقة بكونه محلاً لعقد الإجارة فأورث شبهة، بخلاف الاستئجار للطبخ لأن العقد لم يضف إلى المستوفي بالوطء والعقد المضاف إلى محل يورث شبهة فيه لا في محل آخر والله أعلم.

---

(١) كذا في سنن أبي داود وليس في الأصل لفظة ماله ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود باب ٢٦، والنسائي في النكاح باب ٥٨، والدارمي في النكاح باب ٤٣.

(٣) أخرجه الترمذي حديث ١٤٦٢، وابن ماجه حديث ٢٥٦٤.

(٤) وفي الأصل: فبالنظر ـ الفقير الدهلوي ـ.

مسألة: اتفق العلماء على أن الزنى يثبت بشهادة أربعة من الرجال ولا يثبت بشهادة ما دونها، ولا بشهادة النساء لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ [النساء: ١٥] وقوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ﴾ [النور: ١٣].

مسألة: لو شهد أربعة متفرقين يثبت الزنى ويحد عند الشافعي لوجود النصاب، وعند الثلاثة هم قذفوه[١] لعدم النصاب في أول الوهلة فيرد شهادتهم ثم لا تصير شهادتهم مقبولة بعد كونها مردودة ولو جاؤوا متفرقين فاجتمعوا وشهدوا معاً قبلت شهادتهم عند أحمد وعند مالك وأبي حنيفة يشترط مجيء الشهود الأربعة مجتمعين وأداؤهم الشهادة معاً.

مسألة: هل يشترط العدد في الإقرار؟ فقال أبو حنيفة وأحمد وأكثر العلماء إنه لا يثبت الزنى بالإقرار إلا إذا أقر العاقل البالغ على نفسه بذلك أربع مرات واختلفوا في اشتراط كونها في أربعة مجالس؟ فقال أبو حنيفة لا بد من أربعة مجالس لأن المجلس جامع للمتفرقات وباب الزنى باب الاحتياط، وقال أحمد وأبو ليلى يكتفي أن يقر أربعاً في مجلس واحد لحديث رواه الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «أتى النبي ﷺ رجل وهو في المسجد فناداه يا رسول الله إني زنيتُ فأعرض عنه النبي ﷺ لشق وجهه الذي أعرض قبله فقال: إني زنيتُ، فأعرض عنه النبي ﷺ فلما شهد أربع شهادات دعاه النبي ﷺ فقال «أبك جنون»؟ قال: لا، فقال: «أحصنت»؟ قال: نعم يا رسول الله فقال: «اذهبوا به فارجموه»[٢] الحديث واحتج أبو حنيفة بما رواه مسلم عن بريدة أن ماعزاً أتى النبي ﷺ فرده ثم أتاه الثانية من الغد فرده ثم أرسل إلى قومه هل تعلمون بعقله بأساً فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسألهم فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله فلمّا كان الرابعة حفر له حفيرة فرجم، وأخرج أحمد وإسحاق بن راهويه وابن أبي شيبة في المصنف عن أبي بكر قال: أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ فاعترف وأنا عنده مرةً فرده ثم جاء فاعترف عنده الثانية فرده، ثم جاء فاعترف عنده الثالثة فرده، فقلتُ له إن اعترفت الرابعة رجمك قال: فاعترف الرابعة فحبسه ثم سأل عنه فقال: لا نعلم إلا خيراً فرجم، هذا الحديث أيضاً صريح في تعدد المجيء وهو يستلزم غيبته كل مرة ومن ها هنا قالت الحنفية إذا تغيب ثم عاد فهو مجلس آخر، وروى ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة قال جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: إن الأبعد زنى[٣] فقال له: «ويلك وما يدريك ما الزنى» فأمر به فطرد وأخرج، ثم أتاه الثانية فقال مثل ذلك فأمر به فطرد وأخرج، ثم أتاه الثالثة فقال مثل ذلك فأمر

---

(١) وفي الأصل هم قذفه إلخ ولا يستقيم ولعل الصحيح هو قذفه والغلط من الناسخ والله تعالى أعلم - الفقير الدهلوي -.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام باب ١٩، والطلاق باب ١١، ومسلم في الحدود حديث ١٦، ٢٢.

(٣) وفي مجمع البحار ص١٠٣ إن الأبعد قد زنى أي المتباعد عن الخير والعصمة، بعد بالكسر فهو باعد أي هلك والبعد الهلاك والابعد الخائن أيضاً انتهى والحاصل أن سيدنا ماعز رضي الله عنه عنى بقوله ان الأبعد زنى نفسه أي أنا الذي تباعد عن الخير والعصمة إلخ - الفقير الدهلوي -.

به فطرد وأخرج، ثم أتاه الرابعة فقال مثل ذلك فقال: «أدخلتَ وأخرجتَ»؟ فقال: نعم فأمر به أن يرجم، فهذه وغيرها مما يطول ذكره ظاهر في تعدد المجالس فوجب أن يحمل الحديث الأول عليها وإن قوله فتنحى تلقاء وجهه معدودٌ مع قوله الأول إقراراً واحداً لأنه في مجلس واحد، وقوله حين بين ذلك أربع مرات أي في أربعة مجالس لأنه لا ينافي ذلك وقال مالك والشافعي وأبو ثور والحسن وحماد بن أبي سليمان إنه يثبت الزنى بإقراره مرة لقوله ﷺ: في حديث زيد بن خالد وأبي هريرة في قصة العسيف «اغدُ يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها قالوا: وليس في قصة المرأة الغامدية إلا ذكر الإقرار مرة، قلنا: قوله إن اعترفت فارجمها معناه إن اعترفت اعترافاً مقبولاً في حد الزنى، وإنما اقتصر النبي ﷺ على قوله إن اعترفت لعلمه بأن الصحابة كانوا يعلمون لقصة ماعز وغيره أن الإقرار المعتبر في الزنى إنما هو أربع إقرارات في أربعة مجالس، وقولهم ليس في قصة الغامدية إلا ذكر الإقرار فممنوع بل قد روى أبو داود والنسائي أنه كان أصحاب النبي ﷺ تتحدث أن الغامدية وماعز بن مالك لو رجعا بعد اعترافهما لم يطلبهما وإنما رجمهما بعد الرابعة، فهذا نص في إقرارها أربعاً غاية ما في الباب أنه لم ينقل تفاصيلها والله أعلم، وقد روى البزار في مسنده عن زكريا بن سليم ثنا شيخ من قريش عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه فذكره وفيه أنها أقرت أربع مرات وهو يردها ثم قال لها «اذهبي حتى تلدي» غير أن فيه مجهولاً ينجبر جهالته بما يشهد له من حديث أبي داود والنسائي.

مسألة: يستحب للإمام أن يلقنه الرجوع عن الإقرار كما قال رسول الله ﷺ لماعز «لعلك قبلت أو لمست».

مسألة: لو أقر أربعًا بالزنى ثم رجع قبل أن يحد أو في أثنائه يقبل رجوعه وسقط عنه الحد عند الأئمة الثلاثة وعن مالك فيه روايتان. لنا: أن الرجوع خبر يحتمل الصدق كالإقرار وليس أحد يكذبه فيه فيتحقق الشبهة في الإقرار والحدود تندرىء بالشبهات، بخلاف ما فيه حق العبد وهو القصاص وحد القذف لوجود من يكذبه، ويؤيده قصة ماعز روى أبو داود عن يزيد بن نعيم قصته فذكر أنه لما رجم فوجد مس الحجرة فجزع فخرج يشتد فلقيه عبد الله بن أنيس وقد عجز أصحابه فنزع له بوظيف[(١)] بعير فرماه به فقتله، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عنه»[(٢)] وروى الترمذي وابن ماجه في حديث أبي هريرة نحوه.

فصل

مسألة: إذا زنى المريض وحده الرجم رجم لأن الإتلاف مستحق فلا يمتنع بسبب المرض، وإن كان حدّه الجلد لا يجلد حتى يبرأ كيلا يفيض إلى الهلاك، وإن كان مرضاً لا

(١) خف الحافر.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود باب ٨، والترمذي في الحدود باب ٢٢.

يرجى البرء منه كالسل أو كان خديجاً أي ضعيف الخلقة فعند أبي حنيفة والشافعي يضرب بعثكال[١] فيه مائة شمراخ فيضرب به دفعةً ولا بد من وصول كل شمراخ[٢] إلى بدنه كما روى البغوي في شرح السنة وابن ماجه نحوه عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: كان بين إمائنا رجل مخدج ضعيف فلم يرع إلا وهو على أمة من إماء الدار يحنث بها فرفع شأنه سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال: «اجلدوه مائة سوط» قال يا نبي الله هو أضعف من ذلك لو ضربنا مائة سوط لمات قال: «فخذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه واحدة وخلوا سبيله»[٣] ورواه أبو داود عن أبي أمامة بن سهل عن رجل من الأنصار ورواه النسائي عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه ورواه الطبراني عن أبي أمامة بن سهل. . . . . عن أبي سعيد الخدري، قال الحافظ إن كان الطرق كلها محفوظة فيكون أبو أمامة قد حمله عن جماعة من الصحابة ورواه البيهقي عن أبي أمامة مرسلاً.

مسألة: إن زنت الحامل لا تحدّ حتى تضع حملها كيلا يؤدي إلى هلاك الجنين وهو نفس محترمة، وإن كان حدّها الجلد لا تجلد حتى تطهر من النفاس عن علي ﷺ قال: «يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن منهم ومن لم يحصن فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها فإذا هي حديث عهد بنفاس. . . فخشيتُ إن أنا جلدتها أن أقتلها فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال: أحسنت»[٤] رواه مسلم وفي رواية أبي داود قال: دعها حتى ينقطع دمها ثم أقم عليها الحد وأقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم وإن كان حد النفساء الرجم رجمت لانفصال الولد عنها واستحقاقها الهلاك وعن أبي حنيفة أنه يؤخر حتى يستغنى عنها ولدها إذا لم يكن أحد يقوم بتربيته لصيانة الولد من الضياع، روى مسلم عن بريدة في قصة الغامدية أن النبي ﷺ أخر رجمها حتى تضع فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت فقال قد وضعت الغامدية قال إذاً لا ترجمها وتدع ولدها صغيراً ليس له من ترضعه، فقام رجل من الأنصار فقال: إليّ رضاعها يا نبي الله قال: فرجمها، وفي رواية أنه قال لها: «اذهبي حتى تلدي فلما ولدت قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمتُه وأكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين فحفر لها إلى صدرها وأمرالناس فرجموها[٥].

مسألة: قوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ خطاب للأئمة فلا يجوز عند أبي حنيفة إقامة الحدود للمولى إلا أن يأذن له الإمام وقال مالك والشافعي وأحمد يقيم المولى بلا إذن الإمام وفي

---

(١) أي عذق من أعذاق النخل.

(٢) غصن النخيل الذي عليه البسر.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الحدود باب ١٨، وأحمد في المسند ٥/ ٢٢٢.

(٤) أخرجه مسلم في الحدود حديث ٣٤، والترمذي في الحدود باب ١٣، وأحمد في المسند ١/ ١٥٦.

(٥) أخرجه مسلم في الحدود حديث ٢٣، وأبو داود في الحدود باب ٢٤، والدارمي في الحدود باب ١٧، وأحمد في المسند ٥/ ٣٤٨.

رواية عن مالك أنه يقيم المولى إلا في الأمة المزوجة واستثنى الشافعي من المولى ذمياً ومكاتباً وامرأة، وهل يجري ذلك على العموم حتى لو كان قتلاً بسبب الردة أو قطع الطريق أو قطعاً للسرقة ففيه خلاف عند الشافعي قال النووي الأصح المنصوص أنه يعم لإطلاق الخبر، وفي التهذيب الأصح أن القتل والقطع إلى الإمام، لهم ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال: «إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فبيعوها ولو بضفير»(١) وقال النبي ﷺ: «أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم»(٢) رواه النسائي والبيهقي من حديث علي وأصله في مسلم موقوفاً على علي وغفل الحاكم فاستدركه، وروى الشافعي أن فاطمة رضي الله عنها جلدت أمة لها زنت، وروى ابن وهب عن ابن جريج عن عمرو بن دينار أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تجلد وليدتها خمسين إذا زنت، وروى الشافعي عن مالك عن نافع أن عبداً لعبد الله بن عمر سرق فأرسل به عبد الله إلى سعيد بن العاص وهو أمير المدينة ليقطع يده فأبى سعيد أن يقطع يده وقال لا يقطع يد العبد إذا سرق فقال له ابن عمر في أي كتاب وجدت هذا فأمر به ابن عمر فقطعت يده، ورواه عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن أيوب عن نافع أن ابن عمر قطع يد غلام له سرق وجلد عبداً له زنى من غير أن يدفعهما إلى الوالي، ورواه ابن ماجه وفيه قصة لعائشة ورواه سعيد بن منصور عن هشيم عن ابن أبي ليلى عن نافع نحوه، وروى مالك في الموطأ والشافعي عنه قال خرجت عائشة إلى مكة ومعها غلام لبني عبد الله بن أبي بكر الصديق فذكر قصة فيها أنه سرق واعترف فأمرت به عائشة فقطعت يده وروى مالك في الموطأ أن حفصة قتلت أمة لها سحرت ورواه عبد الرزاق وزاد فأنكر ذلك عثمان بن عفان فقال ابن عمر ما تنكر على أم المؤمنين امرأة سحرت فاعترفت، ولأبي حنيفة ما رواه أصحاب السنن في كتبهم عن ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير موقوفاً ومرفوعاً «أربع إلى الولاة الحدود والصدقات والجمعات والفيء».

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي رحمة قرأ ابن كثير رأفة بفتح الهمزة ولم يختلفوا في سورة الحديد أنها ساكنة لمجاورة ورحمة ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعته يعني لا تعطلوا الحدود بأن لا تقيموها رحمة على الناس كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي، روى الشيخان في الصحيحين عن عائشة «أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ «أتشفع في حد من حدود الله»؟ ثم قام فاختطب ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا

---

(١) أخرجه البخاري في العتق باب ١٧، والحدود باب ٣٥، والبيوع باب ٦٦، ومسلم في الحدود حديث ٣٢.

(٢) أخرجه أبو داود حديث ٤٤٧٣، وأحمد في المسند ١/ ٩٥.

سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها»[١] وقال جماعة معناها لا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب ولكن أوجعوهما ضرباً وهذا قول سعيد بن المسيب والحسن قال أبو حنيفة يجتهد في حد الزنى ثم في حد الشرب ويخفف في حد القذف لأن سببه محتمل لاحتمال كونه صادقاً بخلاف حد الشرب فإن سببه متيقن وجناية الزنى أعظم منه، وقال قتادة يخفف في حد الشرب والفرية ويجتهد في الزنى، وقال الزهري يجتهد في حد الزنى والقذف لثبوتهما بكتاب الله ويخفف في حد الشرب لثبوتها بالسنة، قال البغوي روي أن عبد الله بن عمر جلد جاريةً له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فقال: يا بني إن الله لم يأمرني بقتلها وقد ضربتُ وأوجعتُ ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني إن كنتم تؤمنون بالله فسارعوا إلى امتثال أمره واجتهدوا في إقامة حدوده فإن الإيمان يقتضي ذلك ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾ أي ليحضر ﴿عَذَابَهُمَا﴾ أي حدهما ﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادة في التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر ما ينكل التعذيب والطائفة فرقة يمكن أن يكون حافة حول من الطوف وأقلها قيل: أربعة للجوانب الأربع، وقيل: ثلاثة لأنها أدنى فهو جمع طائف، وقيل: جاز إطلاقها عل واحد أو اثنين قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] قال في القاموس الطائفة من الشيء القطعة منه أو الواحد فصاعداً أو إلى الألف أو أقلها رجلان أو رجل فيكون بمعنى النفس، قلت: فيصح أن يكون جمعاً يكنى به عن الواحد ويصح أن يجعل كزاوية أو علامة، قال النخعي ومجاهد أقله رجل فما فوقه وهو المروي عن ابن عباس وبه قال أحمد، وقال عطاء وعكرمة وإسحاق رجلان فصاعداً وقال الزهري وقتادة ثلاثة فصاعداً وقال مالك وابن زيد أربعة بعدد الشهداء في الزنى، وقال الحسن البصري عشرة فصاعداً، قلتُ: وهذا القول أولى بالصواب إذ المقصود بالآية التشهير ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أخرج أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة وكانت امرأة بمكة صديقة له يقال لها عناق، فاستأذن النبي ﷺ أن ينكحها فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ فلا تنكحها»[٢] وأخرج النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح فأراد رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يتزوجها فنزلت[٣]، وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد قال: لمَّا حرم الله الزنى فكان

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، والحدود باب ١٢، ومسلم في الحدود حديث ٨، ٩.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٤، والترمذي في تفسير سورة ٢٤، باب ١، والنسائي في النكاح باب ١٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/١٥٩.

زواني عندهن جمال فقال الناس لننطلقنَّ فلنتزوجهنَّ فنزلت، وقال البغوي قال قوم قدم المهاجرون المدينة ومنهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر وفي المدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المهاجرين في نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن يتزوجوا تلك البغايا لأنهن كن مشركات، وهذا قول عطاء بن أبي رباح(١) ومجاهد وقتادة والزهري والشعبي وفي رواية العوفي عن ابن عباس قلتُ: أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه من مراسل سعيد بن جبير، وقال البغوي قال عكرمة نزلت في نساء بمكة والمدينة منهن تسع لهن رايات كرايات البيطا يعرفن بها منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي وكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مأكلة فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة فاستأذن رجل من المسلمين نبي الله ﷺ في نكاح أم مهزول اشترطت له أن تنفق عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية. ولهذه الآية والأحاديث المذكورة احتج أحمد على أنه لا يجوز نكاح الزاني ولا الزانية حتى يتوبا فإذا تابا فلا يسميان زانيين.

وعند الأئمة الثلاثة نكاح الزاني والزانية صحيح ففي تفسير هذه الآية قال بعضهم معناه الإخبار كما هو ظاهر الصيغة، والمعنى أن الزاني لأجل فسقه لا يرغب غالباً في نكاح الصالحات والزانية لا يرغب فيها الصلحاء فإن المشاكلة علة الألفة والتضام والمخالفة سبب للنفرة والافتراق، وكان حق المقابلة أن يقال والزانية لا تنكح إلا من زانٍ أو مشرك لكن المراد بيان أحوال الرجال في الرغبة فيهن لما ذكرنا أنها نزلت في استئذان الرجال من المؤمنين، وعلى هذا التأويل المراد بالتحريم في قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التنزيه عند أكثر العلماء عبَّرَ عنه بالتحريم مبالغة يعني أن المؤمنين لا يفعلون ذلك ويتزهون عنه تحافياً عن التشبه بالفساق وسوء المقابلة والمعاشرة والطعن في النسب وغير ذلك من الفاسد وقال مالك يكره كراهة تحريم، وقال البغوي قال قوم المراد بالنكاح الجماع ومعنى الآية الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة والزانية لا تزني إلا بزانٍ أو مشرك وهو قول سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم ورواية الوالبي عن ابن عباس، وقال زيد بن هارون يعني الزاني إن كان مستحلاً فهو مشرك وإن جامعها وهو محرم فهو زان وعلى هذا أيضاً مبنى الكلام على الأخبار، وقال جماعة النفي ها هنا بمعنى النهي وقد قرىء به والحرمة على ظاهرها لكن التحريم كان خاصاً في حق أولئك الرجال من المهاجرين الذين أرادوا نكاح الزانيات دون سائر الناس، وهذا القول بعيد جداً لأن الممنوع في الآية ابتداءً الزاني عن نكاح الصالحات غير الزانيات وكان حق الكلام حينئذ المؤمن لا ينكح إلا مؤمنة صالحة وأيضاً عموم قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ينافي تخصيص الحكم برجال مخصوصين، وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول: إذا تزوج الزاني بالزانية فهما

(١) وفي الأصل عطاء بن رباح إلخ أبو محمد عفا عنه.

زانيان أبداً، وقال الحسن الزاني المجلود لا ينكح إلا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها إلا زان مجلود، وروى أبو داود بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله»(١) مبنى هذين القولين أن التحريم عام والآية غير منسوخة، وقال سعيد بن المسيب وجماعة إن حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراماً بهذه الآية فنسخها قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] فدخلت الزانية في أيامى المسلمين، ويدل على جواز نكاح الزانية ما روى البغوي عن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن امرأتي لا تدفع يد لامس قال: «طلقها» قال؛ إني أحبها وهي جميلة قال: «استمتع بها» وفي رواية «فأمسكها إذاً»(٢) كذا روى الطبراني والبيهقي عن عبيد الله بن عمر عن عبد الكريم بن مالك عن أبي الزبير عن جابر وقال ابن أبي جابر سألت أبي عن هذا الحديث فقال: حدثنا محمد بن كثير عن معتمر عن عبد الكريم حدثني أبو الزبير عن مولى لبني هاشم فقال: جاء رجل فذكره ورواه الثوري فسمى الرجل هشاماً مولى لبني هاشم، ورواه أبو داود والنسائي من طريق عبد الله بن عبيد الله بن عمير عن ابن عباس وقال النسائي رفعه أحد الرواة إلى ابن عباس وأحدهم لم يرفعه قال: وهذا الحديث أي الموصول ليس بثابت والمرسل أولى بالصواب، ورواه الشافعي مرسلاً ورواه النسائي وأبو داود من رواية عكرمة عن ابن عباس نحوه قال الحافظ إسناده أصح وأطلق النووي عليه الصحة وأورد ابن الجوزي الحديث في الموضوعات مع أنه أورده بإسناد صحيح وذكر عن أحمد بن حنبل أنه لا يثبت في الباب شيء وليس له أصل.

فائدة: قال الحافظ اختلف العلماء في معنى قوله لا تدفع يد لامس؟ فقيل: معناه لا تمنع ممن يطلب منها الفاحشة وبهذا قال أبو عبيدة والنسائي وابن الأعرابي والخطابي والفريابي والنووي وهو مقتضى استدلال البغوي والرافعي وغيرهما في هذه المسألة، وقيل: معناه التبذير يعني لا تمنع أحداً طلب منها شيئاً من مال زوجها وبهذا قال أحمد والأصمعي ومحمد بن نصر وعلى هذا التأويل لا استدلال بالحديث في هذه المسألة، قال البغوي وروي أن عمر بن الخطاب ضرب رجلاً وامرأة في زنى وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام، وأخرج الطبراني والدارقطني من حديث عائشة قالت: «سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة وأراد أن يتزوجها فقال: «الحرام لا يحرم الحلال» وفي مصنفي عبد الرزاق وابن أبي شيبة سئل ابن عباس عن الرجل يصيب من المرأة حراماً ثم يبدو له أن يتزوج بها؟ قال: أوله سفاح وآخره نكاح».

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ

(١) أخرجه أبو داود حديث ٢٠٥٢، والحاكم في المستدرك ٢/٢٦٦.

(٢) أخرجه النسائي في النكاح باب ١٢، والطلاق باب ٣٤.

وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ أي يقذفون بصريح الزنى بنحو زنيت أو يا زاني أجمع على هذا التقييد علماء التفسير والفقه بقرينة اشتراط الأربعة في الشهادة فمن قذف بغير الزنى من المعاصي لا يجب عليه حد القذف إجماعاً ولكن يعزره الحاكم على ما يرى وكذا الورمي بالزنى تعريضاً كما إذا قال لستُ أنا بزانٍ فإنه لا يحد وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان وابن سيرين والحسن بن صالح، وقال مالك وهو رواية عن أحمد أنه يحد بالتعريض لما روى الزهري عن سالم عن ابن عمر أن عمر كان يضرب الحد بالتعريض، وعن علي أنه جلد رجلاً بالتعريض ولأنه إذا عرف مراده كان كالتصريح، قلنا التعريض ليس كالتصريح ولذا جاز خطبة النساء في العدة تعريضاً ولا يجوز تصريحاً قال الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أو المحصنين بدلالة هذا النص للقطع بالفاء الفارق وهو صفة الأنوثة واستقلال دفع عار ما نسب إليه بالتأثير بحيث لا يتوقف فهمه على أهلية الاجتهاد وعليه انعقد إجماع الأمة، وتخصيص المحصنات بالذكر لخصوص الواقعة أو لأن قذف النساء أغلب وأشنع، والمراد بالإحصان ها هنا بإجماع العلماء أن يكون حراً عاقلاً بالغاً مسلماً عفيفاً غير متهم بالزنى وهذا محمد قوله ﷺ: «من أشرك بالله فليس بمحصن»(١) عند الجمهور كما ذكرنا فيما سبق، فمن زنى في عمره مرة ثم تاب وحسن حاله وامتد عمره فقذفه قاذف بالزنى لا يحد لكون القاذف صادقاً فيما رمى به لكنه يعزر لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له وكذا لا يحد قاذف رقيق أو صبي أو مجنون وحكي عن داود أن قاذف الرقيق يحد ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ بعد إنكار المقذوف فلو أقر المقذوف على نفسه بالزنى أو أقام القاذف أربعة من الشهور على الزنى سقط الحد عن القاذف، ولو شهد أربعة على الزنى متفرقين غير مجتمعين لا يجب حد الزنى على المقذوف عند أبي حنيفة كما ذكرنا فيما سبق لكن يسقط حد القذف عن القاذف لوجود النصاب والاجتماع إنما شرط احتياطاً لدرء حد الزنى لا لإيجاب حد القذف وكذا لو أقر المقذوف مرةً لا يجب عليه الحد ولا على قاذفه. والمراد بالشهداء في هذه الآية الذين كانوا أهلاً للشهادة فلو شهد أربعة على رجل بالزنى وهم عميان أو محدودون في قذف أو أحدهم عبد أو محدود في قذف فإنهم يحدون ولا يحد المشهود عليه لأنهم ليسوا من أهل أداء الشهادة فوجودهم كعدمهم، والعبد ليس بأهل للتحمل والأداء لعدم الولاية فلم يثبت شبهة الزنى لأن الزنى يثبت بالأداء، ولو شهدوا وهم فساق لم يحدوا ولا يحد المقذوف لأنهم من أهل

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

الأداء والتحمل لكن في أدائهم نوع صور لأجل الفسق فيثبت بشهادتهم، شبهة الزنى فلا يحدُّ واحد القذف ولا المقذوف حد الزنى وعند الشافعي يحدّ الفسقة حد القذف لأنهم كالعبيد ليسوا من أهل الشهادة ومن هذه الآية يثبت أنه لو نقص عدد الشهود عن الأربعة حدوا لأنهم قذفوه لأنه لا حسبة عند نقصان العدد وخروج الشهادة عن القذف إنما هو باعتبار الحسبة.

روى الحاكم في المستدرك والبيهقي وأبو نعيم في المعرفة وأبو موسى في الدلائل من طرق أنه شهد عند عمر على المغيرة بن شعبة بالزنى أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد (ولم يصرح به زياد وكان رابعهم) فجلد عمر الثلاثة وكان بمحضر من الصحابة ولم ينكر عليه أحد، وعلق البخاري طرفاً منه ورواه عبد الرزاق عن الثوري عن سليمان التيمي عن أبي النهدي نحوه وفيه لما نكل زياد قال عمر هذا رجل لا يشهد إلا بحق ثم جلدهم الحد ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ بعد مطالبة المقذوف إجماعاً لأن فيه حق العبد وإن كان مغلوباً ﴿ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ إن كان القذفة أحراراً وأما إن كانوا أرقاء جلد كل واحد منهم أربعين سوطاً بإجماع الفقهاء، وسند الإجماع القياس على حد الزنى الثابت تنصيفه بقوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ [النساء: ٢٥] روى البيهقي بسنده عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أنه قال أدركتُ أبا بكر وعمر وعثمان ومن بعدهم من الخلفاء فلم أرهم يضربون المملوك إذا قذف إلا أربعين سوطاً وروى مالك بهذا في الموطأ إلا أنه ليس فيه ذكر أبي بكر، وقال الأوزاعي حد العبد مثل حد الحر ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ عطف على الأمر بالجلد جزاء لما تضمن المبتدأ معنى الشرط فهو من تتمة الحد عندنا لأنهما أخرجا بلفظ الطلب مفوضين إلى الأئمة بخلاف قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ فإنه كلام مستأنف جملة اسمية أخرجت بطريق الإخبار لا مناسبة لها بالطلب بل هي دفع توهم استبعاد صيرورة القذف سبباً لوجوب الحد الذي يندرىء بالشبهات فإن القذف خبر يحتمل الصدق والكذب وربما يحتمل أن يكون حسبة، وجه الدفع بيان فهم فاسقون عاصون بهتك ستر العفة من غير فائدة حين عجزوا عن إقامة أربعة شهداء فلهذا استحقوا العقوبة، وقال الشافعي رحمه الله جملة لا تقبلوا كلام مستأنف غير داخل في الحد لأنه لا يناسب الحد لأن الحد فعل يلزم الإمام إقامته لا حرمة فعل وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ في مقام التعليل لرد الشهادة، قلنا بل هو مناسب للحد فإن الحد للزجر والزجر في رد الشهادة أبداً أكثر من الضرب ويدل على ذلك قوله؛ ﴿أَبَدٗاۚ﴾ فإن الفسق لا يصلح سبباً لرد الشهادة أبداً بل لرد الشهادة ما دام فاسقاً، لا يقال قول: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ المراد منه ما دام هو مصر على القذف فإذا تاب قبل شهادته كما يقال لا تقبل شهادة الكافر أبداً أو يراد به ما دام كافراً، لأنا نقول عدم قبول الشهادة للكافر ما دام كافراً يفهم من قوله لا تقبل شهادة الكافر ولا حاجة فيه إلى قوله أبداً ألا ترى أن إضافة الحكم إلى المشتق يدل على علية المأخذ وعلية الكفر لعدم قبول الشهادة يقتضي دوامه ما دام الكفر، فقوله أبداً في هذا المثال لغو لا يحتمل أن يكون كلام الله تعالى نظيراً له.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد القذف ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ أحوالهم وأعمالهم بالتدارك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة ومحله النصب لما تقرر في الأصول من مذهبه أن الاستثناء إذا تعقب جملاً معطوفة بعضها على بعض يرجع إلى الأخيرة ما لم يكن هناك قرينة صارفة عنها إلى الكل لكونها قريبه من الاستثناء متصلة به، ولأن الجملة الأخيرة ها هنا منقطعة عما سبقها من الجمل نظراً إلى حكمه لاختلاف نسقها وإن اتصلت بما سبق باعتبار ضمير أو اسم إشارة، ولأن الجملة الأخيرة بسبب انقطاعها عما سبق حائل بين المستثنى وبين ما سبق من الجملتين الأوليين فلا يتحقق الاتصال الذي هو شرط الاستثناء، ولأن الاستثناء يعود إلى ما قبله لضرورة عدم استقلاله وقد اندفعت الضرورة بالعود إلى جملة واحدة وقد عاد إلى الأخيرة بالاتفاق فلا ضرورة في العود إلى ما قبلها ولأنه لما ورد الاستثناء في الكلام لزم توقف صدر الكلام عليه ضرورة أنه لا بدل له من مغير والضرورة تندفع بتوقف جملة واحدة فلا يتجاوز إلى الأكثر، لا يقال إن الواو للعطف والتشريك فيفيد اشتراك الجمل في الاستثناء لأنا نقول العطف لا يفيد شركة الجملة التامة في الحكم مع أن وضع العاطف للتشريك في الإعراب والحكم فلان لا يفيد التشريك في الاستثناء وهو يغير الكلام وليس بحكم له أولى ولأن التوبة تصلح منهياً للفسق ولا تصلح منهياً للحدود فإن الحدود لا تندفع بالتوبة والله أعلم وقال الشعبي إن الاستثناء يرجع إلى الكل ومحله النصب فيسقط عنده حد القذف بالتوبة، وجمهور العلماء على أنه لا يسقط بالتوبة، وقال مالك والشافعي الاستثناء راجع إلى الجملتين الأخريين دون الأولى ومحله الجر، ومبنى هذين القولين ما ذكر في الأصول من مذهب الشافعي وغيره أن الاستثناء عند عدم القرينة يرجع إلى الجمل المتعاطفة كلها، غير أن الشافعي يقول إن جملة لا تقبلوا منقطع عما سبق غير داخلة في الحد فلا يرجع الاستثناء إلى الجملة الأولى لأجل الانقطاع ويرجع إلى الآخرين، وقال البيضاوي ما حاصله أن الاستثناء راجع إلى الكل ولا يلزم منه سقوط الحد بالتوبة كما قيل لأن من تمام التوبة الاستسلام للحد أو الاستحلال من المقذوف، قلتُ التوبة هو الندم والاستغفار فلو فرض سقوط الحد به لا يجب عليه الاستسلام فبناءً على هذا قال الشافعي إن القاذف ترد شهادته بنفس القذف وإن لم يطالب المقذوف حده لأجل فسقه، وإذا تاب وندم على ما قال وحسنت حاله قبلت شهادته سواء تاب بعد إقامة الحد عليه أو قبله وبعد التوبة يقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق، قال البغوي يروى ذلك عن عمرو ابن عباس وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري قال البغوي قال الشافعي وهو يعني القاذف قبل أن يحد شر منه حين يحد لأن الحدود كفارات فكيف ترد شهادت في أحسن حاليه وتقبل في شر حاليه، قلنا نحن أيضاً نقول إن القاذف ترد شهادته بنفس القذف لأجل فسقه فإن لم يطالب المقذوف الحدَّ لا يحدّ ولا يقبل شهادته ما لم يتب، روي عن عمر عن النبي ﷺ: «﴿إِلَّا

﴿ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ قال: «توبتهم إكذابهم أنفسهم فإن كذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم»[1] ولهذا الحديث إن صح كان حجةً للشافعي، لكن قلتُ: أحاديث الآحاد لا تصلح معارضاً لنص الكتاب أي لا تقبلوا لهم شهادة أبداً فإن تاب قبلت شهادته لزوال فسقه وإن طالب المقذوف يحد فيجلد ثمانين سوطاً ولا يقبل شهادته أبداً سواء تاب أو لم يتب لأن رد الشهادة حينئذ لحق العبد وحق العبد لا يسقط بالتوبة فلا يلزمنا ما قال الشافعي إنه ترد شهادته في أحسن حاليه وتقبل في شر حاليه.

فائدة: لا خلاف في أن حد القذف اجتمع فيه الحقان حق الله تعالى وحق العبد فإنه شرع لدفع العار عن المقذوف وهو الذي ينتفع به على الخصوص فمن هذا الوجه هو حق العبد ثم إنه شرع زاجراً ولذا سمي حداً، والمقصود من شرع الزواجر إخلاء العالم عن الفساد وهذا آية حق الله تعالى فيمن أجل كونه حقاً للعبد يشترط فيه مطالبة المقذوف ولا يبطل الشهادة بالتقادم ويجب على المستأمن، ويقيمه القاضي بعلمه إذا علمه في أيام قضائه لا إذا علم قبل ولايته حتى يشهد به عنده، ويقدم استيفاؤه على حد الزنى والسرقة إذا اجتمعا ولا يصح الرجوع عنه بعد الإقرار به، ومن أجل كونه حقاً لله تعالى لا يجوز للمقذوف استيفاؤها بنفسه بل الاستيفاء للإمام ويندرىء بالشبهات ولا ينقلب مالاً عند سقوطه ولا يستخلف عليه القاذف وينتصف بالرق كسائر العقوبات الواجبة حقاً لله تعالى، بخلاف حق العبد فإنه يتقدر بقدر التألف ولا يختلف باختلاف المتلف ولهذه الفروع كلها متفقة عليها. واختلفوا في تغليب أحد الحقين على الآخر فمال الشافعي إلى تغليب حق العبد باعتبار حاجته وغنى الله تعالى، ومال أبو حنيفة إلى تغليب حق الله تعالى لأن ما للعبد يتولاه مولاه فيصير حق العبد مرعياً به ولا كذلك عكسه إذ لا ولاية للعبد في استيفاء حقوق الله تعالى إلا بنيابته.

ويتفرع على هذا الاختلاف فروع أخر مختلف فيها، منها الإرث فعند الشافعي حدُّ القذف يورث وعند أبي حنيفة لا يورث إذ الإرث لا يجري في حقوق الله ويجري في حقوق العباد بشرط كونه مالاً أو ما يتصل بالمال كالكفالة أو ما ينقلب إلى المال كالقصاص والحد ليس شيئاً منها فيبطل بموت المقذوف. إذ لم يثبت بدليل شرعي استخلاف الشرع وارثاً جعل له حق المطالبة التي جعل شرطاً لظهور حقه، فمن قذف أحداً فمات المقذوف قبل إقامة الحد أو بعدما أقيم بعضه بطل الباقي عندنا خلافاً للشافعي، ومنها العفو فلو عفا المقذوف بعد ثبوت الحد لا يسقط عندنا وعند الشافعي وهو رواية عن أبي يوسف يسقط، لكن لو قال المقذوف لم يقذفني وكذب شهودي فحينئذ يسقط اتفاقاً لما ظهر أن القذف لم يوجد فلم يجب الحد لا أنه وجب فسقط بخلاف القصاص فإنه يسقط بالعفو بعد وجوبه لأن الغالب فيه حق العبد، ومنها أنه لا يجوز الاعتياض عن حد القذف عند أبي حنيفة وبه قال مالك وعند الشافعي وأحمد يجوز، ومنها أنه يجري فيه التداخل عند أبي حنيفة رحمه الله وبه قال مالك حتى لو قذف شخصاً واحداً مرات أو قذف جماعة كان فيه حداً واحداً إذ لم يتخلل الحد بين

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٥٣٦.

القذفين، ولو ادعى بعضهم فحد ففي أثناء الحد ادعى آخر كمل ذلك الحد وعند الشافعي لا يجري فيه التداخل، قلتُ لما ثبت أن حد القذف اجتمع فيه حق الله وحق العبد كما يشهد به المسائل المتفقة عليها وثبت أيضاً أن الحدود تندرىء بالشبهات، فالأولى أن يقال إنه إذا اقتضى أحد الحقين وجوب الحد والآخر سقوطه فلا بد أن يفتى بالسقوط فإنه إن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة، فلا يقال بجريان الإرث فيه كما قال أبو حنيفة ويقال بسقوطه بعفو المقذوف لسقوط المطالبة التي هي شرط لاستيفائه كما قال الشافعي ويجري فيه التداخل كما قال أبو حنيفة، ولو صالحا على الاعتياض يعني بسقوط الحد فحصول الرضاء من المقذوف ولا يجب المال على القاذف لاحتمال كونه حقاً لله تعالى والله أعلم.

روى البخاري في الصحيح عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته. . عند النبي ﷺ بشريك ابن سحماء فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك» فقال يا رسول الله إذا وجد أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فقال النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك» فقال هلال والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد فنزل جبرائيل وأنزل الله عليه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآية فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩] فجاء هلال فشهد يعني لاعن والنبي ﷺ يقول «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب»؟ ثم قامت فشهدت يعني لاعنت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة قال ابن عباس فتلكأت[١] ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، وقال النبي ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سمحا» فجاءت به كذلك فقال النبي ﷺ؛ «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[٢] وفي الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي قال إن عويمر العجلاني قال: «يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً يقتله فيقتلونه أم كيف يفعل قال رسول الله ﷺ: «قد أنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأت بها» قال سهل فتلاعنا في المسجد وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ فلما فرغا قال عويمر كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها فطلقها ثلاثاً، ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا فإن جاءت به أسحم[٣] أدعج العينين عظيم الإليتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها وإن جاءت به أحمر كأنه وحرة فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها» فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر فكان بعد ينسب إلى أمه»[٤].

---

(١) فتلكأت أي توقفت وتباطأت أن يقولها ونكصت النكوص هو الرجوع إلى وراء وسابغ الاليتين أي تامهما وعظيمهما من سبوغ النعمة والثوب وخدلج الساقين أي عظيمهما من مجمع البحار ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٤، باب ١، ٣.

(٣) أسحم الأسحم: الأسود وقوله أدعج العينين الدعجة السواد في العين وغيرها يريد أن سواد عينيه كان شديداً مجمع البحار ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٤، باب ١، والطلاق باب ٣٠، والحدود باب ٤٣، والاعتصام باب ٥، وأبو داود في الطلاق باب ٢٧، وابن ماجه في الطلاق باب ٢٧، وأحمد في المسند ٥/ ٣٣٤.

وأخرج أحمد عن عكرمة عن ابن عباس أنه لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار هكذا نزلت يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم»؟ قالوا يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ولا طلق امرأةً له فاجترأ رجل منّا أن يتزوجها من شدة غيرته، قال سعد يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله إني لأعرف أنها حق وإنها من الله ولكني تعجبتُ أني لو وجدتُ لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، قال فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية (وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم) فجاء من أرضه عشاءً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني جئت أهلي عشاءً فوجدتُ عندها رجلاً فرأيتُ بعيني وسمعتُ بأذني فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه، واجتمعت الأنصار فقالوا قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منهما مخرجاً فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه أنزل الله عليه الوحي فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾[1] الآية، وأخرج أبو يعلى مثله عن أنس وذكر البغوي هذا الحديث وقال في آخره: «أبشر يا هلال فإن الله قد جعل لك فرجاً» قال قد كنتُ أرجو ذلك من الله، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها» فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قيل لها فكذبت فقال رسول الله ﷺ «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب»؟ فقال: هلال يا رسول الله بأبي أنت وأمي قد صدقت وما قلت إلا حقاً فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما فقيل لهلال أشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فقال له عند الخامسة يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس وإن لهذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب» فقال هلال والله لا يعذبني الله عليها كما لا يجلدني عليها رسول الله ﷺ فشهد الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ثم قال للمرأة «اشهدي» فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فقال لها عند الخامسة ووقفها «اتقي الله فإن الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس» فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقضى أن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل منه» فجاءت به غلاماً كأنه جمل أورق على الشبه المكروه، وكان بعد أميراً بمصر لا يدري من أبوه.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣٩٦/٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٠٥٧٦.

قال البغوي: إنه قال ابن عباس في سائر الروايات ومقاتل أنه لما نزلت ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية قرأها النبي ﷺ على المنبر فقام عاصم بن عدي الأنصاري فقال جعلني الله فداك إن رأى رجل منا مع امرأته رجلاً فأخبر بما رأى جلد ثمانين سوطاً وسماه المسلمون فاسقاً ولا يقبل شهادته أبداً فكيف لنا بالشهداء ونحن إذا التمسنا الشهداء كان الرجل فرغ من حاجته ومرَّ، وكان لعاصم هذا ابن عمر يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس بن محصن فأتى عويمرُ عاصماً وقال لقد رأيتُ شريك بن سحماء على بطن امرأتي خولة، فاسترجع عاصم وأتى رسول الله ﷺ في الجمعة الأخرى، فقال يا رسول الله ما ابتليتُ بالسؤال الذي سألت في الجمعة الماضية في أهل بيتي وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بني عم لعاصم فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعاً، وقال لعويمر اتق الله في زوجتك وابنة عمك فلا تقذفها بالبهتان فقال يا رسول الله أقسم بالله إنني رأيتُ شريكاً على بطنها وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإنها حبلى من غيري، فقال رسول الله ﷺ للمرأة اتقي الله ولا تخبريني إلا بما صنعتِ، فقالت يا رسول الله إن عويمراً رجل غيور وإنه رآني وشريكاً نستطيل السهر ونتحدث فحملته الغيرة على ما قال فقال رسول الله ﷺ لشريك ما تقول فقال ما تقوله المرأة، فأنزل الله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية فأمر رسول الله ﷺ حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم فقال أشهد بالله أن خولة زانية وإني لمن الصادقين ثم قال في الثانية أشهد بالله أني رأيت شريكاً على بطنها وإني لمن الصادقين ثم قال في الثالثة أشهد أنها حبلى من غيري وإني لمن الصادقين ثم قال في الرابعة أشهد بالله ما قربتُها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين ثم قال في الخامسة لعنة الله على عويمر يعني نفسه، إن كان من الكاذبين فيما قال، ثم أمره بالقعود وقال لخولة قومي فقامت فقالت أشهد بالله ما أنا بزانية وأن عويمراً لمن الكاذبين ثم قالت في الثانية أشهد بالله ما رأى شريكاً على بطني وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الثالثة أشهد بالله أنا حبلى منه وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الرابعة إنه ما رآني قط على فاحشة وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الخامسة غضب الله على خولة (تعني نفسها) إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال لولا هذه الأيمان لكان في أمرها رأي ثم قال تحينوا بها الولادة فإن جاءت بأصيهب(١) أبيلج يضرب إلى السواد فهو لشريك بن سحماء وإن جاءت بأورق جعداً جمالياً(٢) فهو لغير الذي رميت به، قال ابن عباس فجاءت بأشبه خلق لشريك.

قال الحافظ ابن حجر اختلف الأئمة في هذا الموضع فمنهم من رجح أنها نزلت في

---

(١) أصيهب: هو من يعلو لونه صهبة، وهي كالشقرة.

(٢) وفي مجمع البحار الجمّالي، بالتشديد: الضخم الأعضاء التام الأوصال كأنه الجمل ـ الفقير الدهلوي ـ.

شأن عويمر ومنهم من رجح أنها في شأن هلال، واحتج[١] القرطبي إلى تجويز نزول الآية مرتين ومنهم من جمع بينهما بأن أول من وقع ذلك هلال وصادف مجيء عويمر أيضاً فنزلت في شأنهما معاً وإلى هذا جنح النووي وسبقه الخطيب، وقال الحافظ ابن حجر يحتمل أن النزول سبق بسبب هلال فلما جاء عويمر ولم يكن له علم بما وقع لهلال علمه النبي ﷺ بالحكم ولهذا قال في قصة هلال فنزل جبرائيل، وفي قصة عويمر قد أنزل الله فيك أي فيمن وقع له مثل ما وقع لك وبهذا أجاب ابن الصباغ في الشامل.

مسألة: وبناءً على عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ قال مالك والشافعي وأحمد كل زوج صح طلاقه صح لعانه سواء كانا حرين أو عبدين عدلين أو فاسقين أو أحدهما حراً عدلاً والآخر عبداً أو فاسقاً، وكذا سواء كانا مسلمين أو كافرين أو أحدهما خلافاً لمالك فإن عنده أنكحة الكفار فاسدة لا يصح طلاقه فلا يصح لعانه، وقال أبو حنيفة لا يجوز اللعان ما لم يكن الزوج أهلاً للشهادة،يعني حراً عاقلاً بالغاً مسلماً وتكون الزوجة ممن يحد قاذفها يعني حرةً عاقلةً بالغةً مسلمةً غير متهمة بالزنى، فلا يجري اللعان عنده إذا كان الزوج عبداً أو كافراً أو محدوداً في قذف بل يحد حد القذف إن كانت المرأة ممن يحد قاذفها وإلا يعزَّر إن رأى الإمام، لكن إن كان الزوج أعمى أو فاسقاً يجوز لعانه لأن الفاسق يجوز للقاضي قبول شهادته وإن لم يجب قبوله، والأعمى إنما لا تقبل شهادته لعدم تميزه بين المشهود له والمشهود عليه وها هنا هو يميز بين نفسه وبين امرأته فكان أهلاً لهذه الشهادة دون غيرها، وروى ابن المبارك عن أبي حنيفة أن الأعمى لا يلاعن، وكذا لا يجري اللعان عند أبي حنيفة إذا كانت الزوجة أمة أو كافرةً أو صبيةً أو مجنونةً أو تزوجت بنكاح فاسد ودخل بها فيه أو كان لها ولد ليس له أبٌ معروفٌ أو زنت في عمرها ولو مرة ثم تابت أو وطئت وطأ حراماً بشبهةٍ ولو مرةً فحينئذ لا حد ولا لعان بل تعزران رأى الإمام، ووجه قول أبي حنيفة في اشتراط كون المرأة ممن يحد قاذفها أن اللعان إنما شرع لدفع حد القذف من الزوج كما يدل عليه الأحاديث في سبب نزول الآية حيث قال رسول الله ﷺ: «أبشر يا هلال فإن الله قد جعل لك فرجاً» فهو بدل عن حد القذف في حق الزوج، ولذلك قال له رسول الله ﷺ؛ «اتق الله فإن عذاب الدنيا يعني الحد أهون من عذاب الآخرة» فإذا لم يتصور المبدل منه لا يتصور البدل.

وفي اشتراط كون الرجل من أهل الشهادة قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ حيث جعل الأزواج أنفسهم شهداء لأن الاستثناء من النفي إثبات ولو جعل الشهداء مجازاً من الحالفين كما قالوا كان المعنى ولم يكن لهم حالفون إلا أنفسهم وهو غير مستقيم لأنه يفيد أنه إذا لم يكن للذين يرمون أزواجهم من يحلف لهم يحلفون هم لأنفسهم وهذا فرع تصور الحلف لغيره وهو لا وجود له أصلاً فلو كان اليمين معنى حقيقياً للفظ الشهادة كان

(١) واحتج: لعله من غلط الناسخ، والصحيح: وجنح.

هذا صارفاً عنه إلى مجازه فكيف وهو معنى مجازي لها، ولو لم يكن هذا كان إمكان العمل بالحقيقة موجباً لعدم الحمل على اليمين فكيف وهذا صارف عن المجاز. ويدل على اشتراط أهلية الشهادة في الرجل وكون المرأة ممن يحد قاذفها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رواه ابن ماجه والدارقطني بوجوه الأول ما رواه الدارقطني بسنده عن عثمان بن عبد الرحمن الزهري عنه قال: قال رسول الله ﷺ؛ «أربعة ليس بينهم لعان ليس بين الحر والأمة لعان وليس بين العبد والحرة لعان وليس بين المسلم واليهودية لعان وليس بين المسلم والنصرانية لعان»[١] قال يحيى والبخاري وأبو حاتم الرازي وأبو داود عثمان بن عبد الرحمن الزهري ليس بشيء وقال يحيى مرة كان يكذب وقال ابن حبان كان يروي عن الثقات الموضوعات لا يجوز الاحتجاج به وقال النسائي والدارقطني متروك الحديث. والثاني ما رواه الدارقطني وابن ماجه بسندهما عن عثمان بن عطاء الخراساني عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من النساء لا ملاعنة بينهن النصرانية تحت المسلم واليهودية تحت المسلم والمملوكة تحت الحر والحرة تحت المملوك»[٢] وعثمان بن عطاء ضعفه يحيى والدارقطني وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان لا يجوز الاحتجاج به وقال علي بن الجنيد متروك قال الدارقطني وقد تابعه يزيد بن زريع عن عطاء وهو ضعيف أيضاً، وقد روى الدارقطني من طريق آخر عن عماد بن مطر قال: حدثنا حماد بن عمر عن زيد بن رفيع عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ بعث عتاب بن أسيد ثم ذكر نحوه قال أبو حاتم الرازي عماد بن مطر كان يكذب وقال ابن عدي أحاديثه بواطيل وهو متروك الحديث وقال أحمد حماد بن عمرو كان يكذب ويضع الحديث وقال الساجي أجمعوا على أنه متروك الحديث وقد ضعف النسائي والدارقطني زيد بن رفيع، قال ابن الجوزي وقد روى هذا الحديث الأوزاعي وابن جريج وهما إماما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قوله ولم يرفعه إلى النبي ﷺ قال ابن همام وأنت علمت أن الضعيف إذا تعدد طرقه كان حجة وهذا كذلك وقد اعتضد برواية الإمامين إياه موقوفاً على جد عمرو بن شعيب.

وقال الشافعي قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يدل على أنها أيمان وليس بشهادات لأن كلمة بالله محكم في اليمين وكلمة الشهادة يحتمل اليمين ألا ترى أنه لو قال: أشهد ينوي اليمين كان يميناً فحملنا المحتمل على المحكم وحمل الشهادة على الحقيقة متعذر لأن المعلوم في الشرع عدم قبول شهادة الإنسان لنفسه بخلاف يمينه وكذا المعهود شرعاً عدم تكرر الشهادة في موضع بخلاف اليمين فإنه معهود في القسامة، ولأن الشهادة محلها الإثبات واليمين للنفي فلا يتصور تعلق حقيقتها بأمر واحد فوجب العمل بحقيقة أحدهما ومجاز الآخر فليكن المجاز لفظ الشهادة لما قلنا من الوجهين

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/٣٩٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه حديث ٢٠٧١، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٣٩٦، والدارقطني في سننه ٣/١٦٣.

المذكورين، وإذا كان الشهادة بمعنى اليمين لم يكن أهلية الشهادة شرطاً للعان، قلنا كما أن الشهادة لنفسه وتكرار أداء الشهادة غير معهود في الشرع كذلك الحلف لغيره والحلف لإيجاب الحكم أيضاً غير معهود في الشرع بل اليمين لدفع الحكم فكما أن جاز لمن له ولاية الإيجاد والإعدام والحكم كيف ما أراده شرعية هذين الأمرين في محل بعينه ابتداءً جاز له شرعية ذلك ابتداءً والشهادة لنفسه قد ورد في محكم التنزيل حيث قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] وقال رسول الله ﷺ حين سمع المؤذن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» وأنا أشهد وأنا أشهد فشهادته بالرسالة شهادة لنفسه، وتكرار الشهادة في هذا المحل إنما شرع بدلاً عما عجز عنه من إقامة شهود الزنى وهم أربعة وعدم قبول الشهادة لنفسه عند التهمة، ولهذا يثبت عند عدمها أعظم ثبوت كما ذكرنا من شهادة الله وشهادة رسوله فلا يبعد أن يشرع الشهادة لنفسه في موضع بواسطة تأكيدها باليمين وإلزام اللعنة والغضب إن كان كاذباً والله أعلم.

جملة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ إما عطف على الصلة أو حال من فاعل يرمون و﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بدل من الشهداء أو صفة إن كان إلا بمعنى غير والموصول مع الصلة مبتدأ خبره ما بعده، قرأ حفص وحمزة والكسائي(١) أربع شهادات بالرفع على أنه خبر شهادة أحدهم وقرأ الباقون على المصدر لبيان عدد المصدر، والتقدير فالواجب شهادة أحدهم أو فعليهم شهادة أحدهم أربع شهادات، وقيل شهادة أحدهم مبتدأ خبره محذوف تقديره فشهادة أحدهم أربع شهادات تدفع عنه حد القذف وبالله متعلق بشهادات لكونها أقرب وقيل بشهادة لتقدمها، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أصله على أنه من الصادقين فيما رماها من الزنى أو نفي الولد أو منهما فحذفت الجار وكسرت إن وعلق اللام عنه باللام تأكيداً، وقيل: هو جواب قسم محذوف والجملة القسمية بيان للشهادة ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ اتفق القراء على رفعه فهو على قراءة حفص وحمزة والكسائي عطف على أربع شهادات، وعلى قراءة الباقين عطف على قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ يعني فالواجب شهادة أحدهم أربع شهادات والواجب الشهادة الخامسة وجاز أن يكون الخامسة مبتدأ وما بعده خبره والجملة الاسمية حال ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قرأ نافع ويعقوب أن مخففة من الثقيلة واسمه ضمير الشأن ورفع اللعنة على الابتداء والباقون أن مشددة ونصب اللعنة على أنها اسم إن وأن مع ما في حيزه بتقديره حرف الجر متعلق بالشهادة يعني والشهادة الخامسة بأن لعنة الله عليه ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما مضى.

مسألة: إذا قذف الرجل امرأته بالزنى أو بنفي الولد وهما من أهل اللعان على ما ذكرنا من الخلاف وطالبته بموجب القذف وجب عليه اللعان فإن امتنع منه حبسه الحاكم عند أبي حنيفة رحمه الله حتى يلاعن أو يكذب نفسه فيحد حد القذف، وعند مالك والشافعي وأحمد

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

إذا امتنع من اللعان يحدّ حد القذف ولا يحبس لأن موجب القذف الحد واللعان حجة صدقة والقاذف إذا قعد عن إقامة الحجة حد ولا يحبس، إلا أن الشافعي يقول إذا نكل فسق وقال مالك لا يفسق. وجه قول أبي حنيفة أن النكول دليل على الإقرار لكن فيه شبهة والحد لا يثبت مع الشبهة فيحبس حتى يلاعن أو يكذب نفسه لأنه حق مستحق عليه وهو قادر على إيفائه فيجلس به حتى يأتي بما هو عليه، وإذا لاعن الزوج وجب على المرأة اللعان عند أبي حنيفة فإن امتنعت حبسها الحاكم حتى تلاعن أو تصدقه لأنه حق مستحق عليها وقي قادرة على إيفائه فتحبس فيه وعند الشافعي إذا لاعن الزوج وقعت الفرقة بينه وبين زوجته وحرمت عليه على التأييد وانتفى عنه النسب لقوله ﷺ: «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً»[1] قلنا: إنما يصدق التلاعن إلا بعد لعان المرأة أيضاً، فلا يقع الفرقة ولا يجوز التفريق إلا بعد تلاعنهما، ويجب على المرأة بلعان الرجل حد الزنى عند مالك والشافعي وأحمد ويسقط عنها حد الزنى عندهم إذا لاعنت لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ يعني حد الزنى كما في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] ولقوله ﷺ لامرأة هلال بن أمية «اتقي الله فإن الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس» ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ﴾ منصوب بالإجماع على المصدرية. . . . ﴿شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ﴾ أي الزوج ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماني به من الزنى أو من نفي الولد أو منهما ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الابتداء وما بعده خبره أو على العطف على أن تشهد وقرأ حفص بالنصب عطفاً على ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾ ﴿أَنَّ﴾ قرأ نافع ويعقوب مخففة على أنها مصدرية والباقون مشددة ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ قرأ نافع ويعقوب[2] بكسر الضاد على أنه فعل ماضٍ من باب علم يعلم والله مرفوع على أنه فاعل للفعل والباقون بفتح الضاد بالنصب على أنه اسم إن والله بالجر على أنه مضاف إليه ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماني به من الزنى أو نفي الولد أو منهما، قال الشافعي لا يتعلق بلعانها إلا حكم واحد وهو سقوط حد الزنى، ولو أقام الزوج بينة على زناها لا يسقط عنها الحد باللعان فإن امتنعت من اللعان حدت عندهم، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله فإنه يقول: بل تحبس دائماً ما لم تلاعن أو تصدقه فإن صدقته ارتفع سبب وجوب لعانها فلا لعان ولا حد لأن التصديق ليس بإقرار قصداً بالذات فلا يعتبر في وجوب الحد بل في درئه فيندفع به اللعان ولا يجب به الحد ولو كان إقراراً. . . فالإقرار مرةً لا يوجب حد الزنى عند أبي حنيفة رحمه الله كما مرَّ فيما سبق ولم يتعين أن المراد بالعذاب في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ الحد لجواز أن يكون المراد به الحبس والحدود تندرىء بالشبهات.

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ٣/ ٢٧٦، والزيلعي في نصب الراية ٣/ ٢٥٠، وأبو حنيفة في جامع المسانيد ٢/ ١٤٣.

(٢) الصحيح: قرأ يعقوب: غَضَبُ، بفتح الضاد ورفع الباء وجرّ هاء الجلالة ـ أبو محمد عفا الله عنه.

مسألة: ولو صدقت المرأة الزوج في نفي الولد فلا حد ولا لعان عند أبي حنيفة رحمه الله وهو ولدهما لأن النسب إنما ينقطع حكماً للعان ولم يوجد وهو حق الولد فلا يصدقان في إبطاله والله أعلم.

قلت: والعجب من الشافعي ومن معه أن اللعان عندهم يمين ولذا لا يشترطون في الرجل أهلية الشهادة ويجوزون اللعان من العبد والكافر والمحدود في القذف واليمين هو لا يصلح لإيجاب المال فكيف يوجب لعان الرجل عند امتناع المرأة عنه عليها الرجم وهو أغلظ الحدود، والعجب من أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: اللعان شهادات ولذا اشترط في الرجل أهلية الشهادة وقال تكرار الشهادة في هذا المحل إنما شرع بدلاً عما عجز عنه من إقامة شهود الزنى وهم أربعة وقد جعل الشارع شهادات الأربع مقام شهادة أربعة من الرجال بواسطة تأكد باليمين وإلزام اللعنة، وإنه قال: إن اللعان قائم مقام حد القذف في حقه ومقام حد الزنى في حقها فلم لم يقل بإيجاب حد الزنى عليها بشهاداته الأربع وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ والدرء لفظ خاص صريح في معنى السقوط والسقوط يقتضي الوجوب عند عدم موجبه وقال رسول الله ﷺ: «عذاب الله أشد من عذاب الناس»[1] يعني الحد، ولا معنى لكون اللعان في حقها قائماً مقام حد الزنى إلا أنه إذا لاعنت سقط عنها الحدّ وإن امتنعت من اللعان وجب عليها الحد، لا يقال إن شهاداته وحده وإن كانت قائمة مقام شهادة أربعة من الرجال لكن لا يحصل به القطع بتحقق الزنى، وفي قيام شهادته مقام شهاداتهم شبهة فيندرىء بها حد القذف ولا يثبت بها حد الزنى لأنها يندرىء بالشبهات لأنا نقول لا شبهة في قيام شهاداته مقام شهاداتهم لثبوتها بالكتاب والسنة والإجماع والقطع بتحقق الزنى كما لا يحصل بشهاداته الأربع كذلك لا يحصل بشهادة أربعة من الرجال بجواز تواطئهم على الكذب والخبر لا يوجب القطع ما لم يبلغ درجة التواتر ويكون المخبر معصوماً، والحكم بعد شهادة رجلين أو أربعة أمر تعبدي ليس مبناه على القطع بل على غلبة الظن، وغلبة الظن ها هنا فوق غلبة الظن في شهادة أربعة من الرجال بواسطة تأكد شهاداته باليمين والتزام اللعنة مع كونه عدلاً جائز الشهادة وبامتناع المرأة من اللعان، ألا ترى أن توافق الأربعة على الكذب أقرب عند العقل من امتناع المرأة عن اللعان على تقدير كذب الزوج مع اعتقادها بسقوط الرجم عنها ودفع العذاب باللعان، والمراد بالشبهة التي تندرىء به الحد شبهة سوى هذه الشبهة التي لم يعتبرها الشرع من احتمال كذب الشهود الأربعة وكذب الزوج مع لعانه وامتناعها من اللعان، فالراجح عندي في اشتراط أهلية الشهادة في الزوج وكون المرأة ممن يحد قاذفها قول أبي حنيفة رحمه الله، وفي وجوب حد الزنى بعد امتناع المرأة من اللعان قول الشافعي ومن معه والله أعلم.

مسألة: قد مر فيما سبق أن بلعان الرجل وحده يقع الفرقة بين الزوجين عند الشافعي

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/٦٦.

وهذا أمر لا دليل عليه، وقال زفر وبه قال مالك وهو رواية عن أحمد أنه يقع الفرقة بتلاعنهما من غير قضاء القاضي وعند أبي حنيفة وصاحبيه وأحمد لا تقع بعد تلاعنهما حتى يفرق الحاكم بينهما ويجب على الحاكم تفريقهما، والفرقة تطليقة بائنة عند أبي حنيفة ومحمد وعند أبي يوسف وزفر ومالك والشافعي وأحمد فرقه فسخ وجه قولهم جميعاً إن بالتلاعن يثبت الحرمة المؤبدة كحرمة الرضاع، كما في الصحيحين عن ابن عمر أنه ﷺ قال للمتلاعنين «حسابكما على الله أحدكما كاذب لا سبيل لك عليها»، قال: يا رسول الله مالي؟ قال: «لا مال لك إن كنت صدقتَ عليها فهو بما استحللتَ من فرجها وإن كنت كذبتَ عليها فذلك أبعد فأبعد لك منها»(١) وما رواه أبو داود في حديث سهل بن سعد مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ثم لا يجتمعان أبداً(٢)، وكذا روى الدارقطني عن علي وابن مسعود، قال الحافظ ابن حجر وفي الباب عن علي وعمر وابن مسعود في مصنف عبد الرزاق وابن أبي شيبة وروى أبو داود في حديث ابن عباس في آخر قصة هلال بن أمية أنه ﷺ فرق بينهما وقضى بأن لا ترمي ولا ولدها، وفي الصحيحين عن ابن عمر «أن رجلاً لاعن امرأته على عهد رسول الله ﷺ ففرق عليه السلام بينهما وألحق الولد بأمه»(٣) وأصرح دليل على قول الجمهور أن الفرقة ليست فرقة طلاق ما أخرجه أبو داود في سننه عن ابن عباس في قصة هلال بن أمية أنه قال قضى رسول الله ﷺ: أن ليس لها عليه قوت ولا سكنى من أجل أنهما يفترقان بغير طلاق ولا متوفى عنها(٤)، قالوا: إذا ثبت بعد التلاعن الحرمة المؤبدة فلا حاجة إلى تفريق القاضي وأيضاً الحرمة المؤبدة تنافي النكاح كحرمة الرضاع فتنفسخ، وقال أبو حنيفة إن ثبوت الحرمة لا يقتضي فسخ النكاح ألا ترى أنه بالظهار يثبت الحرمة ولا ينفسخ النكاح غير أنه إذا ثبت الحرمة عجز الزوج عن الإمساك بالمعروف فيلزمه التسريح بالإحسان فإذا امتنع منه ناب القاضي منابه دفعاً للظلم دل عليه ما رواه الشيخان في حديث سهل بن سعد أنه قال عويمر بعدما تلاعنا كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها فطلقها ثلاثاً ولم ينكر عليه النبي ﷺ في التطليق، وروى الدارقطني بسنده من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «المتلاعنان إذا افترقا لا يجتمعان أبداً»(٥). وقد طعن الشيخ أبو بكر الرازي في ثبوته عن رسول الله ﷺ لكن قال صاحب التنقيح إسناده جيد ومفهوم شرطه يستلزم أنهما لا يفترقان بمجرد اللعان وهو حجة على الشافعي على مقتضى رأيه وما قال ابن عباس قضى رسول الله ﷺ أن ليس لها قوت ولا سكنى من أجل أنهما

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٤، باب ٣، والطلاق باب ٣٢، ٣٣، ٥٢، ٥٣، ومسلم في اللعان حديث ٦.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق باب ٢٧.

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض باب ١٧، ومسلم في اللعان حديث ٨.

(٤) أخرجه أبو داود في الطلاق باب ٢٧، وأحمد في المسند ١/ ٢٣٩، ٢٤٥.

(٥) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.

يفترقان بغير طلاق فهذا زعم من ابن عباس وإنما المرفوع القضاء بعدم النفقة والسكنى.

قلتُ: الحرمة بعد التلاعن ثبتت بالإجماع أما عند الشافعي وزفر ومن معهما فظاهر وأما عند أبي حنيفة فلأنه لولا الحرمة فلا وجه لتفريق النبي ﷺ ولا موجب لقول أبي حنيفة ثم يفرق القاضي وهذه الحرمة ليست كحرمة الظهار، لكونها منتهية بالكفارة بل هي حرمة مؤبدة كحرمة الرضاع ولا شك أن الحرمة المؤبدة تنافي النكاح بخلاف المؤقتة فينفسخ ولا يحتاج إلى قضاء القاضي بل عليه ما قال ابن همام أنه يلزم على قول أبي يوسف أنه لا يتوقف على تفريق القاضي لأن الحرمة ثابتة قبله اتفاقاً، وقوله امتنع عن الإمساك بالمعروف فينوب القاضي منابه في التسريح يقتضي أن يأمر القاضي الزوج بعد اللعان أن يطلقها فإن امتنع من التطليق يفرق القاضي بينهما ولم يقل به أحد ولم يرو عن النبي ﷺ أمره بالتطليق وقول ابن عباس في حكم الرفع لكونه عالماً بكيفية قضاء رسول الله ﷺ وأما قول عويمر فمحمول على عدم علمه بوقوع الفرقة باللعان ومفهوم الشرط وإن كان حجة عند الشافعي لكن يترك العمل به للقطع على ثبوت الحرمة المؤبدة، أو يقال معنى قوله «المتلاعنان إذا افترقا لا يجتمعان أبداً» إذا افترقا من التلاعن أي فرغا كما قال أبو حنيفة في تأويل قوله ﷺ «المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا»[(١)] حيث قال المراد بالتفرق تفرق الأقوال.

مسألة: إذا أكذب الزوج نفسه بعد التلاعن هل يجوز له أن يتزوجها؟ قال الشافعي ومالك وأحمد إذا أكذب نفسه يقبل ذلك فيما عليه لا فيما له فيلزمه حد القذف ويلحقه الولد ولا يرتفع التحريم المؤبد فلا يجوز له التزوج، وقال أبو حنيفة وهو رواية عن أحمد أنه جلد وجاز له أن يتزوجها لأنه لمَّا حد لم يبق أهلاً للعان فارتفع حكمه المنوط به وكذلك إن قذف غيرها فحدَّ به وكذا إذا زنت فحدت لانتفاء أهلية اللعان من جهتها، قلنا: زوال أهلية اللعان لا يقتضي نفي اللعان من أصله ألا ترى أنه من قذف غيره فحدَّ حدَّ القذف ثم زنى المقذوف وحد حدَّ الزنى لا يقبل شهادة القاذف بعد ذلك مع زوال أهلية المقذوف لأن يحد قاذفه، قالت الحنفية معنى قوله ﷺ «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً» لا يجتمعان ما داما متلاعنين كما هو مفهوم العرفية، قلنا: معنى العرفية لا يتصور إلا إذا كان العنوان وصفاً قارّاً والتلاعن وصف غير قار فلا يمكن الحكم بشرط الوصف بل المراد اللذان صدر منهما اللعان في وقت من الأوقات لا يجتمعان بعد ذلك أبداً، والقول بأن معنى الحديث لا يجتمعان ما داما هما على تكاذبهما مصاورة على المطلوب والله أعلم.

مسألة: ولو كان القذف بنفي الولد نفى القاضي نسبه عنه وألحق بأمه ويتضمنه القضاء بالتفريق عند من يشترط له القضاء ويقول في اللعان أشهد بالله أني لمن الصادقين فيما رميتك به من نفي الولد وكذا في جانب المرأة، ولو قذفها بالزنى ونفي الولد ذكر في اللعان أمرين ثم

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب ٤٢، ٤٤، ٤٧، ومسلم في البيوع حديث ٤٥، وأبو داود في البيوع باب ٥١، والنسائي في البيوع باب ٩، ١١، ومالك في البيوع حديث ٧٩، وأحمد في المسند ١/ ٥٦.

ينفي القاضي نسب الولد ويلحقه بأمه لحديث ابن عمر أن النبي ﷺ لاعن بين الرجل وامرأته فانتفى من ولدها ففرق بينهما وألحق الولد بالمرأة متفق عليه.

مسألة: وإذا قال الزوج ليس حملكِ مني فلا لعان عند أبي حنيفة وزفر وأحمد لعدم تيقن الحمل عند نفيه فلم يصر قاذفاً وقال مالك والشافعي يلاعن لنفي الحمل وقال أبو يوسف ومحمد إذا جاءت بالولد لأقل من ستة أشهر وجب اللعان، ومقتضى هذا القول إنه يؤخر الأمر إلى أن تلد فإن ولدت لأقل من ستة أشهر وجب اللعان وإلا فلا وقد ورد في بعض طرق قصة هلال ما يدل على أن اللعان كان بعد الولادة روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عباس في قصة هلال فقال عليه السلام اللهم بين ووضعت شبيهاً بالذي ذكر زوجها أنه وجد عند أهله فلاعن رسول الله ﷺ، وجه قول مالك والشافعي أن النبي ﷺ فرق بين هلال وزوجته وقضى أن لا يدعي ولدها لأب ولا ترمى ولا يرمى ولدها ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، قال عكرمة وكان ولدها بعد ذلك أميراً على مصر وما يدعى لأب، وهذا لفظ أبي داود وفي أكثر الطرق أن امرأة هلال كانت حاملاً حين لاعنت، وروى النسائي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لاعن بين العجلاني وامرأته وكانت حبلى، وأخرج عبد الرزاق هكذا أيضاً وقال زوجها ما قربتُها منذ عفار النخل وعفار النخل أنها لا تسقى بعد الآبار شهرين فقال عليه السلام «اللهم بين» فجاءت بولد على الوجه المكروه وبهذا يظهر جواز اللعان بنفي الحمل، وأجيب بأن اللعان إنما ثبت لأن هلالاً رماها بالزنى لا بنفي الحمل وما ورد في رواية وكيع عند أحمد أنه لاعن هلال بالحمل فقد أنكره أحمد وقال: إنما وكيع أخطأ فقال لاعن بالحمل وإنما لاعن رسول الله ﷺ لما جاء فشهد بالزنى ولم يلاعن بالحمل، قلتُ: والظاهر أنه رماها بكلا الأمرين كما يدل عليه ما ذكر البغوي عن ابن عباس وقتادة، ولو كان رماها بالزنى فحسب لم ينف رسول الله ﷺ عنه الولد مع احتمال كون العلوق بوطء آخر من هلال غير وطء الزاني فبحديث هلال لا يثبت جواز اللعان بنفي الحمل فقط، وكذا قول ابن عباس لاعن بين العجلاني وامرأته وكانت حبلى لا يدل على أن الرمي كان بنفي الحمل فقط، بل ما روى ابن سعد في الطبقات في ترجمة عويمر عن عبد الله بن جعفر قال شهدت عويمر بن الحارث العجلاني وقد رمى امرأته بشريك بن سحماء وأنكر حملها فلاعن بينهما رسول الله ﷺ وهي حامل فرأيتُهما يتلاعنان قائمين عند المنبر ثم ولدت فألحق الولد بالمرأة وجاءت به أشبه الناس بشريك بن سمحا، وكان عويمر قد لامه قومه وقالوا امرأةً لا نعلم عليها إلا خيراً فلما جاءت بشبه بشريك عذر الناس، وعاش المولود سنتين ثم مات وعاشت أمه بعده يسيراً وصار شريك بعد ذلك عند الناس بحال سوء يدل على أنه رمى امرأته بالزنى وأنكر حملها مع ذلك، ووجه قول أبي يوسف ومحمد أنه إذا نفى الحمل وجاءت بالولد لأقل من ستة أشهر ظهر وجود الحمل عند الرمي فتحقق القذف عنده فيلاعن عليه، قال أبو حنيفة إذا لم يكن قذفاً في الحال صار كالمعلق بالشرط كأنه قال إن كنت حاملاً فليس حملك مني والقذف لا يصح تعليقه بالشرط.

مسألة: ولو قال زينتِ وحملكِ من الزنى تلاعنا إجماعاً لوجود القذف حيث ذكر الزنى صريحاً ولا ينفي القاضي الحمل عند أبي حنيفة رَحَمَهُ الله، وقال الشافعي ينفيه لأن النبي ﷺ نفى الولد عن هلال وقد قذفها حاملاً، قال أبو حنيفة الأحكام لا يترتب عليه إلا بعد الولادة فتمكن الاحتمال قبله والحديث محمول على أن النبي ﷺ عرف وجود الحمل بطريق الوحي، قلتُ: وهذا القول بعيد جداً لأن النبي ﷺ إنما كان يحكم على ظاهر الأمر حتى يقتدي به ولم يكن يحكم بالحكم الحاصل بالوحي وإلا لم يقل أحدكما كاذب ويحكم بكذب واحد معين بالوحي.

مسألة: إذا نفى الرجل ولد امرأته عقيب الولادة فعند الشافعي إن نفى حين سمع الولادة فوراً صح نفيه ولاعن به وإن سكت ثم نفى لاعن وثبت النسب، وقال أبو حنيفة صح نفيه حالة التهنئة ولم يعين لهامدة في ظاهر الرواية وذكر أبو الليث عن أبي حنيفة تقديرها بثلاثة أيام، وروى الحسن عنه سبعة أيام وقال أبو يوسف ومحمد صح نفيه في مدة النفاس، وكان القياس أن لا يجوز النفي إلافوراً لأن السكوت دليل الرضا إلا أنا استحسنا جواز تأخيره مدة يقع فيها التأمل لئلا يقع في نفي ولده عن نفسه أو استلحاق ولد غيره بنفسه وكلاهما حرام، عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول لما نزلت آية الملاعنة «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله جنته، وأيّما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»(١) رواه أبو داود والنسائي والشافعي وابن حبان والحاكم وصححه الدارقطني، وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «من ادعى أباً في الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام»(٢).

مسألة: لو كان الزوج غائباً يعتبر المدة التي ذكرناها على الأصلين بعد قدومه فعندهما قدر مدة النفاس وعنده قدر مدة قبول التهنئة.

مسألة: جاز للزوج قذف زوجته علم زناها أو ظنه ظناً مؤكداً كشياع زناها بزيد مع قرينة بأن رآهما في خلوة لو أتت بولد علم أنه ليس منه بأنه لم يطأها، أو ولدت لدون ستة أشهر من وقت وطئها أو فوق سنتين، ولو ولدت لما بينهما ولم تستبرئ بحيضة حرم النفي، ولو ولدت لفوق ستة أشهر من الاستبراء حل النفي.

مسألة: ولو وطيء وعزل أو علم زناها واحتمل كون الولد منه ومن الزنى حرم النفي والله أعلم.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يعود بالرحمة على من

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق باب ٢٩، والنسائي في الطلاق باب ٤٧، والدارمي في النكاح باب ٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٥، والفرائض باب ٢٩، ومسلم في الإيمان حديث ١١٤، وأحمد في المسند ٢/١١٨، ٥/٣٨، ٤٦.

يرجع من المعاصي بالندم والاستغفار ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض عليكم من الحدود وفي غيرها، جواب لولا محذوف لتعظيمه أي لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

أخرج الشيخان وغيرهما عن الزهري قال: أخبرني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فَبَرَّأها الله مما قالوا وكلٌّ حدثني طائفةً من الحديث وبعض حديثهم يصدق بعضاً وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، الذي حدثني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيَّتهن خرج سهمها خرج بها فأقرع بيننا في غزوة غزاها[١] فخرج سهمي فخرجتُ وذلك بعدما نزل الحجاب فكنتُ أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل دنونا من المدينة قافلين أذن ليلةً بالرحيل فقمتُ فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلمَّا قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي فلمستُ صدري فإذا عقد من جزع أظفار[٢] قد انقطع فرجعتُ فالتمستُ عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي أركب عليه وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رحلوه ورفعوه وكنتُ جاريةً حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمر الجيش فجئتُ منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب فتيممتُ منزلي الذي كنت فيه فظننتُ أن القوم سيفقدوني

---

(١) هي غزوة بني المصطلق في السنة السادسة ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٢) الأظفار جنس من الطيب لا واحد له من لفظه وقيل واحده ظفر وقيل هو من العطر أسود والقطعة منه شبيهة بالظفر وجزع اظفار هكذا روى وأريد به العطر المذكور كان يؤخذ ويثقب ويجعل في العقد والقلادة ـ والصحيح في الروايات أنه من جزع ظفار بوزن قطام وهي اسم مدينة لحمير باليمن ـ والجزع ظفار الخرز اليماني ـ نهاية ـ حاصل أنه جزع ظفار ظفار الغيم يعني وجزع أظفار عقيق يماني ـ ١٢ ـ منه رحمه الله ـ.

فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمتُ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني فخمرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمةً ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه وقد أناخ راحلته فوطىء على يدها فقمتُ إليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موعرين[١] في نحر الظهيرة فهلك من هلك في شأني.

وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمتُ المدينة فاشتكيتُ حين قدمنا شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أن لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي إنما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم ثم ينصرف فذلك يريبني ولا أشعر بالسر، حتى خرجتُ حين نقهت فخرجتُ مع أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً وذلك قبل أن يتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، قالت فانطلقتُ أنا وأم مسطح (وهي ابنة أبي دهم بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة) فأقبلتُ أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها قبل المناصع، فقالت تعس[٢] مسطح، فقلتُ: لها بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي بنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلتُ ماذا قال فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعتُ إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: كيف تيكم؟ قلتُ: أتأذن لي أن آتي أبويَّ، وأنا أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لي فجئتُ أبوي وقلتُ لأمي يا أماه ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوني عليك فوالله لقل ما كانت امرأة قط وضيئة[٣] عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قلتُ سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا فبكيت تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحتُ أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأمَّا أسامة فأشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله وفي رواية بالذي يعلم بهم في نفسه من الود فقال أسامة يا رسول الله أهلك[٤] ولا نعلم إلا خيراً، وأما عليٌّ فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثيرة وإن تسأل الجارية تصدقك، فدعا بريرة

---

(١) وفي الصحيح للبخاري رحمه الله موغرين بالغين المعجمة لا بالعين المهملة قال في مجمع البحار موغرين من وغرت الهاجرة وأوعر الرجل دخل في ذلك الوقت ووغر صدره إذا اغتاظ أو حمى و أوغره غيره قال وروى موعرين بعين مهملة على ضعف انتهى ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٢) في مجمع البحار تعس مسطح أي عثر وانكب لوجهه هو بفتح عين وكسرها انتهى ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٣) الوضاءة الحسن والبهجة.

(٤) أهلك بالنصب أي أمسك أهلك أو بالرفع أي هم أهلك ـ الفقير الدهلوي ـ.

فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق ما رأيتُ عليها أمراً قط أغمصه[١] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن[٢] فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي، قالت فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه (أخو بني عبد الأشهل) يا رسول الله أنا أعذرك[٣] فإن كان من الأوس اضرب عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت وقام رجلٌ من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، قالت وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من أهلك ما أحسب أن تقتله، فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر[٤] الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فبكيتُ يومي ذلك لا يرقأ[٥] لي دمع ثم بكيتُ تلك الليلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنتُ لها فجلست تبكي معي، ثم دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل قبلها وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء. قالت: فتشهد ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريَّةً فسيبرئك الله وإن كنت ألممتِ بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه» فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص[٦] دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلتُ لأبي أجب رسول الله ﷺ فيما قال فقال والله ما أدري ما أقول، فقلت لأمي أجيبي رسول الله ﷺ فقالت والله ما أدري ما أقول، فقلتُ (وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن) والله لقد عرفتُ لقد سمعتُم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ولئن قلتُ لكم إني بريَّة والله يعلم إني برية لا تصدقوني ولئن اعترفتُ لكم بأمر والله يعلم إني منه بريَّة لتصدقوني والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما

(١) أعيبها وأطعن به عليها.

(٢) الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.

(٣) أنا أعذرك ـ يعني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني فقال سعد أنا ـ نهاية منه رحمه الله تعالى ـ.

(٤) لعمر الله قال القسطلاني هو بفتح العين أي وبقاء الله ـ انتهى ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٥) أي لا يسكن.

(٦) أي ارتفع.

تصفون ثم تحولت فاضطجعتُ على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريَّة وإن الله مبرئني ببراءتي ولكن ما كنت أظن إن الله منزل في شأني وحياً يُتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يُتلى ولكن أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام(١) رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء(٢).

حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه، فلما سري عنه سري عنه وهو يضحك وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك، فقالت لي أمي قومي إليه فقلتُ: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله وهو الذي أنزل براءتي(٣).

وأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ عشر آيات، والإفك أبلغ ما يكون من الكذب وهو في الأصل الصرف والقلب وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء والدعاء لما كانت عليه من الحصانة(٤) والشرف ولما كانت بنتاً للصديق زوجاً للرسول ﷺ للمؤمنين واجبة الإكرام والاحترام فمن رماها بسوء قلب الأمر عن وجهه غاية القلب ﴿عُصۡبَةٞ﴾ وهي جماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين لا واحد لها من لفظها كذا في النهاية ﴿مِّنكُمۡ﴾ يعني من المؤمنين، روى البخاري وغيره عن عائشة كانت تقول: أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها لم تقل إلا خيراً وأما أختها حمنة فهلكت فيمن هلك، وكان الذي يتكلم مسطح وحسان بن ثابت وعبد الله بن أبي المنافق وهو الذي كان يستوشيه(٥) ويجمعه، وقال البغوي قال عروة لم يسم من أهل الإفك إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى، قال عروة وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول إنه الذي قال(٦) (شعر):

فإنَّ أبي وأمي وأولادي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء(٧)

﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين غير العصبة فإن شتم عائشة كان راجعاً إلى

---

(١) ما رام: أي ما فارق مجلسه.

(٢) شدة الكرب من ثقل الوحي.

(٣) حديث الإفك أخرجه البخاري في الهبة باب ١٥، والجهاد باب ٦٤، والشهادات باب ١٥، ٣٠، والمغازي باب ٣٤، وتفسير سورة ٢٤، باب ٦، والنكاح باب ٩٧، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٨٨، والتوبة باب ٥٦، والنكاح حديث ٣٨، وابن ماجه في النكاح باب ٤٧، والأحكام باب ٢٠، والدارمي في الجهاد باب ٣٠، والنكاح باب ٢٦، وأحمد في المسند ٦/ ١١٤، ١١٧، ١٩٧، ٢٦٩.

(٤) العفة.

(٥) أي يستخرج الحديث.

(٦) البيت من الوافر، وهو في ديوان حسان بن ثابت ص٧٦.

(٧) الصحيح من الرواية فإن أبي ووالدتي وعرضي + لعرض محمد منكم وقاء ـ الفقير الدهلوي ـ.

النبي ﷺ فيسوءه ويسوء جميع المؤمنين فإن كان أبوهم ﷺ يعني لا تزعموه ﴿شَرًّا لَّكُم﴾ حيث يأمركم على ذلك ويظهر كرامتكم على الله وينزل على رسوله في براءتها وتعظيم شأنها وتهويل الوعيد لمن تكلم بالإفك ما يتلى في المحاريب إلى يوم القيامة، وجملة ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ مستأنفة كأنه في جواب ما شأن هذا الإفك، أو معترضة للتسلية ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي من العصبة الكاذبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه كان بعضهم افترى وأحب أن يشيع وبعضهم تكلم به بعدما سمع من غيره وبعضهم ضحك ولم يتكلم وبعضهم سكت من غير رد، الموصول فاعل للظرف أو مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه والجملة صفة لعصبة وخبر ثان لإن.

قال البغوي: روي أن النبي ﷺ أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا الحدود جميعاً ثمانين ثمانين، قلتُ بالحد والفضيحة جزاؤهم في الدنيا وجزاؤهم في الآخرة على ما أراد الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ قرأ يعقوب بضم الكاف والعامة بكسرها قال الكسائي هما لغتان أي تحمّل معظمه يعني بدأه وأذاعه عداوةً لرسول الله ﷺ وتعييراً للمؤمنين، قال البغوي روى الزهري عن عائشة ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قالت هو عبد الله بن أبي بن سلول والعذاب العظيم هو النار في الآخرة، وروى ابن أبي مليكة عن عروة عن عائشة في حديث الإفك قالت: ثم ركبتُ وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس فقال عبد الله بن أبي رئيسهم من هذه؟ قالوا عائشة قال: والله ما نجت منه وما نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها، وقيل: المراد بالذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول وحسان ومسطح وحمنة وهذا القول ضعيف ولو كان كذلك لقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ وأيضاً كان مسطح وحسان ممن شهد بدراً وقد غفر الله لأهل بدر ما تقدم من ذنبهم وما تأخر وقد قال رسول الله ﷺ لأهل بدر «اعملوا ما شئتم فإن الله قد غفر لكم»(١) وقد قال الله تعالى في حق جميع الصحابة ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] يعني الجنة، وهذه الآية لا ينافي العذاب لأن دخول الجنة قد يكون بعد التعذيب، وقال قوم هو حسان بن ثابت. روى البخاري عن مسروق قال دخلتُ على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشرها شعراً يشبب بأبيات له(٢) (شعر):

حصان(٣) رزان ما تُزَنُّ بريبةٍ وتصبح غرثى من لحوم الغوافلِ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٦٠، باب ١، وأبو داود في السنة باب ٨، والجهاد باب ٩٨، والترمذي في تفسير سورة ٦٠، باب ١.

(٢) البيت من الطويل، وهو في ديوان حسان بن ثابت ص٢٢٨.

(٣) الحصان المرأة العفيفة ـ الرزان امرأة ذات ثبات ووقار وسكون ـ والرزانة في الأصل الثقل لا تزن أي لا تتهم والزنة التهمة ـ غرثى المرأة الجائعة يعني زينست عفيفه با وقار وسكيفه بتهمت كرده نميشوه بزيكه موجب شكب باشد وصبح مي كنردر حاليكه خاليست شكم اوازگوشت زنان غافلات يعني غيبت ميكس نميكند ١٢ منه رحمه الله ـ

فقالت له عائشة لكنك لست كذلك قال مسروق فقلت لها لَم تأذني[1] له أن يدخل عليك وقد قال الله: ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأيُّ عذاب أشد من العمى وقد كان يرد عن رسول الله ﷺ يعني كان يهجو المشركين إذا كانوا يهجون رسول الله ﷺ، وعلى هذا المراد بالعذاب العظيم عذاب الدنيا ولكن الصواب هو الأول.

﴿لَّوْلَآ﴾ هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي حديث الإفك من المنافقين أيها العصبة المؤمنة ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي بأهل دينهم من المؤمنين والمؤمنات يعبر من أهل الدين بالأنفس كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] وقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] لأن المؤمنين وأهل كل دين من الأديان كنفس واحدة ﴿خَيْرًا﴾ كان حق الكلام لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً فعدل من الخطاب إلى الغيبة مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي حسن الظن بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبون عن أنفسهم، وإنما جاز الفصل بين لولا وفعله بالظرف لأنه نازل منزلته من حيث إنه لا ينفك عنه ولذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وإنما قدم الظرف لأن ذكر الظرف أهم فإن التخصيص على أن لا يخلو بأوله ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كما يقول المستيقن المطلع على الحال لأن الإيمان سبب للمدح والتعظيم، فمن أتى بالسب والطعن فقد أفك الأمر وقلبه وصار عاصياً فاسقاً بالافتراء أو الغيبة وشهادة الفاسق غير مقبولة.

مسألة: من ها هنا يظهر أن حسن الظن بالمؤمنين واجب لا يجوز تركه ما لم يظهر بدليل شرعي خلاف ذلك.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ﴾ أي على ما زعموا ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ حتى يجب الحد على المقذوف ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟﴾ الأربعة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ في ادعائهم الحسبة فإن من رمى أحداً بالفاحشة فإن أتى بالشهداء (حتى حد المقذوف) يحتمل كون إرادته بالرمي الزجر عن المعاصي وإن لم يأت بالشهداء فلا وجه لقذفه إلا إشاعة الفاحشة على المسلم دون إقامة حد شرعي فهو كاذب في دعواه الحسبة، وقيل: معنى الآية: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وشريعته ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ حتى أوجب عليهم حد القذف فعلى هذا الظرف متعلق بمضمون قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ والمعنى فإذا لم يأتوا بأربعة شهداء يقام عليهم الحد لكونهم من الكاذبين حكماً، قال البغوي روي عن عائشة أنه لما نزلت هذه الآيات حدَّ النبي ﷺ أربعة نفر عبد الله بن أبي وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش.

---

(١) وفي الصحيح للبخاري قلت: رأى قال مسروق قلة لعائشة، تدعين (بحذف همزة الاستفهام أي تتركين) فما قاله المفسر رحمه الله تعالى لا يستقيم بوجه لأن لم الاستفهامية لا تجزم المضارع وعلى جعل قوله لم تأذني نهيًا لا يمكن أن تقام لم الجازم مقام لا للنهي فالأولى أن يقال إن الصحيح من المفسر رحمه الله تعالى لم تأذنين استفهام والغلط من الناسخ والله تعالى أعلم ـ الفقير الدهلوي ـ.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المؤمنون بالنبي ﷺ ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بأنواع النعم التي من جملتها التوفيق للإسلام وإدراك صحبة النبي ﷺ التي هي مانعة من نزول العذاب والإمهال والتوبة ولولا فضله ورحمته في ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حتى وعدكم فيها بالعفو والمغفرة والحسنى إلى الجنة ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾ أيها العصبة في الدنيا والآخرة ﴿فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ﴾ أي لأجل ما خضتم ﴿فِيهِ﴾ من الإفك، قيل الإفاضة بمعنى الإشاعة يقال خبر مستفيض أي شائع ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كما مس عاداً وثمود وقوم لوط والمؤتفكات في الدنيا ما أوجب الاستئصال وفي الآخرة ما لا انقطاع له ولا عذاب فوقه، هذه الآية في شأن المؤمنين من أهل الإفك وبهذا يظهر أن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هم محضر بأهل النفاق منهم وهو عبد الله بن أبي ومن كان معه من المنافقين كزيد بن رفاعة فإن لولا لامتناع الشيء لوجود غيره، فهذه الآية تدل على امتناع العذاب لوجود الفضل والرحمة وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ يدل على ثبوت العذاب لهم.

﴿إِذۡ﴾ ظرف لمسكم أو أفضتم ﴿تَلَقَّوۡنَهُۥ﴾ حذفت إحدى التاءين من تتلقونه ﴿بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ أي يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، قال الكلبي وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغني كذا وكذا يعني فماذا شأنه فيتلقونه تلقياً، وقال مجاهد يرويه بعضهم من بعض، وقال الزجاج تلقاه بعضكم من بعض وقرأت عائشة إذ تلقونه بكسر اللام وتخفيف القاف من وَلِقَ يَلِقُ ولقاً بمعنى الكذب ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ أي تقولون كلاماً مختصاً بالأفواه لا مصداق لها في الخارج وليس لكم به علم لأن العلم فرع الوجود في الخارج ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ﴾ أي خوضكم في الإفك ﴿هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تبعة له ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ يعني والحال أنه عند الله عظيم في الوزر واستجرار العذاب فإن قذف المحصنات من كبائر الذنوب وعامة العذاب بما صدر من الألسن لا سيما ما فيه هتك حرمة الرسول، عن معاذ بن جبل قال: قلتُ: يا رسول الله: «أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسر الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت»، ثم قال «ألا أدلك على أبواب الخير»؟ الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] حتى بلغ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ثم قال: «ألا أدلك برأس الأمور وعموده وذروة سنامه»؟ قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله»؟ قلت: بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه وقال: «كف عليك هذا»، قلتُ: يا نبيَّ الله وإنَّا مؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه ﴿وَلَوۡلَآ﴾ هلا ﴿إِذۡ

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ٨، وابن ماجه في الفتن باب ١٢، وأحمد في المسند ٥/٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٧.

﴿سَمِعۡتُمُوهُ﴾ أيها المؤمنون هذا الإفك والكلام الباطل من المنافقين ﴿قُلۡتُم﴾ رداً عليهم فصل بين لولا ولا وفعله بالظرف لأنه يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وفائدة تقديم الظرف بيان أن الواجب هذا القول على فور الإسماع بالإفك فلما كان ذكر الوقت أهم قدم به ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ أي ما يصح ولا ينبغي لنا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يجوز أن يكون الإشارة بهذا إلى المخصوص وأن يكون إلى نوعه، فإن تعرض[1] الصديقة بنت الصديق حرم رسول الله ﷺ أشد على النفوس السليمة مع أن قذف أحد من المحصنين محرم شرعاً يوجب الفسق والجلد ورد الشهادة أبداً ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ اللهم يعني تنزه الله تعالى من أن يكون حرم نبيه فاجرة فإن فجورها يرجع بالسوء والسباب إلى الزوج، والنبي مبعوث إلى الكفار ليدعوهم فيجب أن لا يكون معه ما ينفرهم عنه فجاز أن يكون امرأة النبي كافرة كما كانت امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام ولا يجوز أن يكون فاجرة فهذا تقرير لما قبله وتمهيد لقوله: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ﴾ أي زور يبهت من يسمع ﴿عَظِيمٞ﴾ لعظمة المبهوت عليه فإن حقارة الجنايات وعظمها باعتبار المجنى عليه.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ الوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب يعني يذكركم الله عقابه ويخوفكم في ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ﴾ لمثل هذا القول القبيح واستماعه ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء أو المعنى يزجركم ويخوفكم من مثل هذا القول كراهة ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ﴾ أبداً وقال مجاهد ينهاكم الله أن تعودوا لمثله أبداً وجملة يعظكم صفة لبهتان عظيم أو معترضة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني إن كنتم مؤمنين فاتعظوا ولا تعودوا لمثله أبداً فإن الإيمان يمنع عنه فمن سب عائشة وهم الروافض ليسوا مؤمنين ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾ الدالة على الشرائع من الأوامر والنواهي ومحاسن الآداب والأخلاق ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمحاسن والمقابح فيأمر بالمحاسن وينهى عن المقابح أو عليم بالأحوال كلها بأمر عائشة وبراءتها وأمر القاذفين وكذبهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدابيره لا يجوز نسبة السوء إلى نبيه ولا يقرره عليها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾ وهي ما قبح جداً ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بالنار ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ في الضمائر من الحسبة أو إشاعة الفاحشة فيعذب من يريد إشاعة الفاحشة ﴿وَأَنتُمۡ﴾ أيها الناس ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك فعليكم اتباع ظاهر الأمر فمن قذف وكان له شهود أربعة فأحسنوا الظن به واعلموا أنه إنما أظهر أمر الزنى حسبة لإقامة حد من حدود الله وإخلاء العالم عن الشر، ومن لم يجد الشهود فاعلموا أنه يحب إشاعة الفاحشة حيث لا يمكنه إقامة الحد فعذبوه بحد القذف وهو في حكم الله من الكاذبين حتى أوجب عليه حد المفترين وإن كان صادقاً في الواقع ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ أيها المؤمنون الخائضون في أمر عائشة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ بكم لعذبكم في الدنيا بالاستئصال وفي الآخرة بالنار المؤبدة لكن الله غفر لكم ببركة صحبة نبيه ﷺ مع الإيمان حذف جواب

(١) هكذا في الأصل ولعل الأحسن فإن التعريض أو التعرض بالصديقة إلخ ـ الفقير الدهلوي ـ.

لولا استغناءً بذكره مرة، وكرر التخويف والامتنان للدلالة على عظم الجريمة، قال ابن عباس أراد الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ الآية عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ الحد وفي الآخرة النار المؤبدة وأراد بقوله: ولولا فضل الله عليكم مسطحاً وحسان وحمنة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي آثاره بإشاعة الفاحشة، قرأ نافع والبزي وأبو عمرو وأبو بكر وحمزة[1] خطوات بسكون الطاء والباقون بضمها وقرىء بفتح الطاء ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي ما أفرط قبحه عقلاً ونقلاً ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي ما أنكره الشرع، بيان لعلة النهي عن اتباعه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أيها المؤمنون من العصبة بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها ﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طهر من معصية الإفك ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من زائدة ومحله الرفع ﴿أَبَدًا﴾ آخر الدهر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ بحمله على التوبة وقبولها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

روى الشيخان وغيرهما في حديث الإفك قال أبو بكر الصديق (وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره) والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي لا يحلف افتعال من الألية بمعنى القسم أو المعنى لايقصر من الألو بمعنى التقصير، والأولى ها هنا معنى القسم لما ذكرنا أن أبا بكر كان قد أقسم ويؤيده قراءة أبي جعفر ولا يتألّ بتقديم التاء وتأخير الهمزة من التفعيل[2] من الألية ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ﴾ في الدين وهو الظاهر كيلا يلزم التكرار بقوله والسعة ولأن النهي إنما هو لأهل الفضل في الدين نظراً إلى منزلتهم وفضلهم وإلا فترك بذل ماله في مقابلة الإيذاء ليس

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) بل من التفعل، كالتجلي والتمني ـ الفقير الدهلوي.

بمحرم مؤثم ﴿مِنكُمْ﴾ يعني أبا بكر وأمثاله وفيه دليل على فضل أبي بكر وشرفه، أو المعنى ولا يترك أولو الفضل منكم ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ يعني الغنا في الدنيا فإن النفقة عن ظهر غني ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ أي على أن يؤتوا أو في أن يؤتوا ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني مسطحاً وأمثاله فهي صفات لموصوف واحد أي ناساً جامعين لهذه الصفات أو الموصوفين أقيمت الصفات مقام موصوفيها فيكون أبلغ في تعليل المقصود لأن مسطحاً كان مسكيناً مهاجراً بدرياً ابن خالة أبي بكر ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ ما فرط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغماض عنه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يا أولي الفضل والسعة ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ما فرطتم في جنب الله لأجل عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كثرة آلائه وحقوقه وكمال قدرته على الانتقام فتخلقوا بأخلاقه، روى الشيخان وغيرهما في ذلك القصة أنه لما نزل هذه الآية، قال أبو بكر والله إني أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه قال والله لا أنزعها منه أبداً، عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل المكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»(١) رواه البخاري.

قال ابن عباس والضحاك أقسم ناس من الصحابة منهم أبو بكر أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا ينفعوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفيفات ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفاحشة اللائي لا تقع الفاحشة في قلوبهم ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله ورسوله ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ لما طعنوا فيهن كذباً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في نار جهنم ولهذا حكم كل قاذف قذف محصنة مؤمنة غافلة وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ الآية حكم كل قاذف محصنة غافلة كانت أو لا، فالجلد وعدم قبول الشهادة حكم كل قاذف سواء كان في قذفه صادقاً لم يجد الشهود أو كان كاذباً واللعن يختص بمن قذف كاذباً فإن المقذوفة غافلة عما افترى عليها فإن جريمته أعظم وأكبر لكنه لا يستلزم الكفر إذ اللعن منها ما يستحقه بعض من ارتكب الكبائر دون الكفر كقاتل النفس عمداً، وقال مقاتل: هذا الحكم خاص في عبد الله بن أبي ومطمح نظره أن اللعن يختص بالكفار، أخرج الطبراني عن خصيف قال: قلتُ لسعيد بن جبير أيهما أشد الزنى أو القذف؟ قال: الزنى، قلت: إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ قال ذلك لعائشة خاصةً، وفي إسناده يحيى الحماني ضعيف وكذا ذكر البغوي عن خصيف، وروي عن العوام بن حوشب عن شيخ من بني كاهل عن ابن عباس قال هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصةً ليس فيها توبة، ومن قذف امرأةً مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة، وكذا أخرج الطبراني عن الضحاك بن مزاحم أن الآية

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٥، وأبو داود في الزكاة باب ٤٥، والترمذي في البر باب ١٠، وأحمد في المسند ٢/١٦٣، ١٩٠، ١٩٣.

في نساء النبي ﷺ خاصةً وقال الآخرون نزلت هذه الآية في أزواج النبي ﷺ وكان ذلك كذلك حتى نزلت الآية التي في أول السورة: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة، قلتُ: ومبنى هذه الأقوال أمران:

أحدهما: أن سبب نزول الآية كان قصة الإفك.

وثانيهما: أن اللعن لم يرد في شيء من المعاصي غير الكفر لكن خصوص السبب لا يقتضي تخصيص عموم الآية والعبرة لعموم اللفظ، واللعن قد ورد على بعض الكبائر كقتل النفس عمداً وعدم ذكر التوبة والمغفرة في هذه الآية لا يقتضي عدم قبول التوبة وعدم المغفرة مطلقاً وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلا وجه لتخصيص عموم الآية والله أعلم.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ قرأ حمزة والكسائي[١] بالياء التحتانية لتقدم الفعل والفصل والباقون بالتاء الفوقانية والظرف متعلق بما في لهم من معنى الاستقرار لا للعذاب لأنه موصوف ﴿عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال: «يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربُّه عمَله فيما بينه وبينه فيعترف ويقول: أي رب عملت عملتُ فيغفر الله ذنوبه ويستره منها، قال فما على الأرض خليقة يرى من تلك الذنوب شيئاً وتبدو حسناته فرؤوا الناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربُّه عملَه فيجحده فيقول: أي رب وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل فيقول الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك فإذا فعل ذلك ختم على فيه، قال أبو موسى فإني أحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ثم تلا ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] الآية، وأخرج أبو يعلى والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ نحوه، وأخرج أحمد بسند جيد والطبراني عن عقبة بن عامر سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال»[٢] وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ قال: «يجيئون يوم القيامة على أفواههم فأول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه»[٣] وروى مسلم عن أبي هريرة حديثاً طويلاً في رؤية الله سبحانه[٤]

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٥١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣.

(٤) وقد راجعت الصحيح لمسلم ولم أجده في باب رؤية الله سبحانه وتعالى والحديث المذكور في كتاب الزهد في فصل بيان أن الأعضاء منطقة شاهدة يوم القيامة في المجلد الثاني من الصحيح لمسلم رحمه الله تعالى ـ الفقير الدهلوي ـ.

وفيه: «فينطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه»[١] فإن قيل قال الله سبحانه ها هنا ﴿تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [طه: ١٠] فما وجه التطبيق؟ قلنا: المراد بقوله نختم على أفواههم إنهم لا ينطقون بإرادتهم وذلك لا ينافي شهادة الألسنة عليهم من غير اختيارهم والله أعلم، قال القرطبي وإنما يشهد الأعضاء على من قرأ كتابه ولم يعترف بما فيه وجحد وخاصم فيشهد عليه جوارحه بسيئاته، قلت: فهذه الآية تدل على أن ما سبق من الآية في عبد الله بن أبي كما قال قتادة والله أعلم.

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ أي جزاءهم الواجب، وقيل: حسابهم العدل ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي الثابت الموجود بذاته موجد الأشياء كلها جواهرها وأعراضها قيوم الحقائق بأسرها وجودات ما سواه كأنها ظلال لوجوده المتأصل الظاهر ألوهيته لا يشاركه في ذلك غيره ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه أو ذو الحق البين أي الظاهر عدله أو المبين ما كان يعدهم في الدنيا، قال ابن عباس وذلك أن عبد الله بن أبي كان يشك في الدين فيعلم يوم القيامة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ قلتُ: لعل معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما أن الناس لا سيما الكفار منهم يزعمون لله وجوداً موهوماً حتى ليسندون الحوادث إلى الدهر أو الكواكب أو نحو ذلك ويحسبون النفع والضر من العباد لا يخافون الله كما يخافون سلاطين الدنيا، فإذا كان يوم القيامة يبدأ لهم: ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ قال أكثر المفسرين معناه الخبيثات من الكلمات يعني كلمات الذم والتحقير والشتم ونحو ذلك يستحقها الخبيثون من الناس والخبيثون من الناس يستحقون الذم ونحو ذلك والطيبات من الكلمات من المدح والثناء والدعاء يستحقها الطيبون والطيبون يستحقون الطيبات فعائشة تستحق الثناء والصلاة والسلام والدعاء دون ما قيل فيه من الإفك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني عائشة وأمثالها ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ فيهم أهل الإفك من الكلمة الخبيثة، وقال الزجاج الخبيثات من الكلمات ككلمة الكفر والكذب وسب الصحابة وأهل البيت وقذف المحصنات وأمثال ذلك للخبيثين من الناس نحو عبد الله بن أبي لا يتكلم بها الطيبون والخبيثون خلقوا وجبلوا لتلك الكلمات الخبيثة والطيبات من الكلمات كذكر الله وتلاوة القرآن والصلاة والسلام على النبي وأهل بيته والدعاء بالمغفرة للمؤمنين والمؤمنات ميسر للطيبين من الناس والطيبون من الناس خلقوا مستعدين للطيبات من الكلمات، (أولئك يعني الطيبين من الناس مبرؤون) من ارتكاب ما قاله أهل الإفك ونحو ذلك فهو ذم للقاذفين ومدح للذين برأهم الله، وقال ابن زيد الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال يعني غالباً والخبيثون من الرجال للخبيثات من

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١٦.

النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء يعني في الأغلب. . . فعائشة طيبة ولذلك اختارها الله تعالى لازدواج رسوله الطيب الطاهر ﷺ: أولئك يعني عائشة وأمثالها مبرؤون مما يقول فيهم أهل الإفك ولو لم تكن عائشة طيبة لما صلحت لمصاحبة النبي ﷺ فكأنَّ هذه الآية بمنزلة البرهان على كذب أهل الإفك، عن هند بن أبي هالة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أبى أن أتزوج أو أزوج إلا أهل الجنة»[1] رواه ابن عساكر ﴿لَهُم﴾ يعني لعائشة وأمثالها من المؤمنين الطيبين ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، قال البغوي روي أن عائشة رضي الله عنها كانت تفتخر بأشياء أعطيتها ولم تعط امرأة غيرها منها أن جبرائيل أتى بصورتها في خرقة من حرير وقال: هذه زوجتك» قلتُ: رواه الترمذي عن عائشة وروي أنه أتى بصورتها في راحته وأن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها وقبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجرها ودفن في بيتها وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحافه ونزلت براءتها من السماء وإنها ابنة خليفة رسول الله ﷺ وصديقة طيبة ووعدت مغفرةً ورزقاً كريماً، وكان مسروق إذا روى عن عائشة قال حدثتني الصديقة ابنة الصديق حبيبة رسول الله ﷺ المرأة من السماء، قال البيضاوي ولو فتشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل في إفك عائشة رضي الله عنها في الصحيحين عن عائشة قالت: «قال لي رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام ثلاث ليال يجيء بك الملك في سَرَقةٍ[2] من حرير فقال لي هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنتِ هي فقلتُ إن يكن هذا من عند الله يمضيه»[3] وفي الصحيحين عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة هذا جبرائيل يقرئك السلام» قلتُ: وعليه السلام ورحمة الله قالت: وهو يرى ما لا أرى»[4] وعنها قالت: إن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ[5]، وقالت إن نساء رسول الله ﷺ كن حزبين فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ فكلمه حزب أم سلمة فقلن لها كلمي رسول الله ﷺ يكلم الناس فيقول من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ فليهد إليه حيث كان، فكلمته فقال: «لا تؤذيني في عائشة فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة» قالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله، ثم إنهن دعون فاطمة رضي الله عنها وعنهن فأرسلن إلى رسول الله ﷺ فكلمته فقال: يا بنية ألا تحبين ما أحب؟ قالت: بلى، قال: «فأحبي هذه»[6] متفق عليه،

---

(١) أخرجه بنحوه المتقي الهندي في كنز العمال ٣١٩٣٩، والسيوطي في الجمع الجوامع ٤٦١٤.

(٢) في سرقة من حرير أي قطعة من جيد الحرير وجمعها سرق مجمع البحار ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٣) أخرجه البخاري في التعبير باب ٢٠، ٢١، ومناقب الأنصار باب ٤٤، والنكاح باب ٣٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧٩، وأحمد في المسند ٦/ ٤١، ١٢٨، ١٦١.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٣٠، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٩١.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٣٠، والهبة باب ٧، ٨، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٨٢.

(٦) أخرجه البخاري في الهبة باب ٨.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»[١] وعن أبي موسى قال ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً[٢]، رواه الترمذي، وعن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحداً أفصح من عائشة[٣]، رواه الترمذي. قال البيضاوي برَّأ الله أربعةً بأربعةٍ برَّأ يوسف بشاهد من أهل زليخا وموسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه ومريم بإنطاق ولدها وعائشة بهذه الآيات مع تلك المبالغات وما ذلك إلا لإظهار منصب الرسول ﷺ وإعلاء منزلته، قلتُ وإظهار منزلتها من الله ورسوله ﷺ والله أعلم.

أخرج الفريابي وابن جرير عن عدي بن ثابت قال: جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟ فنزلت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ التي تسكنونها وليست الإضافة للملك فإن المؤجر والمعير أيضاً لا يدخلان إلا بإذن الساكن ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ يعني حتى تستأذنوا يدل عليه ما روى أنه كان ابن عباس يقرأ ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ وكذلك كان يقرأ أبي بن كعب والأنس في اللغة ضد الوحشة والإبصار والإحساس والعلم، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سورة ابن أخي أبي أيوب قال: قلتُ: يا رسول الله هذا السلام فما الاستئناس؟ قال: يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت، قال في القاموس أنسه ضد وحشه وأنس الشيء أبصره وعلمه وأحسه والصوت سمعه، وقال الخليل الاستئناس الاستبصار من قوله: ﴿ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ [النور: ٣١] أي أبصرتُ وإنما عبر الاستئذان بالاستئناس لأن المستأذن متوحش خائف أن لا يؤذن له فإذا أذن استأنس لأن المستأذن مستعلم للحال مستكشفٌ أنه هل يراد دخوله أو لا، أو استفعال من الأنس يعني متعرف هل ثمة إنسان ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ أي على ساكنيها يعني أن يقولوا السلام عليكم، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «يا بني إذا دخلتَ على أهلك فسلم تكون بركة عليك وعلى أهل بيتك»[٤]. رواه الترمذي. واختلفوا في أنه هل يقدم الاستئذان أو السلام؟ فقال قوم يقدم الاستئذان لتقدمها في الآية ولا دليل فيه لأن الواو لمطلق الجمع دون الترتيب وفي مصحف ابن مسعود، ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ والأكثرون على أنه يقدم السلام لحديث كلدة بن حنبل قال: دخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبي ﷺ؛ «ارجع

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة باب ٢٥، ٣٠، وفضائل الصحابة باب ٣٠، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧٠، ٨٩.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٦٢، (حديث ٣٨٨٣).

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٦٢ (حديث ٣٨٨٤).

(٤) أخرجه الترمذي حديث ٢٦٩٨.

فقل السلام عليكم أأدخل»[١] رواه أبو داود والترمذي، وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «لا تأذنوا لمن لم يبدأ بالسلام»[٢] رواه البيهقي في شعب الإيمان، قال البغوي عن ابن عمر أن رجلاً استأذن عليه فقال: أأدخل؟ فقال ابن عمر لا فأمر بعضهم الرجل أن يسلّم فَسلَّمَ فأذن له، وقال بعضهم إن وقع بصره على إنسان قدم السلام وإلا قدم الاستئذان ثم سلَّم، وقال أبو موسى الأشعري وحذيفة يستأذن على ذوات المحارم، ومثله عن الحسن عن عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أستأذن[٣] على أمي؟ فقال: «نعم»، فقال الرجل إني معها[٤] في البيت، فقال رسول الله ﷺ استأذن عليها فقال الرجل أني خادمها فقال رسول الله ﷺ استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانةً؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها[٥]، رواه مالك مرسلاً.

مسألة: إذا دعي أحد فجاء مع الرسول فلا حاجة إلى الاستئذان لحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن»[٦] رواه أبو داود وفي رواية له رسول الرجل إلى الرجل إذنه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أن تدخلوا بغتةً أو من تحية الجاهلية عن عمران بن حصين قال: كنا في الجاهلية نقول: أنعم الله بك عيناً وأنعم صباحاً فلما كان الإسلام نهينا عن ذلك، رواه أبو داود ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ أي في البيوت ﴿أَحَدًا﴾ يأذن لكم ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يعني حتى يأتي ساكنها ويأذن لكم في الدخول فإن المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط بل وعلى ما يخفيه الناس من الناس، مع أن التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور واستثنى ما إذا عرض فيه حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوها ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ولا تلحوا في الدخول ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي الرجوع أزكى لكم من الإلحاح في الدخول والوقوف على الباب لما فيه من الكراهة وترك المروءة، وفي حكم الأمر بالرجوع أن لا يأذن له صاحب البيت بعد الاستئذان ثلاث مرات لحديث أبي سعيد الخدري قال: أتانا أبو موسى فقال إن عمر أرسل إليَّ أن آتيه فأتيتُ بابه فسلمتُ ثلاثاً فلم يرد علي فرجعتُ فقال: ما منعك أن تأتينا؟ فقلتُ: إني أتيتُ فسلمتُ على بابك ثلاثاً فلم ترد عليَّ فرجعت وقد قال لي رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»، فقال: عمر أقم عليه البينة، قال أبو سعيد فقمتُ معه فذهبتُ إلى عمر فشهدت[٧] متفق عليه. وعن

---

(١) أخرجه أبو داود حديث ٥١٧٦، والترمذي حديث ٢٧١٠، وأحمد في المسند ٣/ ٤١٤.
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٥٣٣٧.
(٣) استأذن بتقدير همزة الاستفهام ـ الفقير الدهلوي ـ.
(٤) إني معها إلخ يعني أن الاستيذان إنما يكون لأجنبي يدخل أحيانًا. ـ ١٢ الفقير الدهلوي ـ.
(٥) أخرجه مالك في الاستئذان حديث ١.
(٦) أخرجه أبو داود حديث ٣٧٣٦.
(٧) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ١٣، ومسلم في الآداب حديث ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٧.

أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً التسليم أن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فإن أذن له دخل وإلا رجع[١]، رواه ابن ماجه، قال البغوي ورواه بشر بن سعيد عن أبي سعيد الخدري وفيه قال: قال أبو موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع» قال الحسن الأول إعلام والثاني مؤامرة والثالث استئذان بالرجوع، وعن أنس أن رسول الله ﷺ: استأذن على سعد بن عبادة فقال: «السلام عليكم ورحمة الله» فقال سعد وعليكم السلام ورحمة الله ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمتَ تسليمةً إلا هي بإذني ولقد رددت عليك ولم أسمعك أحببتُ أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم دخلوا البيت فقرب له زبيباً فأكل النبي ﷺ، فلمَّا فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون»[٢] رواه البغوي في شرح السنة.

مسألة: إذا حضر أحد على باب أحد فلم يستأذن وقعد على الباب منتظراً حتى يخرج جاز، كان ابن عباس يأتي باب الأنصاري لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن فيخرج الرجل ويقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ لو أخبرتني فيقول هكذا أمرنا أن نطلب العلم، قلتُ: ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٥].

مسألة: إذا وقف أحد على باب أحد للاستئذان لا يستقبل الباب من تلقاء وجهه إذا لم يكن هُناك ستر ولا ينظر من شق الباب إذا كان مردوداً لحديث عبد الله بن بسر قال: كان رسول الله ﷺ: «إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: السلام عليكم السلام عليكم وذلك أن الدور لم يكن يومئذ عليها ستور»[٣]، رواه أبو داود وعن سهل بن سعد الساعدي أن رجلاً اطلع على النبي ﷺ من ستر الحجرة وفي يد النبي ﷺ مدرى[٤] فقال: «لو أعلم أن هذا ينظرني لطعنتُ بالمدرى في عينه وهل جعل الاستئذان إلا من أجل البصر»[٥] رواه البغوي، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أمرءاً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح»[٦] رواه أحمد والشيخان في الصحيحين ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتونه وما تذرونه مما خوطبتم به.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب باب ١٧.

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه في الصيام باب ٤٥، والدارمي في الصوم باب ٥١، وأحمد في المسند ٣/ ١١٨، ١٣٨، ٢٠١.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٢٨.

(٤) المدرى والمدراة: شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط، أطول منه.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٣٥، والطبراني في المعجم الكبير ٦/ ١٣٢، والبغوي في شرح السنة ١٠/ ٢٥٣.

(٦) أخرجه البخاري في الديات باب ١٥، ٢٣، ومسلم في الأدب حديث ٤٤، والنسائي في القسامة باب ٤٨، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٣.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال: لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال أبو بكر يا رسول الله فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ولهم بيوت معلومة على الطريق؟ فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان؟ فأنزل الله عز وجل ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا﴾ أي في أن تدخلوا متعلق بجناح لتضمنه معنى المؤاخذة أو بعليكم ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ من غير استئذان ﴿فِيهَا مَتَاعٌ﴾ أي منفعة ﴿لَّكُمْ﴾ حال من بيوتاً، قال البغوي اختلف في هذه البيوت؟ قال قتادة هي الحانات والبيوت والمنازل المبنية للسائلة ليأووا إليها ويأووا إليها أمتعتهم جاز دخولها بغير استئذان فالمنفعة فيها النزول وإيواء المتاع والاتقاء من الحر والبرد، وقال ابن زيد هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالأسواق يدخلها الناس للبيع والشراء وهو المنفعة، وقال إبراهيم النخعي ليس على حوانيت السوق أذن، وكان ابن سيرين إذا جاء إلى الحانوت التي في السوق يقول السلام عليكم أأدخل ثم يلج، وقال عطاء هي البيوت الخربة والمتاع هي قضاء الحاجة فيها من البول والغائط، وقيل: هي جميع البيوت التي لا ساكن لها لأن الاستئذان إنما شرع لئلا يطلع على عورة أحد فإذا لم يخف ذلك فله الدخول من غير استئذان ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد لمن دخل لفساد أو اطلاع على عورات الناس.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، عن الحسن مرسلاً قال بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الناظر والمنظور إليها»[١] رواه البيهقي في شعب الإيمان، يغضوا صيغة أمر بحذف اللام ومن زائدة على قول الأخفش فإنه يجوز زيادة من كلام الموجب عنده وعند سيبويه من للتبعيض لأن المؤمنين غير مأمورين بغض الأبصار مطلقاً بل بالغض عما لا يحل النظر إليه بل المنهي عنه النظرة الثانية التي يكون بالإرادة دون الأولى التي لا تكون بالإرادة لحديث بريدة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»[٢]. رواه أحمد والترمذي وأبو داود والدارمي، وعن جرير بن عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن

---

(١) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٣١٢٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٩١٦٢، والعجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٥٧٠.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٤٣، والترمذي في الأدب باب ٢٨، والدارمي في الرقاق باب ٣، وأحمد في المسند ٥/ ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٧.

أصرف»(١) رواه مسلم، وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادةً يجد حلاوتها»(٢) رواه أحمد ﴿وَيَحْفَظُواْ﴾ أي ليحفظوا ﴿فُرُوجَهُمْ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون: ٦] ولما كان الاستثناء معلوماً بالضرورة عقلاً ونقلاً حذف من اللفظ، قال: أبو العالية كل ما وقع في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنى والحرام إلا في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع البصر عليه، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»، قلتُ: يا رسول الله أفرأيت إذا كان الرجل خالياً؟ قال «فالله أحق أن يستحيى منه»(٣) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم»(٤) رواه الترمذي ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي غض البصر وحفظ الفرج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي أنفع لهم أو أطهر لما فيه من التباعد عن الزنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه إجالة أبصارهم واستعمال سائر حواسهم وتحريك جوارحهم وما يقصدون بها فليكونوا على حذر منه.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا أن جابر بن عبد الله حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما في أرجلهن يعني الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله في ذلك ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ أي ليغضضن عما لا يحل النظر إليه، وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجل الأجنبي مطلقاً وبه قال الشافعي، وقال أبو حنيفة جاز لها أن ينظر من الرجل إلى ما ينظر الرجل إليه إذا أمنت الشهوة، احتج الشافعي بحديث أم سلمة أنها كنت عند رسول الله ﷺ وميمونة رضي الله عنهما: «إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه (وذلك بعدما أمرنا بالحجاب) فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلتُ يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال رسول الله ﷺ: أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه»(٥). رواه أحمد وأبو داود والترمذي، واحتج أبو حنيفة بحديث ابن عباس قال: جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع قالت يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: نعم، قال ابن عباس

---

(١) أخرجه مسلم في الأدب حديث ٤٥.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٦٤.
(٣) أخرجه أبو داود في الحمام حديث ٩، والترمذي في الأدب باب ٢٢، ٣٩، وابن ماجه في النكاح باب ٢٨، وأحمد في المسند ٥/ ٤.
(٤) أخرجه الترمذي في الأدب باب ٤٢.
(٥) أخرجه أبو داود في اللباس باب ٣٤، والترمذي في الأدب باب ٢٩، وأحمد في المسند ٦/ ٢٩٦.

كان الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر[١] الحديث رواه البخاري ورواه الترمذي من حديث علي نحوه وزاد فقال العباس: لويت عنق ابن عمك، فقال: «رأيت شاباً وشابة فلم آمن عليهما الشيطان»[٢] صححه الترمذي واستنبط ابن القطان من هذا الحديث جواز النظر عند الأمن من الفتنة من حيث إنه لم يأمرها بتغطية وجهها ولو لم يفهم العباس أن النظر جائز ما سأل ولو لم يكن ما فهم لما أقرَّه عليه وبحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها طلقها فبتَّ طلاقها فأمرها النبي ﷺ أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم[٣] وهذا يدل على جواز نظر المرأة إلى الأعمى ونحوه يعني عند الأمن من الشهوة.

مسألة: ولا يجوز للمرأة النظر إلى عورة المرأة يعني تحت السرة إلى الركبة ولا للرجل النظر إلى عورة الرجل لحديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد»[٤] رواه مسلم.

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سترها حرجاً، وقيل المراد بالزينة مواضع الزينة على حذف المضاف أو ما يعم المحاسن الخلقية والتزينية، والمستثنى هو الوجه والكفان عند أبي حنيفة ومالك وأحمد والشافعي لما روى الترمذي من طريق عبد الله بن مسلم بن هرمز عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الوجه والكفان ومن طريق عطاء عن عائشة نحوه، وفي رواية المستثنى الوجه والكفان والقدمان والمشهور عن الشافعي الوجه فقط، لما روى الطبراني من طريق مسلم الأعور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هي الكحل وتابعه خصيف عن عكرمة عن ابن عباس عند البيهقي، فالوجه مستثنى باتفاق العلماء الأربعة والكفان عند أبي حنيفة ومالك وفي رواية للشافعي وأحمد، لكن في مختلفات قاضي خان أن ظاهر الكف وباطنه ليسا عورتين إلى الرسغ وفي ظاهر الرواية ظاهره عورة كذا قال ابن همام، والقدمان عورة إلا في رواية عن أبي حنيفة والحجة على كون القدمين عورة حديث أم سلمة أنها سألت النبي ﷺ أتصلي المرأة في درع وخمار وليس لها إزار فقال: «لا بأس إذا كان الدرع سابغاً يغطي ظهور قدميها»[٥] رواه أبو داود والحاكم، وأعله عبد الحق بأن مالكاً وغيره رووه موقوفاً وهو الصواب، وقال ابن الجوزي

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ١، والصيد باب ٢٤، ومسلم في الحج حديث ٤٠٧، وأبو داود في المناسك باب ٢٥، ٥٦.

(٢) أخرجه الترمذي في الحج باب ٥٤، وأحمد في المسند ١/ ٧٦، ١٥٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤١٢، ٤١٥، ٤١٦.

(٤) أخرجه مسلم في الحيض حديث ٧٤، والترمذي في الأدب باب ٣٨، وأحمد في المسند ٣/ ٦٣.

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ٨٣.

في رفعه مقال لأنه من رواية عبد الرحمن بن عبد الله وقد ضعفه يحيى وقال أبو حاتم الرازي لا يحتج به، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ يدل على أن الخلخال من الزينة الباطنة فموضعه يعني القدم عورة، قال البيضاوي الأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة، وفي كتب الحنفية كون وجه الحرة خارجاً عن العورة غير مختص بالصلاة، قال في الهداية لا يجوز أن ينظر الرجل إلى الأجنبية إلا وجهها وكفيها لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ لأن في إبداء الكف والوجه ضرورة لحاجتها إلى المعاملة مع الرجال أخذاً أو إعطاءً وغير ذلك، فإن كان الرجل لا يأمن من الشهوة لا ينظر إلى وجهها إلا لحاجة كتحمل الشهادة وأدائها والقضاء، ولا يباح إذا شك في الاشتهاء كما إذا علم أو كان أكبر رأيه ذلك.

قلتُ: ومذهب أبي حنيفة يؤيده ما رواه أبو داود مرسلاً الجارية(١) إذا حاضت لم يصلح يرى منها إلا وجهها ويدها إلى المفصل، قلتُ إبداء المرأة زينتها الخفية لغير أولي الإربة من الرجال جائز إجماعاً ثابت بنص الكتاب لعدم خوف الفتنة فإبداء زينتها الظاهرة لهم أولى بالجواز ونظر الرجل إلى وجه امرأة أجنبية إذا شك في الاشتهاء لا يجوز على ما قال صاحب الهداية أيضاً، وقال ابن همام حرم النظر إلى وجهها ووجه الأمرد إذا شك في الشهوة ويلزم هذا الحكم الحكم بأن لا تبدو المرأة وجهها لرجل أجنبي إذا شك منه الشهوة وإلا لكان تعرضاً للفساد وزوال احتمال الشهوة من الرجل الأجنبي ذي الإربة للمرأة الأجنبية غير متصور فيلزمنا القول بأنه لا يجوز للمرأة إبداء وجهها لرجل ذي إربة غير الزوج والمحرم فإن عامة محاسنها في وجهها فخوف الفتنة في النظر إلى وجهها أكثر منه في النظر إلى سائر أعضائها وقد قال رسول الله ﷺ: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»(٢) رواه الترمذي عن ابن مسعود فإن هذا الحديث يدل على أنها كلها عورة غير أن الضرورات مستثناة إجماعاً، والضرورة قد تكون بأن لا تجد المرأة من يأتي بحوائجها من السوق ونحو ذلك فتخرج متقنعة كاشفةً إحدى عينيها لتبصر الطريق، فإن لم تجد ثوباً سائغاً تخرج فيما تجد من الثياب ساترةً ما استطاعت وقد تكون إذا احتاجت إلى الطبيب أو الشهود أو القاضي، فالمراد بالزينة في الآية إن كان نفس الزينة كما فسرناه تبعاً لما قال البيضاوي بالحلي والثياب والأصباغ، ويكون حينئذ تحريم إبداء مواضع الزينة بدلالة النص بالطريق الأولى فلا خفاء على هذا في تأويل الاستثناء، حيث يقال معنى: إلا ما ظهر منها إلا ثيابها الظاهرة، قال البغوي قال ابن مسعود هي الثياب بدليل قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وأراد به الثياب، وإن كان المراد بها مواضع الزينة فمعنى الاستثناء إلا

---

(١) وفي النسخة التي بأيدينا أن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى وجهه وكفيه قال أبو داود وهذا مرسل ـ ١٢ ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع باب ١٨.

ما ظهر منها عند الضرورات ضرورة الخروج لقضاء الحوائج أو ضرورة الاستشهاد ونحو ذلك يعني من غير قصد إلى إبدائها فاستثناء الوجه والكفين من عورة الحرة ليس إلا لأجل الصلاة، ويدل على عدم جواز إبداء المرأة وجهها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩] الآية، قال ابن عباس وأبو عبيدة أُمرت نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحداً يعلم أنهن حرائر، وما ذكرنا من حديث جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع سائلة مسألة قضاء الحج عن أبيها محمول على جواز خروجها لضرورة السؤال عن المسألة وما ذكر من أن الفضل كان ينظر إليها وتنظر إليه فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر صريح في المنع عن النظر إلى وجه المرأة الأجنبية لعدم الأمن عليهما من الشيطان.

مسألة: هذه الآية مختص حكمها بالحرائر من النساء إجماعاً، وأما الإماء سواء كن قنات أو مكاتباتٍ أو مدبرات أو أمهات أولاد فيجوز لهن إبداء الرأس والوجه والساقين والساعدين فإن عورة الأمة عند مالك والشافعي وأحمد كعورة الرجل من السرة إلى الركبة وزاد أبو حنيفة بطنها وظهرها، وقال أصحاب الشافعي كلها عورة إلا مواضع التقليب منها وهي الرأس والساعدان والساق روى الشيخان في الصحيحين في قصة صفية «إن حجبها فهي زوجة وإن لم يحجبها فهي أم ولد»(١) وهذا الحديث يدل على أن الأمة تخالف الحرة فيما تبديه، وقال أنس مرت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع(٢) أتشتبهين بالحرائر ألقي القناع، وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٩] أيضاً بمفهومه يدل على أن حكم الأمة غير حكم الحرة، قلتُ: وجاز أن يكون حكم هذه الآية شاملة للإماء أيضاً وإنما جاز لها إبداء الرأس والساعدين والساق للاستثناء، فإن خروجها لخدمة المولى كثيرو ثياب مهنتها قصيرة فهذه الأعضاء تظهر منها غالباً لضرورة والله أعلم.

﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ أي يضعن خمرهن من ضرب يده على الحائط أي وضعها ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ ستراً لشعورهن وصدورهن وأعناقهن وقرطهن، قال البغوي قالت عائشة رضي الله عنها رحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها، قرأ نافع وعاصم وهشام بضم الجيم والباقون بكسرها ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الإضافة للعهد يعني زينتهن المستثناة منها ما ظهر منها كرره لبيان من يحل له الإبداء ومن لا يحل له ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم هم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع أبدانهن حتى فروجهن لكنه يكره النظر إلى الفرج لقوله ﷺ: «إذا أتى أحدكم أهله

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ١٢، ٦٠، ومسلم في النكاح حديث ٨٧، والنسائي في النكاح باب ٧٩، وأحمد في المسند ٣/٢٤٦، ٢٦٤.

(٢) والرواية الصحيحة يا لكعاء أتشبهين بالحرائر قال في مجمع البحار والمرأة لكاع كقطام وأكثر مجيئه في النداء وهو اللئيم ـ ١٢ ـ الفقير الدهلوي ـ.

فليستتر ولا يتجردان تجرد العيرين»[١] رواه الشافعي والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود عن عتبة بن عنبر والنسائي عن عبد الله بن سرجس والطبراني أيضاً عن أبي أمامة، وروى ابن ماجه عن عائشة قالت: ما نظرتُ أو ما رأيتُ فرج رسول الله ﷺ قط[٢].

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وكذا آباء الآباء وآباء الأمهات وإن علوا بدلالة النص والإجماع ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ كذلك ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ وأبناء الأبناء وأبناء البنات وإن سفلوا بدلالة النص والإجماع ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ كذلك ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ سواء كانوا من أب أو من أم ﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ وبني أبنائهم وأبناء بناتهم وإن سفلوا ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ أو أبناء أبنائهن أو أبناء بناتهن وإن سفلوا أباح الله تعالى للنساء إبداء محاسنهن لهؤلاء لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وعدم توقع الفتنة من قبلهم إلا نادراً لما في الطباع من النفرة عن حماسة القرابة والغيرة في انتسابهن إلى الفاحشة وأباح لهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المحنة والخدمة وهو الوجه والرأس والصدر والساقان والعضدان ولا يجوز لهم النظر إلى ظهورهن ولا إلى بطونهن ولا إلى ما بين السرة إلى الركبة لأنها لا تنكشف عادةً فلا ضرورة في النظر إليها، وهذا حكم جميع من لا يجوز المناكحة بينه وبينها على التأبيد بنسب كان أو برضاع أو مصاهرة، وإنما لم يذكر الأعمام والأخوال في الآية لأنهم في معنى بني الأخوان وبني الأخوات بدلالة النص والإجماع فإنه لما جاز للعمة إبداء زينتها لابن أخيها جاز لبنت الأخ إبداء زينتها لعمها بطريق المساواة ولما جاز للخالة إبداء زينتها لابن أختها جاز لبنت الأخت إبداء زينتها لخالها، ويحتمل أن يكون ترك ذكر الأعمام والأخوال في الآية للإشارة إلى أن الأحوط أن يتسترن عنهم حذراً أن يصفوهن لأبنائهم.

مسألة: لا بأس للرجل أن يمس ما جاز إليه النظر من ذوات محارمه لتحقق الحاجة إلى ذلك في المسافرة، وقلة الشهوة للحرم المؤبدة إلا إذا كان يخاف عليها أو على نفسه الشهوة فحينئذ لا ينظر ولا يمس لقوله ﷺ؛ «العينان تزنيان وزناهما النظر واليدان تزنيان وزناهما البطش»[٣] وفي رواية «العينان واليدان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يزني»[٤] رواه أحمد والطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً وحرمة الزنى بذوات المحارم أغلظ فيجتنب ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني جاز للمرأة أن تنكشف للمرأة مؤمنةً كانت أو كافرةً حرةً كانت أو أمةً إلا ما بين سرتها وركبتها وجاز لها النظر إليها بوجود المجانسة وانعدام الشهوة غالباً، وعن أبي حنيفة إن نظر المرأة إلى المرأة كنظر الرجل إلى محارمه، وقيل المراد بنسائهن النساء المؤمنات فلا يجوز للمرأة المسلمة أن تنكشف للمرأة الكافرة لأنها ليست من نسائنا لكونها أجنبية في الدين

---

(١) أخرجه ابن ماجه حديث ١٩٢١، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/١٩٣، والطبراني في المعجم الكبير ٧/١٩٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطهارة باب ١٣٧، والنكاح باب ٢٨.

(٣) أخرجه مسلم في القدر حديث ٢١، وأبو داود في النكاح باب ٤٣.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٤٣، ٣٧٢، ٤١١، ٥٢٨، ٥٣٦.

وذلك لأنهن لا يتحرجن عن وصفهن للرجال، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها كأنه ينظر إليها»[(١)] متفق عليه قال البغوي كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ عن ابن جريج أنه قال المراد بنسائهن المؤمنات الحرائر منهن وبما ملكت أيمانهن الإماء دون العبيد فلا يحل لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدي امرأة مشركة إلا إذا كانت المشركة أمة مملوكةً لها، فعلى هذا التأويل لا يجوز لها الانكشاف بين يدي عبدها، ولا يجوز للعبد أن ينظر إلى سيدته إلا إلى ما يجوز للأجنبي النظر إليه منها وبه قال أبو حنيفة رحمه الله وبه قال بعض أصحاب الشافعي، قال الشيخ أبو حامد من الشافعية الصحيح عند أصحابنا إن العبد لا يكون محرماً لسيدته، قال النووي هذا هو الصواب بل لا ينبغي أن يجري فيه خلاف بل يقطع بتحريمه، والقول بأنه محرم لها ليس له دليل ظاهر فإن الصواب في الآية أنها في الإماء قال صاحب الهداية لنا أنه فحل غير محرم ولا زوج والشهوة متحققة لجواز النكاح في الجملة يعني بعد زوال ملكها والحاجة قاصرة لأنه يعمل خارج البيت والمراد بالنص يعني بهذه الآية الإماء قال سعيد بن المسيب والحسن وغيرهما لا تغرنكم سورة النور فإنها في الإناث دون الذكور، وهذا التأويل لا يصح إلا على تقدير كون المراد بنسائهن المسلمات الحرائر دون عامتهن وإلا لزم التكرار والخلو من الفائدة، فيلزم على مذهب أبي حنيفة عدم جواز الانكشاف للمرأة المسلمة عند الكافرة.

وقال مالك ما ملكت إيمانهن يعم العبيد والإماء فيجوز للسيدة الانكشاف عند عبده كسائر المحارم ويجوز له النظر إليها ما يجوز من النظر إلى محارمه، والشافعي أيضاً نص على ذلك وهو الأصح عند جمهور أصحابه لأن الحاجة متحققة لدخوله عليها من غير استئذان قال البغوي وروي ذلك عن عائشة وأم سلمة ويؤيده حديث أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فلّما رأى رسول الله ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك»[(٢)] رواه أبو داود، لكن يمكن أن يكون العبد صغيراً كما يدل عليه إطلاق لفظ الغلام، ويؤيده أيضاً حديث أم سلمة قالت: قال: رسول الله ﷺ: «إذا كانت عند مكاتب إحداكن وفاء فلتحتجب منه»[(٣)] رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه لكن الاستدلال به بمفهوم المخالفة.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي غير أولي الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الهرم سماهم بالتابعين لأنهم لا يقدرون على الاكتساب فيتبعون القوم ليصيبوا فضل

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ١١٨، وأبو داود في النكاح باب ٤٣.

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس باب ٣٢.

(٣) أخرجه أبو داود في العتاق باب ١، والترمذي في البيوع باب ٣٥، وابن ماجه في العتق باب ٣.

طعامهم، قال الحسن هو الذي لا ينتشر ذكره ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن، وعن ابن عباس أنه العنين، وقال سعيد بن جبير المعتوه، وقال عكرمة المجبوب، وقيل: هو المخنث، وقال مقاتل: هو الشيخ الهرم والعنين والخصي والمجبوب، والصحيح أن الخصي والمجبوب في النظر إلى الأجنبية كالفحل، قال في الهداية لأن الخصي فحل يجامع يعني يحتمل المجامعة وكذا المجبوب لأنه يسحق وينزل وكذا المخنث في الرديء من الأفعال لأنه فحل فاسق يؤخذ فيه بمحكم كتاب الله يعني: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] فإنه محكم يشتمل المجبوب والخصي والمخنث وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ غير قطعي الشمول لهؤلاء فلا بد فيهم الحكم بغض البصر، قال في الكفاية قيد في الهداية المخنث بالرديء من الأفعال وهو أن يمكن غيره من نفسه احترازاً عن المخنث الذي في أعضائه لين وفي لسانه انكسار بأهل الخلقة لا يشتهي النساء، ولا يكون مخنثاً في الرديء من الأفعال فإنه قد رخص بعض مشايخنا في ترك مثله في النساء لأنه من غير أولي الإربة من الرجال، قلتُ: وأما الخنثى الأصلي يعني الذي له ذكر وفرج فإن ظهر له علامات النساء وهو أن يكون له ثدي كثدي المرأة أو نزل له لبن في ثديه أو حاض أو حبل وأمكن الوصول إليه من الفرج فحكمه حكم الأنثى وإلا فله حكم الذكر لا يجوز للنساء الانكشاف عنده ولا يجوز له النظر إليهن، وإن كان مشكلاً يؤخذ فيه بالأحوط فلا ينكشف هو عند الرجال ولا تنكشف النساء عنده والله أعلم.

روى الشيخان في الصحيحين عن أم سلمة: «أن النبي ﷺ كان عندها وفي البيت مخنث فقال لعبد الله بن أبي أمية (أخي أم سلمة): يا عبد الله إن فتح الله لكم غداً الطائف فإني أدلكم على ابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال النبي ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكم»(١) احتج بعض العلماء بهذا الحديث على منع المخنثين من الدخول على النساء، وفي الاحتجاج به نظر بل يمكن الاحتجاج بهذا الحديث على جواز دخول المخنثين على النساء لأن النبي ﷺ أقره في البيت ولم يمنعه من الدخول إلا بعدما وصف ابنة غيلان بأنها تقبل بأربع وتدبر بثمان وهذا أمر آخر منع النبي ﷺ لأجله عن دخول المرأة على المرأة كما مر في حديث ابن مسعود والله أعلم. قرأ أبو بكر وابن عامر وأبو جعفر غير أولي الإربة بالنصب على الحال أو على أنه بمعنى إلا للاستثناء معناه يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الإربة منهم فإنهن لا يبدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة، وقرأ الباقون بالجر على أنه صفة للتابعين.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاءً بدلالة الوصف يعني لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء من ظهر على فلان إذا قوي

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ١١٣، والمغازي باب ٥٦، وأبو داود في اللباس باب ٣٢، والأدب باب ١٣.

وقدر عليه، أو المعنى لم يظهروا أي لم يكشفوا عن عورات النساء بالجماع من الظهور بمعنى الغلبة ولذلك عدّي بعلى أو من الظهور بمعنى الاطلاع فإن الكشف يستلزم الاطلاع والمراد بعدم الظهور وعدم الكشف أيضاً عدم صلاحية ذلك فالحاصل أنهم لم يبلغوا حد الشهوة، وقال مجاهد معناه لم يعرفوا العورة من غيرها لأجل الصغر وعدم التميز، والأولى هو الأول فإن الطفل إن كان مميزاً لكنه لم يبلغ حد الشهوة جاز للنساء الانكشاف عنده إلا من السرة إلى الركبة، ولا يجوز لها بحضرته كشف ما تحت السرة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور: ٥٨] وإن كان طفلاً غير مميز بالكلية فهو كالجمادات والبهائم لا بأس لو كشفت عنده ما تحت الإزار أيضاً، وإن كان مراهقاً يشتهي فحكمه حكم الرجال لأنه استعد للظهور على عوراتهن.

أخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت صرتين من فضة واتخذت جذعاً فمرت على قوم وضربت برجليها فوقع الخلخال على الجذع فصوتت فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قال البغوي كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها لتسمع صوت خلخالها فنهيت عن ذلك لأنه يورث في الرجال ميلاً إليها، قال البيضاوي وهو أبلغ من النهي عن إبداء الزينة وأدل على المنع من رفع الصوت لها ولذا صرح في النوازل بأن نغمة المرأة عورة وبني عليها أن تعلمها القرآن من المرأة أحب إليّ لأن نغمتها عورة ولذا قال ﷺ: «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء»(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد، فلا يحسن أن يسمعها الرجل، قال ابن همام وعلى هذا لو قيل إذا جهرت المرأة بالقراءة في الصلاة فسدت كان متجهاً، ولذا منعها ﷺ من التسبيح بالصوت لإعلام الإمام بسهوه إلى التصفيق وهذه الآية تدل على أن القدم عورة ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه لا يكاد يخلو أحد منكم في إتيان أوامره والانتهاء عن مناهيه من التفريط قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي، قيل: معناه راجعوا إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم من الآداب المذكورة في هذه السورة، وقيل: معناه توبوا عما كنتم تفعلونه في الجاهلية وإن جب بالإسلام لكن يجب الندم عليه والعزم على الكف عنه كلما تتذكروا قرأ ابن عامر: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ها هنا وفي الزخرف: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزخرف: ٤٩] وفي الرحمن: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] بضم الهاء في الثلاثة وصلاً ويقف بلا ألف، والباقون بفتح الحاءات على الأصل، ووقف أبو عمرو والكسائي أيها بالألف والباقون بغير ألف ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن سعادة الدارين بالتوبة قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة باب ٥، والأحكام باب ٣٦، ومسلم في الصلاة حديث ١٠٢، ١٠٧.

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٤٩، وابن ماجه في الزهد باب ٣٠، والدارمي في الرقاق باب ١٨، وأحمد في المسند ٣/١٩٨.

«طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»[(١)] وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى ربي كل يوم مائة مرة»[(٢)] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٣)] رواه البخاري، وعن الأعرابي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»[(٤)] رواه مسلم، وعن ابن عمر قال: «إنا كنا نعد رسول الله ﷺ في المجلس يقول: «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور مائة مرة»[(٥)] رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ لما نهى الله تعالى عما يفضي إلى السفاح غالباً أمر بالنكاح فإنه أغض للبصر وأمنع من السفاح فقال وانكحوا أيها الأولياء والسادة الأيامى منكم، والأيامى جمع آيّم مقلوب أيايم كيتامى أصله يتايم وهو من لا زوج له رجلاً كان أو امرأة ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وهذا أمر استحباب وتخصيص الصالحين بالذكر ليس للاحتراز بل لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم، وقيل: المراد به الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه.

مسألة: النكاح واجب عند غلبة الشهوة إذا خاف الوقوع في الحرام، وفي النهاية إن كان له خوف وقوع الزنى بحيث لا يتمكن من التحرز عنه كان فرضاً، قال ابن همام ليس الخوف مطلقاً يستلزم بلوغه إلى عدم التمكن فليكن عند ذلك فرضاً وإلا فواجب ما لم يعارضه خوف الجور فإن عارضه خوف الجور كره، وأيضاً قال ابن همام إنه ينبغي تفصيل خوف الجور كتفصيل خوف الزنى فإن بلغ ما افترض فيه النكاح حرم وإلا كره كراهة تحريم، وفي البدائع قيد الافتراض في التوقان بملك المهر والنفقة فإن من تاقت نفسه بحيث لا يمكنه الصبر عنهن وهو قادر على المهر يعني على ما لا بد من تعجيله وعلى النفقة ولم يتزوج يأثم، وأما في حالة الاعتدال فقال داود وأمثاله من أهل الظواهر أنه فرض عين على الرجل والمرأة في العمر مرةً إن كان قادراً على الوطء والإنفاق لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]

---

(١) أخرجه ابن ماجه حديث ٣٨١٨، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٨٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٠٨٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢١١، ٢٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٣، ومسلم في الذكر حديث ٤٢.

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ٢٢٠.

(٥) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٦، والترمذي في الدعوات باب ٣٨، وابن ماجه في الأدب باب ٥٧، وأحمد في المسند ٢/ ٢١، ٦٧، ٥/ ١٩١، ٣٧١.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ وحديث سمرة «أن النبي ﷺ نهى عن التبتل»[١] رواه الترمذي وابن ماجه، وقوله ﷺ لعكاف: «هل لك زوجة»؟ قال: لا، قال: «ولا جاريةً»؟ قال: لا، قال: «وأنتَ موسر بخير»؟ قال: وأنا موسر، قال: «أنت إذن من إخوان الشياطين»[٢]، وقال رسول الله ﷺ: «إن سنتنا النكاح شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم أبالشياطين يحرسون»[٣] رواه أحمد، وقد مرّ هذا الحديث وحديث أنس كان النبي ﷺ يأمر بالباءة وينهى عن التبتل نهياً شديداً ويقول: «تزوجوا الودود الولود إني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[٤]، رواه أحمد وأبو داود والنسائي ونحوه في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣] وقال بعض الحنفية واجب على الكفاية وأدلة الوجوب على الكل لا ينفي كونه على الكفاية والمعرف لكونه يسقط بفعل البعض عن الباقين أن سبب شرعيته إبقاء المسلمين وعدم انقطاعهم وذلك يحصل بفعل البعض والإجماع على عدم كونه فرضاً على الأعيان، ولا عبرة بقول داود وأمثاله، وقيل واجب على الكفاية لأن قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣] مسوق لبيان العدد، وهذه الآية خطاب للأولياء موجب لعدم ممانعتهم إذا أراد الأيامى النكاح وأحاديث الآحاد لا توجب الفرضية، وقيل: سنة مؤكدة، وقيل: مستحب إذا كان قادراً على الوطء والإنفاق ولا يخاف الجور وإلا فهو حرام أو مكروه، وجه كونه سنة فعله ﷺ وقوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»[٥] متفق عليه من حديث ابن مسعود، وما روى ابن ماجه من حديث عائشة «النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصوم[٦]» في إسناده عيسى بن ميمون ضعيف، وفي الصحيحين من حديث أنس «لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٧] وروى الترمذي عن أبي أيوب «أربع من سنن المرسلين الحياء والتعطر والسواك والنكاح»[٨] وروى ابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر»[٩] ما ذكرنا كله بمذهب علماء الحنفية رحمهم الله تعالى وبه قال أحمد.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٥٨، ٢٤٥، ٥/ ١٧، ٦/ ١٢٥، ١٥٧، ٢٥٣.
(٢) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي باب ٦، وأحمد في المسند ١/ ٣١١، ٣١٢، ٥/ ١٦٣.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٦٣.
(٤) أخرجه النسائي في النكاح باب ١١، وابن ماجه في النكاح باب ٨، وأحمد في المسند ٣/ ١٥٨، ٢٤٥، ٣٥٤، ٤/ ٣٤٩، ٣٥١.
(٥) أخرجه البخاري في الصوم باب ١٠، والنكاح باب ٢، ٣، ومسلم في النكاح حديث ١.
(٦) وفيه: فإن الصوم له وجاء ـ ١٢ ـ الفقير الدهلوي ـ.
(٧) أخرجه البخاري في النكاح باب ١، ومسلم في النكاح حديث ٥.
(٨) أخرجه الترمذي في النكاح باب ١، وأحمد في المسند ٥/ ٤٢١.
(٩) أخرجه ابن ماجه في النكاح باب ٨.

وقال الشافعي: النكاح مستحب على كل حال إن كان قادراً على الوطء والإنفاق ولا يخاف الجور لكن تركه لأجل الانقطاع للعبادة أفضل وإن خاف الجوار أو لم يكن قادراً على الإنفاق أو الوطء فعليه حرام أو مكروه، وفي حالة التوقان وخوف الوقوع في الحرام يتأكد في حقه ويكون أفضل من نوافل الصلاة والصوم والجهاد والحج وبه قال مالك، فحاصل كلام الفريقين أنه من خاف أن لا يقدر على أداء حقوق النكاح أو وقع بالنكاح في أمر حرام فالنكاح في حقه مكروه أو حرام، ومن كان تائقاً يخاف على نفسه الزنى إن لم ينكح وهو قادر على أداء حقوق النكاح فالنكاح في حقه واجب على ما قال أبو حنيفة ومتأكد على ما قال الشافعي، قلتُ: لا أشك في أن ضد الحرام يعني الزنى واجب فلا بد من القول بالوجوب عند خوف الزنى، بقي الكلام في أنه من كان في حالة الاعتدال لا يخاف على نفسه إن لم ينكح ولا يخاف الجور وهو قادر على أداء حقوق النكاح فالنكاح في حقه وإن كان مستحباً سنة لكن ترك النكاح لأجل التخلّي للعبادة في حقه أفضل أم النكاح أفضل؟ قال أبو حنيفة النكاح أفضل من التبتل والتخلي للعبادة وقال الشافعي التخلي والتبتل أفضل وجه قول الشافعي إن الله سبحانه مدح يحيى بن زكريا عليهما السلام بعدم إتيان النساء مع القدرة عليه حيث قال: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] أيضاً وهذا معنى الحصور، وقال ابن همام في جوابه إن حال يحيى ذلك كان أفضل في شريعتهم وقد نسخت الرهبانية في شريعتنا وإذا تعارض حال يحيى بحال نبينا ﷺ وجب تقديم حال النبي ﷺ، ألا ترى أن حال النبي ﷺ إلى الوفاة كان النكاح ومحال أن يقرر الله تعالى أفضل أنبيائه على ترك الأفضل مدة حياته، روى الشيخان في الصحيحين أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواجه عن عمله في السر فقال بعضهم: لا أتزوج النساء وقال بعضهم: لا آكل اللحم وقال بعضهم: لا أنام على فراش فبلغ ذلك النبي ﷺ محمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال أقوام قالوا كذا ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال: «تزوجوا فإن خير هذه الأمة كان أكثرهم نساءً» يعني النبي ﷺ، وقد مر نهيه ﷺ عن التبتل نهياً شديداً.

وتحقيق المقام عندي أن من رأى من نفسه أن النكاح واشتغاله بأمر الأهل والعيال لا يمنعه عن الإكثار في الذكر والانقطاع إلى الله من غيره وتعمير الأوقات بالطاعات فالنكاح في حقه أفضل من تركه، وكان هذا شأن رسول الله ﷺ والصحابة وكثير من الأنبياء والصالحين من عباد الله وكيف لا يكون أفضل فإن مجاهدته أشد وأكثر من مجاهدة العزب فإن القيام على العبادة مع الموانع أكثر ثواباً منه مع عدم الموانع ومن أجل ذلك كان خواص البشر أفضل من خواص الملائكة وعوامهم أفضل من عوامهم ومن رأى من نفسه ضعفاً ورأى أن النكاح واشتغاله بأمور الأهل والعيال يمنعه من الإكثار في الذكر والانقطاع إلى الله وتعمير الأوقات ولا يخاف من نفسه الوقوع في الزنى فترك النكاح في حقه أفضل قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩] وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ

﴿وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وكيف يكون النكاح أفضل من الاشتغال بعبادات الله النافلة مع أن النكاح في نفسه أمر مباح ليس بعبادةٍ وضعاً واستحبابه إنما هو بالنظر إلى ما يترتب عليه من المصالح ولو كان النكاح في نفسه عبادة لكان الإسلام شرطاً لإتيانها كما هو شرط لسائر العبادات، وقد قال رسول الله ﷺ: «ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب، ولو كان النكاح في نفسه عبادة لكانت الهجرة لأجل النكاح هجرة لله تعالى، وقد قال رسول الله ﷺ: «حبب إليّ من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة»(٢) رواه النسائي وكذا روى الطبراني وإسناده حسن وهو صريح في أن النكاح من الأمور الدنيوية المباحة كالطيب وتسميته سنة في قوله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين النكاح والتعطر» الحديث بمعنى كونه سنة زائدة من السنن العادية لا أنه من سنن الهدى فإن سنة الهدى ما واظب عليه النبي ﷺ على سبيل العبادة لا يقال إن قوله ﷺ «من رغب عن سنتي فليس مني» يدل على كونه من سنن الهدى لأنا نقول لا يدل هذا على ذلك لأن الرغبة عما فعله النبي ﷺ واستحسنه قبيح يوجب الإنكار والعتاب لكن تركه لا يوجب العتاب كما يوجب ترك سنة الهدى. فإن قيل: ورد في الحديث: «حبب إلي من الدنيا ثلاثة الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» فهذا اللفظ يدل على كون الصلاة أيضاً من الأمور الدنيوية؟ قلنا: قال الحافظ ابن حجر لم نجد لفظة ثلاث في شيء من الطرق المسندة وحديث «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»(٣) رواه مسلم عن عمرو بن العاص مرفوعاً وهذا أيضاً يدل على كون النكاح من الأمور الدنيوية المباحة فكل أمر وقع في باب النكاح في الكتاب أو السنة محمول على الإباحة أو الاستحباب وأما حديث عكاف: «أنت إذن من إخوان الشياطين» واقعة حال محمول على حالة شدة التوقان وخوف الفتنة، ثم النكاح يكون عبادة باقتران النية بأن يريد كثرة أهل الإسلام وغض البصر ونحو ذلك، وهذا شيء غير مختص بالنكاح بل الأكل والشرب والبيع والشراء والإجارة وسائر المعاملات المباحة كلها مع اقتران حسن النية تصير عبادات قال رسول الله ﷺ؛ «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»(٤) رواه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود ورواه الطبراني

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٤١، ومناقب الأنصار باب ٤٥، والنكاح باب ٥، ومسلم في الإمارة حديث ١٥٥.

(٢) أخرجه النسائي في عشرة النساء باب ١، وأحمد في المسند ٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥.

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع حديث ٥٩.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٩٠، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ١٣١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٩٢٠٣.

عن أنس بن مالك بلفظ «طلب الحلال واجب على كل مسلم»[(١)] وكما أن النكاح فرض على الكفاية لبقاء النسل كذلك الأكل والشرب بقدر ما يسد الرمق فرض عين والتجارة وسائر أنواع الحرف فرض على الكفاية أيضاً لو تركها الناس أجمعون أختل أمر معاشهم ومعادهم قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[(٢)] رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري وحسنه ورواه ابن ماجه من حديث ابن عمر نحوه والبغوي في شرح السنة عن أنس نحوه، لكن حسن تلك الأشياء إنما هو بالغير وأما حسن الذكر والانقطاع إلى الله فإنما هو بذواتهما فأين هذا من ذاك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حكايةً عن الله سبحانه: «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحببته»[(٣)] الحديث رواه البخاري، ولم يقل الله سبحانه لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنكاح أو بالأكل والشرب، وقال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليَّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إلي أن أسبح بحمد ربك وأكون من الساجدين»[(٤)] رواه البغوي في تفسير سورة الحجر.

وما قيل في جواب حال يحيى أنه كان أفضل في شريعتهم وقد نسخت الرهبانية في شريعتنا فليس بشيء بل النكاح كان أفضل من العزوبة في كل دين كما يدل عليه قوله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين وعد منها النكاح» وقد كان آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وأيوب وداود وسليمان وزكريا كلهم كانوا متزوجين وكانوا أفضل من يحيى عليه السلام فلعل يحيى عليه السلام رأى التزوج في حقه مخلاً ببعض أمور أفضل منه، وأيضاً كون الرهبانية مشروعةً في دين عيسى ويحيى ومنسوخةً في ديننا ممنوع بل الرهبانية التي كانت النصارى تفعلها كانت مبتدعة حيث قال الله تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧] وما ورد في الأحاديث أن النبي ﷺ نهى عن التبتل وعن الرهبانية فليس المراد منه أنه ﷺ نهى عن التخلي للذكر والانقطاع عن الخلق إلى الله تعالى كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ [المزمل: ٨] وقال رسول الله ﷺ: «خير مال المسلم الغنم يتبعها شغف الجبال يفر بدينه عن الفتن» رواه البخاري بل المراد أنه ﷺ نهى عن ترك الأمور المباحة التي لا مثوبة عند الله في تركها كالنكاح والنوم على الفراش وأكل اللحم والكلام مع الناس كما كانت الرهبان من النصارى تفعلها قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢] فالممنوع هو الرهبانية المبتدعة

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٩١، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ١٣١، ٤/ ٣٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ٩٢٠٤.

(٢) أخرجه الترمذي حديث ١٢٠٩.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨، وأحمد في المسند ٦/ ٢٥٦.

(٤) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٩، والقرطبي في تفسيره ١٠/ ٦٤، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٢٣١.

دون الرهبانية المشروعة وقد وقع في الحديث في مدح أصحاب رسول الله ﷺ أنهم رهبان بالليل ليوث بالنهار والله أعلم.

فائدة: قال البغوي تأييداً لمذهب الشافعي إن في الآية دليلاً على أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء، لأن الله تعالى خاطبهم به كما أن تزويج العبيد والإماء إلى السادة لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ أراد البغوي أن الآية تدل على أن لا يجوز نكاح الحرة العاقلة البالغة بعبارتها من غير ولي وقد ذكرنا لهذه المسألة واختلاف العلماء فيها وأدلتهم في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] والاستدلال بهذه الآية في هذه المسألة لا يصح لأن الأيم يعم الرجل والمرأة الصغيرين والكبيرين والبكر والثيب وقد أجمعوا على أن نكاح الرجال البالغين ليس إلى الأولياء وعلى أن النكاح الباكرة الصغيرة إلى الأولياء فتخصيص هذه الآية بالنساء ليس أولى من تخصيصها بالصغار والصغائر، وأيضاً يحتمل التجوز في لفظ الإنكاح ولعله أراد بالإنكاح عدم منعهم من النكاح وتأييدهم فيه وفي الآية دليل على أن المملوك إذا طلب من المولى أن يزوجه وجب عليه تزويجه وكذلك المرأة البالغة إذا طلبت من الولي تزويجها وجب على الولي إنكاحها، هذا على أصل الشافعي ومن يقول بعدم جواز النكاح بعبارة النساء وأما على أصل أبي حنيفة فمعنى الوجوب على الولي أنه يحرم عليه منعها من النكاح فهذه الآية في هذه المسألة نظيرة لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة: ٢٣٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»(١) رواه الترمذي، وعن عمر بن الخطاب وأنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «في التوراة مكتوب من بلغت ابنته اثنتي عشرة سنة ولم يزوجها فأصابت إثماً فإثم ذلك عليه»(٢) وعن أبي سعيد وابن عباس قالا: قال رسول الله ﷺ: «من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه فإذا بلغ فليزوجه فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثماً فإنما إثمه على أبيه»(٣) روى الحديثين البيهقي في شعب الإيمان.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ رد لما عسى أن يمنع من النكاح يعني لا يمنعنكم من النكاح الفقر(٤) فإن الله متكفل لأرزاق العباد كلهم والمال غاد ورائح، وقيل المراد بالغنى ها هنا القناعة، وقيل اجتماع الرزقين رزق الزوج ورزق الزوجة والأول

---

(١) أخرجه الترمذي في النكاح باب ٣، وابن ماجه في النكاح باب ٤٦.

(٢) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٣١٣٩.

(٣) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٣١٣٨.

(٤) عن أبي بكر الصديق قال أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغناء قال الله تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وعن قتادة قال ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال ما رأيت كرجل لم يلتمس الغناء من الباءة وقد وعد الله فيها ما وعد ـ وعن عمر بن الخطاب أنه قال ابتغوا الغناء في الباءة واطلبوا الفضل في الباءة وتلا إن يكونوا فقراء يغنهم الله ـ الآية ـ منه برّد الله مضجعه ـ.

أصح فهو وعد من الله بالإغناء للناكح، قال البغوي قال عمر عجب لمن يبتغي الغنى بغير النكاح والله تعالى يقول: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠] وروى البزار والخطيب والدارقطني من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «تزوجوا النساء فإنهن يأتين بالمال»(١) رواه أبو داود في مراسيله عن عروة مرسلاً، وروى الثعلبي والديلمي صاحب مسند الفردوس من حديث ابن عباس «التمسوا الرزق بالنكاح»(٢) قلتُ: ولعل لهذا الوعد لمن أراد التعفف بالنكاح وتوكل على الله في الرزق يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ يعني من لا يجد أسباب النكاح وما لا بد منه للناكح من المهر المعجل والنفقة ومنعه فقره من أن ينكح خوفاً من الجور وفوات حقوق النكاح فعليه أن يجتهد في العفة ودفع الشهوة بالصوم وقلة الطعام ونحو ذلك حيث قال رسول الله ﷺ: «ومن لم يستطع ـ يعني النكاح ـ فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي يوسع عليهم من رزقه والله أعلم.

أخرج ابن السكن في معرفة الصحابة عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة فأبى فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي يطلبون المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عبداً كان أو أمة، الموصول مع صلته مبتدأ خبره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ جيء بالفاء لكون المبتدأ متضمناً لمعنى الشرط أو الموصول منصوب بفعل مضمر يفسره قوله فكاتبوهم والفاء زائدة، قال البغوي لما نزلت هذه الآية كاتب حويطب عبده على مائة دينار ووهب له عشرين فأدّاها فقتل يوم حنين في الحرب، وهذا أمر استحباب عند جمهور العلماء حتى قال صاحب الهداية وهذا ليس بأمر إيجاب بإجماع بين الفقهاء وإنما هو أمر ندب وهو الصحيح يعني القول بأنه أمر إباحة كما قال بعض مشايخنا . . . . غير صحيح إذ في الحمل على الإباحة إلغاء الشرط إذ هو مباح بدونه وأما الندبية فمعلق به، وأجيب بأن الشرط خرج مخرج العادة لأن المولى لا يكاتب عبده عادةً إلا إذا علم فيه خيراً، وروي عن بعض المتقدمين بأنه للوجوب وهو قول عطاء وعمرو بن دينار وقال أحمد في رواية عنه بوجوبها إذا طلب العبد من سيده مكاتبة على قدر قيمته أو أكثر لما روى ابن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه فتلكأ عنه فشكى إلى عمر فعلاه بالدرة فأمره بالكتابة فكاتبه كذا ذكر البغوي في تفسيره، والكتابة عقد معاوضة يدل عليه صيغة المفاعلة يبتاع العبد من سيده نفسه بما يؤديه من كسبه واشتقاقه من الكتابة بمعنى الإيجاب فيشترط فيه الإيجاب والقبول من الجانبين وليس هو إعتاقاً معلقاً بأداء المال فيجوز كتابة العبد الصغير إذا كان يعقل البيع والشراء لتحقق الإيجاب والقبول إذ العاقل من أهل القبول والتصرف نافع في حقه، ولا يجوز كتابة مجنون وصبي لا يعقل لعدم تحقق القبول منه فلو أدى عنه غيره لا يعتق ويستردّ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٦٢، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٥٥.
(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٠٢، ٣٦١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٤٤٣٦.

ما دفع، وصفته عند أبي حنيفة أن يقول المولى لعبده كاتبتُك على مال كذا ويقول العبد قبلتُ فيعتق بأدائه وإن لم يقل المولى إذا أديتها فأنت حر لأنه موجب العقد فيثبت من غير تصريح كما في البيع وبه قال مالك وأحمد وقال الشافعي يشترط أن يقول المولى كاتبتُك على كذا من المال منجماً إذا أديته فأنت حر فإن ترك لفظ التعليق ونواه جاز، ولا يكفي لفظ الكتابة بلا تعليق ولا نية ويقول قبلتُ كذا في المنهاج.

مسألة: ويجوز في الكتابة أن يشترط المال حالاً ويجوز مؤجلاً ومنجماً وقال الشافعي وأحمد لا يصح حالاً ولا بد من نجمين لأنه عاجز عن التسليم في زمان قليل لعدم الأهلية قبله للرق، ولنا: الإطلاق في الآية من غير شرط التنجيم وقد ذكرنا أنه عقد معاوضة والبدل معقود به فأشبه الثمن في البيع في عدم اشتراط القدرة على التسليم، حتى جاز للمفلس اشتراء أموال عظيمة ومن الجائز أن يرزق العبد على فور الكتابة أموالاً عظيمةً بطريق الهبة أو الزكاة فإن كانت الكتابة حالاً وامتنع من الأداء جاز للمولى رده إلى الرق.

مسألة: وإذا صحت الكتابة خرج المكاتب عن يد المولى ليتحقق مقصود الكتابة وهو أداء البدل فيملك البيع والشراء والخروج إلى السفر وإن نهاه المولى ولا يخرج عن ملكه إجماعاً، لأنه عقد معاوضة فلا يخرج عن ملك المولى ما لم يدخل البدل في ملكه.

مسألة: والكتابة عقد لازم من جهة المولى اتفاقاً فلا يجوز للمولى فسخه إلا برضاء العبد لأنها موجب للعبد استحقاق العتق والعتق لا يحتمل الفسخ فكذا استحقاقه، ولأنه عبادة كالعتق ففسخه يوجب إبطال العمل وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] لكنه غير لازم من جهة العبد فلا يجبر العبد على الاكتساب بل تفسخ الكتابة برضائه عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد، غير أنه إن كان بيد المكاتب مال يفي بما عليه يجبر على الأداء عند أبي حنيفة وليس له حينئذ فسخ الكتابة لأنه حينئذ متعنِّت، وقال مالك ليس للعبد تعجيز نفسه مع القدرة على الاكتساب فيجبر على الاكتساب حينئذ.

مسألة: وإذا لم يخرج المكاتب عن ملك المولى جاز للمولى أن يعتقه فيعتق مجاناً ويسقط بدل الكتابة عن ذمته لأنه ما التزم إلا مقابلاً بالعتق وقد حصل له دونه فلا يلزمه، والكتابة وإن كانت لازمةً من جانب المولى لكنها يفسخ برضاء العبد والظاهر رضاؤه توسلاً إلى عتقه بغير بدل.

مسألة: وإذا لم يخرج من ملكه جاز للمولى بيع رقبة المكاتب عند أحمد ولا يكون البيع فسخاً للكتابة بل يقوم المشتري فيه مقام البائع وهو القول القديم للشافعي، وقال أبو حنيفة ومالك لا يجوز بيع رقبة المكاتب إلا برضاه فهو فسخ للكتابة وهو القول الجديد للشافعي، لكن عند مالك جاز بيع المكاتبة والدين المؤجل بثمن حال إن كان عيناً فيعرض أو عرضاً فتعين. وجه قول أبي حنيفة ومن معه أن المكاتب استحق يداً على نفسه لازمةً في حق المولى ولو ثبت الملك بالبيع للمشتري لبطل ذلك وقد علمت أن ثبوت الملك للمشتري لا يقتضي فسخ الكتابة عند أحمد، ولا يبطل استحقاق المكاتب يداً على نفسه بل

يقوم المشتري فيه مقام البائع وقد رضي المشتري بذلك إن علم كونه مكاتباً وإن لم يعلم كان للمشتري حق فسخ البيع، احتج أحمد بحديث عائشة أن بريرة جاءت عائشة تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً فقال رسول الله ﷺ: «ابتاعي فاعتقي فإنما الولاء لمن أعتق» رواه أحمد وأصله في الصحيحين أنها قالت: جاءت بريرة عائشة فقالت إني كاتبت على تسع أواق في كل عام أوقية فأعينيني فقالت عائشة إن أحب أهلكِ أن أعدها لهم عدة واحدة وأعتقكِ فعلتُ ويكون الولاء لي، فذهبت إلى أهلها فأبوا ذلك عليها فقالت إني قد عرضتُ ذلك عليهم فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم فسمع بذلك رسول الله ﷺ فسألني فأخبرته فقال: «خذيها فأعتقيها واشترطي لهم الولاء فإن الولاء لمن أعتق»[(١)] الحديث، وروى النسائي هذه القصة عن بريرة نفسها وفي هذا الحديث ليس حجة لأحمد فإن النزاع فيما إذا كان بيع المكاتب بغير رضاه وأما إن كان برضاه فأظهر الروايتين عن أبي حنيفة جواز البيع حينئذ وقد كان بيع بريرة برضاها، ولذلك عقد البخاري باب بيع المكاتب إذا رضي.

مسألة: لا يعتق المكاتب إلا بأداء كل البدل لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال؛ «المكاتب عبد ما بقي من مكاتبته درهم»[(٢)] رواه أبو داود والنسائي والحاكم من طرق، ورواه النسائي وابن ماجه من وجه آخر من حديث عطاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص في حديث طويل ولفظه «ومن كان مكاتباً على مائة أوقية وقضاها إلا أوقية فهو عبد»[(٣)] قال النسائي هذا حديث منكر وقال ابن حزم عطاء هذا هو الخراساني لم يسمع من عبد الله بن عمرو، ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من كاتب عبده على مائة أوقية فأداها إلا عشر أواق أو قال عشرة دنانير ثم عجز فهو رقيق»[(٤)] وروى مالك في الموطأ عن نافع عن ابن عمر موقوفاً: المكاتب عبد ما بقي عليهم درهم ورواه ابن قانع من طريق آخر عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً وأعله، قال صاحب الهداية في هذه المسألة اختلاف الصحابة، قال في الكفاية قال زيد بن ثابت مثل قولنا وقال علي يعتق بقدر ما أدى، وقال ابن مسعود إذا أدى قدر قيمته يعتق وفيما زاد ذلك يكون المولى غريماً من غرمائه، وقال ابن عباس يعتق بنفس الكتابة ويكون المولى غريماً من غرمائه، وإنما اخترنا قول زيد للحديث المرفوع قلتُ: وقد روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أصاب المكاتب حداً أو ميراثاً ورث بحساب ما

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الشروط باب ٣، ١٠، ١٣، ١٧، والأطعمة باب ٣١، والفرائض باب ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣، والطلاق باب ١٤، والكفارات باب ٨، والنكاح باب ١٨، والزكاة باب ٦١، والبيوع باب ٦٧، ومسلم في العتق حديث ٥، ٦، ٨، ١٠، ١٢، ١٤، ١٥.

(٢) أخرجه أبو داود في العتاق باب ١، والترمذي في البيوع باب ٣٥، ومالك في المكاتب حديث ١، ٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في العتق باب ٣.

(٤) أخرجه الترمذي في البيوع باب ٣٥.

عتق منه»[١] وفي رواية له قال: «يؤدي المكاتب بحصة ما أدى دية حر وما بقي دية عبد»[٢] وضعفه، وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان عند مكاتب إحداكن وفاء فلتحتجب منه»[٣] رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

مسألة: وإذا عجز المكاتب عن نجم نظر الحاكم في حاله فإن كان له دين يقتضيه أو مال يقدم عليه لم يعجل بتعجيزه وانتظر ثلاثة أيام ولا يزاد عليه وإن لم يكن له وجه وطلب المولى تعجيزه عجزه وفسخ الكتابة عند أبي حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف لا يعجزه حتى يتوالى عليه نجمان، ولا يجوز للمولى تعجيزه إلا بالقضاء أو برضاء العبد.

مسألة: ما أدى المكاتب من الصدقات إلى مولاه ثم عجز فهو طيب للمولى وإن كان غنياً أو هاشمياً لتبدل الملك فإن العبد يتملك صدقةً والمولى عوضاً عن العتق وإليه وقعت الإشارة النبوية في حديث عائشة رضي الله عنها، حيث قالت: دخل رسول الله ﷺ والبرمة تفور بلحم فقرب إليه خبز وأدم من أدم البيت، فقال «ألم أر برمة فيها لحم؟» قالوا: بلى ولكن ذلك لحم تصدق على بريرة وأنت لا تأكل الصدقة قال: «هو عليها صدقة ولنا هدية»[٤] متفق عليه، بخلاف ما إذا أباح للغني أو الهاشمي لأن المباح له يتناوله على ملك المبيح فلم يتبدل الملك فلم يتطيب ونظيره المشتري شراءً فاسداً إذا أباح لغيره لا يطيب له ولو ملكه يطيب له.

مسألة: إذا مات المكاتب قبل أداء بدل الكتابة مات رقيقاً عند الشافعي وأحمد ويرتفع الكتابة سواء ترك مالاً أو لم يترك كما لو تلف المبيع قبل القبض يرتفع البيع، قال البغوي وهو قول عمر وابنه وزيد بن ثابت وعمر بن عبد العزيز وقتادة، وقال أبو حنيفة ومالك والثوري وعطاء وطاوس والحسن البصري والنخعي إن ترك ما يفي بدل الكتابة فهو حرٌّ وبدل الكتابة للمولى والزيادة لورثته الأحرار.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال ابن عمر يعني قوةً على الكسب وهو قول مالك والثوري، وقال الحسن والضحاك ومجاهد يعني مالاً لقوله تعالى في الوصية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] أي مالاً، روي أن عبداً... لسلمان قال له كاتبني قال: لك مال؟ قال: لا، قال: تريد أن تطعمني من أوساخ الناس ولم يكاتبه، وهذا القول ضعيف لأن العبد وما في يده من المال ملك المولى إذ هو ليس أهلاً لمالكية المال... للمنافاة بين المالكية والمملوكية

---

(١) أخرجه أبو داود في الديات باب ٢٠، والترمذي في البيوع باب ٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع باب ٣٥، وأحمد في المسند ١/ ٩٤، ١٠٤.

(٣) أخرجه أبو داود في العتاق باب ١، والترمذي في البيوع باب ٣٥، وابن ماجه في العتق باب ٣، وأحمد في المسند ٦/ ٢٨٩، ٣٠٨، ٣١١.

(٤) أخرجه البخاري في الطلاق باب ١٤، ومسلم في العتق حديث ١٤، والنسائي في الطلاق باب ٢٩، ومالك في الطلاق حديث ٢٥، وأحمد في المسند ٦/ ١٧٨.

والواجب عليه الأداء مما يملكه بعدما صار أهلاً لمالكية المال يداً، وقال الزجاج لو أراد المال لقال إن علمتم لهم خيراً، وقال إبراهيم بن زيد وعبيد صدقاً وأمانةً، وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: أمانةً ووفاءً وقال الشافعي أظهر معاني الخير في العبد الاكتساب مع الأمانة فأحب أن لا يمتنع من كتابته إذا كان كذا، وقال صاحب الهداية المراد بالخير أن لا يضرُّ بالمسلمين وإن كان يضرُّ بهم بأن كان كافراً يعين الكفار أو نحو ذلك يكره كتابته ولكن تصح لو فعله، وحكى عن عبيدة في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي أقاموا الصلاة وقيل وهو أن يكون العبد عاقلاً بالغاً فأما الصبي والمجنون فلا يصح كتابتها لأن الابتغاء منهما لا يصح، قلتُ رتب الله سبحانه الأمر بالكتابة على قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ فاشتراط العقل فهم منه فيكون هذا الشرط على هذا التقدير لغواً واشتراط البلوغ لا وجه له لأن الصبي العاقل يتحقق منه الابتغاء.

مسألة: العبد الذي لا كسب له لا يكره كتابته عند أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في رواية عنه وفي رواية عن أحمد يكره بناءً على إرادة قدرة الاكتساب من الخير، قلتُ: لو سلمنا كون قدرة الاكتساب شرطاً لاستحباب الكتابة فانعدام شرط الاستحباب لا يقتضي الكراهة، كيف ويمكنه الوصول إلى المال بقبول الصدقات.

مسألة: يكره كتابة الأمة الغير المكتسبة اتفاقاً لأنها عسى أن تكتسب المال بالزنى والله أعلم.

﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ حث لجميع الناس على إعانتهم بالتصدق عليهم فريضةً كانت أو نافلةً، وقيل: المراد سهمهم الذي جعل الله لهم من الصدقات المفروضات بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهو قول الحسن وزيد بن أسلم، ولفظ الآية لا يقتضي تخصيص الصدقات بالمفروضة فإن هذا الأمر أيضاً للاستحباب كالأمر بالكتابة، وقيل: هذا خطاب للسادة فقيل يستحب للمولى أن يحط[(١)] من بدل الكتابة شيئاً وقيل يجب عليه ذلك، قال البغوي وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة وبه قال الشافعي ثم اختلفوا في قدره؟ فقال قوم حط عنه ربع الكتابة وهو قول علي أخرجه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن عبد الرحمن السلمي ورواه بعضهم عن علي مرفوعاً، وعن ابن عباس يحط عنه الثلث وقيل: يحط عنه ما شاء وهو قول الشافعي قال نافع كاتب عبد الله بن عمر غلاماً له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع في آخر كتابته خمسة آلاف درهم، وقال سعيد بن جبير كان ابن عمر إذا كاتب لم يضع عن مكاتبه من أول نجومه مخافة أن يعجز فيرجع إليه صدقته ووضع في آخر كتابته ما

(١) روي عن عمر أنه كاتب عبدالله يكنى أبا أمية فجاء بنجمه حين حلَّ قال يا أبا أمية اذهب فاستعن به في مكاتبتك قال يا أمير المؤمنين لو تركته حين يكون من آخر نجم قال أخاف أن لا أدرك وكدت ثم قرأ وآتوهم من مال الله الذي اتاكم ـ منه رحمه الله ـ.

أحب، قلت: تفسير الإيتاء بالحط غير صحيح لأن الإيتاء يدل على التمليك ولا تمليك في الحط ومن ها هنا قال أبو حنيفة لا يجب على المولى قط شيء من البدل اعتباراً بالبيع فإنه عقد معاوضة ولا يجب الحط في سائر المعاوضات فكذا فيها وهذا لأن الكتابة سبب لوجوب مال الكتابة على العبد فلا يجوز أن يكون بعينه سبباً لاستحقاق الحط الذي هو ضد الوجوب كالبيع، قلتُ: بدل الكتابة غير مقدر إجماعاً فلو كان حط شيء من بدل الكتابة واجباً على المولى لكان للمولى أن يكاتبه على الألف إذا أراد كتابته على سبعمائة فيحط عنه ثلاثمائة ويخرج عن العهدة ولا فائدة في ذلك.

أخرج مسلم من طريق أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: كان عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لجارية له اذهبي فأبغينا شيئاً فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ﴾ يعني إمائكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ يعني على الزنى عطف على قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ عطف النهي على الأمر وما بينهما معترضات، وأخرج مسلم من هذا الطريق أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة فكان يريدهما على الزنى فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج الحاكم من طريق أبي الزبير عن جابر قال كانت مسيكة لبعض الأنصار فقالت إن سيدي يكرهني على البغاء فنزلت، وأخرج البزار والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كانت لعبد الله بن أبي جارية تزني في الجاهلية فلما حرم الزنى قالت: والله لا أزني فنزلت، وأخرج البزار بسند ضعيف عن أنس نحوه وسمى الجارية معاذة، وأخرج سعيد بن منصور عن سفيان عن عمور بن دينار عن عكرمة أن عبد الله بن أبي كانت له أمتان مسيكة ومعاذة فكان يكرههما على الزنى فقالت إحداهما إن كان خيراً فقد استكثرتُ منه وإن كان غير ذلك فإنه ينبغي أن أدعه فأنزل الله، قال البغوي وروي أنه جاءت إحدى الجاريتين يوماً ببرد وجاءت الأخرى بدينار فقال لهما فارجعا فازنيا قالتا والله لا نفعل قد جاء الإسلام وحُرم الزنى فأتتا رسول الله ﷺ وشكتا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج الثعلبي من حديث مقاتل أنه كان لعبد الله بن أبي ست جواري الحديث فنزلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي تعففاً، قال البيضاوي: ليس هذا شرطاً قيداً للإكراه فإنه لا يوجد بدونه وإن جعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي بارتفاع المنهي عنه يعني عند عدم إرادة التحصن يمتنع الإكراه بل يتحقق الزنى طوعاً، قلتُ: إن ها هنا بمعنى إذا وهو ظرف ليس بشرط والكلام خرج كذلك لمطابقة سبب النزول واختير أن موضع إذا للدلالة على أن إرادة التحصن من الإماء كالشاذ النادر وفي هذا التقييد توبيخ للموالي وتشنيع لهم على إكراههم وتنبيه على أنهن مع قصور عقلهن واشتهاء أنفسهن لما أردن تحصناً فأنتم أيها السادة مع أنكم رجال غيور أحق بذلك، وقال الحسين وفضيل في الآية تقديم وتأخير تقديرها وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصناً ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾ لتطلبوا أيها السادة بإكراههن ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني كسبهن وبيع أولادهن ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني للمكرهات والوزر على المكرِه لما

كان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن والله ولما في مصحف ابن مسعود من بعد إكراههن لهن غفور رحيم أخرج هذه القراءة عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود وعلى هذا التأويل قوله: من يكرههن مبتدأ خبره محذوف لأن الجملة التالية لا تصلح أن تكون خبراً له لعدم العائد إلى المبتدأ تقديره ومن يكرههن فعليه وزرهن فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم ولو قيل: تأويل الآية فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم له أي لمن أكره إن تاب جاز كونه خبراً للمبتدأ لكنه بعيد لأن سياق الكلام للتوبيخ لمن أكره وذا لا يناسب الوعد بالمغفرة والرحمة كيف والآية نزلت في عبد الله بن أبي المنافق وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(١) [المنافقون: ٦].

فإن قيل: المكرَهة غير آثمة فلا حاجة إلى المغفرة؟ قلنا: الإكراه بجملته لا ينافي أهلية الأداء لوجود الذمة والعقل ولا يوجب وضع الخطاب بحال لأن المكره مبتلى والابتلاء يحقق الخطاب ولذلك حرم على المكره بالقتل ونحوه الزنى إن كان رجلاً اتفاقاً، وكذا حرم قتل النفس على المكره بالفتح مطلقاً اتفاقاً ووجب عليه القصاص عند زفر خلافاً لأبي حنيفة على ما حقق في موضعه غير أنه تعالى رفع الإثم ورخص في مواضع كإجراء الكفر على اللسان إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان، وإفساد الصلاة والصوم والإحرام وإتلاف مال الغير إذا كان الإكراه كاملاً، ورفع الإثم والرخصة إنما هو أثر الرحمة والمغفرة ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣] حيث ذكر المغفرة والرحمة مع رفع الإثم، ويمكن أن يقال إن رفع الإثم إنما هو في الإكراه الملجىء وهو ما يخاف منه المكره تلف نفس أو عضو ممن يقدر على إيقاعه والكلام ها هنا في إكراه عبد الله بن أبي علي أمتيه والظاهر أن ذلك لم يكن ملجئاً فلم يرتفع الإثم والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا محمد في هذه السورة جواب قسم محذوف ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ قرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بالكسر على صيغة اسم الفاعل يعني آيات بينات الأحكام والحدود أو من بين بمعنى تبين يعني واضحات تصدقها الكتب المقدمة والعقول السليمة، وقرأ الباقون بالفتح على صيغة اسم المفعول يعني آيات بينات في هذه السورة

---

(١) وفي الأصل: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين - وليس في القرآن هكذا - ١٢ - الفقير الدهلوي -.

وأوضحت فيها الأحكام والحدود ﴿وَمَثَلًا مِّنَ﴾ جنس أمثال ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني قصةً عجيبةً مثل قصصهم وهي قصة عائشة فإنها كقصة يوسف ومريم، أو المعنى شبيهاً من حالهم بحالكم أيها القاذفون أن يلحقكم مثل ما لحق من قبلكم من المفترين ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ وعظ بها في تلك الآيات ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم هم المنتفعون بها وقيل المراد بالآيات القرآن وهو موصوف بالصفات المذكورة.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النور في الأصل كيفية يدركها الباصرة أولاً ويدرك بها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجسام الكثيفة المحاذية لهما وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى فهو ليس على ظاهره ويدل عليه إضافته إلى ضميره تعالى في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فالمعنى إما بتقدير المضاف أو على المبالغة كقولك زيد كرم أي ذو كرم أو كريم غاية الكرم كأنه نفس الكرم مبالغة أو هو مصدر بمعنى الفاعل يعني منور السماوات والأرض بالشمس والقمر والكواكب وبالأنبياء والملائكة والمؤمنين كذا قال الضحاك ويقال منور الأرض بالنبات والأشجار، وقيل معناه الأنوار كلها منه يقال فلان رحمة أي منه الرحمة، وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح يقول القائل إذا سار عبد الله من مرو ليلةً، فقد سار منها نورها وجمالها، وقيل: المعنى مدبرها من قولهم للرئيس الفائق في التدبير نور القوم لأنهم يهتدون به في الأمور، وقيل: معناه موجدها فإن النور ظاهر لذاته مظهر لغيره وأصل الظهور الوجود كما أن أصل الخفاء العدم والله سبحانه موجود بذاته موجد لكل ما عداه، أو الذي به يدرك أو يدرك أهلها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه، ثم على البصيرة لأنها أفوق إدراكاً فإنها يدرك نفسها وغيرها من الكليات والجزئيات الموجودة والمعدومة وتغوص في بواطنها ويتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكات لبست لأهلها لذواتها ولا لما فارقتها فهي إذن من سبب يفيضها عليه، وهو الله سبحانه ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سموا أنواراً ويقرب من هذا القول ما ذكر البغوي من قول ابن عباس أن معناه هادي أهل السماوات والأرض فهم بنوره يعني بهدايته إلى الحق يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون فإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه، أو لاشتمالها على الأنوار الحسية والعقلية وقصور الإدراكات البشرية عليها وعلى المتعلق والمدلول بهما.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي صفة نور الله في قلب المؤمن الذي يهتدي به إلى ذاته تعالى وصفاته وتصديق ما قال مما لا يستبد في إدراكه عقول الفحول ويرى به الحق حقاً والباطل باطلاً قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] قال البغوي كان ابن مسعود يقرأ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في قلب المؤمن، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل نوره الذي أعطى المؤمن، وقال بعضهم الضمير عائد إلى المؤمن وكان أبي يقرأ مثل نور قلب من آمن وهو عبد جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، وقال الحسن وزيد بن أسلم أراد بالنور القرآن، وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد ﷺ، وقيل: أراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نوراً وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي الكوة التي لا منفذ لها فإن كان لها منفذ

فهي الكوة، قيل: هي حبشية وقال مجاهد هي القنديل والمضاف مقدر والمعنى مثل نوره كمثل نور مشكاة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي سراج مفعال من الصبح بمعنى الضوء ومنه الصبح بمعنى الفجر ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي في قنديل من الزجاج، قال الزجاج إنما ذكر الزجاجة لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء وضوؤه يزيد في الزجاج وهذه الجملة صفة للمصباح والعائد المظهر الموضوع موضع المضمر ثم وصف الزجاجة بقوله: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ الجملة صفة لزجاجة والعائد فيها أيضاً المظهر الواقع موضع الضمير، قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال والمد والهمزة فهو فِعّيلٌ من الدرء وقرأ أبو بكر وحمزة بضم الدال والمد والهمزة وهذا الوزن شاذ، قال أكثر النحاة ليس في كلام العرب فُعِيل بضم الفاء وكسر العين، وقال أبو عبيدة أصله فعول من دراأت مثل سبوح، ثم استثقلوا كثرة الضمات فردوا بعضها إلى الكسرة كما قالوا عُتِيًّا بضم العين من العتو، وعلى هذين القراءتين هو مشتق من الدرء بمعنى الدفع فإنه يدفع الظلام بضوئه أو يدفع بعض ضوئه بعضاً من لمعانه أو يدفع الشياطين من السماء وشبَّهه بحالة دفعة الشياطين لأنه يكون في تلك الحالة أضوأ وأنور ويقال هو من درأ الكوكب إذا اندفع فيتضاعف ضوؤه في ذلك الوقت، وقيل: درأ بمعنى طلع يقال درأ النجم إذا طلع وارتفع ويقال درأ علينا فلان أي طلع وظهر والمعنى كأنها كوكب طالع، وقرأ الآخرون بضم الدال وتشديد الراء والياء منسوب إلى الدُّر في صفائه وحسنه. فإن قيل: الكوكب أكثر ضوءاً من الدر فما وجه نسبته إليه؟ قلنا: معناه أنه أضوأ وأحسن من سائر الكواكب كما أن الدر أضوأ وأحسن من سائر الحبوب، وقيل: الكوكب الدري واحد من الكواكب الخمسة العظام وهي الزحل والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد قلت لعل ذلك الكوكب هي الزهرة لكونها أضوأ من غيرها، قيل: شبه بالكوكب ولم يشبه بالشمس والقمر لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكسوف بخلاف الكواكب، قلتُ: بل وجه ذلك أن المصباح يُشَبَّه بالشمس حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] فشبه الزجاجة بالكوكب ليدل على انحطاط رتبة الزجاجة من رتبة المصباح ولو قال كأنها شمس لزم فضل الزجاجة على المصباح وهو مخل بالمقصود، ﴿يُوقَدُ﴾ خبر ثان للمصباح أو حال من الضمير المستكن في الظرف المستقر أعني في زجاجة العائد إلى المصباح، قرأ ابن كثير(١) وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بفتح التاء الفوقانية وفتح الواو والقاف المشددة والدال على صيغة الماضي من التفعل بمعنى توقد المصباح أي اتقدت يقال توقدت النار أي اتقدت، والباقون على صيغة المضارع المجهول من الأفعال فأبو بكر وحمزة والكسائي(٢) بالتاء الفوقانية على أن الضمير راجع إلى الزجاجة بحذف المضاف والتقدير توقد نار الزجاجة لأن الزجاجة لا توقد، والباقون بالياء التحتانية على أن الضمير للمصباح أي يوقد المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ من للابتداء يعني ابتداءً يوقد المصباح من

---

(١) وفي الأصل: ابن ذكوان ـ وهو من زلة القلم ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.
(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

شجرة أو للسببيَّة على حذف المضاف أي من دهن شجرة، أبهم الشجرة ثم وصفها بقوله ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ثم أبدلها وبينها بقوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾تعظيماً لشأنها وتفخيماً لأمرها لأنها كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة فإن الزيت يسرج به وهو أصفى وأضوأ الأدهان وهو إدام وفاكهة ولا يحتاج في استخراجه إلى عصّار بل كل واحد يستخرجه، قال البغوي جاء في الحديث أنه مصحح من الناسور وهي شجرة توقد من أعلاها إلى أسفلها، ذكر البغوي عن أسيد بن ثابت أو أسيد الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه شجرة مباركة»[1] ورواه الترمذي عن عمر مرفوعاً وأحمد والترمذي والحاكم عن أبي أسيد مرفوعاً ورواه ابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه طيب مبارك» ورواه أبو نعيم في الطب عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه شفاء من سبعين داء منها الجذام»[2].

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾صفة لزيتونةٍ وحرف النفي جزء من المحمول، قيل معناه ليس بمضحى تشرق عليها الشمس دائماً فتحرقها ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ولا في مقناة تغرب وتغيب عنها الشمس دائماً فتتركها نياً وهو قول السدي وجماعة، وقيل معناه لا شرقية تقع عليها الشمس عند طلوعها فقط ولا غربية تقع عليها الشمس عند غروبها دون طلوعها بل هي نابتة على قلة أو في صحراء واسعة تقع عليها الشمس دائماً فيكون ثمرها أنضج وزيتها أصفى، قال البغوي وهذا كما يقولون فلان لا بأبيض ولا بأسود يريدون ليس بأبيض خالص ولا بأسود خالص بل اجتمع فيه الأمران يقال هذا الرُّمَّان ليس بحامض ولا حلو أي بل اجتمع فيه الحموضة والحلاوة وهو قول ابن عباس في رواية عكرمة والكلبي والأكثرين، وقيل: معناه غير نابتة في مشرق الأرض ولا في مغربها بل في وسطها وهو الشام فإن زيتون الشام يكون أجود، وقال الحسن ليست هذه من أشجار الدنيا ولو كانت في الدنيا كانت شرقية أو غربية وإنه مثل ضربه الله لنوره، قلتُ وعلى هذا القول لعل الله سبحانه أراد شجرة من أشجار الجنة ومثل نوره بنور زيتونِ الجنة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾أي دهنها ﴿يُضِيٓءُ﴾بنفسه لتلألؤه وفرط وبيصه[3] ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾يعني قبل أن يصيبه النار، هذه الجملة صفة أخرى لزيتونة وفيه مبالغة في بيان صفاء. . . زيت الزيتون وبياضه، وكلمة يكاد موجب لتصحيح المقال ﴿نُّورٌ﴾به ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾بالنار فهو نور متضاعف فإن نور المصباح زاد في إناراته وصفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط مشكاة لا منفذ فيه، قال البغوي اختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل؟ قال بعضهم وقع التمثيل لنور محمد ﷺ، قال ابن عباس لكعب الأحبار أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه ﷺ فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه

(١) أخرجه الترمذي في الأطعمة باب ٤٣، والدارمي في الأطعمة باب ٢٠، وأحمد في المسند ٣/ ٣٩٧.
(٢) أخرجه بنحوه البغوي في تفسيره ٥/ ٧٨، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٥٠.
(٣) بريقه.

والمصباح فيها النبوة يكاد نور محمد ﷺ وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما كان يكاد ذلك الزيت أن ﴿يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ ولنعم ما قال كعب فها أنا أذكر فصلاً في ظهور أمر نبوته قبل أن يبعث وقبل أن يتكلم أنه نبي.

فصل

وفي معجزاته التي ظهرت قبل بعثته ﷺ ذكر في خلاصة السير أنه قالت أم النبي ﷺ رأيت في المنام حين حملتُ به أنه خرج مني نور أضاء له قصور بصرى من الشام ثم وقع حين ولدته أنه لواضع... بالأرض رافع رأسه إلى السماء، وقال الحافظ ابن حجر: إن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت لها قصور الشام وقال صححه ابن حبان والحاكم، وعند أبي نعيم في الدلائل أنه ﷺ لما ولد ذكرت أمه أن الملك غمسه في ماء أنبعه ثلاث مرات ثم أخرج صرة من حرير أبيض فإذا فيها خاتم فضرب على كتفه كالبيضة المكنونة تضيء كالزهرة، وروى البيهقي وابن أبي الدنيا وابن السكن أن ليلة ميلاده ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرافة وأفزع كسرى وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغارت بحيرة سلوة، وفي حديث عائشة: كان يهودي سكن مكة يتجر فيها قال ليلة مولد رسول الله ﷺ يا معشر قريش ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف الفرس فخرجوا باليهودي حتى أدخلوه على أمه فقالوا أخرجي المولود ابنك فأخرجته وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة فوقع اليهودي مغشياً عليه قالوا: ما لك ما لك؟ قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل» رواه الحاكم وفي المواهب اللدنية قصة عميصا الراهب كان يقول لأهل مكة يوشك أن يولد منكم يا أهل مكة مولود يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه، فلما ولد قال لعبد المطلب قد ولد لك المولود الذي كنتُ أحدثكم عنه، وعن العباس بن عبد المطلب قال قلتُ: يا رسول الله دعاني إلى الدخول في دينك أمارة لنبوتك رأيتُك في المهد تناغي[١] القمر وتشير إليه بأصبعك فحيث أشرتَ إليه مال، قال: كنتُ أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء وأسمع وجبته[٢] حين يسجد تحت العرش وعد من الخصائص أن مهده ﷺ كان يتحرك بتحريك الملائكة، وروي أنه ﷺ تكلم أوائل ما ولد، وروى أبو يعلى وابن حبان عن عبد الله بن جعفر عن حليمة مرضعة النبي ﷺ قالت: لما وضعتُه في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء[٣] من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه تعني ضمرة وناما، وما كان ينام قبل ذلك وما

---

(١) تناغى أي تجادل ـ هكذا في حاشية الأصل من يد المفسر رحمه الله تعالى والغالب أنه تحادث لأن المناغاة المحادثة فلعله من زلة القلم ـ ١٢ ـ الفقير الدهلوي ـ ناغت الأم صبيها لاطفته وشاغلته بالمحادثة والملاعبة ـ ١٢ ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) أي صوت.

(٣) بما شاء أي بما شاء الله من لبن إلخ كذا في الزرقاوي ـ ١٢ ـ الفقير الدهلوي ـ.

كان في ثديي من يرويه ولا في شارفنا[١] ما يغذيه، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا إنها لحافل فحلب منها ما شرب وشربتُ حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة، ولما رجعنا ركبتُ أتاني وحملتهُ عليها فوالله لقد قطعت[٢] ما لا يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى أن صواحبي ليقلن لي ويحك يا بنت أبي ذويب إربعي[٣] علينا أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها، فأقول: بلى وكانت قبل ذلك قد أذمت[٤] بالركب حتى شق عليهم ضعفاً وعجفاً، وعن ابن عباس قال: كانت حليمة تحدث أنها أول ما فطمت رسول الله ﷺ تكلم فقال الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً. . . فلما ترعرع[٥] كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم الحديث.

وعنه قال: كانت حليمة لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً فغفلت عنه فخرج مع أخته الشيماء في الظهيرة إلى البهم فخرجت حليمة تطلبه فوجدته مع أخته فقالت: في هذا الحر فقالت أخته يا أمه ما وجد أخي حراً رأيتُ غمامة تظله إذا وقف وقفت وإذا سار سارت معه. وفي الشمائل المحمدية قالت حليمة ما كنا نحتاج إلى السراج من يوم أخذناه لأن نور وجهه كان أنور من السراج فإذا احتجنا إلى السراج في مكان جئنا به فتنورت الأمكنة ببركته ﷺ، وروي أن حليمة لما أخذته دخلت على الأصنام فنكس الهبل رأسه وكذا جميع الأصنام من أماكنها تعظيماً له، وجاءت به إلى الحجر الأسود ليقبله فخرج الحجر الأسود من مكانه حتى التصق بوجهه الكريم ﷺ، وروي أنه لما أرضعته حليمة در لبنها وانهمر فكانت ترضع معه عشرةً أو أكثر، وكانت حليمة إذا مشت به على واد يابس اخضر في الوقت، وكانت تسمع الأحجار تنطق بسلامها عليه والأشجارت تحن بأغصانها إليه، وكان النبي ﷺ يخرج. . هو وأخوه يرعيان الغنم فقال أخوه إن أخي الحجازي إذا وقف بقدميه على الوادي يخضر لوقته، وإذا جاء إلى البئر ونحن نسقي الأغنام يعلو الماء إلى فم البئر وإذا أقام في الشمس ظلته الغمامة، وتأتي الوحوش إليه وهو قائم فتقبّله.

وفي خلاصة السير أن مرضعة النبي ﷺ قالت: بينما هو في بهم لنا إذ جاء أخوه يشتد فقال أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه، قالت: فخرجنا نحوه فوجدناه قائماً متقنعاً وجهه فالتزمناه وقلنا ما لك، قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو، وفي رواية من حديث شداد بن أوس عند أبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر فإذا أنا برهط ثلاث معهم طست من ذهب مليء

---

(١) الناقة.

(٢) هكذا في الزرقاوي وفي الأصل فوالله تقطعت إلخ ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٣) أي قفي.

(٤) أي انقطع يسيراً فحبستهم.

(٥) في الأصل: تزعزع بالزاءين المعجمتين وليس بشيء وفي مجمع البحار ترعرع الصبي بالرائين المهملتين إذا نشأ وكبر ـ ١٢ ـ الفقير الدهلوي ـ.

ثلجاً فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني وأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى به، ثم قال بيده يمنةً ويسرةً كأنه يتناول شيئاً فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر دونه، فختم به قلبي فامتلأ نوراً وذلك نور النبوة والحكمة ثم أعاد مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهراً، ثم قال الثالث لصاحبه تنح فأمر يده بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق، وفي حديث أنس قال: لقد كنت أرى أثر المخيط في صدره ﷺ، وأخرج ابن عساكر أن أبا طالب حين أقحط الوادي استسقى ومعه النبي ﷺ وهو غلام فأخذ أبو طالب النبي ﷺ وألصق ظهره بالكعبة ولاذ النبي ﷺ بأصبعه وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا وأغدق وأغدق[١] وانفجر له الوادي، وفي ذلك قال أبو طالب[٢] (شعر):

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[٣]

وفي خلاصة السير أنه لمَّا بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشر سنة خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام فلما بلغ بصرى رآه بحيرا الراهب فعرفه بصفته فجاء فأخذ بيده وقال: هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقيل: وما علمك بذلك؟ قال: إنكم أقبلتم من العقبة فلم يبق حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجداً ولا يسجدان إلا للنبي وإنا نجده في كتبنا، وقال لأبي طالب لئن قدمت به الشام ليقتلنه اليهود فرده خوفاً عليه، ثم خرج النبي ﷺ مرةً ثانيةً إلى الشام وهو ابن خمسة وعشرين سنة مع ميسرة غلام خديجة في تجارة لها قبل أن يتزوجها، فلما قدم الشام نزل تحت ظل شجرة قريباً من صومعة راهب فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل؟ قال: ميسرة رجل من قريش من أهل الحرم فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، وفي بعض الروايات أن الراهب دنا إلى النبي ﷺ وقال: آمنت وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة فلما رأى الخاتم قبَّله وقال: أشهد أنك رسول الله النبي الأمي الهاشمي العربي المكي صاحب الحوض والشفاعة ولواء الحمد، وقيل: إن ميسرة قال: كان إذا كانت الهاجرة واشتد الحر نزل ملكان يظلانه من حر الشمس وهو يسير على بعيره، ولما سمعت خديجة ذلك من ميسرة اشتاقت إلى أن يتزوجها ﷺ.

فائدة: قال السهيلي في توجيه قول الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي أنه يريد ما نزل تحتها هذه الساعة ومبني قوله هذا بعد العهد بالأنبياء واستبعاد بقاء الشجرة تلك المدة الطويلة واستبعاد وجود شجرة على الطريق تخلو من أن ينزل تحتها أحد قط لكن لفظة

---

(١) أي أكثر المطر.

(٢) البيت من الطويل وهو في ديوان أبي طالب ص٩٨، أي المساكين من الرجال والنساء ـ وهو بالنساء أخص التي مات زوجها ـ منه رحمه الله ـ.

(٣) بالكسر الملجأ والغياث.

قط في الخبر يمنع هذا التوجيه، ولا شك أن المعجزات إنما تكون بخرق العادات فلا وجه للاستبعاد فإن الله قادر على إبقاء الشجرة وصرف الناس عن النزول تحتها زماناً طويلاً على خلاف العادة والله أعلم.

رجعنا إلى التفسير روى سالم عن ابن عمر في هذه الآية قال: المشكاة جوف محمد ﷺ والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعل الله فيه لا شرقية ولا غربية أي لا نصراني ولا يهودي توقد من شجرة مباركة يعني إبراهيم ﷺ نور على نور نور قلب إبراهيم على نور قلب محمد ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي المشكاة إبراهيم والزجاجة إسماعيل والمصباح محمد ﷺ سماه الله مصباحاً كما سماه سراجاً حيث قال: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] توقد من شجرة مباركة وهي إبراهيم ﷺ سماه مباركاً لأن أكثر الأنبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية يعني إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً لأن اليهود يُصَلُّون قبل المغرب والنصارى قبل المشرق ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ يكاد محاسن محمد ﷺ تظهر للناس قبل أن يوحى إليه نور على نور نبي من نسل نبي نور محمد على نور إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وقال بعضهم وقع هذا التمثيل لما نور به قلب المؤمن من العلوم والمعارف بنور المشكاة المثبت فيها من مصباحها ويؤيده قراءة أبي وابن مسعود، روى أبو العالية عن أبي بن كعب قال: هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعله الله من الإيمان والقرآن في قلبه ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهي الإخلاص لله وحده فمثله كمثل الشجرة التي التفت بها الشجر وهي خضراء ناعمة لا يصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت، وكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا حكم عدل وإذا قال صدق، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته إياه نورٌ على نورٌ قال أبي وهو ينقلب بين خمسة أنوار قوله نور وعلمه نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة، وقال ابن عباس هذا مثل نور الله وهذا في قلب المؤمن يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى فإذا جاءه العلم ازداد هدىً على هدىً ونوراً على نورٍ قلتُ يعني قلب الصوفي ينشرح بالحق قولاً وفعلا واعتقاداً فيقبله وينقبض بالباطل فلا يقبله، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «استفت نفسك وإن أفتاك المفتون»[1] رواه البخاري في التاريخ عن وابصة بسند حسن، فإذا جاءه العلم بالكتاب والسنة ازداد هدىً ويقيناً، وقال الكلبي يعني إيمان المؤمن وعمله، وقال السدي نور الإيمان ونور القرآن، وقال الحسن وابن زيد هذا مثل للقرآن فالمصباح هو القرآن فإنه كما يستضاء بالمصباح يهتدي بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ١٦٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٩٣٣٩، وأبو نعيم في الحلية الأولياء ٩/ ٤٤، والبخاري في التاريخ الكبير ١/ ١٤٥.

ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء أي يكاد حجة القرآن يتضح وإن لم يقرأ، يعني القرآن نور من الله عزَّ وجل لخلقه مع ما أقام لهم من الدلالات والإعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نوراً على نورٍ.

وقيل: هو تمثيل للهدى الذي دل عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيه للهدى من حيث إنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح وإنما دخل الكاف على المشكاة لاشتمالها عليه، أو تمثيل لما منح الله على عباده من القوى الدراكة الخمس المترتبة التي ينط بها المعاش والمعاد وهي الحساسة التي يدرك المحسوسات بالحواس الخمس والخيالة التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائق الكلية والمتفكرة التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها علم ما لم يعلم والقوة القدسية التي يتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت المختصة بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت، فإن الحساسة كالمشكاة لأن لها محلها كالكوى ووجهها إلى الظاهر لا يدرك ما وراءها وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات، والخيالية كالزجاجة في قبول صور المدركات من الجوانب وضبطها للأنوار العقلية وإنارتها بما يشتمل عليها من العاقلة، والعاقلة كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارف الإلهية، والمتفكرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهاية لها الزيتونة المثمرة للزيت الذي هو مادة المصباح التي لا تكون شرقية ولا غربية لتجردها عن اللواحق الجسمية أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفةً في القبيلتين منتفعة من الجانبين، والقوة القدسية كالزيت فإنها لصفائها وذكائها يكاد يضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعلم، أو تمثيل للقوة العقلية فإنها في بدء أمرها خالية عن العلوم مستعدة لقبولها كالمشكاة ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئيات بحيث يتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متلالية في نفسها. . . . .(١) فإذا حصل له العلم فإن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتونة وإن كان بالحدث فكالزيت وإن كان لقوة قدسية فكالذي ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لأنها تكاد تعلم ولو لم يتصل بملك الوحي والإلهام الذي مثله النار من حيث إن العقول تشتغل عنها، ثم إذا حصلت لها العلوم بحيث يتمكن من إحضارها متى شاءت كان كالمصباح فإذا استحضر ما كان نواً على نور ولي في هذه الآية تأويلان آخران مبتنيان على كشف المجدد للألف الثاني ﷺ أحدهما ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني موجدها ومظهرها من كتم العدم في الخارج الظلي مثل نوره أي وجوده الذي انبسط على ماهيات الممكنات، والإضافة للتشريف كما في بيت الله وناقة الله أو لأنه صادر منه كما يقال نور الشمس والقمر لما

---

(١) بياض في الأصل.

انبسط على الأرض من النور لأجل مقابلتهما كمشكاة أي كنور مشكاة على حذف المضاف فيها مصباح تنورت المشكاة بذلك المصباح فكما أن المشكاة استفادت النور وتنورت بالمصباح كذلك ماهيات الممكنات استفادت نور الوجود ووجدت بمصباح صفات الله سبحانه وأسمائه ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ نعت الله سبحانه المصباح بكونها في الزجاجة لكمال التصوير، فإن المجدد رضي الله عنه قال: إن مبادي تعينات عامة الممكنات سوى الأنبياء والملائكة، ظلال الأسماء والصفات وذلك أن الله سبحانه كما يعلم صفات كماله كذلك يعلم نقائضها التي هي مسلوبة عنه تعالى كالموت نقيض الحياة والجهل نقيض العلم والعجز نقيض القدرة والصمم نقيض السمع والعمى نقيض البصر وإليكم نقيض الكلام والجبر نقيض الإرادة والتعطل نقيض التكوين، وإذا اجتمعت في مرتبة العلم صفاته تعالى مع نقائضها انتقشت وتلونت صور تلك النقائض بعكوس الصفات فصارت مخلوطات حقائقها الإعدام وعوارضها عكوس الصفات، فتلك المخلوطات تسمى في اصطلاح الصوفية بظلال الصفات والأعيان الثابتة في مرتبة العلم ومبادي تعينات الممكنات وحقائقها ومربيات لها وهي كالزجاجة التي تنورت بنور المصباح والظرفية من حيث التجلي فإن الصفات تجلّت في الظلال. . . فتنوَّرت الظلال بأنوارها كما أن الزجاجة تنوَّرت بنور المصباح الكائن فيها والظلال تجلَّت وأعطت نورها المقتبس من الصفات على ماهيات الممكنات، فتنوَّرت ووجدت وظهرت الماهيات بنور الظلال كما أن المشكاة تنورت بنور الزجاجة المقتبس من المصباح، قال رسول الله ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1] رواه مسلم في حديث أبي موسى، لعل المراد بالنور في هذا الحديث هي مرتبة الظلال وسبحات الوجه صفات الله سبحانه، فإن ماهيات الممكنات لدنو رتبتها وضعف استعداداتها غير صالح للاقتباس عن الصفات من غير توسط الظلال فلولاها لانعدم الممكنات بأسرها، لكن الأنبياء والملائكة لقوة استعداداتهم اقتبسوا من الصفات كما أن الظلال اقتبسوا منها ولأجل ذلك خلقوا معصومين لانعدام الشر في أصولهم، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ يعني أنها لامعة بأنوار المصباح بحيث تشتبه بالمصباح على الناظرين حتى لا يكادون يميزون بينها وبين المصباح قال الشاعر[2]:

رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا زجاج ... وكأنما زجاج ولا خمر

ومن أجل هذا التشابه والتشاكل بين الظلال والصفات زعم كثير من العرفاء (وهم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٣، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣، وأحمد في المسند ٤/ ٤٠١، ٤٠٥.

(٢) البيتان بلا نسبة في التذكرة الفخرية لبهاء الدين الإربلي ص٤١٢، ورواية البيت الثاني فيه:
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

الصوفية الوجودية) الظلال صفاتٍ لله تعالى ولم تتميز عندهم المرتبتان وقالوا الصفات عين الذات، وزعموا ماهيات الممكنات عين ما يتجلى فيها من مربياتها، فقالوا ليس في الكون إلا الله وليس في جبتي سوى الله وقال شاعرهم[١] (شعر):

لا ملك سليمان ولا بلقيس ... ولا آدم في الكون ولا إبليس

والكل صور وأنت المعنى ... يا من هو للقلوب مغناطيس

وما هي إلا هفوات نشأت من السكر وغلبة العشق فلم يتميزوا بين المتجلي وبين ما تجلى فيه رحمهم الله.

يوقد ذلك المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ يعني من ﴿زَيْتُهَا﴾ اعلم أن الصفات تنوَّرت أي وجدت وظهرت في الخارج الحقيقي بذات الله سبحانه فهي ممكنة في نفسها واجبة بذات الله تعالى وهي من جهة إمكانها مربيات لتعينات الأنبياء والملائكة وهي موجودة بوجود قديم مستفاد من الذات فالذات شُبِّهت بشجرة مباركة زيتونة، ولأجل ذلك نعتت الشجرة بكونها لا شرقية ولا غربية لمتنزه الذات عن جميع الجهات، وهذه الصفات التي شبهت بالمصباح زائدة على الذات على ما هو مستفاد من الكتاب والسنة وعليه انعقد إجماع أهل الحق من الأمة، وأما قول الأشعري أنها لا عين الذات ولا غيرها معناه أنها زائدة على الذات فليست عينها غير منفكة عنها وهو المعنى بلا غيرها وأنكر الفلاسفة والمعتزلة الصفات الزائدة وقالوا: لو كانت الصفات غير الذات زائدةً عليها لزم احتياج الذات إليها في ترتب الآثار، فقال المتكلمون الممتنع الاحتياج إلى شيء أجنبي وأما الاحتياج إلى الصفات فغير ممتنع، وقال المجدد ﷺ إن صفات الله تعالى الزائدة على الذات موجودة في الخارج على ما اقتضته الحكمة الخفية ودلت عليه النصوص والإجماع لكن ذاته تعالى في حد ذاته مستغن عن الصفات غير محتاجة إليها في ترتب الآثار حتى لو فرضنا عدم الصفات لكفى الذات في ترتب الآثار، فالذات كاف في الاستماع ولو فرضنا عدم زيادة وصف السمع وكذلك كاف في الأبصار ونحو ذلك فالذات باعتبار أنها صالحة لترتب آثار الاستماع تسمى شأن السمع واعتباره وباعتبار أنها صالحة للأبصار تسمى شأن البصر وهكذا فالشيون أصول للصفات كما أن الصفات أصول للظلال، وهذه الاعتبارات والشيون الكائنة في الذات شبيهة بالزيت في الشجرة المباركة الزيتونة فتم التشبيه بقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ حيث جاز ترتب الآثار على اعتبارات الذات ولو لم تكن هناك صفات شبيهة بنار المصباح ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني نور المصباح المنور للزجاج والمشكاة زائدة على نور زيت الشجرة كما أن نور الصفات في ترتب الآثار عليها وإضاءة الماهيات وإيجاد الممكنات زائد على نور اعتبارات في الذات ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

﴿يَشَآءُ﴾ يعني لا يعلم هذه المعارف الخاصة إلا من يشاء الله من خواص العرفاء والله أعلم.

وعلى هذا التأويل في هذه الآية إشارة إلى الإيجاد والولادة الأولى من كتم العدم إلى الوجود الخارجي الظلي المستلزم لأقربية الذات بسائر الموجودات عامة المكنى بقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقد ذكرنا تحقيق الأقربية في تفسير تلك الآية في سورة قاف.

والتأويل الثاني: على ما قاله السلف ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره يهتدون إلى معرفة الذات والصفات ويرتقون إلى مدارج القرب الخاص المكنى عنه بقوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله ﷺ حكاية عن الله سبحانه: «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحببته فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به»(١) الحديث، وهذا القرب هو المسمى بالولاية الخاصة ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في قلب المؤمن كمشكاة أي كنور مشكاة فيها مصباح فالمشكاة حينئذ مثال لقلب المؤمن والمصباح الموقد من ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ شبيه بما يتجلى في قلب المؤمن من صفات الله سبحانه المنشعبة من الذات المندمج فيها الشيون والاعتبارات الذاتية على ما مرَّ تقريره، وقوله: ﴿مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ إشارة إلى أن عامة الناس من الأولياء ليس حظهم من تجليات الصفات إلا من وراء حجب الظلال فإن مبادىء تعينات غير الأنبياء إنما هي ظلال الصفات فغاية ارتقائهم بالأصالة إلى أصولهم وهي الظلال التي يقتبسون بتوسطها أنوار الصفات فيحصل لهم فيها الفناء والبقاء ويتقربون إلى الله بقرب يسمى ولاية الأولياء وهي الولاية الصغرى، لكن بعض الأكابر منهم قد يحصل لهم الترقي من هذا المقام بتبعية صاحب الشريعة إلى مقام الصفات بل إلى الشيون والأعتبارات ويحصل فيها الفناء والبقاء فمقام الصفات من حيث الظهور يعني من حيث قيامها بالذات يسمى الولاية الكبرى ولاية الأنبياء ومن حيث البطون يسمى الولاية العليا ولاية الملائكة، ثم الصديقون منهم وهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الواقعة: ١٣] يعني أصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٤] يرتقون من مقام الصفات والشيون إلى مرتبة الذات المتعالي من الشيون والاعتبارات حتى يتجلى الذات بلا حجب الصفات والاعتبارت فتبارك الله رفيع الدرجات، وليس في هذه الآية إشارة إلى الفريقين الأخيرين غير أن قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ جاز أن يكون إشارة إلى تفاوت درجات الأولياء في مراتب وصولهم إلى الله تعالى، يعني أن هناك نور على نور بعضها فوق بعض ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ على حسب ما شاء.

عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

فألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلَّ فلذلك أقول جف القلم على علم الله»[1] رواه أحمد والترمذي يعني خلق الله خلقه في ظلمة أي جهل وضلال ناشىء من العدم الذاتي الكائن في مبادىء تعيناتهم فألقى عليهم من نوره أي من النور الذي اقتبس الظلال من الصفات فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل وطريق الإصابة أن يقتبس ذلك النور ممن بعثه الله رحمة للعالمين وشرح صدره وملأ قلبه نوراً وحكمةً وإيماناً ويجعل قلبه مرآةً لقلبه ﷺ فيتنور قلبه بقدر الاقتباس والاقتفاء فمنهم من اكتسب صورة الإيمان ونجا من الكفر في الدنيا والنيران في الآخرة ومنهم من اكتسب حقيقة الإيمان على تفاوت الدرجات ومنهم من لم يقتبس أصلاً فأخطأه النور وضل، عن أبي عنبسة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباد الله الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها»[2] رواه الطبراني ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يعني يبين في القرآن للأمور التي لا سبيل للحواس إليها بالأمثال المحسوسة ليحصل للناس بها علم ويزداد وضوحاً، وجاز أن يكون معنى الآية أن الله يُرِي أولياءه في عالم المثال أمثالاً لما لا مثل له حتى يتبين لهم الحق، وذلك أن القرب إلى الله سبحانه ثابت بالكتاب والسنة لا يزال العبد يتقرب إليه بالنوافل لكن ذلك القرب أمر غير متكيف لا يمكن دركه بالحواس ولا بالعقل ولا يتعلق به علم حصولي ولا حضوري ولكن يدرك بعلم مفاض من الله تعالى سوى ما ذكر وهو المكنى بقوله «حتى كنتُ سمعه الذي يسمع به» وجعل الله تعالى لدركه وجهاً آخر وهو أن الأمور التي لا مثل لها يتمثل في عالم المثال بصورة الأجسام فيرى الصوفي في عالم المثال دائرة للظلال ودائرة للصفات ونحو ذلك، وكلّما يتقرب العبد إلى الله بالنوافل والإنابة والاجتباء يرى الصوفي نفسه سائراً إلى دائرة الظلال حتى يصلها ويضمحل فيها ويتلون بلونها، ثم يرى نفسه سائراً إلى الصفات حتى يصلها ويضمحل فيها ويتلون بلونها، وذكر التلون إنما هو لقصور العبارة وإلاّ فلا لون هناك قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الجملة حال من فاعل يضرب.

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ١٨، وأحمد في المسند ٢/١٧٦، ١٩٧.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/٢٠٩، ٧/٢٣٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٠٧، والعجلوني في كشف الخفاء ١/١٤٧، ٢٧٤.

فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ صفة لبيوت وأن بتقدير الباء متعلق بإذن أي إذن الله بأن ترفع تلك البيوت والمراد بها المساجد، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء لأهل الأرض النجوم، ومعنى أن ترفع قال مجاهد إن تبني نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] قال رسول الله ﷺ: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة»(١) متفق عليه من حديث عثمان، وقال الحسن معناه أن تعظم يعني لا يذكر فيها القبيح من القول قال الله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] قال البغوي روى صالح. . . . .(٢) بن حبان عن بريدة في هذه الآية قال إنما هي أربع مساجد لم يبنها إلا نبيٌّ الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل وبيت المقدس بناها داود وسليمان ومسجد المدينة ومسجد قباء أُسِّسَ على التقوى من أول يوم بناهما رسول الله ﷺ، قلتُ: ولا وجه لتخصيص هذه المساجد وإن كن هي أفضل المساجد البتة، قوله في بيوت متعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت كذلك أو توقد في بيوت كذلك فيكون تقييداً للممثل به، وهذا التأويل عندي ضعيف لأن الله سبحانه شبَّه نوره بنور المشكاة وقيدها بقيود تدل على قوة النور وشدة لمعانه ولا مدخل في ذلك لهذا القيد أصلاً، والقول بأن قناديل المساجد تكون أعظم ممنوع بل قناديل مجالس الأغنياء يكون أقوى نوراً وأشد لمعاناً من قناديل المساجد، فالأولى أن يقال إنه متعلق بقوله تعالى: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فإن الهداية غالباً يكون للعاكفين في المساجد والمصلين حيث قال رسول الله ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن»(٣) (   )(٤) وقال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»(٥) رواه مسلم وأبو داود

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٦٥، ومسلم في المساجد حديث ٢٤، ٢٥، والمسافرين حديث ١٠٣، والزهد حديث ٤٣، ٤٤.
(٢) بياض في الأصل.
(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٤) بياض في الأصل.
(٥) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ٢١٥، والنسائي في التطبيق باب ٧٨، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢١.

والنسائي عن أبي هريرة وجاز أن يكون متعلقاً بمحذوف يعني سبحوا أمر بالتسبيح لجلب هداية الله المذكور فيها سبق ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ في الصلاة وخارجها قال ابن عباس يتلى فيها كتابه ﴿يُسَبِّحُ﴾ صفة أخرى لبيوت أو جملة مستأنفة أو خبر آخر لله يعني الله نور السماوات والأرض والله يسبح له، قرأ أبو بكر وابن عامر بفتح الباء على البناء للمفعول مسنداً إلى إحدى الظروف الثلاثة المذكورة بعدها والوقف على هذا على الآصال والباقون بكسر الباء على البناء للفاعل ﴿لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ قال أهل التفسير أراد به الصلوات المكتوبات فإن المساجد بنيت لأجلها فصلاة الفجر تؤدى بالغدو والأربعة الباقية بالآصال، والغدو في الأصل مصدر أطلق للوقت ولذلك حسن اقترانه بالآصال وهو جمع أصل[١] أي العشي وقيل: أراد صلاة الصبح والعصر لكمال الاهتمام فإن الصبح وقت النوم والعصر وقت الاشتغال بالسوق ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»[٢] رواه مسلم من حديث أبي موسى وقال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] قال البغوي روي عن ابن عباس قال: التسبيح بالغدو وصلاة الصبح قال رسول الله ﷺ: «من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ومن مشى إلى صلاة الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على إثر صلاة كتاب في عليين[٣]»، ذكره البغوي من حديث أبي أمامة، وروى الطبراني عنه بلفظ: «من مشى إلى صلاة مكتوبة في الجماعة فهي كحجة ومن مشى إلى صلاة تطوع فهي كعمرة نافلة»[٤].

﴿رِجَالٌ﴾ فاعل يسبح على قراءة الجمهور وفاعل لفعل محذوف دل عليه يسبح على قراءة ابن عامر وأبي بكر في جواب سؤال مقدر كأنه قيل من يسبح له فقال يسبح له رجال خص الرجال بالذكر لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في المسجد أو لأن الغالب في النساء الجهل والغفلة ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ أي لا تشغلهم ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ أفرد البيع بالذكر مع شمول لفظ التجارة إياه لأنه أهم من قسمي التجارة فإن الربح يتوقع بالاشتراء ويتحقق بالبيع، وقيل أراد بالتجارة الاشتراء (وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والاشتراء) يدل عطف البيع عليه، وإنما ذكر لفظ التجارة موضع الاشتراء لأن الاشتراء مبدأ التجارة، وقيل: أراد بالتجارة المعاملة الرابحة ثم ذكر البيع مبالغةً بالتعميم بعد التخصيص، وقال الفراء التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يديه ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني عن حضور المساجد لإقام الصلاة، قال البغوي روى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت

---

(١) وفي مجمع البحار الآصال جمع أصل وبضمتين جمع أصيل وقيل غير ذلك ـ ١٢ ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة باب ٢٦، ومسلم في المساجد حديث ٢١٥، والدارمي في الصلاة باب ١٣٦، وأحمد في المسند ٤/ ٨٠.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٠٧، والبغوي في شرح السنة ٢/ ٣٥٧.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٤٩، والطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٥٠، والبغوي في تفسيره ٥/ ٨٠.

الصلاة فقام الناس فأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد فقال إن فيهم نزلت ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أو المراد لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله دوام الحضور وهذا يعم من ترك المعاملات واستغرق أوقاته بالطاعات واعتزل الناس ومن لم يترك المعاملات وهو مع اشتغاله بالتجارات لا يشغل التجارة قلبه عن ذكر الله فهو في الناس كائن بائن ظاهره مع الخلق وباطنه مع الله غافل عما سواه ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عوض فيه الإضافة من التاء المعوضة من العين الساقط بالإعلال، قال البغوي أراد الله سبحانه أداءها في أوقاتها لأن من أخر الصلاة عن وقتها ليس هو مقيماً للصلاة ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ المفروضة، قال ابن عباس إذا حضر وقت الزكاة لم يحبسوها، وقيل هي الأعمال الصالحة كلها ﴿يَخَافُونَ﴾ حال من فاعل يسبح أو من مفعول لا تلهيهم يعني أنهم مع ما هم عليه من الذكر والطاعة يخافون ﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ﴾ صفة ليوماً والعائد ضمير فيه يعني تضطرب وتتغير من الهول ﴿ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وقيل: معناه تتقلب قلوب الكفار عما كانت عليه في الدنيا من الكفر والشك وتنفتح أبصارهم من الأغطية فتبصر ما لم تكن تبصر ولم تحتسب وتتقلب قلوب المؤمنين وأبصارهم عما كانوا عليه من القناعة بمشاهدة المثال فيرون الله سبحانه كالقمر ليلة البدر وكالشمس في رابعة النهار، وقيل: معناه تتقلب القلوب يوم القيامة من الخوف والرجاء يخشى الهلاك ويطمع النجاة وتتقلب الأبصار حولهم من أي ناحية يؤخذ أمن ذات اليمين أم من ذات الشمال ومن أين يؤتون كتبهم أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال، وقيل: تتقلب القلوب من الخوف فترجع إلى الحنجرة فلا تنزل ولا تخرج وتتقلب الأبصار أي تشخص من هول الأمر وشدته.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلق بيسَبح أو بلا تلهيهم وجاز أن يكون متعلقاً بيخافون ويكون اللام حينئذ للعاقبة إذ الخوف ليس من الأفعال الاختيارية، والعلة الغائية يختص بالأفعال الاختيارية ﴿أَحْسَنَ﴾ جزاء ﴿مَا عَمِلُوا۟﴾ الموعود لهم من الجنة فهو منصوب على المصدر أو المعنى يجزيهم أعمالهم الحسنة فأحسن بمعنى حسن وهو منصوب على المفعولية ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ على الجزاء الموعود أو على جزاء أعمالهم ما لم يخطر ببالهم ﴿مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان يعني يرزق الله ما لا نهاية له يقال فلان ينفق بغير حساب أي يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ وهو اللامع في المفازة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة يظن أنه ماء يسرب أي يجري، الجملة معطوفة على مضمون الكلام السابق تقديره المهتدون بنور الله يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم والذين كفروا لا ينفعهم أعمالهم فإنها كسراب ﴿بِقِيعَةٍ﴾ القيعة والقاع المستوي من الأرض وجمعه قيعان وتصغيره قويع وقيل هي جمع قاع كحيرة وحار ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ أي يتوهمه العطشان ﴿مَآءً﴾، تخصيص الظمآن بالذكر لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عند مسيس الحاجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

جَآءَهُۥ﴾ أي جاء ما توهمه ماءً أو موضعه ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ مما ظنه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ أي وجد عذاب الله ﴿عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ أي أعطاه جزاء أعماله وافياً كاملاً على حسب عمله، فإن قيل وجد الله معطوف على ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾ وعلى ﴿جَآءَهُۥ﴾ والضمير المرفوع في كل منهما راجع إلى الظمآن فما معنى وجد الظمآن عذاب الله عند السراب؟ قلتُ: هذا الكلام عندي يحتمل التأويلين أحدهما أن الكافر إذا كان يوم القيامة اشتد عطشه فيرى النار سراباً يحسبه ماءً فيسرع إليه حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً مما توهمه ووجد عذاب الله يعني النار عنده، وثانيهما أن المراد بعذاب الله ما يلحق الظمآن في الدنيا من الشدة واليأس ومبناه سيآت أعماله حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠] والأولى أن يقال: إن حتى ابتدائية يتصل بقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ والمعنى حتى إذا جاء الكافر عمله في الآخرة ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ فالضمير المرفوع في جاءه راجع إلى أحد من الكفار لا إلى الظمآن والمنصوب إلى عمله لا إلى السراب ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب يحاسب عباده في قدر نصف يوم من أيام الدنيا.

﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ عطف على كسراب وأو للتخيير كأنه يخير المخاطب في التشبيه فإن أعمالهم لكونها غير نافعة موجبة لليأس والتحسر كائنة كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق كائنة كالظلمات المتراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب، أو للتنويع فإن أعمالهم إن كن حسنات كالصدقة وصلة الرحم ونحوها فهي كالسراب وإن كن قبيحات فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار الوقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ عميق كثير الماء منسوب إلى اللج، قال البيضاوي هو معظم الماء كذا في النهاية والقاموس وقيل: هو تردد أمواجه ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾ أي البحر موج يغشاه صفة أخرى للبحر والموج ما يعلو من الماء باضطراب الرياح ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ يعني أمواج مترادفة متراكمة ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ﴾ أي من فوق الموج الثاني ﴿سَحَابٞۚ﴾ يحجب أنوار النجوم، قرأ البزي بغير تنوين مضافاً إلى ﴿ظُلُمَٰتِۭ﴾ بالجر وبرواية القواس سحابٌ بالرفع والتنوين والظلمات بالجر على البدل من قوله كظلمات وقرأ الباقون سحاب ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين فيكون تمام الكلام عند قوله: ﴿سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هي ظلماتٌ ﴿بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾ لينظر إليها وهي أقرب ما يرى ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ أي لم يقرب أن يراها فضلاً أن يراها، الضمائر للواقع في البحر وإن لم يجر ذكره لدلالة الكلام عليه كذلك أعمال الكفار ظلمات على قلبه بعضها فوق بعض مانعة لهم من الاهتداء وإدراك الحق فالكفر الذي هو من أعمال القلوب كالبحر اللجي المظلم يغشاه ظلمات المعاصي بعضها فوق بعض كالأمواج التي بعضها فوق بعض والختم والطبع على قلبه كالسحاب على الأمواج، فإذا أراد الكافر التفكر في أمور الدين وأن يدرك ما هو أجلى البديهيات لم يكد يراها ألا ترى أنه ينكر الأنبياء مع تواتر معجزاتهم الباهرة ويعتقد ألوهية الحجارة مع انحطاط رتبتها عن سائر المخلوقات ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ يعني أن الهداية أمر وهبي بل حصول العلم بالنتيجة بعد

العلم بالمقدمتين أمر عادي وهبي ليس على سبيل الوجوب عند أهل الحق فكم من بله في أمور الدنيا أكياس في أمور الآخرة وكم من كيس جربز في الدنيا هم عن الآخرة غافلون وهم في أمور الدين كالأنعام، وهو المعنى من قوله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله»، وقد مر فيما سبق قال البغوي قال مقاتل نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين في الجاهلية ولبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة الحاصل بالوحي والاستدلال والكشف الصريح ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي يشهد على تقدسه وتنزهه عن المناقص ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وما في علم الله من جنوده ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الإنس والجن وغيرهم والمراد جميع المخلوقات وإنما أورد كلمة من تغليباً لذوي العقول، والدليل على إرادة العموم قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي باسطات أجنحتهن في الهواء قيد الطير بالصافات لئلا يلزم التكرار فإن الطير الكائنة على وجه الأرض دخلت في من في الأرض ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من المسبحة ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ الله ﴿صَلَاتَهُۥ﴾ أي دعاءه ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ وقيل معناه علم كل من المسبحة صلاة نفسه وتسبيحه بتعليم الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنه مالكهما وخالقهما ولما فيها من الذوات والصفات والأفعال ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجع الجميع فيجازي كلهم على حسب عمله حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ أي يسوق من التزجية وهو دفع الشيء، ومنه البضاعة المزجاة فإنها يدفعها كل أحد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي يجمع بين قطع متفرقة بعضها إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي بعضها فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي من فتوقه ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ بدل اشتمال من السماء ومن في الموضعين لابتداء الغاية وجاز أن تكون الثانية للتبعيض واقعاً موقع المفعول ﴿مِّن﴾ بيانية ﴿بَرَدٍ﴾ بيان للجبال فالمعنى على الأول ينزل من جبال كائنة في السماء كائنة تلك الجبال من برد، وعلى هذا قال ابن عباس أخبر الله تعالى أن في السماء جبالاً من برد وعلى الثاني ينزل من السماء بعض جبال يعني قطعاً عظاماً تشبه بالجبال في عظمها وجمودها كائنة تلك الجبال من برد وجاز أن تكون من هذه للتبعيض واقعاً موقع المفعول ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي بذلك البرد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيهلك زرعه وأمواله ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فلا يضره ﴿يَكَادُ سَنَا﴾ أي ضوء ﴿بَرْقِهِۦ﴾ أي برق السحاب ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ قرأ أبو جعفر يُذهِبُ بضم الياء وكسر الهاء من الأفعال فالباء على هذا زائدة.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي يأتي بالليل بعد النهار وبالنهار بعد الليل أو يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر أو بتغير أحوالهما بالحر والبرد والظلمة والنور أو ما يعم ذلك عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم بسبب الدهر وأنا

الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»(١) متفق عليه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي دلالة على وجود الصانع الواجب وجوده وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزهه عن الاحتياج إلى غيره ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي لمن أعطاه الله بصيرة وعقلاً سليماً ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي خالق كل دابة بإضافة اسم الفاعل إلى مفعوله حاملاً الضمير الفاعل والباقون خلق على صيغة الماضي ونصب كل على المفعولية يعني خلق كل من يدب على الأرض من الحيوانات ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزء مادية أو ماء مخصوص يعني النطفة فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل إذ من الحيوانات ما لا يتولد من النطفة، وقيل: من ماء صفة الدابة وليس صلة لخلق ولا يدخل في الدابة الملائكة والجن، وقيل: الماء أصل لجميع الخلائق قال البغوي وذلك أن الله خلق الماء ثم جعل بعضه ريحاً فخلق منها الملائكة وبعضه ناراً فخلق منها الجن وبعضه طيناً فخلق منه آدم وسائر الحيوانات ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والديدان ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والسباع ولم يذكر من يمشي على أكثر من أربع كالعناكب وبعض الحشرات لأنها في صورة من يمشي على أربع وتذكير الضمير لتغليب العقلاء التعبير عن الأصناف ليوافق التفصيل الإجمال ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر من البسائط والمركبات على اختلاف الصور والهيئات والحركات والطبائع والأفعال مع اتحاد المادة على مقتضى مشيته وحكمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ
ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا
دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٥٢) ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ
قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا
وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٥٧)﴾

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٥، باب ١، والتوحيد باب ٣٥، ومسلم في الألفاظ حديث ٢، ٣، وأبو داود في الأدب باب ١٦٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٨، ٢٧٢.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ في القرآن ﴿ءَايَـٰتٍ﴾ أو أنزلنا في عالم الوجود الظلي دلائل ﴿مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ مظهرات للحق شواهد على وجود الصانع العليم الحكيم القدير بأنواع الدلالات ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني دين الإسلام الموصل إلى مراتب القرب والفوز إلى الجنة والنجاة من النار يعني أن الإيمان أمر وهبي لا يحصل بالنظر في الدلائل إلا بتوفيق من الله وهدايته والله أعلم.

ذكر البغوي أن بشر المنافق كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض فقال اليهودي نتحاكم إلى محمد وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن أشرف فإن محمداً يحيف علينا فنزلت ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني بشراً وأمثاله من المنافقين ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي إياهما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان وعن طاعتهما بالامتناع عن قبول حكمه إذا كان حكمه على خلاف هواه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ الذين لم يكونوا في الخصومة على الحق ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد قولهم هذا ﴿وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المنافقين كلهم وفيه إعلام بأن جميعهم وإن آمنوا بلسانهم لم يؤمن قلوبهم أو إلى الفريق المتولى منهم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التعريف للدلالة على أنهم ليسوا من المؤمنين الذين عرفتهم ويعلم الله صدقهم وإخلاصهم، أخرج ابن أبي حاتم من مرسل الحسن قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي ﷺ أعرض وقال انطلقوا إلى فلان فأنزل الله.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إلى حكم الله ورسوله وقيل: معنى قوله: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ دعوا إلى رسوله فقوله ورسوله منزلة التفسير لما سبق كما في قوله أعجبني زيد وكرمه، وجملة إذا دعوا إلى آخره عطف على ما أولئك بالمؤمنين أو على يقولون ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول بحكم الله ﴿بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يعني فاجأ فريق منهم الإعراض عن الحكم أو عن الإيمان يعني من كان منهم يعلم أنه على الباطل ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ على من يخاصمهم ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ صلى الله عليه وسلم ﴿مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لحكمه ليقينهم أنه يحكم بالحق ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي كفر وميل إلى الظلم ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ بأن رأوا منك تهمة فزال ثقتهم ويقينهم بك ﴿أَمْ يَخَافُونَ﴾ يقيناً ﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الحكومة ﴿بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ على أنفسهم بالكفر وعدم الانقياد لله ورسوله وعلى الناس يريدون أن يأكلوا أموالهم بالباطل إضراب عن القسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأول، وجه التقسيم أن امتناعهم إما لخلل أو في الحاكم والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقعاً وكلاهما باطل لأن منصب نبوته وفرط أمانته يمنعه فتعين الأول، ويشهد على ذلك إتيانهم للحكم إليه مذعنين إذا كان لهم الحق، أو رد ضمير الفصل ليدل على نفي ذلك عن غيرهم لاسيما المدعو إلى حكمه.

ثم عقب الله تعالى ذكر المؤمنين المخلصين وما ينبغي لهم على ما هو عادته في المثاني والقرآن العظيم فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قول منصوب على أنه خبر لكان واسمه ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ يعني قولهم ﴿سَمِعْنَا﴾ الدعاء

﴿وَأَطَعۡنَاۚ﴾ بالإجابة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني من كان هذا قوله: ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ دون غيرهم ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قال ابن عباس فيما ساءه وسره ويخشى الله على ما عمل من الذنوب وفي مخالفة أحكامه ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ أي يتقي عذابه بامتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه ومحافظة أحكامه وحدوده، قرأ حفص بإسكان القاف واختلاس كسرة الهاء لسكون ما قبلها وهذا لغة إذا سقط الياء، للجزم يسكنون ما قبلها يقولون لم أشتر طعاماً بسكون الراء والجمهور بكسر القاف على الأصل ويسكن الهاء وصلاً ووقفاً أبو بكر وأبو عمرو وخلاد في رواية عنه عن حمزة والباقون يكسرون الهاء فيختلسها أبو جعفر وقالون ويعقوب ويشبعها الباقون لأجل تحرك ما قبلها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم ورضوان الله تعالى.

﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ يعني المنافقين ﴿بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ جهد منصوب على أنه مصدر يعني مضاف إلى مصدر أقسموا من غير لفظه أو حال من فاعل (اقسموا بالله) جاهدين بإيمانهم يعني بالغين غايتها، وجهد اليمين مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها أو ظرف يعني وقت جهدهم إيمانهم أي المبالغة فيه إنكار للامتناع ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ﴾ يا محمد بالخروج عن ديارهم وأموالهم أو بالخروج للجهاد ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ جواب لأقسموا على الحكاية وجزاء للشرط معنى، قال البغوي ذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا وإن أقمتَ أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا قال الله تعالى: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾ على الكذب ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ قال مجاهد أي هذه طاعة بالقول باللسان دون الاعتقاد وهي معروفة أي أمر عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، وقيل معناه طاعة معروفة بينة خالصة أفضل وأمثل من الخلف بالقول وقال مقاتل بن سليمان ليكن منكم طاعة معروفة وقيل: معناه المطلوب منكم طاعة معروفة لا اليمين بالطاعة نفاقاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه سرائركم ﴿قُلۡ﴾ كرر الأمر تأكيداً ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله تعالى على الحكاية مبالغة في تبكيتهم ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ صيغة مضارع حذفت إحدى التاءين بقرينة إن تطيعوه يعني إن تتولوا أيها المنافقون عن الطاعة فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ﴾ أي على محمد ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ من الامتثال جزاء الشرط محذوف أقيم علته مقامه والتقدير فإن تتولوا تخسروا أنفسكم ولا تضرون الرسول شيئاً لأنه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾ عليه وقد أدى ما كان عليه ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ وأنتم تتولون عنه فتخسرون ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ عطف على إن تولوا أي أن تطيعوا محمداً في حكمه ﴿تَهۡتَدُواْۚ﴾ إلى الحق وإلى سبيل الجنة ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي التبليغ الموضح لما كلفتم به بيان لما حمل.

أخرج الحاكم وصححه والطبراني عن أبيّ بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وأوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ يا أهل المدينة الذين هم مع رسول الله ﷺ حين نزول

الآية وليس المراد من المؤمنين عامة لأنه يلزم حينئذ الاستدراك فإن كلمة الذين آمنوا مغن عنه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جواب قسم محذوف تقديره ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ وأقسم أي قال: والله ليستخلفنهم والوعد في تحققه نُزّلَ منزلة القسم أي لنورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم فنجعلهم يعني نجعلن منهم خلفاء ملوكاً واجب الطاعة سياسة، أو المعنى لنجعلهم بأجمعهم متصرفين في الأرض تصرف الملوك في مماليكهم ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ صفة لمصدر محذوف أي استخلافاً كاستخلاف الذين من قبلهم من الأنبياء داود وسليمان وغيرهما كذا قال قتادة أو كاستخلاف بني إسرائيل حيث أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم يعني كما كان الله تعالى وعد موسى عليه السلام في التوراة بفتح بلاد الشام ولم يتحقق إنجاز الوعد في حياته عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] فاستخلف الله بعده يوشع بن نون وأنجز ذلك الوعد على يديه حتى فتح الشام وقسم البلاد في بني إسرائيل بوصية موسى، كذلك وعد الله محمداً ﷺ ليظهره على الدين كله ووعد بفتح الشام على ما قرىء ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ٢] على البناء للفاعل ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ [الروم: ٣] أي بعدما غلبوا على الفارس ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ على البناء للمفعول أي سيغلبهم المسلمون ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤] ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧] ولم يتيسير ذلك في حياة النبي ﷺ، فاستخلف الله أبا بكر وعمر وأنجز وعده حين قاتل أبو بكر بني حنيفة ومن ارتد من العرب وفتح الشام في خلافة عمر حين غزاهم في السنة التاسعة من غلبة الروم الذي كان يوم الحديبية في سنة ست من الهجرة، وكون الوعد منجزاً في خلافة عمر مروى عن علي حين استشار عمر أصحاب النبي في المسير إلى العراق للجهاد فأشار علي بالجهاد متمسكاً بهذه الآية، روي هذا القول عن علي بطرق متعددة في كتبنا وفي النهج البلاغة من كتب الروافض قول عليٍّ رضي الله عنه إن هذا الأمر لم يكن نصرته ولا خذلانه بكثرة ولا قلة وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعزه وأيده حتى بلغ ما بلغ وطلع من حيث طلع ونحن على موعود من الله حيث قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الآية، فالله منجز وعده وناصر جنده إلى آخر ما قال. قرأ أبو بكر استُخلف بضم الهمزة والتاء وكسر اللام على البناء للمفعول والباقون بكسر الهمزة وفتح التاء واللام على البناء للفاعل لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ﴾ أي اختار ﴿لَهُمْ﴾ قال ابن عباس يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم الإسلام على سائر الأديان ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب بالتخفيف وسكون الباء من الإبدال والباقون بالتشديد وفتح الباء من التبديل ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ جملة يعبدونني حال من الذين آمنوا منكم لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف لبيان المقتضى للاستخلاف وقوله ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾ حال من فاعل يعبدونني أو حال مرادف ليعبدونني من الموصول.

قال أبو العالية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح ثم إن الله

قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين في زمان أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا وكفروا النعمة، قال أبو العالية مكث النبي ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه وأمروا بالصبر على أذى الكفار ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه، فقال رجل منهم ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فنزلت هذه الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن البراء قال: فينا نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد فأنجز الله وعده وأبدلهم بعد الخوف أمناً وبسط لهم في الأرض، وفيه دليل على صحة النبوة لكونه إخباراً عن الغيب على ما صار الأمر إليه وصحة خلافة الخلفاء الراشدين إذ لو لم يكن المراد خلافة الخلفاء الراشدين لزم الخلف في وعد الله إذ لم يجتمع الموعود والموعود لهم إلا في زمنهم وصحة مذهب أهل السنة وكونه ديناً ارتضاه الله، وبطلان مذهب الروافض حيث قالوا: الأئمة خائفون إلى اليوم حتى لم يظهر المهدي وهو مختف لخوف الأعداء، وقولهم إنه سينجز الله وعده حين يظهر المهدي باطل يأباه كلمة منكم في الآية وأي ظهور للدين إن ظهر بضع سنين بعد ألف ومائة ما أجهلهم عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال سمعت النبي ﷺ يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون ثم يكون ملكاً»[(١)] ثم قال - يعني سفينة - أمسك خلافة أبي بكر سنين وخلافة عمر عشراً وخلافة عثمان اثنتي عشر وخلافة علي ستة» وعن عدي بن حاتم قال: «بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة وأتى إليه آخر فشكى إليه قطع السبيل فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة»؟ قلتُ لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك الحياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف أحداً إلا الله (قلت فيما بيني وبين نفسي فأين وعارطي قد سعروا البلاد) ولئن طالت بك الحياة لتفتحن كنوز كسرى»، قلتُ «كسرى بن هرمز، قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك الحياة ترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه، ولقين أحدكم ربه يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقول ألم أبعث إليك رسولاً ليبلّغك فيقول: بلى فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم» وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، قال عدي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اتق النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة»، قال عدي فرأيتُ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بك الحياة لترين ما قال النبي ﷺ يخرج الرجل ملء كفه فلا يجد أحداً يقبله»[(٢)].

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي ارتد أو كفر النعمة ولم يشكر بعد تمكين المؤمنين واستخلافهم وتأييد دينهم الذي ارتضى لهم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الإيمان أو عن حد الطاعة، قال البغوي قال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة وجحد بها الذين

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٢٠، ٢٢١.
(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٥.

قتلوا عثمان رضي الله عنه فلمَّا قتلوه غير الله ما بهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعدما كانوا إخواناً، روى البغوي بسنده عن حميد بن هلال قال: قال عبد الله بن سلام في عثمان إن الملائكة لم تزل محيطة بمدينتكم هذه منذ قدمها رسول الله ﷺ حتى اليوم فوالله لئن قتلتموه ليذهبون ثم لا يعودون أبداً فوالله لا يقتله رجل منهم إلا لقي الله أجذم لا يدله وإن سيف الله لم يزل مغموداً والله لئن يسأله الله لا يغمده عنكم (إما قال أبداً أو إما قال إلى يوم القيامة) فما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفاً ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً، قلتُ ثم كفر... باستخلاف الخلفاء طوائف الروافض والخوارج ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يزيد بن معاوية حيث قتل ابن بنت رسول الله ﷺ ومن معه من أهل بيته النبوة وأهان عترته وافتخر به وقال: هذا يوم بيوم بدر، وبعث جيشاً على مدينة رسول الله ﷺ وفعل ما فعل في وقعة الحرة بالمدينة وبالمسجد الذي ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨] وهو روضة من رياض الجنة ونصب المجانيق على بيت الله تعالى وقتل ابن الزبير ابن بنت خليفة رسول الله ﷺ وفعل ما فعل حتى كفر بدين الله وأباح الخمر قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ٤٣] في سائر ما أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أي لكي ﴿تُرْحَمُونَ﴾ جملة أقيموا مع ما عطف عليه معطوف على قوله وأطيعوا الله فإن الفاصل وعد على المأمور به وتكرير الأمر بطاعة الرسول للتأكيد وتعليق الرحمة بها ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي معجزين الله عن إدراكهم في الأرض وإهلاكهم، قرأ ابن عامر وحمزة لا يحسبن بالياء على الغيبة والموصول فاعل له أي لا يحسبن الكافرون أنفسهم معجزين والباقون بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ والموصول مفعوله الأول يعني لا تحسبنهم معجزين ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ حال من الموصول أو عطف على لا تحسبن من حيث المعنى كأنه قيل الذين كفروا لا يفوتون الله ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار جملة لا تحسبن وعيد متصل بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا

فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ
يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ
شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ
ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ
يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان أنه كان لأسماء بنت مرثد غلاماً وكثيراً ما يدخل عليها في وقت تكره دخوله عليها فيه فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في وقت نكرهها فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ إلى تتمة الأحكام السابقة بعد ذكر ما يوجب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها والوعد عليها، والوعيد على الإعراض عنها والمراد بالخطاب الرجال والنساء جميعاً غلَّب فيه الرجال، وقال البغوي قال ابن عباس وجه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فدخل ورأى عمر بحالة كره عمر رؤية ذلك الحال فأنزل الله هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ يعني الذين لم يقربوا الحلم من الأحرار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] يعني قاربن البلوغ فدخل في حكم المنع عن الدخول المراهق فإنه في حكم البالغ ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور: ٥٨] أي ليستأذنوا في ثلاثة أوقات ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ التي كانت لليقظة عند القيلولة ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحف ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ثلاث بالنصب بدلاً من قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ والباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ وجاز أن يكون مبتدأ خبره ما بعده، وقيل تقديره ثلاث ساعات انكشاف عورات لكم على حذف المضافين فالعورة على هذا بمعنى السوأة، وقال البيضاوي تقديره هي ثلاث أوقات تخيَّل فيها تستركم وأصل العورة الخلل، وقيل أصل العورة من العار فتكنى بالعورة عن سوأة الإنسان لما يلحق من ظهوره العار أي المذمَّة ولذلك سمى النساء عورة ولذلك يقال العورة للكلمة القبيحة ويقال للشق من الثوب ويقال للخلل في البيت عورة للحوق العار به قال الله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] أي متخرقة، فعلى هذا سميت الأوقات الثلاث عورات للحوق العار برؤية الإنسان فيهن غير مستتر، وفي القاموس العورة الخلل في الثغر وغيره وكل مكمن للستر والسوأة والساعة التي هي قمن من ظهور العورة فيها وهي ثلاث ساعات قبل صلاة الفجر وعند نصف النهار وبعد العشاء الأخيرة وكل أمر يستحيى منه ومن الجبال شعوفها.

مسألة: مقتضى هذه الآية أنه لا يجوز لعبد وإن كان صغيراً عاقلاً أن يدخل على سيده ولا لأمة أن تدخل على سيدتها وأما دخول العبد البالغ أو المراهق على سيدته فممنوع في جميع الأوقات لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] الآية، والمماليك المستشهاة منها قد ذكرنا أن المراد به الإناث دون الذكور وأما دخول الأمة على سيدها التي يجوز له وبها فجائز في كل وقت كالزوجة، ولا يجوز لصغير عاقل أن يدخل في أحد هذه الأوقات بغير استئذان، ويجوز لهم أن يدخلوا بغير الاستئذان في غير هذه الأوقات كما قال الله تعالى.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الذين تسكنون البيوت ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي المملوكين والأطفال الداخلين عليكم للخدمة ونحو ذلك ﴿جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ بعد هذه الأوقات الثلاث في ترك الاستئذان لدفع الحرج لمخالطتهم وكثرة دخولهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي هم أي الأطفال والعبيد طوافون عليكم يدخلون ويخرجون كثيراً استئناف لبيان المرخص في الدخول بلا استئذان ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني بعضكم طائف على بعض أو يطوف بعضكم على بعض بدل من الجملة السابقة وبيان له جعل الله سبحانه العبيد والأطفال من جنس أنفسهم لكثرة مخالطتهم فجعلهم بعض المخاطبين ﴿كَذَٰلِكَ﴾أي تبيُّناً مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ﴾ أي آيات الأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع لكم، قال البغوي: اختلف العلماء في حكم هذه الآية؟ فقال قوم هو منسوخ قال ابن عباس لم يكن للقوم ستور ولا حجاب وكان الولائد والخدم يدخلون فربما يرون ما لا يحبون فأمروا بالاستئذان ثم بسط الله الرزق واتخذوا الستور فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان، وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة روى سفيان عن موسى بن عائشة قال: سألت الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي قال: لا والله قلتُ: إن الناس لا يعملون بها قال: الله المستعان. وقال سعيد بن جبير في هذه الآية إن ناساً يقولون نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس قلت: والصحيح أنها غير منسوخة لكن الحكم بالاستئذان معلول باختلال التستر في تلك الأوقات كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ وهو الفارق بين تلك الأوقات وغيرها وعدم الحكم عند عدم العلة لا يكون نسخاً، فما وقع في كلام ابن عباس أنها منسوخة مبني على التجوز فعلم أنه إذا كان من شأن الناس عدم اختلال التستر في تلك الأوقات لا يستلزمهم الاستئذان والله أعلم.

﴿وَإِذَا بَلَغَ﴾ أي قارب البلوغ ﴿ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الأوقات كلها الزوال المبيح للدخول بغير استئذان وهو المخالطة وكثرة الدخول، وحكم هذه الآية يعم كل من يريد الدخول على الرجال أو النساء محرمات كن أو أجنبيات ويؤيده ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: «أتانا أبو موسى فقال إن عمر ﵁ أرسل إليَّ أن آتيه فأتيت بابه فسلمت ثلاثاً فلم يرد عليَّ فرجعتُ وقد قال لي رسول الله ﷺ إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فيرجع، قال عمر أقم عليه البينة قال أبو سعيد فقمت

معه فذهبت إلى عمر فشهدت»[١] متفق عليه، وعن عطاء بن يسار «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أستأذن على أمي؟ فقال رسول الله ﷺ: «استأذن عليها» فقال الرجل: إني خادمها فقال رسول الله ﷺ استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا قال: فاستأذن عليها»[٢] رواه مالك مرسلاً، قال البغوي قال: سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته قال: نعم إن لم يفعل رأى منها ما يكره، قلتُ: لعل الأمر بالاستئذان في هذه الآية للاستحباب دون الوجوب فمن أراد الدخول في بيت نفسه وفيه محرماته يكره له الدخول فيه من غير استئذان تنزيهاً لاحتمال رؤيته واحدة منهن عريانة وهو احتمال ضعيف ومقتضاه التنزه عنه، وأما الدخول في بيت غيره من غير استئذان فمحرم لا يجوز لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ [النور: ٢٧] وكذا في بيت فيه نساء أجنبيات لا يجوز للرجل الدخول عليهن من غير استئذان لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور: ٣٠] والله أعلم.

وقال البيضاوي استدل بهذه الآية من أوجب استئذان العبد البالغ على سيدته وجوابه أن المراد بهم المعهودون الذين جعلوا قسيماً للمماليك فلا يندرجون فيهم، وكلام البيضاوي هذا يشعر باختلاف العلماء في وجوب استئذان العبد البالغ على سيدته بناءً على اختلافهم في أن العبد هل هو محرم لسيدته، كما قال به مالك والشافعي أو لا كما قال به أبو حنيفة فمن قال بكونه محرماً فالاستئذان عنده مستحب كالاستئذان على غيرها من المحرمات، ومن لم يقل بكونه محرماً قال بوجوبه والله أعلم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ﴾ مبتدأ ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حال من ضمير الفاعل جمع قاعد وهي المرأة التي يئست عن الحيض والحمل ولأجل اختصاصها بالنساء جاء قاعد بغيرها كالحائض والحامل ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ صفة للقواعد أي لا يطمعن فيه لكبرهن قال ربيعة يعني العجائز اللاتي إذا رآهن الرجال استقذروهن فأما من كانت فيها بقية جمال وهي محل للشهوة فلا تدخل في هذه الآية ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ﴾ خبر للمبتدأ جيء بالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ﴿أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي في أن يضعن بعض ثيابهم يدل عليه قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب أن يضعن من ثيابهن فلا يجوز لها كشف ظهرها وبطنها وما تحت سرتها لكن جاز لها كشف رأسها ووجهها وذراعيها ونحو ذلك ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ وأصل البرج الظهور ومنه يقال البرج للركن والحصن وكواكب السماء والتبرج التكلف في إظهار ما يخفى من قولهم سفينة بارجة لا غطاء عليها، والبرج سعة العين بحيث يُرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٢) تقدم الحديث مع تخريجه.

منه شيء إلا أنه خص في الاستعمال بتكشف المرأة زينتها وجمالها للرجال وقع في الحديث كان رسول الله ﷺ يكرهُ عشر خلال منها التبرج بالزينة لغير محلها، قال صاحب الهداية التبرج إظهار الزينة للناس الأجانب وهو المذموم وأما للزوج فلا وهو معنى قوله عليه السلام لغير محلها، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ حال من فاعل يضعن يفيد تقييد عدم الجناح في وضع ثياب العجائز إن يكون ذلك من غير إرادة إظهار الزينة للرجال فمن كانت منهن أرادت بها التبرج فذلك عليها حرام ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي يطلبن من أنفسهن العفة وهي كف النفس عما لا يحل كذا في القاموس، والمراد وأن يكففن أنفسهن عن وضع الثياب عند الرجال ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من وضعها لأنه قد يفضي إلى الفتنة والتستر البعد عن التهمة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن للرجال ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقصودهن في وضع الثياب.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قال البغوي قال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يتقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم فيقول الأعمى ربما أكل أكثر ويقول الأعرج ربما آخذ مكان اثنين فنزلت هذه الآية يعني ليس عليهم حرج في مؤاكلة الأصحاء، قال البغوي وكذا أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه لما أنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والأعمى والأعرج وقالوا: الطعام أفضل الأموال وقد نهانا الله تعالى عن أكل المال بالباطل والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والأعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فأنزل الله هذه الآية إلى قوله: ﴿مَّفَاتِحَهُ﴾ وعلى هذا التأويل يكون على بمعنى في يعني ليس عليكم حرج في الأعمى أي في مؤاكلته، وقال سعيد بن المسيب كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون إليهم مفاتيح بيوتهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا ممَّا في بيوتنا فكانوا يتحرجون ويقولون لا ندخلها وهم غيبٌ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية رخصةً لهم، وقال الحسن نزلت هذه الآية رخصةً لهؤلاء في التخلف عن الجهاد، وقد تم الكلام ههنا وما بعده كلام منقطع عنه وهو قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ أي البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم ودخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته حيث قال رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك[١]» أخرجه الستة وابن حبان والحاكم عن عائشة وقال رسول الله ﷺ: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»[٢] رواه أبو داود والدارمي من حديث عائشة وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه نحوه، والمعنى ليس عليكم حرج أن تأكلوا من أموال أزواجكم

---

(١) أخرجه أبو داود حديث ٣٥٣٠، وابن ماجه حديث ٢٢٩١، ٢٢٩٢، وأحمد في المسند ٢/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه النسائي في البيوع باب ١، وابن ماجه في التجارات باب ١، والدارمي في البيوع باب ٦، وأحمد في المسند ٦/ ٣١، ٤٢، ١٢٧، ١٩٣، ٢٢٠.

وأولادكم كذا قال ابن قتيبة ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر، وقال الضحاك يعني بيوت عبيدكم ومماليككم وذلك أن السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] ويجوز أن يراد به ما يفتح به قال عكرمة إذ ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير، وقال السدي الرجل الذي يولي طعامه غيره ليقوم فلا بأس أن يأكل منه، وأخرج البزار بسند صحيح عن عائشة قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى زمناهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتم فكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أنهم أذنوا من غير طيب أنفسهم فأنزل الله هذه الآية، وأخرج ابن جرير عن الزهري أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا ها هنا؟ قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله قال إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون مفاتيح أبوابهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا وكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وهم غيب فأنزلت هذه الآية رخصةً لهم، وقال قوم: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ ما خزنتموه عندكم، وقال مجاهد وقتادة من بيوت أنفسكم مما خزنتموه وملكتم.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ يعني بيوت صديقكم الذي صدقكم في المودة فإنه أرضى بالتبسط في أموالهم وأسر وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، قال البغوي قال ابن عباس نزلت في الحارث بن عمرو خرج غازياً مع رسول الله ﷺ وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال تحرجتُ أن آكل من طعامك بغير إذنك فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس نحوه وذكر خالد بن زيد بدل مالك بن زيد، قال البغوي وكان الحسن وقتادة يريان دخول بيت الصديق والتمتع بطعامه من غير استئذان منه في الأكل بهذه الآية، والمعنى فليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا من غير أن تتزودوا وتتحملوا، قيل: هذا الحكم كان في أول الإسلام فنسخ والصحيح أنه ليس بمنسوخ لكنه محمول على أن هذا الحكم مختص بما إذا علم رضاء صاحب البيت بإذن صريح أو قرينة ولذلك خصص هؤلاء بالذكر فإنه يعتاد التبسط بينهم، فالتخصيص بهؤلاء خارج مخرج العادة وإلا فمن دخل بيت أجنبي وعلم رضاء صاحب البيت يأكل طعامه بإذن صريح أو دلالة جاز له، ذلك.

مسألة: وبهذه الآية الدالة على جريان العادة بالانبساط بين المحارم احتجت الحنفية على أنه لا قطع على من سرق من بيت ذي رحم محرم منه سواء كان المسروق ماله أو مال غيره ويجب القطع على من سرق من بيت أجنبي مال ذي رحم محرم منه اعتباراً للتحرز

وعدمه، فإن قيل: فعلى هذا لزم عدم القطع على من سرق من بيت صديقه أيضاً بهذه الآية بعينها؟ قلنا: الصدقة أمر عارض يوجد ويزول وقد عاداه بالسرقة فلم يبق الصداقة بخلاف القرية فإنها لا تزول والله أعلم.

وقال البغوي كانت العميان والعرجان والمرضى يدخلون على الرجل لطلب الطعام فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله في هذه الآية، فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك الطعام ويقولون ذهب بنا إلى بيت غيره فأنزل الله هذه الآية، فعلى هذا معنى الآية ليس على الأعمى وأمثاله حرج ولا عليكم أن تأكلوا أنتم مع الأعمى وأمثالهم من بيوت أنفسكم وأولادكم وأزواجكم أو بيوت آبائكم إلى قوله أو صديقكم، وقال البغوي قال عطاء الخراساني عن ابن عباس قال كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابة أو صداقة يدعوه إلى طعامه فيقول والله إني لأجنح أي أتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي مجتمعين أو متفرقين، قال البغوي نزلت في بني ليث بن بكر وهم حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفاً يأكل معه فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشار به فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل هذا قول قتادة والضحاك وابن جريج، وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبي صالح وذكر البغوي عنهما أيضاً أنهما قالا: كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم فنزلت رخصةً لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا جميعاً أو أشتاتاً ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت أو من غيرها ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي ليسلم بعضكم على بعض فإنه يطلق الأنفس على جماعةٍ متحدةٍ ديناً وقرابةً قد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] وقيل معناه: إذا دخلتم بيوتاً لكم لا أهل بها: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني قولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإن الملائكة ترد عليهم تحيةً مصدر من غير لفظة تسلموا فإن التحية هو التسليم، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً فلمّا خلقه قال اذهب فسَلِّم على أولئك النفر من الملائكة جلوسٍ فاستمع ما يحيوك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله»[(١)] الحديث ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي كائنةً من عنده مشروعةً من لدنه وجاز أن يكون صلة للتحية فإنه طلب الحياة وهي من عند الله ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ يعني مقرونة بذكر البركة وهي الزيادة في الخيرات فيقول السلام عليكم والبركة، وقيل وصف تحية السلام بالبركة لأنه يرجى بها زيادة الخير والثواب ﴿طَيِّبَةً﴾ أي لا رياء فيها ولا نفاق صادرةً من طيب النفس وقيل معناه تطيب بها نفس المستمع قال ابن عباس معنى مباركةً طيبةً حسنةً جميلةً، عن أنس رضي الله

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١، والاستئذان باب ١، ومسلم في الجنة حديث ٢٨.

عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «متى لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطل عمرك فإذا دخلتَ بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين»(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان والثعلبي وحمزة بن يوسف الجرجاني في تاريخ جرجان وسنده ضعيف، قال البغوي هذه الآية في دخول الرجل في بيت نفسه فإنه يسلم على أهله ومن في بيته وهو قول جابر وطاوس والزهري والضحاك وقتادة وعمرو بن دينار قال قتادة إذا دخلتَ بيتك فسلم على أهلك فهم أحق ممن سلمتَ عليهم، وإذا دخلتَ بيتاً لا أحد فيها فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا... أن الملائكة يرد عليهم، وروى البيهقي في شعب الإيمان عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً: «إذا دخلتم بيتاً فسلموا على أهلها وإذا خرجتم فأودعوا أهله بسلام»(٢) وروى الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يا بني إذا دخلتَ على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك»(٣) وعن ابن عباس قال: إن لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله.

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس في هذه الآية قال: إذا دخلتَ المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وعن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: «أيُّ الإسلام خير؟» قال: «تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف»(٤) متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «للمؤمن على المؤمن ست خصال يعوده إذا مرض ويشهده إذا مات ويجيبه إذا دعاه ويسلمه إذا لقيه ويشمته إذا عطس وينصح له إذا غاب أو شهد»(٥) رواه النسائي وروى الترمذي والبزار نحوه، وعنه قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابّوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم»(٦) رواه مسلم، وعن أبي هريرة مرفوعاً: «يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير»(٧) متفق عليه، وعنه عند البخاري «يسلم الصغير على الكبير»(٨) الحديث، وعن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم فرد عليه ثم جلس، فقال النبي ﷺ «عشر» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١٩٤٥٠، والبغوي في شرح السنة ١٢/ ٢٩٤، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٤٦٥١.

(٣) أخرجه الترمذي حديث ٢٦٩٨.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٦، ٢٠، ومسلم في الإيمان حديث ٦٣.

(٥) أخرجه النسائي في الجنائز باب ٣٥٢، وأحمد في المسند ٢/ ٣٢١.

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٩٣.

(٧) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ٥، ٦، ومسلم في الأدب حديث ٤٦.

(٨) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ٤، ٧، وأبو داود في الأدب باب ١٣٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٤، ٣٢٥، ٥١٠.

ورحمة الله فرد عليه فجلس، فقال «عشرون» ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه فجلس، فقال: ثلاثون»[١] رواه الترمذي وأبو داود، وروى أبو داود عن معاذ بن أنس مرفوعاً بمعناه وزاد ثم أتى آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته فقال: «أربعون» قال: «وهكذا تكون الفضائل» وعن أبي أمامة مرفوعاً «إن أولى الناس بالله من بدأ بالسلام»[٢] وعن أبي هريرة مرفوعاً «إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة»[٣] رواه الترمذي وأبو داود، وعن علي بن أبي طالب تجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم وتجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم ذكره البغوي في المصابيح موقوفاً ورواه البيهقي في شعب الإيمان مرفوعاً ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كرره ثالثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به وفصل الأولين، بما هو المقتضى لذلك وهو علم الله وحكمته وهذا بما هو المقصود منه فقال ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الحق والخير في الأمور.

أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قالوا: لمَّا أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر بالمدينة قائدها أبو سفيان وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنقبين[٤] إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر فضرب الخندق على المدينة وعمل فيه وعمل المسلمون فيه وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يزورون[٥] بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له فإذا قضى به بشر فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات إلى آخر السورة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من صميم قلوبهم دون من ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤٠] ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وصف الأمر بالجامع مجازاً للمبالغة والمراد على أمر يقتضي أن يجمع الناس لذلك الأمر كحفر الخندق والمشاورة والجهاد ونحو ذلك كالجمعة والأعياد ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي لم يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي الرسول ﷺ فيأذن لهم ولا حاجة ها هنا إلى القول بأن المراد بالمؤمنين الكاملون لأنه حكاية وأخبار عن حال المؤمنين الموجودين في ذلك الوقت وما به كانوا يمتازون عن المنافقين، وقد كانوا كلهم كاملين في الإيمان وكان شأنهم ذلك دون المنافقين، ولما كان عدم التخلف عن رسول الله ﷺ في

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٤٤، وأحمد في المسند ٤/ ٤٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود حديث ٥١٩٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٣٩، والترمذي في الاستئذان باب ١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٠، ٢٨٧، ٤٣٩.

(٤) النقب: الطريق بين الجبلين.

(٥) يزورون والتزوير إصلاح الشيء.

مواضع الشدة دليلاً واضحاً على صدق إيمانهم إعادة مؤكداً على أسلوب أبلغ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ لأجل ضرورة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بصميم قلوبهم يعني أن المستأذن مؤمن لا محالة دون الذاهب بغير إذن ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ الذي نابهم ودعاهم إلى الانصراف فيه مبالغة وتضييق للأمر يعني لا ينبغي للمؤمنين أن يستأذنوا لكل ما نابهم من النوائب بل لبعض ضروري منها لا بد له من الانصراف ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ قيد الأمر بالإذن بالمشيئة للدلالة على أن هذا أمر للإباحة وليس للوجوب ولو كان الإذن بعد الاستئذان واجباً على النبي ﷺ بطل فائدة الاستئذان لأنه لا يعجز أحد عن الاستئذان، وفيه دليل على أن بعض الأحكام كان مفوضاً إلى رأيه ﷺ وكذا إلى رأي الإمام ومن منع ذلك قيد المشيئة بأن يكون تابعةً لعلمه بصدقه فكان المعنى: فأذن لمن علمت أن له عذراً أو يكون الأمر الجامع قاصراً في اقتضاء الاجتماع أو كان المستأذن مستغنى عنه ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ يعني بعد الإذن فإن الاستئذان ولو بعذر قصور لأن فيه تقديماً لأمر الدنيا على أمر الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفرطان العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم، وقال البغوي قال المفسرون في سبب نزول هذه الآية كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد أحد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فأذن لمن شاء منهم قال مجاهد وأذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده، قال أهل العلم وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذنه وإذا استأذنوا الإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن هذا إذا لم يكن سبب يمنعه من المقام، فإن حدث سبب يمنعه من المقام مثل أن يكون امرأة في المسجد فتحيض فيه أو يجنب رجل أو عرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ يعني إذا دعاكم الرسول إلى أمر جامع أو غير ذلك فأجيبوا دعوته وامتثلوا أمره ولا تجعلوا دعوته إياكم كدعوة بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة والمراجعة بغير إذنه حرام بخلاف غير ذلك، فهذه بهذا التأويل نظيرة لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] والإضافة في دعاء الرسول إضافة المصدر إلى فاعله والمفعول محذوف، وقال مجاهد وقتادة معنى الآية لا تجعلوا دعاءكم الرسول كدعاء بعضكم بعضاً يعني لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً ولكن فخموه وشرفوه، أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فأنزل الله تعالى هذه الآية فقالوا: يا نبي الله يا رسول الله، لكن هذا التأويل لا يناسب ما سبق وما يتلوه فإن الكلام في الخروج باستئذان وبغير استئذان وأيضاً لا يناسبه نفس هذا الكلام لأن المشبه به هو الدعاء المضاف إلى الفاعل لكون المفعول به بعده منصوباً فلا بد أن يكون في المشبه أيضاً الرسول فاعلاً للدعاء لا مفعولاً، وقال البغوي قال ابن عباس معنى الآية احذروا عن دعاء الرسول عليكم إذا

أسخطتموه فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره، روى البخاري في الصحيح عن عائشة قالت: إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليك قال: «وعليكم» فقالت عائشة: السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة عليكِ بالرفق وإياك العنف والفحش» قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أولم تسمعي ما قلتُ؟ رددتُ عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ»(١)، قلت: على هذا كان حق الكلام لا تجعلوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض لكن يمكن على هذا معنى الآية: لا تجعلوا دعاء الرسول ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرةً ويرده أخرى، فإن دعاءه مستجاب لا يرد لا محالة.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ السل انتزاع الشيء من الشيء وإخراجه في اختفاء ولذلك يطلق على السرقة الخفية يقال: سُلَّ البعيرُ في جوف الليل وانسل واستل أي انطلق وخرج في اختفاء كذا في القاموس والمعنى الذين يخرجون ﴿مِنكُمْ﴾ أي من بينكم مختفياً ﴿لِوَاذًا﴾ مصدر لاوذ يلاوذ ملاوذة ولواذاً وليس من لاذ يَلُوذُ فإن مصدره لياذ واللياذ الالتجاء بغيره والانضمام إليه ورد في الدعاء المأثور اللهم ألوذ بك، واللواذ أن يلوذ كل واحد منهم بالآخر والمعنى أنهم يخرجون مستترين يلوذ ويستتر بعضهم ببعض يخرج أو يلوذ بمن يؤذن في الخروج فيخرج معه كأنه تابعه في القاموس اللوذ بالشيء الاختفاء والاحتصان به كاللواذ مثلثة وكان هذا حال المنافقين في حفر الخندق على ما قال ابن إسحاق والبيهقي عن عروة ومحمد بن كعب القرظي كانوا.. ينصرفون عن رسول الله ﷺ مختفين، وقال ابن عباس كان المنافقون يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي ﷺ فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار، ولواذاً منصوب على الحال ومعنى قوله: قد يعلمُ أنه يجازيهم فإن الجزاء فرع العلم.

﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ تفريع على قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ قيل عن زائدة والمعنى يذهبون سمتاً خلاف سمته وقيل أورد عن لتضمن يخالفون معنى الإعراض، أو المعنى يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه وحذف المفعول لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه، وجاز أن يكون عن أمره في محل النصب على الحال والمفعول محذوف تقديره الذين يخالفون الرسول ويخالفون المؤمنين عن أمره وضمير أمره إما راجع إلى الله أو إلى الرسول ﷺ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة وبلاء في الدنيا كذا قال مجاهد ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة أن مع صلته في محل النصب على أنه مفعول ليحذروا يعني ليحذروا إصابة الفتنة أو إصابة العذاب الأليم وذلك بسبب المخالفة عن أمره، وجاز أن يكون المفعول محذوفاً تقديره: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٣٥، ٣٨، والدعوات باب ٥٩، ٦٣، ومسلم في السلام حديث ١٠، ١١، ١٣.

عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذه الآية حجة للقائلين بأن مطلق الأمر يعني ما لا قرينة على كونه للوجوب أو للندب أو غير ذلك يكون للوجوب فحسب وليس مشتركاً بين الوجوب والندب على ما نقل عن الشافعي أو بينهما وبين الإباحة أو بين الثلاثة وبين التهديد على ما ذهب إليه الشيعة ونقل عن ابن شريح، فإن خوف الفتنة والعذاب لا يتصور إلا في ترك الواجب أو ارتكاب المحرم.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الإيمان والنفاق والموافقة والمخالفة فهو خطاب لجميع المكلفين وجاز أن يكون خطاباً للمنافقين خاصةً على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وجملة قد يعلم تقرير لما سبق لأن الذي هو خالق ومالك لكل شيء لا بد أن يعلم أحوال مخلوقاته ومملوكاته ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يوم يرجع الناس للجزاء إلى الله تعالى فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الخير والشر بإيفاء الجزاء والظرف يعني يوم يرجعون متعلق بقوله: ينبئهم والفاء زائدة كما في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ [قريش: ١ - ٣] وجاز أن يكون الظرف معطوفاً على ظرف محذوف متعلق بقوله قد يعلم ما أنتم عليه تقديره: قد يعلم ما أنتم عليه اليوم ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ لا يخفى عليه منكم خافية، روى البغوي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن بالمغزل وسورة النور»[1] صدق الله وصدق رسول الله ﷺ وصدق أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم أجمعين.

تمت سورة النور سادس والعشرين من رمضان من السنة الرابعة بعد ألف ومائتين ويتلوها سورة الفرقان إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك ٢/٣٩٦، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٩٣، والسيوطي في الدر المنثور ٥/١٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٤٩٩١.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفرقان [١]

آياتها سبع وسبعون وهي مكيَّة

﴿تَبَارَكَ[٢] ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا
حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو
ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ
ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ
ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ
تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ
ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ
سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ
دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ
جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى

---

(١) ليس في الأصل عنوان السورة.

(٢) أخرج مالك والشيخان عن عمر بن الخطاب قال سمعت هشام بن الحكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ فقال أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت كذبت فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قلت فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها فقال رسول الله ﷺ اقرأ يا هشام فقرأ عليه بقراءة سمعته يقرأ فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت ثم قال لي اقرأ فقرأت القراءة التي أقرأنيها ﷺ فقال هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة حروف فاقرءوا ما تيسر منه ـ ١٢ منه برد الله مضجعه ـ.

هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن
مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ
صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ
إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ
رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة وهي كثرة الخير يعني تكاثر خيره وهذه الصيغة لا يتصرف فيه ولا يستعمل إلا لله تعالى، قال ابن عباس معناه جاء كل بركة من قبله كذا قال الحسن، وقيل معناه تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله فإن البركة تتضمن معنى الزيادة ومن هاهنا قال الضحاك معناه تعظم ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ مصدر فَرَّق بين الشيئين إذا فصل بينهما سمَّى به القرآن لفصله بين الحق والباطل بتقريره والمحق والمبطل بإعجازه أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في الإنزال، رتب الله سبحانه قوله تبارك على إنزال القرآن لما فيه من كثرة الخير ولدلالته على تعظمه سبحانه وتعاليه ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ أي العبد أو الفرقان ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي للإنس والجن عامة وعموم الرسالة من خصائصه ﷺ ﴿نَذِيرًا﴾ أي منذراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار وهذه الجملة وإن كانت في حيز الإنكار لأهل مكة المخاطبين بها ولا بد من أن تكون الصلة معلومة لكنها لقوة دليلها أجريت مجرى المعلوم ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي سلطانه والموصول بدل من الأول، وجاز الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله ليكون لأن المبدل منه أي الموصول مع الصلة وقوله ﴿لِيَكُونَ﴾ من متعلقات الصلة تعليل له فكان المبدل منه لم يتم إلا به وجاز أن يكون الموصول مرفوعاً بتقدير المبتدأ أي هو أو منصوباً بتقدير أعني أو أمدح ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم النصارى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما يقول المجوس والثنوية أثبت له الملك مطلقاً ونفى ما يقاومه فيه ثم نبّه على ما يدل عليه فقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يعني أحدث كل شيء مراعى فيه التقدير كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة على صور وأشكال معينة ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فسواه وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة، أو المعنى فقدره للبقاء إلى أجل مسمى وقد يطلق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الاستقامة فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً، وقيل قدر لكل شيء تقديراً من الأجل والعمل والرزق فجرت المقادير على ما خلق.

ولمّا تضمّن الكلام إثبات التوحيد والنّبوة أخذ في الرد على من أنكرهما في بيان نقص آلهتهم الباطلة فقال ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ أي المنذرون[1] يدل عليه قوله ﴿نَذِيرًا﴾ والمراد كفار مكة والجملة معطوفة على قوله تبارك ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي غير الله، من زائدة وهو في محل النصب

---

(١) وفي الأصل: أي المنذرين يدل عليهم إلخ ـ الفقير الدهلوي ـ.

على الحال من قوله آلهة ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ من الجواهر والأعراض والأعمال والأحوال صفة لآلهة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ حيث خلق الله كل شيء، وهذا المعنى يعم الآلهة الباطلة كلها وإن كان المراد بالآلهة الأصنام فجاز أن يكون المعنى وهم ينحتون ويصورون أي حصلت لهم صورهم بكسب عبدتهم والجملة معطوفة على ما سبق أو حال، أو رد صيغة المضارع والمعنى على الماضي للاستحضار ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي لا يقدرون ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أي دفع ضر أريد بهم ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ ولا جلب نفع وهذا حال الأصنام بل حال كل شيء سوى الله تعالى فإن عيسى وعزيراً والملائكة مع علو مرتبتهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ يعني لا يملكون إماتة أحد ولا إحياءه أولاً ولا بعثه ثانياً، وهذه الأمور من لوازم الألوهية فكل من ليس كذلك فليس بإله وفيه إشارة إلى أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ عطف على اتخذوا، وضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بأن إنكار النبوّة كفر كإنكار التوحيد وذلك لأن التوحيد على ما ينبغي لا يتأتى بمجرد العقل بل حقيقة التوحيد ما ورد به الشرع ألا ترى إلى الفلاسفة وأمثالهم كيف خبطوا في الإلهيَّات حتى ضلوا وأضلوا، في الصحيحين عن ابن عباس في قصة وفد عبد القيس قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»(١) الحديث ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي كذب مصروف عن وجهه، يعني ليس هذا من كلام الله كما يقول محمد ﷺ بل ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يعني اختلقه محمد ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾ أي محمداً ﷺ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على اختلاق القرآن ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قال مجاهد يعنون اليهود وقال الحسن عبيد بن الحصر الحبشي الكاهن وقيل جبر ويسار وعداس عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب، زعم المشركون أن محمداً ﷺ يأخذ منهم ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ يعني قائلي هذه المقالة ﴿ظُلْمًا﴾ حيث حكموا على الكلام المعجز بكونه إفكًا مختلقاً متلفقاً من اليهود ﴿وَزُورًا﴾ حيث نسبوا الافتراء إلى من هو بريء منه، قال البيضاوي أتى وجاء ليطلقان بمعنى فعل فيعديان تعديته، وقيل هذان منصوبان بنزع الخافض تقديره فقد جاؤوا بظلم وزور.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي قال بعضهم يعني النضر بن الحارث فإنه كان يقول القرآن ليس من الله إنما هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني ممّا سطره أي كتبه الأولون أي المتقدمون مثل قصة رستم واسفنديار ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ أي استكتبها محمد ﷺ من جير ويسار وعداس وأمثالهم ﴿فَهِىَ﴾ أي تلك الأساطير ﴿تُمْلَىٰ﴾ أي تقرأ ﴿عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ٥، ٧، وأحمد في المسند ١/٢٢٨.

ليحفظها فإنه أميّ لا يقدر أن يكتب ولا أن يكرر من الكتاب ﴿قُلْ﴾ استئناف فإنَّه في جواب ماذا أقول لهم يعني قل لهم ردّاً عليهم ليس الأمر كما قلتم بل ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما يدل على ذلك إعجازه البلغاء عن آخرهم عن معارضته وكونه مشتملاً على علوم لا يعلمها إلا عالم السر والخفيات فكيف تحكمون عليه بكونه من كلام البشر من المتأخرين أو المتقدمين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك لا يعجلكم بالعقوبة على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم إياها ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني وقالوا في مقام الاستدلال على إنكارهم النبوة ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ أي ما لهذا الذي يدعي الرسالة وفيه استهانة وتهكم ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما يأكل أحدنا، حال من المشار إليه والعامل فيه معنى الإشارة ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كما يمشي أحدنا يعني لو كان نبياً لامتاز عن غيره من الناس وليس[1] فليس، قال البغوي كانوا يقولون لست أنت بملك لأنك تأكل والملك لا يأكل ولست أنتَ بمِلك لأن المِلك لا يتسوق وأنت تتسوق وتتبدل، قلتُ كلامهم هذا فاسد لأنه ﷺ لم يدع الملكية ولا السلطان بل قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠] فادعاؤه النبوة غير مناف لأكل الطعام والمشي في الأسواق الذي هو مقتضى البشرية التي هي من لوازم النبوة لأن النبي لا يكون إلا بشراً لأن المجانسة شرط للإفاضة والاستفاضة قال الله تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ نراه ﴿فَيَكُونَ﴾ جواب لولا معنى هلا منصوب بتقدير أن بعد الفاء ﴿مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ فنعلم صدقه بتصديق المَلَك، جملة لولا مع جوابه بدل اشتمال من الجملة السابقة، يعني ما لهذا الرسول بشراً ليس ملكاً قوياً بذاته ولا مؤيداً بأحد الأمور الثلاثة المذكورة أنزل إليه ملك ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ من السماء ﴿كَنزٌ﴾ ينفقه فلا يحتاج إلى المشي في الأسواق لطلب المعاش ﴿تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ صفة لجنة قرأ حمزة والكسائي نأكل بالنون على صيغة المتكلم مع الغير، ذكروا كلاً من الثلاثة على سبيل التنزل يعنون أنه إن كان رسولاً كان ملكاً وإن لم يكن ملكاً كان معه ملك يصدقه وإن لم يكن كذلك كان يلقى إليه من السماء كنز وإن لم يكن كذلك فلا أقل أن يكون له بستان كما يكون المدهاقين والمياسير فيعيش بربحه ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وضع الظالمين موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أيها المسلمون أحداً حين تتبعون محمداً ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ يعني سحر فغلب على عقله، وقيل أي مخدوعاً، وقيل مصروفاً عن الحق، وقيل مسحوراً أي ذا سحر وهو الرئة أي بشراً، وقيل هو مفعول بمعنى الفاعل.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ كيف ظرف متعلق بضربوا قدم عليه لتضمنه مصدر الكلام والجملة بتأويل المفرد مفعول لا نظر أي انظر إلى كيفية ضربهم الأمثال أي

---

(١) الأولى: وإذا ليس فليس ـ الفقير الدهلوي.

الأشباه، يعني جعلوك مثل المفترين والقاصين حتى حكموا عليه بالافتراء واستكتاب القصص ومثل المسحورين ومثل من يدعي الملكية والسلطنة حتى حكموا عليك باستحالته الأكل والتسوُّق واستلزام لوازم الأغنياء والسلاطين من الكنز والجنة ﴿فَضَلُّوا﴾ عطف على ضربوا أي كيف ضربوا وكيف ضلوا عن الطريق الموصل إلى الحق ومعرفة نبوتك بمعرفة خواص الأنبياء من كونه بشراً معصوماً يوحى إليه من ربه ومعرفة ما يميّز بينه وبين المتنبيّ من المعجزات الدالة على نبوته ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الرشد والهدى عطف على ضلوا أو المعنى ضربوا لك أمثالاً متناقضة فلا يستطيعون سبيلاً إلى القدح في نبوتك لأن الكلام المتناقض ساقط والله أعلم.

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم عن خيثمة قال قيل للنبي ﷺ إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها لا ينقص ذلك عندنا شيئاً في الآخرة وإن شئتَ جمعتها لك في الآخرة قال لا أجمعهما لي في الآخرة، فنزلت ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي قالوا من الكنز والبستان، ولكن أخَّره للآخرة لأنه خير وأبقى، خيراً مفعول أول لجعل ولك مفعول ثان له، قال البغوي وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال يعني خيراً من المشي في الأسواق والتماس المعاش ثم بين ذلك الخير بقوله ﴿جَنَّٰتٍ﴾ فهو بدل من خيراً ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنات ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ عطف على جعل، قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر بالرفع والباقون بالجزم لأن الشرط إن كان ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع ويجوز أن يكون الرفع على الاستئناف على أنه وعد بما يكون له في الآخرة ﴿قُصُورًا﴾ أي بيوتاً مشيدةً والعرب تسمي كل بيت مشيد قصراً، روى أحمد والترمذي وحسنه عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال «عرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلتُ لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يومًا»[١] وفي رواية عند البغوي أو قال ثلاثاً ونحو هذا «فإذا جعتُ تضرعت إليك وإذا شبعت حمدتُك وشكرتك»[٢] وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لو شئت لسارت معي جبال الذهب جاءني ملك إن حجزته لتساوى الكعبة فقال إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول إن شئت نبيّاً عبداً وإن شئت نبيّاً ملكاً فنظرتُ إلى جبرئيل فأشار إليَّ أن ضَع نفسك، فقلتُ نبيّاً عبداً، قالت فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً ويقول آكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد»[٣] ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ عطف على قالوا، يعني قالوا ذلك بل قالوا أعجب من ذلك أو متصل بما يليه يعني بل قصرت أنظارهم على الحطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٣٥، وأحمد في المسند ٥/ ٢٥٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٥٤.

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره ٥/ ٩٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٠٧٠٧، وعبد الرزاق في المصنف ١٩٥٤٣، ١٩٥٥٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٢، ١١٦، ٩/ ٣٥١.

بالمال فكذبوك وطعنوا فيك بالفقر وبما تحلوا من المطاعن الفاسدة، أو المعنى بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة أو فلا تعجب تكذيبهم إياك فإنه أعجب منه ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ عطف على كذبوا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً شديد الإسعار، وقيل اسم لجهنم فيكون صرفه باعتبار المكان.

﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي إذا رأت النار الكفار، حمل بعض المحققين إسناد الرؤية إلى النار على الحقيقة لما قال البغوي إنه روي عن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده بين عيني النار»، قالوا وهل لها من عينين؟ قال «ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾»[١] وقيل الإسناد مجازي فقيل والتقدير إذا رأتهم زبانيتها على حذف المضاف، وقيل يعني إذا كانت بمرأى منها كقوله ﷺ لا تتراءىٰ نارشما أي لا يتقاربان بحيث يكون أحدهما بحرث من الأخرى ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال الكلبي من مسيرة مائة عام، وقيل من مسيرة خمس مائة سنة ﴿سَمِعُوا﴾ أي الكفار ﴿لَهَا﴾ أي للنار ﴿تَغَيُّظًا﴾، أي صوت تغيظ، هي صوت غليانها شبيهًا بصوت المتغيظ ﴿وَزَفِيرًا﴾ وهو صوت يسمع من جوفه والجملة الشرطية صفة لسعير وتأنيث ضمير رأتهم لأنه بمعنى النار أو جهنم ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا﴾ يعني الكفار عطف على الشرطية الأولى ﴿مِنْهَا﴾ أي من جهنم حال مما بعده ﴿مَكَانًا﴾ ظرف لألقوا ﴿ضَيِّقًا﴾ لزيادة العذاب فإن الكرب مع الضيق والرَّوح مع السعة، قرأ ابن كثير بسكون الياء والباقون بتشديدها. أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية قال: «والّذي نفسي بيده ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط»[٢] وأخرج عن ابن عمر في الآية قال مثل الزُّج[٣] في الرمح، وقال ابن المبارك من طريق قتادة قال ذكر لنا أن عبد الله كان يقول: إن جهنم لتضيق على الكافرين كضيق الزج[٤] على الرمح، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال إذا ألقي في النار من يخلد في النار جعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل جهنم فما يرى أحدهم أنه يعذب غيره، وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن غفلة نحوه ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حال من الضمير المرفوع في ألقوا يعني وقد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل وقيل مقرنين مع الشياطين ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ جزاء للشرط، قال ابن عباس يعني ويلاً، وقال الضحاك هلاكًا، أخرج أحمد والبزار وابن أبي حاتم والبيهقي بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال قال

---

(١) أخرجه ابن كثير في تفسيره ١/ ٢١١، والقرطبي في تفسيره ١٣/ ٧، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٦٤، والبغوي في تفسيره ٢/ ١٢٤.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) بالضم طرف المرفق.

(٤) والجديدة في أسفل الرمح.

رسول الله ﷺ: «أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من بعده وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار» فيقال لهم ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾(١) استئناف كأنه في جواب ماذا يقال لهم حين يدعون ثبوراً يعني هلاككم أكثر من أن تدعوا مرةً واحدةً فادعوا أدعية كثيرةً وذلك لأن عذابكم أنواع كثيرة كل نوع منها ثبور لشدته أو لأنه يتجدد كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبوراً قال الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد استئناف ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت لك من صفة النار وأهلها، أو أذلك الكنز والجنة التي في الدنيا ﴿خَيْرٌ﴾ من جنة الخلد ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ خير من ذلك استفهام تقرير للتقريع مع التهكم والتوبيخ للكفار وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح أو للدلالة على خلودها أو للتميز عن جنات الدنيا ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ العائد إلى الموصول محذوف والمراد بالمتقين من يتقي الشرك والتكذيب بدلالة مقابلة الكفار، وأن الجنة يكون جزاء لكل مؤمن ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله أو اللوح المحفوظ أو لأن ما وعد الله في تحققه كالواقع ﴿جَزَآءً﴾ ثواباً على أعمالهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ مرجعاً ينقلبون إليه، التنكير فيها للتعظيم وجزاء ومصيراً حالان من الضمير المرفوع في كانت أو خبر ثان له وجملة كانت لهم حال من المفعول المقدر لوعد أي (جنة الخلد التي وعد المتقون إياها وقد كانت لهم جزاء ومصيراً) أو حال من المتقون، والرابط ضمير لهم.

﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ العائد محذوف أي ما يشاؤونه من النَّعيم يعني على ما يليق برتبته إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك ما يدركه الكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن جميع المرادات لا يحصل إلا في الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من أحد ضمائرهم ﴿كَانَ﴾ الضمير الراجع إلى ما يشاؤون ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ أي موعوداً من الله وكلمة على للوجوب استعمل لاستحالة الخلف في الموعود ولا يلزم منه الإلجاء لأن تعلق الإرادة بالموعود مقدم على الوعد الموجب للإنجاز، وهو تحقق الاختيار ﴿مَّسْـُٔولًا﴾ أي حقيقيًا بأن يسأل ويطلب أو مسؤولاً سأله الناس في دعائهم ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] قال محمد بن كعب القرظي كان مسؤولاً من الملائكة بقولهم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ متعلق بقالوا سبحانك، وجملة قالوا سبحانك مع متعلقاتها عطف على ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالنون على التكلم والتعظيم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي كل معبود سواه عبد بالباطل عاقلاً كان أو غير عاقل لأن كلمة ما يعمهما على الأصح، وقال مجاهد يعني من الملائكة والجن وعيسى وعزير خص لهؤلاء بقرينة السؤال والجواب، وقال عكرمة والضحاك والكلبي يعني الأصنام لأن ما لغير ذوي العقول وهذا القول محمول

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ٢٤٩.

على أن الله سبحانه يجعلها في الآخرة ذات حياة ونطق فتنطق كما تنطق الجوارح والأمكنة ونحو ذلك ﴿فَيَقُولُ﴾ للمعبودين بالباطل عطف على يحشر، قرأ ابن عامر بالنون على التكلم والتعظيم والباقون بالياء على الغيبة أي يقول الله سبحانه لهم ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من عبادي يعني أضللتم إياهم بدعوتكم إياهم إلى عبادة أنفسكم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي معرفة الحق لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح الفصيح، وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبيد وأصله أضللتم أم ضلوا فغير النظم ليلي حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولى للفعل دون نفس الفعل لأنه قطعي لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب.

﴿قَالُوا﴾ أورد صيغة الماضي للمستقبل لتحقق الوقوع ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجباً لما قيل لهم لعصمتهم إن كانوا ملائكة أو أنبياء أو لعدم قدرتهم على الإضلال إن كانوا جمادات أو غير ذلك، أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه وتحميده حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] فكيف يليق بهم إضلال عبيده أو تنزيهاً لله تعالى من أن يكون له شريك ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ جملة ينبغي خبر كان واسمه ضمير الشأن ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي أي ما يصح لنا أن نوالي أحداً غيرك للعصمة وعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا إلى أن يتخذ ولياً دونك وهذا جواب صحيح للأنبياء والملائكة وكذا للجمادات، وأما من ادعى في الدنيا ألوهيَّةً باطلةً من شياطين الجن والإنس فهذا الجواب منهم كقولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وكقول الشيطان ﴿لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بطول العمر والصحة وأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ عطف على متعتهم يعني حتى غفلوا عن ذكرك وتذكر آلائك والتدبر في آياتك المنصوبة الدالَّة على ذلك وعن احتياجهم إليك، أو تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن فهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه فهذه الآية حجة لنا على المعتزلة لا لهم علينا ﴿وَكَانُوا﴾ في قضائك عطف على نسوا ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هلكى، مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع وقيل جمع بائر كعائذ وعوذ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ خطاب مع المشركين في الدنيا يعني فسيكذبكم في الآخرة آلهتكم التي تعبدونها، أو رد صيغة الماضي للقطع بوقوعها كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١] وجاز أن يكون بتقدير القول يعني فنقول حينئذ للمشركين فقد كذبكم المعبودون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ الباء بمعنى في أي في قولكم إنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا وجاز أن يكون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بدل اشتمال من الضمير المنصوب في ﴿كَذَّبُوكُم﴾ يعني كذبوا قولكم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ عطف على فقد كذبوكم قرأ حفص بالتاء على الخطاب للعابدين والباقون بالياء على أن الضمير راجع إلى المعبودين ﴿صَرْفًا﴾ أي لا يستطيع المعبودون صرف العذاب عنكم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لكم أو لا تستطيعون أنتم صرف العذاب عن أنفسكم ولا

نصر أنفسكم، وقيل الصرف الحيلة ومنه قول العرب إنه يتصرف أي يحتال ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ إن كان المراد بالظلم الشرك فالجزاء لازم إجماعاً وإن كان يعم الكفر والفسق فاقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقاً وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا.

أخرج الواحدي من طريق جويبر والبغوي عن الضحاك عن ابن عباس وابن جرير نحوه من طريق سعيد أو عكرمة عنه أنه لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاتحة ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ حزن رسول الله ﷺ فنزل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ يعني إلا رسلاً أنهم ليأكلون فحذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه والمعنى إلا رسلاً آكلين الطعام والماشين في الأسواق كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤] أي ما منا من أحد إلا من له مقام معلوم وجاز أن يكون حالاً اكتفى منها بالضمير يعني ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ في حال من الأحوال إلاَّ والحال إنهم ليأكلون، وجملة ما أرسلنا معترضة لتسلية النبيّ ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي بلية فالغني فتنة للفقير يقول الفقير مالي لم أكن مثله والصحيح فتنة للمريض والشريفُ للوضيع، وقال ابن عباس أي جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا على ما تسمعون فيهم وترون من خلافهم وتتبعوا الهدى، وقيل نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقد أسلم بعده، فيكون له على الشريف السابقة والفضل فيقيم على الكفر ويمتنع عن الإسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض وهذا قول الكلبي، وقال مقاتل نزلت في أبي جهل والوليد بن عتبة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث وذلك أنهم إذا رأوا أبا ذر وابن مسعود وعماراً وبلالاً وصهيباً وعامر بن فهيرة قالوا نسلم ونكون مثل هؤلاء، وقال قتادة نزلت في ابتلاء المؤمنين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون انظروا الذين اتبعوا محمداً من موالينا ورذالتنا فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى فتؤجروا أم لا تصبرون فتزدادوا غمّاً إلى غمكم وحاصل المعنى اصبروا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن صبر وجزع، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والجسم فلينظر إلى من هو أسفل منه»(١) رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد.

﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٠، ومسلم في الزهد حديث ٨.

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾
يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ
لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ
نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً
وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ
تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا
لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟
يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ
رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَقَالَ﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يأملون ﴿لِقَآءَنَا﴾ بالخير لإنكارهم البعث ولا لقاءنا بالشر إما مجاز أو إما على لغة تهامة، قال الفراء إن الرجاء بمعنى الخوف على لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣] أي لا يخافون لله عظمة، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء ومنه الرؤية فإنه وصول إلى المرئي والمراد به الوصول إلى جزائه ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيخبروننا بصدق محمد أو يكونون رسلاً من الله إلينا ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ﴾ فيأمرنا باتباعه ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ جواب قسم محذوف ﴿فِىٓ﴾ شأن ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ حيث طلبوا لأنفسهم ما ينفق لأفراد من الأنبياء الّذين هم أكمل خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظم من ذلك ﴿وَعَتَوْ﴾ تجاوزوا الحد في الظلم، وقال مجاهد طغوا، وقال مقاتل علوا في القول، وقال البغوي العتو أشد الكفر وأفحش الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبه حيث طلبوا رؤية الله ولا شيء فوق ذلك، وقيل عتوهم أنهم عاينوا المعجزات الباهرة فأعرضوا عنها وطلبوا لأنفسهم الخبيثة ما تقطعت دونه أعناق الطالبين الكاملين ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ أي الكفار ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يعني حين الموت أو يوم القيامة جملة معترضة والظرف إما متعلق باذكر ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عطف على يرون وجملة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ معترضة أخرى وإما متعلق بقوله تعالى: لا بشرى بتقرير القول يعني يوم يرون الملائكة يقولون أي الملائكة ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ للمجرمين، قال عطية إن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة ويقولون للكافرين لا بشرى لكم، وقيل معناه يوم يرون الملائكة لا يبشرون كما يبشرون المؤمنين بالجنة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكرير أو خبر للا، أو ظرف لما تعلق به اللام في للمجرمين ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إما متعلق بالظرف المستقر أعني يومئذ أو

خبر للا أو متعلق بالبشرى إن قدرت منونة غيرمبنية مع لا فإنها لا تعمل وللمجرمين إما عام يتناول حكمه حكمهم وإما خاص وضع موضع ضميرهم تسجيلاً على جرمهم وإشعاراً بما هو المانع للبشرى والموجب لما يقابله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الملائكة عطف على يقولون لا بشرى ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ كذا قال البغوي عن عطاء عن ابن عباس أنه تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله الا الله محمد رسول الله، وعن مقاتل أنه إذا خرج الكفار من قبورهم قالت الملائكة لهم حراماً محرماً عليكم أن تكون لكم الجنة، وقال بعضهم معنى الآية يقولون أي المجرمون حين يخرجون من قبورهم ويرون الملائكة حجراً محجوراً، قال البغوي قال ابن جريج كانت العرب إذا نزلت بهم شدة ورأوا ما يكرهون قالوا حجراً محجوراً فهم يقولون ذلك إذا عاينوا الملائكة ومعناه عوذاً معوذاً، قال مجاهد يستعيذون من الملائكة يعني يوم يرون الملائكة وتقول الملائكة لا بشرى ويقول المجرمون حجراً محجوراً أي يطلبون من الله أن يمنع لقاءهم.

﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي عمدنا ذلك اليوم عطف على ويقولون ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ﴾ أي الكفار ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ صالح كقرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف ونحوها ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ عائد إلى ما عملوا ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي باطلاً لا ثواب له لفوات شرط الثواب عليه من الإيمان والإخلاص لله تعالى قال علي الهباء ما يرى في الكوى إذا وقع الشمس فيها كالغبار ولا يمس منها بالأيدي ولا يرى في الظل وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد. والمنثور المفرق صفة لهباء وقال ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير هو ما تسفه الريح وتذريه من التراب وحطام الشجر، وقال مقاتل هو ما يطير من حوافر الدّواب عند السير، وقيل الهباء المنثور ما يرى في الكوة والهباء المنبتّ ما يطيره الريح من سنابك[(١)] الخيل شبه عملهم المحبط في حقارته وعدم نفعه بالهباء ثم بالمنثور منه في انتثاره بحيث لا يمكن نظمه أو في تفرقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجهون نحوها أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر كقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يرون الملائكة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي مكاناً يستقر في أكثر الأوقات ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يؤوى إليه للاسترواح بالأزواج وهو التمتع بهن ويجوز أن يراد به مكان القيلولة على التشبيه إذ لا نوم في الجنة، وقال الأزهري القيلولة والمقيل الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن مع ذلك نوم لأن الله تعالى قال ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ والجنة لا نوم فيها وفي أحسن رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الصور وغيره من المحاسن ويحتمل أن يراد بالمستقر المقيل المصدر أو الزمان وإشارة إلى أن مكانها وزمانها أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة والتفضيل إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمترفين في الدنيا، أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال لا ينتصف النهار من

---

(١) أطراف حوافر الدواب.

يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء وذكر البغوي عن ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقرأ ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم هكذا كان يقرأه، وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية عن إبراهيم النخعي قال كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة نصف النهار فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وقال البغوي كان ابن عباس رضي الله عنه يقول في هذه الآية الحساب ذلك اليوم في أوله وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة، قال البغوي ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ عطف على يوم يرون، قرأ أهل الكوفة وأبو عمرو بتخفيف الشين هاهنا وفي سورة ق بحذف إحدى التاءين والباقون بالتشديد بإدغام التاء في الشين ﴿السَّمَآءُ بِالْغَمَٰمِ﴾ أي بسبب طلوع الغمام وهو الغمام المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقد مر في سورة البقرة، وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم وقال البغوي الباء بمعنى عن يتعاقبان يقال رميت السهم بالقوس، وعن القوس فالمعنى تشقق السماء عن الغمام ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ العامة بنون واحدة وتشديد الزاء وفتح اللام على صيغة الماضي المبني للمفعول ورفع الملائكة على أنه مسند إليه، وقرأ ابن كثير بنونين وتخفيف الزاء وضم اللام على صيغة المضارع المبني للفاعل المتكلم على التعظيم من الإنزال ونصب الملائكة على المفعولية ﴿تَنزِيلًا﴾ أخرج الحاكم وابن أبي حاتم وابن جرير وابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال عن ابن عباس أنه قرأ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَٰمِ﴾ قال يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممَّن في الأرض من الجن والإنس وجميع الخلق فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق فيقول أهل الأرض أفيكم ربنا؟ فيقولون لا[1]، ثم ينزل أهل السماء الثانية وهم أكثر من أهل السماء الدنيا وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلائق، ثم ينزل أهل السماء الثالثة وهم أكثر من أهل السماء الثانية والأولى وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل أهل السماء الرابعة وهم أكثر من أهل السماء الثالثة والثانية والأولى وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل أهل السماء الخامسة وهم أكثر ممن تقدم ثم أهل السماء السادسة كذلك ثم أهل السماء السابعة وهم أكثر من أهل السماوات وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل ربُّنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السماوات السبع والأرضين وحملة العرش لهم قرون ككعوب القنا ما بين قدم أحدهم

---

(١) وليس في الأصل: فيقولون لا.

كذا وكذا ومن أخمص قدمه إلى كعبه خمس مائة عام ومن كعبه إلى ركبته خمس مائة عام ومن ركبته إلى أرنبه خمس مائة عام ومن أرنبه إلى ترقوته[١] مسيرة خمس مائة عام. ومن ترقوته إلى موضع القوط خمس مائة عام وقد مر هذا الحديث[٢] وأقوال العلماء في تأويل نزوله تعالى في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] وأخرج ابن جرير وابن المبارك عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء فتشققت بأهلها فيكون الملائكة على حافتها حين يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفُّوا صفاً دون صف ثم ينزل ملك على مجنبته اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض ندوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣] وقوله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٢ ـ ٢٣] وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣] وقوله تعالى ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: ١٦ ـ ١٧] يعني ما تشقق منهما فبينما كذلك إذ سمعوا الصوت وأقبلوا إلى الحساب.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تشقق السماء متعلق بالملك ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة للملك ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خبر للمبتدأ يعني الملك الثابت المتحقق الذي لا زوال له يومئذ ثابت للرحمن دون غيره وجاز أن يكون يومئذٍ خبراً للمبتدأ وللرحمن متعلق به ﴿وَكَانَ يَوْمًا﴾ خبر كان واسمه ضمير مستتر ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ صفة ليوم وعلى الكافرين متعلق به يعني كان ذلك اليوم يوماً شديداً على الكافرين، وجاء في الحديث عن أبي سعيد قال: سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال «والَّذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»[٣] والله أعلم، قال البغوي كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً يدعو إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبيّ ﷺ فقدم ذات يوم من سفر فصنع الطعام فدعا الناس ودعا رسول الله ﷺ فلمَّا قرب الطعام، قال رسول الله ﷺ «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»، فقال عقبة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأكل رسول الله ﷺ من طعامه، وكان عقبة صديقاً لأبي بن خلف فلمَّا أخبر أبي بن خلف قال له يا عقبة صبأت، قال لا والله ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي

---

(١) مقدم الحلق في أعلى الصدر حيث تترقى النفس منه.

(٢) قال ابن كثير بعد سطر هذه الرواية فمدارة على علي بن زيد بن جدعان وفيه ضعففي سباقاته غالباً وفيها نكارة شديدة اهي الفقير الدهلوي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٧٥.

إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم، فقال ما أنا بالذي أرضى منك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه ففعل ذلك عقبة.

فقال النبيّ ﷺ: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف» فقتل عقبة يوم بدر صبراً وأما أبي بن خلف فقتله النبيّ ﷺ يوم أحد بيده»[١] وكذا أخرج ابن جرير مرسلاً، وفيه وقال أبي لعقبة أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك، فقال عليه السلام ولا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فأسر يوم بدر فأمر علياً بقتله وطعن أبيّاً بأحد في المبارزة فرجع إلى مكة فمات، ففي شأن عقبة وأبي نزلت ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ عطف على يوم تشقق ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يعني عقبة بن أبي معيط ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من فرط الحسرة. أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال كان أبي بن خلف يحضر النبيّ ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط فنزلت هذه الآية إلى قوله خذولاً وأخرج مثله عن الشعبي ومقسم، قال البيضاوي عض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة، قال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه في خده فاحترق خداه وكان أثر ذلك فيه حتى الموت، وقال الشعبي كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة فقال أمية وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمداً فكفر وارتد فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ يعني عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد الشمس بن عبد مناف ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله وأوبق نفسه بالمعصية والكفر لطاعة خليله الّذي صده عن سبيل ربه، قال عطاء يأكل يديه حتى يبلغ مرفقيه ثم تنبتان ثم يأكل هكذا كلمّا نبتت يده أكلها تحسراً على ما فعل ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى﴾ تقديره يا قوم ليتني، قرأ أبو عمرو بفتح الياء والآخرون بإسكانها خال من فاعل يعض ﴿ٱتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يا ليتني اتبعتُ محمداً أو اتخذتُ معه سبيلاً إلى الهدى والنجاة طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم ينشعب بي طريق الضلالة ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ يعني أبي بن خلف وفلان كناية عن الإعلام ﴿خَلِيلًا﴾ ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى﴾ فلان ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي عن ذكر الله أو كتابه أو موعظة الرسول أو كلمة الشهادة جواب قسم محذوف ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي الذكر مع الرسول ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني الخليل المضلّ فإن كل متمرد عاتٍ من الإنس والجن وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ فعول من الخذلان وهو ترك الإعانة والنصر يعني لا يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه، وهذه الآيات وإن كان موردها خاصاً لكنها عامة من حيث العبارة يشتمل حكمه كل متحابين اجتمعا على معصية. عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه أو تجد ريحاً

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٨.

طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة»[١] رواه البخاري، وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[٢]. رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر من يخالل»[٣] رواه البغوي، وفي الصحيحين وعند أحمد وأصحاب السنن عن أنس وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «المرء مع من أحب»[٤].

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ يومئذٍ عطف على يَعَضّ الظالم ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِی﴾ قرأ نافع وأبو عمرو والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني قريشاً ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورࣰا﴾ أي متروكاً فأعرضوا عنه ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه، وقيل معناه جعلوه بمنزلة الهجر والهذيان والقول السيّىء فزعموا أنه شعر أو سحر أو كهانة وهو قول النخعي ومجاهد، وقيل معناه قال الرسول الله ﷺ في الدنيا يشكوا قومه إلى ربه ﴿إِنَّ قَوۡمِی ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورࣰا﴾ وعلى هذا قال الرسول عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِینَ لَا یَرۡجُونَ﴾ ولما شكى رسول الله ﷺ قومه إلى ربه عزاه الله تعالى بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي جعلاً مثل ما جعلنا لك أعداء من مشركي قريش ﴿جَعَلۡنَا﴾ عطف على قال الرسول ﴿لِكُلِّ نَبِیٍّ عَدُوࣰّا﴾ لفظ العدو يحتمل الواحد والجمع ﴿مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِینَۗ﴾ أي من المشركين فأصبر كما صبروا فإني ناصرك وهاديك ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِیࣰا﴾ إلى طريق قهرهم ﴿وَنَصِیرࣰا﴾ عليهم هادياً ونصيراً حال من فاعل كفى أو تمييز من النسبة مثل قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِیدࣰا﴾ [النساء: ٧٩] ولله دره فارساً، جملة كفى بربك عطف على كذلك جعلنا.

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والضياء في المختار عن ابن عباس أنه قال المشركون إن كان محمد (كما يزعم) نبياً فلم يعذبه ربه ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِینَ كَفَرُواْ﴾ عطف على قال الذين لا يرجون ﴿لَوۡلَا﴾ هلا ﴿نُزِّلَ عَلَیۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ أي أنزل عليه كخبر بمعنى أخبر كيلا يناقض قوله ﴿جُمۡلَةࣰ وَٰحِدَةࣰۚ﴾ دفعة واحدة حال من القرآن كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود عليهم الصلاة والسلام، قال البيضاوي هذا اعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً مع أن التفريق فوائد منها ما أشار إليه بقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلق بمحذوف أي أنزلناه كذلك مفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ أي لنقوي بتفريقه قلبك على حفظه وفهمه ولأن نزوله

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب ٣٨، ومسلم في البر حديث ١٤٦، وأبو داود في الأدب باب ١٦، وأحمد في المسند ٤/٤٠٥، ٤٠٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٦، والترمذي في الزهد باب ٥٦.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٦، والترمذي في الزهد باب ٤٥، وأحمد في المسند ٢/٣٠٣، ٣٣٤.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٦، ومسلم في البر حديث ١٦٥.

بحسب الوقائع يوجب بصيرة في المعنى ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى كل نجم فيعجزون عن معارضة ذلك زاد ذلك في قوة قلبه ولأنه إذا نزل به جبرئيل حالاً بعد حال يثبت به فؤاده، ومن فوائد التفريق في النزول معرفة الناسخ من المنسوخ ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية فإنه يعين على البلاغة ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ عطف على أنزلناه المقدر الذي تعلق به لنثبت، قال ابن عباس بينّه بياناً والترتيل القراءة في ترسل وتثبت، وقال السدي فصلناه تفصيلاً، وقال مجاهد بعضه في أثر بعض، وقال النخعي والحسن فرقناه تفريقاً وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفليجها.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي سؤال عجيب كأنه مثل يريدون به القدح في نبوتك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني إلا جئنا لك في جواب سؤالهم بما يحق لرد ما جاؤوك ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ عطف على الجار والمجرور أي بما هو أحسن بياناً يزيل إشكالها أو المعنى لا يأتونك بحال عجيب يقولون هذا كان حاله إلا أعطيتك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وما هو أحسن كشفاً لما بعثت له، والفسر الإبانة وكشف المغطى كذا في القاموس ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ ذم منصوب أو مرفوع أو مبتدأ خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ والمفضل عليه هو الرسول على طريقة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] كأنه قيل إن حاملهم على هذه الأسئلة تحقير مكانه بتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم هم شر مكاناً وأضل سبيلاً وقيل إنه متصل بقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] فالمفضل عليه عام كما كان هناك يعني أولئك شر مكاناً من كل مكين وأضل سبيلاً من كل سالك ضال فكلمتا مكاناً وسبيلاً تمييزان من النسبة ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف ركباناً ومشاةً وعلى وجوههم»، فقال رجل يا رسول الله أو يمشون على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[١] رواه أبو داود والبيهقي، وعن أنس سئل رسول الله ﷺ كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[٢] متفق عليه، وعن معاوية بن حيدة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم تحشرون رجالاً وركباناً وتجرون على وجوهكم»[٣] رواه الترمذي وحسنه، وعن أبي ذر قال: حدثني الصادق المصدوق صلّى الله عليه وسلّم: «إن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ١٧، باب ١٢، وأحمد في المسند ٢/ ٣٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٥، باب ١، ومسلم في المنافقين حديث ٥٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٣.

(٣) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٣، وأحمد في المسند ٥/ ٣.

طاعمين كاسين راكبين وفوج يمشون ويسعون وفوج يسحبهم الملائكة على وجوههم»[١] رواه النسائي والحاكم والبيهقي.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ يوازره يعينه في الدعوة وإعلاء كلمة الله ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة لأن المتشاركين في الأمر متوازران عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ لهما ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فادعواهم إلى الإيمان بالله وآياته الدالة على وجوده ووحدته وصفاته الكاملة فإنهم كانوا ينكرون الصانع أو يشركون به غيره ويعبدون الأصنام، وجاز أن يكون المراد بالآيات معجزات موسى عليه السلام وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صادق بالنسبة إلى زمان الحكاية يعني حين نزول القرآن ولا يجوز أن يكون المراد بالآيات التوراة لأنها ما نزلت إلا بعد هلاك فرعون وقومه ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ في الكلام حذف للإيجاز تقديره فذهبا إليهم فدعواهم إلى الإيمان بالله وآياته فكذبوهما فدمرناهم تدميراً، اقتصر على ما هو المقصود من القصة وهو الكلام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب باذكر أو بفعل مضمر يفسره قوله ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ يعني أغرقنا قوم نوح ولا يجوز أن يكون معطوفاً على هم في دمرناهم إذ لو كان كذلك لزم تعقيب تدمير قوم نوح بإتيان موسى وقد كان قبل ذلك ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ ظرف بفعل مضمر ناصب لقوم نوح أو ظرف لما بعده، والمراد بتكذيب الرسل تكذيب نوح ومن قبله من الرسل عليهم السلام أو تكذيب نوح وحده وأورد صيغة الجمع لأن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الكل أو المعنى كذبوا بعثة الرسل ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي جعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ وعادا وثمودا عطف على هم في جعلناهم وجاز أن يكون منصوباً بفعل محذوف دلّ عليه سياق الكلام، يعني أهلكنا عاداً وثموداً وبأذكر وقد مر قصتهما فيما سبق من سورة الأعراف وغيرها ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ في القاموس الرسُّ ابتداء الشيء ومنه رس الحمى ورسيسها والبئر المطوية بالحجارة والإصلاح والإفساد ضد وواد بأذربيجان عليه ألف مدينة والحفر ودفن الميت، ولعل إطلاق أصحاب الرس على قوم معهودين لكونهم بادين بالشر والكفر مفسدين في الأرض أو لكونهم أهل بئر أو ساكني تلك الوادي أو لأنهم قتلوا نبيهم ودفنوه، والمراد هاهنا قوم كانوا أهل بئر قعود عليها أصحاب مواش يعبدون الأصنام فوجه الله عليهم شعيباً عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي أذى شعيب عليه السلام فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت البئر فخسف الله بهم وبديارهم ورباعهم فهلكوا جميعاً كذا، قال وهب بن منبه وأخرجه ابن جرير وابن عساكر عن قتادة قال البغوي قال قتادة والكلبي الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فقتلهم الله عزَّ وجلَّ، وقال بعضهم هم بقية ثمود قوم صالح وهم

---

(١) أخرجه النسائي في الجنائز باب ١١٨.

أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] وكذا أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة، وقال البغوي قال سعيد بن جبير كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله، قيل ابتلاهم الله بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاً لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح ادمخ وتنقض على صبيانهم فتخطفهم فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوه وأهلكوا، وقال البغوي قال كعب ومقاتل والسدي الرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النجار وهم الذين ذكرهم الله في سورة يس وقيل هم أصحاب الأخدود الذي حفروه، وقال عكرمة هم رسُّوا نبيهم في البئر أي دفنوه، وقيل الرس المعدن وجمعه رساس ﴿وَقُرُونَۢا﴾ عطف على أصحاب الرس يعني وأهلكنا قروناً وهو جمع الكثرة لقرن وهو قوم مقترنون من زمن واحد، القرن إذا كان مضافاً إلى شخص معين أو جمع معلوم يراد به من يقترن ويلاقي ذلك الشخص أو تلك الجماعة يعني أكثرهم أو واحداً منهم ومنه ما يقال القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير بقوله ﷺ «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[١] فقرن النبيّ ﷺ هم الصحابة الذين رأوا النبيّ ﷺ والقرن الثاني الذين رأوا واحداً من الصحابة أو أكثر والثالث الذين رأوا واحداً منهم أو أكثر وإن كان غير مضاف يراد به قوم مقترنون في زمن واحد ولا شك في أنه إذا اقترن جماعة في زمان فكبارهم تقترن في صغرهم بكبار سبقوا وصغارهم تقترن في كبرهم بصغار تلحقهم، فوضعوا لإطلاق القرن مدة فقيل أربعون أو عشرة أو عشرون أو ثلاثون أو خمسون أو ستون أو سبعون أو تسعون أو مائة أو مائة وعشرون والأصح أنها مائة سنة بقوله ﷺ لغلام «عش قرناً»[٢] فعاش مائة سنة، والمعنى على هذا أو أهلكنا أهل أعصار كثيرة كافرة ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين عاد وثمود وأصحاب الرس وقوم موسى ﴿كَثِيرٗا﴾ صفة لقرون ﴿وَكُلّٗا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾ والتنوين عوض من المضاف إليه تقديره وأنذرنا كل واحد من تلك القرون ضربنا له الأمثال أي بيّنا له القصص العجيبة من القصص الأولين ليعتبروا بها ﴿وَكُلّٗا﴾ أي كل واحد منهم ﴿تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ أي أهلكنا إهلاكاً لما لم يعتبروا بالأمثال وكذبوا المنذرين، قال الأخفش معناه كسرناه تكسيراً، قال الزجاج كل شيء كسرته وفتّته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ﴾ جواب لقسم محذوف معطوف على ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والضمير راجع إلى أهل مكة أسند فعل البعض إلى الكل كما في قوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤].

يعني والله لقد مر أهل مكة يعني أكثرهم مروا مراراً في أسفارهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ يعني سدوم عظمى قريات قوم لوط لما أمطرت عليها الحجارة لما

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٤٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٨٩، بلفظ: «لتبلغنّ قرناً».

كانوا يعملون الخبائث إتيان الرجال في أدبارهم، قال البغوي: قريات قوم لوط كانت خمساً فأهلك الله تعالى منها أربعاً ونجت واحدة وهي صغيرة وكان أهلها لا يعملون الخبيث وكانت تلك القرى على طريق أهل مكة عند ممرهم إلى الشام ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات وتقرير يعني لقد كانوا يرونها فما لهم لم يعتبروا بها ولم يتذكروا ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يعني ليس عدم اتعاظهم لأجل عدم رؤيتهم بل لعمه في قلوبهم لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون علماً في الثواب أو لا يخافونه على لغة تهامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يعني كفار قريش عطف على لا يرجون ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ استثناء مفرغ منصوب على أنه مفعول ثان ليتخذونك مصدر بمعنى المفعول أي مهزوّاً به قال البغوي نزلت في أبي جهل وأصحابه مروا على رسول الله ﷺ فقالوا استهزاء ﴿أَهَٰذَا﴾ يعنون محمداً ﷺ مبتدأ خبره ﴿الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ﴾ أي بعثه الله ﴿رَسُولًا﴾ جملة أهذا معمول لفعل محذوف تقديره يقولون ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ والاستفهام للتعجب والإنكار وكلمة هذا للتحقير وجملة يقولون بيان لما سبق يعني يتخذونك مهزوّاً به يقولون فيك كذا ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة إتيانه بما يسبق إلى الذهن أنها حجج ومعجزات، أن مخففة من الثقيلة واللام فارقة، وفيه دليل على فرط اجتهاده صلّى الله عليه وسلّم وفي دعوتهم وعرض المعجزات المتكاثرة المتوافرة عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم المعوج إلى دينه القويم لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ومن هذا شأنه أن لا يتذكر بمشاهدة المعجزات المتوافرة الباهرة فكيف يعتبر برؤية حجارة القرى الخالية ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا﴾ أي ثبتنا ﴿عَلَيْهَا﴾ واستمسكنا بعبادتها وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله تقديره لولا صبرنا ثابت أو لولا ثبت صبرنا لأضلّنا، ولولا في مثله تفيد الحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ، ولمّا كان كلامهم هذا مشعراً بنسبة الضلال إلى رسول الله ﷺ وأصحابه قال الله سبحانه رداً عليهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أهم أضل سبيلاً أم المؤمنون، وفيه وعيد ودلالة على أنه لا يهملهم الله.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ
أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ
سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ
لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ
الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا
مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى
ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ
قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ﴿٦٠﴾﴾

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ بأن أطاع هواه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا يتبصر دليلاً قدم المفعول الثاني للعناية به، قال البغوي قال ابن عباس أرأيت من ترك عبادة الله خالقه وهوى حجراً فعبده، من شرطية جزاءه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ حفيظاً يمنعه عن ذلك والجملة الشرطية قائم مقام المفعولين لرأيت والاستفهام الأول للتقرير والتعجيب والثاني للإنكار يعني لست عليهم حفيظاً قال الكلبي نسختها آية القتال ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ أم منقطعة يعني بل أتحسَب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ كلام الله منك ﴿أَوْ يَعْقِلُونَۚ﴾ ما يستفاد منه والاستفهام للإنكار يعني أنهم لا يسمعون ولا يعقلون حيث (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) والمراد بالسمع هاهنا سمع قلوبهم فهم لا ينتفعون بالمواعظ والحجج وفيه دليل على أن إفادة البرهان العلم بالنتيجة أمر عادي منوط بمشيئة الله تعالى وتخصيص الأكثر لأنه كان منهم من آمن ومنهم من تعقل الحق وكابر استكباراً أو خوفاً على الرياسة ﴿إِنْ هُمْ﴾ أي ما هم الضمير راجع إلى أكثرهم ﴿إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ﴾ حيث يسمعون بآذانهم كالأنعام ولا يسمعون بقلوبهم فلا ينتفعون بها ولا يتدبرون فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأنعام فإن الأنعام إن لم يدركوا الحق حقّاً والباطل باطلاً فهم لا يزعمون الحق باطلاً والباطل حقاً فالأنعام في جهل بسيط والكفار في جهل مركب ولا شك أن الجاهل بالجهل المركب أضل وأبعد من الحق من الجاهل بالجهل البسيط فالأنعام لا يميزون بين الحق والباطل والكفار يحكمون بحقيقة الشرك ويعبدون الحجارة بلا دليل بل مع ظهور بطلانها وينكرون الرسل مع شواهد الحجج والمعجزات وسطوع برهانها، وقيل لأن البهائم تنقاد من يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتهرب مما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لديهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ويمكن أن يقال إن الأنعام تعرف خالقها وتسجد له وتسبح له بحمده وتعقل وإن كان تعقلهم غير مدرك للعوام.

وقد روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يسوق بقرة إذ عيي فركبها فقالت لم نخلق لهذا إنما خلقنا لحراثة الأرض، فقال الناس: سبحان الله بقرة تكلم، فقال رسول الله ﷺ فإني أؤمن به وأبو بكر وعمر وما هما[1] ثمة،

(١) قوله: وما هما ثمة: أي لم يكن أبو بكر وعمر حاضرين، وإنما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقة بهما لعلمه بصدق إيمانهما وقوة يقينهما وكمال معرفتهما بقدرة الله تعالى، فقوله: وما هما ثمة، قول راوي الحديث ـ الفقير الدهلوي ـ.

وقال بينما رجل في غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأخذها فأدركها صاحبها فاستنقذها فقال له الذئب فمن له يوم السبع إذ لا راعي لها غيري، فقال سبحان الله ذئب يتكلم فقال رسول الله ﷺ أؤمن به أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم»[١].

فائدة: للملائكة روح وعقل وللبهائم نفس وهوى والآدمي مجمع للجميع فإن غلب نفسه وهواه على الروح والعقل كان أضل من البهائم وإن غلب عقله وروحه على النفس والهوى كان أفضل من الملائكة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنعه ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ كيف بسطه أو المعنى ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربك فغير النظم إشعاراً بأن المعقول من هذا الكلام بوضوح برهانه هو[٢] دلالة حدوث الظل وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل للصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس، أو المعنى ألم ينته علمك إلى ربك كيف مد الظل وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جعله ممدوداً لأنه ظل لا شمس معه كما قال في ظل الجنة ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠] أو المراد بالظل ما يقع للجدران والأشجار بعد طلوع الشمس، قال أبو عبيدة الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس فقبل الزوال يسمى ظلاً وبعد الزوال فيئاً لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب، ويمكن أن يقال إن الظل هو ظلمة الليل تنسخه الشمس بطلوعها ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ ربك ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي ثابتاً مستقراً من سكن بمعنى قر بأن جعل الليل سرمد إلى يوم القيامة أو غير متقلص من السكون بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد وجملة ولو شاء إما حال من ربك أو معترضه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ يعني لو لم تكن الشمس لما عرف الظل ظلاً ولولا النور لما عرف الظلمة ظلمة فإن الأشياء تعرف بأضدادها وأيضاً لا يوجد الظل ولا يتفاوت إلا بسبب حركات الشمس وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي أزلناه بطلوع الشمس وارتفاعها ووقوع شعاعها موقع الظل لما عبر أحداثه بالمد عبر عن إزالته بالقبض ﴿إِلَيْنَا﴾ أي إلى حيث ما أردناه.

قيل القبض إلى نفسه كناية عن الكف ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلاً غير عسير أو قليلاً قليلاً حيثما ترتفع الشمس تنقص الظل وإن كان المراد بالظل ظلمة الليل، فقبضه اليسير وإزالة الظلمة قليلاً قليلاً حين طلوع الفجر تقل الظلمة آناً فآناً حتى تسفر جداً ثم إذا طلعت الشمس تزول الظلمة عن مواضع تقع فيها شعاع الشمس وتقل الظلمة عن مواضع تقع فيها أنوارها مع الحجب على حسب تفاوت الحجب، وثُمَّ في الموضعين لتفاضل أوقات ظهورها شبَّه تباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت، ولي ههنا تأويل آخر وهو أن

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٥، وأحاديث الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٣.

(٢) وفي الأصل: وهو دلالة إلخ، ولم يستقم ـ الفقير الدهلوي ـ.

يراد بالظل عالم الإمكان فإنه ظلٌّ لمرتبة الوجوب موجود بوجود ظلّي في خارج ظلي ويراد بالشمس مراتب صفات الله سبحانه وأسمائه، والمعنى ألم تر إلى صنع ربك كيف أوجد عالم الإمكان ومدَّ الوجود المنبسط على هياكل الماهيات الممكنة الذي هو ظل للوجود الحق ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ مستقراً على حالة واحدة ولكن لم يشأ ذلك بل جعله محلاً للحوادث مستعداً للتغير والفناء حتى يتضح إمكانه وافتقاره إلى ماهية متأصلة الوجود ذات الوجوب والبقاء قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ وذلك حين يتجلى على الصوفي أسماء الله تعالى وصفاته وشاهد ببصيرة القلب لوجود الحق فحينئذٍ ظهر له كون عالم الإمكان ظلاً من ظلاله وكان يزعم قبل تلك التجلّيات والمشاهدات أن عالم الإمكان هو الموجود على الحقيقة دون غيره ثم يعني بعد تلك التجليات والمشاهدات قبضناه إلينا يعني اجتبيناه وقربناه قرباً غير متكيف إلينا أي إلى مرتبة الصفات والذات قبضاً يسيراً، قال رسول الله ﷺ حكايةً عن ربه عز وجل: «لا يزال عبدي يتقرب إلّي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببتُه كنت سمعه الّذي يسمع به»(١) الحديث، وقالت الصوفية من استوى يوماه فهو مغبون.

﴿وَهُوَ﴾ يعني ربك ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبه ظلمة الليل باللباس في ستره ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي راحة للأبدون يقطع المشاغل، وأصل السبت القطع أو موتاً كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] ومنه المسبوت للميت ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي ذا نشور وانتشار ينتشر فيه الناس لاكتساب المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن كثير الريح على التوحيد إرادةً للجنس والباقون على الجمع ملاحظة للإفراد ﴿بُشْرًا﴾ قرأ الجمهور بضم النون والشين من النشور وابن عامر بضم النون وسكون الشين على التخفيف وأصله ضم الشين جمع ناشرة يعني ناشرات للسحاب، وقرأ حمزة والكسائي(٢) بفتح النون على أنه مصدر وصف به، وقرأ عاصم بضم الباء التحتانية وتخفيف الشين تخفيف بشر جمع بشير بمعنى مبشرين ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي قدام المطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ عطف على أرسل على سبيل الالتفات من الغيبة إلى التكلم، والطهور إما اسم لما يتطهر به كالسحور لما يتسحر به والفطور لما يفطر به كما في قوله صلّى الله عليه وسلم: «إن الصعيد الطيب طهورُ المسلم ما لم يجد الماء ولو إلى عشر حجج»(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي ذر وصححه، وقوله ﷺ: «جعلت لنا الأرض كلها مسجداً وترابها طهوراً»(٤) وإما مصدر كالقبول ومنه قوله ﷺ: «طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨، وأحمد في المسند ٦/٢٥٦.

(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٣) أخرجه أبو داود في الطهارة باب ١٢٣، والترمذي في الطهارة باب ٩٢، وأحمد في المسند ٥/١٤٦، ١٤٧، ١٥٥، ١٨٠.

(٤) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ١/٩٨، ١٥٨.

الكلب أن يغسل سبع مرات أولاهن بالتراب»[١] رواه مسلم، وأبو داود عن أبي هريرة، وإنما وصف الماء به مبالغة وما صفة للمبالغة كالصبور والشكور والقطوع والضحوك بمعنى الكامل في الطاهرية، قال البغوي ذهب قوم إلى أن الطهور ما يتكرر به التطهير كالصبور اسم لما يتكرر منه الصبر والشكور اسم لما يتكرر منه الشكر وهو قول مالك حتى جوزوا الوضوء بالماء الذي استعمل في الوضوء مرة، قلتُ وهذا ليس بشيء لأن الفعول ليس من التفعيل في شيء وأيضاً لا دلالة فيه على التكرار بل على المبالغة إلا أن يقال الكمال في الطاهرية إما بأن يكون طاهراً في نفسه مطهراً لغيره وقد ثبت كون الماء على هذه الصفة بالنصوص والإجماع والنقل المتواتر وإما بأن كان طاهراً بحيث لا ينجسه شيء وبه قال مالك محتجاً بقوله ﷺ: «الماء لا ينجسه شيء»[٢] رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان عن ابن عباس، وروى أصحاب السنن الأربعة بلفظ «إن الماء لا يخبث»[٣] ورواه الدارقطني عن عائشة والطبراني في الأوسط وأبو يعلى والبزار وأبو علي بن السكن في صحاحه من حديث شريك، وروى أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء»[٤]، وروى ابن ماجه عن أبي سعيد قوله ﷺ في الحياض تردها السباع والكلاب والحمر «لها ما حملت في بطونها ولنا ماء غير طهور»[٥]، فإن قيل هذه الأحاديث متروكة بالإجماع حتى أن مالكاً يقول إن الماء إذا تغير أحد أوصافه يتنجس بوقوع النجاسة فيه، قلنا: إذا تغير أحد أوصاف الماء فهو ليس بماء مطلق وكلامنا في الماء المطلق.

والجواب عن هذا الاحتجاج أن المراد بالماء هاهنا الماء المعهود يعني الماء الكثير المستقر في الحياض وفي بئر بضاعة ونحو ذلك حتى يندفع التعارض بين هذه الأحاديث وأحاديث أُخر تدل على تنجس الماء بوقوع النجاسة فيه وإن لم يتغير أحد أوصافه منها قوله ﷺ: «طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبع مرات أولاهن بالتراب»[٦] رواه مسلم وأبو دواد، ومنها قوله ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الّذي لا يجري ثم

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٩١، ٩٢، وأبو داود في الطهارة باب ٣٧، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٣٥، ٣٠٨، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢٦٥، ٢٦٦، والحاكم في المستدرك ١/ ١٥٩، والطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٢٣، والدارقطني في سننه ١/ ٢٩، ٥٢.

(٣) روي الحديث بلفظ: «إذا كان الماء قلّتين لم يحمل الخبث» أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في الطهارة باب ٣٣، والترمذي في الطهارة باب ٥٠، والنسائي في الطهارة باب ٤٣، والمياه باب ٢٢، والدارمي في الوضوء باب ٥٥، وأحمد في المسند ١/ ٣١٤.

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة باب ٣٤، والترمذي في الطهارة باب ٤٩، والنسائي في المياه باب ٢، وأحمد في المسند ٣/ ٣١، ٨٦.

(٥) أخرجه ابن ماجه في الطهارة باب ٧٦.

(٦) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.

يتوضأ منه»[١] متفق عليه، وهذا لفظ البخاري ومنها قوله ﷺ «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده»[٢] رواه مالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة، وقد روى نحو هذا الحديث عن رسول الله ﷺ ابن عمر وجابر وعائشة، فحملنا أحاديث تنجس الماء على القليل وأحاديث عدم التنجس على الكثير فاختلف العلماء في حد الكثير؟ فقال الشافعي وأحمد الماء إذا بلغ القلتين (وهي خمسمائة رطل بالبغدادي وبالمساحة ذراع وربع ذراع طولاً وعرضاً وعمقاً) فهو كثير لا يتنجس إلا إذا تغير بالنجاسة طعمه أو لونه أو ريحه وما دونه قليل يتنجس، وقال أبو حنيفة ما لا يصل فيه النجاسة من جانب إلى جانب آخر على أكبر رأي المبتلي به فكثير وإلا فقليل، وقدّره بعض المتأخرين بعشر في عشر وقيل خمسة عشر، في خمسة عشر وقيل اثني عشر في اثني عشر وقيل ثمان في ثمان وقيل سبع في سبع بذراع الكرباس وهي سبع قبضات كل قبضة أربع أصابع، والتقدير غير منقول عن أبي حنيفة ولا عن صاحبيه، وجه قول أبي حنيفة أن التقدير لم يرد من جهة الشارع وحديث القلتين ضعيف فيجب تفويضه إلى رأي المبتلي به، واحتج الشافعي وأحمد بحديث القلتين والحق أنه حديث صحيح رواه الشافعي وأحمد والأربعة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والدارقطني والبيهقي من حديث عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه ولفظ أبي داود «سئل رسول الله ﷺ عن الماء وما ينوبه من السباع والدواب؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث»[٣] ولفظ الحاكم «إذا كان الماء قلتين لم ينجسه شيء» وفي رواية لأبي داود وابن ماجه «فإنه لا ينجس» قال الحاكم صحيح على شرطهما وقد احتجا بجميع رواته، وقال ابن مندة إسناده على شرط مسلم وقد اعترف الطحاوي بصحة الحديث أيضاً. فإن قيل مدار هذا الحديث على الوليد بن كثير فقيل عنه عن محمد بن جعفر بن الزبير، وقيل عنه عن محمد بن عباد بن جعفر تارة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر وتارة عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، قلنا: قال الحافظ هذا الاضطراب ليس بقادح فإنه على تقدير كون الجميع محفوظاً انتقال من ثقة إلى ثقة وعند التحقيق الصواب عن الوليد بن كثير عن محمد بن عباد بن جعفر عن عبد الله بن عبد الله بن عمر المكبر وعن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر المصغر ومن رواه على غير هذا الوجه فقد وهم وقد رواه جماعة عن الوليد بن كثير على الوجهين، قال الدارقطني القولان صحيحان عن الأسامة عن الوليد وله طريق ثالث رواه الحاكم وغيره من طريق حماد بن سلمة عن

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء باب ٦٨، ومسلم في الطهارة حديث ٩٤، ٩٥، ٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء باب ٢٦، ومسلم في الطهارة حديث ٨٧، ٨٨، وأبو داود في الطهارة باب ٤٩، والترمذي في الطهارة باب ١٩، والنسائي في الطهارة باب ١١٥، والغسل باب ٢٩، وابن ماجه في الطهارة باب ٤٠، ومالك في الطهارة حديث ٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤١، ٢٥٩، ٢٧١.

(٣) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.

عاصم بن المنذر عن عبدالله بن عبد الله بن عمر سأل ابن معين عن هذا الطريق فقال إسناده جيد، فإن قيل قد روي لم يحمل خبثاً وقد روي لم ينجسه شيء وقد روي لا يتنجس؟ قلنا هذا مبني على الرواية بالمعنى وهي صحيحة والاضطراب في المتن لا يقال إلا عند التعارض. فإن قيل قد روى بالشك قلتين أو ثلاثاً، روى أحمد عن وكيع والدارقطني عن يزيد بن هارون كلاهما عن حماد بن سلمة عن عاصم بن المنذر عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر عن أبيه مرفوعاً «إذا بلغ الماء قلتين أو ثلاثاً لم ينجسه شيء».

قلنا: قال ابن الجوزي قد اختلف عن حماد فروى عنه إبراهيم بن الحجاج وهذبه وكامل بن طلحة فقالوا قلتين أو ثلاثاً وروى عنه عفان ويعقوب بن إسحاق الحضرمي وبشر بن السري والعلاء بن عبد الجبار وموسى بن إسماعيل وعبيد الله بن موسى العبسي «إذا كان الماء قلتين» ولم يقولوا ثلاثاً واختلف عن يزيد بن هارون فروى عنه ابن السباح بالشك وروى عنه ابن مسعود بغير شك فوجب العمل على قول من لم يشك، قلت ويمكن أن يقال إن كلمة أوليس للشك بل للترديد والتخبير والمعنى أي المبلغين بلغ الماء لا يتنجس فلا يتنجس إذا بلغ القلتين كما لا يتنجس إذا بلغ ثلاثاً. فإن قيل قد روي أربعين قلة رواه الدارقطني وابن عدي والعقيلي عن القاسم بن عبد الله العمري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغ الماء أربعين قلة فإنه لا يحمل الخبث»[(١)] قلنا: قال أحمد المقاسم كان يكذب ويضع الحديث وكذا قال يحيى بن معين وأبو حاتم الرازي وأبو زرعة فلا يضطرب بروايته الحديث الصحيح. فإن قيل روى الدارقطني بإسناد صحيح من طريق روح بن القاسم عن محمد بن المنكدر عن ابن عمر موقوفاً إذا بلغ الماء أربعين قلة لم يتنجس، ومن طريق وكيع عن سفيان الثوري عن ابن المنكدر عنه نحوه ومن طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن المنكدر عنه نحوه وقول الراوي على خلاف ما رواه طعن الحديث، قلنا: أولاً إن مفهوم الشرط ليس بحجة عند أبي حنيفة مطلقاً وكذا عند الشافعي وغيره إذا خرج على طبق السؤال وثانياً بأن القلة لفظ مشترك يطلق على الكوز والجرة أيضاً صغرت أو كبرت فيحمل حديث الأربعين على الصغيرة التي تساوي عشرون منها قلة واحدة كبيرة لدفع التعارض، فإن قيل إذا كان القلة لفظاً مشتركاً بين الجرة والقربة والدلو ورأس الجبل وغير ذلك قال في القاموس القُلَّةُ بالضم أعلى الرأس والسنام والجبل أو كل شيء والجب العظيم والجرة العظيمة أو عامة أو من الفخار والكوز الصغير ضد، والتقييد بقلال هجر لم يثبت في الحديث الصحيح المرفوع وما رواه ابن عدي من حديث ابن عمر رضي الله عنه «إذا بلغ الماء قلتين من قلال هجر لم ينجسه شيء»[(٢)] ففي إسناده

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ١/٢٦، والزيلعي في نصب الراية ١/١١٠، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٦/٢٠٥٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/١٣٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/٣٢٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٧٤٩٧.

مغيرة بن صقلان وهو منكر الحديث فلا بد أن يترك العمل بالحديث ما لم يتبين المراد منه كما هو الحكم في المجمل ومن ثم قال الطحاوي هذا حديث صحيح لكنا تركنا العمل به لعدم علمنا بالقلتين، قلنا: قد ترجح أحد معانيه وهي قلال هجر بوجوه فوجب العمل به لأن رأس الجبل وكذا أعلى الرأس والسنام غير مراد بالإجماع لأن وصول الماء إلى رأس الجبلين في الارتفاع لا يتصور إلا في البحر المحيط أو عند الطوفان وأعلى الرأس والسنام أيضاً غير مراد للإجماع على أن الماء أقل من ذلك القدر يصير كثيراً فوجب الانصراف إلى الأواني وبعد الانصراف إلى الأواني ترجح قلال هجر بوجوه أحدها كثرة إستعمال العرب لفظ القلة لهذا المعنى في أشعارهم كذا قال أبو عبيدة في كتاب الطهور، قال البيهقي قلال هجر كانت مشهورة عندهم ولهذا شبّه رسول الله ﷺ ما رأى ليلة المعراج من سدرة المنتهى «فإذا أوراقها مثل آذان الفيلة وإذا نبقها مثل قلال هجر»[1]، ثانيها أن قلال هجر أكبرها كذا قال الأزهري فجعل الشارع الحد مقدراً بالعدد يدل على أن المراد بها أكبرها لأنه لا فائدة في تقديرها لقلتين صغيرتين مع القدرة على تقديره بواحدة كبيرة، ثالثها أن الكبيرة إن كانت مرادة مذاك وإن كانت الصغيرة مرادة فعدم تنجس الماء عند البلوغ قدر القلتين الكبيرتين أولى للقطع لوجود الصغيرة في الكبيرة فحملنا القلتين على الكبيرتين احتياطاً وبه يحصل التيقن والله أعلم، فإن قيل قد ضعَّفَ حديث القلتين الحافظ ابن عبد البر والعاصي إسماعيل بن إسحاق وأبو بكر بن الولي المالكيون، قال ابن عبد البر ما ذهب إليه الشافعي مذهب ضعيف من جهة النظر غير ثابت من جهة الأثر لأنه حديث تكلم فيه جماعة من أهل العلم ولأن القلتين لم يوقف على مبلغهما في أثر ثابت ولا إجماع، قلنا أقوالهم إجمالات للأسئلة المتقدمة ولم يقل أحد بتضعيف واحد من رواته فإنهم رجال الصحيحين فإذا ظهر لك أجوبة الأسئلة اندفع ما قالوا والله أعلم.

مسألة: لا يجوز الوضوء والغسل بغير الماء من المائعات الطاهرة إجماعاً لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣] وهل يجوز التطهير من النجاسة الحقيقية بغير الماء من المائعات الطاهرة أم لا؟ قال الجمهور لا يجوز وقال أبو حنيفة يجوز، احتج البغوي للجمهور بهذه الآية وقال الطهور في الآية بمعنى المطهر لما قال في آية أخرى ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم﴾ [الأنفال: ١١] فثبت أن التطهير مختص بالماء ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها، وهذا الاستدلال غير صحيح لأن كون الماء مطهراً لا يدل على حصر التطهير فيه كما أن كونه طاهراً لا يدل على حصر الطهارة فيه، والفرق لأبي حنيفة في الأحداث والأنجاس أن الحدث نجاسة حكمية غير مرئية لا يدركه وجوده ولا زواله إلا عن الشرع وزواله باستعمال الماء ثابت بالنص والإجماع وأما باستعمال غير الماء فلم يثبت بنص ولا إجماع ولا يجوز إثباته بالقياس لأن الأصل معدول عن سنن

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، ومناقب الأنصار باب ٤٢، والنسائي في الصلاة باب ١، وأحمد في المسند ٣/ ١٦٤، ٤/ ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩.

القياس، والنجاسة الحقيقية أمر مرئي وإزالته بالماء معقول لكونه طاهراً مزيلاً فيقاس عليه سائر المائعات لأجل هذا المعنى، قلت لكن يرد عليه إن الماء إذا صب على النجس تنجس بأول الملاقاة فحصول الطهارة بالغسل ثلاثا أو سبعاً أمر تعبدي وبالعصر لا يخرج الماء بجميع أجزائه فكان القياس أن لا يتطهر الثوب ونحوه بالغسل ومن ثم كان في شرائع من قبلنا قطع موضع النجاسة من الثوب ولما كان حصول الطهارة بالغسل ثابتاً بالشرع على خلاف القياس فلا يجوز قياس المائعات على الماء.

مسألة: الماء كما يتنجس بورود النجاسة عليه يتنجس بوروده على النجاسة عندنا لأن المنجس إنما هو اختلاط النجاسة بالماء ولا فرق في الوجهين، وذكر ابن الجوزي مذهب أحمد أن غسالة النجاسة إذا انفصلت غير متغيره بعد طهارة المحل فهي طاهرة وكذلك البول على الأرض ونحوه إذا كوثر بالماء ولم يتغير الماء يحكم بطهارة الماء والمكان قال وهو قول مالك والشافعي واحتج على ذلك بحديث أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد إذ جاء أعرابي فبال في المسجد فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم «قم فأتنا بدلو من الماء فصبه عليه»(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم في الصحيحين، وروى البخاري عن أبي هريرة نحوه، قلنا: هذا الحديث مخالف للقياس الصحيح فهو محمول على أنه ﷺ أمر بصب الماء بعد نقل التراب من ذلك المكان ورواية بعض الحديث شائع من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقد روي ذلك بوجوه منها ما روى الدارقطني من طريق عبد الجبار عن ابن عيينة عن يحيى بن سعيد عن أنس، أن أعرابياً بال في المسجد فقال النبيّ ﷺ «احفروا مكانه ثم صبوا عليه ذنوباً من ماء»(٢) قال الحافظ رجاله ثقات فإن قيل قال الدارقطني وهم عبد الجبار على ابن عيينة لأن أصحاب ابن عيينة الحفاظ رووه عنه عن يحيى بن سعيد ولم يذكروا الحفر؟ قلنا: عبد الجبار ثقة والزيادة من الثقة مقبولة ومنها ما رواه الدارقطني عن ابن مسعود نحوه وسنده ضعيف لكن أحد من رواته لم يتهم بالكذب، ومنها ما رواه الدارقطني وأبو داود عن عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني قال الدارقطني عبد الله بن مغفل تابعي ورواته ثقات غير أن من رواته جرير بن حازم قال الذهبي ثقة إمام تغير قبل موته فحجبه ابنه وهب فما حدث حتى مات قال ابن معين هو في قتادة ضعيف، قُلت: وهذا الحديث ليس من قتادة بل هو عن عبد الملك بن عمير وعبد الملك ثقة مخرج في الصحيحين. فإن قيل قال أحمد هذا حديث منكر قلتُ هذا جرح إجمالي وهو غير مقبول وإنما قال ذلك أحمد لعدم وقوع الحفر في الرواية المشهورة وذا ليس بجرح لأن الزيادة من الثقة مقبولة، ومنها ما أخرج الطحاوي من طريق ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاوس وكذا روى سعيد بن منصور عن

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء باب ٥٧، ٥٨، والأدب باب ٣٥، ٨٠، ومسلم في الطهارة حديث ٩٨، ٩٩، ١٠٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١٦٥٩، ١٦٦٢، والزيلعي في نصب الراية ١/ ١٢.

ابن عيينة أن النبيّ ﷺ قال «احفروا مكانه» وهذا أيضاً مرسل والمرسل عند أبي حنيفة أقوى من المرسل وعند مالك وأحمد دونه لكنه حجة مطلقاً وعند الشافعي لا يقبل المرسل إلا بأحد أمور خمسة أن يسند غيره أو يرسله غيره وعلم أن شيوخهما مختلفة أو يعضده قول صحابي أو قول أكثر أهل العلم أو يعلم من حاله أنه لا يرسل إلا برواية عن عدل وهاهنا مرسل طاوس صحيح أيده مرسل عبد الله بن مغفل وهو حسن ومسند أنس صحيح أو حسن ومسند ابن مسعود ضعيف. فإن قيل رواية أنس التي في الصحيحين أقوى وأرجح من تلك الروايات؟ قلنا: أولاً إن حديث الصحيحين صحيح من حيث السند ضعيف من حيث المعنى لتعارضه بالأحاديث التي تكاد أن تكون متواترة الدلالة على نجاسة الماء باختلاط النجاسة وثانياً إن الترجيح إنما يعتبر عند التعارض ولا تعارض هاهنا بل ما ذكرنا من الأحاديث ناطق بحفر التراب وحديث أنس ساكت عنه فلا يترك العمل بشيء منها.

مسألة: الماء المستعمل في إزالة الحدث أو إقامة القربة طاهر عند الجمهور، وروى الحسن عن أبي حنيفة أنه نجس نجاسةً غليظةً وروى أبو يوسف عنه أنه نجس نجاسة خفيفة لمكان الاختلاف وروى محمد عن أبي حنيفة مثل قول الجمهور وبه قال محمد، احتج الحنفية على نجاسة الماء بالنص والقياس أما النص فما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب»(١) وروى أبو داود بلفظ «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه من الجنابة»(٢) والنهي للتحريم يدل على تنجس الماء قلنا لا بل النهي للتنزيه لاحتمال تلوث بدن المجنب من المني غالباً فهو كالنهي للمستيقظ عن إدخال يده في الإناء لاحتمال كون اليد نجساً بالنجاسة الحقيقية كما يدل عليه قوله ﷺ «فإنه لا يدري أين باتت يده» وأما القياس فقياسهم على ما يزيل النجاسة الحقيقية بجامع الاستعمال في النجاسة، قلنا هذا قياس مع الفارق فإن استعمال الماء في إزالة النجاسة الحقيقية يوجب اختلاط الماء بأجزاء النجاسة وذلك سبب لتنجس الماء ولا اختلاط في إزالة النجاسة الحكمية لأن الحدث أمر حكمي لا يتجزى زوالها فكل ماء استعمل في عضو من الأعضاء لا يرفع به الحدث بل استعمال الماء في جميع البدن للمجنب وفي الأعضاء الأربعة كلها للمحدث شرط لزوال الحدث يزول الحدث بعد ذلك فكل جزء من أجزاء ماء الوضوء طاهر فكذا جميعه لأن انضمام ما ليس بنجس إلى ما ليس بنجس لا يوجب التنجس إجماعاً، واستدلوا على تنجس الماء بإقامة القربة بقوله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»(٣) متفق عليه عن عثمان، وعن أبي هريرة نحوه رواه

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٢٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة حديث ٧٠.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٣٣، والنسائي في الطهارة باب ٨٤، وابن ماجه في الطهارة باب ٦، ومالك في الطهارة حديث ٣٠، وأحمد في المسند ١/٦٦.

مسلم، قالوا هذا الحديث يدل على أن الخطايا تخرج من بدنه مع الماء ولا شك أن الخطايا قاذورات فيتنجس الماء باختلاطها كما يتنجس باختلاط سائر القاذورات وهذا ليس بشيء فإن الخطايا ليست بأجسام ولا أعراض تقوم بالماء وليست مثل النجاسة الحقيقية من كل وجهٍ وليس خروجها من البدن كخروج النجاسة الحقيقية حتى يلزم به تنجس الماء بل هو عبارة عن العفو والمغفرة ولو كانت الخطايا قاذورات لما جازت صلاة العصاة من المؤمنين وهي جائزة إجماعاً بل هي مكفرة للخطايا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر»[(١)] رواه مسلم عن أبي هريرة وحديث ابن مسعود في رجل أصاب من امرأة قبلة فأخبر النبيّ ﷺ فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤] الآية[(٢)] متفق عليه، ولنا على طهارة الماء المستعمل أحاديث منها حديث جابر قال: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصبَّ وضوءه عليَّ فعقلتُ وقلتُ يا رسول الله إنما يرثني كلالة فنزلت آية الفرائض»[(٣)] متفق عليه، ومنها حديث السائب بن يزيد قال: ذهبت بي خالتي إلى النبيّ ﷺ فقالت يا رسول الله إن ابن أختي وجع فدعا بالبركة ثم توضأ فشربت عن وضوئه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زرّ الحجلة»[(٤)] متفق عليه، ومنها حديث المسور بن مخرمة ذكر في صلح الحديبية قال: «فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ بنخامة إلا وقع في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وصدره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه»[(٥)] رواه البخاري.

مسألة: إزالة النجاسة الحقيقية بالماء المستعمل في إزالة الحدث أو إقامة القربة جائز اتفاقاً إلا عند من يقول بكونه نجساً وهل يجوز به الغسل أو الوضوء؟ اختلفوا فيه فقال محمد الماء المستعمل في إقامة القربة لا يجوز به التوضؤ والغسل فهو طاهر غير مطهر، وقال زفر والشافعي المستعمل في إزالة الحدث طاهر غير مطهر، وقال أبو حنيفة كل ماء استعمل في إزالة الحدث أو إقامة القربة لا يجوز به التوضؤ والاغتسال فهو طاهر غير مطهر، استدلوا على كونه غير مطهر بالنص والقياس أما النص فقوله ﷺ «لا يغتسل أحدكم في الماء الراكد»[(٦)] قالوا هذا نهيٌ مقتضاه أحد الأمرين إما نجاسة الماء بالاستعمال وإما سلب طهوريته لكن الأول

(١) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ١٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٥٩، ٤٠٠، ٤١٤.

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت باب ٤٥، وتفسير سورة ١١، باب ٦، ومسلم في التوبة حديث ٣٩، ٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى باب ٢١، والفرائض باب ١٣، ومسلم في الفرائض حديث ٨، وأحمد في المسند ٣/ ٣٩٨.

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء باب ٤٠، والمناقب باب ٢٢، والمرضى باب ١٨، والدعوات باب ٣٠، ومسلم في الفضائل حديث ١١١، والترمذي في المناقب باب ١١.

(٥) أخرجه البخاري في الوضوء باب ٧٠، والشروط باب ١٥، وأحمد في المسند ٤/ ٣٢٩، ٣٣٠.

(٦) روي الحديث بلفظ: «لا يغتسلُ أحدكم في الماء الدائم وهو جنب» أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٩٧، والنسائي في الطهارة باب ١٣٨، والمياه باب ٣، والغسل باب ١، وابن ماجه في الطهارة باب ١٠٩.

لا يتصور فتعين الثاني قلنا ليس الأمر كذلك بل النهي للتنزيه يقتضي احتمال النجاسة بالنجاسة الحقيقية واحتمال النجس لا يوجب التنجس فإن الطهارة اليقينية لا يزول بالشك وأيضاً كون الماء مطهراً وصف لازم للماء المطلق، وأما القياس فالقياس على مال الزكاة بجامع إقامة القربة وإسقاط الفرض تقريره أن من المعلوم أن إسقاط الفرض وإقامة القربة يوجب في الآلة تدنساً لا يصل إلى التنجس كما في مال الزكاة حيث حرم على الهاشمي ولم يتنجس فكذا يوجب الاستعمال للقربة إسقاط الفرض تدنساً يسلب عنه وصف التطهير ولا يصل إلى التنجس، والجواب أنا لا نسلم أن إقامة القربة أو إسقاط الفرض موجب للتدنس مطلقاً وحرمة مال الزكاة على الهاشمي أمر تعبدي ألا ترى أن الجسد والثوب يتأدى بهما الصلاة ويسقط الفرض ويقام القربة ولا يتدنس منها شيء وكذا الأضحية يسقط بها الواجب ولا يتدنس لحمها حيث أكلها رسول الله ﷺ، وأيضاً كون الماء مطهراً وصف لازم للماء المطلق الطاهر لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣] علّق التيمم بفقد الماء المطلق ولا شك أن الماء المستعمل ماء مطلق فلا يجوز التيمّم مع وجوده فيجب به الوضوء لا محالة، فإن قيل هو ليس بماء مطلق لأن الماء المطلق ما لم يقوم به خبث ولا معنى يمنع جواز التوضؤ به للصلاة فخرج الماء المقيد والماء المتنجس والماء المستعمل؟ قلنا: أولاً إنا لا نسلم أن الماء المستعمل قام به معنىً يمنع جواز التوضؤ به فهو مصادرة على المطلوب وثانياً أن الماء المطلق ما يطلق عليه اللغوي لفظ الماء بلا تقييد ولا شك أن اللغوي لا يفرق عند إطلاق لفظ الماء بين الماء الطاهر والمتنجس الذي لم يتغير أحد أوصافه والمستعمل في قربة والمستعمل في تبرد ومن ثم قال الزهري إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم وليس له وضوء غيره يتوضأ به، وقال سفيان هذا الفقه بعينه يقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣] وهذا ما ذكره البخاري تعليقاً، لكنّا نقول لمّا منع الشارع عن استعمال النجاسات وأمرنا الاجتناب عنها حيث قال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٤ ـ ٥] وقال في آية الوضوء: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقال عليه السلام «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات»(١) رواه مسلم عن أبي هريرة، وقال عليه السلام «من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»(٢) وقال الله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فمن كان قادراً على الماء المتنجس فهو غير واجد للماء حكماً لكونه ممنوعاً عن استعماله شرعاً كالقاعد على شفير البئر من غير دلو ونحوه ممنوع عن استعمال الماء طبعاً فإن الطبع يمنعه عن السقوط في البئر وكذا المريض الواجد للماء ممنوع عن استعماله طبعاً وشرعاً فإن الممنوع شرعاً كالممنوع طبعاً، وأما الماء المستعمل فليس بواجب الاجتناب عنه شرعاً لكونه طاهراً فواجده واجد للماء حقيقة

(١) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٣.

(٢) أخرجه مالك في الحدود حديث ١٢، بلفظ: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله».

وحكماً فلا يجوز له التيمم ويجب عليه الوضوء فثبت أن كون الماء مطهراً لازم لكونه طاهراً.

مسألة: إذا وقع في الماء شيء طاهر فإن لم يتغير به أحد أوصافه ولم يزد على الماء أجزاءً جاز به الوضوء إجماعاً، وإن تغير به أحد أوصافه أو أكثر فإن كان الاحتراز عنه متعذراً كالطين والأوراق في الخريف جاز به الوضوء إجماعاً ما لم يخرجه عن طبع الماء أي رقته كما إذا تغير الماء بطول المكث وإن لم يكن الاحتراز عنه متعذراً كالخل والزعفران والأشنان، فإن تغير به أحد أوصاف الماء لا يجوز به الوضوء عند الشافعي لأنه ماء مقيد والوظيفة عند فقد الماء المطلق التيمم، وعند أبي حنيفة رحمه الله يجوز به الوضوء إلا إذا اختلط الماء جامدٌ أزال رقته أو غيّر أكثر أوصافه من الطعم أو اللون أو الريح كالأنبذة أو مائع غلب عليه بالأجزاء أو غيّر أكثر أوصافه أو طبخ في الماء غيره فغيّره كالمرق وماء الباقلاء إلا ما يقصد به النظافة والسدر والأشنان ولا بأس لو تغير الماء باختلاط الطاهر تغييراً يسيراً لما روى ابن خزيمة والنسائي من حديث أم هانىء أن رسول الله ﷺ اغتسل هو وميمونة في قصعة فيها أثر العجين[(١)].

وما روى البخاري عن أم عطية الأنصارية قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ حين توفيت ابنته فقال «اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور»[(٢)]. وما رواه البزار من حديث أبي هريرة أن ثمامة بن أثال أسلم فأمره النبيّ ﷺ أن يغتسل بماء وسدر، وحديث قيس بن عاصم أنه أسلم فأمره النبيّ ﷺ أن يغتسل بماء وسدر.

﴿لِنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ذكر ميتاً لأن البلدة بمعنى البلد، أو بتأويل المكان أو لأن تأنيثه غير حقيقي أو لأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجري مجرى الجامد ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ سقى وأسقى لغتان بمعنى واحد ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ يعني أهل البوادي الذين يعيشون بالمطر ولذلك نكر الأنعام والأناسيّ وتخصيصهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار والآبار والمنابع فيستغنون لأنفسهم ولأنعامهم عن سقي السماء، ولأن سياق الآية لتعداد النعم على الإنسان وعامة منافعهم وغالب معايشهم منوط بالأنعام ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها، وأناسيّ جمع إنسي أو جمع إنسان كظرابي جمع ظربان على أن أصله أناسين كبساتين جمع بستان فقلبت النون ياء ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ يعني المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مرة ببلد ومرة ببلد

---

(١) أخرجه النسائي في الغسل باب ١١، والطهارة باب ١٤٨، وابن ماجه في الطهارة باب ٣٥، وأحمد في المسند ٦/ ٣٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب ١٣، ١٥، ١٨، والنكاح باب ٨٨، ٨٩، ومسلم في الجنائز حديث ٣٦، ٤٠.

آخر، قال البغوي قال ابن عباس ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض وقرأ هذه الآية، وروي مرفوعاً «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا السماء يمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء»، وذكر ابن إسحاق وابن جرع ومقاتل وبلغوا ابن مسعود يرفعه قال «ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله قسم هذه الأرزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف ذلك إلى الفيافي والبحار»، وقيل المراد بتصريف المطر تصريفه وابلاً وطلاً ورذاذاً[١] ونحوها وقيل المراد تصريفه في الأنهار أو في المنابع وقيل التصريف راجع إلى القول يعني صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك ويقوموا بشكره أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي إلا كفران النعمة إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «صلّى لنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية في أثرة سماء كانت بالليل فلمّا انصرف أقبل على النّاس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب» متفق عليه.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ بعث الرسول في كل قرية ﴿لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ نبيّاً ينذر أهلها فيخف عليك أعياء التبليغ ولكن بعثناك إلى الناس كافةً إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ولكن اشكر إنعامنا عليك بالرسالة العامة فاثبت على ما أنت عليه من الدعوة وإظهار الحق ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي بالله يعني بعونه وتوفيقه أو بالقرآن أو بترك طاعتهم الّذي يدل عليه فلا تطع، والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال الحق فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإحقاق الحق ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ شديداً بالقلب واللسان والسيف والسنان.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي خلاهما متجاورين متلاصقين يقال مرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخلّيتها تذهب حيث تشاء عطف على قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وما بينهما معترضات ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي حر شديد الملوحة من تأجج النار إذا تلهب فإنه يريد في العطش هذان الجملتان بتقدير القول حال من البحرين أو صفة له على طريقة ولقد أمرُّ على اللئيم يسبني، أو بحذف الموصول مع الصلة والتقدير مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ اللذين يقال في شأنهما هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾ عطف على مرج يعني جعل بينهما بقدرته ﴿بَرْزَخًا﴾ حاجزاً مانعاً لاختلاط بعضها ببعض ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي ستراً ممنوعاً فلا يبغيان ولا يفسد

---

(١) كسحاب المطر الضعيف.

الملح العذب، قال البيضاوي وذلك كدخيلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها، وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم مثل النيل وبالبحر الملح البحر الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فيكون القدرة في الفصل واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كل عنصر إن تضامت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي من النطفة ﴿بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم وذوات مهر أي إناثاً يصاهر بهن فهو كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩] وقيل ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي ذا نسب[١] منسوب إلى الآباء ذكراً كان أو أنثى وذا مهر بأن يتزوج ذكراً أو أنثى. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على ما يشاء حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه عطف على الجملة السابقة أو حال بتقدير المبتدأ يعني وهم يعبدون ما لا ينفعهم ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن هجروه ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي معيناً للشيطان على ربه بالمعاصي، وقيل معناه كان الكافر على ربه هيّناً ذليلاً يقال جعلني ظهيراً أي ذليلاً من ظهرت الشيء إذا جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار جملة معترضة ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغ الرسالة يدل عليه قوله ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ حتى يشق عليكم اتباعي خوف الغرامة جملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ فعل ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ليتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده جعل طاعة الرسول في امتثال أوامر الله والانتهاء عن مناهيه أجراً على الرسالة من حيث إنه مقصود منه واستثناه من الأجر المنفي سؤاله قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة حيث جعل ما ينفعهم أجراً لنفسه وافياً مرضياً به مقصوداً عليه، وإشعاراً بأن طاعتهم يعود عليه بالثواب من حيث إنها بدلالته قال رسول الله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»[٢] رواه البزار عن ابن مسعود والطبراني عن سهل بن سعد، وعن أبي مسعود ورواه أحمد وأصحاب الكتب الستة والضياء بزيادة «والله يحب إغاثة اللهفان»[٣] عن بريدة وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج عن أنس نحوه، وقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[٤] رواه مسلم في حديث طويل عن جرير، وقيل هذا استثناء منقطع ولكن من شاء أن يتخذ إلى

---

(١) وعن عبد الله بن المغيرة أنه سئل عمر بن الخطاب عن نسب وصهر فقال أراكم إلا وقد عرفتم النسب فأما الصهر فالأختان والصحابة ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢٣٠، ١٧/ ٢٢٧، ٢٢٨، والقرطبي في تفسيره ٦/ ٤٦.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) أخرجه مسلم في العلم حديث ١٥، والزكاة حديث ٦٩، والنسائي في الزكاة باب ٦٤، وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١.

ربه سبيلاً بالإنفاق من ماله في سبيله فليتخذ يعني لا أسألكم لنفسي أجراً ولكن لا منع من إنفاق المال في سبيل الله وطلب مرضاته واتخاذ السبيل إلى جنته، ولعل الله سبحانه دفعاً لتهمة سؤال الأجر في الأمر بأداء الزكاة وغيرها من الصدقات حرَّم الصدقات على نبيه وأهل بيته.

مسألة: يستنبط من هذه الآية أنه لا يجوز الاستئجار للطاعة كتعليم القرآن والأذان والإمامة ونحو ذلك وقوله إلى ربه أي إلى ثواب ربه حال من سبيلاً وهو مفعول ليتخذ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في دفع شرهم أو الاستغناء عن أجورهم فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكَّل عليهم عطف على قل لا أسألكم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونزّهه عن صفات النقصان مثنياً عليه بصفات الكمال طالباً لمزيد الإنعام فقل سبحان الله وبحمده.

وقيل معناه صل لله شكراً على نعمه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي عالماً فيجازيهم بها جملة كفى به حال من الحي ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه من حيث إنه الخالق للكل والمتصرف، وفيه إشارة إلى الثبات والتأني في الأمور، فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مراد خلق الأشياء على تؤدة وتدرج، الموصول مبتدأ وخبره ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أو الموصول صفة للحي أو منصوب على المدح بتقدير أعني أو أمدح والرحمن خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن أو بدل من فاعل استوى ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ أي بما ذكر من الخلق والاستواء ﴿خَبِيرًا﴾ أي عالماً يخبرك بحقيقته كذا قال الكلبي والخبير هو الله أو جبرئيل أو من قرأ في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه.

وقيل الضمير للرحمان والمعنى إن أنكروا إطلاقة على الله فسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون مبتدأ والخبر ما بعده والسؤال كما يعدى بعن يعدى بالباء وقيل معناه فسأل إليها الإنسان بالرحمان خبيراً يخبرك بصفاته ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ عطف على قوله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمان أو على جملة هو الرحمٰن ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله وكانوا يقولون لا نعرف الرحمن إلا رحمٰن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب يسمونه رحمٰن اليمامة ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أنت يا محمد كذا قرأ الجمهور بصيغة المخاطب خطاباً للنبي ﷺ وقرأ حمزة والكسائي ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ بصيغة الغائب يعنون لما يأمرنا محمد ﷺ ﴿وَزَادَهُمْ﴾ عطف على قالوا يعني وزادهم الأمر بالسجود للرحمان ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمان.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ
وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ
ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟
بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا
تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ
فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة البروج هي النجوم الكبار سميت بروجاً لظهورها، وقال عطية العوفي بروجاً قصوراً فيها الحرس ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] قرأ حمزة والكسائي(١) سُرُجاً على الجمع وهي الشمس وسائر الكواكب سوى القمر فإنه ليس بسراج لأن السراج ما يضيء بنفسه والقمر نوره مستفاد من نور الشمس كما يدل عليه كماله ونقصانه على حسب مقابلة الشمس ويدل عليه العطف بقوله ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذوي خلفة يخلف كل واحد منهما الآخر بأن يقوم **أحدهما** مقام صاحبه فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر(٢) قال البغوي جاء رجل إلى عمر بن الخطاب قال فاتتني صلاة الليلة قال أدرك ما فاتك من ليلك في نهارك قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ وقال مجاهد يعني كل واحد منهما مخالف للآخر هذا أسود وهذا أبيض ﴿لِّمَنْ أَرَادَ﴾ متعلق بجعل ﴿أَن يُذْكُرَ﴾ قرأ حمزة والكسائي(٣) بتخفيف الذال والكاف وضمها مع سكون الذال من المجرد أي يذّكر الله سبحانه والباقون بتشديد الذال والكاف وفتحهما من التفعل بإدغام التاء في الذال يعني لمن أراد أن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أنه لا بد له من صانع حكيم واجب لذاته رحيم على العباد، أو المعنى أراد أن يذكر ما فاته في أحد الملوين من خير يفعله في الآخرة ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي شكر نعمة ربه عليه

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) عن الحسن أن عمر أطال صلاة الضحى فقيل له صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه فقال إنه يبقى عليّ من وردي شيء فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه وتلا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ـ الآية منه رحمه الله ـ.

(٣) لا بل حمزة وخلف ـ أبو محمد ـ.

يعني أن خلق الليل والنهار وما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار وما فيها من المنافع لأجل أن يتذكر فيهما المتذكرون ويشكر على نعمائه الشاكرون فمن خلا وقته عن الذكر والشكر والتذكر والتفكر فقد ضاع وقته وهلك رأس ماله، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أضاف إلى نفسه تشريفاً لهم وإظهاراً لفضلهم أو لأنهم هم الراسخون في عبادته على أن عابد وعباد كتاجر وتجار وذكر من اسمائه اسم الرحمٰن أشعاراً بأنهم موصوفون بكمال الرحمة على الخلق وموعودون بكمال رحمة الله عليهم ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ هينين أو مشياً هيّناً مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون على الأرض بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا متكبرين[١].

والهون في اللغة الرفق واللين وفي القاموس الهون الوقار ومنه قوله ﷺ «المؤمن هين لين حتى تخاله من اللين أحمق» رواه البيهقي بسند ضعيف عن أبي هريرة ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ عطف على يمشون يعني إذا خاطبهم السفهاء بما يكرهون ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ قال مجاهد يعني سداداً من القول ما يسلمون فيه من الإيذاء والإثم كذا قال مقاتل بن حبان، قال الحسن لو جهل عليهم جاهل حملوا ولم يجهلوا وروى عن الحسن معناه سلموا عليهم دليله قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] قال الكلبي وأبو العالية هذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسختها آية القتال والحق أن الآية محكمة غير منسوخة فإنما الأمر بالقتال إنما هو لإعلاء كلمة الله حقاً لله سبحانه وهو منتهٍ بقول لا إله إلا الله أو إعطاء الجزية قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[٢] الحديث متفق عليه عن ابن عمر، قال الله سبحانه ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وهذا بيان لحال المؤمنين في مقابلة السفهاء وإعراضهم عن انتقامهم وعدم مؤاخذتهم لأجل أنفسهم، عن أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله: إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلم عنهم ويجهلون عليّ فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير ما دمتَ على ذلك»[٣] رواه مسلم، روي عن الحسن البصري أنه إذا قرأ هذه الآية قال هذا وصف نهارهم ثم قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ فقال هذا وصف ليلهم وخص البيتوتة لأن العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء وأوفق للقلب باللسان ولأن النهار خص لنوع آخر من العبادة وهو أنهم يجاهدون في سبيل الله لا يخافون في الله لومة لائم ويصاحبون خيار

---

(١) عن عمر أنه رأى غلاماً يتبختر في مشيه فقال له إن التبختر مشية مكروهة إلاّ في سبيل الله وقد مدح الله أقواماً فقال: وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا فاقصد في مشيك ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ١٧، والاعتصام باب ٢٨، ومسلم في الإيمان حديث ٣٤، ٣٥، ٣٦.

(٣) أخرجه مسلم في البر حديث ٢٢، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٠، ٤١٢، ٤٨٤.

الناس للتعليم والتعلم والإرشاد والاسترشاد، قوله لربهم متعلق بسجَّداً وهو جمع ساجد وقياماً جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه وتأخير القيام المروي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل»[١] رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصلاة بعد المفروضة صلاة في جوف الليل»[٢] رواه أحمد، وعن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم»[٣] رواه الترمذي، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم الرجل إذا قام بالليل يصلي والقوم إذا صفوا في الصلاة والقوم إذا صفوا في قتال العدو»[٤] رواه البغوي في شرح السنة، قال البغوي قال ابن عباس من صلّى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجداً أو قائماً، وعن عثمان بن عفان قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلّى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة»[٥] رواه أحمد ومسلم في الصحيح.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يعني أنهم مع حسن معاشرتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق خائفون من عذاب الله مبتهلون إلى الله في صرفه عنهم لعدم اعتذارهم بأعمالهم وعدم وثوقهم على استمرار حالهم، عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عند الحساب يوم القيامة أشاء أن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»[٦] رواه أبو نعيم ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي لازماً ومنه الغريم للملازمة، وقال البغوي الغرام أشد اللازم، وقيل غراماً يعني هلاكاً، وقيل الغرام ما يصيب الإنسان من شدة ومصيبة، قال محمد بن كعب القرظي سأل الله الكفار عن شكر نعمه فلم يؤدوا فأغرمهم الله فبقوا في النار، قال الحسن كل غريم يفارق غريمه إلا جهنم ﴿إِنَّهَا﴾ يعني جهنم ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ساءت فعل ذم بمعنى بئست وفيها ضمير مبهم يفسره الضمير والمخصوص

(١) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ١٢٣٩، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٤٣١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٦١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٢٥٩، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٢٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٤٢.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١٠١.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٨٠، وابن أبي شيبة في المصنف ٥/ ٢٨٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٢٥٨.

(٥) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٢٦٠، وأحمد في المسند ١/ ٥٨، ٦٨.

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٩٥.

بالذم ضمير محذوف أي هي به يرتبط باسم إن ومستقراً حال أو تميز والجملة تعليل للجملة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والابتداء من الله، وجاز أن يكون ساءت من الأفعال المتصرفة من ساء يسوء سوءاً ومساءة بمعنى مضاد لحسنت ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في وصف الجنة ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦] وعلى هذا في ساءت وضمير مستتر راجع إلى اسم إن ومستقراً حال أو تمييز عن النسبة بمعنى ساء الاستقرار والإقامة فيها ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة يقتروا بفتح الياء وكسر التاء وقرأ أهل المدينة وابن عامر بضم الياء وكسر التاء وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم التاء وكلها لغات يقال اقتر يقتر وقتّر بالتشديد وقتر يقتر ويقتر على وزن ينصر ويضرِب، والإسراف الإنفاق في معصية الله وإن قلّت والإقتار منع حق الله تعالى وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج وبه قال الحسن في هذه الآية أن معناه لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله، وقال قوم الإسراف مجاوزة الحد في الإنفاق حتى يدخل في حد التبذير، والإقتار التقتير عما لا بد منه وهذا معنى قول إبراهيم لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف، قلتُ وهذا القول راجع إلى القول الأول بل هو أخص منه فإنه مجاوزة الحد المشروع في الإنفاق المباح حتى دخل في حد التبذير وذلك حرام معصية حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٧] وإنفاق من وجب نفقته عليه بحيث لا يجيعهم ولا يعريهم فريضة والإمساك عنه إمساك عن فريضة الله ﴿وَكَانَ﴾ أي الإنفاق ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين الإسراف والإقتار ﴿قَوَامًا﴾ قصداً وسطاً حسنة(١) بين السيئتين سمى الوسط قواماً لاستقامة الطرفين كما سمى سواء لاستوائهما وهو خبر ثان أو حال مؤكدة وجاز أن يكون خبراً لكان وبين ذلك ظرفاً لغوا، وقيل إنه اسم كان مبني لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بالشيء عن نفسه، أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن مسعود قال سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت ثم أي؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قلت ثم أي؟ قال أن تزني حليلة جارك»(٢) فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بمحذوف أي لا يقتلون قتلاً إلا قتلاً بالحق أو متعلق بلا يقتلون أي لا يقتلون بسبب إلا بالحق يعني بقود أو رجم أو نحو ذلك ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ نفى عنهم أمهات المعاصي بعدما

---

(١) قال ابن زيد بن حبيب اولئك ويعني مصداق هذه الآية، أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون الطعام للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ الجوع ويقويهم على عبادة ربهم، ومن الثياب ما يستر عوراتهم وما يكفهم من الحر والبرد. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كفى سرفاً ان لا يشتهي الرجل شيئاً إلا اشتراه فأكله ـ ١٢ رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢، باب ٣، وسورة ٢٥، باب ٢، والأدب باب ٢٠، والحدود باب ٢٠، والديات باب ١، والتوحيد باب ٤٠، ٤٦، ومسلم في الإيمان حديث ١٤١، ١٤٢.

أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر موعود للجامع بين ذلك وتعريضاً للكفرة من الاتصاف بأضدادها كأنه قال والذين طهرهم الله عما أنتم عليه من الشرور والسيئات ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي أشياء من هذه الأمور ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ يعني جزاء إثم كذا قال ابن عباس، وقال أبو عبيدة الآثام العقوبة، وقال مجاهد الآثام واد في جهنم، قال البغوي يروى ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص ويروى في الحديث «الغيُّ والآثامُ بئران يسيل فيهما صديد أهل النار»[(١)]، قلت: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في هذه الآية قال واد في جهنم وأخرج هناد عن سفيان مثله وأخرج ابن جرير والطبراني والبيهقي (   )[(٢)] قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت سبعين خريفاً ثم تنتهي إلى غي وآثام» قلتُ وما غي وآثام قال: «نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار»[(٣)] وهما اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَٰعَفْ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر[(٤)] يضعف من التفعيل والباقون من المفاعلة ﴿لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لانضمام المعصية إلى الكفر ﴿وَيَخْلُدْ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر يضاعف[(٥)] ويخلد بالرفع على الاستئناف أو الحال والباقون بجزمهما بدلاً من يلق ﴿فِيهِ﴾ قرأ ابن كثير على أصله وحفص هاهنا خاصة بصلة الضمير المجرور مبالغة في الوعيد والباقون على ما هو الأصل في الضمير المجرور إذا سكن ما قبله باختلاس كسرتها ﴿مُهَانًا﴾ أي ذليلاً حال، أخرج الشيخان عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا إن الّذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لعملنا كفارة فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ونزلت ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحج: ٣٠] الآية، قال ابن عباس إلاّ من تاب من ذنبه ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه، وأخرج البخاري وغيره، عن ابن عباس قال لما أنزل في الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى . . .﴾ الآية قال مشركو مكة قد قتلنا النفس بغير الحق ودعونا مع الله إلهاً آخر وأتينا الفواحش فنزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ وقال البغوي أخبرنا عن ابن عباس قال قرأنا على عهد رسول الله ﷺ سنتين ﴿وَٱلَّذِينَ لَا

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٨، وابن كثير في تفسيره ٥/٢٤٠، والطبري في تفسيره ١٦، ٧٥، ١٩/٢٨.

(٤) وأبو جعفر ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

(٥) أي قرأ ابن عامر يُضَعَّفُ ويَخْلُدُ وأبو بكر يضاعَفُ ويخلُدُ ـ أبو محمد عفي عنه ـ.

يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية ثم نزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ فما رأيت النبيّ ﷺ فرح بشيء فرحه بها فرحه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢] فإن قيل: لا يجوز الاستثناء مفصولاً فكيف يقال بنزوله بعد سنتين؟ قلنا: نزلت هذه الآية أول مرة بغير الاستثناء ثم نزلت تلك الآيات مع الاستثناء فهذه الآية ناسخة للأولى في المقدار المستثنى. فإن قيل تقرر في الأصول أن محل النسخ الأحكام دون الأخبار وهذه الآية إخبار فكيف يمكن نسخه؟ قلنا: عدم جواز النسخ في الاخبار لعدم احتمال التخلف فيها كيلا يلزم الكذب وآية الوعيد يجوز نسخه لأنه أنشىء للوعيد يحتمل التخلف فيه تفضلاً ومغفرة، هذه الآية تدل على أن الاستثناء من الإثبات نفي وبالعكس كما يدل على ذلك الاستثناء المفرغ وليس كما قالوا إن المستثنى في حكم المسكوت عنه والاستثناء تكلم بالباقي بعد الثنيا إذ لو كان كذلك لما جاز نسخ المنطوق بالمسكوت، وقوله عملاً صالحاً منصوب على المفعولية أو المصدرية ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ فذهب جماعة إلى أن المراد أن يمحو الله سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم أو يبدل الله في الدنيا ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة ويوفقه لأضداد ما سلف منهم من المعاصي وهذا معنى، قال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك والسدي يبدل الله بقبائح ما عملوا في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام فيبدل الله لهم بالشرك التوحيد وبقتل المؤمنين قتل المشركين المحاربين وبالزنى عفة وإحصاناً، وذهب جماعة إلى أن المراد أن الله تعالى يبدل سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة تفضلاً وهو قول سعيد بن المسيب ومكحول وعائشة وأبي هريرة وسلمان رضي الله عنهم أجمعين، ويؤيده حديث أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا صغائر ذنوبه فتعرض عليه صغائرها وتخبأ كبائرها، فيقال أعملت كذا وكذا وهو يقرُّ ليس ينكر وهو مشفق من الكبائر، فيقال أعطوه مكان كل سيئة حسنةً فيقول إن لي ذنوباً لا أراها هاهنا فلقد رأيتُ رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه»[1] رواه مسلم، وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان قال يعطى رجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها فإذا يكاد ليسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدِّلَت حسنات، وأخرج أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ليأتين الله بناس يوم القيامة ودوا أنهم أكثروا من السيئات، قيل من هم؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات. فإن قيل كيف يتصور تبديل السيئة على هذا المعنى بالحسنة وكيف يثاب على السيئة فإن السيئة أمر مكروه غير مرضي لله تعالى فكيف يتصور كونه مرضياً له تعالى فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والعصيان؟ قلت: توجيه ذلك عندي بوجهين، أحدهما: أن عباد الله الصالحين كلما صدر عنهم ما كتب الله عليهم من العصيان ندموا غاية الندم واستحقروا أنفسهم غاية الاستحقار والتجئوا إلى الله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣١٤.

كمال الالتجاء وخافوا عذاب الله مع رجاء المغفرة فاستغفروه حتى صاروا مهبطاً لكمال الرحمة بحيث لو لم يذنبوا لم يصيروا بهذه المثابة فعلى هذا صار عصيانهم الذي كان سبباً للعقاب سبباً للثواب ولو بتوسط الندم والتوبة، ومن هاهنا قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله ويغفر لهم»(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقال رسول الله ﷺ: «استغفروا لماعز بن مالك لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»(٢) وقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد حين سبَّ المرأة الغامدية «مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس(٣) لغفر له»(٤) رواه مسلم في قصة ماعز والغامدية عن بريدة، وهذا ما قيل معصية أولها غفلة وآخرها ندامة خير من طاعة أولها عجب وآخرها رؤية. **ثانيهما** أن الغائصين في بحار المحبة قد يصدر منهم أمور لا يتزن بميزان الشرع ككلمات الشيخ والسماع والوجد ورهبانية ابتدعوها يجعل الله تعالى هذه الأمور الصادرة منهم كلها حسنات لصدورها عن محبة صرفة، ومن هاهنا قال العارف الرومي مثنوي:

هرجه گيرد علتي علت شرد — كفر گيرد كاملي ملت شرد

كاريا كان راقياس ازخودمگير — گرجه ماندّدو نوشتن شيرشير

أو بدل گشت وبدل شدكاراو — لطف گشت ونورشد هرناراو

ولعل ما ورد في حديث أبي ذر أنه يقال «أعرضوا صغائر ذنوبه فيعرض عليه صغائرها ويخبأ عنه كبائرها» إشارة إلى هذا فإن هذه الأمور التي تصدر من الكاملين لغلبة المحبة إنما هي بميزان الشرع صغار الذنوب دون كبائرها يجعلها الله تعالى لهم حسنات، لكونها ناشئة من منابع المحبة وأما كبار الذنوب التي صدرت عنهم على سبيل الندرة لما كتب الله تعالى صدورها عنهم فيخبأ عنهم ويغفر ويستر ولا يذكر كما أشير إليه بقوله تعالى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر الذنوب جميعاً صغائرها وكبائرها بالتوبة وبلا توبة قلت لعل قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إشارة إلى فناء القلب فإن المرء بعد فناء قلبه لا يقصد شيئاً غير الله ولا يرجو شيئاً إلا منه ولا يخاف غيره وكل ما هو مقصودٌ

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٩، ١١، والترمذي في الجنة باب ٢، والدعوات باب ٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود حديث ٢٢.

(٣) قوله صاحب مكس هو من يأخذ من التجار إذا مر وأمسا أي ضريبة باسم العشر ومجمع البحار، وفيه أن المكس أعظم الذنوب وذلك لكثرة مطالبات الناس ومظلماتهم وصرفها في غير وجهها وفي الحاشية المكس لنقصان والماكس من العمال من ينقص من حقوق المساكين ولا يعطيها بتمامها قاله البيهقي ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٤) أخرجه مسلم في الحدود حديث ٢٣، وأبو داود في الحدود باب ٢٤، والدارمي في الحدود باب ١٧، وأحمد في المسند ٥/٣٤٨.

لك فهو معبود لك بل لا يرى غيره موجوداً بوجود متأصل والإله هو الموجود بوجود متأصل يقتضي ذاته وجوده، فإن قيل أليس المؤمنون عامة قبل الفناء يعتقدون بأن الله موجود بوجود يقتضيه ذاته وغيره ليس كذلك؟ قلت: بلى يعتقدون ذلك لكن بالاستدلال دون الرؤية والشهود ويشهد على ذلك بداهة الوجدان وخوفهم وطمعهم من الخلق، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إشارة إلى فناء النفس وأن النفس الأمارة بالسوء إذا فنيت واطمأنت بمرضاة الله تعالى انسلخ عن دواعي العصيان والدليل على هذه الإشارة وصفهم بهذه الصفات بعد وصفهم بصفات الكمال بقوله ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ إلى آخره ولو كان المراد به التوحيد المجازي والتقوى الظاهري لقدم ذلك على الصفات المذكورات فيما سبق ﴿وَمَن تَابَ﴾ عن الشرك والمعاصي بتركها والندم عليها والاستغفار ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بتلافي ما فرط أو خرج عن الشرك والمعاصي ودخل في الطاعة ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ﴾ أي يرجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لا إلى غيره فحقٌّ عليه تعالى أن يثيبه ويبدل سيئاته بالحسنات، وهذه الجملة معترضة معطوفة على معترضة سابقة وهي قوله تعالى ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ والجملتان وقعتا بين الموصولات التي هي صفات مادحة لعباد الرحمن الأولى منهما لبيان عقاب المسيئين المفهومين من قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ إلى آخره والثانية منهما لبيان عاقبة التوابين المذكورين في الاستثناء، قيل التنكير في متاباً للتعظيم والترغيب إلى التوبة لئلا يتحد الشرط يعني أنه يتوب إلى الله متاباً فرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، وقيل معناه فإنه يرجع إلى الله أي ثوابه مرجعاً حسناً وهذه تعميم بعد تخصيص، وقال البغوي قال بعض أهل العلم هذه الآية في التوبة عن غير ما ذكر في الآية الأولى من القتل والزنى يعني من تاب ورجع عن الشرك وأدى الفرائض فمن لم يقتل ولم يزن فإنه يتوب إلى الله أي يعود إليه بعد الموت متاباً حسناً يفضل على غيره ممن قتل وزنى ثم تاب، فالتوبة الأولى أي الشرط أعني قوله ومن تاب معناها رجع عن الشرك والثانية أي الجزاء أعني فإنه يتوب إلى الله متاباً معناها رجع إلى الله للجزاء والمكافآت فافترقا، وقال بعضهم هذه الآية في التوبة عن جميع المعاصي ومعناه ومن أراد التوبة وعزم عليها فليتب لوجه الله فقوله يَتُوبُ إلى الله متاباً خبر بمعنى الأمر أي ليتب إلى الله وقيل معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله، قلتُ وعلى تقدير كون المراد بقوله تعالى يُبدّل الله سيئاتهم التائبين الذين صدر عنهم بعض الأمور التي لم يتزن بميزان الشرع لغلبة السكر والمحبة فبدل الله سيئاتهم حسنات لأجل محبتهم جاز أن يكون المراد بالتائبين في هذه الآية عباد الله الصالحين الذين لم يصدر عنهم شيء من تلك الأمور يعني من رجع عن جميع ما كره الله ولم يعملوا شيئاً منها ولو بغلبة المحبة والسكر فإنه يتوب إلى الله متاباً أحسن من الأولين وهم أصحاب الصحو من الأولياء كالنقشبندية الذين هم على هيئة أصحاب رسول الله ﷺ في اتباع السنة والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال البغوي قال الضحاك وأكثر المفسرين يعني الشرك

فإنه شهادة بالزور قلت ويلزم على ذلك التكرار لما مر من قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وقال علي بن طلحة يعني لا يشهدون على الناس شهادة الزور.

مسألة: قال البغوي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخّم[١] وجهه ويطاف به في السوق، وروى ابن أبي شيبة ثنا أبو خالد عن حجاج عن مكحول عن الوليد عن عمر أنه كتب إلى عماله بالشام في شاهد الزور يضرب أربعين سوطاً ويسخم وجهه ويحلق رأسه ويطال حبسه وروى عبد الرزاق في مصنفه عن مكحول أن عمر ضرب شاهد الزور أربعين سوطاً وقال أخبرنا يحيى بن العلاء أخبرني الأحوص بن الحكيم عن أبيه أن عمر أمر بشاهد الزور أن يسخم وجهه ويلقى عمامته في عنقه ويطاف به في القبائل، ومن هاهنا قال مالك والشافعي وأبو يوسف ومحمد إنه يعزر شاهد الزور بالضرب ويوقف في قومه حتى يعرفوا أنه شاهد الزور وزاد مالك فقال ويشهد في الجوامع والأسواق، قالوا إنه كبيرة من الكبائر على ما صرح به النبيّ ﷺ في حديث أنس رواه الشيخان في الصحيحين وفيها رواه البخاري أنه ﷺ قال: «ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين (وكان متكئاً فجلس فقال): ألا وقول الزور وشهادة الزور» «فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[٢] وقرن الله تعالى بينها وبين الشرك حيث قال: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] فإذا كان كبيرة وليس فيها تقدير شرعي في الحد ففيها التعزير، وقال أبو حنيفة يكتفي في تغريره بالتشهير ولا يضرب ولا يحبس فإن المقصود الانزجار ويحصل ذلك بالتشهير وأما الضرب وغير ذلك فمبالغة في الزجر لكنه يقع مانعه من الرجوع وشهادة الزور لا يظهر إلا بالإقرار والرجوع فوجب التخفيف نظراً إلى هذا الوجه وأثر عمر محمول على السياسة ومثل مذهب أبي حنيفة روي عن شريح، روى محمد بن الحسن في كتاب الآثار من طريق أبي حنيفة عن أبي الهيثم عمن حدثه عن شريح أنه كان إذا أخذ شاهد الزور فإن كان من السوق قال للرسول قل لهم أي لأهل السوق إن شريحاً يقرئكم السلام ويقول لكم إنا وجدنا هذا شاهد زور فاحذروه فإن كان من العرب أرسل إلى مسجد قومه أجمع ما كانوا فقال للرسول مثل ما قال في المرة الأولى وكذا روى ابن أبي شيبة عن شريح، وقال ابن جريج المراد بشهادة الزور الكذب مطلقاً، وقيل معنى الآية لا يحضرون مجالس الكذب فإن مشاهدة الباطل شركة فيه فلا يجوز أن يسمع قصة فيها أباطيل أو يقرأ شعراً كذلك، قال مجاهد يعني لا يحضر أعياد المشركين، وقيل المراد به النوح، وقال قتادة لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد بن الحنفية لا يشهدون اللغو والغناء، قال ابن مسعود الغناء ينبت

---

(١) قوله يسخّم وجهه أي يسود والسخام هو الفحم البحار ـ الفقير الدهلوي ـ.

(٢) أخرجه البخاري في العلم باب ٣٠، والشهادات باب ١٠، والمغازي باب ٤٥، والديات باب ٢، ومسلم في الإيمان حديث ١٤٣، ١٥٨، ١٥٩، وأحمد في المسند ٥/ ٣٧، ٣٨.

النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع، قال البغوي وأصل الزور تحسين الشيء ووضعه على خلاف صفته فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق قلت الزور في اللغة الميل قال الله تعالى: ﴿تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧] وفي الكذب ميل من الحق إلى الباطل وكذا في كل لغو، وفي القاموس الزور بالضم الكذب والشرك بالله وأعياد اليهود والنصارى والرئيس ومجلس الغناء وما يعبد من دون الله والقوة، قلتُ: وهذه الآية يصلح كل ما ذكر من المعاصي إلا الرئيس والقوة ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ عطف على ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ فهما صلتان لموصول واحد والأظهر في وجه اشتراكهما أن يراد بالزور المعاصي كلها بالشهود الحضور وباللغو أيضاً المعاصي كلها كما قال الحسن والكلبي والمعنى الذين لا يحضرون مجالس المعاصي باختيارهم وإذا مروا هناك اتفاقاً واكراماً مسرعين معرضين غير مقبلين عليه يقال كرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه، وقال مقاتل معنى الآية وإذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا وهو رواية ابن جريج عن مجاهد نظيره ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟﴾ [القصص: ٥٥] قال السدي هي منسوخة بآية القتال قلت بل هي غير منسوخة إذ القتال منته بإعطاء الجزية ولا يجوز القتال بالشتم والأذى.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بالوعظ والقراءة أو بالدلالة على دلائل التوحيد والتنزية ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يقيموا غير واعين لها وغير متبصرين بعيون داعية متغافلين عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها بل يسمعون ما يذكرون به سماع قبول فيفهمونه ويرون الحق فيتبعونه، والمراد نفي الحال دون الفعل كقولك لا يلقاني زيد راكباً ويقول الهاء للمعاصي المدلول عليها باللغو ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وذريتنا بغير ألف والباقون بالألف على الجمع ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تنكير الأعين لإرادة تنكير القرة تعظيماً وأورد الأعين بصيغة جمع القلة لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ومن ابتدائية يعني هب لنا قرة أعين كائنة من أزواجنا وذرياتنا يعني اجعلهم صالحين تقربهم أعيننا، قال القرطبي ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عزَّ وجلَّ، قال الحسن وحد القرة لأنها مصدر وأصلها من البرد لأن العرب تتأذى من الحر وتستريح من البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة الأعين عند الحزن ويقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار، وقال الأزهري معنى قرة الأعين أن يصادف قلبه من يرضاه وتقر عينه عن النظر إلى غيره ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ تأكيد للجملة السابقة فإن أزواجهم وذرياتهم إذا كانوا متقين وهم أئمة لأزواجهم وذرياتهم صاروا للمتقين إماماً واحداً إماماً للدلالة على الجنس وعدم اللبس كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] وقيل لأنه مصدر كالقيام والصيام يقال أَمَّ إماماً كما يقال قام قياماً وصام صياماً أو لأن المراد أجعل كل واحد منا للمتقين إماماً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] أو لكون كلهم كنفس واحدة لا تحاد طريقتهم وإتفاق

كلمتهم، وقيل هي جمع أم كصائم وصيام والمعنى قاصدين للمتقين سالكين سبيلهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي عباد الله الصالحين الموصوفين بتلك الصفات ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أي يثابون أعلى مواضع الجنة روى الشيخان في الصحيحين وأحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والترمذي عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف فوقهم كما ترون الكوكب في السماء الغابر من أفق المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم»، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال رسول الله ﷺ: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[١] وروي عن سهل بن سعد مثله، وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عمر والترمذي والبيهقي عن علي وأحمد عن أبي مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن في الجنة غرف يرى ظاهرها من باطنها من ظاهرها، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قانتاً والناس نيام»[٢] كذا في حديث ابن عمر وفي حديث عليّ «لمن أطاب الكلام وأفشى السلام ويطعم الطعام وصلّى بالليل والناس نيام»[٣] وفي حديث أبي مالك «لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلّى بالليل والناس نيام»[٤] وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال لنا النبيّ ﷺ: «ألا أخبركم بغرف الجنة»؟ قلنا بلى يا رسول الله، قال «إن في الجنة غرفاً من أصناف الجواهر يرى ظاهرها من باطنها من ظاهرها فيها من النعيم واللذات والشرف ما لا عين رأت ولا أذن سمعت»، قلنا يا رسول الله لمن هذه الغرف؟ قال: «لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلّى بالليل والناس نيام»، قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: أمتي يطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه وسلم عليه ورد عليه فقد أفشى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعمهم الطعام ومن صام رمضان ومن كل شهر ثلاثة فقد أدام الصيام ومن صلّى العشاء الأخيرة وصلّى الغداة في جماعة فقد صلّى بالليل والناس نيام اليهود والنصارى والمجوس»[٥] وإسناده غير قوي، وأخرج ابن عدي والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً فإذا كان ساكنها فيها لم يخف عليه ما خلفها وإذا كان خلفها لم يخف عليه ما فيها»، فقيل لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام وواصل الصيام وأطعم الطعام وأفشى السلام وصلّى بالليل والناس نيام»، قيل وما طيب الكلام؟ قال «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنه يأتي يوم القيامة وهن مقدمات ومنجّيات ومعقّبات»، قيل: وما وصال الصوم؟

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨، والرقاق باب ٥١، ومسلم في الجنة حديث ١٠، ١١، والترمذي في الجنة باب ١٩، والدارمي في الرقاق باب ١٠٧، وأحمد في المسند ٢/ ٣٣٥، ٥/ ٣٤٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٧٣.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٦٨.

(٤) أخرجه الترمذي في الجنة باب ٣، وتفسير سورة ٣٨، باب ٢، ٤.

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٥٦.

قال «من صام شهر رمضان فصامه، قيل فما إطعام الطعام»؟ قال من قات عياله، قيل فما إفشاء السلام؟ «قال مصاحبة أخيك وتحيته»، قيل وما الصلاة والناس نيام؟ قال «صلاة العشاء الآخرة»[١] وأخرج الحكيم الترمذي عن سهل بن سعد مرفوعاً في هذه الآية قال: الغرفة من ياقوتة حمراء وزبرجد خضراء ودرة بيضاء ليس فيها قصم ولا وصم» ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وعلى تحمل المجاهدات وعلى أذى المشركين، وأخرج أبو نعيم عن أبي جعفر قال بما صبروا على الفقر في دار الدنيا ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الغرفة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم أي يدعون الله لهم أو يبشرهم بالبقاء والسلامة من كل آفة، وقال الكلبي يحيي بعضهم على بعض بالسلام ويرسل الرب إليهم السلام، وأخرج أحمد والبزار وابن حبان عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً فيقول الله تعالى لمن يشاء من الملائكة ائتوهم فحيوهم، فيقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك فتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم، قال إنهم كانوا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[٢] وقيل معناه يلقون فيها تحية أي بقاء دائماً وسلاماً من الآفات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ أي موضع في قرار وإقامة، وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً»[٣].

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾ جملة مستأنفة من عبأت الجيش عبواً أي رتبتهم وهيئتهم كذا في النهاية يعني ما يهيئكم لدخول الجنة ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ إياه بالاستغفار وقيل لولا عبادتكم وقيل لولا إيمانكم وقيل لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام فإذا آمنتم هيأكم لدخول الجنة، وقيل ما يعبؤا من العبا بمعنى الثقل يعني ما يرى ربكم لكم وزناً وقدراً ولا يعتد بكم لولا دعاؤكم أي عبادتكم وطاعتكم إياه فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو كالأنعام بل هو أضل سبيلاً أو لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام فإذا آمنتم ظهر لكم قدر، وقيل معناه ما يعبؤكم ولا يعتد بكم أي يخلقكم لولا عبادتكم وطاعتكم يعني أنه خلقكم

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٣٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٥٠٨.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٦٨.
(٣) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٢٢، والترمذي في تفسير سورة ٣٩، باب ١٠.

لعبادته كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال البغوي هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقيل معناه ما يبالي بكم وهذا المعنى مأخوذ من الثقل والوزن والقدر فإن الشيء الثقيل ذا القدر والوزن يبالي به فقيل معناه ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وقيل معناه ما يبالي بعذابكم لولا دعاؤكم إياه في الشدائد كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقيل معناه ما خلقكم ربكم وله إليكم حاجة وليس لكم في جنبه تعالى قدر إلا أن تسألوه فيعطيكم وتستغفروه فيغفر لكم فما على هذه الوجه نافية وإن جعلتها استفهامية فمحلها النصب على المصدر كأنَّه قيل أي عبأ يعبؤا بكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ خطاب لكفار مكة يعني أن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذبتم الرسول فلم تجيبوا فكيف يهيئكم لدخول الجنة أو فكيف يكون لكم عنده وزن وقدر أو فكيف يبالي بعذابكم أو فكيف لا يبالي بمغفرتكم ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ تكذيبكم ﴿لِزَامًا﴾ أي لازماً لكم فلا ترزقون التوبة حتى تجازى أعمالكم، أو المعنى يكون جزاء تكذيبكم لازماً لكم يحيق بكم لا محالة أو أثره لازماً بكم حتى يكبكم في النار، وقال ابن عباس لزاماً يعني موتاً، وقال أبو عبيدة هلاكاً، وقال ابن زيد قتالاً، وقال ابن جرير عذاباً دائماً لازماً وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم ببعض، قال البغوي اختلفوا فيه فقال قوم هو يوم بدر قتل منهم سبعون وهو قول ابن مسعود وأبي بن كعب ومجاهد يعني أنهم قتلوا يوم بدر واتصل به عذاب الآخرة لازماً، روى البخاري في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام»(١) وقيل اللزام هو عذاب الآخرة والله أعلم.

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين قد تم تفسير سورة الفرقان بعون الله تعالى وحسن توفيقه سادس عشر صفر من السنة الخامسة بعد ألف ومائتين ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير سورة الشعراء.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٥، باب ٤، وسورة ٤٤، باب ١، ٥، ٦، وأحمد في المسند ٥/ ١٢٨.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشعراء

مكيَّة إلا أربع آيات من آخر السورة من قوله «والشعراء يتبعهم الغاوون» وهي مائتان وسبع وعشرون آية

روى الحاكم في المستدرك عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «أعطيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى»(١).

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي(٢) وأبو بكر هاهنا وفي القصص والنمل بإمالة الطاء

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/١٠.

(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

وأهل المدينة بين بين[١] والباقون بالفتح وأظهر النون عند الميم هاهنا وفي القصص أبو جعفر[٢] وحمزة وأدغمها الباقون، قال البغوي روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال ﴿طسٓمٓ ١﴾ عجزت العلماء عن تفسيرها، وروى علي بن طلحة الوالبي عن ابن عباس أنه قسم وهو اسم من أسماء الله عز وجل وقال قتادة اسم من أسماء القرآن، وقال مجاهد اسم للسورة، وقال محمد بن كعب القرظي أقسم الله بطوله وسنانه ومجده والحق أنه رمز بين الله وبين رسوله ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى السورة أو القرآن ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه وصحته أو المظهر للأحكام وسبيل الهدى ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي قاتل نفسك غمّاً يقال بخع نفسه كمنع قتلها غمّاً وأصل البخع أن يبلغ الذبح بالفتح وهو عرق في الصلب ويجري في أعظم الرقبة وذلك حد الذبح وهو غير النخاع بالنون فيما زعم الزمخشري ثم استعمل في كل مبالغة ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لئلا يؤمنوا أو كراهة ألا يكونوا مؤمنين نزلت هذه الآية حين كذّبه أهل مكة وشق ذلك عليه لما كان يحرص على إيمانهم، وجاز أن يكون شدة غمه ﷺ على عدم إيمانهم خوفاً من الله تعالى أن يعاقب لأجل إنكار قومه فهذه الآية تسلية للنبي ﷺ، وكلمة لعل للترجي وهاهنا للإشفاق يعني أشفق على نفسك ولا تغتمّ فإنك إن تغنم فلعلك تقتل نفسك غمّاً فإنا لم نشأ إيمانهم فإنه ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إيمانهم ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي دالة ملجئة إلى الإيمان أو بلية قاصرة عليه ﴿فَظَلَّتْ﴾ عطف على ننزل ومعناه فتظل ﴿أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي منقادين، قال قتادة لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم بعده معصية لا تزول عليهم، وقال ابن جريج معناه لو شاء الله لأنزل بهم أمراً من أموره لا يعمل أحد منهم بعده معصية، أو رد خاضعين موضع خاضعة لوفاق رؤوس الآي، وقيل أصله فظلوا لهذا خاضعين فزيدت الأعناق مقحماً لبيان موضع الخضوع وترك الخبر على أصله، وقيل أصله ظلت أصحاب الأعناق لها خاضعين فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون فجعل الفعل أولاً للأعناق ثم جعل خاضعين للرجال، وقال الأخفش رد الخضوع على المضمر الّذي أضاف الأعناق إليه، وقيل لما وصفت الأعناق بالخضوع وهو من صفات العقلاء أجريت مجراهم، وقال قوم ذكر الصفة لمجاورتها المذكر وهو قوله هم على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى المذكر وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى المؤنث، وقيل أراد بالعنق جميع البدن كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] و﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] والمعنى فظلوا خاضعين، وقال مجاهد أراد بالأعناق الرؤساء الكبراء والمعنى فظلت كبراؤهم لها خاضعين، وقيل أراد بالأعناق الجماعات يقال جاء القوم عنقاً عنقاً أي جماعات وطوائف.

---

(١) بل قرأ أهل المدينة بالفتح ـ أبو محمد ـ.

(٢) قرأ أبو جعفر بالسكت على المقطعات في جميع القرآن ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ أي كفار مكة عطف على مضمون جملة سابقة أو حال ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ موعظة أو طائفة من القرآن يذكر الله سبحانه، من زائدة في محل الرفع ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من الابتداء صفة للذكر أي منزل منه على نبيه ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزاله وإن كان قديماً في الوجود ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ استثناء مفرغ حال من الضمير المنصوب في يأتيهم أو المرفوع يعني ما يأتيهم في حال إلا في حال إعراضهم عن الإيمان به ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء المخبر به عنهم ضمناً في قوله تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ إذا نزل بهم العذاب يوم بدر أو يوم القيامة ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من أنه كان حقاً أو باطلاً كان حقيقاً بأن يصدّق ويعظم قدره أو يكذب فيستخف أمره ويستهزأ به ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف والتقدير يطلبون آية على ما يدعيه محمد ﷺ من التوحيد والبعث بعد الموت ولم ينظروا إلى الأرض يعني لا ينبغي لهم طلب الآية وقد نظروا إلى الأرض وهي آية فإن إنكار النفي إثبات ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ بدل اشتمال من الأرض وكم خبرية يعني ألم ينظروا إلى كثرة إنباتنا فيها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن محمود كثير المنفعة غذاء للناس أو الدواب ودواءً مفيدة فائدة ما إما وحده أو مع غيره وأيضاً كرم كل زوج من نبات الأرض دلالته على قدرة الخالق على إيجاده وإعادته بعد الإعدام وتوحده وصفات كماله كل لإحاطة الأفراد وكم لكثرتها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في أنبات تلك الأصناف أو في واحد منها ﴿لَءَايَةً﴾ حوالة على فاعل واجب لذاته تام القدرة والحكمة سابغ النعمة والرحمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لم ينفعهم تلك الآيات العظام، وقال سيبويه كان هاهنا زائدة والمعنى وما كان أكثرهم مؤمنين بعد مشاهدة الآيات ﴿رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على انتقام من الكفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في انتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وآمن.

﴿و﴾ اذكر ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ حين رأى الشجرة والنار معطوف على مضمون قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ فإن التقدير لا تحزن على كفر قومك ولا تبخع نفسك واذكر وقت نداء ربك موسى وفيه تسلية للنبي ﷺ، جاز أن يكون كلاماً مستأنفاً والظرف متعلق بقوله قال رب ﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ أن مفسرة لنادى أو مصدرية أي ائت أو بأن ائت ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وسومهم سوء العذاب من ذبح الأبناء وغير ذلك ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بدل أو عطف بيان لما سبق ولعل الاقتصار على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ ومعناه الأمر أي ليتقوا أنفسهم عن عذاب الله بطاعته، ويحتمل أن يكون التقدير ألا بيا قوم اتقون فهو بتقدير القول حال من فاعل ائت يعني ائت قائلاً لهم من الله ألا يا قوم اتقون نظيره ألا يسجدوا بتقدير ألا يا قوم اسجدوا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أخاف ويعقوب بالنصب عطفاً على تكذبون وكذا الخلاف في قوله ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ لأجل عقدة كانت فيه ويضيق

صدري لأجل عدم مساعدة اللسان ببيان المرام في إقامة الحجة الدافعة للتكذيب، وقال البغوي أي يضيق صدري من تكذيبهم ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾ الوحي أو أرسل جبرئيل بالوحي ﴿إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ الفاء للسببيّة، قال البيضاوي رتَّب استدعاء ضم أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة خوف التكذيب وضيق القلب انفعالاً عنه أي عن التكذيب وازدياد الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق لأنها إذا اجتمعت الأمور مست الحاجة إلى مُعِين يقوي قلبه وينوب منابه متى يعتريه الحبسة حتى لا يحمل دعوته وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في امتثال الأمر بل طلباً لما يكون معونةً على امتثاله.

﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ على حذف المضاف أي تبعة ذنب أو دعوى ذنب والمراد قتل القبطي سماه ذنباً على زعمهم وإلا فهو كان مباح الدم غير معصوم لأجل كفره وهذا اختصار قصة مبسوطة في غير هذا الموضع ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أي أخاف أن يقتلوني قبل أداء الرسالة وهذا أيضاً ليس تعللاً وعدم امتثال الأمر بالتبليغ لخوف القتل بل استدفاعاً للبلية المتوقعة المانعة من التبليغ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا﴾ إجابة إلى الطلبين بوعده للدفع اللازم لروعه وضم أخيه إليه في الإرسال والخطاب في ﴿فَٱذۡهَبَا﴾ على تغليب الحاضر وهو معطوف على الفعل الذي دل عليه كلا كأنه قال ارتدع يا موسى عن توهم قتلك فاذهب أنت ومن طلبت ضمه إليك ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم﴾ يعني مع موسى وهارون ومن تبعهما بالنصر أو معكما ومن عاداكما بالعلم ﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾ أي سامعون ما جرى بينكم من الكلام فأظهركما عليهم خبر ثان أو هو الخبر وحده ومعكم ظرف لغو ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ أفرد الرسول لأنه هاهنا بمعنى الرسالة وهو مشترك بين المرسل والرسالة، في القاموس الاسم الرسالة بالكسر والفتح وكصبور وأمير والرسول أيضاً المرسل.

قال البيضاوي لذلك ثنى تارة وأفرد أخرى يعني إذا أريد به المرسل مثنى وإذا أريد به الرسالة أفرد والمعنى هاهنا إنا ذو رسالة رب العالمين أو لأن الفعول يطلق على الواحد والجمع، قال في القاموس لم يقل ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لأن مفعولاً وفعيلاً تستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، وقال أبو عبيدة يجوز أن يكون الرسول بمعنى اثنين والجمع يقول العرب هذا رسولي ووكيلي وهذان رسولي ووكيلي كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ وقيل أفرد لاتحادهما للأخوة أو لوحدة المرسل به أو أراد أن كل واحد منا رسول رب العالمين ﴿أَنۡ﴾ مفسرة لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمن معنى القول ﴿أَرۡسِلۡ﴾ أي خلّ ﴿مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ تذهب إلى الشام ولا تستعبدهم، قال البغوي كان فرعون استعبدهم أربع مائة سنة وكانوا في ذلك الوقت ستة مائة وثمانين ألفاً، فانطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره وفي القصة أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفي يده عصاه والمكتل معلق في رأس العصا وفيه زاده فدخل وأخبر هارون بأن الله أرسلني إلى فرعون وأرسل إليك حتى ندعو فرعون فخرجت أمهما وصاحت وقالت إن فرعون يطلبك ليقتلك ولو ذهبتما إليه لقصا.

فلم يمتنع لقولها وذهبا إلى باب فرعون ليلاً ودق الباب ففزع البوابون وقالوا من بالباب وروي أنه اطلع البواب عليهما فقال من أنتما فقال موسى (إنّا رسول رب العالمين) فذهب البواب إلى فرعون، وقال إن مجنوناً بالباب ويقول إنه رسول رب العالمين فترك حتى أصبح ثم دعاهما. وروي أنهما انطلقا جميعاً إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول إليه فدخل البواب، وقال لفرعون هاهنا إنسان يزعم إنه رسول رب العالمين فقال فرعون ائذن له لعلنا نضحك منه فدخلا عليه وأديا رسالة الله عزَّ وجلَّ فعرف فرعون موسى لأنه نشأ في بيته ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ في منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾ طفلاً سمي به لقربه من الولادة ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم ودعاهم إلى الله ثلاثين سنة ثم بقي بعد الغرق خمسين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني قتل القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي من الجاحدين بنعمتي وحق تربيتي حتى عمدت إلى قتل خواصي كذا روى العوفي عن ابن عباس وهو قول أكثر المفسرين، وقال إن فرعون لم يكن يعلم بالكفر بالله، وقال الحسن والسدي أراد وأنت كنت من الكافرين بإلهك الذي تدعو إليه الآن وتعبده حيث كنت معنا على ديننا والجملة حال من إجدى التاءين ويجوز أن يكون حكماً مبتدأً عليه بأنه من الكافرين بألوهيته أو بنعمته لما عاد إليه من المخالفة أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ يعني إذاً فعلتها ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجملة حال من التاء في فعلت يعني فعلت ما فعلت ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ لم يأتني من الله شيء أو الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله لأنه أراد به التأديب دون القتل وقيل من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمد يعني من المخطئين، وقيل من الفاعلين فعل أولياء الجهل والسفه وقيل من الناسين من قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي حكمة وعلماً ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ﴾ مبتدأ إشارة إلى تربيته وليداً ﴿نِعْمَةٌ﴾ بدل من اسم الإشارة أو خبر منه ﴿تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ صفة لنعمة و﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي أو على أنه بدل من نعمة أو مجرور بإضمار الباء وهو خبر المبتدأ يعني بمقابلة جفائك أو بسبب جفائك والتي هي إن عبدت أو النصب بحذف الباء أو على الظرف بتقدير الوقت أو على الحال، وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء صهمة ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ عطف بيان لها ومعنى عبدت اتخذتهم عبيداً لك يقال عبدت فلانا وأعبدته استعبدته وتعبدته اتخذته عبداً، اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية.

قال بعضهم هو إقرار وعدّها موسى نعمة منه عليه حيث رباه ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل فكأنه قال بلى وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبدت بني إسرائيل وتركتني ولم تستعبدني، وقال بعضهم هو إقرار ظاهراً أو إنكار معنى رد موسى أولاً ما وبخه به قدحاً في نبوته ثم كر على ما عدّه من النعمة ولم يصرح بإنكاره لأنه كان صادقاً في دعواه بل نبه على أنه كان في الحقيقة نعمة لكونه في مقابلة الجفاء أو مسبباً عنه فقال وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل فتلك النعمة مقابلة بالجفاء أو بسبب الجفاء فإنه بسبب استعبادك بني

إسرائيل وقتلك أبناءهم رُفِعتُ إليك حتى ربَّيتني وكفلتني ولو لم تستعبدهم كان لي من أهلي من يربيني ولم يلقوني في اليم فتضمن هذا الإقرار الإنكار، وقيل هو إنكار وهمزة الاستفهام للإنكار مقدرة تقديره أتلك التربية نعمة لك عليّ أن عبدت بني إسرائيل يعني أتربيتك إياي نعمة وقت تعبدك بني إسرائيل أو الحال إنك عبدت بني إسرائيل فتعبيدك قومي بني إسرائيل أهبط إحسانك إلي، وإنما وحد الخطاب في تمنها وجمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده والخوف والفرار منه ومن قومه ولما سمع فرعون جواب ما طعن في موسى ورأى أنه لم يرعو[1] بذلك شرع في الاعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل و﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ ولما كان بيان حقيقة الواجب تعالى مستحيلاً بما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته والامتناع تعريف الإفراد إلا بذكر الخواص والأفعال ذكر موسى أظهر خواصه وآثاره و ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي يعني ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ من الكائنات ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بثبوت حقائق الأشياء فاستدلوا بها على خالقها فإنها أجرام محسوسة ممكنة لتركها وتعددها وتغير أحوالها فلا بد لها من مبدأ واجب لذاته وذلك المبدأ لا بد أن يكون مبدءاً لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محالان أما التعدد فلاستلزامه تركبهما مما فيه اشتراكهما وما به امتياز كل منهما عن الآخر والتركب دليل الحدوث مناف للوجوب وأما الاستغناء فهو مناف للإمكان، ثم ذلك لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته وهذا شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ولما كان فرعون غبياً لم يدرك حسن الجواب.

﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ﴾ تعجباً ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ جوابه يعني إني سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله أو يزعم أن للسموات رباً وهي قديمة واجبة لذواتها كما هو مذهب الدهرية أو غير معلوم افتقارها إلى مؤثر، فحينئذ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عدولاً إلى ما لا يمكن توهم القدم والوجوب ولا يشك في افتقارها إلى مصور حكيم ويكون أقرب للناظر وأوضح عند التأمل ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ أسئلة عن شيء يعني عن حقيقته ويجيبني عن آخر وسماه رسولاً على السخرية ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير المدار اليوم الذي قبله حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع ينتظم به أمور الكائنات ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ يعني إن كان لكم عقل أدركتم أنه لا جواب لكم فوق ذلك لا ينهم أولاً ثم لما رأى شكيمتهم[2] أي شدتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم ﴿قَالَ﴾ فرعون عدولاً عن المحاجة بعد الانقطاع

---

(١) لم يرجع عن قوله ولم ينزجر من رعا.
(٢) الشكيمة: الأنفة، يقال فلان شديد الشكيمة أنف أبي.

إلى التهديد كما هو دأب الجاهل المحجوج ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ جواب قسم محذوف ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أي من المحبوسين واللام للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجني، قال الكلبي كان سجنه أشد من القتل لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه شيئاً يهوي به في الأرض، استدل فرعون بقدرته على التعذيب على ألوهيته وإنكاره للصانع وكان قوله ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ صادراً منه تعجباً من نسبة الربوبية إلى غيره ولعله كان دهرياً يعتقد أن من الملك قطراً من الأرض وتولى أمره بقوة طالعة استحق العبادة من أهله.

﴿قَالَ﴾ موسى في جواب تهديده ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ الهمزة للاستفهام للتوبيخ والإنكار والواو للحال بعد حذف الفعل تقديره أتجعلني من المسجونين ولو جئتك بشيء مبين توبيخ على الإساءة حال فجيئة بالحجة الواضحة على صدقه، وقيل الواو للعطف على شرطية محذوفة والشرطيتان حال من فاعل فعل محذوف تقديره أتجعلني من المسجونين لو لم أجبك على دعواي بحجة ولو جئتك بشيء مبين حجة والمآل واحد ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ أي بشيء مبين ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أن ذلك بينة أو في دعواك فإن مدعي النبوة لا بد له من حجة ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر ثعبانيته أو مبين أي مظهر لصدق دعواه عطف على قال ﴿وَنَزَعَ﴾ موسى ﴿يَدَهُۥ﴾ إذا قال فرعون وهل غيرها ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ أي يده ﴿بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ لها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق فتحير فرعون وعجز.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ
(٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ
لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤٠)
فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢)
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤)
فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧)
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ
أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ
(٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَٰذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩)
فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى
سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣)
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨)﴾

و﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ أي مستقرين حوله ظرف وقع موقع الحال ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لما غلب عليه سلطان المعجزة حطّه عن دعوى الربوبية إلى الاستظهار من القوم وجعلهم أمراء على نفسه وتنفيرهم عن موسى وإظهار الخوف عن ظهوره واستيلائه على ملكه ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يعني أخر أمرهما ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ ناساً يحشرون أي يجمعون السحرة ﴿يَأْتُوكَ﴾ مجزوم في جواب الأمر ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يفضلون عليه في السحر، أمال سحار ابن عامر[1] وأبو عمرو والكسائي ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ عطف على جمل محذوفة تقديره فبعث حاشرين فَذهبوا فحشروا السحرة لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة.

قال البغوي روي عن ابن عباس قال وافق ذلك يوم السبت في أول يوم السنة وهو النيروز ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ استفهام بمعنى الأمر وفيه استبطاء لهم في الاجتماع حثاً على عدم الاستبطاء والمبادرة إليه ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ يعنون موسى وهارون وقومهما أي نتبعهم في دينهم.

قلتُ: وجاز أنهم يعنون به السحرة الذين طلبهم أي لعلنا نتبع السحرة في إبطال أمر موسى ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ والترجي يناسب التأويل الثاني وأما على التأويل الأول فالترجي باعتبار الغلبة المقتضية للاتباع ومقصودهم الأصلي أن لا يتبعوا أمر موسى ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ استفهام للتقرير ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ﴾ عطف على مضمون نعم يعني أن لكم أجراً وأنكم ﴿إِذًا﴾ أي إذا كان لكم الغلبة متعلق بما بعده ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ التزم لهم القربة زيادة على ما طلبوا من الأجر عند الغلبة.

فقال السحرة لموسى ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] كما مرّ في الأعراف فحينئذ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ لم يرد به الأمر بالسحر بل أراد به الإذن في تقديم ما هم فاعلون لا محالة توسلاً إلى إظهار أمره فلا يرد عليه أن الأمر بالمعصية حرام أو يقال هذا الأمر للتحقير أي لتحقير سحرهم في مقابلة المعجزة فليس من باب الطلب في شيء ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾ أي السحرة ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ تبركوا بعزة فرعون لفرط اعتقادهم أنه من السعداء، أو أقسموا بعزته على إتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ أي تبتلع قرأ حفص بالتخفيف والباقون بالتشديد ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما موصولة يعني ما يقلبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرهم فيخيَّل حبالهم وعصيهم أنهما حيات تسعى أو مصدرية أي تبتلع إفكهم تسمية

---

(١) والصحيح أمال سحار أبو عمر والدوري عن الكسائي والصوري عن ابن ذكوان وقال الأزرق عن ورش وأما الأخفش عن ابن ذكوان فبالفتح بلا خلاف وهي طريق التيسر والشاطبية وقرأ هشام وأبو الحارث بالفتح بلا خلاف ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

للمأفوك به مبالغة ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ يعني أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر فطرحوا على وجوههم وأنه تعالى ألقاهم بما وفقهم للتوبة وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزوير يخيَّل شيئاً لا حقيقة له ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ بدل من ألقى بدل اشتمال أو حال بإضمار قد ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ إبدال للتوضيح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم، ما جرى على أيديهما من المعجزة ﴿قَالَ﴾ فرعون تعنتاً ليلبس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح ءأمنتم بالهمزتين والباقون بهمزة واحدة[١] وحذف همزة الاستفهام الإنكاري ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فعلّمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم أو المعنى أنه وادعكم ذلك وتواطأتم عليه ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد إجمالاً ثم فصله بقوله ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا في ذلك لاستلزامه الشهادة والأجر الجزيل الذي يتلاشى في مقابلته المصائب الدنيوية ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أتوعدنا به أو بسبب آخر من أسباب الموت وقتلك أنفعها وأرجاها تعليل لنفي الضير ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ أي لأن كنا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من اتباع فرعون أو من أهل المشهد، قلتُ: والظاهر أن معناه أن كنا من أول المؤمنين وأول المؤمنين هم الذين يقتدى بهم غيرهم والجملة تعليل ثان لنفي الضمير أو تعليل للعلة المتقدمة أو بدل اشتمال لها.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بعدما أقام بين أظهرهم سنين يدعوهم إلى الحق ويريهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتوّاً وفساداً ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ قرأ نافع[٢] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر تعطيل للإسراء، قال البغوي روي عن ابن عباس قال أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن اجمع بني إسرائيل أهل كل أربعة أبيات في بيت ثم اذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة فلا تدخل بيتاً على بابه دم وسآمرها فيقتل أبكار[٣] آل فرعون من أنفسهم وأموالهم، ثم اخبزوا خبزاً فطيراً[٤] فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري ففعل ذلك فلمّا أصبحوا قالوا لفرعون هذا عمل موسى وأتباعه قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأموالنا فأرسل في أثره ألف ألف وخمس مائة ألف ملك سود مع كل ملك ألف وخرج فرعون في الكرسي العظيم لكن قلت عدد جنوده بهذه المثابة مما يستبعده العقل ولم

---

(١) والصحيح أنه قرأ قالون والأزرق وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلاف عنه ءأمنتم بهمزة مخففة فبسهلة ثم ألف وقرأ الباقون وهم الأصبهاني عن ورش وحفص ورويس بهمزة واحدة محققة وألف على الخبر - ١٢ أبو محمد عفا الله عنه -.

(٢) وأبو جعفر - أبو محمد -.

(٣) أي أحدثها.

(٤) فطير أي طري قريب حديث العمل.

يرو من النقل ما يوجب العلم به ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ معطوف على محذوف تقديره فأسرى موسى قومه فبلغ الخبر فرعون وأراد أن يتبعهم فأرسل ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يعني الشرط ليحشروا أي ليجمعوا الجيش.

قلت: لعله بعث ناساً ليجمعوا أهل المدائن المتصلة بمصر بحيث يمكن اجتماعهم في تلك الليلة إلى الصباح قائلاً لهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ بالكسر القليل من الناس كذا في القاموس ثم أكده بقوله ﴿قَلِيلُونَ﴾ لإشعاره غاية القلة فهذه الآية تدل على بطلان ما روى أنهم كانوا ست مائة وسبعين ألفاً وإنما استقلهم بالإضافة إلى جنوده على ما قيل في عدد جنوده أنه كانت مقدمته سبع مائة ألف والساقة والجناحين والقلب على قياس ذلك فإنه لا يجوزه العقل نظراً إلى أجياد ملوك الأرض لاسيما ملك مصر، قلت لعل إيراد الشرذمة لبيان قلتهم بالنسبة إلى جنود فرعون وإيراد قليلون لبيان قلتهم في نفس الأمر ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ لنا متعلق بغائظون والمعنى أنهم أصحاب غيظ وعداوة لنا يعني مبغضون لنا أو المعنى إنهم لفاعلون بنا ما يغيظنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ قرأ أهل الحجاز والبصرة حذرون وفرهين بغير ألف ووافقهم هشام في حذرون والباقون حاذرون وفارهين بالألف فيهما والأول للثبات والثاني للتجدد وهذا معنى ما قال الفراء الحاذر الذي يحذرك الآن والحذر المخاوف، وقيل حاذرون مؤدون مفرُّون أي ذووا إذاءة وقوة أي مستعدون السلاح كذا قال الزجاج ومعنى حذرون خائفون مستيقظون أي غير غافلين ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ تقديره فاجتمعوا واتفقوا على الإتباع فأخرجناهم يعني أنهم خرجوا بتقديرنا ومشيئتنا ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي أموال من الذهب والفضة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي منازل حسنة ومجالس بهية يعني مجالس الأمراء والرؤساء تحفها الاتباع ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يعني تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وذلك بأن الله تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه وأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا﴾ قرأ حمزة(١) بإمالة فتحة الراء(٢) فإذا وقف(٣) أتبعها الهمزة فأمالها مع جعلها بين بين على أصله فيصير بين ألفين ممالتين الأولى أميلت لإمالة فتحة الراء والثانية أميلت لإمالة فتحة الهمزة وهذا بحكم المشابهة غير أن هذا حقيقته على مذهبه والباقون يخلصون فتحة الراء والهمزة في حال الوصل فأما الوقف فالكسائي يقف بإمالة فتحة الهمزة فيميل الألف التي بعدها المنقلبة من الباء لإمالتها وورش يجعلها فيه بين بين على أصله في ذوات الياء والباقون يقفون بالفتح ﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي تقاربا بحيث يرى كل فريق من قوم موسى وقوم فرعون آخرين ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يعني سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم ﴿قَالَ﴾

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٢) في الوصل ـ أبو محمد ـ.
(٣) أي حمزة وخلف ـ أبو محمد ـ.

موسى ثقة بوعد الله ﴿كَلَّآ﴾ لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿رَبِّي﴾ بالعون والحفظ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي يدلني على طريق النجاة ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ﴾ مفسرة لأوحينا لما فيه معنى القول ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ عطف على محذوف تقديره فضرب موسى عصاه على البحر فانفلق البحر إلى النيل ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ من الماء ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبل الضخم الثابت في مقره فدخل كل سبق في شعب من شعابها ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي قربنا ﴿ثَمَّ﴾ في ذلك المكان ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾ يعني قوم فرعون ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥)﴾ بحبس البحر عن الجريان إلى أن عبروا ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٦٦)﴾ يعني قوم فرعون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي أنجاء موسى ومن معه وإهلاك فرعون وقومه ﴿لَءَايَةً﴾ حجة واضحة على صدق موسى عليه السلام ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر أتباع فرعون ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل لم يكن آمن لموسى من آل فرعون إلا آسية امرأة فرعون وحزئيل مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه وامرأته ومريم بنت ناموسيا التي دلت على قبر يوسف عليه السلام ﴿رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في الانتقام من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢)﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على أهل مكة عطف قوله ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠] لكونه مقدراً باذكر ﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ، إِذۡ قَالَ﴾ إبراهيم متعلق بمحذوف أي اذكر إذ قال بدل من قوله واتل عليهم ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر سماه الله أباً لكونه عماً ومربياً له ﴿وَقَوۡمِهِۦ[1] مَا تَعۡبُدُونَ﴾ سألهم ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾ أطالوا في الجواب تبجحاً به وافتخاراً ونظل هاهنا بمعنى ندوم، وقال البغوي كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم، وقال ابن عباس معناه هل يسمعون لكم ﴿إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ أورد صيغة المضارع مع إذ على حكاية الحال الماضية ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ﴾ على عبادتكم لها ﴿أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ أعرض عنها ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ يعنون أنها لا تسمع قولاً ولا تنفع نفعاً ولا تدفع ضرّاً بل اقتدينا بآبائنا يفعلون مفعول ثان لوجدنا وكذلك صفة لمصدر محذوف ليفعلون يعني بل ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ فعلاً كذلك الفعل أي كفعلنا ذلك.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ همزة الاستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار والفاء للعطف على محذوف وما استفهامية والجملة الاستفهامية قائمة مقام مفعولي رأيتم أو موصولة وهي مع صلتها أول مفعولي رأيتم والثاني مقدر وتقدير الكلام أتأملتم فرأيتم أيُّ شيء تعبُدُونَ يعنى تعبدون ما لا ينفعكم ولا يضركم تقليداً لأبائكم عبثاً. أو تقديرة أتأملتم فرأيتم الذي تعبدونه شيء لا ينفعكم ولا يضركم ووصف الآباء بالتقدم للإشعار بأن التقدم لا يدل على الصحة ولا ينقلب به الباطل حقاً ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو[2] وورش[3] بفتح الياء والباقون بإسكانها، يعني إن عبدتهم فإنهم عدولي أسند عداوتهم إلى نفسه تعريضاً وإشعاراً بأنهم أعداء لكم حيث يتضررون بعبادتها فوق ما يتضرر الرجل من عدوه، وهذا دأب الناصح الكريم يبدأ بنفسه والتعريض أنفع من التصريح ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢] يعني ما لكم لا تعبدونه وإطلاق العدد على الجمادات مبني على التجوز إما لوصول الضرر من جهتها أو باعتبار ما يؤول الأمر إليه يوم القيامة قال الله ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] وإفراد العدو لأنه في الأصل مصدر على وزن فعول كالقبول أو على معنى أن كل معبود لكم فهو عدولي، وقيل يجوز إطلاق العدو والصديق على الواحد والجمع لأن كلَّ صفةٍ على وزن فعول أو فعيل يستعمل كذلك يقال رجل عدو وقوم عدو قال الله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النساء: ٩٢] وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع كأنه قال

(١) وليس في الأصل: وقومه.
(٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٣) لا وجه لذكر ورش بعد ذكر نافع، لعله من سباق القلم ـ أبو محمد ـ.

فإنهم عدو لي لكن رب العالمين وليي، وقيل إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله تعالى فقال إبراهيم كل من تعبدونه عدو لي إلا ربَّ العالمين أو يقال كان من آبائهم من يعبد الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ فإنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد قال الله ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣] هداية مدرجة من مبدأ الإيجاد إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضارّ مبدأها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من السرة ومنتهاها إلى طريق الجنة ولذائذها، الموصول مع صلتها صفة لرب العالمين أو خبر مبتدأ محذوف أي هو الّذي خلقني أو منصوب على المدح والفاء للعطف واختلاف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية والموصولات الثلاثة معطوفات عليه أو الموصول مبتدأ خبره ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ والفاء للسببية وقوله ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ على هذا مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده وتكرير الموصول على الوجوه كلها للدلالة على أن كل واحد من الصلات مستقلة لاقتضاء الحكم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ عطفه على ﴿يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ لكونها من روادفها فإن الصحة والمرض في الغالب يتبعان المأكول والمشروب، ولم ينسب المرض إلى الله تعالى مع أن المرض والشفاء كلاً منهما بخلقه سبحانه رعاية لحسن الأدب كما قال خضر ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٨] وقال ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] وأسند إلى نفسه هضماً ونظراً إلى أن ما أصاب الإنسان من مصيبة فبما كسبت يداه ولأن المقصود تعديد النعم، وأسند الموت إلى الله سبحانه لأن الموت من حيث إنه لا يحس به لا ضرر فيه وإنما الضرر في مقدماته وهي المرض ولأن الموت لأهل الكمال خلاص من أنواع المحن ووصلة إلى نيل النعم التي يستحقر دونها الحياة الدنيوية كما قيل الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب.

وفي الحديث «موت الفجاءة راحة للمؤمن وأخذة الأسف للفاجر»[1] رواه أحمد والبيهقي بسند حسن عن عائشة مرفوعاً وفي الحديث «الموت كفارة لكل مسلم»[2] رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي بسند ضعيف عن أنس ولأن المريض في الغالب يحدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه ولما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر والصحة إنما يحصل باستحفاظ اجتماعهما والاعتدال المحفوظ عليها قهراً بقدرة العزيز الحكيم ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ في الآخرة ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢] ذكر ذلك هضماً[3] لنفسه أو تعليماً لأمته أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر منها

(١) أخرجه بنحوه أبو داود في الجنائز باب ١٤، وأحمد في المسند ٣/ ٤٢٤، ٤/ ٢١٩.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٢١، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٢٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٢١٢٢.

(٣) قال الإمام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير هذا ضعيف لأنه إن كان صادقا في هذا التواضع لزم الإشكال يعني كون النبي غير معصوم وإن كان كاذبا يرجع الجواب إلى إلحاق المعصية به لأجل تنزهه عن المعصية وأيضا لا يجوز أن يكذب بغرض تعليم الأمة. قلت قول الرازي هذا ضعيف لأنه إنما يلزم =

ويطلبوا المغفرة لما صدر عنهم أو استغفاراً لما فات منه العزيمة وعمل بالرخصة شفقةً على أمته كيلا يضيق عليهم نطاق الأمر وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله لسارة هذه أختي كما قال به مجاهد، وقوله للكوكب هذا ربي كما قال الحسن زائداً على الثلاث ضعيف لأنها معاريض وليست بخطايا والله أعلم. روى البغوي عن مسروق عن عائشة أنها قالت يا رسول الله ابن جدعان في الجاهلية كان يصل الرحم ويطعم المساكين فهل كان نافعه؟ قال لا ينفعه إنه لم يقل يوماً ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] . وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه وإشعار بأنه من لا يستطيع أن يفعل هذا لا يصلح للألوهية.

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي كمالاً في العلم والعمل بحيث يستعد خلافة الحق ورياسة الخلق ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ووفقني الكمال في العمل حتى أنتظم في سلك الصالحين الذين لا يشوبهم فساد أصلاً وهم الأنبياء المعصومون ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ يعني ثناءً حسناً وذكراً جميلاً مطابقاً للواقع وقبولاً عامّاً في الأمم اللآتي يأتين من بعدي والمعنى يكون لسان الآخرين في ثنائي صادقاً ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في الآخرين ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وورش[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني اغفره بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن طريق الحق، وكان هذا الدعاء قبل أن يتبين له أنه عدو لله ولم يقدر له الهداية والإيمان قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] أو لأنه لم يمنع بعد الإستغفار للكفار ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ أي لا تفضحني بمعاتبتي على ما فرطت أو ينقص مرتبتي عن مرتبة الصالحين من الخزي بمعنى الهوان أو من الخزاية بمعنى الحياء ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير للعباد لكونهم معلومين أو للضالين، أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر أنه سئل كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا

= الكذب والمعصية إذا يرى نفسه بريئا من الذنب ويقول بلسانه إني مذنب خاطىء وليس كذلك بل الأمر أن الصوفي إذا تم فقره وفناؤه يرى وجوده وكمالاته مستعارة من الله ويرى نفسه عدما محصنا منشئا للشر حيث قال الله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ فحينئذ إذا قال إني مذنب لا يسمى كاذبا سهى رسول الله ﷺ فسلم على رأس الركعتين من الظهر فقال له ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله قال كل ذلك لم يكن قال ذو اليدين بعض ذلك قد كان فحاشا أن يكون قوله ﷺ كل ذلك لم يكن كذبا أو ذنبا لما كان على نسيان فكذا قال المعصوم رب اغفر لي خطيئتي بل أولى لأنه إنشاء لا يحتمل الكذب ومعنى قولنا هضما لنفسه أي لأجل انهضام نفسه وحال كون نفسه منهضما منكسرا عند شعشعان جلال ربه لا أنه يقول ذلك تواضعا مع ما يرى نفسه غير مذنب فيكون كذابا وسنذكر بعض هذا المقال في سورة محمد ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿واستغفر لذنبك﴾ ـ ١٢ منه برد الله مضجعه ـ.

(١) ذكر ورش هنا أيضاً من سباق قلم ـ أبو محمد ـ.

وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فينادى به على رؤوس الأشهاد هؤلاء الّذين كذّبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»(١).

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي خالص من الشرك والشك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، قال البغوي هذا قول أكثر المفسرين، قال سعيد بن جبير القلب السليم قلب المؤمن وقلب الكافر والمنافق مريض، قال أبو عثمان النيشافوري هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة يعني أهل السنة والجماعة يعني لا ينفع مال ولا بنون أحداً إلا مؤمناً فالمستثنى مفرغ في محل النصب أولا ينفع مال ولا بنون إلا مال مؤمن وبنوه فالمستثنى في محل الرفع على البدلية، والحاصل أن الكافر وإن بذل ماله في صلة الرحم وإطعام المساكين لا ينفعه لعدم إسلامه وكذا بنوه وإن كانوا صلحاء أو أنبياء لا ينفعون أبائهم بالشفاعة أو الاستغفار ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك فينظر فإذا بذيخ(٢) متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار فيتبرأ منه يومئذٍ»(٣) انتهى.

وأما المؤمن فينفعه ماله الذي أنفقه في الطاعة وولده بالشفاعة والاستغفار، وقيل الاستثناء منقطع والمعنى ولكن سلامة من أتى الله بقلب سليم ينفعه ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتحجون بأنهم للمحشورون ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ فيرونها مكشوفة ويرون أنهم يساقون إليها، قال البيضاوي وفي اختلاف القولين ترجيح لجانب الوعد ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي للغاوين ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ يعني أين الذين كنتم تعبدونها وترجون شفاعتها ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ حال من الضمير المنصوب ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي هل يمنعونكم من العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي يدفعون العذاب عن أنفسهم بل هم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾، قال البغوي قال ابن عباس أي جمعوا وقال مجاهد دهوروا قال مقاتل قذفوا وقال الزجاج طرح بعضهم على بعض، وقال القتيبي ألقوا على رؤوسهم وفي القاموس كبه أي قلّبه وصرحه كأكبّه وكبكبه فأكب وهو لازم يعني كبّ وكبكب بمعنى واحد، وقال البيضاوي كبكب تكرير الكب لتكرير

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٤، والأدب باب ٦٠، والتوحيد باب ٣٦، ومسلم في التوبة حديث ٥٢، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

(٢) الذيخ: بكسر المعجمة وسكون التحتانية ذكر الضبع الكثير الشعر.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨.

معناه كأنّ من ألقى في النار ينكب مرّة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها ﴿هُمْ﴾ يعني الآلهة الباطلة ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي عابدوها ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أي متبعوه من عصاة الثقلين ويقال ذريته ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للجنود إن جعل مبتدأ خبره ما بعده أو للضمير المرفوع في كبكبوا مع ما عطف عليه ﴿قَالُوا۟﴾ يعني الغاوون للشياطين والمعبودين ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ حال من فاعل قالوا والضمير المرفوع المنفصل يعود إلى العابدين والمعبودين جميعاً، ينطق الله الأصنام فيخاصمون العبدة ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة والجملة مقولة قالوا ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ أيها المعبودون في استحقاق العبادة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ نسويكم متعلق بقوله كنا ويجوز أن يكون الضمير المنفصل وما يعود إليه راجعاً إلى العبدة فحسب كما في قالوا بناءً على عدم صلاحية الاختصام في الأصنام والخطاب إلى الأصنام وفائدة الخطاب المبالغة في التحسر والندامة والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ إضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة فيتحسرون عليها ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ قال مقاتل يعنون الشياطين، وقال الكلبي الأولين الذين اقتدوا بهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ كما أن للمؤمنين شفعاء من النبيين والملائكة وإخوانهم الصالحين ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ أي صادق في المودة جمع الشافع ووحَّدَ الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء ولإطلاق الصديق على الجمع كالعدو كما ذكرنا أن وزن فعول وفعيل يجيء في الجمع والواحد ولأنه في الأصل مصدر كالجنين والصهيل ﴿حَمِيمٍ﴾ أي قريب، في القاموس حميم كأمير القريب جمعه أحماء وقد يكون الحميم للجمع والمؤنث يعنون أنه ليس لنا صديق ولا ريب يشفع لنا فإن ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧] روى البغوي عن جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي فَمَا لَنَا من شَافعين وَلاَ صديق حميم»(١) قال الحسن استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا تمنى للرجعة أقيم فيه لو مقام ليت لاشتراكهما في معنى التقدير أو شرط حذف جوابه يعني لكان خيراً ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب للتمني أو عطف على كرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم ﴿لَءَايَةً﴾ أي لحجة واضحة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر فإنها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلائلها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالفته معهم وكمال إشفاقه عليهم وتصوير الأمر في نفسه وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول وأيضاً فيه حجة واضحة على صدق دعوى محمد ﷺ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر قومه ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ به ﴿ رَبَّكَ

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ١٢١/٥، والقرطبي في تفسيره ١١٨/١٣.

﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القادر على الانتقام ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بإهمال الكفار لكي يؤمنوا به هم أو واحد من ذريتهم. وإنعام المؤمنين.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ القوم مؤنث ولذلك تصغر على قويمة، أورد المرسلين بصيغة الجمع والمراد به الجنس يقال يركب فلان الخيل وإن لم يكن له إلا فرس واحد أو لأنهم كانوا ينكرون بعث الرسل، وروي عن الحسن البصري أنه قيل له يا أبا سعيد أرأيت قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ كذبت عاداً المرسلين وكذبت ثمود المرسلين.

وإنما أرسل إليهم رسول واحد قال إن الآخر جاء بما جاء الأول فإذا كذّبوا واحداً كذّبوا الرسل ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ﴾ في النسب لا في الدين ﴿نُوحٌ﴾ عطف بيان للأخ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتتركون عبادة غيره ﴿إِنِّي لَكُمۡ﴾ لهدايتكم إلى ما هو خير لكم ﴿رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٞ﴾ على وحيه مشهور فيكم بالصدق والأمانة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اجتنبوا من عذابه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمركم به من التوحيد والعبادة لله وحده ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي على دعائكم إلى الله والنصح ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ حتى تتهموني في النصح بالطبع ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرره للتأكيد والنسبية على أن دلالة كل واحد من أمانته وعدم طمعه مستقلة على وجوب طاعته فيما يدعوهم إليه فكيف إذا اجتمعا ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني قومه إنكاراً عليه ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ﴾ حال بتقدير قد قرأ يعقوب أتباعك جمع تابع كشاهد وإشهاد أو تبع كبطل وإبطال ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ جمع أرذل على وزن أعوس على السلامة في القاموس وهو الدون الخسيس، قال البيضاوي الأقل جاهاً ومالاً، قال البغوي السفالة وعن ابن عباس الصاغة، قال عكرمة الحاكة والأساكفة وهذا من سخافة عقلهم وقصور رأيهم على حطام الدنيوية حتى جعلوا اتباع المقلين فيها مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه ودليلاً على بطلانه وأشاروا بذلك إلى أن اتّباعهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يعني أني لا أعلم أنهم عملوا ذلك الاتباع إخلاصاً لله أو طمعاً في رفعة في الدنيا وما عليَّ إلا اعتبار الظاهر ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ﴾ يعني ما حسابهم على بواطنهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ فإنه المطلع عليها ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ يعني لو كان لكم شعور لأدركتم ذلك ولكن الله عطل مشاعركم عن درك الحق وأعمى بصائركم، قال البغوي يعني لو علمتم ذلك عبدتم لصنائعهم، قال الزجاج الصناعات لا يضر في الديانات ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ جواب لما أوهم قولهم من استدعاء طردهم ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾﴾ كالعلة لعدم الطرد يعني ما أنا إلا مبعوث لإ نذار لناس من عذاب الله ومنعهم عن الكفر والمعاصي ودعوة الخلق إلى الله تعالى سواء كانوا أعزاء أو أذلاء فكيف يسوغ لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء إذ ما عليَّ إلا إنذاركم.

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

قال الضحاك: إنذاراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليَّ أن أطردهم لاسترضائكم ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عما نقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ من المشتومين كذا، قال الضحاك أو من المقتولين بالحجارة كذا قال مقاتل والكلبي ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ إظهار لما يدعو إلى دعائه عليهم وهو تكذيب الحق لا تخويفهم إياه واستخفافهم به ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ من الفتاحة ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ﴾ قرأ ورش وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قصدهم أو شؤم عملهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجائه والمؤمنين ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من قومه وهم الكافرون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ شاعت وتواترت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ
﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ
ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ
﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ أنثه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسم أبيهم ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله بالتوحيد وترك الإشراك ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أمين على الرسالة، قال الكلبي أمين فيكم قبل الرسالة يعني ما كنتم تتهموني قبل ذلك فكيف تتهموني اليوم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن أداء الرسالة طاعة لله تعالى فأجره عليه.

مسألة: لا يجوز أخذ الأجرة على الطاعة وإلا لا تكون الطاعة طاعة لله تعالى ولا

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

يستحق الأجر من الله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ الاستفهام للتوبيخ أو التقرير والاستغراق في كل ريع غير حقيقي بل المراد به الكثير بالكثرة في نفسها دون الكثرة بالإضافة، قال الوالبي عن ابن عباس أي بكل شرف يعني بكل مكان مرتفع وريع الأرض لنمائها.

وقال الضحاك ومقاتل بكل طريق وهو رواية العوفي عن ابن عباس وعن مجاهد هو الفج بين الجبلين وعنه أيضاً المنظر، وفي القاموس الريع بالكسر والفتح المرتفع من الأرض والطريق المنفرج في الجبل أو الجبل المرتفع أو مسيل الوادي من كل مكان مرتفع وبالكسر الصومعة وبرج الحمام ﴿ءَايَةٍ﴾ أي علامة مذكرة للباني ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي تفعلون فعلاً لا يفيدكم في الآخرة بل في الدنيا أيضاً أو معنى الآية علامة للمارّة تعبثون ببنائها إذ كانت المارة يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها وقيل أنهم كانوا يبنون المواضع المرتفعة ليشرفوا على المارّة والسابلة فيسخرون منهم ويعبثون بهم، وعن سعيد بن جبير هذا في بروج الحمام أنكر عليهم هود اتخاذها بدليل قوله تعبثون أي تلعبون وهم كانوا يلعبون بالحمام، قلت: والظاهر أنهم كانوا يبنون قصوراً أو بروجاً وقلاعاً تبقى على وجه الأرض بمر الدهور تكون ذلك علامة مذكرة لمن بناه كما هو دأب أهل الدنيا يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨] وكل ذلك عبث فأنكر عليهم هود عليه السلام كما أنكر النبيّ ﷺ حيث قال: «إذا أراد الله بعبد شرّاً حصر له في اللبن والطين حتى يبنى»[(١)] رواه الطبراني بسند جيد من حديث جابر ورواه في الأوسط من حديث أبي البشر الأنصاري بلفظ «إذا أراد الله بعبد هواناً أنفق ماله في البنيان»[(٢)] وقال ﷺ: «كل بنيان وبال على صاحبه إلا ما كان هكذا، وأشار بكفه»[(٣)] رواه الطبراني بسند حسن عن واثلة بن الأسقع، وعن أنس أن رسول الله ﷺ «خرج يوماً ونحن معه فرأى قبة مشرفة فقال «ما هذه؟» قال أصحابه هذه لفلان رجل من الأنصار فسكت وحملها في نفسه حتى إذا جاء صاحبها رسول الله ﷺ سلّم عليه في الناس فأعرض عنه صنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب منه والإعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه، فقال والله إني لأنكر رسول الله ﷺ قالوا خرج فرأى قبتك فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم يرها، قال ما فعلت القبة؟ قالوا شكى إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها، فقال «أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٢٠١، والمعجم الصغير ١٢٨/٢، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٢١.

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٢١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٦٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٦٢، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٣/ ١٠٧١.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٦٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٦٢، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ١٢٧، ٣/ ٢١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤١٥٨٢.

لا إلا ما لا»[١] رواه أبو داود واللفظ له يعني إلا ما لا بد منه، وروى أحمد وابن ماجه عن أنس عنه ﷺ «أما إن كل بناء فهو وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما كان في مسجد أو دارٍ»[٢] ويدل على ما ذكرت قوله تعالى ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مأخذ الماء وقصوراً مشيدة وحصوناً عطف على تبنون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ كأنكم تبقون فيها أبداً فتحكمون بنائها.

مسألة: يكره طول الأمل ويستحب قصره، عن ابن عمر قال «أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك من أصحاب القبور»[٣] رواه البخاري، وعن عبد الله بن عمرو قال: «مرَّ بنا رسول الله ﷺ وأنا وأمي نطين شيئاً، فقال «ما هذا يا عبد الله؟» قلت شيء نصلحه، قال «الأمر أسرع من ذلك»[٤] رواه أحمد والترمذي، وقال هذا حديث غريب، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يهريق الماء فيتيمم بالتراب فأقول يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول: «ما يدريني لعلي لا أبلغه»[٥] رواه البغوي في شرح السنة وابن الجوزي في كتاب الوفاء.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أخذتم أخذاً بالعنف تعذيباً، الظرف متعلق بقوله ﴿بَطَشْتُم﴾ معطوف على تبنون ﴿جَبَّارِينَ﴾ قتالين في غير حق بلا رأفة في القاموس الجبار المتكبر وقلب لا يدخله رحمة والقتال في غير حق ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ كرر الأمر بالتقوى مرتباً على إمداد الله إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً له وتنبيهاً على الواعد بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالانقطاع ثم فصّل بعض تلك النعم كما فصل بعض مساوئهم المدلول عليها آجالاً بالإنكار في ألا تَتَّقون مبالغة في الاتعاظ والحث على التقوى فقال ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من أمدكم السابق ثم أوعدهم فقال ﴿إِنِّي﴾ فتح الياء حرميان وأبو عمرو[٦] والباقون يسكنونها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عصيتموني كذا قال ابن عباس ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا أو الآخرة فإن القادر على الإنعام قادر على الانتقام والجملة في مقام التعليل.

﴿قَالُوا﴾ يعني قوم هود في جوابه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ مصدر بمعنى المفعول غير مقدم لقوله ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ مبتدأ بتأويل المصدر، يعني مستوٍ عندنا وعظك إيانا وعدمه لا نترك ما نحن عليه بوعظك والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد غَيَّر شق النفي عما يقتضيه المقابلة حيث لم يقل أوعظت أم لم تعِظ للمبالغة في عدم اعتدادهم لوعظه

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٥٧.
(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ١٣.
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣، والترمذي في الزهد باب ٢٥، وابن ماجه في الزهد باب ٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤، ٤١، ١٣١.
(٤) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٥٧.
(٥) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥٤، ١٠/ ٢٣٨، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٢٧٦.
(٦) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بفتح الخاء وسكون اللام يعني ما هذا الذي جئتنا به من الوعظ إلا كذب الأولين واختلاقهم كما في قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] أو المعنى ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيى ونموت، مثلهم لابعث ولا حساب، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة[(١)] وابن كثير[(٢)] بضمتين أي ما هذا الّذي جئتنا به إلاعادة أولين كانوا يكذبون مثله وما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ على ما نحن عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تأكيد وتقرير لما سبق من قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ على بعض التأويلات ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ السبب التكذيب بريح صرصرٍ كما ذكر في غير هذا الموضع ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ فيه إشارة إلى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وأن قريشاً إنما عصموا عن مثله ببركة من آمن منهم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ [الفتح: ٢٥] إلى قوله: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] ﴿رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ﴾ إنكار لتركهم فيما أنعموا في الدنيا أو تذكير بالنعمة في تخلية الله إياهم في أسباب التنعم ﴿ءَامِنِينَ﴾ غير خائفين من العذاب، ثم فسر ما هاهنا بقوله ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ مع ما عطف عليه بدل من قوله فيما هاهنا ﴿وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ أي ثمرتها ﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس أي لطيف ومنه هضيم الكشح إذا كان لطيفاً، وروى عطية عنه نافعٌ نضيح، وقال عكرمة هو اللين، وقال الحسن هو الرخو وقال مجاهد منهشم متفتت إذا يبس وذلك أنه ما دام رطباً فهو هضيم فإذا يبس فهو هشيم، وقال الضحاك ومقاتل قد رَكِبَ بعضها بعضاً أي كثير، وقال أهل اللغة هو المنضم بعضه إلى بعض في دعائه قبل أن يظهر، قال الأزهري هو الداخل بعضه في بعض، وقيل هضيم أي هاضم يهضم الطعام وكل هذا للطافة ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ عطف على قوله آمنين لتضمنه معنى الفعل على طريقة ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] والتقدير تأمنون وتنحتون أو حال من ضمير آمنين بتقدير وأنتم تنحتون ﴿فَرِهِينَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[(٣)] فرهين وهو أبلغ لأنه صفة مشبهة يدل على الدوام والباقون فارهين، يعني حاذقين بنحتها من قولهم فره الرجل فراهة فهو فاره، وقال عكرمة معناه ناعمين، وقال

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٢) قرأ ابن كثير بفتح الخاء وسكون اللّام فعدها في هذه القراءة سهو ـ ١٢ أبو محمد عفا الله عنه ـ.
(٣) وأبو جعفر ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

قتادة معجبين بصنيعكم وقال السديُّ متحيرين، وقال الاخفش فرحين والعرب يعاقب بين الحاء والهاء مثل مدحته ومدهته وقال أي شرهين يعني حريصين والشره غلبة الحرص، وقال أبو عبيدة مرحين أشرين بطرين وهو الطغيان بالنعمة وعدم قبول الحق تكبراً ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ قال ابن عباس أي المشركين وقال مقاتل هم التسعة الذي عقروا الناقة ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالمعاصي ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ ولا تطيعون الله فيما أمرهم به.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني ثمود ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي من المسحورين المخدوعين كذا قال مجاهد وقتادة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب يقال سحره أي علله بالطعام والشراب يعني أنك تأكل الطعام والشراب ولست بملك بل ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فلا أنت بنبي أو المعنى إنك ذو سحر وهي الرية أي إنسان فحينئذ ما أنت إلا بشرٌ مثلنا تأكيد له ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾ دليل على صحة قولك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فأخرج الله سبحانه ناقة من الصخرة بدعائه على ما اقترحوا آية على صدقه حتى ﴿قَالَ﴾ صالح ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ آية صدقي ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ أي حظ ونصيب من الماء صفة لناقة ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ فاقتصروا على شربكم ولا تزاحموها في شربها والجملة حال عن الضمير المستكن في لها شرب، فكانت الناقة تشرب الماء كله في يوم نوبتها ولا تشرب أصلاً في يوم نوبتهم وهذا دليل على جواز المهاياة ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي بضرب وعقر عطف على هذه ناقة ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي يوم عظيم عذابه وهو أبلغ من تعظيم العذاب لأن الوقت إذا عظم بسببه كان وقعه من العظمة أشد ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عطف على قال نسب العقر إلى الكل مع صدوره من بعضهم لأمرهم ورضائهم به وكذلك أخذوا في العذاب كلهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من نزول العذاب لا توبة أو عند معاينة العذاب حين لا ينفعهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الموعود ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ
وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ
﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ
أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾
وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي

خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ
﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ
ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾
فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن
مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا
مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾
وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها[1] ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ جملة أتأتون بيان أو بدل، لقوله ألا تتقون يعني أتأتون من دون من عداكم من العالمين الذكران تجامعونهم لا يشارككم فيه غيركم أو أتأتون الذكران بالجماع دون النساء من العالمين من أولاد آدم عليه السلام مع كثرتهم وغلبة النساء فيهم، فالمراد بالعالمين على الأول كل من ينكح وعلى الثاني الناس ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ لأجل استمتاعكم ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ من للبيان إن أريد بما جنس الإناث وللتبعيض إن أريد به العضو المباح منهن فإنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضاً كما تفعله الرافضة. وفيه دليل على حرمة إدبار الزوجات والمملوكات ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مجاوزون من حد الحلال إلى الحرام في قضاء الشهوة زدتم في قضائها على سائر الناس بل على الحيوانات أو مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذلك أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان لارتكاب هذه اللائمة.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ جواب قسم محذوف ﴿يَـٰلُوطُ﴾ عما تدعيه أو عن نهينا بقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من قريتنا ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ من المبغضين، فآية البغض

(١) وفي الأصل بياض بقدر ربع الصفحة بعد ألا تتقون وكذا بعد وما أسألكم وكذا بعد بإسكانها ـ ١٢ ـ.

لا أبالي من الإخراج وهو أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال لدلالته على أنه معدود في زمرتهم مشهور بأنه من جملتهم وكذلك قوله ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مكان تعدون ثم لما ظهر عند لوط عدم تأثير دعوته فيهم دعا ربه أن ينجوه من مصاحبتهم ويعافيهم عما يلحقهم من العذاب فقال ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي من شؤمه وعذابه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ عطف على قال المقدر قبل قوله ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾ ﴿وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهل بيته ومتبعيه في دينه إخراجهم من بينهم وحلول العذاب بهم دونه ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ مقدرة في الباقين في العذاب والهلاك أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم وقيل كانت فيمن بقي في القرية و لم يخرج مع لوط عليه السلام ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ أي أهلكنا ﴿الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ قال وهب بن منبه الكبريت والنار ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ اللام فيه للجنس حتى يصح وقوع المضاف إليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو ممطرهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي[١] الأيكة ههنا وفي سورة صٓ بالهمزة وسكون اللام وكسر التاء والحرميان وابن عامر[٢] ليكة بفتح اللام والتاء غير مهموز وهو اسم بلد غير منصرف ولم يختلفوا في سورة الحجر[٣] وق فإنهما مهموزتان مكسورتان مع سكون اللام غير أن ورشاً يلقي حركة الهمزة على اللام على أصله والأيكة الغيضة من الشجر الملتف كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة فبعث الله تعالى إليهم شعيباً كما بعثه إلى مدين وكان شعيب من أهل مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك قال ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب كما قال في ذكر مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ لأنه كان منهم نسباً ﴿أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص[٤] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من طلب الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة ومن ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال الله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ يعني أتموه الجملة مع ما عطف عليه بيان للتقوى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين لحقوق الناس بالتطفيف ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ قرأ حمزة والكسائي[٥] بكسر القاف والباقون بضمها وهو الميزان وهو إن

(١) ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ. (٢) وأبو جعفر وأبو محمد ـ.
(٣) وفي الأصل: في سورة الحج وق وهو من سبق قلم لا شك فيه ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.
(٤) وأبو جعفر وأبو محمد ـ.
(٥) وحفص وخلف ـ أبو محمد ـ.

كان عربياً فإن كان من القسط بمعنى العدل ففعلاع بتكرير العين وإلا فهو فعلال رباعي ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ المستوي الذي لا تطفيف فيه ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوا شيئاً من حقوقهم ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ أي لا تفسدوا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق والنهب وغير ذلك ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يعني قاصدين الفساد فمن وقع منه نوع فساد بنية الإصلاح كمن رمىٰ كافراً (تترس بأسير مسلم) يليه الكافر وأصاب الأسير المسلم فلا غرم عليه ومن وقع منه فساد خطأً من غير قصد فهو غير مفسد ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ذوي الجبلة الأولين يعني من تقدمهم من الخلائق.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ الواو للعطف على ما سبق للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافيين للوسلة مبالغةً في تكذيبه وجاز أن يكون حالاً مما سبق ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾ يعني وإنا نظنك ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواك ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قرأ حفص هاهنا وفي سبأ بفتح السين والباقون بسكونها أي قطعة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من بخس الكيل والوزن وغير ذلك وهو يجازيكم عليه إن شاء وليس العذاب إليّ وما علي إلا الدعوة ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ وذلك أنه أخذهم حر شديد وكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حراً فأظلهم سحابة وهي الظلة فاجتمعوا إليها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا قد ذكر القصة في سورة هود ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: ٨ ـ ٩] هذا آخر القصص السبع المذكورة على الاختصار تسلية لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مصدر بمعنى المفعول يعني منزل من رب العالمين عطف على قوله ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ حال بتقدير قد أو تأكيد لما سبق أو علة لكونه تنزيلاً من الله، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص نزل بالتخفيف ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ بالرفع على الفاعلية يعني نزل بالقرآن الروح الأمين يعني جبرائيل عليه السلام وهو أمين الله على الوحي إلى الأنبياء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي(١) بتشديد التاء ونصب الروح الأمين على المفعولية يعني نزّل الله جبرئيل بالقرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد حتى وعيته والمراد بالقلب هو القلب الصنوبري دون اللطيفة الربانية اللامكانية التي أصلها فوق العرش وبرزتها في القلب الصنوبري لأنه من عالم الأمر وهو لا يحتمل إعياء الوحي والنبوة بل الحامل لها هو القلب الصنوبري الجامع للعناصر والنقش وبرزات عالم الأمر ومن ثم لم يوجد الإيحاء إلا بعد كمال البدن أو بلوغه أشُدّه عند

(١) وخلف ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

أربعين سنة ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي المخوفين عمّا يؤدي إلى العذاب من فعل أو ترك ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ واضح المعنى، قال ابن عباس يعني بلسان قريش لئلا يكون لهم عذر بأنا لم نفهم ما أوحي إلينا متعلق بنزل أو بالمنذرين، قيل معناه نزل به على قلبك بلسان عربي ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك حينئذ تسمع صوتاً لا تفهم معناه وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كلمه أحد بلغة نشأ عليها أحاط قلبه أولاً بمعاني الكلام وإن كلمه بغيرها كان قلبه أولاً متوجهاً إلى ألفاظها ثم في معانيها فيقول بلسانٍ عربي تقرير لقوله نزل على قلبك ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي ذكر إنزال القرآن كذا قال أكثر المفسرين، وقال مقاتل أي ذكر محمد ﷺ، وقيل معناه أي القرآن ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي كتبهم وهذه الجملة معطوفة على ما سبق أو حال وعلى التأويل الأخير قال بعض الحنفية القرآن اسم للمعنى فقط لأنه لم يكن في الزبر السابقة بهذا اللفظ العربي قطعاً ومن أجل ذلك أجاز أبو حنيفة القراءة في الصلاة بالفارسي وهذا القول مردود بل القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً حيث قال الله تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] فإن العربي صفة للنظم ولأن القرآن معجز والإعجاز من خواص النظم ومن أجل ذلك جاز للمجنب أن يقرأ ترجمة القرآن بالفارسي، وإنما أجاز أبو حنيفة القرآن بالفارسي في حق جواز الصلاة خاصة لجعله النظم ركناً غير لازم في الصلاة خاصة رعاية للخضوع وقد رجع أبو حنيفة عن هذا القول وقال بعدم جواز القراءة بالفارسي كما قال صاحباه وأكثر الأئمة وبه يفتى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يعرفوا رسولهم ولم يكن لهم آية على رسالته، قرأ ابن عامر تكُن بالتاء الفوقانية وآية بالرفع على أنه اسم كان وخبره لهم وأن يعلمه بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف وجاز أن يكون لم تكن تامة فاعله آية لهم حال منه وأن يعلمه بدل من الفاعل، أو خبر مبتدأ محذوف أو يكون في لم تكن ضمير القصة وأن يعلمه مبتدأ وآية خبره مقدم عليه ولهم حال من آية والعامل معنى الثبوت المستفاد من الحمل والجملة خبر كان وقرأ الباقون بالياء التحتانية وآية منصوب على الخبرية واسمه أن يعلمه ولهم حال من آية (أن يعلمه) يعني محمداً ﷺ بنعته المذكورة في التوراة كما يعرفون أبناءهم، أو يعلمون القرآن أنه منزل من الله ﴿عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال عطية كانوا خمسة عبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد وقال ابن عباس بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد ﷺ فقالوا إن هذا لزمانه وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ هو جمع أعجم، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربياً في النسب والعجمي هو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً بالعربية ومعنى الآية ولو نزلناه على رجل غير فصيح اللسان بالعربية، وقال البيضاوي هو جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة يعني لو كان جمع أعجم لما جاز جمعه للسلامة لأن مؤنثه عجماء فإن أفعل فعلاء لا يجمع

جمع السلامة ونظيره شعر من جمع أشعري على التخفيف أصله أشعريون والمعنى ولو نزّلنا القرآن عربياً كما هو على بعض الأعجمين زيادة في الإعجاز أو بلغة العجم ﴿فَقَرَأَهُ﴾ أي الأعجمي ﴿عَلَيْهِم﴾ أي على أهل مكة ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم واستنكافهم من اتباع الأعجمي أو لعدم فهمهم يقولون ما نفقه ما تقول نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محل النصب بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ الضمير عائد إلى الشرك التكذيب المدلول عليه بقوله ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ كذا قال ابن عباس والحسن ومجاهد يعني أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين فتدل الآية على أنه بخلق الله تعالى، وقيل الضمير للقرآن أي أدخلنا القرآن في قلوبهم فعرفوا معانيه وإعجازه ومع ذلك لم يؤمنوا به عناداً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن بيان لقوله ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] أو حال أو دليل على ما سبق وفي الآية إخبار بحال من علم الله موته على الشرك ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الملجىء إلى الإيمان وذلك بعد الموت في القبور ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ حينئذ تحسراً وتأسفاً ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ الاستفهام للتمني يتمنون الرجعة والنظرة، قال مقاتل لما أوعدهم الله سبحانه على لسان نبيه ﷺ بالعذاب قالوا إلى متى ما توعدنا به ومتى هذا العذاب قال الله تعالى ﴿يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أبو عيدنا لا يستيقنون فبعذابنا يستعجلون وحالهم عند نزول العذاب طلب النظرة وقيل هذا كناية عن قولهم ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] ولمّا كان استعجالهم العذاب بناء على اعتقادهم أنه غير كائن وأنهم يتمتعون أعماراً طوالاً في سلامة وأمن، أنكر الله تعالى على استعجالهم ثم قال على تقدير التسليم ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الاستفهام للتقرير والفاء للعطف على المحذوف تقديره أتفكرت فرأيت يعني فعلمت ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ كثيرة ولو مدة حياة الدنيا ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ والمعنى أنهم إذا رأوا العذاب الأليم حين يأتيهم بغتة يقولون هل نحن منظرون ولكنهم لا ينظرون أي لا يمهلون ولو سلمنا إهمالهم فلو تفكرت علمت أنا إن متعناهم سنين كثيرة ثم جاءهم ما كانوا يوعدون به من العذاب ما أغنى عنهم تمتيعهم وإهمالهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه بل صار التمتع نسياً منسيّاً كأنهم لم يكونوا في نعيم قط ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا﴾ قرية ﴿لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي رسل أنذروا أهلها فلم يرتدعوا ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدرية لأنها في معنى الإنذار أو الرفع لأنها صفة منذرون بإضمار ذووا أو يجعلهم ذكرى مبالغةً لإمعانهم في التذكرة أو خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ عطف على نزل به الروح الأمين ويعني ليس كما زعمت

المشركون أن الشياطين يلقون القرآن على محمد ﷺ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ أي للشياطين أن يلقوا القرآن على محمد فإن القرآن هداية والشياطين إنما هم دعاة إلى الضلال ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يلقوا الأخبار بالمغيبات المذكورة في القرآن ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين ﴿عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة من السماء ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ أي محجوبون مرجومون بالشهب ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ تهييج لازدياد الإخلاص ولطف لسائر المكلفين، قال ابن عباس يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق عليّ ولو اتخذت إلهاً غيري لعذبتك ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإنهم أولى باهتمام شأنهم أو لنفي التهمة فإن الإنسان يأهل قرابته أو ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً وأن النجاة في اتباعه، قال البغوي روى محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ دعاني رسول الله ﷺ فقال يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقتُ بذلك ذرعاً وعرفتُ أني متى أنذرهم وأناديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمتُّ عليها حتى جاءني جبرئيل فقال يا محمد إن لم تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به» ففعلتُ ما أمرني به ثم دعوتُهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فلمّا اجتمعوا له دعا بالطعام الذي صنعت فجئتُ به فلَمَّا وضعته تناول رسول الله ﷺ حذية[1] من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال «خذوا بسم الله» فأكل القوم حتى ما بهم حاجة وايم الله وإن كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال «اسق القوم» فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعاً وايم الله الرجل الواحد يشرب مثله، فلما رأى رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فقال الغد «يا علي إن هذا الرجل قد سبق إلى ما علمت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم» فعدلنا بمثل ما صنعت ثم جمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا، ثم تكلم رسول الله ﷺ: «فقال يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيُّكم يؤازرني على أمري ويكون أخي ووصيي وخليفتي فأحجم القوم عنها جميعاً فقلت وأنا أحدثهم سناً أنا يا نبي الله أنا وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثم قال إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون أمرنا أن نسمع لعلي ونطيع وفي الصحيحين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ صعد النبيّ ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر يا بني عدي»

---

(١) وفي القاموس الحذية بالحاء المهملة المكسورة والذال المعجمة الساكنة فالبياء ما قطع طولا أو القطعة الصغيرة ـ ١٢ الفقير الدهلوي ـ

لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً فينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي يريد أن يغير عليكم أكنتم مصدقي»؟ قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، قال أبو لهب تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١، ٢] «إلى آخر السورة»[١] وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»[٢] وذكر البغوي حديث ابن عباس بلفظ لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد على الصفا فهتف يا «صباحاه» فقالوا من هذا فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً يخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي» قالوا ما جربنا عليك كذباً، قال «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، قال أبو لهب تبّاً لك ما جمعتنا إلا لهذا ثم قام فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ قد تب هكذا قرأ الأعمش يومئذ، وروى البغوي عن عبد الله بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا وإنه قال كل مال نحلته عبادي فهو لهم حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وإن الله أمرني أن أخوف قريشاً فقلت يا رب إذاً يتلفوا رأسي حتى يدعوه خبزة، فقال بعثتُ لأبتليك وأبتلي بك قد أنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه في المنام واليقظة فاغزهم تغزك وأنفق تنفق عليك وأبعث جيشاً فمددك بخمسة أمثاله وقاتل بمن أطاعك من عصاك، ثم قال: أهل الجنة ثلاثة إمام مقسط ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم ورجل غني عفيف متعفف متصدق، وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر[٣] له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون بذلك أهلاً ولا مالاً ورجل إن أصبح أصبح[٤] يخادعك عن أهلك ومالك ورجل لا يخفى له طمع

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٦، باب ٢، وأحمد في المسند ١/٣٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا باب ١١، وتفسير سورة ٢٦، باب ٢، والنسائي في الوصايا باب ٦، والدارمي في الرقاق باب ٢٣، وأحمد في المسند ١/٢٠٦.

(٣) لا زبر له: أي لا عقل له يزبره عن الإقدام على ما لا ينبغي ويروي بعضهم لا زبر لهم بالياء المثناة من تحت مرده انه لا رأي له والمحفوظ بالياء الموحدة ـ منه رضي الله عنه ـ.

(٤) وفي الأصل: ورجل إن أصبح مخادعك إلخ ولا يستقيم.

وإن دق إلا ذهب به والشنظير[١] وذكر البخل والكذب» والله أعلم، أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ بدأ بأهل بيته فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أي ليّن جانبك ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان لمن اتبعك لأن من اتبع أعم ممن اتبع الدين أو غيره أو للتبعيض على أن المراد بمن اتبعك كمال الاتباع وبالمؤمنين أعم منهم ومن عصاة المؤمنين كما يدل عليه قوله ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ في بعض الأمور ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني بريء مما تعملون من المعاصي والسيئات وليس فيه براءة من أنفسهم ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ قرأ أهل المدينة والشام فَتوَكَّلَ بالفاء وكذا في مصاحفهم على أنه بدل من قوله: ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والباقون بالواو عطفاً على قوله ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ والتوكل تفويض أمره إلى غيره وذا لا يجوز عقلاً وشرعاً إلا على من كان قادراً على نفعه ودفع الضرر عنه سميعاً بأقواله بصيراً بأحواله عليماً بعاقبة أمره رقيباً عليه ولذلك قال ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يرحم عليك وعلى أتباعك ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ داعياً للناس إلى التوحيد ومجاهداً في سبيل الله والمراد حين تقوم إلى الصلاة كذا قال المفسرون ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ عطف على الضمير المنصوب في يراك يعني ويرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك أو في محل تقوم يعني يراك حين تقوم وحين تقلبك، وقال عطية وعكرمة عن ابن عباس في الساجدين أي في المصلين، وقال مقاتل ومع المصلّين في الجماعة يعني يراك حين تصلّي وحدك وحين تصلّي مع المصلّين في الجماعة، وقال مجاهد يرى تقلب بصرك في المصلّين فإنه كان يبصر من خلفه كما كان يبصر من أمامه، روى البغوي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلتي هاهنا فوالله لا يخفى عليّ خضوعكم إني لأراكم من وراء ظهري»[٢] وقال الحسن تقلبك في الساجدين أي تصرفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين، وقال سعيد بن جبير يعني وتصرفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك والساجدون هم الأنبياء، وقيل معناه تزودك في تصفح أحوال المتهجدين، قال البيضاوي روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة وإنما ذكر تقلبه في الساجدين من أحواله لكونه من أسباب الرحمة المقتضية للتوكل على من يتصف به.

وقال عطاء عن ابن عباس أراد تقلبك في أصلاب الآباء من نبي إلى نبي، لكن في هذا التأويل ليس كمال المدح لاشتراك قريش بل جميع الناس فيه بل الأولى أن يقال المراد

---

(١) الشنظير: الفحاش وسيىء الخلق.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٤٠، والأذان باب ٧٢، ومسلم في الصلاة حديث ١٠٩، وأحمد في المسند ٢/٣٠٣، ٣٧٥.

منه تقلبك من أصلاب الطاهرين الساجدين لله إلى أرحام الطاهرات الساجدات ومن أرحام الساجدات إلى أصلاب الطاهرين أي الموحدين والموحدات حتى يدل على أن أباء النبيّ ﷺ كلهم كانوا مؤمنين كذا قال السيوطي وقال الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي (شعر):

وينقل أحدٌ نوراً عظيماً ... تلألأ في وجوه الساجدين
تقلب فيهم قرناً فقرناً ... إلى أن جاء خير المرسلين

وممّا يؤيد هذا التأويل ما رواه البخاري في الصحيح عنه ﷺ قال: «بعثتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثتُ من القرن الذي كنتُ فيه»(١) وروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع قوله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»(٢) وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله من خيرهما فأخرجتُ من بين أبويّ ولم يصبني شيء من عهد الجاهلية خرجت من نكاح لم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً»(٣) وقد صنف السيوطي رحمه الله في إثبات إيمان آباء النبيّ ﷺ إجمالاً وتفصيلاً كتاباً وذكر فيه ما له وما عليه ولخصت منه رسالة فليرجع إليها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بأقواله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعاله ونيّاته وعواقب أموره فهو الحقيق بالتوكل.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ متصل بقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ جواباً عن قولهم تنزل عليه شيطان ثم بين فقال ﴿تَنَزَّلُ﴾ في الموضعين مضارع من التفعل بإسقاط إحدى التاءين ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كثير الإفك أي الكذب ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم غير مطيع لله تعالى، ففيه بيان أن محمداً لا يصح أن يكون من يتنزل عليه شيطان بوجهين أحدهما أنه إنما يتنزل على شرير كذاب كثير الإثم لاشتراط التناسب بين المفيض والمستفيض ومحمد ﷺ ليس كذلك، وثانيهما قوله ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ إلى الشياطين فيتلقون منهم أشياء فيضمون إليها أشياء على حسب تخيلاتهم لا يطابق أكثرها الواقع وذلك قوله تعالى: ﴿كَٰذِبُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٣.
(٢) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١، والترمذي في المناقب باب ١، وأحمد في المسند ٤/١٠٧.
(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٩٤، والسيوطي في الحاوي للفتاوي ٢/٣٦٨.

ومحمد ﷺ ليس كذلك فإنه يخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وكلما يخبر بشيء يطابق الواقع لا محالة، والجملة صفة لأثيم أو استئناف عن عائشة قالت «سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنهم ليسوا بشيء»، قالوا يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً؟ فقال رسول الله ﷺ «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها[1] في أذن وليه قرّ الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة»[2] متفق عليه، وعنها قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فيذكر الأمر الذي قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فيسمعه فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[3] رواه البخاري، وعن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فسمعها مسترقوا السمع ومسترقاً لسمع هكذا بعضه فوق بعض (ووصفه سفيان بكفه فحرفها وبدر بين أصابعه) فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما يلقيها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبه فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا كذا ويوم كذا كذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[4] رواه البخاري، وعن ابن عباس عن رجل من الأنصار «أنهم بينا هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم واستنار فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمى مثل هذا؟» قالوا الله ورسوله أعلم كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم عما قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ هذه السماء الدنيا فيخطف الجنُّ السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون»[5] رواه مسلم والله أعلم.

---

(١) فيقرها قال في مجمع البحار القرر ترديدك الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه وقر الدجاجة صوتها إذا قطعته فان ردّدت قلت قرقرت ـ ١٢ فهو مضاعف من باب النصر الفقير الدهلوي ـ.

(٢) أخرجه البخاري في الطب باب ٤٦، والتوحيد باب ٥٧، ومسلم في السلام حديث ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، وأحمد في المسند ٦/ ٨٧.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١١.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٥، باب ١، وسورة ٣٤، باب ١، والتوحيد باب ٣٢، والترمذي في تفسير سورة ٣٤، باب ٢، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

(٥) أخرجه مسلم في السلام حديث ١٢٤، والترمذي في تفسير سورة ٣٤، باب ٣، وأحمد في المسند ١/ ٢١٨.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال تهاجا رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ كذا ذكر البغوي عن الضحاك قال وهي رواية عطية عن ابن عباس وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة نحوه، وقال أكثر المفسرين أراد به شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ، وذكر مقاتل أسماءهم فقال عبد الله بن زبير السهمي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي وشافع بن عبد مناف وأبو غرة عبد الله بن عمر الجمحي وأمية بن أبي الصَّلت الثقفي فتكلموا بالكذب والباطل.

وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد ويقولون أشعاراً ويجمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون نبي ﷺ وأصحابه فيروون عنهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ هم الرواة الذين يروون هجاء رسول الله ﷺ والمسلمين وقال قتادة ومجاهد الغاوون هم الشياطين وهذه الجملة مستأنفة لإبطال كون النبيّ ﷺ شاعراً ويقرره قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الشعراء ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام كالمدح والذم والافتخار وبيان الحب والبغض وغيره لك. والوادي نوع من أنواع الكلام يقال أنا في وادٍ آخر ﴿يَهِيمُونَ﴾ جملة ألم تر تعليل لما سبق والهائم الذاهب على وجهه بحيث لا يقف على حد يعني يبالغون في الكلام كل المبالغة لا يبالون الكذب وأكثر مقدمتهم خيالية لا حقيقة لها، قال قتادة يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل، وقيل في كل واد يهيمون أي على كل حرف من حروف الهجاء يصوغون القوافي.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ أي يكذبون كثيراً في أشعارهم ولمّا كان إعجاز القرآن من جهة النظم والمعنى وكانوا يقدحون في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين وفي اللفظ بأنه من جنس الشعر رد الله سبحانه قولهم ببيان المباينة والمضادة بين حال رسول الله ﷺ وحال الكهنة والشعراء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ «لأن يمتلىء جوف [أحدكم] قيحاً حتى يفسده خيراً له من أن يمتلىء شعراً»[1] رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وروي عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج[2] إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ: «خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلىء جوف رجل قيحاً خيراً له من أن يمتلىء

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٢، ومسلم في الشعر حديث ٧، ٨، ٩، وأبو داود في الأدب باب ٨٧، والترمذي في الأدب باب ٧١، وابن ماجه في الأدب باب ٤٢، والدارمي في الاستئذان باب ٦٩، وأحمد في المسند ١/ ١٧٥، ١٧٧، ٢/ ٣٩، ٢٨٨، ٣/ ٨، ٤١.

(٢) بالعرج قال في مجمع البحار العرج بفتح فسكون جبل بطريق مكة وهو أول تهامة - ١٢الفقير الدهلوي -.

شعراً» عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون[١] قالها ثلاثاً»[٢] رواه مسلم يعني الغالون في الكلام، وعن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون»[٣] رواه البيهقي في شعب الإيمان، قال في النهاية الثرثارون الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق والمتشدقون المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز، قلت: وهذا صفة الشعراء. وروى الترمذي عن جابر نحوه وفي رواية قالوا يا رسول الله ﷺ قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»[٤] وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلة ما أسري بي بقوم يقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت يا جبرئيل من هؤلاء؟ قال خطباء أمتك الّذي يقولون ما لا يفعلون»[٥] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب والله أعلم، أخرج ابن أبي حاتم عن عروة قال لما نزلت والشعراءَ يُتبعهم الغاوون إلى قوله ما لا يفعلون قال عبد الله بن رواحة قد علم الله أني منهم فأنزل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى آخر السورة، وأخرج هو وابن جرير والحاكم عن أبي الحسن البراد[٦] قال لما نزلت والشعراء يتبعهم الغاوون، الآية جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فقالوا يا رسول الله والله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء هلكنا فأنزل الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية فدعاهم رسول الله ﷺ وتلا عليهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٧] أي لم يشغلهم الشعر عن الإكثار في الذكر ويكون أكثر أشعارهم في الذكر والتوحيد والثناء على الله والحث على طاعته، قال أبو يزيد الذكر الكثير ليس بالعدد لكنه الحضور ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ ولو كان في كلامهم هجو لأحد أرادوا به الانتصار مما هجاهم ومكافحة هجاء المسلمين، روى البغوي في شرح السنة والمعالم عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل قال النبيّ ﷺ «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والّذي نفسي بيده لكأنّما ترمونهم به نضح النبل»[٨]، وفي الاستيعاب لابن عبد البر أنه قال يا رسول الله ماذا ترى في الشعر؟ قال «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه».

---

(١) المتنطعون: المتعمقون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوقهم، من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل تعمق قولاً وفعلاً.

(٢) أخرجه مسلم في العلم حديث ٧، وأبو داود في السنة باب ٥، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٦.

(٣) انظر الحاشية التالية.

(٤) أخرجه الترمذي في البر باب ٧١، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٩، ٤/ ١٩٣، ١٩٤.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩.

(٦) هكذا في الأصل وفي تهذيب التهذيب ابو الحسن مولى بني نوفل ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

(٧) عن ابن عباس ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكرُوا الله كثيراً﴾ قال أبو بكر وعمر وعبد الله بن رواحة ـ ١٢ منه رحمه الله ـ.

(٨) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٥٦، ٦/ ٣٨٧، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٣٩، والبغوي في تفسيره ٧/ ١٣٢.

وروى البغوي عن أنس أن النبيّ ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله يقول الشعر فقال النبيّ ﷺ: «خل عنه يا عمر فهي أسرع فيهم من نضح النبل»[١] وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال قال النبيّ ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت «اهج المشركين فإن جبرئيل معك»[٢] وكان رسول الله ﷺ يقول لحسان: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس»[٣] وروى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل»[٤] وروي عنها أيضاً قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»[٥] وقالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول هجاهم حسان فشفا واشفى. وروى البخاري عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح ويقول رسول الله ﷺ إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ» وروى البغوي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنها أشد عليهم من رشق النبل» فأرسل إلى ابن رواحة فقال اهجهم وهاجهم فلم يرض فأرسل إلى كعب ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلمَّا دخل عليه حسان قال قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثمّ أدلع لسانه يحركه، فقال والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم فقال رسول الله ﷺ لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لي فيهمْ نسباً حتى يلخص لك فيهم نسبي فأتاه حسان، ثم رجع فقال يا رسول الله قد لخص لي نسبك فالّذي بعثك بالحق لأسلنك كما يسلى الشعر من العجين قال حسان شعر[٦]:

هجوت محمّداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمّداً براً حنيفاً[٧] ... رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعِرضي ... لِعرض محمد منكم وفاء
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
وجبريلُ رسولُ الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

---

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ٥/١٣١.
(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٣٠، والأدب باب ٩١، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٥١، ١٥٣.
(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٥١، ١٥٢.
(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ١٥٧.
(٥) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١٥٧.
(٦) الأبيات من الوافر، وهي في ديوان حسان بن ثابت ص٧٦.
(٧) وفي تفسير البغوي تقيًا ـ ١٢ الفقير الدهلوي ـ.

وعن ابن سيرين مرسلاً قال رسول الله ﷺ لكعب بن مالك هيه فأنشده فقال لهو أشد عليهم من وقع النبل.

فائدة

ثبت من هذه الأحاديث أن الشعر لا بأس به ما اجتنب الكذب وأشباهه من المحرمات، روى الدارقطني عن عائشة قالت: ذكر عند رسول الله ﷺ الشعر فقال رسول الله ﷺ: «هو كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح»(١) ورواه الشافعي عن عروة مرسلاً، وذكر البغوي أنه قالت عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل»(٢) متفق عليه، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قال نعم قال «هيه» فأنشدته بيتاً فقال «هيه» ثم أنشدته بيتاً فقال «هيه» حتى أنشدته مائة بيت»(٣) رواه مسلم، وعن جندب أن النبيّ ﷺ كان في بعض المشاهد وقد دميت أصبعه فقال: «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت»(٤) متفق عليه، وعن الشعبي قال كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة، وروي عن ابن عباس أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشد فروي أنه دعا عمر بن ربيعة فاستنشده القصيدة أولها شعر(٥):

أمن آل نعمى أنت غاد ومبكر غداة غد أم رائح فمهجر

فأنشد ابن ربيعة القصيدة إلى آخرها وهي قريب من سبعين بيتاً ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعاً وكان يحفظها بمرة واحدة.

فائدة

الشعر طاعة إن كان فيه ذكر الله أو علماً من علوم الدين أو نصحاً ووعظاً للمسلمين عن أبي بن كعب قال قال: رسول الله ﷺ «إن من الشعر حكمة»(٦) رواه البخاري، وعن

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢٣٩، والدارقطني في سننه ٤/١٥٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/١٢٢، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٤٨٠٧، ٤٨٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٢٦، والأدب باب ٩٠، والرقاق باب ٢٩، ومسلم في البر حديث ٢ ـ ٦.

(٣) أخرجه مسلم في الشعر حديث ١، وابن ماجه في الأدب باب ٤١، وأحمد في المسند ٤/٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٩، والأدب باب ٩٠. ومسلم في الجهاد حديث ١١٢، وأحمد في المسند ٤/٣١٢، ٣١٣.

(٥) البيت من الطويل، وهو في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٢.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٠، وأبو داود في الأدب باب ٨٧، والترمذي في الأدب باب ٦٩، =

الصخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن من البيان سحراً وإن من العلم جهلاً وإن من الشعر حكماً وإن من القول عيالاً»[(١)] رواه أبو داود، وعن ابن عباس «إنَّ مِنَ البيان سحراً وإن من الشعر حكما»[(٢)] رواه أبو داود وأحمد وقد مرَّ فيما سبق «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»[(٣)] وروى أبو داود والنسائي والدارمي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[(٤)] وبعدما ذكر الله سبحانه شعراء المشركين والمسلمين أوعد شعراء المشركين» فقال ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ مصدر أو ظرف منصوب بما بعده قدمه لاقتضاء الاستفهام صدر الكلام والجملة الاستفهامية قائمة مقام المفعولين ليعلم والاستفهام للتهديد.

﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يعني أي رجوع أي مرجع يرجعون بعد الموت، قال ابن عباس إلى جهنم والسعير قال البيضاوي تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم وفي أي منقلب من الإيهام والتهويل والمعنى أن الظالمين يطمعون أن ينقلبوا من عذاب وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانقلاب، أخرج ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت كتب أبي في وصية سطرين بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر ويتقي الفاجر ويصدق الكاذب إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه وإن يجر ويبدّل فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين قد وقع الفراغ من تفسير سورة الشعراء من التفسير المظهري يوم الخميس رابع رجب من السنة الخامسة بعد الألف ومائتين من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ويتلوه سورة النمل إن شاء الله تعالى.

= وابن ماجه في الأدب باب ٤١، والدارمي في الاستئذان باب ٦٨، وأحمد في المسند ٣/٤٥٦، ٥/ ١٢٥.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٨٧، والترمذي في الأدب باب ٦٩، وأحمد في المسند ١/٢٦٩، ٣٠٣، ٣١٣، ٣٣٢.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٧، والدارمي في الجهاد باب ٣٧.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النمل

آياتها ثلاث وتسعون وهي مكيَّة

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ (١) هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ
(٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ
عَلِيمٍ (٦) إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ
(٧) فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨) يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٩) وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ
لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١١) وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ
بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ
هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ (١٣) وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ
(١٤) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ
سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ (١٦)
وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن
قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ
وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ
ٱلۡغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (٢١) فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ
فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن
كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾.

﴿طسٓۚ تِلۡكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ أي اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه ما هو كائن فهو تنبيه للناظرين فيه وتأخيره هاهنا باعتبار تعلق علمنا به وتقديمه في الحجر باعتبار سبقه على القرآن في الكتابة، أو المراد به القرآن المبين للأحكام من الحلال والحرام وغير ذلك ومبين لصحته بإعجازه وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى وتنكيره للتعظيم، نكر الكتاب هاهنا وعرفه في الحجر ونكر القرآن

هناك وعرف هاهنا لأن القرآن والكتاب اسمان علمان لما نزل على محمد ﷺ ووصفان له لأنه يقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف أريد به العلم وحيث جاء بالتنكير أريد به الوصف ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ منصوبان حالان من القرآن والعامل فيهما معنى الإشارة أو مجرور بدلان منه أو مرفوعان خبران آخران لتلك أو خبران لمحذوف أي هي هدىً وبشرى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بهدىً وبشرى على سبيل التنازع أو ببشرى فقط يعني هُدًى لجميع الخلق فمن لم يهتد فبسوء اختياره وبشرى للمؤمنين خاصة ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يحافظون على فرائضها وسننها وآدابها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من تتمة الصلة والواو للحال أو للعطف وتغير النظم بتقديم المسند إليه على الفعل للدلالة على قوة يقينهم وثباته وقصد الحصر يعني ما يوقنون بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعين بين الإيمان والأعمال الصالحة فإن الجهد في الأعمال دليل على إيقانهم، وجاز أن يكون خارجاً عن الصلة استئنافاً كما يدل عليه تغير النظم يعني الذين كذلك هم الموقنون لا غير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة بتسليط النفس وجعلها مشتهاة لها ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ لا يدركون عواقب أمرها جملة زيّنا خبر لإن وقوله فهم يعمهون معطوف عليها أو هذا خبر لإن والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط وزينا حال من فاعل لا يؤمنون بتقدير قد وجملة إن الذين لا يؤمنون معترضة لبيان حال من يخالف المذكورين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ في الدنيا إخبار بما يلحقهم يوم بدر من قتل وأسرٍ وذلٍّ ﴿وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ من غيرهم حيث أكرمهم الله من بين الناس حيث بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يريد أن يطهرهم ويزكيهم ويوصلهم إلى أكرم الكرامات في الدنيا والآخرة فاختاروا على هذا في الدنيا القتل والأسر وفي الآخرة النار المؤبدة المؤصدة، جملة أولئك إلى آخرها وما عطف عليها استئناف لبيان عاقبة أمرهم ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ عطف على آيات القرآن وتنكير الحكيم والعليم للتعظيم يعني من عند أيّ حكيم وأيّ عليم لا يذكرك كنه علمه ولا حكمته أحد والجمع بين الوصفين مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل والإشعار بأن علوماً منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار بالمغيبات وهذا تمهيد لما يذكر فيه من القصص منها ما قال ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ في مسيره من مدين إلى مصر الظرف متعلق باذكر وجاز أن يكون متعلقاً بعليم ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَانَسْتُ﴾ أي أبصرت ﴿نَارًا سَـَٔاتِيكُم﴾ أي امكثوا مكانكم سآتيكم ذكر هاهنا سآتيكم على التيقن وفي القصص ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠] على الترجي لأن الراجي على تقدير حصول رجائه يَعِدُ بالإتيان قطعاً إشعاراً على عزمه وجزمه بما يعدُ به، وفيه دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج مما يؤدي معناه ﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

عن الطريق لأنه قد ضل الطريق والسين للدلالة على بُعد المسافة الوعد بالإتيان ولن أبطأ ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ﴾ قرأ الكوفيون[١] بالتنوين على أن ﴿قبس﴾ بدل منه أوصف له فإن الشهاب شعلة من نار ساطعة والقبس شعلة يقتبس من معظم النار كذا في القاموس، والباقون بلا تنوين بإضافة الشهاب إلى القبس والإضافة بيانية لجواز إطلاق القبس على الشهاب، وقال البغوي الشهاب والقبس متقاربان في المعنى فإن القبس هو العود الذي أحد طرفيه نار وليس في طرفه الآخر نار ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ افتعال من الصلي وهو الإيقاد بالنار أي راجياً أن تستدفئوا بها من البرد وكان في شدة الشتاء.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ يعني لما قرب موسى من النار التي رآها يقال بلغ فلان المنزل إذا قرب منه وإن لم يبلغه بعد ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ﴾ أن مفسرة لما في النداء معنى القول أو التقدير بأن بورك على أنها مصدرية أو مخففة من الثقيلة والتخفيف وإن اقتضى التعويض بلا أوقد أو السين أو سوف لكنه دعاء وهو يخالف غيره في أحكام كثيرة ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن معناه قدس من في النار وهو الله سبحانه على معنى أنه تعالى نادى موسى وأسمعه كلامه، قيل كان ذلك نوره عزّ وجلّ حِسبه موسى ناراً فلذلك ذكر موسى بلفظ النار، روى مسلم عن أبي موسى قال قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[٢] وقال سعيد بن جبير كانت النار بعينها وهي إحدى حجب الله تعالى كما ورد في بعض الروايات حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وعلى هذا التأويل هذه الآية من المتشابهات كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ولما كان في هذا الكلام إيهام التحيز والتشبيه نزه الله سبحانه نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب فقال: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال بوركت النار وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال سمعت أبياً يقول إن بوركت النار ومن حولها، وكلمة من على هذا زائدة وبورك النار وبورك في النار معناهما واحد فإن العرب يقول بارك الله وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد والمعنى بورك في النار وفيمن حولها وهم الملائكة وموسى عليه السلام ويسمى النار مباركة كما يسمى البقعة مباركة قال الله تعالى: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] وقيل معناه بورك من في طلب النار أو من في مكان النار بحذف المضاف وهو موسى عليه السلام

---

(١) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٣، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣، وأحمد في المسند ٤/٤٠١، ٤٠٥.

ومن حولها وهم الملائكة الذين حول النار حاضرين هناك فهذه تحية من الله لموسى بالبركة كما حيًّا إبرهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا على إبراهيم فقالوا ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] وقيل من في النار هم الملائكة وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم رجل بالتسبيح والتحميد والتقديس ومن حولها موسى لأنه كان بالقرب منها وقيل من حولها عام شامل لكل من في ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم ينتشر بركته في أقطار الشام وعلى هذه التأويلات قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لدفع توهم التشبيه الناشىء من سماع كلامه وللتعجيب من عظم ذلك الأمر ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الضمير الشأن اسم إن وأنا الله خبرها أو الضمير للمنادى اسمها وأنا خبرها والله عطف بيان له والعزيز الحكيم صفتان له ممهدتان لما أراد أن يظهره يعني أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كتقليب العصا حيّة الفاعل لكل ما يفعله بحكمة وتدبير ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على بورك داخل في حيز أن المفسرة يدل عليه قوله تعالى في غير هذه السورة ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ بعد قوله ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٩] بتكرير أن والتقدير فنودي هذا المقول وهذا المقول فهو من قبيل عطف المفرد على المفرد وليس من عطف الإنشاء على الخبر.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ أي رأى موسى عصاه ﴿تَهْتَزُّ﴾ تتحرك بالاضطراب ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي حية خفيفة في سرعة سيره وكثرة اضطرابه ﴿وَلَّىٰ﴾ أي هرب موسى من الخوف ﴿مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع من عقب المقاتل إذا كرَّ بعد الفرار ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ جملة النداء وما بعده في محل النصب على تقدير القول يعني قلنا يا موسى لا تخف من هذه الحية ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ﴾ يعني لأجل قربهم بي واستقرارهم بحضرتي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الجملة في مقام التعليل لعدم الخوف يعني الذين يبلغون رسالاتي فإنهم يخشونني وحدي ولا يخشون أحداً غيري، فلا منافاة بين هذه الآية وبين قوله عليه السلام «أنا أخشاكم بالله» أو المعنى لا يخافون مطلقاً عند نزول الوحي لفرط الاستغراق أو المعنى أنهم لا يكون لهم سوء عاقبة فيخافون ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ قيل هذا استثناء متصل وفيه إشارة إلى موسى حيث قتل القبطي والمعنى لا يخيف الله أنبياءه من أحد غيره إلا بذنب أصابه أحدهم والمراد بالظلم الذنب الصغيرة أو ترك الأفضل وعلى هذا قوله ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ يعني توبة بعد ذنب عطف على ظلم داخل في الصلة وإنما قيد بهذا إيذاناً بأنه لا يجوز صدور ذنب من الأنبياء وإن كانت صغيرة أو قبل النبوة إلا مستعقباً للتوبة ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معطوف على بدل تقديره فإني أغفر له وأرحمه وقيل قوله ثم بدل إلى آخره كلام مبتدأ معطوف على محذوف بيان لحال من ظلم من الناس كافة تقديره فمن ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بعد سوء فإني غفور رحيم وقيل الاستثناء منقطع لأن المرسلين لا يجوز منهم الظلم وعلى انقطاعه تقديره لكن من ظلم من الناس وهم غير المرسلين فإنهم يخافون غير الله تعالى، وقيل هو استدراك لما يختلج في الصدور من نفي الخوف عن كلهم مع أن فيهم مَن فرطَتْ منه صغيرة فالتقدير لكن من صدر

منه صغيرة منهم فإنه وإن فعلها فقد أتبعها ما يبطلها واستحق به من الله مغفرة ورحمة فهو أيضاً لا يخاف غير الله، لكن هذين التأويلين يقتضيان أن موسى لم يخف من الحية وذلك غير واقع لقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠] وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: ٦٧] إلا أن يراد بنفي الخوف من الأنبياء ففي مطلق الخوف منهم لانتقاء سوء العاقبة نظيره قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] لكن سوق الكلام يأبى عنه إذ الموجود المنهى عنه إنما هو الخوف من الحية وقال بعض العلماء إلا هاهنا بمعنى ولا يعني لا يخاف لدي المرسلون ولا المذنبون التائبون أي هم صلحاء المؤمنين فإن غير المعصوم لا يخلو عن ذنب لكن من استدرك ذنبه بالتوبة صار كمن لا ذنب له وهذا التأويل أيضاً يناسب نفي مطلق الخوف لا خوف غير الله فقط كالتأويلين السابقين[(١)] ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ عطف على ألق عصاك ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ أي جيب قميصك وهو طرفه كذا في القاموس، وقيل الجيب هو القميص لأنه يجاب أي يقطع، قال البغوي قال أهل التفسير كان عليه مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزر ﴿تَخْرُجْ﴾ أي يدك مجزوم في جواب الأمر بتقدير أن تدخل يدك تخرج ﴿بَيْضَآءَ﴾ نيرة تغلب نور الشمس حال من الضمير المستتر في تخرج ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي كائناً من غير برص صفة لبيضاء أو حال مرادف له أو حال من الضمير في بيضاء ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ يعني هاتان آيتان لك في تسع آيات أي في جملتها أو معها على التسع هي فلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والفقصان في مضارعهم ومن عد العصا واليد مع التسع عدّ الأخيرين واحداً ولم يعد الفلق لأنه لم يبعث به إلى فرعون أو التقدير اذهب في تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به قوله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وعلى الأولين تقدير هاهنا مبعوثاً أو مرسلاً على أنه حال من فاعل الق فأدخل على سبيل التنازع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني جاءهم موسى بها ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بينةً واضحةً اسم فاعل بمعنى

---

(١) أقول هذا البحث الطويل لا يجدي شيئاً ولا يشفي غليل الذكي المتفطن والحق ما قاله حكيم الأمة المحمدية خاتم المفسرين والمحدثين الولي الكامل الشيخ التهانوي نوّر الله مرقده في تفسيره المسمى ببيان القرآن في تفسير قوله تعالى خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ما نصه ـ ادى موسى عليه السلام كأدراجنا بعض ذكمها هي سر طبعي هي جوسكي طرح جلالت شادك منافي نهين اوربعض ذكها هي كه جو حادثة مخلوق كي جانب س هواس مين تونه ددرنا كمال هي جيس ابراهيم عليه السلام اتش غرودي س نهين درت اورجو امر خالق كي طرف س هواس مين درنا هي كمال هي كه وه في الحقيقت حتى تعالى س درنات جبسي هواتيز هو ني كر وقت جناب رسول الله صلى لله عليه وسلم كالهبراجانا حديثون بين آياح سوعكونه اس تبدل بين مخلوق كاواسطة نرتهاس س در كئ كه يه كوئي قهر الهي نهو وقال رحمه الله تعالى في رسالته المسماة بمسائل السلوك من كلام ملك الملوك في تفسير هذه الآية قال العبد الضعيف فيه بقاء الطبائع في الكاملين حيث خاف عليه السلام خوفاً طبعيا وفيه الأمر بتعديل الطبعيات بالعقليات انتهى فالحاصل منه عليه السلام كان من الله تعالى لا من غيره أو كان طبعيا والمنتهى عنه هو الخوف العقلي فلا منافاة فلا حاجة إلى الدفع ـ ١٢ الفقير الدهلوي ـ.

اسم المفعول إشعاراً بأنها لفرط وضوحها للأبصار صارت بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو ذات بصر يبصر بها ﴿قَالُوا۟﴾ يعني فرعون وقومه ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح سحريته وجملة ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ معطوفة على جملة محذوفة معطوفة على نودي تقديره نودي أن ألق عصاك وأدخل يدك في جيبك اذهب في تسع آيات إلى فرعون وقومه أو مبعوثاً إليهم اذهب إليهم فألقى موسى عصاه وأدخل يده في جيبه ثم ذهب إلى فرعون قومه عطف ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي أنكروا بآياتنا أنها من عند الله عطف[1] على قالوا ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي وقد استيقنتها لأن الواو الحال والاستيقان أبلغ من الإيقان ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ منصوبان على العلة أو حالان من فاعل جحدوا يعني لأجل الظلم والتكبر أو ظالمين أنفسهم باستيجارهم النار المؤبدة متكبرين عن الإيمان بما جاء به موسى ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها المخاطب نظر استبصار ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ كيف خبر لكان قدم عليه لاقتضائه الصدارة والجملة مفعول لا نظر يعني انظر كيفية عاقبتهم حيث أغرقوا في الدنيا فأدخلوا ناراً بعد الموت.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ بذات الله سبحانه على حسب الطاقة البشرية وبصفاته وأحكامه وبأحوال المبدأ والمعاد ومنطق الطير والدواب وتسبيح الجبال وإلان الحديد ﴿وَقَالَا﴾ شكراً للنعمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بالنبوة والكتاب وغير ذلك ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالا بعض ما أتيا به في مقابلة النعمة فهو معطوف على محذوف تقديره فعملاً على حسب ما علما وعرفا حق النعمة وقالا هذا القول، ولولا تقدير المحذوف لكان المناسب الفاء موضع الواو كما في قولك أعطيته فشكر وفي الآية دليل على شرف العلم وكونه موجباً للفضل وتقدم العلماء على من سواهم قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[2] رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه من حديث كثير بن قيس وسماه الترمذي قيس بن كثير، وقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[3] الحديث رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي، وفيها تحريض على الشكر على نعمة العلم وعلى أن يتواضع ويعتقد بأنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ نبوته وملكه وعلمه كذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن

---

(١) قال البيضاوي رحمه الله تعالى وجحدوا بها اي في ظاهر امرهم إلخ فلا يرد أن الجحود بعد اليقين مستبعد - ١٢ الفقير الدهلوي -.

(٢) أخرجه أبو داود في العلم باب ١، والترمذي في العلم باب ١٩، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧، والدارمي في المقدمة باب ٣٢.

(٣) أخرجه الترمذي حديث ٢٦٨٥.

أبي حاتم عن قتادة، واحتجت الروافض بهذه الآية على أن الأنبياء يورثون كغيرهم وهي حجة عليهم لا لهم لدلالتها على أنه ورث سليمان دون سائر أولاد داود وقد كان لداود تسعة عشر ابناً. والإرث عبارة عن أن ينقل شيء إلى أحد بعدما كان لغيره من غير عقد جرى بينهم ولا يجري مجرى العقد سواء كان بينهما قرابة أو لا قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧] ومعنى قوله ﷺ «لا نورث» أنه لا يملك أحد من الناس مال نبي بعد موته بل يكون ماله موقوفاً محبوساً على ملك الله تعالى، قال البغوي أعطي سليمان ما أعطي داود وزيد له تسخير الريح والشياطين، وقال وقال مقاتل كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه وكان داود أشد تعبداً من سليمان وكان سليمان شاكراً لنعم الله، قلتُ وكذا داود ﴿وَقَالَ﴾ سليمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ فيه شكر لنعمة الله عليه ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة والنطق، والمنطقُ عبارة عما يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً، في القاموس نطق ينطق نطقاً ومنطقاً ونطوقاً تكلم بصوت وحروف يعرف بها المعاني ولما كان فهم المعاني للناس منحصراً فيما يتلفظ به الإنسان زعموه من خواص الإنسان، ولمَّا كان سليمان عليه السلام يفهم من صوت الطير ما في ضميرها كما كان يفهم من كلام الإنسان سماه منطقاً. قال البغوي روي عن كعب قال صاح ورشان عند سليمان فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا قال إنه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب، وصاحت فاختة فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال إنها تقول ليت هذا الخلق لم يخلق، وصاح طاوس فقال أتدرون ما يقول: قالوا لا، قال إنه يقول كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول من لا يرحم لا يرحم، وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول استغفروا الله يا مذنبون، قال وصاحت طيطوى[1] فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال فإنها تقول كل حي ميت وكل جديد بال، وصاح خطاف فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول قدموا خيراً تجدوه، وهدرت حمامة فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال تقول سبحان ربي الأعلى ملأ سماواته وأرضه، وصاح قمري فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال فإنه يقول سبحان ربي الأعلى، قال والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله والقسطاة تقول من سكت سلم والببغاء يقول ويلٌ لمن الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والبازي يقول سبحان ربي وبحمده والضفدعة سبحان المذكور بكل لسان. وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فإنه يقول الرحمن على العرش استوى، وعن فرقد السبحي قال مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا الله ونبيه أعلم، قال إنه يقول أكلت ونصف تمرة فعلى الدنيا العفا.

وروي أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس إنا سائلون عن سبعة أشياء فإن أخبرتنا

(١) الطيطوي كنينوى: ضرب من القطا. طائر.

آمناو صدَّقنا، قال سلوا تفقهاً ولا تسألوا تعنتاً، قالوا أخبرنا ما يقول القنبر[١] في صفيره والديك في صقيعه والضفدع في نقيقه والحمار فن نهيقه والفرس في صهيله وماذا يقول الزرزور والدراج، قال: نعم أما القنبر فيقول اللَّهم العن مبغضي محمد ومبغضي آل محمد والديك يقول اذكروا الله يا غافلون والضفدع يقول سبحان المعبود في لجج البحار وأما الحمار فيقول اللَّهم العن الغشار وأما الفرس يقول إذا التقى الصفان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما الزرزور يقول اللَّهم إني أسألك قوت يوم بيوم وأما الدراج يقول الرحمن على العرش استوى فأسلم اليهود وحسن إسلامهم. وروي عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي عليهم السلام قال إذا صاح النسر قال ابن آدم عشت ما شئت آخره الموت وإذا صاح العقاب قال السلامة في البعد من الناس وإذا صاح القنبر قال إلهي العن مبغضي آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ويمد الضالين كما يمد القارىء. قلت ما روي عن كعب شرح أصوات الطيور عن سليمان عليه السلام وكذا ما روي عن مكحول وعن فرقد عنه عليه السلام يحتمل حمله على أن كل واحد منها واقعة ولا يدل على انحصار نطقهم في الكلمات المذكورة وما قص الله تعالى في هذه السورة قصة النمل والهدهد صريح في أنها تتكلم بكل ما سنح لها لكن ماروي من سؤال اليهود وعن ابن عباس رضي الله عنه وجوابه إياهم يدل على انحصار مقالهم فيما ذكر فإن صح هذه الرواية لزم تأويلها والله أعلم ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد به كثرة ما أوتي كما يقال فلان يقصد كل أحد ويعلم كل شيء ومثله ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] والضمير في علمنا وأوتينا له ولأبيه عليهما السلام أو له ولأتباعه فإن أتباعه يأخذون منه ما علمه الله وأعطاه أو له وحده تعظيماً على عادة المدلول لمراعاة قواعد السياسة. وقال ابن عباس المراد كل شيء من أمر الدنيا والآخرة، وقال مقاتل يعني النبوة والملك وتسخير الشياطين والرياح ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العطاء ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني ليس هذا باستحقاق منا أو جزاء لأعمالنا بل تفضل من الله تعالى أو المعنى زيادة ظاهرة على من عدانا. وهذا القول وارد على الشكر كقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»[٢] امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١] قال البغوي روي أن سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبع مائة سنة وستة أشهر جميع أهل الدنيا الجن والإنس والطير والدواب والسباع وأعطى مع ذلك العلم بمنطق كل شيء وفي زمنه صنعت الصنائع العجيبة.

﴿وَحُشِرَ﴾ أي جمع ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ في مسيرله ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

---

(١) القنبر هكذا في الأصل قال في القاموس القبر كشكر وصرد طائر الواحدة بهاء ويقال القنبراء جمعه قنابر - ١٢ الفقير الدهلوي -.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب١، وأحمد في المسند ١/ ٢٨١، ٢٩٥.

أي يكفون ويحبسون أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، وفيه إشارة إلى أنهم مع كثرتهم لم يكونوا مبعدين، في القاموس وزعته أي كففته ومنه الوزعة جمع وازع وهم المانعون من المحارم والكلب والزاجر والتوزيع القسمة والتفريق كالإيزاع والتوزع وقال مقاتل يوزعون أي يساقون، وقال السدي يوقضون، قال محمد بن كعب كان معسكر سليمان عليه السلام مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للجن وخمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون منها للطير وخمسة وعشرون منها للوحش وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاث مائة منكوحة وسبع مائة سرية يأمر الريح العاصف فترفعه ويأمر الرخاء فتسيره فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض إني قد زدتُ في ملكك إنه لا يتكلم أحد من الخلائق إلا جاءت به الريح وأخبرتك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ﴾ وقف الكسائي بالياء فقال وادي والباقون بغير ياء ﴿ٱلنَّمۡلِ﴾ تعدية الإتيان بعلى إما لأن إتيانهم كان من عالٍ وإما لأن المراد قطعه من قولهم أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره، روي عن وهب بن منبه عن كعب كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه وقد أخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد وقدور عظام تسع في قدر منها عشر جزائر وقد اتخذ ميادين الدواب له أمامه فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون ويجري الدواب من بين يديه بين السماء والأرض والريح تهوى فسار من إصطخر إلى اليمن، فسلك مدينة رسول الله ﷺ فقال هذه دار هجرة نبي آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ورأى حول البيت أصناماً تعبد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله إلى البيت ما يبكيك؟ فقال يا رب أبكاني إن هذا نبيٌّ من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا بي ولم يصلّوا عندي والأصنام تعبد حولي من دونك فأوحى الله إليه أن لا تبك فإني سوف أملؤك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً أبعث منك نبياً في آخر الزمان أحب أنبيائي وأجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني وأفرض على عبادي فريضةً يدفون إليك دفيف[1] النسور إلى وكرها. ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبدة الشياطين ثم مضى حتى مرّ بواد السدير واد من الطائف فأتى على واد النمل هكذا قال كعب إنه واد بالطائف، وقال مقاتل وقتادة هو أرض بالشام، وقيل هو واد كان يسكنه الجن وأولئك النمل مراكبهم، قال فرق الحميري كان نمل ذلك الوادي أمثال الذباب، وقيل كالبخاتي والمشهور أنه النمل الصغير.

﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ قال الشعبي كانت تلك النملة ذات جناحين، وقيل كانت نملة عرجاء، وقال الضحاك كان اسمها طاحية، وقال مقاتل كان اسمها حذمى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ لم يقل أدخلن لأن الإنسان إذا تكلم وهو يرى غيره من الحيوانات غير عاقلة فيجعل لها ضمائر الجمادات كما يجعل للنساء ضمائرها إلحاقاً إياهن بغير ذوي العقول لضعف عقولهن وأما الحيوانات إذا تكلم بعضها بعضاً ترى أنفسها من ذوي العقول فتخاطب

(١) الدفيف: السير الغير الشديد كذا في النهاية.

العقلاء فحكى الله سبحانه قول النملة كما قالت ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهى لهم عن الحطم والمراد نهيهن عن التوقف والبروز كيلا يؤدي إلى حطمهم إياهن كقولهم لا أرينك هاهنا أي لا تقف هاهنا فهو استئناف أو بدل من الأمر لا جواب له فإن النون لا تدخله في السعة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يحطمونكم ولو شعروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمة سليمان وأصحابه من الإيذاء عمداً فويل للروافض لم يشعروا شعور النملة حتى نسبوا الظلم إلى أصحاب سيد الأنبياء. فإن قيل كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والأرض؟ قيل كان بعض جنوده ركباناً ومنهم مشاة على الأرض تطوى لهم وقيل يحتمل أن يكون هذا قبل تسخير الريح لسليمان، وقال بعض أهل العرفان معناه لا يحطمنكم اشتغالكم برؤية جنود سليمان وملكه وما أعطاه الله من زهرة الحياة الدنيا فيشغلكم عن ذكر الله ويهلككم فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال كذا قال مقاتل وذلك لما أنه كلما كان يتكلم خلق إلا حملت الريح فألقته في مسامع سليمان.

﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان عطف على محذوف تقديره فسمع سليمان مقالها وأدرك معناها ففرح بما سمع وأدرك ما لا يسمع ولا يدرك غيره وبوصفها إياه وجنوده بالعدل أو تعجب من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها فتبسم سروراً أو تعجباً ﴿ضَاحِكًا﴾ حال من فاعل تبسم يعني تبسم مبالغاً في التبسم واصلاً إلى الضحك وجاز أن يكون مصدراً أي تبسم تبسماً شديداً كأنه ضحك على طريقة قمت قائماً، قال الزجاج أكثر ضحك الأنبياء التبسم، وقيل كان أوله التبسم وآخره الضحك. عن عائشة قالت: «ما رأيتُ رسول الله ﷺ قط ضاحكاً مستجمعاً حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم»[(١)] رواه البخاري، وعن عبد الله بن الحارث بن جزء «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ»[(٢)] رواه الترمذي ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ أي لأجل قول النملة فحبس جنوده حتى دخل النمل مساكنهم ﴿وَقَالَ﴾ شكراً لله وهضماً لنفسه من أداء الشكر واستعانة من الله على شكره ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ قرأ ورش والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها والمعنى ألهمني، قيل هذا أيضاً بمعناه الحقيقي كما أن معناه الحبس والمنع كذا في القاموس، وقال البيضاوي معناه اجعلني أزع شكر نعمتك عندي أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه، وقال بعض المحققين معناه اجعلني بحيث أزع أي أحبس نفسي عن الكفر وقيل معناه أحبس نفسي عن كل شيء غيرك ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فإن الإنعام على الوالدين وجعل أحب ولداً الخيار الناس نعمة عليه قال الله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ في بقية عمري ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من الأنبياء.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٦، باب ٢، والأدب باب ٦٨.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١٠، وأحمد في المسند ٤/ ١٩٠، ١٩١.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ أي طلبها وبحث عنها والتفقد طلب ما فقد فلم يجد فيها الهدهد وكان سبب تفقده أن سليمان كان إذا نزل منزلاً تظله جنده الطير من الشمس فأصابته من موضع الماء تحت الأرض كما يرى في الزجاجة ويعرف قربه وبعده فينقر الأرض فتجيء الشياطين فيسلخونه ويستخرجون الماء، كذا أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن أزرق يا وصاف انظر ما تقول إن الصبي يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه فقال له ابن عباس ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر، وفي رواية إذا جاء القضاء والقدر ذهب وعمي البصر، فنزل سليمان منزلاً فاحتاج إلى الماء فطلبوا فلم يجدوا فتفقد الهدهد ليدل على الماء فلم ير الهدهد وظن أنه حاضر ولم يره لساتر أو غير ذلك ﴿فَقَالَ﴾ هذه الجملة معطوفة على ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ وهي معطوفة على محذوف معطوف على ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ تقديره وأمر الطيور بالإظلال فوقع الشمس على سريره فنظر وتفقد الطير ويقال حشر لسليمان جنوده فنزل منزلاً فلم يجد الماء فطلب الهدهد وتفقد الطير فقال ﴿مَا لِيَ﴾ قرأ عاصم وابن كثير والكسائي وهشام(١) بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ الاستفهام للتعجب وجملة لا أرى حال من الضمير للمتكلم والعامل فيه معنى التعجب فلما لم يره بعد التفقد ولاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وسأل عن صحة ما لاح له فقال ﴿أَمۡ كَانَ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة يعني بل أكان الهدهد ﴿مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ ولما ثبت أنه غائب قال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ ليعتبر به أبناء جنسه قيل العذاب الشديد أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض، وقال مقاتل لأطلينَّه بالقطران ولأشمسنَّه، وقيل لأودعنه القفص وقيل لأفرقنَّ بينه وبين إلفه، وقيل لأحبسنه مع ضده، وقيل أو لألزمنه خدمة أقرانه وكان التعذيب جائزاً له عليه السلام ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي﴾ قرأ ابن كثير بنونين الأولى مشددة مفتوحة والثانية نون الوقاية والباقون بنون واحدة مشددة مكسورة ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي بحجة بينة في غيبته وعذر ظاهر والحلف في الحقيقة على أحد الأمرين بتقدير عدم الثالث لكن لما اقتضى ذلك وقوع أحد الثلاثة ثلَّث المحلوف عليه بعطفه عليهما وجاز أن يكون أوفى أو ليأتيني معنى إلاّ أن كما في قولك لألزمنك أو تعطيني حقي يعني إلا أن تعطيني حقي.

﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد قرأ عاصم ويعقوب(٢) بفتح الكاف والباقون بضمها وهما لغتان ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ أي مكثاً غير طويل أو زماناً غير مديد يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفاً من سليمان على نفسه وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لمّا فرغ من بناء البيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم وأقام هناك ما شاء الله أن يقيم وكان

(١) وابن وردان بخلاف عنه.

(٢) أي روح ـ أبو محمد ـ.

ينحر كل يوم طول مقامه بمكة خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف كبش، وقال لمن حضره من أشراف قومه إن هذا مكان يخرج منه نبيّ عربيٌّ صفته كذا يعطى النصر على جميع من ناداه ويبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده سواء لا تأخذه في الله لومة لائم، قالوا بأيّ دين يدين يا نبي الله؟ قال بدين الحنيفة فطوبى لمن أدركه وآمن به. فقالوا كم بيننا وبين خروجه؟ قال مقدار ألف عام فليبلّغ الشاهد منكم الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل، قال فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج من مكة وسار صباحاً نحو اليمن ووافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً حسناً تزهر خضرتها فأحب النزول بها ويصلي ويتغدَّى، فلمّا نزل قال الهدهد إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فانظر إلى طول الدنيا وعرضها ففعل ذلك فنظر يميناً وشمالاً فرأى بستاناً لبلقيس فسال إلى الخضرة فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط إليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن عنفير، فقال عنفير اليمن ليعفور سليمان من أين أقبلت وأين تريد؟ قال أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود، فقال من سليمان؟ قال ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح فمن أين أنت؟ قال من هذه البلاد. قال ومن ملكها؟ قال امرأة يقال لها بلقيس وإن لصاحبكم ملكاً عظيماً ولكن ليس ملك بلقيس دونه ملكة اليمن كلها وتحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل فهل منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها، قال أخاف إن تفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، قال الهدهد اليماني إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وما رجع إلى سليمان إلا وقت العصر، قال فلمّا نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة، وكان نزل على غير الماء فسأل الجن والإنس والشياطين عن الماء فلم يعلموا فتفقد الطير ففقد الهدهد فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك أنا لا أدري أين هو وما أرسلته فغضب عند ذلك ثم قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ ثم دعا العقاب سيد الطير فقال عليَّ بالهدهد الساعة فرفع العقاب دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ثم التفت يميناً وشمالاً فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن، فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده الله الذي قواك وأقدرك عليَّ إلا رحمتني ولم تتعرض لي بسوء قال فولى عنه العقاب، فقال له ويلك ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلمّا انتهيا إلى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له ويلك أين غبت في يومك هذا لقد توعدك نبي الله وأخبره بما قال فقال الهدهد ما استثنى رسول الله قالوا بلى قال أو ليأتيني بسلطان مبين، قال فنجوت إذاً ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه فقال العقاب قد أتيتُك به يا نبي الله فلما رآه الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان فلما دنى منه أخذ برأسه فمده إليه فقال له أين كنت لأعذبنك عذاباً شديداً، فقال

الهدهد اذكر وقوفك بين يدي الله عزَّ وجلَّ فلَمَّا سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ثم سأله فقال ما الّذي أبطأك عني ﴿فَقَالَ﴾ الهُدهُد عطف على محذوف تقديره فإني فقال ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ الإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته واستعماله في غير علم الله سبحانه إما بطريق المجاز أو المبالغة والمعنى علمت مستيقناً ما لم تعلم، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً ما لم يحط به سليمان ليتحاقر إليه نفسه ويتصاغر لديه علمه وفيه دليل على بطلان قول الروافض إن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أعلم منه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ اسم بلد باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام قرأ أبو عمرو والبزي من سبأ وبسبأ في سورة سبأ مفتوحة الهمزة بلا تنوين غير منصرف على تأويل البلدة أو المدينة وقرأ قنبل ساكنة الهمزة على نية الوقف والباقون بكسر الهمزة والتنوين منصرفاً لما كان في الأصل اسم رجل. قال البغوي جاء في الحديث أن النبيّ ﷺ سئل عن سبأ فقال: «كان رجلاً له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة»(١) يعني ستة منهم أخذوا اليمن وطناً والباقون أخذوا الشام وطناً ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي بخبر متيقن قال سليمان وما ذاك قال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ﴾ أي أصبتُ ﴿ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ صفة لامرأة كان اسمها بلقيس بنت شرحبيل من نسل يعرب بن قحطان وكان أبوها ملك عظيم، الشأن قد ولد له أربعون ملكاً وهو في آخرهم وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفواً لي وأبى أن يتزوج فيهم فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن فولدت له بلقيس ولم يكن له ولد غيرها. وورد في الحديث أن إحدى أبوي بلقيس كان جنياً فلمّا مات أبو بلقيس طمعت في الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون فملكوا عليهم رجلاً وافترقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من اليمن، ثم إن الرجل الّذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويعجز بهن فأراد قومُه خلعه فلم يقدروا عليه، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه وأجابها الملك وقال ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا الإياس منك، فقالت لا أرغب عنك كفو كريم فاجمع رجال قومي فاخطبني إليهم فجمعهم وخطبها إليهم فقالوا لا نراها تفعل ذلك، فقال لهم إنما ابتدأتُ وأنا أحب أن تسمعوا قولها فجاؤوها فذكر لها فقالت نعم أحببتُ الولد فزوجوها فلمّا زفت إليه خرجت في أناس كثير من جيشها فلما رأته سقته الخمر حتى سكر ثم حزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها، فلمّا أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوب على باب داره فعلموا أن تلك المناكحة كانت مكراً وخديعةً منها فاجتمعوا إليها وقالوا أنت بهذا الملك أحق من غيرك.

حديث: روى أحمد والبخاري في الصحيح والترمذي والنسائي عن أبي بكرة رضي الله عنه قال لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس ملّكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم

(١) أخرجه أبو داود في الحروف باب ١، والترمذي في تفسير سورة ٣٤، باب ١.

ولوا أمرهم امرأة»[١].

قوله تعالى ﴿وَأُوتِيَتْ﴾ حال بتقدير قدمن فاعل تملكهم ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدة أو المراد به الكثرة كما سبق ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ حال بعد حال أي سرير ضخم كان مضروباً من الذهب مكللاً بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد عليه سبعة أبيات على كل بيت باب يغلق، روى ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد قال سرير من ذهب وصفحتاه موصول بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً، وقال ابن عباس كان عرش بلقيس ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثون ذراعاً وقال مقاتل كان طوله ثمانين ذراعاً وارتفاعه ثلاثين ذراعاً ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ظرف متعلق بيسجدون ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة من عبادة الشمس وغيرها جملة وزين مع ما عطف عليه حال من فاعل يسجدون بتقدير قد ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ المستقيم ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه عطف على يسجدون ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي ألا بالتخفيف على أنه حرف تنبيه ويا للنداء ومناداه محذوف تقديره ألا يا لهؤلاء اسجدوا، قال أبو عبيدة أمر مستأنف من الله تعالى وجاز كونه أمراً من سليمان لمن حضره وعلى هذا حذفت همزة الوصل في الدرج والألف من حرف النداء لالتقاء الساكنين في اللفظ وفي خط مثبتان واذا وقف على إلا أو على يا وابتدأ بقوله اسجدوا وقرأ الباقون ألا يسجدوا بالتشديد لأجل إدغام نون أن المصدرية في اللام من حرف النفي الداخلة على المضارع وإن مع صلته بتقدير حرف الجر متعلق بزين لهم أو بصدهم، والمعنى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ ويقال أن لا يسجدوا بدل من أعمالهم يعني زين لهم الشيطان أن لا يسجدوا وجاز أن يكون لا زائدة وأن مع صلتها متعلق بلا يهتدون تقديره فهم لا يهتدون أن يسجدوا ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخبء بمعنى المخبوء وهو ما خفي غيره وإخراجه إظهاره قال أكثر المفسرين خبء السماوات المطر وخبء الأرض النبات، وقيل يريد علم غيب السماوات والأرض واللفظ يعم إشراق الكواكب وإنزال المطر وإنبات النبات وإخراج ما في الشيء من القوة إلى الفعل وإخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته فهو يستحق بالاستحقاق للسجود دون غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في سرائركم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فيجب الحذر من إشراكه غيره في العبادة سرّاً وعلانية، قرأ الكسائي وحفص بالتاء فيهما على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ بدل من الضمير أو خبر ثان الله، والجملة تعليل لاسجدوا يعني فهو المستحق للسجود لا غير.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ٨٢، والفتن باب ١٨، والترمذي في الفتن باب ٧٥، والنسائي في القضاة باب ٨.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ
عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ
قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ
إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم
بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ
صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن
يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا
يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا
كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ
عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد ﴿سَنَنظُرُ﴾ أي سنستعرف مشتق من النظر بمعنى التأمل ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ غير النظر ولم يقل أم كذبت للمبالغة (حيث جعلها منسلكاً في الكاذبين معدوداً فيهم ويلزمه كونها كاذباً البتة) ورعاية الفواصل. فدلهم الهدهد على الماء فاحتفروا الركايا وروى الناس والدواب، ثم كتب كتاباً من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين قال ابن جريج لم يزد سليمان على ما قص الله في كتابه، وقال قتادة كذلك الانبياء يكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون فلما كتب الكتاب وطبقه بالمسك وختمه بخاتمه قال للهدهد ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة[1] بإسكان الهاء وأبو جعفر[2] ويعقوب باختلاسها كسراً والباقون بإشباع الكسرة ﴿إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ﴾ أي تنح ﴿عَنْهُمْ﴾ مكان قريب ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وأخذ الهدهد الكتاب وأتى به بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء إلى ثلاثة أيام فوافاه في قصرها وقد غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية قفاها فألقى الكتاب على نحرها كذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٢) بخلاف عنه وقالون وهشام.

وابن أبي حاتم عن قتادة، وقال مقاتل حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها، وقال ابن منبه وابن زيد كانت كوة مستقبلة الشمس تقع فيها حين تطلع فإذا نظرت إليها سجدت لها فجاء الهدهد الكوة فسدها بجناحيه فارتفعت الشمس فلم تعلمها فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها، فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أن الّذي أرسل الكتاب أعظم ملكاً منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد فجاءت فقعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل، وقال ابن عباس كان مع بلقيس مائة ألف قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل الملك دون الملك الأعظم، وقال قتادة ومقاتل كان أهل مشورتها ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة الآف قال فجاؤوا فأخذوا مجالسهم.

﴿قَالَتْ﴾ لهم بلقيس ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ وهم أشراف الناس وكبراؤهم ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو محمد بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قال عطاء والضحاك سمته كريماً لأنه كان مختوماً قال رسول الله ﷺ: «كرامة الكتاب ختمه»[1] رواه الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس، وأخرج ابن مردويه في ﴿إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قال مختوم، وروي عن ابن جريج: كريم أي حسن وهو اختيار الزجاج، وروي عن ابن عباس كريم أي شريف لشرف صاحبه، قيل سمته كريماً لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به، وقيل سمته كريماً لكونه مصدراً ببسم الله الرحمن الرحيم ثم بينت عمن الكتاب فقالت ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الكتاب أو العنوان ﴿مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ثم بينت ما فيها فقالت ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي المكتوب أو المضمون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ أن مفسرة أو مصدرية وهو لصلته خبر محذوف أي هو أو المقصود أن لا تعلوا أو بدل من كتاب والمعنى لا تتكبروا ولا تمتنعوا من الإجابة فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو منقادين وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود لاشتماله على البسملة للدلالة على ذات الصانع وصفاته صريحاً والتزاماً والنهي عن الترفع الذي هي أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل وليس فيه الأمر بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلائل.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أي أشيروا إليَّ فيما عرض لي وأجيبوني فيما أشاوركم فيه، والفتيا والفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي حاكمة بأمر حكماً قطعياً يقطع اختيار المحكوم عليه ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي حتى تحضروني

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٩٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٩٢٩٥.

وتشيروني أو تشهدوا على كونه صواباً، جملة قالت مع ما في حيزها بدل اشتمال من قالت السابقة ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾ في القتال ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ عند الحرب، قال مقاتل أرادوا بالقوة كثرة العدد وبالبأس شدة الشجاعة. لما أن الاستشار منها دائراً بين الصلح والقتال وكان القتال أصعب الأمرين أجابوا بامتثال أمرها في القتال على خلاف ما قالت اليهود: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وهذا يدل على إجابة أمرها في الصلح بالطريق الأولى ولذلك خيروها في الأمرين حيث قالوا ﴿وَالْأَمْرُ﴾ في الصلح والقتال وفي كل شيء موكول ﴿إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ من المقاتلة والصلح، ما استفهامية والجملة بتأويل المفرد مفعول لانظري يعني فانظري وتأملي حتى يتعين لك أمرك الذي ينفعك نطيعك ونتبع رأيك ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ قهراً وعنوة ﴿أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم حتى يستقيم لهم أمرهما، حذرتهم من دخول سليمان عليهم قهراً ثم صرحت التحذير وقالت ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني سليمان وجنوده، وقيل هذا تأكيد لما وصف من حال الملوك وتقرير بأن ذلك من عادتهم الثابتة المستمرة وتصديق من الله لقولها، وفي هذا الكلام إشعار بأنها ترى الصلح أصلح.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ بيان لما يرى تقديمه في المصالحة والمعنى أني مرسلة إليهم رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي، والهدية اسم لما يهدى به كالعطية اسم لما يعطى، قال البغوي أرادت بلقيس بإرسال الهدية اختبار سليمان أملك هو أم نبي تعني إن كان ملكاً قبل الهدية وانصرف وإن كان نبياً لم يرض إلا بأتباعه على دينه ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ فأهدت إليه وصفاً ووصائف، قال ابن عباس ألبستهم لباساً واحداً لئلا يعرف ذكر من أنثى، وقال مجاهد ومقاتل ألبس الغلمان لباس الجواري وألبس الجواري لباس الغلمان. واختلفوا في عددهم قال ابن عباس مائة وصيف ومائة وصيفة، وقال مجاهد مائتي غلام ومائتي جارية، وقال سعيد بن جبير أرسلت إليه بلبنة في حرير وديباج، وقال ثابت البناني أهدت له صعاع الذهب في أوعية الديباج، وقيل كانت أربعة لبنات من ذهب، وقال وهب وغيره عمدت بلقيس إلى خمس مائة غلام وخمس مائة جارية فألبست الجواري لباس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجواري وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجمال وحملت الجواري على خمس مائة رمكة والغلمان على خمس مائة برذون على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملونة وبعثت إليه خمس مائة لبنة من فضة وتاجاً مكَلّلاً بالدُّر والياقوت المرتفع وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود الإلنجوج وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخوزة جزعية مثقوبة معوّجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل وكتبت معه كتاباً بنسخة الهدية وقالت إن كنت نبيّاً فميز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بما في الحقة قبل أن تفتحها واثقب الدرة ثقباً مستويّاً وأدخل خيط الخرزة المثقوبة

من غير علاج إنس ولا جن، وأمرت بلقيس الغلمان إذا تكلم لكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجواري أن تكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم قالت للرسول انظر إلى الرجل فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك ولا يهولنك منظره فأنا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً فاعلم أنه نبي مرسل فتفهم قوله ورد الجواب، فانطلق الرسل بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره كله فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنات الذهب والفضة ففعلوا ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسع فراسخ ميداناً واحداً لبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً مشرفها من الذهب والفضة ففعلوا، ثم قال أي الدواب أحسن ممّا رأيتم في البحر والبر؟ قالوا يا نبي الله إنا رأينا دواباً في بحر كذا منقطعة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص، قال عليّ بها الساعة فأتوا بها، قال شددوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة وألقوا علوفها، ثم قال للجن عليَّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقام على يمين الميدان ويساره ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثله عن يساره فأمر الشياطين أن يصفوا صفوفاً فراسخ عن يمينه ويساره، فلما دنا القوم ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها قط تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت أنفسهم ورموا ما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات أن سليمان لما أمر بفرش لبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر اللبنات التي معهم، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خالياً وكل الأرض معروضة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلمّا رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا فقال لهم الشياطين جوزوا فلا بأس عليكم فكانوا يمرُّون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير السباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان فنظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق قال ما وراءكم فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا به وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه فقال أين الحقة؟ فأتي بها فحركها وجاءه جبرئيل فأخبره بما في الحقة، فقال إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوجة الثقب، فقال الرسول صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخوزة، فقال سليمان من لي بثقبها فسأل سليمان الإنس ثم الجن فلم يكن عندهم علم بذلك، ثم سأل الشياطين فقالوا ترسل إلى الأرضة فأخذت شعرة في فيها فدخلته فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها ما حاجتك؟ فقالت تصير رزقي في الشجرة فقال لك ذلك. وروي أنها جاءت دودة في الصفصاف فقالت أنا أدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف فجعل لها ذلك فأخذت الخيط في فيها ودخلت في الثقب وخرجت من الجانب الآخر، فقال سليمان ما حاجتك قالت أن يجعل رزقي في الفواكه، قال لك ذلك ثم ميزّه بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعل على اليد الأخرى ثم تضرب بها الوجه والغلام كما يأخذ من الآنية يضرب به وجهه وكانت الجارية تصب على

باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد وكانت الجارية تصب صبّاً وكان الغلام يحدر الماء على يده حدراً فميَّز بينهن، ثم رد سليمان الهدية كما قال الله عزّ وجل هذا ما ذكره البغوي وهو مأخوذ من روايات مختلفة أخرج بعضها ابن أبي حاتم عن السديّ وبعضها ابن المنذر وابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ الرسول أو ما أهدت إليه ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ﴾ قرأ حمزة ويعقوب ﴿تمدوني﴾ بنون واحدة مشددة وإثبات ياء المتكلم في الحالين والباقون بنونين خفيفتين وأثبت ابن كثير الياء في الحالين وأثبتها في الوصل فقط نافع وأبو عمرو[١] والباقون يحذفونها في الحالين ﴿بِمَالٍ﴾ تنوين مال للتحقير والخطاب للرسول ومن معه أو للرسول والمرسل على تغليب المخاطب والاستفهام للإنكار يعني لا حاجة لي إلى إمدادكم إيّاي بالهدية ولا وقع لها عندي ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من الدين والنبوة والحكمة والملك لا مزيد عليه، قرأ قالون وحفص وأبو عمرو بخلاف[٢] عنهم بإثبات الباء مفتوحة في الوصل ساكنةً في الوقف وورش بالياء المفتوحة وصلاً وحذفها وقفاً والباقون بحذف الياء في الحالين[٣] ﴿خَيْرٌ﴾ أي أفضل ﴿مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ تطيل الإنكار المذكور ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما أهديتم حبّاً لزيادة أموالكم أو بما تهدونه إلى غيركم افتخاراً على أمثالكم إضراب عن مفهوم ما سبق من الإنكار يعني لا أفرح بل أنتم تفرحون وبيان لما حملهم عليه وهو قياس حاله على حالهم في قصور الهمة بالدنيا والزيادة فيها ثم قال للمنذر بن عمرو ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ ويعني إلى بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ جواب قسم محذوف والفاء للسببية ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقة ﴿لَهُم بِهَا﴾ أي مقاومتها الجملة صفة لجنود ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي من أرضهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي ذليلون تأكيد لقوله ﴿أَذِلَّةً﴾ وقيل أذلة ضد أعزة وذلك بذهاب عزهم وملكهم والصغار وقوعهم في الأسر يعني لنخرجنهم منها إن لم يأتوني مسلمين.

قال وهب وغيره أنه لما رجع رُسُل بلقيس إليها من عند سليمان، قالت قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة فبعثت إلى سليمان أني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر إليك وما تدعوننا إليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعل في آخر سبعة أبيات بعضها في بعضها أو في قصر من سبع قصور لها، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حرساً يحفظونه ثم قالت لمن خلفتْ على سلطانها احتفظ بما في قبلك وسرير ملكي لا يخلص إليه أحد ولا يرينه حتى آتيك، ثم أمرت منادياً ينادي في أهل مملكتها يؤذّنهم بالرحيل وشخصت إلى

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٢) وقفاً ـ أبو محمد ـ.

(٣) قرأ يعقوب وقفاً باثبات الياء الساكنة وقرأ إدريس وصلاً بفتح الياء وروح بالحذف ـ أبو محمد رحمه الله ـ.

سليمان في اثني عشر ألف، قيل من مملوك اليمن تحت يدي كل قيل ألوف كثيرة، قال ابن عباس كان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدا بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه فخرج يومه فجلس على سرير مملكته فرأى رهجاً[1] قريباً منه فقال ما هذا؟ قالوا بلقيس قد نزلت منها بهذا المكان وكان على مسيرة فرسخ من سليمان، قال ابن عباس وكان بين الحيرة والكوفة قدر فرسخ فأقبل سليمان حينئذ على جنوده ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ أراد ذلك أن يريها قدرة الله وعظم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فإنها إذا أتت مسلمة لم يحل أخذه إلا برضاها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ قال الضحاك هو الخبيث، وقال الفراء هو القويُّ الشديد، قال ابن قتيبة العفريت الموثق الخلق وأصله من العفر أي التراب، يقال عافره إذا صارعه فألقاه على العافر أي التراب ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال وهب اسمه لوذي وقيل ذكمان وقيل صخر الجني وكان بمنزلة الجبل يضع قدمه عند منتهى طرف ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي مجلسك الذي تقضي فيه، قال ابن عباس له كل غداة مجلس يقضي فيه إلى نصف النهار ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ على ما فيه من الجواهر، هذه الجملة حال من فاعل آتيك، قال سليمان أنا أريد أسرع من هذا ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن لهيعة أنه خضر وقال بعضهم هو جبرئيل عليه السلام وقيل هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان عليه السلام وقال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا وكان صدّيقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطي، روى جرير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس أن آصف قال لسليمان حين صلّى مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك فمدّ سليمان عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير تحت الأرض تخد خدّاً[2] حتى تخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان، وقال الكلبي خرَّ آصف ساجداً فدعا باسم الله الأعظم فمال عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان، قيل كانت مقدار شهرين واختلفوا في الدعاء الذي دعا به آصف فقال مجاهد ومقاتل يا ذا الجلال والإكرام، وقال الكلبي يا حي يا قيوم وروي ذلك عن عائشة رضي الله عنها وروي عن الزهري قال دعاء الذي عنده علم الكتاب يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها، وقد بحثنا عن اسم الله الأعظم في صدر سورة آل عمران وقول الزهري يوافق ما اخترتُ، وقال محمد بن المنكدر الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام نفسه آتاه الله علماً وفهماً فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وإن هذه الكرامة كانت بسببه والخطاب في ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعفريت كأنه أراد إظهار معجزة

---

(١) الغبار.

(٢) أي تشق الأرض ومنه الأخدود.

فتحداهم أولاً فلما قال عفريت ما قال استبطأه فقال له ذلك وأراد به أنه يتأتى له ما لا يتهيأ لعفاريت عن الحسن فضلاً عن غيرهم، والمراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة أو اللوح وآتيك في الموضعين صالح للفعلية والاسمية، والطرف تحريك الأجفان للنظر ولما كان الناظر يوصف بإرسال الطرف وصف بردّ الطرف والطرف بالارتداد والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن ترده أحضر عرشها وهذا غاية الإسراع ومُثّل فيه.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ سليمان معطوف على محذوف تقديره فأمره سليمان بالإتيان بالسرير فدعا باسم الله الأعظم فمال عرشها تحت الأرض فنبع عند سرير سليمان فلما رآه ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ﴾ شكراً للنعمة كما هو دأب المخلصين من عباد الله ﴿هَٰذَا﴾ أي التمكن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي بعض أفضاله على ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها أي فضل علي لأجل ابتلائي ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ نعمة فأراه فضلاً من الله من غير حولٍ ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجد نفسي أهلاً لها أو أقصر في أداء موجبه ومحلهما النصب على البدل من الضمير المنصوب في ليبلوني ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنه به يستحب دوام النعمة ومزيدها فإن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة وبه يفرغ ذمته عن الواجب ويرتفع درجته عند الله تعالى ويستحق أجراً في دار الجزاء، قال رسول الله ﷺ «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ورواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن سنان بن سنة بلفظ «الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر»(٢).

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ ينعم على الشاكر والكافر جواب الشرط محذوف أقيم دليله مقامه تقديره ومن كفر فلا يضر ربي لأنه غني كريم ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿نَكِّرُوا لَهَا﴾ أي لبلقيس ﴿عَرْشَهَا﴾ يعني اجعلوه بحيث لا تعرفها إذا رأت، روي أنه جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله وجعل مكان الجوهر الأحمر الأخضر ومكان الأخضر الأحمر ﴿نَنظُرْ﴾ مجذوم على جواب الأمر ﴿أَتَهْتَدِيٓ﴾ إلى معرفته أو للجواب الصواب ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وإنما حمل سليمان على ذلك (على ما ذكره كعب ووهب وغيرهما) أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن لأن أمها كانت جنيَّة وإذا ولدتْ ولداً لا ينفكون من تسخير ولده وذريته من بعده فأساءوا الثناء عليها ليزهدوه فيها وقالوا إن في عقلها شيئاً وإن رجليها كحافر الحمار وإنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدمها ببناء الصرح.

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة باب ٥٦، والترمذي في القيامة باب ٤٣، وابن ماجه في الصيام باب ٥٥، والدارمي في الأطعمة باب ٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٨٣، ٢٨٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الصيام باب ٥٥، وأحمد في المسند ٤/٣٤٣.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ عطف على قوله ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ وما بينهما معترضات ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ شبّه الأمر عليها زيادة في امتحان عقلها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ قال مقاتل عرفته ولكنها شبَّهت عليهم كما شبَّهوا عليها وقيل اشتبه الأمر عليها فلم تقل نعم ولا لا خوفاً من الكذب فعرف سليمان عقلها حيث لم تقر ولم تنكر، وقيل لها فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب والحرس فقالت ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بكمال قدرة الملك وصحة نبوة سليمان ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أي قبل آية العرش بآيات أخر من إلقاء هدهد الكتاب وأمر الهدية والرسل، وقيل إنه من كلام سليمان عليه السلام وقومه عطفه على جوابها لما فيه من الدلالة على إيمانها بالله تعالى ورسله، جوَّزت أن يكون ذلك عرشها تجويزاً غالباً وإحضاره ثمة من المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله ولا يظهر إلا على أيدي الأنبياء عليهم السلام والمعنى وأوتينا العلم بالله تعالى وقدرته وصحة ما جاء من عنده قبلها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لحكمه لم نزل على دينه ويكون غرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكراً له، وقيل معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله عزّ وجلّ ﴿وَصَدَّهَا﴾ أي منعها سليمان عليه السلام ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني عن عبادة الشمس فما في محل النصب بحذف حرف الجر وإيصال الفعل إليه، وقيل ما في محل الرفع والمعنى وصدَّها عن التوحيد ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لا نقصان عقلها كما قالت الجن إن في عقلها شيئاً ﴿كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ استئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم تعبد الشمس فنشأت فيهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس.

ثم أراد سليمان أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفها لما قالت الشياطين أن رجليها كحافر الحمار وهي شعراء الساقين، فأمر الشياطين أن يبنوا له صرحاً أي قصراً من زجاج وقيل بيتاً من زجاج كأنه الماء بياضاً، وقيل الصرح صحن الدار والحضري تحته الماء وألقي فيه كل شيء من دوابّ البحر السمك والضفادع وغيرهما، ثم وضع سريره على صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والإنس والجن، وقيل اتخذ صحناً من قوارير وجعل تحتها تماثيل الحيطان والضفادع فكان إذا رآه أحد ظنّه الماء فلما جلس على السرير دعا بلقيس فلما جاءت ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ عطف على محذوف تقديره فدخلته يعني من الباب ورأته أي الصرح بلا حجاب قبل ورودها فلما رأته ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ من ماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، قرأ قنبل عن ساقيها هاهنا وفي صٓ بالسؤق وفي الفتح على سؤقه بالهمزة في الثلاثة. والباقون بغير همزة. أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم في حديث طويل عن ابن عباس أن سليمان أمر قبل قدومها ببناء قصر صحنه من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقيها لتخوضه وتخلص إلى سليمان فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً إلا أنها شعراء الساقين فلمّا رأى سليمان ذلك صر بصره عنها ومن هاهنا يظهر أن النظر إلى الأجنبية على

إرادة خطبة النكاح جائز، قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»[1] رواه أبو داود عن جابر، وروى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي عن مغيرة بن شعبة قال خطبت امرأة فقال لي رسول الله ﷺ «هل نظرت إليها؟» قلت لا قال: «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»[2] ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي مملس ومنه الأمرد ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من زجاج ﴿قَالَتْ﴾ حين رأت المعجزة من سليمان ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالكفر وعبادة الشمس فتبت عنه الآن ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي أخلصت له التوحيد، وقيل إنها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت في نفسها إن سليمان يريد أن يغرقها وكان القتل أهون من هذا فقالت إني ظلمت نفسي بذلك الظن لسليمان عليه السلام فتبتُ عنه وأسلمتُ.

واختلفوا في أمرها بعد إسلامها؟ فقال عون بن عبد الله سأل رجل عبد الله بن عيينة هل تزوجها سليمان قال انتهى أمرها إلى قولها: «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» يعني لا علم لنا وراء ذلك، وقال بعضهم تزوجها أخرجه ابن عساكر عن عكرمة، ولما أراد أن يتزوجها كره ما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الإنس ما يذهب هذا؟ قالوا الموسى، فقالت المرأة لم تمسني حديدة قط، فكره سليمان الموسى وقال إنه يقطع فسأل الجن فقالوا لا ندري ثم سأل الشياطين فقالوا إنا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ، فلمّا تزوجها سليمان أحبها حبّاً شديداً فأقرها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعاً وحسناً وهي سلحون وسنون وعمدان، ثم كان سليمان يزورها كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها يقيم عندها ثلاثة أيام يبتكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام وولد له منها ذكر. وروي عن وهب قال زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان اختاري رجلاً من قومك أزوجكه قالت ومثلي يا نبي الله تنكح الرجال وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان، قال نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله لكِ فقالت زوجني إن كان لا بد ذلك من ذي تبع ملك همدان فزوجها إياه، ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها ذا تبع على اليمن ودعا رديعه أمير جن اليمن فقال اعمل لذي تبع ما استعملك فيه فلم تزل ملكاً يعمل له فيه ما أراد حتى مات سليمان فلما أن حال الحول وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة، حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يا معشر الجن إن ملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان. قلت: نظر سليمان إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح باب ١٨، والترمذي في النكاح باب ٥.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح باب ٥، والنسائي في النكاح باب ١٧، وابن ماجه في النكاح باب ٩، والدارمي في النكاح باب ٥، وأحمد في المسند ٤/ ٢٤٥، ٢٤٦.

ساق بلقيس يؤيد قول من قال إنه نكحها ويأبى قول من قال إنه أنكحها ذا تبع والله أعلم، قيل إن الملك وصل إلى سليمان وهو ابن ثلاث عشر سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة سبحان الله من لا زوال لملكه. (شعر):

لا مــلــك ســلــيــمــان ولا بــلــقــيــس
لا آدم فــي الــكــون ولا إبــلــيــس
والــكــل فــصــورة وأنــت الــمــعــنــى
يــا مــن هــو لــلــقــلــوب مــغــنــاطــيــس

والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن
مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ
مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ
لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ
أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا
تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ جواب قسم محذوف وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ وقوله صالحاً بدل من أخاهم ﴿أَنِ﴾ مفسرة لأرسلنا أو مصدرية بتقدير الباء أي بأن ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ صفة لفريقين أي ففاجرا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق والواو في يختصمون لمجموع الفريقين قال اختصامهم ما ذكر في سورة الأعراف ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [الأعراف: ٧٥] إلى قوله ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي بالعقوبة حيث تقولون ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي قبل التوبة حيث تؤخرونها إلى نزول العذاب الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة من كفركم قبل نزول العذاب ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لكي ترحموا بقبولها فإنها لا تقبل بعدما ترون العذاب ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي تشاءمنا بكم إذ وقع بيننا الافتراق حين اخترعتم ديناً أو تتابع علينا الشدائد وأمسك عنا المطر قالوا هذه الضراء والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ أي شؤمكم يعني سبب شؤمكم الذي جاء منه شر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قضاؤه أو عملكم المكتوب عنده، سمي القضاء طائراً لسرعة نزوله بالإنسان فإنه لا شيء أسرع من قضاء مختوم وسمى العمل طائراً لسرعة صعوده إلى السماء، وقال ابن عباس طائركم عند الله يعني شؤمكم أتاكم من عند الله لكفركم، وقيل سمى الشؤم طائراً لأن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بصوت الطائر ومروره على نهج معين معروف عندهم إذا سافروا المستعير لفظ الطائر للشؤم لذلك العرف ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ إضراب عن مفهوم الكلام السابق يعني ليس طائركم مني ومن أصحابي ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي تعذبون بكفركم كذا قال محمد بن كعب وقال ابن عباس تختبرون بالخير والشر نظيره قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة ثمود وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة أنفس وقع الرهط تميزاً للتسعة باعتبار المعنى فإن معناه الجماعة من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة كما أن النفر من الثلاثة إلى التسعة ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خبر لكان واسمه تسعة رهط وفي المدينة حال منه أو ظرف ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني كان شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح وهم أبناء أشرافهم الذين اتفقوا على عقر الناقة وهم غواة قوم صالح وأشقياؤهم وأشقاهم قدار بن سالف وهو الذي تولى عقرها ﴿قَالُوا۟﴾ استئناف أو حال بتقدير قد يعني قال بعضهم لبعض ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ يعني تحالفوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ هو أمر مقولة قالوا أو فعل ماضي وقع بدلاً من قالوا أو حال بإضمار قد من فاعل قالوا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي لنقتلن صالحاً بياتاً أي ليلاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أي قومه الذين أسلموا به ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ قرأ الأعمش وحمزة والكسائي ﴿لَتُبَيِّتُنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَتَقُولُنَّ﴾ بالتاء للخطاب فيما بينهم فيهما وضم التاء الثانية في الأولى وضم اللام في الثانية لدلالتها على الواو المحذوفة للجمع والباقون بالنون للتكلم وفتح التاء واللام ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ لولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ أي ما حضرنا ﴿مُهْلَكَ أَهْلِهِۦ﴾ قرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام من الإهلاك يحتمل المصدر والزمان والمكان وكذا على قراءة حفص بفتح الميم وكسر اللام من الهلاك فإن مفعلاً قد جاء مصدراً كمرجع وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ يعني ونحلفإنا لصادقون أو والحال إنا لصادقون فيما ذكر لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً أو لأنا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم كقولك ما رأيت ثم رجلاً بل رجلين.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ أي غدروا غدراً حيث قصدوا تبييت صالح ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بأن

جعلناها سبباً لإهلاكهم ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حال من فاعل مكرنا ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ عاقبة اسم كان وكيف خبره مقدم عليه لصدارته والاستفهام للتعجب، والجملة الاستفهامية بتأويل المفرد مفعول لأنظر ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ قرأ الكوفيون ويعقوب أنا بفتح الهمزة على أنه خبر بمبتدأ محذوف أو بدل من اسم كان خبر له وكيف حال أو التقدير لأنا دمرناهم والباقون بكسر الهمزة على الاستئناف وعلى هذا إن كان ناقصة فخبرها كيف وإن كان تامة فكيف حال ولا يجوز أن يكون انا دمرناهم خبر كان كان لعدم العائد. اختلفوا في كيفية إهلاكهم؟ قال ابن عباس أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلهم، وقال مقاتل حبسوا في سفح الجبل ينتظرون بعضهم ليأتوا دار صالح فجثم عليهم الجبل فأهلكهم الله تعالى، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال مكر الله بهم رماهم بصخرة فأخذتهم ﴿وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أهلكهم الله بالصيحة ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ أي خالية من خوى البطن إذا خلا أو ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط منصوب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ أي خاوية بسبب كفرهم وظلمهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما فعل بثمود ﴿لَأٓيَةً﴾ على كمال قدرتنا وصدق الأنبياء ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فيتعظون به ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ الكفر والمعاصي وهم صالح ومن معه وكانوا أربعة آلاف.

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه قوله ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ تقديره وأرسلنا لوطاً وجاز أن يكون منصوباً باذكر ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ ظرف لفعل مقدر وهو أذكر أو متعلق بأرسلنا على تقدير كونه عاملاً في لوطاً أو بدل من لوط على تقدير كونه منصوباً باذكر ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي الفعلة البالغة في القبح الاستفهام للإنكار والتوبيخ وكذا الاستفهام الثاني ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ أي تعلمون فحشها من بصر القبائح مع أن اقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح، وقيل معناه ويبصر بعضكم بعضاً فإنهم كانوا يعلنون بها ويفعلونها بمشهد القوم فيكون أفحش، أو المعنى وأنتم تبصرون آثار من قبلكم من العصاة وما نزل بهم ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ اللائي خلقن لذلك بيان لإتيانهم الفاحشة وشهوة منصوب على العلية للدلالة على قبحه والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل لاقتضاء الشهوة ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أي تفعلون فعل من يجهل بقبحها أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبح أو تجهلون العاقبة والتاء في تجهلون لكون الموصوف به في معنى المخاطب قيل اجتمع هاهنا الخطاب بقوله أنتم والغيبة بقوله قومٌ فغلب الخطاب على الغيبة. وهذه الآيات تدل على أن حسن الأفعال وقبحها ثابتة لها في أنفسها قبل ورود الشرع وإن كانت معرفة بعضها متوقفة على الشرع ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا أو عن الأقذار وجملة إنهم أناس في مقام التعليل للإخراج ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا﴾ أي قدرنا

كونها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أمر الله تعالى رسوله ﷺ بعدما قص عليه القصص الدالة على كمال قدرته وعظمة شأنه وما خص به رسله من الآيات والتشريفات أن يحمد الله على إهلاك الكفار من الأمم الخالية وعلى جميع نعمه وعلى إعلامه ما جهل من أحوالهم وأن يسلم على من اصطفاه من عباده عرفاناً بفضلهم وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين وقوله ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال مقاتل هم الأنبياء والمرسلون بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات: ١٨١] وقال ابن عباس في رواية مالك هم أصحاب محمد ﷺ، عن سفيان الثوري أنها نزلت في أصحاب محمد ﷺ وقال الكلبي هم أمة محمد ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] الآية، وقيل هم المؤمنون كلهم السابقون واللاحقون. وقيل هذا من تمام قصة لوط عليه السلام وخطاب للوط عليه السلام بتقدير القول، يعني وقلنا له قل الحمد لله الخ أمره بأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلّمُ على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة من الهلاك أو على محمد وأمته فإن ما وصل بالأنبياء والأمم من الكرامات ودفع البليّات كان ببركة نوره ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث»[1] رواه ابن سعد عن قتادة مرسلاً، وقال رسول الله ﷺ: «كنتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد»[2] رواه ابن سعد بسند صحيح عن ميسرة بن سعد عن أبي الجدعاء والطبراني عن ابن عباس ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ متصل بما سبق في صدر السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ إلى قوله ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وهذا إلزام وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم بعدما ذكر من القصص الدالة على قدرته تعالى على إكرام عباده الصالحين وكبت أعدائه يعني من هذا شأنه هو مستحق للعبادة والخوف والرجاء خَيرٌ من غيره أمّا يُشركون من الأصنام وغيرها مما لا يضر ولا ينفع ضره أقرب من نفعه خير من الله القادر القاهر لمن يعبد. قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب يشركون بالياء التحتانية على الغيبة والباقون بالتاء الفوقانية خطاباً لأهل مكة.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أم متصلة وما عطف عليه بأم محذوف تقديره آلهتكم التي لم يخلقوا شيئاً وهم يخلقون خير أم من خلق، وقيل منقطعة بمعنى بل والهمزة قيل للإضراب عن الاستفهام السابق لبداهة كون الله تعالى مبدأً لكل خير وعدم الخيرية رأساً فيما أشركوه فكيف يمكن الموازنة والاستفهام عنه والهمزة للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار بخيرية من خلق السماوات والأرض ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي لأجل انتفاعكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٩٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١٩١٦، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٣/ ٩١٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٠٩، وابن أبي شيبة في المصنف ١٤/ ٢٩٢، وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٩٥، ٧/ ٤١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١٩١٧، ٣٢١١٧.

مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي بساتين جمع حديقة، قال الفراء الحديقة البستان المحاط عليها فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة، قال البيضاوي من الإحداق وهو الإحاطة ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ أي حسن المنظر يبتهج به صفة لحدائق وإفراد بهجة لتأويل حدائق بجماعة حدائق، وفي الكلام التفات من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى والتنبيه على أن إثبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطبائع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره كما صرح بقوله ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما يمكن ﴿لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ أي شجرة من أشجارها والإضافة للجنس والجملة ما كان لكم الخ صفة لحدائق ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أعانه على ذلك الاستفهام للإنكار يعني ليس أحد أعانه على ذلك فلا مستحق للعبادة غيره معه لانفراده بالخلق ﴿بَلۡ هُمۡ﴾ يعني كفار مكة ﴿قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ من لا يخلق بمن يخلق فيشركون به أو المعنى بل هم قوم يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ بدل من ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل: ٦٠] الخ والكلام في أم في هذا وفي ما بعدها مثل ما سبق وجعلها قراراً إبداء بعضها من الماء وتسويتها بحيث يمكن الاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ وسطها ظرف مستقر وقع ثاني مفعول جعل وكذا في الجملة التاليتين ﴿أَنۡهَٰرٗا﴾ جارية ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي للأرض ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثابتة منعها من الحركة وأنبع منها الأنهار ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ العذب والملح ﴿حَاجِزًاۗ﴾ مانعاً من الاختلاط ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ ليس كذلك ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنه لا إله إلا هو لإهمالهم النظر الصحيح مع الأدلة القاطعة فيشركون به جهلاً وبعضهم يعلمون ذلك ولكن ينكرونه تعنتاً وعناداً.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ اسم فاعل من الاضطرار وهو افتعال من الضر يعني من ابتلى بضر أحوجه شدته إلى إلجاء إلى الله تعالى يجيبه ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ بفضله إن شاء فإن اللام في المضطر للجنس دون الاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر ﴿وَيَكۡشِفُ﴾ أي يدفع ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ الذي ألجأه إلى الدعاء ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ﴾ عطف على يجيب ﴿خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي خلفاء من قبلكم في الأرض بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها أو سلطانها، وقيل يعني جعلكم خلفاء الجن في الأرض قلت ويمكن أن يقال معناه جعل منكم خلفاء الله تعالى في أرضه بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ الذي خلقكم بهذه النعم العامة والخاصة يعني ليس كذلك ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ إلاء الله ما مزيدة وقليلاً منصوب بتذكرون على المصدرية أو على الظرفية والمراد بالقلة العدم أو الحقارة المربحة للفائدة قرأ أبو عمرو وهشام يذكرون بالياء للغيبة والباقون بالتاء للخطاب وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتخفيف الذال والباقون بتشديدها.

﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ﴾ بالنجوم وعلامات الأرض ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ إذا سافرتم في الليالي أضاف الظلمات إلى البحر والبر للملابسة ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ﴾ يعني المطر ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ يقدر مثل ذلك ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ القادر الخالق ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عن إشراك العاجز المخلوق.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الإماتة والكفار وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها من النقل المشهود عليه بالمعجزات مع إمكانها عقلاً ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي من أسباب سماوية وأسباب أرضية ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يقدر على ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على أن مع الله إلهاً آخر يقدر على شيء من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الإشراك فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ
فِي ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا
لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي
ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا
يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا
تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا
فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ
لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾
وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ
﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى
ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ
كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن
ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٩٣﴾﴾.

قال البغوي ولمّا سأل المشركون النبيّ ﷺ عن وقت قيام الساعة نزلت ﴿قُل﴾ يا محمد في جوابهم ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس ومنهم الأنبياء عليهم السلام من موصول أو موصوف ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ يعني ما غاب عن مشاعرهم ولم يقم عليه دليل عقلي ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لكن الله يعلم ما غاب عنهم وغيره تعالى لا يعلم إلا بإعلامه فالاستثناء منقطع لأنه تعالى منزه عن الاستقرار في السماوات والأرض

ورفعه على لغة بني تميم فإنهم يجيزون النصب والمبدل في المنقطع كما في المتصل وعليه قول الشاعر. (شعر)[١]:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيسُ

وقيل الاستثناء متصل ودخول المستثنى في المستثنى منه على سبيل فرض المحال وفرض المحال ليس بمحال، وقال في البحر المواج المستثنى منه محذوف وفي الكلام حذف تقديره لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب لا يعلمه أحد إلا الله فهذه الجملة تعليل لنفي العلم، قلت ويمكن أن يكون التقدير لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب بشيء إلا بالله أي بتعليمه ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي متى يحشرون يعني وقت حشرهم مما لا يدرك بالمشاعر فهو من الغيب الذي لا يمكن العلم به والاطلاع عليه إلا بتعليم من الله تعالى وأنه تعالى لم يطلع على ذلك أحداً بل استأثر علمه لنفسه فلا يتصور لهم العلم به، وهذا تخصيص بعد تعميم وفائدته التأكيد ومطابقة الجواب السؤال وحتم احتمال التخصيص فإن قوله تعالى لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب يفيد نفي علمهم بالغيب وذلك مخصوص بما حصل لهم بتعليم من الله تعالى بتوسط الرسل.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ كذا قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو[٢] بهمزة القطع على وزن أكرم من الأفعال أي بلغ ولحق ﴿عِلْمُهُمْ﴾ فاعل لادّارك ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ظرف لادرك والمفعول محذوف دل عليه ما سبق والمعنى أنهم لا يدركون وقت قيام الساعة في الدنيا قط بل يدرك علمهم ذلك في الآخرة إذا عاينوه، أو المعنى بل أدرك علمهم اليوم بتعليم الرسل ﷺ إياهم في شأن الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] لكنهم لا يعلمون وقت مجيئها، وقرأ الباقون بل ادَّرك أصله تدارك يعني تدارك وتكامل علمهم وحصل لهم اليوم بتعليم الرسول ﷺ في شأن الآخرة أو يحصل لهم العلم بذلك إذا عاينوه يقال تدارك الفاكهة إذا تكاملت نضجاً وحصول العلم القطعي للمؤمنين في الدنيا ظاهر وللكافرين باعتبار قيام الأدلة الموجبة للقطع مقامه ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي من قيام الساعة بعد وجود ما يوجب القطع من إخبار الرسول الله ﷺ المؤيد بالمعجزات، وقيل قوله بل ادارك على طريقة الاستفهام معناه هل تدارك وتتابع علمهم في الآخرة يعني لم يتتابع وضل وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد، يدل هذا التأويل قراءة ابن عباس بلى بإثبات الألف المكتوب بصورة الياء ادارك بفتح الهمزة للاستفهام وسقوط همزة الوصل أي لم يدرك وفي قراءة أبي أم تدارك علمهم والعرب يضع بل موضع أم وأم موضع بل، وذكر علي بن عيسى وإسحاق أن بل في

---

(١) الرجز لجران العود في ديوانه ص ٩٧، وخزانة الأدب ١٠/ ١٥ ـ ١٨، والكتاب ١/ ٢٦٣، ومجالس ثعلب ص ٤٥٢.

(٢) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

بل ادارك بمعنى لو والمعنى لو أدركوا في الدنيا ما أدركوه في الآخرة لم يشكوا بل هم اليوم في شك من الساعة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ أي من الساعة ﴿عَمُونَ﴾ جمع عمى وهو عمى القلب نفى الله عنهم علم الغيب أولاً ثم أكّد ذلك بنفي شعورهم بما هو مالهم لا محالة ثم بالغ فيه بأن أضرب عنه وبيّن أن منتهى علمهم وما تكامل فيه أسباب العلم من الحجج والآيات مقصور على أن القيامة كائنة لا محالة وهم لا يعلمونها كما ينبغي ثم أضرب عنه وقال ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ بعد تكامل الأدلة كمن يتحير في أمر لا يجد عليه دليلاً فهم لا يستطيعون إزالة الشك ثم أضرب عنه وقال بل هم في أمره حال منه فإنهم عمون لا يدركون دليلهم لاختلال بصيرتهم وهذا أوان اختص بالمشركين فمن في السماوات والأرض نسب إلى جميعهم كما يسند فعل البعض إلى الكل، وقيل الإضراب الأول عن نفي الشعور بوقت القيامة عنهم بوضعهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً، وقيل أدرك بمعنى انتهى واضمحل من قولهم أدرك الثمرة لأنها تلك غايتها التي عندها يعدم وما بعدها إضراب عن علمهم بأمر الآخرة مبالغة في نفيه ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها ثم أضرب عنه وقال ﴿هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ ليس لهم صلاحية العلم أصلاً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عطف على مضمون قوله تعالى بل هم منها عمون وكالبيان له، وضع المظهر هاهنا موضع الضمير ولم يقل وقالوا لكون ذكر الكافرين مجملاً فيما سبق ﴿أَءِذَا﴾ قرأ نافع[1] إذا بغير همزة الاستفهام على صيغة الخبر وهمزة الاستفهام على هذا مقدرة والباقون بهمزتين على الاستفهام ﴿كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بنونين أحدهما للوقاية وبهمزة واحدة على صيغة الخبر وتقدير همزة الاستفهام والباقون بنون واحدة وهمزتين على الاستفهام وضمير ائنا راجع إليهم وإلى آبائهم غلبت الحكاية على الغائب ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياء ومن حال الموت إلى الحياة وهذا كالبيان لعمههم والعامل في إذا محذوف دل عليه مخرجون تقديره أنخرج إذا كنا تراباً أنحن مخرجون حينئذ والاستفهام الإنكار، والجملة الاستفهامية الثانية تأكيد للأولى تكرير للإنكار مبالغة له ولا يجوز أن يكون مخرجون عاملاً في إذا لأن كلاً من الهمزة وأنَّ واللام مانعة من عمله فيما قبله ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي البعث جواب قسم محذوف ﴿نَحْنُ﴾ على لسان محمد ﷺ ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ على لسان غيره من الأنبياء ﴿مِن قَبْلُ﴾ وعد محمد ﷺ وتقديم هذا على نحن هاهنا لأن المقصود بالذكر هاهنا هو البعث وحيث أخّر فالمقصود هو المبعوث ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها كالأسمار ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم والتعبير عنهم بالمجرمين ليكون لطفاً بالمؤمنين في ترك الجرائم ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على تكذيبهم وإعراضهم ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ قرأ ابن

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

كثير بكسر الضاد والباقون بالفتح وهما لغتان يعني لا تكن في ضيق صدر وغم ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من للسببية وما مصدرية أي بسبب مكرهم قال البغوي نزلت في المستهزئين الّذين عقاب مكة يعني أن الله بالغ أمرك إلى الكمال.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على قال الذين كفروا وما بينهما معترضات ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي الموعود من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي ردفكم واللام مزيدة للتأكيد يعني عسى أن يتبعكم ويلحقكم بلا مهلة ﴿بَعْضُ﴾ تنازع فيه الفعلان يكون وترون أعمل أحدهما وأضمر في الآخر ﴿ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حلوله وهو عذاب يوم بدر، قال البيضاوي عسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يطلقونه إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمزة منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله ووعيده، وهذا المعنى قول من قال إن عسى ولعل في كلام الله واجبة الوقوع يعني وأما في الوعيد فيجوز العفو بشرط الإيمان وأما الكافر فلا يستحق العفو وقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤] ليس من هذا الباب ومن ثم لم يوجد من فرعون تذكر ولا خشية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فيغفر للمؤمن إن شاء ولا يستعجل الكافر بالعذاب وكذلك لم يعجل على أهل مكة بالعذاب كذا قال مقاتل هذه الجملة إما حال أو معترضة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولا يعرفون حق النعمة فيستعجلون العذاب مجملهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفي صدور الناس ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي الناس من عداوتك فيجازيهم عليه وليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، وهذه الجملة معطوفة على عسى فإن عسى في كلام الله كالتحقق ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ اسم ما ومن زائدة أي ما من شيء غائب عن أبصار الناس وهي من الصفات الغالبة كالخافية والتاء فيهما للمبالغة كما في الرواية أو اسمان لما يغيب ويختفي فالتاء فيه كالتاء في عافية وعاقبة، وقال البغوي هي صفة لمحذوف أي جملة غائبة من مكتوم سر وخفي أمر وشيء غائب كائنة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لغو متعلق بغائبة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مستثنى مفرغ خبر ما أي بين أو مبين ما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي يبيّن لهم ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين قال الكلبي إن أهل الكتاب اختلفوا بينهم وصاروا أحزاباً يطعن بعضهم فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، هذه الجملة مع ما عطف عليه متصل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦] واقعة عنها مقام التعليل وما بينهما معترضات ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم هم المنتفعون به دون الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى﴾ أي يحكم ﴿بَيْنَهُم﴾ أي بين المختلفين في أمر الدين يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ متعلق بيقضي. فإن قيل قوله يقضي معناه يحكم فكيف يتعلق به بحكمه فإنه نظير ينصره بنصره وذا لا يجوز؟ قلنا المراد الحكم هذا بمعنى المحكوم والمعنى يحكم بما حكم به في القرآن أو المراد بحكمته ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لارادَّ لقضائه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضي فيه وحكمته.﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تبال بمن عاداك متصل بقوله

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ البين حقيقة علل التوكل بأنه على الحق الظاهر الذي لا مساغ فيه، إشارة إلى أن صاحب الحق حقيق بالوثوق على الله ونصره ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الكفار شبههم بالموتى لعدم الانتفاع لهم بتسامع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالأصم في قوله تعالى ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ والدعاء مفعول للفعلين على التنازع قرأ ابن كثير ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ بالياء وفتحها وفتح الميم على صيغة الغائب من المجرد والصُّمُّ بالرفع على الفاعلية وكذلك في سورة الروم والباقون بالتاء وضمها وكسر الميم على صيغة المخاطب من الاستماع ونصب الصُّمَّ على المفعولية ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ فإن قيل ما معنى لهذا القيد فإن الأصم الذي لا يسمع سواء عليه أن يولى أولا قيل ذكره على التأكيد والمبالغة وقيل الأصم إذا كان حاضراً قد يسمع برفع الصوت أو يفهم بالإشارة أو الكتابة فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم رأساً يعني أن الكفار لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الّذي لا سبيل إلى استماعه وكالأصم المدبر الذي لا سبيل إلى إفهامه، قيل الظرف متعلق بالفعلين على سبيل التنازع ويرد عليه أن نسبة التولي إلى الأصم جائز وإلى الموتى لا يجوز فكيف يتصدى التنازع والجواب أن الموتى والأصم كلاً منهما مستعار للكافر وهو من أهل التولي، ويسمي هذه الاستعارة استعارة مجرورة وهي أن يوصف المستعار بوصف ملائم للمستعار له والله أعلم.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ﴾ قرأ الأعمش وحمزة هاهنا وفي الروم تهدي بالتاء المفتوحة وإسكان الهاء بغير ألف على صيغة المضارع والعمي بالنصب وإذا وقف أثبت ياء تهدى في السورتين والباقون بالياء المكسورة وصيغة اسم الفاعل مضافاً والعمي بالياء وقفوا هاهنا بالياء وفي الروم بغير ياء اتباعاً للمصحف ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ يعني ما أنت بمرشد من أعمى الله قلبه عن الإيمان ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ يعني لا تسمع ولا ينفع إسماعك القرآن أحداً ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني من قدّرنا إيمانه ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون من أسلم وجهه لله.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني إذا دنا وقوع معنى ما قيل عليهم أي ما وعدوا به من البعث والعذاب ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ قال البغوي روي عن علي رضي الله عنه ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير إلى أنه رجل والأكثر على أنها دابة ذات أربع قوائم، أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال الدابة ذات وبر وريش مؤلفة فيها من كل لون لها أربع قوائم ثم يخرج بعقب من الحاج، وروى عن جريح عن أبي الزبير أنه وصف الدابة فقال رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير وأذنها أذن الفيل قرنها قرن إبل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثني عشر ذراعاً معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء يضيء بها وجهه ولا يبقى كافر إلا نكتت وجهه بخاتم سليمان نكتة سوداء فيسود بها وجهه حتى أن الناس يتبايعون في الأسواق بكم يا مؤمن بكم يا كافر ثم تقول لهم الدابة يا فلان أنت من أهل الجنة يا فلان أنت من أهل النار وذلك قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بأخرجنا، روى البغوي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال تخرج من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثاً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه

قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إن الدابة تسمع قرع عصاي، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال تخرج الدابة من شعب فيمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض ما خرجتا فتمرّ بالإنسان يصلي فتقول ما الصلاة من حاجتك فتخطمه.

وذكر البغوي حديث أبي شريحة الأنصاري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «تكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً باليمن فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم بينا الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عزَّ وجل يعني المسجد الحرام لم تر عنهم إلا هو في ناحية المسجد يدنو ويدنو كذا قال عمرو ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم في وسط من ذلك ـ فارفض الناس عنها وثبت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرّت بهم فجلّت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم دكت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى أن الرجل ليقوم فيعود منها بالصلاة فيأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلّي فتقبل بوجهه وتسمه في وجهه فتجاوز الناس في ديارهم وتصطحبون في أسفارهم وتشتركون في الأموال ويعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر»(١) وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال ذكر رسول الله ﷺ الدابة قلت يا رسول الله من أين تخرج؟ قال: «من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى بينهما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وتنشق الصفا مما يلي المشرق وتخرج الدابة من الصفا أول ما يبدو منها رأسها بلمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب وتسم الناس مؤمناً وكافراً أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري ونكتت بين عينيه مؤمن وأما الكافر فنكتت بين عينيه نكتة سوداء ونكتت بين عينيه كافر»(٢) رواه البغوي وكذا أخرج ابن جرير، وروى البغوي عن سهل بن صالح عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: «بئس الشعب شعب جياد مرتين أو ثلاثاً»، قيل ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: «تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها بين الخافقين قال وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون»(٣).

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ صفة لدابة يعني تكلم الدابة الناس، قال السديُّ تكلم ببطلان سائر الأديان سوى دين الإسلام، وقال بعضهم كلامها أن تقول لواحد هذا مؤمن ولآخر هذا كافر كما مرَّ في الأحاديث، وقيل كلامها ما قال الله تعالى ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ قال

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٨٤، والبغوي في تفسيره ٥/ ١٥٧، والبخاري في التاريخ الكبير ٢/ ١٨٣.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٨، والطبري في تفسيره ٢٠/ ١١، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ١١٦، والبغوي في تفسيره ٥/ ١٥٨.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١١٧، والبغوي في تفسيره ٥/ ١٥٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٨٨٨٠.

مقاتل تكلمهم بالعربية فتقول عن الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث. قرأ الكوفيون أن بالفتح وهو حكاية عن قول الدابة أو على تقدير الجار تقديره بأن أو حكاية قول الله الذي قيل عليه ودنا وقوعه أو علة خروجها على حذف اللام على قول غيره، وقرأ الآخرون إن بالكسر على الاستئناف أي إنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها، قيل أراد بآياتنا خروجها أي خروج دابة الأرض وسائر أشراط الساعة وأحوالها فإنها من آيات الله تعالى، قال البغوي قرأ ابن جبير وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي تكلم بفتح التاء وتخفيف اللام من الكلم بمعنى الجرح، وقال ابن الحوراء سألتُ ابن عباس عن هذه الآية تكلمهم أو تكلمهم فقال كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر قال ابن عمر رضي الله عنهما وذلك يعني خروج الدابة حين لا يؤمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر قال الشيخ جلال الدين المحلى ومن خروج الدابة ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يؤمن كافر بعد ذلك كما أوحى الله إلى نوح ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] قلت وهذا يستنبط من الأحاديث والآثار.

فصل

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستّاً الدخان والدجال ودابّة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم»(١) رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابّة على النّاس ضحًى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً»(٢) رواه مسلم، وعن حذيفة بن أسد الغفار قال: «اطلع النبيّ ﷺ ونحن نتذاكر فقال «ما تذكرون»؟ قالوا نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدَّابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، وفي روايةٍ نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى الحشر، وفي رواية «في العاشرة وريح يلقى الناس في البحر»(٣) رواه مسلم، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تخرج الدّابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا... يا كافر»(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه، عن أبي

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١٢٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣٢٤، ٣٣٧، ٤٠٧، ٥١١.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١١٨.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن حديث ٣٩، ٤٠، وأبو داود في الملاحم باب ١٢، والترمذي في الفتن ٢١، وابن ماجه في الفتن باب ٢٨، وأحمد في المسند ٤/ ٦، ٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب ٣١، وأحمد في المسند ٢/ ٤٩١.

أمامة عن النبيّ ﷺ قال: «تخرج الدابّة فتسم الناس على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابّة فيقال ممّن اشتريت فيقول من الرجل المختم»(١) رواه أحمد، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال تخرج الدابّة ليلة جمع والناس يشيرون إلى منى، وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يريه الدّابة فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن يذهب في السماء لا يرى واحد من طرفيها قال فرأى منظراً فظيعاً فقال رب ردها فردها. قلت: والأحاديث المذكورة تدل على أن الدابّة تميّز بين المؤمنين الصادقين في إيمانهم وبين المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر والمراد بالكفر إما ضد الإسلام المجازي الذي قلوب أهاليهم غير مصدقة بما جاء به النبيّ ﷺ وإما ضد الإسلام الحقيقي الّذي قلوب أهاليهم وافقت ألسنتهم في التصديق لكن لم تؤمن نفوسهم ولم تطمئن، فإن كان المراد بالكافر هذا المعنى فقول الدَّابة يا فلان أنت من أهل النار يراد به دخولها لا خلودها ولا يجوز أن يكون المراد بالكفر المجاهر بالكفر لأن المجاهر بالكفر لم يبق بمكة بعد الفتح، وأيضاً المجاهر بالكفر ممتاز عن المسلمين قبل خروج الدابّة لا حاجة في امتيازهم إلى الدابّة والله أعلم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ يعني يوم القيامة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي من كل قرن جماعة كلمة من هاهنا للتبعيض وفوجاً مفعول لنحشر ومن كل أمة حال منه، قلتُ وذلك حين يقول الله تعالى: لآدم ابعث بعث النار من ذريتك وقد مرّ الحديث في صدر سورة الحج، ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ صفة لفوج ومن هاهنا للبيان أي فوجاً مكذبين ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، قال البيضاوي هو عبارة عن كثرة عددهم وتباعد أطرافهم ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية داخلة على الشرطية ﴿إِذَا جَآءُو﴾ إلى المحشر ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ الاستفهام للتوبيخ ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال يعني أكذبتم بها بادىء الرأي غير ناظرين فيها نظراً يحيط علمكم بكنهها وإنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب أو للعطف يعني أجمعتم بين التكذيب بها وعدم النظر والتأمل في حقيقتها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقديره أم لم تكذبوا فإن لم تكذبوا فماذا كنتم، يعني أيّ شيء كنتم تعملون غير التكذيب وهذا أيضاً توبيخ وتبكيت إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا ذلك ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ عطف على قال في حيز جزاء الشرط أي وجب عليهم العذاب الموعود لهم ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي بسبب ظلمهم أي تكذيبهم بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ باعتذار إذ ليس لهم عذر في نفس الأمر أو لما لا يؤذن لهم فيعتذرون، وقيل لا ينطقون لأن أفواههم مختومة.

وقيل لا ينطقون لشغلهم بالعذاب والظاهر هو الأول يدل عليه قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني كيف يعتذرون على الكفر بعد رؤية الأدلة الموجبة للإيمان والاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات يعني قد رأوا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي خلقنا ﴿ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ بالنوم والقرار ﴿وَٱلنَّهَارَ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٦٨.

﴿مُبۡصِرًا﴾ كان أصله ليبصروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المجعول عليه بحيث لا ينفك عنه وجملة ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ قائم مقام المفعولين لقوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡا﴾ فإن الرؤية بمعنى العلم يعني ألم يعلموا بتعاقب النور والظلمة على وجه مخصوصٍ نافعٍ مناطٍ لمصالح معاشهم ومعادهم إنَّ لها خالقاً حليماً قادراً قاهراً.

وإن من كان قادراً على ذلك قادر على بعثة الرسل ليدعوا الخلق إلى عبادته وقادر على الإنعام والانتقام على إطاعته وعصيانه وقادر على إبدال الموت بالحياة كما هو قادر على إبدال الظلمة بالنور واليقظة بالنوم وقد دلت المعجزات على صدق الرسل وما جاؤوا به ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأمور ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دالة على التوحيد وصدق الرسول فأيّ عذر للمكذب بعده وقيد ثبوت الآيات بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها، قيل جملة ألم يروا إلى آخرها دليل للحشر فإن تعاقب اليقظة النوم يدل على جواز تعاقب الحياة الموت.

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ معطوف على قوله ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ﴾ وعن ابن عمر أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عن الصور قال: «قرن ينفخ فيه»[(١)] رواه أبو داود والترمذي وحسَّنه والنسائي وابن حبان والحاكم وعن ابن مسعود نحوه رواه مسدد بسند صحيح، وعن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وأحنى جبهته وأصغىٰ بالسمع متى يؤمر» فسمع بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فشق عليهم فقال رسول الله ﷺ، «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل»[(٢)].

وروى أحمد والحاكم والبيهقي والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه نحوه والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد نحوه وأبو نعيم عن جابر نحوه، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره وهو صاحب الصور يعني إسرافيل»[(٣)] قال القرطبي علماء الأمم مجمعون على أن ينفخ في الصور إسرافيل ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وأرواح المؤمنين ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الإنس اختلف العلماء في هذه النفخة هل هي الصعق أو غير ذلك فقيل النفخات ثلاث أولها نفخة الفزع تفزع منها الخلائق ثانيها نفخة الصعق تصعق أي تموت بها الخلائق ثالثتها نفخة البعث، فهذه الآية تدل على نفخة الفزع.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: ٦٨] تدل على نفخة الصعق ونفخة البعث وهذا

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٣٩، باب ٨، ٦٨، والقيامة باب ٨، والدارمي في الرقاق باب ٧٩، وأحمد في المسند ٢/ ١٢٦، ١٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٨، وتفسير سورة ٣٩، باب ٧، وأحمد في المسند ١/ ٣٢٦، ٣/ ٧، ٤/ ٣٧٤.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٦٤.

اختيار ابن العربي، وقد صُرّحَ بالنفخات الثلاث في حديث طويل لأبي هريرة وسنذكره من قريب، وقيل هما نفختان فقط ونفخة الفزع هي نفخة الصعق قالوا الأمران متلازمان أي فزعوا فزعاً ماتوا منه وهذا ما صححه القرطبي واستدل بأنه استثنى من نفخة الفزع كما استثنى من نفخة الصعق حيث قال الله تعالى فيهما: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فدلّ على أنهما واحد، وهذا الاستدلال غير صحيح لأن الاستثناء منهما بقوله إلا ما شاء الله لا يدل على اتحاد النفختين ولا على اتحاد المستثنى فيهما وإن كان المستثنى منه في الكلامين واحد.

قال البغوي واختلفوا في هذا الاستثناء، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ «سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قال: «هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع إليهم»[(١)].

ثم ذكر البغوي قول الكلبي ومقاتل وذكر الحديث كما سنذكر من بعد لكن قول البغوي بالاختلاف في هذه الآية مبني على اتحاد نفخة الفزع ونفخة الصعق والظاهر أنهما متغايران. فلنذكر الأحاديث والآثار الواردة في الاستثناء.

روى أبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «سألتُ جبرئيل عن هذه الآية ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ من الّذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه»[(٢)] قالوا وإنما صح استثناء الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم، قال البغوي: وفي بعض الآثار الشهداء ثنية الله عزّ وجل أي الذين استثناهم الله تعالى كذا روى هناد بن السري والبيهقي والنحاس في معاني القرآن عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قال هم الشهداء مقلدون السيوف حول العرش، وقال الكلبي ومقاتل يعني جبرئيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام وذلك لما أخرج الفريابي في تفسيره عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله»، قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله؟ قال «جبرئيل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش فإذا قبض الله أرواح الخلائق قال لملك الموت من بقي؟ قال سبحانك ربي تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام بقي جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، فيقول خذ نفس إسرافيل فيأخذ نفس إسرافيل، فيقول يا ملك الموت من بقي؟ فيقول سبحانك تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام بقي جبرئيل وميكائيل وملك الموت، فيقول خذ نفس ميكائيل فيأخذ نفس ميكائيل فيقع كالطود العظيم، فيقول يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي جبرائيل وملك الموت فيقول مت يا ملك الموت فيموت، فيقول يا جبرائيل من بقي فيقول وجهك الكريم الباقي الدائم وجبرائيل الميت الفاني قال فلا بد من موتة فيقع ساجداً يخفق

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية ٣٧٢١.

جناحيه»، قال رسول الله ﷺ: «إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم على ظرب من الظراب»[١] وأخرج البيهقي عن أنس رفعه في قوله: «فنفخ في الصور» الآية قال فكان ممن استثنى الله ثلاثة جبرائيل وميكائيل وملك الموت فيقول الله وهو أعلم يا ملك الموت من بقي؟ فيقول وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرائيل وميكائيل وملك الموت فيقول: توف نفس ميكائيل فيقول وهو أعلم من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرائيل وملك الموت، فيقول توف نفس جبرائيل ثم يقول: وهو أعلم يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك ملك الموت وهو ميت، فيقول: مت ثم يقول أنا بدأت الخلق ثم أعيده فأين الجبارون المتكبرون فلا يجيبه أحد ثم ينادي لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيقول هو الله الواحد القهار ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام تنظرون.

وأخرج البيهقي عن زيد بن أسلم قال الذي استثنى اثنا عشر جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش ثمانية، وقال البغوي يروى أنه يقبض روح جبرائيل وميكائيل ثم روح حملة العرش ثم روح إسرافيل ثم روح ملك الموت، وأخرج البيهقي عن مقاتل بن سليمان يقبض روح ميكائيل ثم روح جبرائيل ثم روح إسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت.

وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن وهب قال هؤلاء الأربعة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت أول من خلقهم الله وآخر من يميتهم وأول من يحييهم هُم المدبرات أمراً والمقسمات أمراً قال السيوطي لا تنافي بين هذه الروايات يعني روايات الاستثناء لإمكان الجمع بأن الجميع من المستثنى.

قلت: الأحاديث والآثار المذكورة كلها واردة في بيان الاستثناء الواقع في نفخة الصعق لا ما وقع في نفخة الفزع، وعندي المستثنى في نفخة الفزع ما دل عليه قوله تعالى فيما بعد: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣] فإنه نص في أن المؤمنين الذين لا يدخلون النار ويدخلون الجنة لا يلحقهم الفزع لكن عند نفخة الفزع لا يكون من الناس إلا الكفار لقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على الأشرار»[٢] رواه أحمد ومسلم عن ابن مسعود، وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»[٣]. رواه أحمد ومسلم عن ابن مسعود وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت»[٤].

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١٣١، وأحمد في المسند ١/ ٣٩٤، ٤٣٥.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٣٤، والترمذي في الفتن حديث ٢٢٠٧، وأحمد في المسند ٣/ ١٠٧، ٢٠١، ٢٦٨.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٥٣، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٥٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٨٤٨٨.

وراه عبد الرزاق في الجامع وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن والقرآن»[١] رواه السنجري عن ابن عمر ويدل على ذلك غيرها من الأحاديث ولهذا حمل رسول الله ﷺ المستثنى على أرواح الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم وأما الملائكة وأرواح الأنبياء عليهم السلام فهم أيضاً داخلون في المستثنى ولا يفزعون البتة والله أعلم.

روى ابن جرير في تفسيره والطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وأبو موسى المديني في المطولات وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والعصيان وعبد بن حميد وأبو الشيخ في كتاب العظمة حديثاً طويلاً عن أبي هريرة ذكر فيه: «فينفخ ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول الله انفخ نفخة الفزع فينفخ فيفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله، إلى أن قال فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي أقطار الأرض فتتلقاهم الملائكة فتضرب وجوهها فترجع وتولى الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً والذي يقول الله يوم التّناد إلى أن قال قال رسول الله ﷺ: «والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك قلت يا رسول الله فمن استثنى الله في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قال: أولئك الشهداء وإنما يصل الفزع إلى الأحياء وهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ وقاهم الله من فزع ذلك اليوم وآمنهم منه وهو عذاب يبعثه على أشرار خلقه يقول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] الآية فيمكثون في ذلك ما شاء الله ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فصعق أهل السمٰوات والأرض إلا من شاء الله فيقول ملك الموت قد مات أهل السماوات والأرض إلا من شئت فيقول وهو أعلم فمن بقي ثم ذكر موت جبرائيل وميكائيل وحملة العرش وموت ملك الموت نحو ما تقدم من حديث أنس ثم ذكر الحديث بطوله إلى دخول أهل الجنة الجنة وبقاء أهل الخلود في النار.

فإن قيل هذا الفزع لا يكون إلا على شرار خلق الله من شياطين الإنس والجن وليس أحد منهم في السماء فما معنى قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ قلت: لعل ذلك على سبيل الفرض أو يقال إن الشياطين قد يذهبون إلى السماء لاستراق السمع أو يقال المراد بالسماء السحاب ونحو ذلك فإنه قد يطلق السماء على كل ما بفوقك قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] يعني سقف بيتك، أو يقال المراد بمن يفزع من أهل السماء أرواح بعض المؤمنين ويكون المراد بمن سبقت لهم الحسنى الأنبياء والمقربون الصديقون.

وأما المستثنى من نفخة الصعق فالقول فيه ما قال صاحب المفهم التحقيق أن المراد بالصعق ما هو أعم من الموت فلمن لم يمت الموت ولمن مات الغشية وهذا من قبيل عموم

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٤٠٧٨٤، ٣٨٤٨٩.

المجاز وهذه الغشية يعم الأنبياء عليهم السلام إلا موسى عليه السلام فإنه حصل فيه تردد. روى الشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه واللفظ له عن أبي هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة والذي اصطفى موسى على البشر، فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه وقال أتقول هذا وفينا رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨] «فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائم من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله» ولمّا كان الصعق بمعنى الموت أو الغشية يعم الأنبياء فيعم الشهداء بالطريق الأولى والملائكة أيضاً والمستثنى منهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش فإنهم لا يموتون بالنفخة ويموتون بعد ذلك» كما مرَّ في الأحاديث والله أعلم.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل واحد من أهل السماوات والأرض ﴿أَتَوْهُ﴾ أي حاضرون الموقف بعد نفخة البعث أو راجعون إلى أمره كذا قرأ الجمهور بالمد وضم التاء على صيغة اسم الفاعل وقرأ حفص وحمزة مقصوراً وفتح التاء على صيغة الماضي ومعناه الاستقبال لتحقيق وقوعه عطف على فزع ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ أي تبصرها أيها الناظر وقت نفخة الفزع عطف على يوم ينفخ أو على يوم نحشر أن يقدر هنا ترى ما ترى ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي واقفة مكانها الجملة حال من فاعل ترى مفعوله أي تظنها قائمة غير متحركة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ حال من الضمير المنصوب في تحسبها يعني تسير الجبال كسير السحاب في السرعة حتى تقع على الأرض فتستوي بها وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمت واحد لا تكاد يتبين حركتها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة متقدمة لا محتمل لها غيره ويسمى تأكيداً لنفسه معنى صنع الله صنعاً ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاءِ على الخطاب أي يجازي كلاً من العاصي والمطيع على حسب فعله ثم بينه فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ قال: أبو معشر كان إبراهيم يحلف ولا يستثني أن الحسنة لا إله إلا الله، وقال قتادة بالإخلاص، وقيل: هي كل طاعة ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قيل من للسببية وليس للتفضيل إذ لا شيء خير من قول لا إله إلا الله فالمعنى يحصل له خير وهو الثواب وإلا من العذاب من جهة تلك الحسنة وبسببها، وقال محمد بن كعب وعبد الرحمان بن زيد من تفضيلية والمعنى فله عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله نظيره قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٦] ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم ينفخ في الصور ﴿ءَامِنُونَ﴾ قرأ الكوفيون فزع بالتنوين للتنكير ويؤمئذ بالنصب على الظرفية والتنكير يفيد الاستغراق لأن الجملة في قوة النفي لأن قوله آمنون بمعنى لا يخافون ولا يفزعون والنكرة في حيز النفي يفيد الاستغراق، وقرأ الآخرون بلا تنوين بإضافة فزع إلى يومئذ والإضافة أولُّ على الاستغراق أو هي للعهد، لتقدم ذكر الفزع فقرأ أكثرهم يومئذ بالجر للإضافة ونافع بفتح الميم على أنه مبني اكتسب البناء ممّا أضيف إليه ﴿وَمَن جَآءَ

بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي الشركة ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ الفاء للعطف على محذوف لا للجزاء لا تدخل على الماضي بغير قد تقديره من جاء بالسيئة فله جزاء السّيئة أو استحق العذاب ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ أي فكبوا على وجوههم ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ أو المراد بالوجوه أنفسهم ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ﴾ يعني ما تجزون ﴿إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي إلا جزاؤه وفاقاً لما عملوا فإن الشرك أعظم الجرائم لا شيء فوقه في السوء وجهنم أشد الأجزية، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب والتقدير ويقول لهم خزنة جهنم ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ يعني مكة أضاف الرّب إلى البلدة تشريفاً لها وإشعاراً بما في الكعبة الحسناء من التجليات المختصة ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ صفة للرب أي جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا ينفر صيدها ولا يختلا خلاها، ذكر هذا الوصف منة على قريش حيث جعل مسكنهم آمناً من الفتن الشائعة في العرب ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ خلقاً وملكاً مع تلك البلدة عطف على حرمها أو حال من الضمير المرفوع المستكن فيها ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ بتقدير الباء أي أمرت بأن أكون من المنقادين لله تعالى أو ثابتين على ملة الإسلام عطف على ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ﴾ تلاوة الدعوة إلى الإيمان أو هو من التلو بمعنى الاتباع والمعنى أن أتبع ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ عطف على أن أكون وجملة إنما أُمرت متصلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦] ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧] وقال البيضاوي أمر الله سبحانه لرسوله أن يقول لهم ذلك بعدما بين لهم المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وأدى ما كان عليه فلم يبق عليه إلا الاشتغال بشأنه والاستغراق في عبادة ربه والتقدير قل إنما أمرت بكذا ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ بدعوتك وعبد ربه وحده كما أمرت ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ فإن منافعه تعود إليه فليس له أن يمن عليك ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي أخطأ طريق الحق يتبعك بعد تمام الدعوة منك ﴿فَقُلۡ﴾ له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ يعني لست عليكم بوكيل ولا عليّ من وبال ضلالك أصلاً إذ ليس عليّ إلا البلاغ.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة النبوة وعلى ما وفقك من تمام التبليغ والدعوة الواجبة عليك ﴿سَيُرِيكُمۡ﴾ الله أيها الضالون ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرة على حقيقة ما دعوتكم إليه في الدنيا كما وقع يوم بدر من قتل وسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وكما رأوا من انشقاق القمر وتسبيح الحصا ونحو ذلك وكما يجيء من خروج الدابّة وغير ذلك نظيره قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧] أو المعنى سيريكم آياته في الآخرة وقال ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ في السماء وفي الأرض وفي أنفسكم كما ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣] ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله ولكن لا ينفعكم حينئذ المعرفة ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فيجازي كلاً على حسب عمله بوقتهم.

تم تفسير سورة النمل من التفسير المظهري في التاريخ الثاني والعشرون من شعبان سنة الخامسة بعد الف ومائتين (سنة ١٢٠٥هـ) ويتلوه:

تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القصص

آياتها ثمان وثمانون وهي مكيَّة

﴿طسٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ (٦) وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٧) فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ (٨) وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٩) وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠) وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١١) ۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ (١٧)﴾

﴿طسٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أبان لازم ومتعد يعني ظاهر في كونه من عند الله لإعجازه أو مظهر لأحكامه ومواعيده وما فيها من القصص ﴿نَتۡلُواْ﴾ أي نقرأه بقراءة جبرئيل ﴿عَلَيۡكَ﴾ ويجوز أن يكون نتلوا بمعنى ننزل مجازاً ﴿مِن نَّبَإِ﴾ أي بعض نبأ ﴿مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ظرف مستقر حال من نبأ أي مقروناً بالصدق أو من فاعل نتلوا أي محقين أو ظرف لغو متعلق بنتلوا ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فإنهم هم المنتفعون ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا﴾ أي استكبر وتجبر وتعظم استئناف بيان لذلك البعض ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا﴾ أي أهل تلك الأرض ﴿شِيَعٗا﴾ أي فرقاً يشيعونه فيما يريد من الخدمة أو يشيع بعضهم بعضاً أو

فرقاً أكرم منهم طائفة وهم القبط وأهان آخرين وهم بنو إسرائيل أو أصنافاً في الخدمة استعمل كل صنف في عمل أو أحزاباً أغرى بينهم العداوة كيلا يتفقوا عليه، وفي القاموس شيعة الرجل أتباعه وأنصاره والفرقة على حدة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل الجملة حال من فاعل جعل أو استئناف ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ لأن كاهناً قال يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه كذا أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي يترك بناتهم أحياء بدل من قوله يستضعف سمى ذلك استضعافاً لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولذلك اجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد إذ لا ينفعه القتل سواء صدق الكاهن أو كذب.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي نتفضّل ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بإنقاذهم من بأسه جملة نريد حكاية حال ماضية معطوفة على إن فرعون علا من حيث إنهما واقعان تفسيراً للنبأ، أو حال من فاعل يَسْتَضْعِفُ بتقدير ونحن نريد أو عطف على يَسْتَضْعِفُ والرابط بالموصوف وضع المظهر أي الذين استضعفوا موضع الضمير ولا يلزم من مقاربة الإرادة للاستضعاف مقارنة المراد له لكون تعلق الإرادة حينئذ تعلقاً استقبالياً مع أن منة الله بخلاصهم لمّا كانت قرينة الوقوع منه جاز أن يجري مجرى المقارن ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في أمر الدين دعاة الخير كذا قال مجاهد، وقال قتادة ولاة وملوكاً بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لما كان في ملك فرعون وقومه ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر والشام وأصل التمكن أن يجعل للشيء مكاناً يستقر فيه ثمّ استعير للتسليط ونفاذ الأمر ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ قرأ الأعمش والحمزة والكسائي يرى بالياء مفتوحة فتح الراء وإمالة فتحها ورفع الأسماء الثلاثة على الفاعلية والباقون بالنون مضمومة وكسر الراء وفتح الياء بعدها ونصب الأسماء الثلاثة على المفعولية ﴿مِنْهُم﴾ أي من بني إسرائيل ﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ والحذر هو التوقي عن الضرر وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل وكانوا على وجل منه فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وهي يوخابذ بنت لاوى بن يعقوب عليه السلام كذا ذكر البغوي أجمعوا على أنه ليس بوحي نبوة وأن النبي لا يكون إلا رجلاً، قال قتادة قذف في قلبها وهو الإلهام في اصطلاح الصوفية ومن جنسه المنام الصادق الموجب لليقين واطمئنان القلب وهو أيضاً من قبيل الإلهام، وهذه الآية تدل على أن الإلهام أيضاً من أسباب العلم وإن كان علماً ظنّيا والمعتبر إلهام القلوب الزاكية والنفوس المطمئنة والفرق بين الوسوسة والإلهام بحصول اليقين واطمئنان القلب ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أن مفسرة لأوحينا لأن فيه معنى القول أو مصدرية يعني أرضعي موسى ما أمكنك إخفاؤه، قال البغوي اختلفوا في مدة إرضاع موسى عليه السلام أمه؟ قيل هي ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر وقيل ثلاثة أشهر كانت ترضعه في حجرها وهو لا يبكي ولا يتحرك ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يحس به ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر يريد النيل ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه الضياع ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لفراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ من قريب بحيث تأمنين عليه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

روى عطاء والضحاك عن ابن عباس: أن بني إسرائيل لما كثروا بمصر واستطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن نجاهم الله على يدي نبيه موسى عليه السلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أم موسى لما دنى ولادتها وكانت قابلة من القوابل اللاتي وكّلهن فرعون بحبالى بني إسرائيل مصافيه لأم مولى فلما ضربها الطلق أرسلت إليها وقالت: قد نزل بي ما نزل فلينفعني حبك إياي اليوم، قال: فعالجت قابلتها فلما أن وقع موسى عليه السلام بالأرض هالها نور بين عيني موسى عليه السلام فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام في قلبها ثم قالت: يا هذه ما جئت إليك حين دعوتني إلا ومن ورائي قتل مولودك ولكن وجدتُ لابنك حباً ما وجدت حب شيء مثل حبه فاحفظي ابنك فإني أراه مناونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصر بعض العيون فجاؤوا إلى بابها ليدخلوا على أم موسى فقالت أخته: يا أماه هذا الحرس بالباب، فلفّت موسى في خرقة فوضعته في التنور وهو مسجور وطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن، فقالوا لها: ما أدخل عليك القابلة؟ قالت: هي مصافية لي فدخلت عليّ زائرة فخرجوا من عندها ورجع إليها عقلها، فقالت لأخت موسى عليه السلام: فأين الصبي؟ قالت: لا أدري، فسمعت بكاء الصبي من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله سبحانه وتعالى النار عليه برداً وسلاماً فاحتملته.

قال ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله في نفسها أن تتخذ له تابوتاً ثم تقذف التابوت في اليم وهو النيل فانطلقت إلى رجل من قوم فرعون نجار فاشترت منه تابوتاً صغيراً فقال لها النجار ما تصنعين بهذا التابوت، قالت ابن لي أخبأه في التابوت وكرهت الكذب، قال ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته فانطلقت انطلق النجار إلى الذبّاحين ليخبرهم بأمر أم موسى فلمّا هم بالكلام أمسك الله تعالى فلم يطق الكلام وجعل يشير بيده فلم يدر الأمناء ما يقول فلما أعياهم أمره، قال كبيرهم اضربوه وأخرجوه فلمّا انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضاً يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئاً فضربوه وأخرجوه ووقع في واد يهوى فيه حيران فجعل عليه أن رد لسانه وبصره أن لا يدل عليه وأن يكون معه ويحفظه حيث ما كان فعرف الله منه الصدق فرد الله عليه بصره ولسانه فخر لله ساجداً فقال يا رب دلّني على هذا العبد الصالح فدله الله عليه فخرج من الوادي وآمن به وصدقه وعلم أن ذلك من الله عزَّ وجل.

وقال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها من جميع الناس فلم يطلع على حملها أحد من خلق الله وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمن على بني إسرائيل، فلمّا كانت السنة التي يولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم إليهن ففتشن النساء تفتيشاً لم يفتش قبل ذلك وحملت أم موسى بموسى فلم ينت بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها

وكانت القوابل لا تتعرض لها فلمَّا كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد إلا أختِه مريم وأوحى الله إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ الآية فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يبكي ولا يتحرك فلمَّا خافت عليه عملت له تابوتاً مطبقاً، قيل وضعته في تابوت مطلى بالقار من داخل ممهداً له فيه وأغلقته ثم ألقته في البحر ليلاً.

قال ابن عباس وغيره: فكان لفرعون يومئذ بنت ليس له ولد غيرها وكانت أحب الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا في أمرها فقالوا لها أيتها الملكة لا تبرئي إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيطلح به برصها فتبرأ من ذلك وذا يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس، فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت ابنة فرعون في جواريها حتى جلست على شاطىء النيل مع جواريها حتى تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن إذ أقبل النيل بالتابوت يضربه الأمواج فقال فرعون إن هذا الشيء في النيل قد تعلق بالشجرة ائتوني به، فابتدروا بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها فعالجت ففتحت الباب فإذا هي بصبيّ صغير في مهده وإذا نورٌ بين عينيه وقد جعل الله رزقه في إبهاميه يمصهما لبناً فألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه وأقبلت ابنة فرعون فلمّا أخرجوا الصبيّ من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان من ريقه فلطخت ببرصها فبرأت فقبّلته وضمته إلى صدرها، فقالت الغواة لفرعون أيها الملك إنا نظنُّ أن ذلك المولود الّذي تحذر منه من بني إسرائيل هو هذا رمُي به في البحر خوفاً منك أن تقتله فهمَّ فرعون بقتله قالت آسية (قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لي فيه، قال رسول الله ﷺ: «لو قال يومئذ هو قرة عين لي كما هو لكِ لهداه الله كما هداها»(١)، فقيل لآسية سميه فقالت سميته موسى لأنا وجدناه بين الماء والشجر «فمو» هو الماءُ ـ «سا» هو الشجر.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ﴾ اللام للعاقبة تشبهاً لعاقبة الأمر ومراده بالغرض الباعث على الفعل لتحقق وقوعها ﴿لَهُمْ عَدُوًّا﴾ يقتل رجالهم ﴿وَحَزَنًاۗ﴾ يستعبده نساءهم، قرأ حمزة والكسائي بضم الحاء وسكون الزاء والباقون بفتحهما وهما لغتان في المصدر وهو هاهنا بمعنى الفاعل ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ وزيره ﴿وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ في كل شيء فليس منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون أو

(١) أخرجه بنحوه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٠٢٢، والقرطبي في تفسيره ١٣/ ٢٥٤.

المعنى كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربَّى عدوهم على أيديهم فالجملة اعتراض لتأكيد خطاءهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ لفرعون عطف على ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ قال وهب بن منبه لما وضع التابوت بين يديه وفتحوه وجدوا فيه موسى فلما نظر إليه قال عبراني من أهل الأعداء فغاظه ذلك وقال كيف أخطأ هذا الغلام، وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء وكانت من بنات الأنبياء وكانت أمّاً للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم قالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنما أمرتَ بذبح الولد لهذه السنة فدعه يكن ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ خبر ومبتدأه محذوف ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خطاب بلفظ الجمع على التعظيم، وروي أنها قالت أتانا من أرض أخرى ليس من بني إسرائيل ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ علة لقوله تعالى: لا تقتلوه فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك لما رأت من نور بين عينيه وارتضاعه إبهامه لبناً وبرء البرصاء بريقه ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أو نتبناه فإنه أهل له فأطاعوها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال من الملتقطين يعني هم لا يشعرون أن هلاكهم على يديه فاستحياه فرعون فألقى الله عليه محبته، أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس مرفوعاً أنه قال فرعون قرة عين لك لا لي ولو قال قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها، وقال ابن وهب قال ابن عباس لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعَهُ الله ولكن أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ يعني صار عطف على قالت امرأة فرعون ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي خالياً من العقل لشدة الخوف والحزن حين سمعت وقوعه في يد فرعون كقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي خلاء لا عقول فيها، وقال أكثر المفسرين أي خالياً من كل شيء سوى ذكر موسى وهمّه، وقال الحسن فارغاً أي ناسياً للوحي الذي أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فجاءه الشيطان وقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله فألقيته في البحر وأغرقته. فلمّا جاءها الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت إنه وقع في يد عدوه فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها، قلتُ: لعل حزنها لمّا كان إلهام الأولياء دليلاً ظنياً فأفزعته احتمال الخطأ في الإلهام، وقال أبو عبيدة معناه فارغاً من الحزن لعلمها بصدق وعد الله تعالى، وأنكر القتيبي هذا وقال كيف يكون هذا والله يقول ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ إن مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن واللام فارقة أي إنها كادت ليظهر به أي بموسى يعني بأمره أنه ابنها من شدة جزعها كما قال عكرمة عن ابن عباس أنها كادت تقول وابناه، وقال مقاتل لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها، وقال الكلبي كادت تظهر أنه ابنها وذلك حين سمعت الناس يقولون لموسى بعدما شبَّ موسى بن فرعون فشق عليها فكادت تقول هو ابني فقيل معنى الآية وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الحزن حين سمعت أن فرعون تبناه فكادت لتبدى به أي

بأنه ابنها حيث لم تملك نفسها من شدة الفرح، وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السديّ أنه قالت أخت موسى هل أدلكم إلى آخره وجاءت بأمها فأخذ موسى ثديها فكادت تقول هو ابني فعصمها الله، وقال أبو عبيدة معنى الآية أصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الخوف والحزن لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ وإن كادت لتبدي به يعني أنها لشدة وثوقها بوعد الله كادت أن تظهر أنه ابنها أو تظهر بالوحي إليها بأن الله وعدني برده إليّ وجعله من المرسلين.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ظرف لغو متعلق بقوله ربطنا وهي بتأويل المصدر مبتدأ خبره محذوف يعني لولا ربطنا على قلبها موجودٌ أو ظرف مستقر خبر للمبتدأ أي لولا ربطنا ثابت على قلبها يعني لولا ربطنا بالصبر على الجزع أو على كتمان الفرح على التأويل الأول والثاني أو الصبر على كتم أسرار الله تعالى على تأويل أبي عبيدة، وجواب لولا محذوف أيضاً دلّ عليه ما قبله يعني لأبدت به ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بربطنا يعني ربطنا على قلبها بالصبر على الجزع أو على كتم الفرح لتكون من المصدقين بوعد الله أو متعلق بأصبح، والمعنى أصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الخوف والحزن لتكون من المؤمنين الموقنين بوعد الله وعلى ما ذكرنا من التأويل اندفع إنكار القتيبي على تأويل أبي عبيدة وجملة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ معترضة حينئذ، قال يوسف بن حسين أمرت أم موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت ببشارتين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حفظها فربط على قلبها وسكن قلقها الذي وجدت من شدة الحزن أو الفرح لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون.

﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى عطف على أصبح ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ مريم بنت عمران ﴿قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره وتبتغي خبره ﴿ بِهِۦ﴾ عطف على محذوف معطوف على قالت تقديره فبصرت له ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي عن بُعد حال من أحد الضميرين المرفوع أو المجرور وفي القصة أنها تمشي جانباً وتنظر اختلاساً ترى أنها لا تنظر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته وأنها ترقبه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ عطف على بصرت والمراد بالتحريم المنع التكويني دون التكليفي والمراضع إما جمع مُرضع بالضم يعني منعنا عنه لبن كل مرضعة فلم يرتضع من إحداهن وإما جمع مراضع بالفتح على أنه مصدر ميمي بمعنى الرضاع أو ظِرف وهو الثدي ﴿مِن قَبْلُ﴾ قصصها، قال ابن عباس إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة وكانوا كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ موسى ثديها حتى رأته أخت موسى في ذلك الحال وفي القصة أن موسى مكث ثماني ليال لا يقبل ثدياً ويصيح ﴿فَقَالَتْ﴾ عطف على حرمنا ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي لأجلكم صفة لأهل بيت ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته والنصح ضد الغش وهو تصفية العمل عن شوب الفساد حال من فاعل يكفلونه، قال ابن جريج والسديُّ لمّا قالت أخت موسى (وهم له ناصحون) أخذوها وقالوا إنّك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله قالت ما أعرفه وقلت وهم للملك ناصحون كذا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي، وقيل إنها قالت إنما قلت هذا رغبةً في

سرور الملك واتصالنا به وقيل إنها لمَّا قالت هل أدلكم على أهل بيت قالوا لها من قالت لأمي قالوا لأمك ابن قالت نعم هارون (وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها الولدان) قالوا صدقت فأتينا بها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم فلمَّا وجد موسى ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه، قال السديُّ كانوا يعطونها أجرة كل يوم ديناراً، قيل إنما أخذتها لأنها كانت مال حربي وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ عطف على جمل محذوفة معطوفة بعضها على بعض معطوفة على فَقَالَت هل أدلكم تقديره فقالوا دلني فدلت على أمها فقالوا ائتي بها فانطلقت فأتت بها فوضعوه في حجرها فأرضعته فرضعته فسلموه إليها للإرضاع فرددناه إلى أمه ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ برد موسى إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ لفراقه عطف على تقر ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾ أم موسى عطف على لا تحزن ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ برده إليها ﴿حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعد الله حق ولو علموا ذلك لما ارتكبوا منهيات الله خوفاً من وعيده وما تركوا أوامره طمعاً في وعده وفيه تعريض على أم موسى لما فرط منها حين جزعت على تأويل أصبح فؤاد أم موسى فارغاً بمعنى خالياً من الصبر، وقيل يعني لا يعلمون بهذا الوعد ولا بأن هذه أخته وهذه أمه فمكث عندها إلى أن فطمته فأتت به إلى فرعون فتربى عنده كما قال الله تعالى حكايةً عنه في سورة الشعراء: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ موسى ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ جمع شدة بمعنى القوة كالنعم جمع نعمة يعني مبلغه الذي لا يزيد إليه نشؤه قال الكلبي الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، وقال مجاهد وغيره ثلاث وثلاثون سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ عقله أي بلغ أربعين سنة كذا روى سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل استوى أي انتهى شبابه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي النبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي معرفة بالله وبأحكامه قيل ليس المراد به الاستنباء لأنه يكون بعد الهجرة في المراجعة من هذين بل المراد به الفقه والعلم بالشرائع، قلت: العطف بالواو للجمع المطلق لا دليل فيه على الترتيب فالاستنباء وإن كان بعد الهجرة لكن ذكره بالشرائع، قلت: العطف بالواو للجمع المطلق لا دليل فيه على الترتيب فالاستنباء وإن كان بعد الهجرة لكن ذكره هاهنا لبيان إنجاز الوعد بتمامه حيث قال إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ صفة المصدر محذوف تقديره ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جزاء كذلك أي مثل ذلك الذي جزينا موسى وأمه على إحسانهما.

﴿وَدَخَلَ﴾ موسى ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ عطف على ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال السديُّ هي مدينة مدين من أرض مصر وقال مقاتل كان قرية تدعى خانين على رأس فرسخين من مصر، وقيل مدينة عين الشمس وقال المحلي مدينة منف دخلها بعد أن غاب عنها مدة ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة، وقال محمد بن كعب القرظي دخلها فيما بين المغرب والعشاء، قال السدي وذلك أن موسى يسمى ابن فرعون فكان يركب مراكب فرعون ويلبس ملابسه فركب فرعون يوماً وليس عنده موسى فلمَّا جاء موسى قيل له إن

فرعون قد ركب فركب في أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس في طرقها أحد، وقال ابن إسحاق كان لموسى شيعة من بين إسرائيل يستمعون منه ويقتدون به فلمَّا عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم في دينه حتى ذكر ذلك منه وأخافوه وخافوه وكان لا يدخل قرية إلا خائفاً مستخفياً فدخلها حين غفلة من أهلها، وقال ابن زيد لما عدا موسى فرعون بالعصا في صغره وأراد فرعون قتله فقالت امرأة فرعون هو صغير فترك قتله وأمر بإخراجه من مدينته فلم يدخل إلا بعد أن كبر وبلغ أشده (فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها) يعني حين غفلة عن ذكر موسى من بعد نسائهم خبره وأمره لبعد عهدهم به، قال البغوي وروي عن علي رضي الله تعالى في قوله تعالى حين غفلة من أهلها يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ صفة لرجلين أي يختصمان ويتنازعان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ يعني من بني إسرائيل هذه الجملة مع ما عطف عليها حال من رجلين بترك الواو على طريقة كلمته فوه إلى فيّ بتقدير تقديره فوجد رجلين يقال فيهما هذا من شيعته ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي من القبط وجاز أن يكون هذا وهذا بدلاً من رجلين، وقوله من شيعته ومن عدوه حال من المشار إليه والعامل فيه معنى الإشارة ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ عطف على وجد ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ والاستغاثة طلب الغوث استغاث الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى واشتد غضبه لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس إلا من قبل الرضاعة من أم موسى، فقال للفرعوني خل سبيله فقال إنما نأخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فتنازعه فقال الفرعوني لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة القوة والبطش ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قرأ ابن مسعود فلكزه موسى ومعناهما واحد وهو الضرب بجمع الكف، وقيل الوكز الضرب في الصدر واللكز في الظهر، وقال الفراء معناهما الدفع وقال أبو عبيدة الوكز الدفع بأطراف الأصابع وفي بعض التفاسير عقد موسى ثلاثاً وثمانين فضربه في صدره ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قتله ودفنه في الرمل كذا قال المحلي ومعناه فرغ من أمره فكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه ولم يكن لموسى قتله فندم عليه موسى و﴿قَالَ﴾ الخ الجملة مستأنفة ﴿هَٰذَا﴾ أي القتل ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إنما قال ذلك لأنه لم يكن مأموراً حينئذ بقتل الكفار أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكن له أغتيالهم وهذا لم يكن مناف لعصمته لكونه خطأ وإنما عد ذلك الأمر من عمل الشيطان وسماه ظلماً واستغفر عنه على عادة المقربين في استعظام محقرات صدرت منهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة.

﴿قَالَ﴾ جملة مستأنفة ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتل نفس من غير أمرك ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ خطيئتي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ عطف على قال أي غفر الله لموسى حقه ولم يكن القبطي معصوم الدم حتى لا يتصور المغفرة من غير قصاص أو عفو من المقتول أو ورثته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم ﴿قَالَ﴾ مستأنفة أخرى ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ﴾ الباء

في (بما أنعمت) للقسم وجوابه ما بعده وقوله: (فلن أكون) معطوف على محذوف تقديره أقسم بإنعامك عليَّ بالنبوة والمغفرة غير ذلك تُبتُ فلن أكون، أو الباء متعلق بمحذوف تقديره رب اعصمني من الزلات بحق إنعامك عليَّ وعلى هذا قوله فلن أكون جوابٌ للدعاء أي ليكن منك إعصامي فعدم كوني ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس أي للكافرين وهذا لو صحّ لدلَّ على أن الإسرائيلي كان كافراً وهو قول مقاتل، وقال قتادة معناه لن أعين بعد هذا على خطيئة وقيل معناه لن أكون معيناً لمن أدت معاونته إلى جرم.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا
بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا
الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا
خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي
سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ
امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ
لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى
اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ
الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ
أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾
قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي قتل فيها القبطي عطف على (فقضى عليه) ﴿خَائِفًا﴾ على نفسه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الانتقام من ورثة المقتول أو يترقب النصر من ربه حالان من فاعل أصبح ﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة ﴿الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يستغيثه مشتق من الصراخ قال ابن عباس أتى فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا منّا رجلاً فخذلته بحقنا فقال انجوا إلى قاتله ومن يشهد عليه فلا يستقيم أن يقضى بغير بينة فبينا هم يطوفون لا يجدون ثبتاً إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فاستغاثه على الفرعوني فصادف موسى وقد ندم ما كان منه بالأمس من قتل القبطي ﴿قَالَ لَهُ﴾ أي للإسرائيلي ﴿مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بين الغواية حيث تسبّبت قتل رجل بالأمس وتقاتل اليوم رجلاً آخر وتستغيثني وقيل إنما قال للفرعوني (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ) بظُلمك ثم أدرك موسى الرقة بالإسرائيلي لما رأى ظلم الفرعوني عليه فمد يده لبطش الفرعوني ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي لموسى والإسرائيلي لأنه لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ظن الإسرائيلي أنه يريد بطشه لما رأى من غضبه وسمع قوله إنك لغوي مبينٌ ﴿قَالَ﴾ الإسرائيلي

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ أو قال ذلك القبطي لما توهم من قوله إنه الذي قتل القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي والأول أظهر ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ قتالاً بالغضب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر حيث تطاول على الناس ولا تنظر العواقب ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن فلما سمع القبطي قول الإسرائيلي (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) علم أن قاتل القبطي بالأمس كان موسى إنطلق إلى فرعون وأخبره بذلك فأمر فرعون بقتل موسى أو سمع الناس مقالاتهم واشتهر أن موسى قتل القبطي وارتفع إلى فرعون وملئه فهموا بقتله.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ عطف على (قال يا موسى) قال أكثر أهل التأويل هو حزئيل مؤمن آل فرعون وقيل اسمه شمعون وقيل سمعاً ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظرف مستقر صفة لرجل وليس متعلقاً بجاء لأن تخصيصها ألحقه بالمعارف فصح أن يكون قوله ﴿يَسْعَىٰ﴾ حالاً منه يعني جاء ذلك الرجل يسرع في مشيه فأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى فأخبره وأنذره و﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ﴾ أي يأمر بعضهم بعضاً متلبساً ذلك الأمر ﴿بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي لكي يقتلوك أو يأمر بعضهم بعضاً بقتلك واللام زائدة، وقيل معناه يتشاورون بك سمي التشاور ائتماراً لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر لكي يقتلوا ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ﴾ متعلق بمحذوف خبر لإن يعني أني نافع لك ﴿مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ خبر ثان ولا يجوز أن يكون لك متعلقاً بناصحين لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول، وقيل متعلق بناصحين والكلام محمول على التقديم والتأخير وقيل لك بيان لمبهم كأنه قال (إني من الناصحين) ثم أراد أن يبيّن فقال لك أي أنصح لك واللام فيه لتقوية عمل فعل محذوف ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ من تلك القرية ﴿خَآئِفًا﴾ على نفسه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي ينتظر الطالب من خلفه وقيل يترقب النصر من ربه فإن قيل هذه الآية تدل على جواز الخوف للأنبياء من غير الله سبحانه وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] فما التوفيق؟ قلنا: الخوف على نفسه من مقتضيات الطبيعة لا ينافي النبوة والمراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] إنهم لا يبالون في إتيان أوامره تعالى والانتهاء عن مناهيه لحوق مضرة بهم من أحد سوى الله تعالى بخلاف سائر الناس فإنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] ﴿قَالَ﴾ موسى استئناف أو حال بتقدير قد من فاعل خرج ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين يعني خلصني منهم واحفظني من لحوقهم وفي القصة أن فرعون بعث في طلبه حين أخبره ربه فقال اركبوا بينات الطريق فإنه لا يعرف كيف الطريق.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قال الزجاج أي سلك الطريق التي يلقى فيها مدين وهي قرية سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، وكان موسى قد خرج بلا ظهر وبلا زاد وكان مدين على مسافة ثمانية أيام من مصر ولم يكن في سلطنة فرعون، ولمّا ظرف فيه معنى الشرط متعلق بقوله: ﴿قَالَ﴾ يعني موسى توكلاً على الله وحسن ظن به ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ قرأ

نافع وابن كثير وأبو عمرو بالفتح والباقون بالإسكان ﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ والجملة معطوفة على ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي﴾ وإضافة سواء إلى السبيل إضافة صفة إلى موصوفه والمعنى أن يهديني السبيل السوي الذي لا زحمة فيه ولم يكن موسى يعرف الطريق إليها فلما قال هذا جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به قال المفسرون خرج موسى من مصر ولم يكن معه إلا ورق الأشجار والبقل حتى يرى خضرته في بطنه وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه، قال ابن عباس هو أول ابتلاء من الله لموسى عليه السلام.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي وصل إليه وهو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي على الماء يعني جانب البئر ﴿أُمَّةً﴾ أي جماعة كثيرة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي في مكان أسفل من مكانهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ حال من امرأتين أو صفة لهما أنهما تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم.

﴿قَالَ﴾ موسى للمرأتين. ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما شأنكما حيث تمنعان مواشيكما عن الماء والخطب بمعنى الشأن كذا في القاموس قيل هو مصدر بمعنى المفعول يعني ما مخطوبكما يعني ما مطلوبكما من هذا المنع ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر يصدر بفتح الياء وضم الدال على أنه فعل لازم بمعنى يرجع، والباقون بضم الياء وكسر الدال من الأفعال يعني حتى يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء حذف المفعول من يسقون وتذودان ولا تسقى لأن الغرض هو الفعل دون المفعول ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذود مع الحاجة إلى السقي لأجل ضعفهما والناس على السقي ولم يرحمهما لأن مزودهما غنم وسقيهم إبل وأيضاً الغرض بيان ما يدل على عفتهما واحترازهما عن مزاحمة الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ السن لا يقدر أن يسقي مواشيه ولذلك احتجنا إلى سقي المواشي، والجملة حال من فاعل لا نسقي ووجه مطابقة جوابهما سؤاله أنه سألهما عن سبب الذود فقالتا السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ونستحي من اختلاطهم فلا بد لنا من الذود وتأخير السقي كيلا يختلط الغنم، قال البغوي اختلفوا في اسم أبيهما؟ فقال مجاهد والضحاك والسدي والحسن هو شعيب عليه السلام، وقال وهب وسعيد بن جبير هو ثيرون ابن أخي شعيب وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعدما كف بصره فدفن بين المقام والزمزم، وقيل رجل ممن آمن بشعيب عليه السلام.

فلما سمع موسى قولهما رحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غنمهما قال ابن عباس زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين، وقيل اقتلع موسى صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربها لا يطيق رفعها إلا الجماعة من الناس قيل عشرة أنفس ويقال إنه نزع دلواً واحداً ودعا فيه بالبركة فروى منه جميع الغنم ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ظل شجرة فجلس في ظلها من شدة الحرّ ولمّا طال البلاء بموسى آنس بالشكوى إلى مولاه ولا بأس في الشكوى إذا كان إلى المولى دون غيره ﴿فَقَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ قال أهل العلم اللام

بمعنى إلى يقال فقير له وفقير إليه والمراد بالإنزال الإعطاء، يقال أنزل الله تعالى نعمه أو نعمته على الخلق أي أعطاهم إياه وذلك قد يكون بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن وإنزال المطر وقد يكون بإنزال أسبابه والهداية إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] و ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] وأنزلت هاهنا صيغة ماض أريد به المستقبل أو بمعنى قدرت إنزاله إليّ والمعنى أن ما تعطيني أو قدرت إعطاءه إيّاي ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي طعام قليل أو كثير ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج(١) سائل يعني أعطني ما شئت قليلاً أو كثيراً ولتضمنه معنى السؤال عدي باللام موضع إلى قال ابن عباس سأل الله لقمة يقيم بها صلبه، قال الباقر عليه السلام لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس لقد قال موسى عليه السلام (رب إني لما انزلت إلي من خيرٍ فقيرٌ) وهو أكرم على الله وقد افتقر إلى شق تمرة، قال مجاهد ما سأله إلا الخير، وقيل معناه إني لما أنزلت أي بسبب ما أنزلت إليّ من خير أي الدين والحكمة فقير أي صرت فقيراً في الدنيا لأجل مخالفة فرعون في الدين فإنه كان في سعة عند فرعون والغرض منه إظهار التبهج والشكر على ذلك، قلتُ: وجاز أن يكون المعنى وإني إلى ما أنزلت إليّ من خير أي الدين والحكمة فقير سائل منك المزيد فيه كأنه قال رب زدني علماً، قلتُ: وجاز أن يكون أنزلت مشتقاً من النُّزُل بضم النون والزاء وهو ما يُعَدُّ للنازل من الزاد يقال أنزلتُ فلاناً أي أضفته والمعنى إلى فقير محتاج سائل لما تعد لي من الطعام.

﴿فَجَآءَتْهُ﴾ عطف على محذوف تقديره فرجعتا إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغنامهما حنك(٢) بطان فقال لهما أبوهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى أغنامنا فقال لأحدهما اذهبي فادعيه لي (فجاءته) ﴿إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ الظرف حال من فاعل تمشي وجملة تمشي حال من فاعل جاءت، قال البغوي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليست بسلفع(٣) من النساء خرَّاجةٌ دلأَّجةٌ ولكن جاءت مستترة وضعت كمّ درعها على وجهها استحياءً ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أخرج ابن عساكر وكذا ذكر البغوي أنه قال أبو حازم سلمة بن دينار لما سمع موسى ذلك أراد أن لا يذهب ولكن كان جائعاً فلم يجد بدّاً من الذهاب فمشت المرأة ومشى موسى خلفها فكانت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال لها امشي خلفي ودليني

---

(١) وعن عمر بن الخطاب أن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون فلما فرغوا اعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق دفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بامرأتين قال ما خطبكما فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه وحده ثم استقى فلم يسق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم فرجعت المرأتان إلى أبيهما فحدثتاه وتولى موسى إلى الظل وقال: رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير إلى آخر القصة ـ ١٢ منه برد الله مضجعه ـ.

(٢) أحنك البعيرين أشدهما أكلاً.

(٣) الجرية من النساء على الرجال.

على الطريق إن أخطأت ففعلت كذا لك، فلمَّا دخل على شعيب إذا هو قد تهيّأ للعشاء فقال اجلس يا شابُّ فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذلك ألستَ بجائع قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيتُ لهما وأنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضاً من الدنيا فقال شعيب لا والله يا شابُّ ولكن عادتي وعادة آبائي نقرىء الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل، قلتُ: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ صريح في أنها دعت موسى إلى إعطاء الأجر وموسى أجاب دعوتها ومشى معها ولم يكن ذلك بعدما أراد أن لا يذهب على ما قال أبو حازم فالآية تدل على بطلان هذه القصة فإنها تدل على الإنكار بعد الدعوة وأيضاً هذه القصة يعارض قول موسى في قصة الخضر ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله؟ قال «كنت أرعى على قراريط لأهل مكة»[(١)] رواه البخاري، وسنذكر قوله ﷺ: «إن موسى أجر نفسه ثمان سنين أو عشراً على عفة فرجه وطعام بطنه»[(٢)] والحق أن المكروه إنما هو أخذ الأجر واشتراطه على عملٍ هو عبادة مقصودة بنفسها أو شرط لعبادة مقصودة كالأذان والإمامة وتعليم القرآن لا على ما هو مباح في نفسه يصير طاعة بنية صالحة وقد أجاز الشافعي أخذ الأجرة على الأذان ونحو ذلك وأجاز المتأخرون من الحنفية أخذ الأجرة على تعليم القرآن والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ معطوف على جمل محذوفة تقديره فلما جاءته وقالت ما ذكر جاء موسى شعيباً عليه السلام (فلما جاءه) أي جاء موسى عنده أي عند شعيب حد المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ﴿وَقَصَّ﴾ موسى عليه السلام ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ مصدر بمعنى المفعول في القاموس قص أثره قصّاً وقصصاً تتبعه وقص الخبر أعلمه معنى الآية أخبر موسى خبره أجمع من قتله القبطي وقصد فرعون قتله ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني من فرعون وقومه وإنما قال ذلك لأن فرعون لم يكن سلطانه على مدين وجملة نجوت تعليل لقوله لا تخف ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ يعني التي استدعته ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي اتخذه أجيراً ليرعى أغنامنا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي خير من استعملت من قويٌّ على العمل وأدى الأمانة تعليل سائغ تجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فيه جعل خير اسم إنَّ وذكر الفعل بلفظ الماضي وإن كان المعنى على الاستقبال للدلالة على أنه مجرب معروف، أخبر الخطيب في تاريخه عن أبي ذر يرفعه أنه قال لها أبوها وما أعلمك بقوته وأمانته قالت أما قوته فإنه رفع حجراً من رأس البئر لا

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة باب ٢، والأطعمة باب ٥٠، وأحاديث الأنبياء باب ٢٩، ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢، والأشربة باب ١٦٥، ومالك في الاستئذان حديث ١٨، وأحمد في المسند ٣/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٥.

يرفعها إلا عشرة وقيل أربعون رجلاً وأما أمانته فإنه قال لي امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك، روي عن ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف حيث قال (عسى أن ينفعنا) وأبو بكر في عمر حيث جعله خليفةً في حياته ﴿قَالَ﴾ شعيب عند ذلك ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ اسمهما صفورة وليًّا في قول شعيب الجبائي وقال ابن إسحاق صفورة وشرقاً وقال غيرهما الكبرى صفرا والصغرى أصفيرا، قال وهب بن منبه زوجه الكبرى وذهب أكثرهم إلى أنه زوجه الصغرى واسمها صفورة وهي التي ذهبت لطلب موسى كذا روى البزار والطبراني من حديث أبي ذر مرفوعاً وكذا أخرج البخاري عن أنس، قال البغوي روى أبو ذر مرفوعاً «إذا سُئِلتَ أيُّ الامرأتين أنكحها إياه فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما» ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي تأجر نفسك مني وتكون لي أجيراً وقال الفراء أن تجعل ثوابها من تزويجها بقول العرب أجرك يأجرك أي أثابك والمعنى على أن تثيبني من تزويجها أن ترعى غنمي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ ظرف على التأويلين الأولين ومفعول به على تأويل الفراء بإضمار مضاف والحجج السنون واحده حجة ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ أي عشر سنين في رعي الغنم ﴿فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ أي فذلك تفضل من عندك وتبرع وليس بواجب عليك، وهذا استدعاء لعقد النكاح لا نفسه إذ لو كان عقداً لقال قد أنكحتُك هذه بتعين إحداهما فالظاهر أنه جرى بعد ذلك العقد على واحدة معينة منهما لكن هذه الآية تدل على أن رعي الغنم ثمان سنين جعل تمام المهر أو بعضه بانضمام مال آخر معه، ويدل عليه ما رواه أحمد وابن ماجه عن عتبة بن المنذر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طَسمَ حتى بلغ قصة موسى فقال: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثمان سنين على عفة فرجه وطعام بطنه».

مسألة: بهذه الآية والحديث استدل الفقهاء على أنه من نكح امرأة على أن يرعى الزوج غنمها جاز حيث ذكر رسول الله ﷺ قصة موسى من غير بيان نفيه في شريعتنا وبه قال أبو حنيفة رحمه الله في رواية ابن سماعة عنه ولا يجوز ذلك عند أبي حنيفة في رواية الأصل والجامع، وجه قول أبي حنيفة أن الاستدلال بهذه الآية والحديث المذكور في هذه المسألة لا يجوز إلا إذا ثبت كون الغنم ملكاً للبنت للإجماع على أن المهر في شريعتنا يكون للزوجة لا لوليها والغنم كانت لشعيب عليه السلام فالإجماع دل على أن هذا الحكم كان في شريعتهم لا في شريعتنا وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ [النساء: ٢٤] ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ [القصص: ٢٧] بإلزام تمام العشرة أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال المشقة مشتقة من الشق بمعنى الفرق فإن ما يصعب عليك يشق أي يفرق عليك اعتقادك في إطاقته ورأيك في مزاولته

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ قرأ نافع[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال عمر في حفظ الصحبة والوفاء بما قلتُ، وهذه الجملة تأكيد لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ والمراد بالاشتراط بمشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه ومعونته وعدم الاتكال على نفسه لا التردد في الوعد.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الشرط ثابت ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ مما شرطت علي فلك وما شرطت لي من تزويج إحداهما فلي ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ أي منصوب بقضيت وما زائدة مؤكدة للإبهام والمعنى أي الأجلين أطولهما أو أقصرهما ﴿قَضَيۡتُ﴾ أي وفيتك ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ جزاء لما تضمن أيما معنى الشرط والجملة الشرطية بدل من قوله: (ذلك بيني وبينك) يعني لا تعتدي عليّ بطلب الزيادة فكما لا أطالب بالزيادة عند قضاء عشر سنين كذلك لا أطالب بالزيادة عند قضاء ثمان أو فلا أكون معتدياً بترك الزيادة عليه كقولك لا إثم عليَّ وهو أبلغ في إثبات الخيرة وتساوي الأجلين في القضاء من أن يقال إن قضيتُ الأقصر فلا عدوان عليّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من المشارطة ﴿وَكِيلٞ﴾ قال ابن عباس فيما بيني وبينك والجملة حال مما سبق والوكيل هو من وكل إليه الأمر واستعمل هاهنا موضع الشاهد والرقيب ولذلك عدي بعلى، وروى شداد بن أوس مرفوعاً «بكى شعيب النبيّ ﷺ حتى عمي فرد الله بصره ثم بكى حتى عمى فرد الله بصره فقال الله ما هذا البكاء أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال لا يا رب ولكن شوقاً إلى لقائك فأوحى الله إليه إن يكن ذلك فهنيئاً لك لقائي يا شعيب لذلك أخدمتك موسى»[2].

ولمَّا تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه. واختلفوا في تلك العصا؟ قال عكرمة خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبرئيل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه، وقال آخرون كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء وكان لا يأخذها غير نبي إلا كلمته فصار من آدم إلى نوح ثم إلى إبراهيم ثم وصلت إلى شعيب وكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى، وقال السدي كانت تلك العصا أودعها ملك في صورة رجل فأمر ابنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فلما رآها شعيب قال لها ردي هذه العصا وأتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها ولا تقع في يدها إلا هي حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطاها موسى فأخرجها موسى معه ثم إن الشيخ ندم وقال كانت وديعة فذهب في أثره وطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه وقال هي عصاي فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما، فأتاهما ملك في صورة رجل فحكم أن يطرح العصا فمن حملها فهي له فطرح فعالجها ليأخذها فلم يطقها فأخذها موسى فرفعها فتركها له الشيخ، ثم إن موسى لما أتم الأجل وسلَّم شعيب ابنته قال موسى للمرأة اطلبي

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٢) أخرجه بنحوه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٢٣٣٩، والألباني في السلسلة الضعيفة ٩٩٨.

من أبيك أن يجعل لنا بعض الغنم فطلبت من أبيها فقال شعيب لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها[١]، قيل أراد شعيب أن يجازي موسى على حسن رعيته إكراماً له ووصلةً لابنته فقال إني قد وهبتُ لك من الجدايا التي تضع هذه السنة كل أبلق وبلقاء فأوحى الله إلى موسى في المنام أن اضرب بعصاك الماء الذي في مسقى الأغنام فضرب بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحد منها إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله عز وجلَّ إلى موسى فأمره فوفى له بشرطه وسلم الأغنام إليه.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةًۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي أتمه وفرغ منه، روى البغوي عن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلتُ لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمتُ فسألتُ ابن عباس فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل، قال البغوي روى أبو ذر إذا سألتَ أيُّ الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما رواه البزار، وقال مجاهد لما قضى موسى الأجل مكث بعد ذلك عند صهره عشراً أخر فأقام عنده عشرين سنة ثم استأذنه في العود إلى مصر فأذن له فخرج إلى مصر ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ حتى إذا بلغ بريةً قريباً من طور سيناء في ليلة مظلمة شديدة الشتاء وأخذ امرأته الطلق ﴿ءَانَسَ﴾

(١) الشية: كل لون يخالف معظم لون، الفرس وغيره.

أي أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي من جهة التي تلي الطور ﴿نَارًاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ مكانكم وجمع الضمير وإن صح أن لم يكن معه غير امرأته لما كنى عنها بالأهل ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانه ﴿ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ الجملة في مقام التعليل لامكثوا ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ قرأ الكوفيون[1] بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ءَاتِيكُم مِّنۡهَا﴾ أي من النار لأجل إضاءتها الطريق ﴿بِخَبَرٍ﴾ الطريق وكان قد أخطأ الطريق ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾ قرأ عاصم بفتح الجيم وحمزة[2] بضمها والباقون بكسرتها ثلاث لغات، قال البغوي قال قتادة ومقاتل هي العود الذي قد احترق بعضها وجمعها جذى وفي القاموس الجذوة مثلثة القبسة من النار والجمرة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي نتخذه من النار ومن للابتداء أو للتبعيض، وقال البيضاوي هي عود غليظ سواء كان في رأسه نار أو لم يكن ولذلك بينه بقوله من النار فمن للبيان ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أي تستدفئون بها.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ﴾ أي جانب ﴿ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي الوادي الذي عن يمين موسى ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ متعلق بنودي يعني مباركة لموسى حيث كلمه الله تعالى هناك وبعثه نبياً، وقال عطاء يريد المقدسة ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل اشتمال من الشاطىء، لأنها كانت نابتة على الشاطىء قال ابن مسعود كانت شجرة خضراء تبرق، وقال قتادة ومقاتل والكلبي كانت عوجة، وقال وهب من العليق وعن ابن عباس أنها العذب ﴿أَن﴾ مفسرة لنودي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[3] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقال في طه ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] وفي النمل ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] والمقصود واحد، فهو إما رواية بالمعنى أو ذكر الله سبحانه في المحكي بالصفات المذكورة كلها واقتصر في الحكاية على بعضها كما اقتصر على بعض ما تكلم به في كل موضع فإنه ذكر في طه ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١٢] الخ ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: ١٧] وقال في النمل ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ﴾ [النمل: ٨] الخ ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ عطف على محذوف تقديره فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت فلما رآها ﴿تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ يعني كأنها حية صغيرة في سرعة حركتها وشدة اضطرابها ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ هارباً منها ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ أي لم يرجع فنودي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ عن المخاوف فإنه لا يخاف لدي المرسلون.

﴿ٱسۡلُكۡ﴾ أي أدخل ﴿يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ أي جيب قميصك ﴿تَخۡرُجۡ﴾ مجزوم في جواب الأمر ﴿بَيۡضَآءَ﴾ حال من المفعول المحذوف لتخرج أي تخرجها بيضاء ذات شعاع ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ متعلق ببيضاء ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ قرأ الكوفيون غير حفص وأهل الشام بضم الراء وسكون الهاء وحفص بفتح الراء وسكون الهاء والباقون بفتحهما وكلها

(١) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.
(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٣) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

لغات بمعنى الخوف، قال عطاء عن ابن عباس أمره الله أن يضم يده إليه ليذهب عنه الخوف وقال ما من خائف بعد موسى إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه، وقال مجاهد كل من فزع فضم جناحيه إليه ذهب عنه الفزع والجناح اليد كلها وقيل العضد، وقيل المراد من ضم الجناح السكون والتجلد والثبات عند انقلاب العصا حيةً استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه، قال البغوي أي اسكن روعك واخفض عليك جانبك لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] يريد ارفق بهم، وقال الفراء أراد بالجناح عصا معناه أضمم إليك عصاك، وقيل الرهب الكم بلغة حمير، قال الأصمعي سمعتُ بعض العرب يقول أعطني ما في رهبك أي ما في كمك معناه اضمم إليك يدك مخرجاً من الكم لأنه تناول العصا ويده في كمه حين قال له الله تعالى: ﴿خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ﴾ [طه: ٢١] والظاهر عندي أن هذا عطف تفسيري لقوله: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ أي ادخلها في جيبك والغرض من التكرير ترتب الأمرين عليه أحدهما التجلد وضبط النفس ودفع الخوف وإظهار الجراءة وهو المراد بقوله اضمم إليك جناحك أي يديك المبسوطتين اللتين تتقي بهما الحية في جيبك من الرهب أي من أجل دفع الرهب وثانيهما ظهور معجزة أخرى وهو المراد بقوله: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ ويدل على هذا قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢﴾ [طه: ٢٢] ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد قرأ ابن كثير وابن عمرو بتشديد النون والباقون بتخفيفها ﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾ أي حجتان قال في القاموس البرهان بالضم الحجة وبرهن عليه أقام البرهان فهو فعلالٌ وقيل هو فعلان من البره يقال بره الرجل إذا ابيض ويقال برهاء وبرهرهة للمرأة البيضاء وفي القاموس أبره أتى بالبرهان أو بالعجائب وغلب الناس ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾ أي كائنان من ربك صفة لبرهانان ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ متعلق بمحذوف أي مرسلاً بهما إلى فرعون ﴿وَمَلَإِيْهِۦٓۚ﴾ فهو صفة بعد صفة لبرهانان أو استئناف متعلق بمحذوف أي اذهب بهما إلى فرعون وملائه ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ في مقام التعليل أي لأنهم كانوا أحقاء بأن يرسل إليهم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣﴾ ضمير المفعول محذوف أي يقتلوني ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ وإنما قال لعقدة كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه ﴿فَأَرۡسِلۡهُ﴾ يعني هارون ﴿مَعِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿رِدۡءٗا﴾ أي معيناً يقال أردأتهُ أي أعنتهُ حال من الضمير المنصوب، وهو في الأصل اسم ما يعان به كالدفء، قرأ نافع بفتح[1] الدال من غير همزة والباقون بإسكان الدال والهمزة

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بنقل حركة الهمزة على الدال، فنافع وصلاً بالتنوين ووقفاً بالألف بدل التنوين، وأبو جعفر في الحالين بالألف ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

وحمزة على مذهبه في الوقف ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالرفع صفة لردأ أي رداءً مصدقاً لي وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الدعاء والضمير المرفوع عائد يعني إن أرسلته معي يصدقني بتقرير الحجة وإزاحة الشبهة وفصاحة اللسان وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه الفعل إسناده إلى المسبب، وقال مقاتل الضمير المرفوع عائد إلى فرعون والمعنى إن أرسلت مع هارون يصدقني فرعون بحسن تقرير هارون ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[١] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ قرأ الجمهور بحذف الياء وأثبتها ورش[٢] في الوصل فقط يكذبوني يعني فرعون وقومه حيث لا يطاوعني لساني عند المحاجة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي سنقويك فإن شدة العضد مستعار للتقوية فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد ﴿بِأَخِيكَ﴾ أي بإرسال أخيك هارون معك وكان هارون يومئذ بمصر ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي غلبة أو حجة ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾ أي فرعون وقومه ﴿إِلَيْكُمَا﴾ بمكروه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا أو بنجعل أي نجعل لكما بآياتنا أي بالمعجزات التي نعطيكما سلطاناً على الأعداء أو بمعنى لا يصلون والمعنى تمتنعون أي فرعون وقومه بآياتنا أي بسبب المعجزات أو قسم جوابه لا يصلون أو بيان للغالبون في قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنه صلة لما بينه أو صلة له على أن اللام فيه للتعريف لا بمعنى الذي به.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ معطوف على محذوف تقديره فجاء موسى إلى فرعون وقومه بالآيات البينات وهي العصا واليد فلما جاءهم ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ أي العصا ونحوه ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي مختلق لم يفعل قبله مثله أو سحر يعمله موسى ثم يفتريه على الله أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ السحر أو ادعاء النبوة ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كائناً في أيامهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[٣] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ فيعلم أني محق وأنتم مبطلون تجحدون بالحق بعد وضوح الآيات وبعدما استيقنت به أنفسكم ظلماً وعلوّاً معطوف على قالوا، والمراد حكاية القولين حتى ينظر فيهما فيميز الصحيح من الفاسد، وقرأ ابن كثير قال موسى بغير واو العطف كذلك هو في مصاحفهم لأنه في جواب كلامهم فهو استئناف في جواب ما قال موسى في جواب قولهم ﴿وَمَن تَكُونُ﴾ قرأ حمزة والكسائي[٤] بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية لكون المسند إليه مؤنثاً غير حقيقي يجوز فيه الأمران

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٢) ويعقوب في الحالين ـ أبو محمد ـ.
(٣) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٤) وخلف ـ أبو محمد ـ.

﴿لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ عطف على من جاء بالهدى يعني أعلم بمن تكون له عاقبة محمودة في الدار الآخرة، وقال البيضاوي المراد بالدار الدنيا وعاقبتها الأصلية هي الجنة لأن الدنيا خلقت مزرعة للآخرة مجازاً إليها والمقصود منها الثواب والعقاب إنما قصد بالعرض، وقال المحققون العقبى والعاقبة يطلقان على ما يعقب الحسنات من الثواب، والعقاب والعقوبة والمعاقبة يختص بما يعقب السيئات ويترتب عليها من العذاب قال الله تعالى: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] وقال ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢] و ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] و﴿ٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وقال الله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤] وقال ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقال ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ نفى علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه ولذلك قال ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ﴾ وهو كان وزير فرعون قال له فاطبخ لي الآجر، وقيل هو أول من اتخذ الآجر وبنى به ﴿عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ قصراً عالياً فإن التنكير للتعظيم ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ قرأ الكوفيون(١) بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ توهم أنه لو كان لكان في السماء ويمكن الترقي إليه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما يقولون أن للأرض والسماء خالقاً كان فرعون دهرياً لم يعتقد وجوب استناد الممكنات إلى الواجب ويزعم أنه من كان سلطاناً متغلباً كان إلهاً مستحقاً للعبادة، قال البغوي قال أهل التفسير جمع هامان العملة والفعلة حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ومن يطبخ الآجر والجص ومن ينجر الخشب ويضرب المسامير فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق أراد الله عزَّ وجلَّ أن يفتنهم فيه، فلمَّا فرغوا منه ارتقى فرعون وقومه فأمر بنشابة(٢) فرمى بها في السماء فردت إليه وهي متلطخة دماً فقال قد قتلت إله موسى وكان فرعون يصعده على البرازين، فبعث الله جبرئيل حين غروب الشمس فضربه بجناحه وقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق من عمل بشيء إلا هلك.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بغير الاستحقاق فإن الاستكبار بالحق لمن لا يكون فوقه كبير ولا مثله ولا دونه وما هو إلا الله سبحانه خالق كل ما سواه فهو المتكبر على الحقيقة المبالغ في الكبرياء ومن ثم قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار»(٣).

---

(١) ويعقوب ـ أبو محمد ـ. (٢) النشاب: النبل، والواحدة منها نشابة.

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس باب ٢٥، وابن ماجه في الزهد باب ١٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٦، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٤٢.

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة وابن ماجه عن ابن عباس ورواه الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة بلفظ «الكبرياء ردائي فمن نازعني في ردائي قصمته»[١] ورواه سمويه عن أبي سعيد وأبي هريرة بلفظ «الكبرياء ردائي والعزُّ إزاري فمن نازعني في شيء منهما عذبته»[٢] ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ قرأ نافع ويعقوب وحمزة والكسائي[٣] بفتح الياء وكسر الجيم على البناء للفاعل من المجرد والباقون بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول من الإرجاع ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ أي ألقيناهم ﴿فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ احذر قومك عن مثلها ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً﴾ قدوة لأهل الضلال بالحمل على الإضلال أو قدوة ورؤساء في الدنيا بإعطاء المال والجاه ﴿يَدۡعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ إلى موجباتها من الكفر والمعاصي جملة يدعون صفة لأئمة ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ يعني لا يدفع أحد عنهم عذاب الله تعالى عطف على يدعون ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾ طرداً عن الرحمة أو لعن اللاعنين يلعنهم الله والملائكة والمؤمنون عطف على جعلنا ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بمقبوحين ﴿هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ أي المبعدين الملعونين، قال أبو عبيدة من المهلكين، وعن ابن عباس من المشبوهين لسواد الوجه وزرقة العين يقال قبحه الله وكذا يقال شوهه الله إذا جعله قبيحاً ويقال قبحه قبحاً وقبوحاً إذا أبعده من كل خير.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا
وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ
فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ
مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ
تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى
مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾
ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا
كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٥٣، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٣٧.
(٢) أخرجه الحميدي في مسنده ١١٤٩.
(٣) وخلف ـ أبو محمد ـ.

يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن
نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن
لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ
لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي
أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن
شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة جواب قسم محذوف ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا﴾ ما مصدرية ﴿الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من الكتاب أي حال كونه موجباً للبصائر جمع بصيرة وهي نور في القلوب يبصر به قلوبهم حقائق الأشياء من الواجب والممكن على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية ويميز الحق من الباطل والرشد من الغي.

﴿وَهُدًى﴾ يهتدوا به إلى طريق النجاة وما فيه صلاح المعاش والمعاد ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي حال كون الكتاب سبيلاً لنيل رحمة الله إن جعلوا بها أو حال كونه مقتضًى لرحمة الله الأزلية عليهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا أو يكونوا على حال يرجى منهم التذكر فإن التذكر والخشية من ثمرات العلم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ من مقام موسى وهو الطور، قال قتادة والسدي أي بجانب الجبل الغربي، وقال الكلبي بجانب الوادي الغربي عنوا أنه ليس من باب إضافة الصفة إلى الموصوف بل الموصوف محذوف، قال ابن عباس يريد حيث ناجى موسى ربه والخطاب لرسول الله ﷺ يعني ما كنت يا محمد حاضراً ﴿إِذْ قَضَيْنَا﴾ أي أوحينا ﴿إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه وهم السبعون الذين اختارهم من قومه لميقات ربه، يعني إخبارك بقصة موسى إخبار بالغيب لا يمكن الاطلاع عليه إلا بالوحي فهو معجزة لك وبرهان على دعواك النبوة ولذلك استدرك بقوله ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي رجالاً مقارنين في كل عصر أو أهل قرون بحذف المضاف إن كان القرن بمعنى الزمان ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ يعني ولكنا أوحينا إليك لبعد الفترة واندراس العلوم وتغير الشرائع والاضطراب والتعارض في الإخبار لما أنا أنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى فتطاولت عليهم المدد ووقع التكاذب والتخالف فيما بينهم فحذف المستدرك وأقيم سببه مقامه، وقال البغوي إن الله قد عهد إلى موسى وقومه عهوداً في محمد ﷺ والإيمان به فلما طال عليهم العمر وخلقت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها، فمعنى الآية ما كنت حاضراً حين عهدنا إلى موسى في أمرك ولم يكن ذلك باستدعائك ولكنا فعلنا ذلك تفضلاً ابتدائياً حسماً لاعتذار من خالفك إذاً نشأنا قروناً

فتطاول عليهم نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إلى قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾، أي مقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ تذكرهم بالوعد والوعيد خبر ثان لكنت أو حال من الضمير في ثاوياً قال مقاتل يعني لم تشهد في أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك إلى أهل مكة وسائر الناس بالمعجزات وإخبار المغيبات ولولا ذلك لما تلوت قصصهم على هؤلاء ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي بناحية الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أن خذ الكتاب بقوة فالمراد بهذا وقت إعطائه التوراة وبالأول وقت استنبائه، وقال وهب قال موسى يا رب أرني محمداً ﷺ قال إنك لن تصل إلى ذلك وإن شئتَ ناديتُ أمته وأسمعتُك صوتهم قال نعم يا رب قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوا من أصلاب آبائهم. وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير نادى يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وروي عن ابن عباس قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوا من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات لبيك اللّهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لك لا شريك لك قال الله تعالى يا أمة أحمد إن رحمتي سبقت غضبي وعفوي عقابي قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني وقد أجبتُكم من قبل أن تدعوني وقد غفرتُ لكم من قبل أن تعصوني من جاء يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي دخل الجنة وإن كان ذنوبه أكثر من زبد البحر ﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لكن رحمناك رحمةً من ربك بإرسالك والوحي إليك واطلاعك على المغيبات أو أرسلناك أو علمناك رحمة من ربك ﴿لِتُنذِرَ﴾ متعلق بمحذوف وهو الفعل الناصب لقوله تعالى رحمة يعني رحمناك وأرسلناك وعلمناك لتنذر ﴿قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ صفة لقوم ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ فاعل أتاهم بزيادة من ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ والمراد بالقوم أهل مكة لم يبعث نبي بمكة بعد إسماعيل عليه السلام وكانت دعوة موسى وعيسى وغيرهما في بني إسرائيل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا ويتعظوا متعلق بقوله لتنذر.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما أتوا به من الكفر والمعاصي ولما كان أكثر الأعمال بتزاول الأيدي نسبت الأعمال إلى الأيدي تغليباً وإن كان بعضها من أفعال القلوب ﴿فَيَقُولُواْ﴾ منصوب لكونه معطوفاً على تُصيبهم والعطف بالفاء للسببية المنبهة بأن يكون سبباً لانتفاء ما يجاب به لولا الامتناعية وإنه لا يصدر عنهم هذا القول إلا بعدما أصابهم العقوبة ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ منصوب في جواب لولا التحضيضية تشبيهاً له بالأمر تقديره هلا كان منك إرسال رسول إلينا فاتباعاً منا ﴿ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ﴾ عطف على نتبع ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب لولا الامتناعية محذوفة والمعنى لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين لما بعثناك إليهم رسولاً وعاقبناهم بكفرهم من غير إنذار سابق على العقاب ولكن بعثناك إليهم قطعاً لاعتذارهم وإلزاماً للحجة عليهم نظير قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني

القرآن أو محمداً ﷺ رسولاً مصدقاً بالكتاب المعجز ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا﴾ يعني كفار مكة تعنتاً واقتراحاً ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُوتِيَ﴾ محمد ﷺ ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من الآيات كالعصا واليد البيضاء أو الكتاب جملة واحدة، وهذه الجملة معطوفة على مضمون جملة سابقة ولكن بعثناك إليهم قطعاً لاعتذارهم وإلزاماً للحجة فلما جاءهم الحق إلخ ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ القرآن الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يكذبوا موسى ولم يكفروا بما أوتي موسى يعني قد كذبوا موسى وكفروا بما أوتي موسى من قبل هذا فكيف يطلبون منك مثل ما أوتي موسى يعني أن أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم كفرة زمان موسى كفروا بما أوتي موسى، وقال الكلبي لما دعا النبيّ ﷺ أهل مكة إلى الإسلام بعثوا رجالاً إلى أحبار اليهود بالمدينة فسألوهم عن أمر محمد ﷺ فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فكفروا يعني أهل مكة بموسى وبما أوتي به ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ كذا قرأ أهل الحجاز والبصرة والشام على وزن اسم الفاعل يعنون محمداً وموسى صلّى الله عليهما وسلم، وقرأ الكوفيون سِحْران بكسر السين وإسكان الحاء على المصدر على حذف المضاف أو جعلهما سحرين مبالغةً أو عنوا بالسحرين التوراة والفرقان وعلى قول غير الكلبي قالوا يعني كفرة زمان موسى ساحران يعنون موسى وهارون ﴿تَظَاهَرَا﴾ أي تعاونا يعني محمد أو موسى بتوافق الكتابين أو موسى وهارون ﴿وَقَالُوا﴾ أي كفار مكة أو كفار من موسى ﴿ بِكُلٍّ﴾ أي بكل منهما أو بكل واحد من الأنبياء ﴿ كَافِرُونَ﴾ والظاهر قول الكلبي على ما يقتضيه السياق وبدليل قوله تعالى.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُوا﴾ يا أهل مكة والفاء في جواب شرط مقدر يعني إن كفرتم بالكتابين القرآن والتوراة وقلتم إنهما سحران فأتوا ﴿بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ أي مما أوتي محمد وموسى من القرآن والتوراة وإضمارهما لدلالة المعنى ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ مجزوم في جواب الأمر يعني إن تأتوا بأهدى منهما أتبعه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم إنهما ساحران ومن جاءا بهما ساحران وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أعني فأتوا وهذا من الشروط التي يراد بها الإلزام والتبكيت ومجيء حرف الشك للتهكم بهم ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى حذف المفعول للعلم به ولأن فعل الاستجابة يعدى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي فإذا عدى إليه حذف الدعاء غالباً والمعنى أنه إن لم يأتوا بكتاب أهدى ﴿فَاعْلَمْ﴾ أنهم ألزموا ولم يبق لهم حجة و ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إذ لو اتبعوا حجةً لأتوا بها عند الحاجة إليها ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ يعني لا أحد أضل ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ في موضع حال للتوكيد أو التقييد فإن هوى النفس قد يوافق الحق إذا كمل إيمان المرء قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[1] رواه البغوي في شرح السنة عن عبد الله بن عمرو وقال النووي

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة ١/ ٢١٣، والتبريزي في مشكاة المصابيح ١٦٧، والمتقي الهندي في كنز =

حديث صحيح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ قال الفراء يعني أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضاً، قال البيضاوي يعني في الإنزال ليتصل التذكير أو في النظم ليتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر، قال في المدارك التوصيل تكثير الوصل وتكريره، وقال ابن عباس معناه بيَّنا، قلتُ: يعني بيّن بعض الكتاب ببعض، وقال قتادة وصَّل لهم القول في هذا القرآن كيف صنع بمن مضى، وقال مقاتل بيَّنا الكفار مكة بما في القرآن من أخبار الأمم الماضية كيف عذبوا بتكذيبهم وقال ابن زيد وصّلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكرون متعلق بوصلنا.

أخرج ابن جرير والطبراني عن رفاعة القرظي قال نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا أحدهم، وأخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم رفاعة يعني أباه إلى النبيّ ﷺ فآمنوا فأوذوا فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل محمد ﷺ وقيل من قبل القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال كنا نحدث أنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على الحق حتى بعث الله محمداً ﷺ فآمنوا به منهم عثمان وعبد الله بن سلام وكذا ذكر البغوي وكذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا فشهدوا وقعة خيبر فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم فلمَّا رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا يا رسول الله إنَّا أهل ميسرة فائذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله فيهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال لما أتى جعفر وأصحابه والنجاشي أنزلهم وأحسن إليهم فلما أرادوا أن يرجعوا قال من آمن من أهل مملكته ائذن لنا فلنخدم هؤلاء في البحر ونأتي هذا النبي فنحدث به عهداً فانطلقوا وقدموا على رسول الله ﷺ فشهدوا معه أحداً وحنيناً وخيبر ولم يصب أحد منهم، فقالوا للنبي ﷺ ائذن لنا فلنأت أرضنا فإن لنا أموالاً فنجيء بها فننفقها على المهاجرين فإنّا نرى بهم جهداً فأذن لهم فانطلقوا فجاؤوا بأموالهم وأنفقوها على المهاجرين فأنزل الله فيهم الآية، وذكر البغوي عن سعيد بن جبير نحوه قال فأنزل الله فيهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذكر البغوي عن ابن عباس إن الآية نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام. ثم وصفهم الله تعالى فقال ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ يعني القرآن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الظرف متعلق بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي بأنه كلام الله عطف على يؤمنون ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ استئناف لما أوجب إيمانه ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين لله في التوحيد مؤمنين بمحمد ﷺ أنه نبي وذلك لما بشر به عيسى عليه السلام

=

العمال ١٠٨٤، وابن حجر في فتح الباري ١٣/٢٨٩.

حيث قال ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وكان ذكره في التوراة والإنجيل. وهذا استئناف آخر للدلالة على أن إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ وإنما هو أمر تقادم عهده وجاز أن يكون هذه الجملة بيان لقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ [غافر: ١١] فإنه يحتمل البعيد والقريب وبهذه الآية حمل على البعيد واندفع احتمال القريب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم وبالقرآن قبل نزوله بشهادة نبيهم وكتابهم ومرةً على إيمانهم بالقرآن بعد نزوله ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بصبرهم وبقائهم على الإيمان بالقرآن بعد نزوله كما كان قبل نزوله بخلاف غيرهم من أهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون به قبل نزوله ويستفتحون به على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً ولم يصبروا على الإيمان.

روى الشيخان في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطأها فأدَّبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»[١] ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ قال ابن عباس يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك، وقال مقاتل يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم من المشركين بالصفح والعفو، قلت: وجاز أن يقال يدفعون عداوة من عاداهم بالإحسان إليهم ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وقيل معناه يدفعون بالطاعة المعصية قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال رسول الله ﷺ: «اتبع الحسنة السيئة تمحها»[٢] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ أي القبيح من القول ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ قال البغوي كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون تباً لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا ديننا ولكم دينكم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ليس المراد التحيّة ولكنه سلام المتاركة معناه سلمتم منا لا نردكم بالشتم والقبيح ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لا نطلب دين الجاهلين ولا نحب دينكم الذي أنتم عليه قيل معناه لا نطلب صحبة الجاهلين، وقيل معناه لا نريد أن نكون من الجاهلين يعنون أنه إن صدر منا شتمكم وسبّكم في مقابلة ما صدر منكم شتمنا فنكون حينئذ مثلكم ونحن لا نريد ذلك نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين والجملة الشرطية أعني ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ إلى آخره معطوف على قوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قال البغوي وهذا كان قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال، قلتُ: وهذا القول من البغوي لا يطابق ما ذكر من سبب نزول الآية فإن الآية نزلت إمّا في عبد الله بن سلام وأصحابه وكان

---

(١) أخرجه البخاري في العلم باب ٣١، ومسلم في الإيمان حديث ٢٤١، والترمذي في النكاح باب ٢٥، والنسائي في النكاح باب ٦٥، والدارمي في النكاح باب ٤٨، وأحمد في المسند ٤/٤٠٢، ٤٠٥.

(٢) أخرجه الترمذي في البر باب ٥٥، والدارمي في الرقاق باب ٧٤، وأحمد في المسند ٥/١٥٣، ١٥٨، ١٦٩، ٢٢٨، ٢٣٦.

إسلامهم بعد الهجرة، وإما في أصحاب النجاشي حين قدموا مع جعفر بن أبي طالب وذلك في غزوة خيبر سنة ست من الهجرة، وإما في أربعين من أهل نجران وثمانية من أهل الشام وكل ذلك كان بعد الهجرة بعدما أمرنا بالقتال والله أعلم.

أخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب «قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة، قال لولا تعيرني نساء قريش يقلن إنه حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته أو من أحببته لقرابته ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد ومقاتل بمن قدر له الهدى وأخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعيد بن رافع قال سألتُ ابن عمر عن هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي جهل وأبي طالب قال نعم. وأخرج الشيخان والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله قال رسول الله ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»[1] فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية وأنزل الله في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس أن أناساً من قريش قالوا للنبي ﷺ إن نتبعك يتخطفنا الناس فأنزل الله ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ يعني أهل مكة عطف على ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ وما بينهما اعتراضات ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قال البغوي نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف أنه قال للنبي ﷺ إنا لنعلم أن الّذي تقول حق ولكنا إن اتبعناك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة وهو معنى قوله: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ كذا أخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عباس وأخرج النسائي عن ابن عباس أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال ذلك، والاختطاف الانتزاع بسرعة فرد الله عليهم ذلك وقال ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم نسكنهم بمكة ولم نمكن لهم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وذلك أن العرب في الجاهلية كان يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً وكان أهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ قرأ نافع ويعقوب[2] بالتاء

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٤٠، وتفسير سورة ٩، باب ١٦، وسورة ٢٨، باب ١، والأيمان باب ١٩، وأحمد في المسند ٥/ ٤٣٣.

(٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

الفوقانية لأجل الثمرات والباقون بالياء التحتانية للحائل بين الاسم المؤنث والفعل ولأن التأنيث غير حقيقي أي يجلب ويجمع إليه ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من كل جانب ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كان هذا حالهم وهم عبدة الأوثان فكيف يعرضهم للتخويف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ جهلة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا وقيل إنه متعلق بقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله إذ لو علموا لما خافوا غيره، وانتصاب رزقاً على المصدر من معنى يجبى فإن معناه يرزق رزقاً أو على الحال من الثمرات لتخصيصها بالإضافة ثم بيَّن أن الأمر بالعكس فإن الواجب أن يخافوا من بأس الله على ما هو عليه من الكفر والمعاصي بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية كانت حالهم كحالكم ﴿بَطِرَتْ﴾ أي أشرت وطغت وصفت القرية بوصف أهلها يعني طغى بنعم الله ولم يشكروها، قال عطاء عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعصوه وعبدوا الأصنام ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ منصوب على الظرفية يعني طغت مدة معيشتها فدمَّر الله وخرَّب ديارهم ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خربة وهي حجر وقرى قوم لوط تعليل لما سبق من إهلاك القرى ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ حال من مساكنهم والعامل فيه معنى الإشارة ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعدما أهلكوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منصوب على المصدرية أو الظرفية يعني إلا سكوناً قليلاً أو زماناً قليلاً، قال ابن عباس لم يسكنها إلا مسافر أو مار طريقاً يوماً أو ساعةً، وقيل معناه لم يبق من يسكنها إلا قليلاً من شؤم معاصيهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَٰرِثِينَ﴾ إذ لم يخلفهم أحد يتصرف بصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ﴾ أي لم يكن عادته إهلاك ﴿الْقُرَىٰ﴾ الكافرة ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ يعني أكبرها وأعظمها ﴿رَسُولًا﴾ ينذرهم خص الأعاظم ببعثة الرسل فيها لأن الرسل يبعث إلى الأشراف فإن الأتباع يتبعهم في الإيمان والكفر، ومن أجل ذلك كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل: «أسلم تسلم وإلا فعليك إثم الأريسيين»[1] والأشراف يسكنون المدائن والمواضع التي هي أم ما حولها ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ قال مقاتل يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيب الرسل والعتو بالكفر ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ من زخارف الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تتمتعون وتتزينون بها مدة حياتكم المنقضية ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الجنة ومراتب قربه تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبدي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف والتعقيب على محذوف تقديره ألا تتفكرون فلا تعقلون.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ عطف على قوله ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ والهمزة لإنكار تعقيب المعطوف للمعطوف عليه يعني أبعد هذا التفاوت الجلي جعلتم من وعدناه ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾

---

(١) انظر البخاري في الجهاد باب ٩٩، ١٠٢، وتفسير سورة ٣، باب ٤، ومسلم في الجهاد حديث ٧٣، وأحمد في المسند ١/٢٦٣.

أي بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي مدركه لا محالة لامتناع الخلف في وعد الله سبحانه ولذلك عطف بالفاء المفيدة للسببية ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ المشوب بالآلام المكدر بالمتاعب المستعقب للتحسر على الانقطاع ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذاب وثم للتراخي في الزمان أو الرتبة قرأ نافع[1] وابن عامر في رواية والكسائي ثم هو بسكون الهاء تشبيهاً للمنفصل بالمتصل قال قتادة يعني المؤمن والكافر لا يستويان بل المؤمن أحسن حالاً، قال البغوي وكذا أخرج ابن جرير أنه قال مجاهد نزلت في النبيّ ﷺ وأبي جهل. وأخرج من وجه آخر عنه أنها نزلت في حمزة وأبي جهل، وقال البغوي قال مقاتل ومحمد بن كعب نزلت في حمزة أو عليّ وفي أبي جهل، وقيل نزلت في عمار ووليد بن المغيرة

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ
مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ اللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ
فِي الْأُولَىٰ وَالْأٓخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ
النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)
وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ
يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا
بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ
مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْأٓخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا
وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَآ
أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ
الدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ
ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الصَّٰبِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا

---

(١) الصحيح: قرأ قالون عن نافع والكسائي، وأبو جعفر بخلف عنه: ثُمَّ هو، بسكون الهاء ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطف على يوم القيامة أو منصوب باذكر ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه للمشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم في الدنيا شركائي حذف مفعولي تزعمون لدلالة الكلام عليه قلت لعل المراد بالشركاء رؤساء الكفرة الذين ترك الأتباع عبادة الله واختاروا عبادتهم واتباعهم وتسميتهم شركاء على سبيل الاستهزاء ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ أي وجب ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ لوجوب مقتضاه والمراد بالقول: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وغيره من آيات الوعيد يعني قال رؤساء الكفار ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الاتباع مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ الضمير المنصوب العائد إلى الموصول محذوف ويعني أغويناهم ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ فغووا ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ الكاف صفة لمصدر فعل محذوف دل عليه أغويناهم تقديره فغووا غياً كما غوينا أي مثل ما غوينا وهو استئناف للدلالة على أنهم غووا باختيارهم مثل ما غوينا باختيارنا وإنا لم نفعل بهم إلا وسوسةً وتسويلاً وتسويلنا وإن كان داعياً لهم إلى الكفر فقد كان دعاء الله تعالى لهم بإقامة الحجج وبعث الرسل وإنزال الكتب أولى بالاتباع من تسويلنا وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية ويجوز أن يكون الموصول صفة وأغويناهم الخبر لأجل ما اتصل به من المقدر والملفوظ أعني فغووا كما غوينا فأفاد زيادة على الصفة وهو وإن كان فضلة لكنه صار من اللوازم ﴿تَبَرَّأْنَآ﴾ منهم ومما اختاروا من الكفر هوًى منهم ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بتبرأنا بتضمين معنى التوجه يعني تبرأنا منهم متوجهين إليك ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون أهواءهم وقيل ما مصدرية متصلة بتبرأنا أي تبرأنا من عبادتهم إيانا ﴿وَقِيلَ﴾ يعني للكفار عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ لتخلصكم من العذاب والمراد بالشركاء هاهنا الأصنام ونحوها المعبودون بالباطل ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ من فرط الحيرة أو لأجل ما كانوا يزعمون أنهم يشفعون عند الله ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ لعجزهم عن الإجابة والنصرة ﴿وَرَأَوُا۟﴾ يعني الكفار ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ لأنفسهم ولآلهتهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ جواب لو محذوف تقديره لو أنهم يهتدون في الدنيا لم يروا العذاب والأظهر أن لو للتمني أي تمنوا أنهم كانوا مهتدين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ عطف على الأول فإنه تعالى يسألهم أولاً سؤال توبيخ عن إشراكهم وثانياً عن تكذيبهم الرسل ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أي فصارت الأنباء عليهم كالعميان لا يهتدي إليهم وأصله فعموا عن الأنباء لكنه عكس مبالغةً ودلالةً على أن ما يحضر الذهر إنما يغيض ويرد عليه من خارج فإذا أخطأه لم يكن حيلة إلى استحضاره والمراد بالأنباء الأعذار في تكذيب الرسل، وقال مجاهد الحجج والمعنى أنهم لا يحييون بشيء ولا يأتون بحجة أم لم يكن عندهم حجة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد لقوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ قال البيضاوي وإذا كانت الرسل في الجواب عن مثل ذلك من الهول ويفوضون إلى علم الله

تعالى فما ظنك بالكفار، وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة أو العلم بأنه مثله ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام أو ترجي من التائب والمعنى فليتوقع الفلاح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ من يشاء لما يشاء فاختار محمداً ﷺ للنبوة من بين سائر الناس، قال البغوي نزلت جواباً للمشركين حين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعنون الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الخيرة اسم من الاختيار قائم مقام المصدر ويطلق بمعنى المفعول أيضاً يقال محمد خيرة الله من خلقه، ومعنى الآية ليس للعباد الاختيار في ذلك حتى يقولوا لولا أرسل إلينا فلان فهذا بمنزلة التأكيد فما سبق ولذلك خلا من العاطف ويؤيده سياق القصة أنها نزلت جواباً لما قال المشركون ويناسبه قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي تنزيهاً له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار غيره ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم أو مشاركة ما يشركونه به، وقيل ما في قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ موصولة في محل النصب على المفعولية ليختاروا العائد محذوف والمعنى ربك يختار ما كان لهم أي للعباد فيه الخيرة أي الخير والصلاح يعني كان إرسال محمد ﷺ لهم خيراً دون إرسال غيره، وعلى هذا التأويل مع ما فيه من التكلف لا حجة للمعتزلة على وجوب الأصلح على الله تعالى بل المراد أنه يفعل مفضلاً ما هو خير لهم غالباً وقيل ما كان لهم الخيرة نفي لاختيار العباد رأساً ودليل على كون العباد مجبورين في أفعالهم وهذا أيضاً باطل إذ لو كان المراد ذلك لنكر الخيرة ولم يورد بلام العهد المشير إلى اختيار معين وهو اختيار الرسل كما يدل عليه سبب النزول ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوة الرسول وحقده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعن فيه ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستحق للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحقها غيره تقرير لما سبق ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنه الجميل على الإطلاق وجمال غيره مستعار منه هو المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا يقولون ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] ابتهاجاً بفضله والتذاذاً بحمده لأجل التكليف ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في كل شيء، قال ابن عباس حكمه لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي إلى حكمه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالنشور بعد الموت.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني يا أهل مكة ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي دائماً من السرود وهو المبالغة والميم زائدة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا تطلع عليكم الشمس ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ تطلبون فيه المعيشة ومن للاستفهام للإنكار والمعنى لا إله غير الله يأتيكم به، قال البيضاوي كان حقه هل إله فذكر بمن على زعمهم أن غيره آلهة ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ موعظتي سماع تدبر واستبصار ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ بإسكان الشمس في وسط السماء ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ

فِيهِۚ﴾ استراحة عن تعب الأشغال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ آياتنا ولعله لم يصف الضياء بما يقابل السكون لأن الضوء نعمة بذاته مقصودة بنفسه ولا كذلك الليل ولأن منافع اليوم وأكثر من أن يذكروا، لذلك قرن به أفلا تسمعون وبالليل أفلا تبصرون لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ من للسببية متعلق بجعل لكم قدم عليه للحصر ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي من منافع الدنيا والآخرة في النهار فهو لف ونشر مرتب، وقال الزجاج يجوز أن يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من فضله فيهما قلتُ وعلى هذا إنما ذكر بالليل والنهار ولم يقل وجعل لكم الزمان لتغاير أنحاء السكون والابتغاء فيهما ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا على نعماء الله تعالى ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ أنهم يشفعون لكم وينجوكم من عذاب الله تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به وكان الأول توبيخ على اتباعهم رؤساءهم وترك عبادة الله باتباعهم وهذا بيان لفساد رأيهم ورجائهم الشفاعة من الحجارة ونحوها ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ أي أخرجنا عطف على يقول على سبيل الالتفات أو اعتراض ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه وهو نبيهم ﴿فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ أي حجتكم على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ حينئذ ﴿أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ غاب عنهم غيبة الضائع ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ في الدنيا من الباطل.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ قال البغوي كان ابن عمه لأنه كان قارون بن يصهر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب عليه السلام وموسى بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب عليهما السلام كذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج. وقال ابن إسحاق كان قارون عم موسى كان أخا عمران وهما ابنا يصهر بن قاهت ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة من قارون ولكنه نافق كما نافق السامري، وقال جلال الدين المحلي كان ابن عمه وابن خالته ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ قيل كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فكان يبغي عليهم أي يظلمهم، وقال الضحاك بغى عليهم بالشرك، وقيل بغى عليهم بالكبر والعلو وقيل معناه حسدهم وطلب الفضل عليهم، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة قال كان قارون ابن عم موسى أخي أبيه وكان قطع البحر مع بني إسرائيل وكان يسمى (   )[1] من حسن صوته بالتوراة لكن عدو الله نافق كما نافق السامريّ فأهلكه الله لغيّه إنما بغى الكثرة ماله ولده لكن قوله تعالى في سورة المؤمن ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤] يدل على أن قارون لم يؤمن بموسى قط لا ظاهراً ولا باطناً، قال شهر بن حوشب زاد قارون في طول ثيابه شبراً

(١) بياض في الأصل.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء»[١] رواه البغوي، وروى مسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى من يجر رداءه بطراً»[٢] وروى أحمد والنسائي بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعاً قال: «إن الله لا ينظر إلى مسبل بإزاره»[٣].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي الأموال المدخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي مفاتح صناديقه جمع مفتح بكسر الميم وهي التي يفتح بها وهذا قول قتادة ومجاهد وجماعة، وقيل مفاتحه أي خزائنه كما قال الله تعالى ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] أي خزائنه، وقياس واحدها الفتح، لكن على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ لا يدل على كثرة خزائنه غاية الكثرة فإن ما يحمله أربعون من الرجال لا يبلغ غالباً أربع مائة ألف درهم، وقال جرير عن منصور عن خيثمة قال وجدت في الإنجيل مفاتح خزائن قارون وقرستين بغلاً ما يزيد مفتاح منها على أصبع لكل مفتاح كنز، ويقال إن قارون أين ما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلمّا ثقلت عليه جعل من خشب فثقلت عليه فجعلت من جلود البقر على طول أصبع وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلاً وهذه الروايات لا يساعدها القرآن إذ العصبة لا يطلق إلا على الرجال دون البغال، قال البغوي واختلفوا في العصبة قال مجاهد ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال الضحاك عن ابن عباس ما بين الثلاثة إلى العشرة وقال قتادة ما بين العشرة إلى الأربعين وكذا في القاموس وقيل سبعون، وروي عن ابن عباس أنه قال كان يحمل مفاتحه أربعون رجلاً أقوى ما يكون من الرجال. ومعنى قوله ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي تنتقلهم وتميل بهم إذا حملوها لثقلها، وقال أبو عبيدة هذا من المقلوب تقديره ما أن العصبة لتنوء بها يقال ناء فلان بكذا إذا نهض به مثقلاً والجملة خبر إن وهي مع جملتها صلة ما وهي ثاني مفعولي آتيناه ومن الكنوز حال مقدم عليه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ظرف لتنوء ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ الفرح السرور وانكشاف الصدر بوجدان المرغوب والفرح المنهي عنه هو البطر بمعنى الطغيان والتكبر عن قبول الحق عندما يرى نفسه غنياً قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] في القاموس الفرح السرور والنظر وفسر البغوي لا تفرح بقوله لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح وإنما ذلك لأن الفرح بمعنى السرور عند وجدان المرغوب أمر طبعي لا اختيار للعبد فيه فلا يتصور عنه النهي، وقال البيضاوي والفرح بالدنيا مذموم مطلقاً لأنه يحبسه حبها والرضاء بها والذهول عن ذهابها فإن العلم بأن ما فيها من اللذات مفارقة لا محالة توجب التبرج وذلك قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وعلل النهي هاهنا

(١) أخرجه البخاري في اللباس باب ١، ٢، ٥، وفضائل الصحابة باب ٥، ومسلم في اللباس حديث ٤٢، ٤٣ ـ ٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في اللباس حديث ٤٨، وأبو داود في اللباس باب ٢٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٢٢، ٢/ ٣١٨.

بكونه مانعاً من محبة الله إيانا فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ بزخارف الدنيا المتكبرين بها غير شاكرين عليها، قال بعض المحققين قد ورد ذم الفرح في مواضع عديدة من القرآن، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] وقال ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٢٦] وقال ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [غافر: ٧٥] وقال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ [الأنعام: ٤٤] ولم يرخص في الفرح إلا في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] وقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥] وعندي أن الفرح في الدنيا بما يفيد في الآخرة محمود مطلقاً ومأمور به في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ والفرح بلذّات الدنيا إن كان مقروناً بالشكر فمحمود أيضاً حيث قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر كالصائم الصابر»[1] والفرح إن كان مقروناً بالطغيان والكفران فمذموم حقّاً فالمدح والذم إنما يتوجه إلى ما يتعلق به الفرح أو ما معه من الشكر أو الكفران وأما نفس الفرح والسرور بدرك المرغوب فأمر طبعي لا اختيار للعبد فيه فلا يتوجه إليه التكليف غير أنه إذا أحب العبد الله صادقاً لا يفرح إلا بما يرضى به ربه ولا يحب الله إلا من يحبه فلا يحب الله من يفرح بمرغوبه من حيث وهو مرغوبه لا من حيث هو مرغوب ربه والله أعلم.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من نعماء الدنيا ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني الجنة بأن تقوم بشكرها وتنفقها في مرضاة الله ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي لا تترك ترك المنسي ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني ما تحصل بها آخرتك فإن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة فإن الدنيا مزرعة الآخرة كذا قال مجاهد وابن زيد، وقال السدي نصيبك من الدنيا الصدقة وصلة الرحم، وقال علي رضي الله عنه لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب الآخرة، قال قال رسول الله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك»[2] رواه الحاكم والبيهقي بسند صحيح وأحمد في الزهد وروى البغوي وابن حبان وأبو نعيم في الحلية عن عمر بن ميمون الأودي مرسلاً نحوه، وقال الحسن أمر أن يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه يعني ما يكفيه وقال منصور بن ناذان لا تنس نصيبك من الدنيا قوتك وقوة أهلك ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أو أحسن عبادة الله بدوام الذكر والشكر والطاعة ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بإنعام متواتر غير منقطع بحيث لا تعد ولا تحصى ﴿وَلَا تَبْغِ﴾ أي لا تطلب ﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال البيضاوي نهي له مما كان عليه من الظلم والبغي، وقال البغوي كل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بسوء أعمالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الظرف منصوب على الحال من الضمير المرفوع ﴿عِندِىٓ﴾

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٠٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/١٤٨، والبغوي في تفسيره ٥/١٨٢، وشرح السنة ١٤/٢٢٤.

قرأ نافع وابن كثير[١] بخلاف عنه وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ظرف مستقر صفة لعلم أو لغو متعلق بأوتيتُه كقولك هذا عندي أي في ظني واعتقادي وفيه رد لقولهم ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يعني لم يحسن إليَّ الله من غير استحقاق مني تفضلاً محضاً حتى يجب عليَّ شكره والإحسان إلى عباده بل أوتيتُ الجاه والمال والتفوق على الناس حال كوني على علم كائن عندي أو في اعتقادي، قيل المراد به علم الكيميا، قال سعيد بن المسيب كان موسى يعلم الكيميا فعلَّم يوشع بن نون ثُلث ذلك العلم وعلّم كالب بن يوقنًا ثلثه وعلّم قارون ثُلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه وكان ذلك سبب أمواله. وقيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ بالصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب، قال سهل ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل رؤية منة الله في جميع الأفعال والأقوال والشقي من زين في عينيه أقواله وأفعاله وأحواله فافتخر بها وادعاها لنفسه فسوف يهلك يوماً كما خسف بقارون لما ادعى لنفسه فضلاً ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ جملة معترضة والاستفهام للتعجب والتوبيخ والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يتفكر قارون ولم يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ ولوعلم ذلك لما اغتر بماله ولم يتكبر ولو علم أن الله هو المهلك فهو المعطي وهو المانع لا إله غيره ولا استحقاق لأحد عليه وفيه رد لادعائه العلم وتعظمه به بنفي هذا العلم الجلي فإن الله قد أهلك عاداً الأولى وكان أشد منه قوة وأكثر جمعًا فإن شداد بن عاد ملك الأرض كلها ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فإنه تعالى مطلع عليها لا يحتاج إلى السؤال والاستعلام فيعاقبهم في الدنيا بإهلاك وفي الآخرة بإدخال النار، لما هدد الله قارون بذكر إهلاك من كان قبله ممن كانوا أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأنه لم يكن ذلك ما يخصهم بل الله مطلع على ذنوب المجرمين كلهم متقدميهم ومتأخريهم معاقبهم عليها لا محالة، قال قتادة يدخلون النار بغير سؤال ولا حساب، وقال مجاهد يعني لا يسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم، وقال الحسن لا يسألون سؤال استعلام بل يسألون تقريع وتوبيخ.

﴿فَخَرَجَ﴾ قارون يوماً عطف على قال ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ قال إبراهيم النخعي خرج هو وقومه في ثياب خضر وحمر وقال ابن زيد خرج في سبعين ألف عليهم المعصفرات، وقال مجاهد خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان عليهم المعصفرات، وقال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سروج من ذهب عليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاث مائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر على البغال الشهب ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على ما هو عادة الناس في الرغبة في الدنيا ﴿يَٰلَيْتَ﴾ يعني يا قوم ليت ﴿لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ تمنوا مثله لا عينه حذراً من الحسد وذلك لما كان بنو إسرائيل مؤمنين إنه ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الدنيا تعليل للتمني

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بما وعد الله للمؤمنين في الآخرة للذين تمنوا كذا قال مقاتل، وقال ابن عباس هم الأحبار من بني إسرائيل ﴿وَيْلَكُمْ﴾ الويل مصدر بمعنى الهلاك منصوب على المصدرية يعني هلكتم هلاكاً أو على المفعولية تقديره ألزمكم الله هلاكاً فهو في الأصل دعاء استعمل للزجر عما لا يرتضى ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما أوتي قارون بل من الدنيا وما فيها ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ متعلق بخير أو بثواب الله يعني ثواب الله لمن آمن خير أو متعلق بقال الذين اوتوا العلم يعني قالوا ذلك لمن آمن ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ كلام مستأنف أو حال من من الضمير في خير والضمير للكلمة التي تكلم بها الأحبار أو للثواب فإنه بمعنى المثوبة وللجنة أو للإيمان والعمل الصالح فإنهما في معنى السيرة والطريقة يعني لا يتأتى تلك الكلمة أو الثواب أو الجنة أو السيرة إلا الصابرون على الطاعات وعن المعاصي الزاهدون في الدنيا ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي أعوان يفيء إليهم الرجل عند المصيبة الفاء للتعليل ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ فيدفعون عنه عذاب الله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي الممتنعين مما نزل به من الخسف يقال نصره من عدوه فانتصر إذا منعه فامتنع عطف على فما كان، قال أهل العلم بالأخبار كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله أوحى إلى موسى أن يأمر قومه يعلّقوا في أرديتهم خيوطاً أربعةً في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء يذكرون به السماء إذا نظروا إليها ويعلمون أنه منزل منها كلامي فقال موسى يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم خضراً كلها فإن بني إسرائيل تحقر هذه الخيوط فقال له ربه يا موسى إن الصغير من أمري ليس بصغير فإذا هم لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير، فدعاهم موسى وقال إن الله يأمركم أن تعلقوا على أرديتكم خيوطاً خضراً كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعلت بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال أخا يفعل هذه الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم وهذا بدء عصيانه وبغيه فلمّا قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعل الحبورة لهارون وهي رئاسة الذبح فكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم إلى هارون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك في نفسه وأتى موسى فقال يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولستُ في شيء من ذلك وأنا أقرأ للتوراة لا صبر لي على هذا، فقال موسى ما أنا جعلتُها في هارون بل الله جعلها له فقال قارون والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل، فقال هاتوا عصيكم فخرجها وألقاها في القبة التي كان يعبد الله فيها فجعل يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اعتراها ورق أخضر فقال قارون والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، واعتزل قارون موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه في كل وقت ولا يزيد إلا عتواً وتجبراً ومعاداةً حتى بنى داراً وجعل بابها من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه.

قال ابن عباس: فلمّا نزلت الزكاة على موسى أباه قارون فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وكل ألف درهم على درهم وعن كل ألف شاة على شاة وعن كل ألف شيء على شيء ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيراً فلم يسمح بذلك نفسه فجمع بني إسرائيل، فقال لهم يا بني إسرائيل إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعمتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم قالوا أنت كبيرنا فأمرنا بما شئت فقال آمركم أن تجيئوا بفلانة البغي فنجعل لها جُعلاً حتى تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك خرج بنو إسرائيل فرفضوه، فدعوها فجعل لها قارون ألف درهم وقيل ألف دينار وقيل طستاً من ذهب، وقيل قال أمولك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل فلمّا كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك فتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض فقام فيهم فقال يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة ومن زنى وله امرأة رجمناه حتى يموت، فقال له قارون وإن كنت أنت؟ قال وإن كنت أنا، فقال إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، قال ادعوها فإن قالت فهو كما قالت فلما أن جاءت قال لها موسى يا فلانة أنا فعلتُ بك ما يقول هؤلاء؟ وعظم عليها وسأل بالّذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله تعالى فقالت في نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذي رسول الله، فقالت لا كذبوا ولكن جعل لي قارون جُعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً يبكي ويقول اللَّهم إن كنتُ رسولك فاغضب لي فأوحى الله إلى موسى إني أمرتُ الأرض أن تطيعك فمرها بما شئتَ، فقال موسى يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن معه فليلبث ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا فلم يبق مع قارون إلا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فأخذت الأرض بأقدامهم، وفي رواية كان سريره وفرشه فأخذته حتى غيبت سريره ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه في كل ذلك يتضرعون يناشد قارون الله تعالى والرحم حتى أنه ناشده سبعين مرة وموسى في كل ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه ثم قال يا أرض خذيهم فانطبت عليهم الأرض. وأوحى الله إلى موسى ما أغلظ قلبك له استغاث بك سبعين مرة فلم تغثه أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته، وفي بعض الآثار قال لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد، قال قتادة خسف به الأرض فهو يتجلجل(١) في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة وأصبحت بنو إسرائيل يتناقلون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وبكنوزه وبأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وبكنوزه وأمواله الأرض فذلك قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

---

(١) يتجلجل في الأرض: أي يغوص فيها. والجلجلة: حركة مع صوت.

﴿وَأَصۡبَحَ﴾ أي صار ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ﴾ أي منزلته، ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي منذ زمان قريب ﴿يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ﴾ هذه اللفظة عند البصريين من ذي للتعجب وكأن للتشبيه ومعناه ما أشبه الأمران ﴿ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ يعني الأمران سيئان مرتبطان بمشيئة الله لا لكرامة يقتضي البسط ولا لهوان يوجب القبض. وقال الخليل وي اسم فعل للتعجب والتندم فإن القوم تندموا فقالوا متندمين على ما سلف وكان معناه أظن ذلك وأقدره كما يقول كان الفرح قد أتاك أي أظن ذلك وأقدره ـ وقال قطرب ويك بمعنى ويلك حذف منه اللام وأن منصوب بفعل مقدر تقديره ويلك اعلم أن الله يبسط ويقدره أي يوسع ويضيق، وقيل ويكأن حرف تنبيه بمنزلة ألا، وعن الحسن أنه قال كلمة ابتداء تقديره وأن الله وقال مجاهد معناه ألم تعلم، وقال قتادة ألم تر، وقال الفراء هي كلمة تقدير كقول الرجل أما ترى إلى صنع الله وإحسانه وذكر أنه سمع أعرابية تقول لزوجها أين ابنك فقال ويكانَّه وراء البيت يعني أما ترينه وراء البيت ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ فلم يعطنا ما عنينا ﴿لَخَسَفَ﴾ قرأ حفص ويعقوب بفتح الخاء والسين على البناء للفاعل والعامة بضم الخاء وكسر السين على البناء للمفعول ﴿بِنَاۖ﴾ كما خسف بقارون ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لنعمة الله أو المكذبون برسله وبما وعدوا لهم من ثواب الآخرة لا يصلح هاهنا معنى ما أشبه في ويكأنه ويصلح غير ذلك من المعاني.

﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾

﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ صفة بعد صفة لتلك إشارة تعظيم كأنه قال: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ التي سمعت خبرها وبلغك وصفها ﴿نَجۡعَلُهَا﴾ خبر لتلك ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال الكلبي ومقاتل أي استكباراً عن الإيمان وقال عطاء غلبة وقهراً على الناس وتهاوناً بهم، وقال الحسن يطلبون الشرف والعز عند ذي السلطان، وعن عليّ كرم الله وجهه أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل القدرة يعني من كان من الولاة وأهل القدرة متواضعاً فهو لا يريد علوّاً في الأرض ﴿وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ قال الكلبي هو الدعاء إلى عبادة غير الله، وقال عكرمة هو أخذ أموال الناس بغير حق، وقال ابن جريج ومقاتل العمل بالمعاصي ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ قال قتادة أي الجنة، قلتُ العاقبة يستعمل فيما يعقب الحسنات ويتاب عليها كما أن العقاب يستعمل فيما يعقب السيئات وتنقم بها ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أي عشر أضعافها إلى سبع مائة ضعف وإلى ما شاء الله ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وضع المظهر موضع المضمر تهجيناً لحالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي إلاّ مثل ما كانوا يعملون حذف المثل وأقام ما كانوا يعلمون مقامه مبالغةً في المماثلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به كذا قال عطاء، وقال البغوي قال أكثر المفسرين يعني أنزل عليك القرآن ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يعني إلى مكة وقد رده يوم الفتح وإنما نكَّره لأنه في ذلك اليوم له شأن ومرجعا له اعتداد لغلبة رسول الله وقهره أعداء الله وظهور الإسلام وذل الشرك وهي رواية العوفي عن ابن عباس وهو قول مجاهد قال القتيبي معاد الرجل بلده لأنه ينصرف ثم يعود إلى بلده.

ذكر البغوي أن النبيّ ﷺ لما خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب فلمّا أمِّن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها فقال له جبرئيل عليه السلام أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال نعم، قال فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ فرده الله يوم الفتح كذا أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك والآية نزلت بجحفة بين مكة والمدينة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس المعاد الموت، قلت لأنه عود إلى الحالة الأصلية قال الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقال الزهري وعكرمة يعني إلى القيامة وقيل إلى الجنة كأنه لما حكم بأن العاقبة للمتقين أكد ذلك بوعد المحسنين ووعيد المسيئين ووعده بالعاقبة الحسنى في الدارين.

ولمّا قال كفار مكة للنبي ﷺ ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أنزل الله سبحانه ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها وروى أبو ربيعة عن قنبل وعن البزي أيضاً بالإسكان ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر يعني محمداً ﷺ من منصوب بفعل يدل عليها أعلم تقديره ربي أعلم الكائنات يعلم من جاء بالهدى ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما يستحقه من العذاب والإذلال يعني به المشركين وفي هذه الآية تقريراً لموعد السابق ولذا عقبه وكذا قوله ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي يوحى إليك ﴿ٱلْكِتَـٰبُ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء الاستثناء منقطع معناه لكن ألقاه ربك رحمة منه ويجوز أن يكون الاستثناء منفصلاً مفرغاً محمولاً على المعنى كأنه قال ما ألقى إليك ربك الكتاب لشيء إلا رحمةً أي لأجل الرحمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبهم، قال مقاتل وذلك حين دُعي إلى دين آبائه فذكَّر إلى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ يعني كفار مكة ﴿عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى معرفته وتوحيده وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمظاهرتهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا وما قبله يقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعليل للنهي ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ يعني إلا ذاته فإن ما عداه ممكن هالك معدوم في حد ذاته لا شيء إلا ووجوده مستفاد مستعار منه تعالى، قيل معناه كل عمل لغو باطل إلا ما أريد به وجهه وجملة كل شيء تعليل ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

تمت سورة القصص ويتلوها سورة العنكبوت إن شاء الله تعالى ـ ٢٨ ربيع الأول ـ سنة ١٢٠٦ هجري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة العنكبوت

آياتها تسع وستون وقال الشعبي عشر آيات من أولها مدنية. وهي مكيّة

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٞ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالٗا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي أن ناساً كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم إقرار بالإسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ فكتبوا إليهم أنه قد أنزل فيكم كذا وكذا فقالوا نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلنا فخرجوا فأتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ [النحل: ١١٠] الآية وأخرج أيضاً عن قتادة قال نزلت في ناس من أهل مكة خرجوا يريدون النبيّ ﷺ فعرض لهم المشركون فرجعوا فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم فخرجوا فقتل من قتل وخلص من خلص فنزل فيهم ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] الآية. وذكر البغوي عن ابن عباس قال أراد بالناس الّذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم، وأخرج ابن سعيد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن عمير قال نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية وكذا ذكر

البغوي قول ابن جريج، وقال قال مقاتل نزلت في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة. قلتُ: وهو أول من خرج من المسلمين مبارزاً يوم بدر فقتله عامر بن الحضرمي بسهم وكان أول من قتل كذا في سبيل الرشاد ولَمَّا جزع عليه أبواه وامرأته أنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

وقوع الاستفهام بعد ﴿الٓمٓ ۝١﴾ دليل على اسقلاله والمراد بالحسبان الظنُّ وهو متعلق بمضمون جملة للدلالة على جهة ثبوتها ولذلك يقتضي مفعولين أو ما يسدُّ مسدهما كقوله أن يتركوا والاستفهام للإنكار والتوبيخ وأن يقولوا تقديره لأن يقولوا ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ حال من فاعل يقولوا والمعنى أظنوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنَّا فالترك أوّل مفعوليه وغير مفتونين من تمامه ولقولهم هو الثاني كقولك حسبتُ ضربه للتأديب، أو المعنى أحسبوا أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم آمنا يعني لا يحسبوا ذلك بل يمتحنهم الله بالمشاق كالمهاجرة والمجاهدة وأنواع المصائب في الأنفس والأموال والأولاد ليتميز المخلص من المنافق والثابت في الدين من المضطر فيه ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات، وذكر البغوي أن الله تعالى أمرهم في الابتداء مجرد الإيمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشق على بعضهم فأنزل الله هذه الآية فالمعنى أحسبوا أن يتركوا على مجرد الإيمان وهم لا يفتنون بالأوامر والنواهي فإن مجرد الإيمان وإن كان مانعاً عن الخلود في العذاب لكن نيل الدرجات يترتب على وظائف الطاعات ورفض الشهوات ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأنبياء والمؤمنين فمنهم من نشر بالمناشير ومنهم من قتل وابتلي بنو إسرائيل بفرعون يسومهم سوء العذاب، الجملة متصل بقوله أحسِبَ أو بقوله لا يفتنون يعني ذلك سنة قديمة جارية في الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه أو معترضة لتسلية المؤمنين ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في قولهم أمنا معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ﴿السَّيِّئَاتِ إِلَّا﴾ الله عالم أزلاً ومعنى الآية ليتعلقن علمه حالياً يتميز به الذين صدقوا في الإيمان من الذين كذبوا فيه وينوط به ثوابهم وعقابهم، وقيل معناه ليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه وقال مقاتل ليرين الله وقيل ليميز الله الخبيث من الطيب.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي الكفر والمعاصي فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أن يفوتنا فلا نقدر على الانتقام منهم، وأن مع صلتها ساد مساد مفعولي حَسِبَ معطوف على أحَسِبَ وأم منقطعة بمعنى بل والهمزة والإضراب لأن هذا الحسبان إبطال من الحسبان الأول لأن في الحسبان الأول يقدر أن لا يمتحن لإيمانه وفي هذا أن لا يجازي بمساويه وقالوا الأول في المؤمنين وهذا في الكافرين، قلتُ: وجاز أن يكون أم متصلة والإنكار ورد على أحد الحسبانين المتردد فيهما بالهمزة وأم والنكرة في حيز النفي المستفاد من الإنكار يعم فالمعنى كلا الحسبانين باطلان فلا تحسبوا أيها المؤمنون أن لا تمتحنوا بل تمتحنون بالمصائب لتنالوا الدرجات الرفيعة ولا يحسب أعداؤكم أن لا يعذبهم الله في الدنيا والآخرة بل يعذبهم الله في الدنيا بأيدي المؤمنين وفي الآخرة بعذاب

من عنده والحاصل أن المؤمنين يمتحنون بالمصائب ثم يكون الغلبة لهم في آخر الأمر ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ما موصولة مرفوعة على الفاعلية أو موصوفة منصوبة على التميز من الضمير المبهم المرفوع والمخصوص محذوف أي بئس الذي يحكمونه حكمهم هذه أو بئس حكماً يحكمونه حكمهم هذا.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس الرجاء بمعنى الخوف أي من يخشى البعث والحساب وعذاب الله، وقال سعيد بن جبير من كان يطمع في ثواب الله، قلتُ: وجاز أن يكون المعنى من كان يرجو رؤية الله فيستدل بهذه الآية أن رؤية الله في الدنيا غير واقع إلا ما قيل إن رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة المعراج وكان ذلك خارجاً من الدنيا فمن ادعى رؤية الله في الدنيا برأي العين فقد كذب ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ يعني أجل لقائه يحذف المضاف ووقته الموعود له ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة، قال مقاتل يعني يوم القيامة لكائن فليبادر إلى ما يحقق رجاءه وينجوه عما يخاف عنه وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعقائدهم وأفعالهم ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ أعداء الله يعني الكفار في الحرب أو نفسه في الكف عن الشهوات المنهية والترفع والصبر على الطاعات والشيطان في دفع وساوسه عطف على الشرطية السابقة ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأن منفعته راجعة إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا حاجة له إلى طاعتهم وإنما كلف عبادة رحمةً عليهم ومراعاةً لمصالحهم الجملة تعليل لما سبق ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يعني نذهب سيئاتهم بحسناتهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(١) رواه مسلم، وقد مر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ منصوب بنزع الخافض ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة يعني لا نضيعها وقيل معناه نعطهم أكثر مما عملوا عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى ما شاء الله وقيل أحسن بمعنى حسن.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أمرناه بإتيان فعل ذا حسن أو كان في ذاته حسن تفرط حسنه متلبساً ذلك الفعل بوالديه أي يبرهما ويعطف عليهما، وقيل معناه ووصينا الإنسان ذا حسن بأن يبرهما. أخرج مسلم والترمذي والبغوي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص وهو سعد بن مالك أبو إسحاق الزهري أحد العشرة المبشرة رضي الله عنه كان من السابقين الأولين وكان باراً بأمه أنه لما أسلم قالت أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد الشمس (قد أمر الله بالبر وفي رواية)، قالت ما هذا الّذي أحدثت والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفرَ، وفي رواية حتى ترجع إلى ما كنتَ عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر

(١) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ١٦، وأحمد في المسند ٢/٣٥٩، ٤٠٠، ٤١٤.

يقال قاتل أمه فنزلت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ بإضمار القول أي وقلنا له وإن جاهداك لتشرك بي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بألوهيته عبر عن نفيها بنفي علم بها إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فضلاً عما علم بالأدلة القطعية بطلانه ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» رواه أحمد والحاكم، وصححه عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري، وفي الصحيحين وسنن أبي داود والنسائي عن علي رضي الله عنه «لا طاعة لأحد في معصية الله إنما الطاعة في المعروف» قال البغوي ثم إنها أي أم سعد مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب، وقيل لبثت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد وقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركتُ ديني إن شئت كلي وإن شئتِ فلا تأكلي فلمّا أيست منه أكلت وشربت ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه ونزلت أيضاً في قصة أم سعد التي في لقمان والتي في الأحقاف ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ من الأنبياء والشهداء والأولياء أي نجعلهم في جملتهم ونحشر معهم أو في مدخلهم وهي الجنة والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين ومتمنى أنبياء الله المرسلين فإن كمال الصلاح عبادة عن عدم شيء الفساد في الاعتقاد والأعمال والأخلاق والأشغال عطف على ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾ وما بينهما اعتراض.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم فقال المسلمون هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفر لهم فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] الآية في سورة النساء فكتبوا بها إلى من بقي بمكة منهم وأنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فردوهم فنزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على ما سبق ذكر المؤمنين أولاً ثم ذكر المنافقين ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ بأن عذبهم الكفار على الإسلام ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ الأذى الذي لحقهم من الكفار ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة أي جزع من عذاب الناس ولم يصبر فأطاع الناس وترك الإسلام كما يترك المسلمون الكفر والمعاصي بخوف عذاب الله في الآخرة والجملة الشرطية عطف على صلة من، قال ابن عباس رضي الله عنه فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزّبوا فقالوا نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فنزلت ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ [النحل: ١١٠] الآية فكتبوا بذلك فخرجوا فلحقهم فنجا من نجا وقتل من قتل، وأخرج عن قتادة أنها نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فتح وغنيمة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدين جواب قسم محذوف في اللفظ وفي المعنى جزاء للشرط وهذه الشرطية معطوفة على شرطية سابقة أعني فإذا أوذي، وقيل الآية نزلت في المنافقين ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الهمزة للإنكار والواو للحال والإنكار راجع إلى الحال والمعنى ليس الحال أنهم يقولون ذلك وليس الله بعالم بما في صدورهم بل الحال أن الله

عالم بما ﴿فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الإخلاص والنفاق فيجازي المنافقين على نفاقهم أو للعطف على مضمون ما سبق يعني نافقوا ولا يخفى ذلك على الله ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ جواب قسم محذوف والجملة معترضة وعداً للمؤمنين ووعيداً للمنافقين أو معطوف على مضمون إنكار نفي علمه تعالى تأكيد له ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مخلصين ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيجازي كلاً على حسب ما أضمر، قال الشعبي هذه الآيات العشر[1] من أول السورة إلى هنا مدنية وما بعدها مكية.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني كفار مكة كذا قال مجاهد ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ قال الكلبي ومقاتل قاله أبو سفيان لمن آمن من قريش اتبعوا ديننا وملة آبائنا عطف على ما سبق من ذكر المنافقين ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي إن كان ذاك خطيئة أو إن كان ذاك خطيئة إن كان بعث ومؤاخذة أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم بالاتباع مبالغة في تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم تشجيعاً لهم، وقال الفراء لفظه أمر ومعناه جزاء مجازه إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم كقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩] ولمَّا كان في كلامهم تشجيعاً على الكفر والمعاصي ردَّ الله عليهم قولهم وكذبهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ الجملة حال من فاعل قال ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في الإخبار بالحمل عنهم المستفاد من قولهم ولنحمل خطاياكم من الأولى للتبيين والثانية مزيدة والتقدير وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي أوزار أعمالهم التي عملوا بأنفسهم جواب القسم المقدر وهو حكاية قسم لا إنشائية فهو خبرية معطوفة على ما هم بحاملين ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لما تسببوا له بالإضلال وهو الحمل على المعاصي من غير أن ينقص من أوزار أتباعهم ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الأباطيل التي أضلوا بها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ
إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ
وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ
فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ

(١) على عدد غير الكوفيين.

أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ
أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ
بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ
إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ
وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ
إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ
فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ
أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا
ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿فَلَبِثَ﴾ عطف على أرسلنا فدل على أنه بعد الإرسال لبث ﴿فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ طوفان الماء يقال لما طاف بكثرة من سيل ظلام أو نحوها طوفان يعني فغرقوا ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفر حال من مفعول أخذهم، قال ابن عباس بعث نوح لأربعين سنة وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وكان عمره ألفاً وخمسين سنة، أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه وذكره البغوي، وعن وهب أنه عاش الفاً وأربع مائة سنة فقال له ملك الموت يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا قال كدار لها بابان دخلت وخرجتُ ولم يقل تسع مائة وخمسين عاماً لأن اللفظ أخصر ولأن المقصود بيان طول مصابرته على مكائد أمته فكان ذكر الألف أفخم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني نوحاً ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ الذين ركبوها معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين، وقيل عشرة نصفهم ذكور ونصفهم إناث وقد مر في سورة هود وسورة الأعراف تمام القصة ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي السفينة أو الحادثة ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتعظون ويستدلون بما ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف على نوح يعني وأرسلنا إبراهيم أو منصوب بإضمار اذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ظرف لأرسلنا أي أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره بحيث عرف الحق وأمر الناس به أو بدل اشتمال منه إن قُدّر اذكر ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي خافوا واحذروا

عذابه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه تعليل للأمر بالعبادة والتقوى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جزاؤه محذوف والتقدير إن كنتم تعملون الخير والشر وتتميزون بينهما أو كنتم تنظرون بنظر العلم دون نظر التعصب والجدال أو كنتم من أولي العلم والتميز لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم مما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ حجارة لا تضر ولا تنفع ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ منصوب على المصدر أي تكذبون كذباً أو تقولون قولاً ذا إفك، في تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله أو على العلية أي تخلقونها وتنحتونها للإفك أو على المفعولية على أن المعنى تخلقون شيئاً ذا إفك والجملة معترضة لبيان شناعة حالهم وكذا ما بعده أو استدلال على شرارة ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل ﴿ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الأوثان وغيرها ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليل آخر على شرارة ذلك من حيث إنه لا يجدي نفعاً ورزقاً يحتمل المصدر أي لا يستطيعون أن يرزقوكم، ويحتمل أن يراد به المرزوق وتنكيره للتعميم والتحقير أي لا يملكون شيئاً من الرزق ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ كله فإنه المالك لا غير ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ متوسلين إلى مطالبكم مقيدين لما أعطاكم من النعم بشكره مستعدين للقائه بهما فإنه ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ حال مقدرة من فاعل اشكروا.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ أي تكذبوني ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رسلاً من قبلي فلم يضرهم تكذيبهم إياهم وإنما أضر أنفسهم حيث تسبب لمَّا حلَّ بهم من العذاب فكذا تكذيبكم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الذي يزيل الشك يعني لا يضره تكذيب من كذبه وليس الواجب عليه هداية الخلق إذ ليس ذلك في وسعه هذه الآية وما بعدها إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٨٢] جاز أن يكون من كلام إبراهيم من جملة قصته وجاز أن يكون اعتراضاً بذكر شأن النبيّ ﷺ وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم توسط بين طرفي القصة من حيث إن مساقها تسلية لرسول الله ﷺ بأن أباه خليل الله كان في مثل حالك من مخالفة القوم وتكذيبهم إياه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي(١) بالتاء الفوقانية خطاباً والباقون بالياء التحتانية غيبةً الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم ينظروا ولم يروا، أو الواو للحال والإنكار إنكار لحال عدم الرؤية عند التكذيب تقديره فقد كذب أمم من قبلكم والحال أنهم قد رأوا ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أي كيفية بدء خلقهم فلم يعتبروا به خلقهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يخرج طفلاً ثم يتحول أحوالاً حتى يموت ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إلى الحياة بعد الموت معطوف على أولم يروا لا على يُبدىء فإن الرؤية غير واقعة عليه ويجوز أن يأوّل الإعادة بأن ينشىء في كل سنة مثل ما كان في السنة السابقة من النبات والثمار ونحوها فحينئذ يعطف على يبدىء ويجوز أن يعطف على يبدىء ويجعل وقوع الرؤية على ما يدل على إمكان الإعادة رؤية عليها مجازاً ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإعادة أو ما ذكر من الأمرين ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء ولا يتعب فيه.

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

﴿قُلْ سِيرُواْ﴾ حكاية خطاب من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بتقدير القول يعني قلنا لإبراهيم قل سيروا أو خطاب لرسول الله ﷺ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ كان القياس أن يقول ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فغيره على هذا النمط لأن المقصود إثبات جواز الإعادة. فلمّا قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج بأن الإعادة مثل الإبداء فمن كان قادراً على الإبداء لا يعجزه الإعادة فكأنه قال ثم الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى المعنى أبرز الله اسمه وأوقعه مبتدأ، قال بعض المحققين ثم ينشىء النشأة الآخرة معطوف على محذوف مفهوم ممّا سبق تقديره قل: سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق فقد أنشأ الله النشأة الأولى ثم الله الذي أنشأ النشأة الأولى ينشىء النشأة الآخرة. قرأ ابن كثير وأبو عمرو النشأة بفتح الشين ممدوداً هاهنا وفي النجم والواقعة والباقون بإسكان الشين من غير ألف، ووقف حمزة على وجهين في ذلك أحدهما أن يلقى الحركة على الشين ثم يسقطها طرداً للقياس والثاني أن يفتح الشين ويبدّل الهمزة ألفاً اتباعاً للخط قال الداني ومثله قد يسمع من العرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته مقتضى ونسبة ذاته إلى الممكنات بأسرها سواء فيقدر على النشأة الأخرى كقدرته على الأولى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه في الآخرة بالنار وفي الدنيا بالخذلان وبالحرص أو بسوء الخلق أو بالأعراض عن الله أو اقتراف البدعة ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمته بإدخال الجنة في الآخرة وفي الدنيا بالتائيد والقناعة وحسن الخلق والإقبال على الله وإتباع السنة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم عن إدراككم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إن فررتم من قضائه بالتواري في الأرض أو الهبوط في مهاربها أو بالتحصن في السماء أو القلاع الذاهبة فيها وجاز أن يكون ولا في السماء تقديره ولا من في السماء عطفاً على اسم ما كقول حسان(١):

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم عن بلاء يظهر في الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلائل وحدانيته أو بآياته المنزلة في كتبه ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ أي بالبعث ﴿يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي ييئسون منها يوم القيامة أو المراد بالرحمة الجنة وهم آيسون في الدنيا منها لإنكارهم البعث ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه إن كان من كلام إبراهيم فالتقدير قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ وإن كان معترضاً من الله تعالى فمعطوف على قوله قل سيروا لا على مقولة قل ثم رجع إلى قصة إبراهيم فقال ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ عطف على أرسلنا إبراهيم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ

(١) البيت من الوافر، وهو في ديوان حسان بن ثابت ص ٧٦.

﴿حَرِّقُوهُ﴾ قال ذلك بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وأسند الفعل إلى كلهم لرضائهم به ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ معطوف على محذوف تقديره فاتفقوا على تحريقه فقذفوه في النار فأنجاه الله منها بأن جعله برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ هي حفظه من أذى النار وإخمادها مع عظمها في زمان يسير وإنشاء روض في مكانها ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم هم المنتفعون بها.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه عطف على ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ﴾ مصدر بمعنى المفعول يعني مودوداً أو على تقدير المضاف أي سبب مودة قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب(١) بالرفع(٢) مضافاً إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾ بالجر على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي مودودة أو سبب مودة بينكم يعني يود بعضكم بعضاً ويتواصلون بسبب اجتماعكم على عبادتها، والجملة صفة أوثاناً أو خبر أن على أن ما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف وهو المفعول الأول أي إنما اتخذتموه من دون الله أوثاناً سبب للمودة منكم وقرأ حفص وحمزة(٣) مَوَدَّة مضافاً إلى بينكم منصوباً على العلمية أي لتتودوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادة الأوثان وأوثاناً المفعول الأول لاتخذتم ومفعوله الثاني محذوف أي اتخذتما وثاناً معبودين من دون الله وجاز أن يكون مودة مفعولة الثاني بتقدير مضاف أو بتأويلها بالمودودة أي اتخذتم أوثاناً سبب المودة بينكم أو مودودةً، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر(٤) مودَّة منونةً ناصبةً بينكم منصوباً على ما ذكرنا في قراءة حفص ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بمودة يعني مودة بينكم تنحصر في الدنيا وتنقطع بعده ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يكون الأخلاء بعضهم لبعض عدواً ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يقع التناكر والتلاعن بين الكفار أو بينهم وبين الأوثان والجملة معطوفة على مقولة قال: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ جميعاً أيها العابدون والمعبودون ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿فَـَٔامَنَ﴾ عطف على قال ﴿لَهُۥ﴾ أي لإبراهيم ﴿لُوطٌ﴾ لكونه معصوماً عن تكذيب الأنبياء وهو أول من صدق إبراهيم وكان ابن أخيه هاران ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي إلى حيث أمرني ربي أو إلى حيث يتيسّر لي هناك عبادة ربي، أو المعنى إني مهاجر من قومي معرض عنهم متوجهاً إلى ربي وهي السفر في الوطن على اصطلاح الصوفية، قال المفسرون هاجر إبراهيم من كوثى (وهو من سواد كوفة) إلى حران ثم أتى الشام ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر(٥) فنزل إبراهيم فلسطين ولوط السدوم،

---

(١) ورويس ـ أبو محمد ـ. (٢) بلا تنوين ـ أبو محمد ـ.

(٣) وروح ـ أبو محمد ـ. (٤) وأبو جعفر وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٥) عن أسماء بنت أبي بكر قالت هاجر عثمان إلى الحبشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم انه اول من هاجر بعد ابراهيم ولوط وعن ابن عباس قال اول من هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم =

قالوا كان إبراهيم حين هاجر ابن خمس وسبعين سنة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعد إسماعيل ﴿إِسْحَٰقَ﴾ بعدما أيس من الولادة لكبر سنه وكبر امرأته وكونها عاقراً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ولد الولد نافلةً ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي إبراهيم ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على هجرته إلينا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾، بإعطاء الولد في غير أوانه والذرية الطيّبة كذا قال السديُّ واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر كذا قالوا، قلتُ لعل أجره في الدنيا اللذة في الذكر والفكر والعبادة لله فوق ما يستلذون بها أهل الدنيا من المستلذات الحسنة نظيره قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي في عداد الكاملين في الصلاح عطف على ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وغير الأسلوب من الفعلية إلى الاسمية للدلالة على استمرار الآخرة دون الدنيا.

﴿وَلُوطًا﴾ عطف على إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالهمزتين على الاستفهام للإنكار والتوبيخ والباقون بهمزة واحدة على الخبر ﴿لَتَأْتُونَ﴾ جواب قسم محذوف ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الجملة صفة للفاحشة على طريقة ولقد أمر على اللئيم يسبني، أو حال أو مستأنفة لكونه فاحشة ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ بيان للفاحشة ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن مرَّ بهم من المسافرين فترك الناس الممرَّ بهم، وقيل معناه تقطعون سبيل النساء بإيثار الرجال على النساء ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، أي في مجالسكم ولا يقال النادي النادي، إلا لما فيه أهله، روى البغوي عن أبي صالح مولى أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قلت ما المنكر الذي كانوا يأتون؟ قال: «كانوا يحذفون أهل الطرق ويسخرون بهم»[1] رواه أحمد والترمذي وغيرهما، قوله يحذفون أهل الطريق أي يرمونهم بالبنادق، قال البغوي ويروى أنهم كانوا يجلسون في مجالسهم عند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مر بهم عابر سبيل قيل خذوهم فأيُّهم أصابه فهو أولى به، وقيل كان يأخذ ما معه وينكحه ويغرنه ثلاثة دراهم ولهم قاض بذلك، وقال القاسم بن محمد كانوا يتضارطون في مجالسهم، وقال مجاهد كان يجاهد بعضهم بعضاً في مجالسهم، وعن عبد الله بن سلام كان يبزق بعضهم على بعض، وعن مكحول قال كان من أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار والصفير والحذف واللوطية ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ

= عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى ابراهيم. وعن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان بين عثمان ورقية وبين لوط من مهاجر ـ ١٢ ـ منه رحمه الله ـ.

(١) أخرجه الترمذي في تفسيرة سورة ٢٩، باب ٢.

﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾ عطف على قال ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ استهزاء ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما أوعدتنا به من نزول العذاب أو في استقباح تلك الأفعال أو في دعوى النبوة المفهوم من التوبيخ ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة واستبانها لما بعدهم، وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بالبشارة بالولد والنافلة أعني إسحاق ويعقوب ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ قرية سدوم والإضافة لفظية لأن معناه الاستقبال ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم بإصرارهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر والمعاصي ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ اعتراض عليهم بأن فيها من لم يظلم أو معارضة للموجب بالمانع وهو كون النبي بين أظهرهم ﴿قَالُواْ﴾ أي الرسل وهم الملائكة ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ تسليم لقوله مع ادعاء مزيد العلم وجواب عنه بتخصيص أهل القرية بمن عداه وعدى أهله أو تأقيت الإهلاك بإخراجهم عنها وفيه تأخير البيان عن الخطاب وذلك جائز وإنما لا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ﴾ في علم الله تعالى ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب أو في القرية تعليل للاستثناء.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ﴾ أي ألحقه المساءة والغم ﴿بِهِمۡ﴾ أي بسبب الرسل مخافة أن يقصدهم قومه بسوء وأن صلة لتأكيد الفعلين واتصالهم ﴿وَضَاقَ﴾ لوط ﴿بِهِمۡ﴾ بسبب الرسل ﴿ذَرۡعٗا﴾ تميز من النسبة والذرع الطاقة يقال فلان طويل الذراع أي شديد القوة لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصيرها، والمعنى ضاق طاقته بشأنهم وتدبير أمرهم في الحفظ عن قومه ﴿وَقَالُواْ﴾ أي الرسل لما رأوا فيه أثر الغم والمساءة ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ﴾ على تمكّنهم منّا أو لا تخف تمكّنهم منا ولا تحزن بإهلاكنا إياهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ تعليل للنهي، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر[1] بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل وموضع الكاف نصب عند الكوفيين ويؤيده عطف ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ بالنصب وعند البصريين محل الكاف جر ونصب أَهْلَكَ بإضمار فعل أي وننجي أهلك أو بالعطف على المحل البعيد للكاف فإن الإضافة اللفظية في حكم الانفصال وهو في الأصل منصوب ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالتشديد من التفعيل والباقون بالتخفيف من الأفعال ﴿عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا﴾ أي عذاباً سمي بذلك لأنه يقلق المعذب من قولهم ارتجز إذا ارتجس أي اضطرب ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال مقاتل الخسف والحصب ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ ﴿وَلَقَد

(١) ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ.

تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي من قريات لوط ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ قال ابن عباس: هي آثار منازلهم الخربة، وقال قتادة هي الحجارة الممطورة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وقال مجاهد هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض، وقيل هي حكايتها الشائعة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون في الآيات تدبر ذوي العقول.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد
تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ
﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟
سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم
مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ
أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن
شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾
خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ
فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى
صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن
رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ
شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره وأرسلنا إلى مدين معطوفاً على ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [هود: ٢٥] ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ قيل الرجاء هاهنا بمعنى الخوف يعني خافوا عذاب اليوم الآخر أو المعنى افعلوا فعلاً ترجون به ثواب الآخرة فأقيم المسبب مقام السبب ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها وجاز أن يكون الحال منتقلة والمعنى لا تفسدوا في الأرض على قصد الإفساد احتراز عما إذا أفسدوا على قصد الإصلاح كالقتل والجرح وتخريب الديار وقطع الأشجار في حرب الكفار من أهل الحرب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في دعوى النبوة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة

وقيل صيحة جبرئيل لأن القلوب ترجف ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين والمراد من دارهم بلدهم أو دورهم ولم يجمع للأمن من اللبس ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ منصوبان بإضمار اذكرا وفعل دل عليه ما قبله مثل أهلكنا معطوف على قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ قرأ حمزة وحفص ويعقوب ثمود غير منصرف على تأويل القبيلة ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ﴾ مع ما عطف عليه جملة معترضة ﴿لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي بعض مساكنهم أو المعنى قد تبين لكم إهلاكهم من مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ الشيطان ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الّذي بيّن لهم الرسل الموصل إلى الجنة ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قال مقاتل وقتادة والكلبي كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على الهدى، والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين، وقال الفراء كانوا عقلاء ذوي البصائر متمكنين من النظر والاستبصار لكنهم لم يفعلوا وقيل معناه كانوا مبينين أن العذاب لاحق بهم بإخبار الرسل لكنهم ألحوا حتى هلكوا ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوفون على عاد قيل قدم قارون لشرف نسبه وفيه إشعار بأن الكفر والعصيان من شريف النسب أقبح ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ أي فائتين بل أدركهم أمر الله بالتعذيب من سبق طالبه إذا فاته ﴿فَكُلًّا﴾ أي كل واحدٍ منهم منصوب بقوله ﴿أَخَذْنَا﴾ أي عاقبناه ﴿بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي الريح التي تحمل الحصباء وهي الحصى الضعيف وهم قوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ويعني ثمود ومدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني قوم نوح وفرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي يعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من عادته ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعريض للعذاب.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني مثل الكفار فيما اتخذوه معتمداً أو متكلاً من الأصنام ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ فيما ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ في الوهن والخوار بل ذاك أوهن فإن لهذا حقيقةً وانتفاعاً ما يعني مثل دينهم كمثل بيت العنكبوت، أوالمعنى مثل الكفار الذين اتخذوا من دون الله أولياء بالنسبة إلى الموحد كمثل العنكبوت بالنسبة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجصّ والعنكبوت(١) يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والتاء فيه كتاء الطاغوت ويجمع على عناكيب وعكاب وأعكب ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهن وأقل وقاية للحر والبرد منه، هذه الجملة حال أو مستأنفة ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهن من ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله يعلم ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم يدعون بالياء على الغيبة حملاً على ما قبله من ذكر الأمم والباقون بالتاء للخطاب

---

(١) عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهن ـ ١٢ ـ.

إلى كفار مكة، وما استفهامية منصوبة بيدعون فيعلم معلقة منها ومن للتبيين أو نافية ومن مزيدة وشيء مفعول يدعون والكلام تجهيل لهم وتأكيد للمثل أو مصدرية وشيء مصدر أو موصولة مفعولٌ ليعلم ومفعول يعلم عائده المحذوف والكلام وعيد لهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليل لما سبق فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعدل شيئاً بمن هذا شأنه وأن الجماد بالإضافة إلى القادر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل كالمعدوم وإن من هذا صفته قادر على مجازاتهم ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي ما يعقل حسن تلك الأمثال وفائدتها ﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ الذين يتدبرون في الأشياء على ما ينبغي فيعقلون عن الله سبحانه، روى البغوي عن عطاء وأبي الزبير عن جابر رضي الله عنه أنه تلى هذه الآية ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب معصيته وكذا روى الثعلبي والواحدي، وروى أبو داود بن الحر في كتاب العقل من طريق الحارث بن أسامة وأورده ابن الجوزي في الموضوعات ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ فإن المقصود بالذات من خلقها إفاضة الخير والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار إليه بقوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الخلق ﴿لَـَٔايَةً﴾ دالة على وجود الله تعالى وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وتنزهه عن المناقص ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم هم المنتفعون بها.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي القرآن تقرباً إلى الله بتلاوته وتحفظاً لاتعاظه وأحكامه واعتباراً بأمثاله واستكشافاً لمعانيه فإن القارىء المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لا ينكشف له أول مرة حتى يتمثل لأوامره وينتهي عن مناهيه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ﴾ هذه الجملة تعليل للأمر بإقامة الصلاة ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي ما ظهر قبحه شرعاً وعقلاً ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ للانتهاء عن المعاصي من حيث إنها تذكر الله وتورث للنفس خشية، قال البغوي روي عن أنس رضي الله عنه قال كان فتًى من الأنصار يصلي الصلوات الخمس مع رسول الله ﷺ ثم لم يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف لرسول الله ﷺ حاله فقال رسول الله ﷺ: «إن صلاته تنهاه يوماً، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله»(١) وفي مسند إسحاق والبزار وأبي يعلى عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ قال: إن فلاناً يصلّي بالليل فإذا أصبح سرق قال «إن صلاته تنهاه» قال البغوي قال ابن عباس وابن مسعود في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد صلاته من الله إلا بعداً، وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه، وقيل المراد بالصلاة القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠] يعني بالقرآن في الصلاة ولا شك أن القرآن ينهي عن الفحشاء والمنكر، روى البغوي عن جابر قال قال رجل للنبي ﷺ: إنّ رجلاً يقرأ القرآن بالليل كله

(١) أخرجه بنحوه ابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٢٨.

فإذا أصبح سرق قال: «ستنهى قراءته»[١] وفي رواية قيل يا رسول الله إن فلاناً يصلّي بالنهار ويسرق بالليل قال: «إن صلاته ستردعه» ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال ابن عطاء ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من أن يبقى معصية والمراد بذكر الله الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر، وإنما عبّر عنها بالذكر للتعليل بأن اشتمالها للذكر هو السبب لكونها مفضية إلى الحسنات ناهية عن السيئات.

وقد ورد في فضل الذكر أحاديث منها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا بلى، قال: «ذكر الله»[٢] رواه مالك وأحمد والترمذي وابن ماجه إلا أن مالكاً وقفه على أبي الدرداء، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي العباد أفضل وأرفع درجة عند الله؟ قال «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»، قيل يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ فقال: «لو ضرب بسيفه الكفار حتى تنكسر وتخضب دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة»[٣] رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي حديث غريب، وعن عبد الله بن بسر قال جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ قال أي الناس خير؟ قال «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله»، قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»[٤] رواه أحمد والترمذي، وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له حمدان فقال «سيروا هذا حمدان سبق المفردون»، قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[٥] رواه مسلم، وعن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»[٦] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء، قال فيسألهم ربهم (وهو أعلم بهم)، ما يقولون عبادي، قال يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجّدونك، قال فيقول هل رأوني؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك، قال فيقول كيف لو رأوني؟ قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، قال فيقول فما يسألون؟ قالوا يسألونك الجنة، قال يقول هل رأوها؟ فيقولون لا والله ما رأوها، قال يقول كيف لو رأوها؟

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٢) أخرجه مالك في القرآن حديث ٢٤.
(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٥.
(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٤، وأحمد في المسند ٤/١٨٨، ١٩٠.
(٥) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٤.
(٦) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٦٦، ومسلم في المسافرين حديث ٢١١.

قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد طلباً وأعظم فيها رغبةً، قال فممّ يتعوذون؟ قال يقولون من النار، قال يقول فهل رأوها؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها، قال يقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو رأوها كانوا أشد لها فراراً وأشد لها مخافةً، قال فيقول فأشهدكم أني قد غفرتُ لهم، قال يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، قال هم الجلساء لا يشقى جليسهم»[(١)] رواه البخاري وروى مسلم نحوه وفيه، «قال يقولون رب فيهم عبد خطأ إنما مرَّ فجلس معهم قال فيقول وله غفرتُ هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا وما رياض الجنة؟ قال قال: «حلق الذكر»[(٢)] رواه الترمذي، وروى مسلم من حديث معاوية أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال «وما أجلسكم هاهنا؟» قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال: «إن الله عزَّ وجلَّ يباهي بكم الملائكة»[(٣)] وعن مالك قال بلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل خلفه الفارين وذاكر الله في الغافلين كغصن أخضر في شجر يابس وذاكر الله في الغافلين مثل مصباح في بيت مظلم وذاكر الله في الغافلين يريه مقعده من الجنة وهو حي وذاكر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل فصيح وأعجم من بني آدم والبهائم»[(٤)] رواه رزين، وعن معاذ بن جبل قال: «ما عمل آدمي عملاً أنجا له من عذاب الله من ذكر الله»[(٥)] رواه مالك والترمذي وابن ماجه، وعن أبي سعيد شهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[(٦)] رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[(٧)] متفق عليه، وقال قوم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، قال البغوي ويروى ذلك مرفوعاً عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ والمعنى أنه لا تقصروا في ذكر الله فإن ذكركم إياه

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٦٦، والترمذي في الدعوات باب ١٢٩.
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٨٢.
(٣) أخرجه مسلم في الحج حديث ٤٣٦، وأحمد في المسند ٤/ ٩٢.
(٤) أخرجه بنحوه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ١٨١.
(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٦، وابن ماجه في الأدب باب ٥٣، ومالك في القرآن حديث ٢٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٩.
(٦) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٣٨، ٣٩.
(٧) أخرجه البخاري في التوحيد باب ١٥، ٤٣، ومسلم في الذكر حديث ٢، ١٨، ١٩، ٢١، والترمذي في الدعوات باب ١٣١، وابن ماجه في الأدب باب ٥٣، ٥٨، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥١، ٤٠٥، ٤١٣، ٤٨٠، ٤٨٢، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٣٤، ٥٤٠.

يفضي إلى ذكره إياكم ولذكره إياكم أفضل من ذكركم إياه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء كذا قال عطاء.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ يعني لا تخاصموا عطف على ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي ولا تجادل أنت والمؤمنون ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ أي بالخصلة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ الخصال يعني بالقرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه فالمستثنى مفرغ أو المعنى إلا بالتي هي أحسن مما يفعله الكافرون يعني معارضة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح فالمستثنى منقطع لأن النصح ليس بمجادلة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بنبذ العهد أو عدم قبول الجزية فقاتلوهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كذا قال سعيد بن جبير إن المستثنى أهل الحرب والباقي بعد الثنيا أهل الذمة، والظاهر أنه كان الحكم بحسن المجادلة قبل الأمر بالقتال لأن الآية مكية فالمراد حينئذ بالذين ظلموا المفرطون في الاعتداء والعناد والقائلون بإثبات الولد وبأن يد الله مغلولة وبأنَّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء فحينئذ جاز مجادلتهم بالعنف، وعلى هذا قال قتادة ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ بيان لحسن المجادلة ويحتمل أن يكون المعنى ولا تجادلوا أهل الكتاب إذا أخبروا مما ذكر في كتبهم يعني لا تكذبوهم إلا الذين ظلموا منهم يعني إلا من أخبر بشيء معلوم قطعاً أنه كاذب فيه كقولهم بتأييد دين موسى أو قتل عيسى أو كون عيسى ابن الله ونحو ذلك فحينئذ يجب تكذيبه والمباهلة عليه ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾»(١) الآية، رواه البخاري، وعن أبي نملة الأنصاري أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود ومر بجنازة فقال يا محمد هل يتكلم هذا الميت؟ فقال رسول الله ﷺ لا أعلم، فقال اليهودي إنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «ما حدثكم أهل الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلاً لم تصدقوهم وإن كان حقاً لم تكذبوهم» ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما أنزلنا على من قبلك ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وحياً مصدقاً لسائر الكتب الإلهية وهو تحقيق لقوله ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأمثاله أو المعنى الذين آتيناهم الكتاب كانوا يؤمنون به قبل مبعث النبيّ ﷺ ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من أهل مكة أو من العرب أو ممن في عهد النبيّ ﷺ من الكتابي بين ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الإضافة للعهد

(١) أخرجه البخاري في الشهادات باب ٢٩، وتفسير سورة ٢، باب ١١، والاعتصام باب ٢٥، والتوحيد باب ٥١.

يعني بآيات القرآن ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعني الكافرون بالله وبالكتب كلها يعني من كذب بالقرآن فقد كذب بالتوراة والإنجيل أيضاً لأنهما مصدقان للقرآن فتكذيبه تكذيب بهما فمن أنكر القرآن وادعى الإيمان بالتوراة فدعواه باطل، قال قتادة الجحود إنما يكون بعد المعرفة عرفوا أن محمداً حق والقرآن حق فجحدوا.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾ يا محمد عطف على ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل ما أنزل إليك الكتاب ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ولا تكتبه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ ذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي ونفي للتجوز في الإسناد ﴿إِذًا﴾ يعني إذا كنت قارئاً للكتب المتقدمة كاتباً لها ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي الكافرون يعني أهل مكة وقالوا لعله التقطه من كتب الأقدمين كذا قال قتادة وإنما سماهم مبطلين لكفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وجه واحد مع وجود المعجزات المتكاثرة، وقيل معناه لا ارتياب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك في كتبهم بالأمي كذا قال مقاتل فيكون على هذا إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدر ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحة الدلالة على صدقها إضراب عما فهم فيما سبق يعني ما هذا القرآن مختلقاً من عندك ولا مخطوطاً بيمينك بل هو آيات بينات ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني المؤمنين الذين حملوا القرآن يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه وهي من خصائص القرآن كونه آيات بينات الإعجاز وكونه محفوظاً عن التحريف والإسقاط لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزة فكانوا يحرفون الكلم منها عن مواضعها وما كانت تقرأ إلا من مصحف، وقال ابن عباس بل هو يعني محمداً ﷺ ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لأنهم يجدون نعته ووصفه في كتبهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الظلم وضع الشيء في غير موضعه يعني آياتنا معجزة واضحة الدلالة على صدقها نظماً ومعنىً فمن جحد بها بعد وضوح إعجازها فهو الظالم المكابر للحق ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ وما بينهما معترضات ﴿لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما أنزل على الأنبياء من قبل مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى قرأ نافع وابن عامر والبصريان وحفص آياتٌ على الجمع والباقون آية على التوحيد ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في قدرته مربوطاً بإرادته لستُ أملكها فأتيكم بما تقترحون ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار وإبانة بما أعطيت من الآيات ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للحال من فاعل فعل مقدر تقديره أتطلبون منك آية والحال أنه لم يكفهم آية قوية مغنية عما اقترحوه ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ وأنت أميٌّ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المعجز الجامع لأنواع العلوم الشريفة مطابقاً لما قبله من الكتب ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يدوم تلاوته عليهم متحدين به[1]:

---

(١) البيتان من البسيط، وهما لشرف الدين البوصيري في ديوانه، ومطلع القصيدة: =

لم يقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدنيا ففاقت كل معجزة من النبيّين إذ جاءت ولم تدم

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الذي هو آية مستمرة مبينة ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي تذكرة لمن همه الإيمان دون التعنت هذه الآية تعليل للتوبيخ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده وأبو داود في المراسيل من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة مرسلاً قال جاء ناس من المسلمين بكنف كتب فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال النبيّ ﷺ «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم»(١) فنزلت ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ روي أن كعب بن الأشرف قال يا محمد من يشهد بأنك رسول الله فنزلت ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ﴾ لا يخفى عليه شيء الجملة صفة لشهيداً أو تعليل لكفى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قال ابن عباس يعني بغير الله، وقال مقاتل يعني الذين عبدوا الشيطان ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في تجارتهم حيث اختاروا الباطل على الحق واشتروا النار بالجنة هذه الجملة معطوفة على كفى.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ
نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن
دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا
نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

= أمِنْ تذكّر جيران بذي سَلَم مَزَجْتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدم

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة باب ٤٢، والسيوطي في الدر المنثور ١٤٨/٥، والقرطبي في تفسيره ١٣/ ٣٥٥، وابن حجر في فتح الباري ٦٨/٩.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ عطف على ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ نزلت الآية حين قال النضر بن الحارث أمطر علينا حجارة من السماء ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قال ابن عباس يعني ما وعدتك أن لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة كما قال ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] وقال الضحاك مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب وقيل يوم بدر ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلاً ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ العذاب وقيل الأجل ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً في الدنيا كوقعة بدر أو في الآخرة عند نزول الموت بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ إعادة تأكيداً ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عطف على ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ يعني سيحيط بهم يوم يأتيهم العذاب، أو هي الآن كالمحيطة لإحاطة الكفر والمعاصي التي يوجبها لهم واللام للعهد على وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على موجب الإحاطة أو للجنس فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرف لمحيطة أو لمقدر مثل كان كيت وكيت ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم ﴿وَيَقُولُ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالياء يعني ويقول الله أو بعض ملائكته بأمره والباقون بالنون على التكلم ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ﴾ أي جزاء ما كنتم ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي(١) بحذف الياء في الوصل وفتحها الباقون في الوصل وأثبتوها ساكنه في الوقف ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى﴾ قرأ ابن عامر بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ إيَّاي منصوب بفعل مضمر يفسره الشرطية الواقعة بعدها والفاء جزاء شرط محذوف تقديره إن لم تستطيعوا أن تعبدوني في الأرض التي كنتم فيها فاعبدوني في أرض غيرها فحذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول حتى صار الضمير المتصل منفصلاً وأفاد تقديمه معنى الاختصاص وصار فإياي اعبدوا ثم أضمر الفعل الناصب، وفسره بقوله فاعبدوني ليفيد التأكيد كأنَّه قال فاعبدوني فاعبدوني. قال مقاتل والكلبي نزلت في ضعفاء المسلمين بمكة يقول إن كنتم بمكة في ضيق من إظهار الإيمان فاخرجوا إلى أرض غيرها يمكن لكم فيها إظهار الإيمان كالمدينة فإن أرضي واسعة وقال مجاهد إن أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها، وقال سعيد بن جبير إذا عمل في أرض بالمعاصي فأخرجوا منها فإن أرضي واسعة، وقال عطاء إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة وكذلك يجب على كل من كان في بلدة يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة، وقيل نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا نخشى من الجوع إن هاجرنا فأنزل الله هذه الآية لم يعذرهم بترك الخروج قال مطرف بن عبد الله إنَّ أرضي واسعة أي رزقي لكم واسع فأخرجوا قال رسول الله ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض ولو شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد ﷺ»(٢)

---

(١) ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) أخرجه ابن حجر في الكاف والشاف في تخريج أحاديث ٣٩٢.

رواه الثعلبي من حديث الحسن مرسلاً ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي واجد حرارته وكربه لا محالة كما يجد الذائق طعم المذوق فلا تقيموا دار الشر أي خوفاً من الموت بل لا بد لكم من الاستعداد لها بعبادة الله ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم فهاجروا في سبيل الله نجازيكم عليه قرأ أبو بكر بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ففيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] لنثوينهم بالتاء المثلثة ساكنةً وتخفيف الواو وبالياء من غير همزة يقال ثوى الرجل وأثويته إذا أنزلته منزلاً والباقون بالباء الموحدة وفتحها وتشديد الواو وهمزة بعدها أي لننزلهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أعالي، قال صاحب البحر المواج لنبوئنهم بالباء الموحدة فعل متعدٍ إلى مفعول واحد ومجرده لازم وغرفاً منصوب بنزع الخافض ليس مفعولاً ثانياً له إلا على تضمين معنى لننزلن ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله تقديره غرف الجنة أو أجرهم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين إلى غير ذلك من المحن والشاق لأجل مرضاة الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون على أن يرزقهم من حيث لم يحتسبوا.

قال البغوي عن النبيّ ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة أذاهم المشركون: هاجروا إلى المدينة فقالوا كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مالٌ فمن يطعمنا ويسقينا فنزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ محتاجة إلى الغذاء من البهائم والطيور ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ معها ولا تدخر لغد، قال سفيان بن علي بن أرقم ليس شيء من خلق الله يدخر إلا الإنسان والفأرة والنمل ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ﴾ حيثما كنتم يعني إنها مع ضعفها وعدم ادخار أرزاقها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعيشون كما تعيشون وتموتون كما تموتون فاجتهادكم عبث فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم سمع قولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم من ضعف اليقين، أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف وكذا ذكر البغوي عن ابن عمر قال دخلتُ مع رسول الله ﷺ حائطاً من حوائط الأنصار فجعل رسول الله ﷺ يلتقط الرطب بيده ويأكل فقال: «يا ابن عمر كل» فقلت لا أشتهيها يا رسول الله، قال: «لكني أشتهيها وهذه صبح رابعة منذ لم أطعم طعاماً ولم أجده» فقلت إنا لله المستعان قال: «يا ابن عمر لو سألتُ ربي لأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافاً مضاعفة ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فكيف بك يا ابن عمر إذا عسرتَ وبقيتَ في قوم يجيئون رزق سنة ويضعف اليقين، قال فوالله ما برحنا ولازمنا حتى نزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾[2] الآية. عن أنس قال: «إن النبيّ ﷺ كان لا يدخر شيئاً لغد»[3] رواه الترمذي وصححه، وعن عمر بن الخطاب قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٢) أخرجه البغوي في تفسيره ٥/١٩٩.
(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل ١٩٠، والبغوي في تفسيره ٥/١٩٩، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/٥٦، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٨٢٥.

تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغذو خماصاً وتروح بطاناً»[١] رواه الترمذي وابن ماجه، وعن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «ليس من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا قد أمرتكم به وليس من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا قد نهيتُكم عنه وإن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوا بمعاصي الله فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»[٢] رواه البغوي في شرح السنة وذكره في المعالم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني أهل مكة شرط في جواب قسم محذوف ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ جملة استفهامية واقعة بتأويل المفرد في محل النصب على المصدرية لقوله سألتهم تقديره سألتهم هذا السؤال ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فاعل لفعل محذوف تقديره ليقولن خلقهن الله، وقوله ليقولن جواب للقسم لفظاً وجزاء للشرط بمعنى يعني والله لا يقولن إلا هذا الجواب لما تقدر في العقول من انتهاء الممكنات إلى واحد واجب لذاته ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني فكيف يصرفون عن توحيدهم بعد إقرارهم بذلك ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يحتمل أن يكون الموسع له والمضيق عليه واحداً على التعاقب في الزمان وأن يكون على وضع الضمير موضع من يشاء أي ويقدر لمن يشاء منهم لأن من يشاء منهم غير معين وكان الضمير مبهماً مثله ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالح كل شيء ومفاسده قال الله تعالى: «إن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه لا يدخله عجب فيفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمتُه لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته ولأفسده ذلك إني أدبر أمر عبادي لعلمي في قلوبهم إني عليم خبير»[٣] رواه البغوي في حديث طويل عن أنس وسنذكره في سورة الشورى إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني أهل مكة عطف على ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ والكلام فيه مثل ما مر ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعني أهل مكة معترفون بأن موجد الأشياء كلها بسائطها ومركباتها أصولها وفروعها هو الله لا غير ومع ذلك يشركون به في العبادة بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عصمك عن مثل هذه الضلالة أو على تصديقك وإظهار حجتك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٤] قبح صنيعهم وتناقض أقوالهم حيث يقرون بأنه المبدأ لكل ما عداه ومع ذلك يشركون به أخس الموجودات

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٣٣، وابن ماجه في الزهد باب ١٤، وأحمد في المسند ١/ ٣٠، ٥٢.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة ٥/ ١٩٩.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢٤٨، وفيه: «إن من عبادي المؤمنين لمن يشتهي السباب من العباد فأكفه عنه..».

(٤) وفي الأصل: لا يعلمون.

وأعجزها ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارة تحقير ﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾ وهو ما يشغله عما يغنيه فإن اشتغال المرء بالدنيا يشغله عما يفيده في الحياة المؤبدة ﴿وَلَعِبٌ﴾ أي عبث سميت بها لأنها فانية وما يفعل المرء في الحياة الدنيا من الطاعات فهي ليست من الدنيا بل هي من أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي دار الحيوان يعني ليس فيها إلا الحياة لامتناع طريان الموت عليها أو جعلت ذاتها حياة للمبالغة، والحيوان مصدر بمعنى الحياة أصله حييان قلبت الياء الثانية واواً وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الدلالة من الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عنها هاهنا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فناء الدنيا وبقاء الآخرة لم يؤثروا الدنيا على الآخرة ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وخافوا الغرق متصل بما دل عليه شرح حالهم أي هم على ما وضعوا من الشرك والعناد إذا ركبوا في الفلك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي يدعون كائنين في صورة من أخلص دينه من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الضر إلا الله ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ الله ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي فاجئوا المعاودة إلى الشرك عطف على الشرطية السابقة، قال عكرمة كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب وعلى قوله مخلصين له الدين على الحقيقة، يعني كانوا عند الشدائد يخلصون الدين لله ويتركون الشرك وعند النجاة يعودون إلى الشرك ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هذا لام الأمر ومعناه التهديد والوعيد كقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبا: ١١] أي ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم وقيل هي لام كي أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة الإنجاء، أو المعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يستمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة على خلاف عادة المؤمنين المخلصين فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع بسكون اللام فهو لام الأمر على قراءتهم والباقون بكسر اللام نسقاً على قوله ليكفروا وحينئذ يحتمل لام الأمر ولام كي ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك حين يعاقبون.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم ينظروا ولم يروا أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ مكة ﴿حَرَمًا﴾ مصوناً عن النهيب والتعدي ﴿ءَامِنًا﴾ أهله عن القتل والسبي ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ عطف على جملة محذوفة مفهومة عما سبق تقديره أنّا جعلنا مكة حرماً آمناً لا يغار ولا يتعرض أهلها ويتخطف الناس من حولهم، وقد كان العرب يختلسون الناس قتلاً وسبياً ولا يتعرضون أهل مكة ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للتفريع على مضمون ما سبق يعني أنعم الله على أهل مكة هذه النعمة وهم بعد هذه النعمة الظاهرة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه بالباطل يعني بالأصنام أو بالشيطان، وجاز أن يكون المراد بالباطل كل شيء سوى الله لقوله ﷺ: «ألا إن أحسن القول قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»(١) ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أشركوا به غيره وتقديمه

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٢٦، والأدب باب ٩٠، والرقاق ٢٩، ومسلم في البر حديث ٢ =

للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة، وقيل المراد بنعمة الله محمد ﷺ والقرآن ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعني لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي الرسول والقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ في لما تشبيه لهم بأنهم لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين مجيء الرسول بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوا ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ استفهام تقرير للثواء يعني ألا يستوجبون الثواء أي القرار في جهنم وقد افتروا على الله وكذّبوا بالحق مثل هذا التكذيب، أو تقرير لاجترائهم يعني ألم يعلموا أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤوا هذه الجراءة ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟﴾ الجهاد بذل الوسع والطاقة والمراد الذين بذلوا وسعهم بطاقتهم في محاربة الكفار ومخالفة النفس والهوى ﴿فِينَا﴾ أي في ابتغاء مرضاتنا ونصرة ديننا وإمتثال أوامرنا والانتهاء عن مناهينا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا وصولاً بلا كيف أو لنرينهم سبل الخير ونوفّقهم سلوكها قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وعن أبي الدرداء أنه قال معناه والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا، وعن عطاء والّذين جاهدوا في رضائنا لنهدينهم سبل ثوابنا، وعن الجنيد الّذين جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، وقال سفيان بن عيينة إذا اختلف الناس فانظروا إلى ما عليه أهل الثغور فإن الله قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وقال الحسن أفضل الجهاد مخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والّذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به، وقال سهيل بن عبد الله والّذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة، وقال ابن عباس والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا، وفي الحديث «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»(١) قوله لنهدينهم سبلنا جواب قسم محذوف والجملة القسمية خبر للموصول والموصول المبتدأ مع خبره عطف على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والإعانة في الدنيا والثواب والمغفرة في العقبى وقالت الصوفية إن الله لمع المحسنين معية غير متكيفة يدركها بصائر أهل البصائر. هذه الجملة عطف على والَّذِينَ جاهدُوا وَجَاز أن يكون حالاً من فاعل لَنَهْدِيَنَّهُمْ والعائد وضع الظاهر موضع الضمير تقديره وإنَّا لَمَعَ المُحْسِنِينَ وَالتصريح باسمه تعالى لمزيد التأكيد والله أعلم.

تم تفسير سورة العنكبوت من التفسير المظهري (ويتلوه تفسير سورة الروم إن شاء الله تعالى) في التاسع من رجب من السنة السادسة بعد ألف ومائتين سنة ١٢٠٦هجرية

والله أعلم

= ـ ٦، والترمذي في الأدب باب ٧٠، وابن ماجه في الأدب باب ٤١، وأحمد في المسند ٢/٢٤٨، ٣٩١، ٣٩٣، ٤٤٤، ٤٥٨، ٤٧٠، ٤٨١.

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/٤٠٣، والسيوطي في الدر المنثور ١/٣٧٢، والقرطبي في تفسيره ١٣/٣٤٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/١٥.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الروم

آياتها ستون وهي مكيّة

﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ
سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ
ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ (٨) أَوَلَمْ
يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ
وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ٱللَّهُ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن
شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب وأخرج ابن جرير نحوه عن عكرمة ويحيى بن يعمر وقتادة قال ابن شهاب بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين وهم بمكة قبل أن يخرج رسول الله ﷺ فيقولون تشهدون أنهم أهل الكتاب وقد غلبتهم المجوس وأنكم تزعمون ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل على نبيكم فكيف غلبت المجوس الروم وهم أهل الكتاب فستغلبكم كما غلبت فارس الروم ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢)﴾ ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدنى أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة عندهم أو في أدنى أرضهم من العرب واللام بدل من الإضافة، قال عكرمة هي أذرعات وكسكر، وقال مجاهد أرض الجزيرة وقال مجاهد[1] الأردن وفلسطين ﴿وَهُم﴾ أي الروم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ مصدر مبني للمفعول أي من بعد أن غلبوا على صيغة المجهول ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ على فارس ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾ البضع

(١) هكذا في الأصل، ولعلهم نقلوا عن مجاهد قولين، أو صدر هذا من سبق قلم.

ما بين الثلاث إلى السبع، وقيل ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل ما دون العشرة، وقال الجوهري تقول بضع وبضعة عشر رجلاً فإذا جاوزت العشرين لا تقول بضع وعشرون وهذا يخالف ما جاء في الحديث قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»[(١)].

قال البغوي: كان بين فارس والروم قتال فكان المشركون يودّون غلبة فارس على الروم لأن أهل فارس كانوا مجوساً أميين والمسلمون يودُّون غلبة الروم على فارس لأنهم كانوا أهل كتاب فبعث كسرى يعني برويز بن هرمز بن نوشيروان، جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يقال له شهريزاد وبعث قيصر جيشاً وأمّر عليهم رجلاً يقال له يحيس فالتقتا بأذرعات الشام وبصرى (وهو أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم) فَغَلَبَ فارسُ الروم فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق ذلك عليهم وفرح به كفار مكة وقالوا للمسلمين إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا أهل فارس على إخوانكم من الروم فإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى هذه الآية، فخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الكفار فقال فرحتم بظهور إخوانكم فوالله ليظهرن الروم على فارس على ما أخبرنا بذلك نبينا، فقال أبيٌّ بن خلف الجُمحي كذبت، فقال أنتَ أكذب يا عدو الله فقال اجعل بيننا وبينك أجلاً أناجئك (والمناجئة المراهنة) على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك فإن ظهر الروم على فارس غرمتُ وإن ظهر فارس على الروم غرمتَ ففعلوا وجعل الأجل ثلاث سنين، فجاء أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك (وذلك قبل تحريم القمار) فقال رسول الله ﷺ: «ما هكذا ذكرتُ إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزائده في الخطر وماده في الأجل»، فخرج أبو بكر فرأى أبيّاً فقال لعلك ندمتَ، قال لا أزائدك في الخطر وأمادك في الأجل فجعل مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين، وقيل إلى سبع سنين قال قد فعلتُ، فلمّا خشي أبيٌّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال إني أخاف أن تخرج من مكة فأقسم لي كفيلاً فكفل له عبد الله بن أبي بكر ابنه فقال لا والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً فأعطاه، ثم خرج إلى أحد فرجع أبيٌّ بن خلف إلى مكة فمات بمكة من جراحته التي جرحه النبي حين بارزه، فظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناجئتهم وقيل كان يوم بدر، قال الشعبي لم يمض تلك المدة مدة عقد المناجئة بين أهل مكة وصاحب قمارهم أبيّ بن خلف والمسلمين وصاحب قمارهم أبي بكر الصديق (وكان ذلك قبل تحريم القمار) حتى غلبت الروم وفارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا للرمية فقمر أبو بكر أبياً وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به وحمله إلى النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «تصدق به» وأخرج الترمذي من حديث أبي بكر نحوه.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣، ومسلم في الإيمان حديث ٥٧، ٥٨، وأبو داود في السنة باب ١٤، والنسائي في الإيمان باب ١٦، وابن ماجه في المقدمة باب ٩، وأحمد في المسند ٢/ ٤١٤، ٤٤٢.

مسألة: قال أبو حنيفة: العقود الفاسدة كعقد الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار مستدلاً بقصة أبي بكر ولأن أموال الكفار غير معصوم يجوز أخذها ما لم يكن غدراً بعد الاستئمان.

قال البغوي: وكان سبب غلبة الروم على فارس على ما قال عكرمة إن شهريزاد بعدما غلب الروم لم يزل يطيئهم ويخرّب مدائنهم حتى بلغ الخليج، فبينا أخوه فرخان جالس على سريره يشرب فقال لأصحابه لقد رأيتُ أني جالس على سرير كسرى فبلغت حكمته كسرى فكتب إلى شهريزاد إذا أتاك كتابي فابعث إليَّ رأس فرخان فكتب إليه أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان وإن له نكاية وصوتاً في العدو فلا تغفل، فكتب إليه أن في رجال فارس خلقاً منه فعجل إليَّ برأسه فكتب فغضب كسرى ولم يجبه وبعث بريداً إلى أهل الجيش إني قد نزعت منكم شهريزاد واستعملت عليكم فرخان ثم دفع إلى البريد صحيفة صغيرة أمر فيها بقتل شهريزاد فقال إذا ولى فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه الصحيفة، فلمّا قرأ شهريزاد الكتاب قال سمعاً وطاعةً ونزل عن سريره وجلس فرخان ودفع الصحيفة، فقال ائتوني بشهريزاد فقدمه ليضرب عنقه فقال لا تعجل عليَّ حتى أكتب وصيتي قال نعم، فدعى بالسقط وأعطاه ثلاث صحائف وقال كل هذا راجعتُ فيك كسرى وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد فرد الملك إلى أخيه، فكتب شهريزاد إلى قيصر ملك الروم إن لي إليك حاجة لا يحملها البريد ولا يبلغها الصحف فالقني ولا تلقني إلا في خمسين رومياً فإني ألقاك في خمسين فارسيّاً، فأقبل قيصر في خمسين روميا[1] وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق وخاف أن يكون قد مكر حتى أتاه عيون له أنه ليس معه إلا خمسون رجلاً ثم سقط لهما وألقيا في قبة ديباج ثم ضربت لهما ومع كل واحد منهما سكين فدعوا بترجمان بينهما فقال شهريزاد إن الذين خربوا مدائنات أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت ثم أمر أخي أن يقتلني فقد خلقنا جميعاً فنحن نقاتله معك، فقال قد أصبتما ثم استأثر أحدهما على صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوزهما فشا فقتلا الترجمان معاً بسكينهما فأدليت الروم على فارس عند ذلك فابتغوهم فقتلوهم ومات كسرى وجاء الخبر إلى النبيّ ﷺ يوم الحديبية ففرح هو ومن معه فذلك قوله ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية.

وقرىء غلبت بالفتح على صيغة المعروف وسيغلبون بالضم ومعناه أن الروم غلبوا على أرض فارس والمسلمون سيغلبونهم، وفي السنة التاسعة من غلبة الروم غزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم وعلى هذا يكون الغلب مصدراً مبنيّاً للفاعل مضافاً إلى الفاعل، ويؤيد هذه القراءة ما أخرج الترمذي عن أبي سعيد قال لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ بنصر الله بفتح الغين، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه وهذه قراءة شاذة، والأولى هي المتواترة ولعل النبيّ ﷺ لما غَلَبَ

---

(١) وفي الأصل: خمسين ألف روميًا.

الروم على فارس علم بالوحي الغير المتلو أنه غلبت اليوم الروم على فارس في أدنى الأرض وهم أي الروم من بعد أن غلبوا على الفارس سيغلبهم المؤمنون فقرأ على ما رواه الترمذي عن أبي سعيد بفتح الغين من غَلَبَتْ على البناء وسيغلبون على البناء للمفعول والله أعلم.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل غلبة الروم على فارس حين كونهم مغلوبين ﴿وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي بعد غلبهم عليهم حين كونهم غالبين ليس شيء منهما إلا بقضائه وقدره هذه الجملة تعليل لقوله سيغلبُونَ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذا كان الغلبة للروم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ من له كتاب على من ليس له كتاب وظهور صدقهم فيما أخبروا به المشركين وغلبتهم في رهانهم وازدياد يقينهم وثباتهم في دينهم، قال السدي فرح النبيّ ﷺ بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك. قال جلال الدين المحلي فرح المسلمون بذلك وعلموا به يوم وقوعه يوم بدر بنزول جبرئيل بذلك فيه مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه، هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فينصر هؤلاء تارةً وهؤلاء أخرى ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ينتقم من عباده بتسليط غيرهم عليهم تارةً ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ويرحمهم ويتفضل عليهم بنصرهم أخرى ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعد الله وعداً مصدر مؤكد لنفسه لا ما قبله وهو قوله وهم مّن بعد غلبهم سيغلبون في معنى الوعد ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لامتناع الكذب عليه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده ولا صحة وعده لجهلهم وعدم تفكرهم.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني أمور معاشهم كيف يكتسبون وكيف يتجرون وكيف يزرعون ونحو ذلك ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ﴾ التي هي المستقر أبداً ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطر ببالهم، هم الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر الأولى والرابطة إعادة لفظ المبتدأ نحو ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢] وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة، وهذه الجملة محققةٌ لمضمون الجملة السابقة بدل من قوله لا يعلمون تقريراً وتشبيهاً لهم بالحيوانات المقصور إدراكها من الدنيا ببعض ظاهرها دون العلم بجميعها، فإن من العلم بظاهر معرفة حقائقها وصفاتها وخصائصها وأفعالها وأسبابها وكيفية صدورها منها وكيفية التصرف فيها ولذلك نكر ظاهراً وأما باطنها أنها مجاز إلى الآخرة ووصلة إلى نيلها وأنموذج لأحوالها وإشعاراً بأنه لا فرق بين عدم العلم والعلم الذي يختص بظاهر الدنيا ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ الهمزة للتوبيخ والواو للعطف على محذوف تقديره أقصروا نظرهم على ظاهر من الحياة الدنيا ولم يتفكروا ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي لم يحدثوا التفكر فيها حتى يظهر لهم بعض بواطنها أو المعنى أولم يتفكروا في أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها والمرآة يجتلي فيها للمستبصر ما يجتلي له في الممكنات بأسرها فإن الإنسان عالم صغير حتى يعلموا ويقولوا ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلقها باطلاً عبثاً بغير حكمة بالغة بل خلقها مقرونةً مصحوبةً بالحكمة ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني ما خلقها للخلود بل

لأجل معين ينتهي عنده وبعده قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب قال الله ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] يدل على أن تركهم غير راجعين عبث فمن تفكر في نظام السماوات والأرض وما بينهما يحكم أن خالقه حكيم والحكيم لا يفعل العبث والحكمة في خلقها معرفة الخالق وصفاتها ولولا البعث والنشور والثواب والعقاب يستوي العارف والكافر فمن تفكر فيها يكتسب العلم بالآخرة فلا يكون من الغافلين ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة لأجل غباوتهم وعدم تفكرهم ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي بجزائه عند انقراض الدنيا ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ أي لجاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية ولا بعث ولا حساب.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ وإنكار النفي إثبات وتقرير والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يخرج أهل مكة من ديارهم ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ منصوب في جواب النفي ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كيف في محل النصب على أنه خبر كان قدم عليه لما له صدر الكلام، والجملة في محل النصب على أنه مفعول لينظروا يعني أنهم قد ساروا في أسفارهم ونظروا إلى آثار الذين كذبوا الرسل من قبلهم فدمروا على تكذيبهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود وغيرهم فإن القرون الماضية كانوا أشد قوة وأطول أعماراً وأكثر آثاراً من القرون التالية، هذه الجملة مع ما عطف عليه مستأنفة في جواب ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ مع ما عطف عليه عطف على كانوا أي قلَّبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وكربوها للزرع وغير ذلك ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي الأرض عمارة ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ منصوب على أنه صفة مصدر محذوف يعني عمروها عمارةً أكثر من عمارة أهل مكة إياها فإنهم في واد غير ذي زرع لا تبسط لهم في غيرها، وفيه تهكم بهم حيث كانوا مفترين بالدنيا مفتخرين بها وهم أضعف حالاً في الدنيا فإن مدارها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة وهم ضعفاء ويلجؤون إلى واد لا نفع لها ولولا رحلتي الشتاء والصيف لهم إلى اليمن والشام لماتوا جوعاً ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ عطف على ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ معطوف على جملتين محذوفتين معطوفتين على جاءتهم، تقديره جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم فدمرهم الله في الدنيا فما كان الله ليظلمهم أي ما كان صفة الله ظلمهم فإن اللام لام الجحود وأن بعدها مقدرة يعني ما كان صفة الله أن يفعل بهم ما يفعل الظلمة من التعذيب بغير جرم ولا تذكير ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما أدى إلى تدميرهم.

﴿ثُمَّ﴾ أي بعد التدمير في الدنيا عطف على جملة مقدرة وهي فدمرهم الله ثم ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ قرأ أهل الحجاز والبصرة بالرفع على أنه اسم كان وخبره ما بعده أو محذوف كما سنذكر وأهل الكوفة والشام بالنصب على أنه خبر كان والاسم أن كذبوا ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ من الأعمال تقديره ثم كان عاقبتهم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على بعض ما يقتضي

تلك العاقبة ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيث أسوأ كالحسنى تأنيث أحسن يعني الخصلة التي تسوءهم أو عقوبة هي أسوأ العقوبات أو هو مصدر كالبشرى نعت به مبالغة قبل السوء أي اسم من أسماء جهنم كما أن الحسنى اسم من أسماء الجنة ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عطف على كذّبُوا وأن كذبوا مع ما عطف عليه منصوب على العلية لقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تقديره لأن كذبوا وجاز أن يكون بدلاً أو عطف بيان السوأى يعني ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب يعني حملهم تلك السيئات على أن كذبوا بآيات الله.

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ذلكم الران الّذي ذكر الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم، وجاز أن يكون أن كذبوا مع ما عطف عليه خبر كان والسوأى مصدر أساؤوا أو مفعوله والمعنى ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة أن طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا بآيات الله، ويجوز أن يكون السوأى مصدراً ومفعولاً للفعل وإن كذَّبوا تابعاً لها بدلاً أو عطف بيان والخبر محذوف للإبهام والتهويل تقديره ثم كان عاقبة الذين فعلوا السيئات أي التكذيب جهنم وما لا يعرف ما أعد لهم من العذاب فيها، وجاز أن يكون مفسرة للإساءة فإن الإساءة إذا كانت مفسرة بالتكذيب والاستهزاء كانت متضمنة لمعنى القول.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ أي يخلقهم ابتداءً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي الخلق يبعثهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجزيهم بأعمالهم، قرأ أبو بكر(٢) بالياء للغيبة لأن الضمير عائد إلى الخلق والباقون بالتاء التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المقصود ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ظرف متعلق بقوله ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ والجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قال قتادة والكلبي أي ييأسون من كل خير، وقال مجاهد يفتضحون، وقال الفراء ينقطع كلامهم وحجتهم في القاموس البَلَس محركة من لا خير عنده والمبلس الساكت على ما فيه نفسه وأبلس يئس وتحير ومنه إبليس أو هو أعجمي، وقال الجزري في النهاية المبلس الساكت من الحزن أو الخوف والإبلاس الحيرة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي من الذين أشركوهم بالله سبحانه في العبادة على زعم أنهم يشفعون لنا عند الله فهم لا يكونون لهم ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ يجيرونهم من عذاب الله أو رد بصيغة الماضي لتحقق وقوعه ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي يجحدون بآلهتهم حين يئسوا منهم. وقيل معناه كانوا في الدنيا بسبب شركائهم كافرين بالله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ظرف متعلق بيتفرقون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من يوم تقوم الساعة أو تأكيد له أي يوم إذا كانوا مبلسين وكانوا بشركائهم كافرين ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ قال مقاتل يتفرقون

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسيره سورة ٨٣، باب ١، وابن ماجه في الزهد باب ٢٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩٧.

(٢) وأبو عمرو وروح ـ أبو محمد ـ.

بعد الحساب سيق المؤمنون إلى الجنة والكافرون إلى النار ثم لا يجتمعون أبداً ثم فصله بقوله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ أي أرض ذات أزهار وأنهار من رياض الجنة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ قال ابن عباس يكرمون، وقال مجاهد وقتادة ينعمون، وقال أبو عبيدة يسرون والحبرة السرور وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتخبير التحسين، وفي النهاية للجزري الحبرة بالفتح النعمة وسعة العيش والحبرة بالكسر وقد يفتح الجمال والهيئة الحسنة وفي القاموس نحوه، وفي حديث أبي موسى لو علمت أنك يا رسول تسمع لقراءتي لحبرتُها لك تحبيراً أي حسنتُ صوتي بها، قال البغوي وقال الأوزاعي عن يحيى بن كثير يحبرون هو السماء في الجنة وكذا أخرج هناد والبيهقي عن يحيى بن كثير في هذه الآية، وقال الأوزاعي إذا أخذ في السماع لم تبق شجرة في الجنة إلا ورقت وقال ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سماوات صلاتهم وتسبيحهم، وأخرج ابن عساكر عن الأوزاعي في هذه الآية قال هو السماع إذا أراد أهل الجنة أن يطربوا أوحى الله تعالى إلى رياح يقال لها العفافة فدخلت في أجام قضيب اللؤلؤ الرطب فحركته فضرب بعضه بعضاً فتطرب الجنة فإذا طربت لم يبق شجرة في الجنة إلا ورقت، وأخرج الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال: «ما من عبد يدخل إلا أن تجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيان بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه»(١) وأخرج البيهقي عن ابن عباس أنه سئل في الجنة غناء قال الكرار من مسك عليها يمجدون الله تعالى بصوت لم يسمع الأذن مثله قط، قلت: الطرب بالشعر والغناء في الدنيا لا يحصل إلا بذكر المحبوب بكلام موزون في صوت حسن موزون، ولا شك أن الناس إذا فازوا برؤية جمال الله سبحانه ولا جمال فوق جماله فلا محبوب لهم غيره فيطربون بسماع ذكره بصوت حسن موزون وفي بعض الأحاديث أن الحور العين يغنّين لأزواجهن بأصوات ما سمعها أحد قط فيكون ممّا يغنّين:

نحن الخيرات الحسان ... أزواج قوم كرام

ومما يغنّين:

نحن الخالدات فلا نموتن ... نحن الآمنات فلا نخافن

نحن المقيمات فلا نطحن

كذا أخرج الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً وأخرج الطبراني والبيهقي وابن أبي الدنيا عن أنس نحوه، وعن مالك بن دينار عند أحمد في الزهد يقول الله لداود عليه السلام مجدني بذلك الصوت الحسن فيندفع داود بصوت ستقرع نعيم أهل الجنة، وعن أبي هريرة عند

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١١٣، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٥٣٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٨، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٤٧.

الأصبهاني مرفوعاً أن الله تعالى ليوصي إلى شجرة الجنة أن اسمعي عبادي الذين شغلوا أنفسهم عن المعازف والمزامير بذكري فيسمعهم بأصوات ما سمع الخلائق مثلها قط بالتسبيح والتقديس، وفي الباب أحاديث كثيرة وأخرج الحكيم في نوادر الأصول عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين»، قال يا رسول الله ما الروحانيون؟ «قال قراء أهل الجنة»(١) وأخرج الدينوري عن مجاهد قال ينادي مناد يوم القيامة إن الذين كانوا ينزهون أصواتهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان قال فيحلهم الله في رياض من مسك فيقول للملائكة اسمعوا عبادي تحميدي وتمجيدي وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وروى الديلمي عن جابر بن عبد الله مرفوعاً مثله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي البعث والقيامة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ
تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾
ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ
سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لفعل محذوف تقديره فسبحوا الله سبحاناً حذف الفعل وأضيف المصدر إلى المفعول والفاء للسببية والتفريع على ما سبق من صفاته تعالى من الإبداء والإعادة وغيرها والمراد بالتسبيح الصلاة يعني صلوا لله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي حين تدخلون في المساء صلاة المغرب شكراً لما أنعم الله من تمام النهار بالسلامة والنعمة والدخول في

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٠٦٦٠، ٤٠٦٦٦، والقرطبي في تفسيره ١٤/ ٥٤.

الليل للسكون والراحة، بدأ بذكر صلاة المغرب لتقدم الليل على النهار في اعتبار الشهور والأيام ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ شكراً لما أنعم الله عليه من تمام الليل بالسلامة والراحة والدخول في النهار لكسب المعاش والمعاد ذكر صلاة الصبح بعد المغرب لمقابلة الصباح بالمساء ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس أي يحمدون أهل السماوات والأرض ويصلون له الجملة حال من الله أو معترضة ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي آخر النهار عن عشى العين إذا نقص نورها عطف على يصبحون يعني صلوا صلاة العصر صلاة الوسط، ولما كان ذلك وقت اشتغال الناس بأمور الأسواق قدم ذكرها على ذكر الظهر اهتماماً يعني لا بد لكم من الاشتغال بالصلاة حين اشتغال الناس بأمور الدنيا كيلا تكونوا من الذين لا يلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي تدخلون في الظهيرة يظهر عليكم صولة الشمس ويذكركم حر نار جهنم وحر ذكائها يوم القيامة. خص هذه الأوقات لما تظهر فيها قدرته وتتجدد نعمته ولما يحدث فيها من الشواهد الناطقة بتنزيهه واستحقاقه الحمد والشكر ممن له تميز من أهل السماوات والأرض. ذكر في هذه الآية أربعاً من الصلوات الخمس، وقيل: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إشارة إلى المغرب والعشاء جميعاً، أخرج ابن جرير والطبراني والحاكم قول ابن عباس أن الآية جامعة للصلوات الخمس حين تمسون كناية عن المغرب والعشاء جميعاً. وقال البغوي قال نافع بن الأزرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال ابن عباس نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعت هذه الآية الصلوات الخمس ومواقيتها.

عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أدرك ما فاته في يومه ذلك ومن قالهن حين يمسي أدركه ما فاته في الليلة»(١) رواه أبو داود، وعنه عليه السَّلام: «من سره أن يكتال له بالقفيز الأوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون»(٢) الآية، رواه الثعلبي من حديث أنس بسند ضعيف جداً، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»(٣) متفق عليه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عنه»(٤) متفق عليه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٠١.

(٢) أخرجه بنحوه ابن عدي في الكامل في الضعفاء ٢/ ٨٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٦٥، ومسلم في الذكر حديث ٢٨، والترمذي في الدعوات باب ٥٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٢.

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٦٠.

سبحان الله العظيم»[١] متفق عليه، وعن جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ خرج ذات غداة من عندها (وكان اسمها برة) فخرج وهي في المسجد فرجع بعدما تعالى النهار وقال «ما زلت في مجلسك هذا منذ خرجتُ بعد؟» قالت نعم، فقال «لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بكلماتكِ لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»[٢] رواه مسلم، وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ: «أفضل الكلام أربع سبحان[٣] الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[٤] وفي رواية «أحب الكلام إلى الله أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيتهن بدأت»[٥] رواه مسلم وعن أبي ذر قال: «سئل رسول الله ﷺ أيُّ الكلام أفضل؟ قال «ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده»[٦] رواه مسلم، وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة»[٧] رواه الترمذي.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ النطفة والبيضة من الحيوان أو يعقب الحياة بالموت وبالعكس ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء بعد الموت فلم تنكرونه بعد ما تشاهدون نظيره فهي تعليل للبعث، قرأ حمزة والكسائي[٨] بفتح التاء وضم الراء على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي من آيات قدرته تعالى على البعث ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي خلق أصلكم آدم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ إذا للمفاجأة مضاف إلى الجملة والعامل فيه معنى المفاجأة والمعنى ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض بعدما كنتم جماداً بلا حس وحركة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من للابتداء لأن حواء خلقت من ضلع

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٥٨، والدعوات باب ٦٦، والأيمان باب ١٩، ومسلم في الذكر حديث ٣٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٤، وأحمد في المسند ٢٥٨/١، ومسلم في الذكر حديث ٧٩.

(٣) عن ابن عباس قال قال عمر بن الخطاب أما الحمدلله فقد عرفناه فقد يحمد الخلائق بعضهم بعضاً وأما لا إله إلا الله فقد عرفناه فقد عُبدت الآلهة من دون الله وأما الله أكبر فقد يكبر المصلى وأما سبحان الله فما هو فقال رجل من القوم الله أعلم فقال لقد شقي عمر إن لم يكن يعلم أن الله عالم فقال عليّ يا أمير المؤمنين هو اسم ممنوع أن ينتحله أحد من الخلائق وإليه مفزع الخلق واجب أن يقال له فقال: هو كذلك ـ منه رحمه الله ـ.

(٤) أخرجه ابن حجر في فتح الباري ٥٦٦/١١، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٩٤.

(٥) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٤٨.

(٦) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٨٤.

(٧) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٥٩، وابن ماجه في الأدب باب ٥٦.

(٨) وخلف وابن ذكوان بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.

آدم وسائر النساء من نطف الرجال أو للبيان لأنهن من جنسهم لا من جنس آخر ﴿أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ لتميلوا إليها وتألفوا لها فإن الجنسية علة الضم والاختلاف سبب التنافر ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بين الرجال والنساء أو بين أفراد الجنس ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بواسطة الزواج حال الشبق وغيرها بخلاف سائر الحيوانات نظماً لأمر المعاش أو بأن يعيش الإنسان موقوف على التعاون المحوج إلى التواد والتراحم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة الله وقدرته فيعلمون ما في ذلك من الحكم ومن التناسل ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي لغاتكم بأن علَّم كل صنف لغة وألهمه وأقدره عليها أو أجناس نطقكم وأشكاله وكيفيات أصواتكم بحيث لا يكاد يلتبس صوت أحد بغيره ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أي ألوان الجلد من السواد والبياض وغيرها أو مشخصات الأعضاء وهيآتها وألوانها وحلاها بحيث لا يلتبس أحد بغيره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ لا يكاد يخفى على عاقل من ملك أو إنس أو جن، وقرأ حفص بكسر اللام خصهم بالذكر لأنهم أحقاء بالمعرفة قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ منامكم في زمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبيعية ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ المعاش والمعاد ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ في كلا الزمانين، أو المعنى منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف وضم بالزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلاً من الزمانين وإن خص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واستبصار فإن الحكمة فيه ظاهرة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مقدر بأن أو الفعل فيه نزل منزلة المصدر كقوله تسمع للمعيدي خير من أن تراه أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة وفي حالة السفر ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث إذا كنتم في منازلكم ونصبهما على العلة لفعل يلزم المذكور فإن إراءتهم يستلزم رؤيتهم إلى البرق الخوف أو الطمع أو الفعل مذكور بحذف المضاف أي لإراءة خوف وطمع أو بتأويل للخوف والطمع بالإخافة والأطماع كقولك فعلتُه رغماً للشيطان أو على الحال مثل كلمتُه شفاهاً ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالإنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم فيدركون كمال قدرة الصانع وحكمته ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي يبقيان في حيزيهما ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بإقامته لهما وإرادته ببقائهم ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ الجملة معطوفة على أن تقوم بتأويل المفرد كأنه قال ومن آياته قيام السماء والأرض ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوةً واحدةً وثم لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه قوله من الأرض، قال البغوي أكثر العلماء على أنه متعلق بتخرجون وقال البيضاوي هذا لا يجوز لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبله بل متعلق بقوله دعاكم كقوله دعوتُه من أسفل الوادي.
أخرج ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافعي في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: ٤١] قال يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فيقول يا أيها العظام النخرة

والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمرك أن تجتمع لفصل الحساب، وإذا الثانية للمفاجأة ولذلك ناب مناب الفاء في جواب الأولى ظرف مضاف إلى الجملة والعامل فيه معنى المفاجأة تقديره ففاجأتم وقت خروجكم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منها ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون، قال الكلبي هذا خاص بمن كان منهم مطيعاً والصحيح أنه عام لبيان قهرمانه والمراد الانقياد في الأوامر التكوينية، قال ابن عباس كل مطيع له في الحياة والموت والبعث ونحو ذلك وإن عصوا في العبادة، أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال تعجب الكفار من إحياء الموتى فنزلت ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الإهلاك ﴿وَهُوَ﴾ الإعادة وتذكير الضمير لتذكير الخبر أو الإعادة بمعنى أن يعيد ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الجملة حال من فاعل يعيد أو معطوفة على ما سبق، قال الربيع بن خيثم والحسن وقتادة والكلبي أهون بمعنى هين ولا شيء على الله بعزيز ويجيء افعل بمعنى الفعيل وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وقال مجاهد وعكرمة وهو أهون على طريق ضرب المثل أي هو أيسر عليه على ما يقع في عقولكم فإن في عقول الناس الإعادة أهون من الإنشاء وقيل هو أهون عليه عندكم وقيل هو يعني العود أهون على الخلق فإنهم في العود يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً إلى أن يصيروا رجالاً ونساءً وهذا معنى رواية حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه كالقدرة العامَّة والحكمة التامَّة، قال ابن عباس هي أنه ليس كمثله شيء، وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم أنه قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال شهادة أن لا إله إلا الله، قلتُ: أراد به الوصف بالوحدانية ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يصف به ما فيهما نطقاً ودلالة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب في ملكه وخلقه القادر على كل شيء لا يعجزه شيء من الإبداء والإعادة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعال على ما يقتضيه الحكمة.

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال كان أهل الشرك يلبّون اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملكت فنزلت ﴿ضَرَبَ﴾ الله أي بيّن ﴿لَكُم﴾ أيها المشركون ﴿مَّثَلًا﴾ كائناً ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي شبهاً منتزعاً من أحوالكم فإنها من أقرب الأمور إليكم وهو ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي من مماليككم ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ لله (في ما رزقناكم) من الأموال وغيرها ﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾ في التملك والتصرف يتصرفون فيه كتصرفكم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أن تتصرفوا فيها دونهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أمثالكم في الحرية، والاستفهام للإنكار يعني ليس الأمر كذلك وإنها معادة لكم مع أنهم بشر مثلكم فكيف تجوزون كون الحجارة التي هي أعجز المخلوقات شركاء لخالق الأرض والسماوات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي تفصيلاً مثل ذلك التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ نبيّنها فإن التمثيل ما يكشف المعاني ويوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال، وأخرج جويبر مثل

ما أخرج الطبراني في سبب نزول الآية عن داود بن أبي هند عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه عليهم السَّلام ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾ إضراب من مضمون الكلام السابق يعني ليس الله شريك بل اتبع ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم بتعريضها للعذاب بالإشراك بالله ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ في الشرك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من فاعل اتبعوا يعني جاهلين بما يجب عليهم ﴿فَمَن يَهْدِى﴾ أي إياه الفاء للسببية والاستفهام للإنكار إذا اتبعوا أهواءهم ولم يقبلوا هدى الله فلا أحد يهديهم وضع المظهر يعني قوله ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ موضع الضمير إشعاراً بأن الله أضلهم فمن يقدر على هدايته ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونهم عن آفاتها.

﴿فَأَقِمْ﴾ الفاء للسببية يعني لما ثبت وحدانيته تعالى وظهر أن المشركين إنما اتبعوا أهواءهم جاهلين فأقم أنت ﴿وَجْهَكَ﴾ أي أخلص بوجهك ﴿لِلدِّينِ﴾ أي للإسلام ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً إليه مستقيماً عليه غير ملتفت عنه إلى غيره ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على الإغراء أي الزموا فطرة الله أي خلقته والمراد به دينه يعني الإسلام كذا قال ابن عباس وجماعة من المفسرين، فالآية خطاب للنبي ﷺ ولأمته بتبعيته فالآية بمنزلة التأكيد أو التفسير لما قبله سماه فطرةً لكونه لازماً لكل مخلوق كما يدل عليه قوله: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ خلقهم مستعدين لها متمكنين على إدراكها وقيل المراد به العهد المأخوذ من آدم وذريته بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قالوا كل مولود في العالم مولود على ذلك الإقرار وهو الحنيفة التي وقعت الخلقة عليها وقد مرَّ ما ورد في هذا الباب في تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم قرأ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[(١)] متفق عليه، يعني كل مولود يولد في مبدأ الخلقة على الجبلة السليمة والطبع المهيأ لقبول الحق فلو ترك عليها لاستمر على لزومها لأن هذا الدين مركوز في العقول السليمة حسنه وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من الآفات كتقليد الآباء قوله تعالى ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ الظرف المستقر خبر الله والجملة الخبرية معناه النهي يعني لا تبدلوا دين الله، قال مجاهد وإبراهيم النخعي الزموا فطرة الله واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك، وقيل فطرة الله منصوب على المصدرية لفعل دل عليه ما بعده يعني فطر الله الناس فطرة التي فطرهم عليها. حكي عن عبد الله بن مبارك قال معنى الحديث «كل مولود يولد على الفطرة» أي على خلقته التي جبل عليها في علم الله من السعادة أو الشقاوة وكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر الله عليها وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها، وعلى هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ يعني ما جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة لا يتبدل فلا يكون الشقي سعيداً ولا السعيد شقياً. عن ابن

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٧٩، ٩٢، وتفسير سورة ٣٠، باب ١، والقدر باب ٣، ومسلم في القدر حديث ٢٢، ٢٤.

مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١) متفق عليه، وعن أبي الدرداء قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ فتذاكر ما يكون إذ قال رسول الله ﷺ إذ سمعتم بجبل زال عن مكانه قصدقوه وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوه فإنه يصير إلى ما جبل عليه» رواه أحمد، والمعنى على هذا التأويل أن الله فطر كلاً على فطرة لا يتبدل وقد فطرك ومن معك سعداء فأقم وجهك للدين كأنه تعليل وتشجيع على الإخلاص وجاز أن يكون فِطرة الله على هذا التأويل منصوباً بتقدير ملتزمين فطرة الله التي فطركم عليها، فوضع الظاهر يعني لفظ الناس موضع الضمير إشعاراً بأن الناس كلهم مفطورون على فطرة غير تاركوها فأنتم أقيموا وجوهكم للدين، قال عكرمة ومجاهد يعني لا تبدلوا خلق الله والمراد منه تحريم إخصاء البهائم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الدين المأمور بالإقامة والفطرة على التأويل الأول ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامة لعدم تدبرهم.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا
دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ
إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ
وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا
آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ
يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٨، وبدء الخلق باب ٦، وأحاديث الأنبياء باب ١، والقدر باب ١، ومسلم في القدر حديث ١.

وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه من أناب إذا رجع مرةً بعد أخرى، وقيل معناه منقطعين إليه من غيره من الناب منصوب بفعل مقدر وهو كونوا بدليل عطف لا تكونوا عليه أو حال من الضمير في الزموا أو ملتزمين الناصب المقدر لفطرت الله أو في أقم لأن الآية خطاب للرسول الله ﷺ وأمته صدرت بخطاب الرسول لتعظيمه كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] يدل عليه قوله ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بدل من المشركين يعني تفرقوا واختلفوا فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم، قرأ حمزة والكسائي فارقوا يعني تركوا دينهم الذي أمروا به ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ فرقاً تشايع كل إمامها الذي اخترع لهم ديناً، قيل المراد به أهل البدع من هذه الأمة حيث تركوا دين الحق واتبعوا أهواءهم وأطلق عليهم لفظ المشركين لكونهم ممن اتخذ إلهه هواه، عن عبد الله بن عمر وقال قال رسول الله ﷺ: «تفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة، قيل من هي يا رسول الله؟ قال ما أنا عليه وأصحابي»(١) رواه الترمذي ﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الاعتقاد ﴿فَرِحُونَ﴾ مسروروں ظناً بأنهم على الحق، روى الدارمي عن إبراهيم بن إسحاق عن ابن المبارك عن الأوزاعي قال قال إبليس لأوليائه من أي شيء تأتون بني آدم؟ فقالوا من كل شيء، فقال فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ فقالوا هيهات ذاك شيء قرن بالتوحيد، قال لأبثن فيهم شيئاً لا يستغفرون منه قال فبث فيهم الأهواء ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ يعني كفار مكة ﴿ضُرّٞ﴾ قحط وشدة ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعون إليه من دعاء غيره ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من الشدة أو خصباً ورحمة ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجأ فريق منهم بالإشراك بربهم الذي عافاهم ونسبوا معافاتهم إلى غيره، عن زيد بن خالد الجهني قال: صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال أصبح من عبادي مؤمن وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤٤٣.

مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»(١) متفق عليه، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله من السماء بركةً إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقول بكوكب كذا وكذا»(٢) رواه مسلم.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر بمعنى التهديد لقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ غير أن فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تمتيعكم ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة والاستفهام للانكار عطف على ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ وجاز أن يكون متصلة معطوفة على مقدر تقديره أيشركون بلا حجة ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس يعني حجة وعذراً وقال قتادة كتاباً، وقيل ذو سلطان يعني ملكاً معه برهان أو رسولاً مؤيداً بالمعجزة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ نطقاً أو دلالة كقوله تعالى: ﴿كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي بإشراكهم وصحته أو بالأمر الذي بسببه يشركون به وبألوهيته والاستفهام في أم أنزلنا للتقرير يعني حمل المخاطب على الإقرار بأنهم يشركون بلا حجة ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ نعمة من صحة وسعة ﴿فَرِحُوا﴾ بطروا بها بسببها ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شدة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بشؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فأجاؤوا القنوط من رحمته وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة ويصبر ويحتسب ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق فمالهم بطروا في السراء ولم يشكروا وقنطوا في الضراء ولم يرجعوا إلى الله راجين مغفرته بالندم والتوبة وترك المعصية ولم يصبروا ولم يحتسبوا كالمؤمنين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القبض والبسط ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يستدلون بهما على كمال القدرة والحكمة ﴿فَآتِ﴾ الفاء للسببية يعني إذا عرفت أن قبض الرزق والبسط من الله تعالى فآت: ﴿ذَا الْقُرْبَى﴾ مصدر بمعنى القرابة ﴿حَقَّهُ﴾ من البر والصلة والنفقة الواجبة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقد مرَّ بحث نفقة المحارم في تفسير تلك الآية في سورة البقرة ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر الذي ليس معه ماله وكان له مال في وطنه آتهم حقوقهم من مال الزكاة ابتغاء مرضات الله ورجاء من فضله في الدنيا والآخرة ﴿ذَلِكَ﴾ الإيتاء ﴿خَيْرٌ﴾ من إيثار اللذات لأنفسهم ﴿لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي ذاته أو جهته يعني يقصدون به رضاءه ويرجون ثوابه دون من يؤتى رياءً وسمعة ﴿وَأُولَئِكَ﴾ عطف على الموصول أو على ذلك ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دون غيرهم فإنهم اشتروا بالدنيا الفانية العقبى الباقية.

﴿وَمَا آتَيْتُمْ﴾ بالمد عند الجمهور يعني ما أعطيتم أكلة الربا ﴿مِنْ رِبًا﴾ زيادة محرمة

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٥٦، والاستسقاء باب ٢٨، والمغازي باب ٣٥، ومسلم في الإيمان حديث ١٢٥.

في المعاملة أو عطيةً مباحةً من هدية أو هبة يتوقع بها مزيد مكافأة، وعلى هذا التأويل سمى العطية بالربا باسم المطلوب وهو الزيادة، وقرأ ابن كثير ما آتيتم في الموضعين مقصوراً أي ما جئتم به من إعطاء زيادة محرمة أو عطية مباحة يتوقعون بها مزيد مكافأة ﴿لِّيَرْبُوَا۟﴾ قرأ أهل المدينة ويعقوب بالتاء للخطاب مضمومةً والباء المضمومة وإسكان الواو أي لتربوا أنتم وتصيرون ذا زيادة ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي أموال المعطين أو المعطى لهم وقرأ الباقون ليربوا بالياء التحتانية المفتوحة وفتح الواو أي ليزيدوا في أموالهم ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يزيدوا عنده ولا يبارك فيه. قال البغوي اختلفوا في معنى الآية فقال سعيد بن جبير ومجاهد وطاوس وقتادة وأكثر المفسرين هو الرجل يعطي غيره العطية ليثبت أكثر منها وهذا جائز حلال ولكن لا يثاب عليه يوم القيامة وهو معنى قوله لا يربوا عند الله وكان هذا حراماً على النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ [المدثر: ٦] وقال الضحاك هو الرجل يعطي قريبه أو صديقه لتكثير ماله ولا يريد به وجه الله، وقال الشعبي هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله التماس عونه لا لوجه الله فلا يربوا عند الله لأنه لا يريد به وجهه قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىءٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي ما أعطيتم من صدقة أو فعلتم أداء الزكاة ﴿تُرِيدُونَ﴾ به ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ذاته أو ثوابه ورضاه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني الذين يؤتون الزكاة ﴿هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي الذين يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى ما لا نهاية له ويضاعف لهم أموالهم ببركة الزكاة أو المعنى هم ذووا الإضعاف من الثواب نظيره المقوي والموسر لذي القوة واليسار. وتغييره عن سنن المقابلة عبارةً ونظماً للمبالغة، والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم أو للتعميم كأنه قال من فعل ذلك فأولئك هم المضعفون والراجع منه محذوف إن جعلت ما موصولة تقديره المضعفون به وقال الزجاج تقديره فأهلها هم المضعفون.

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وما بعده خبره ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي ممن أشركتموها بالله من الأصنام وغيرها والاستفهام للإنكار أي ليس شيء منها ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ ذكر الله سبحانه لوازم الألوهية وأثبتها لنفسه ونفاها عن غيره مؤكداً بالإنكار على ما دلّ عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شريكاً فقال ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتاء الفوقانية والباقون بالياء التحتانية وجاز أن يكون الذي خلقكم صفة لله وهل من شركائكم خبره من الرابط من ذلكم لأنه بمعنى من أفعاله تقديره الله الذي خلقكم هل من

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٢٦.

شركائكم من يفعل شيئاً من أفعاله من الأولى والثانية تفيد أن شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم النفي وكل منها مستقلة لتعجيز الشركاء.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق والقتال والجدال ومحق البركات والظلم وكثرة المضار والأمراض والضلال والرياح المفسدة في البحار ومصادمة الداوب في البحار، وقال البغوي أراد بالبر البوادي والمفاوز وبالبحر المدائن والقرى التي على المياه الجارية، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال العرب يسمي المصر بحراً يقول أجدبت البر وانقطعت مادة البحر، وقال عطية وغيره البر ظهر الأرض من الأمصار وغيرها والبحر هو البحر المعروف وقلة المطر كما تؤثر في البر تؤثر في البحر فتخلو أجواف الأصداف لأن الصدف إذا جاء المطر ترتفع إلى وجه البحر وتفتح فاه فما يقع في فيه من المطر صار لؤلؤاً، وقال ابن عباس ومجاهد الفساد في البر قتل ابن آدم أخاه وفي البحر غصب الملك الجابر السفينة، أخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ بقتل قابيل أخاه وفي البحر بأن ملك عمان جلندي كان يأخذ كل سفينة غصباً وقال الضحاك كانت الأرض خضرة مونقة[(١)] لا يأتي ابن آدم شجرةً إلا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذباً وكان لا يقصد الأسد البقر والغنم فلمّا قتل قابيل وهابيل أقشرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً أجاجاً وقصد الحيوان بعضه بعضاً ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياه يعني وقع القحط والجدب بمكة بشؤم معاصي أهلها حتى أكلوا العظام والجيف ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ قرأ قنبل بالنون على التكلم والباقون بالياء ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي بعض جزائه فإن تمام الجزاء في الآخرة واللام للعلة أو العاقبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لكي يرجعوا من أعمالهم الخبيثة متعلق بقوله ليذيقهم، قال قتادة امتلأت الأرض ظلماً وضلالة قبل مبعث النبيّ ﷺ فلمّا بعث رجع راجعون من الناس.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلكم لتروا منازل الذين ظلموا خاوية ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ الجملة حال بتقدير قد أو استئناف للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لظهور الشرك وغلبته فيهم أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليلهم فأهلكوا جميعاً بشؤم الجار السوء أو بتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جملة قُل سيروا تأكيد من حيث المعنى ليذيقهم لدلالته على إذاقة العذاب ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ حذراً عما لحق بمن قبلك فالفاء للسببية ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ البليغ في الاستقامة وهو دين الإسلام ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي لا يقدر أحد أن يرده ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بيأتي أو بمرد لأنه مصدر على معنى لا يرده الله لتعلق إرادته بمجيئه يمكن أن يكون المراد بذلك اليوم يوم يأتيهم العذاب في الدنيا والظاهر أن المراد به يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾

(١) أي ذات أنق: أي ذات كلأ، وأنيق حسن معجب.

أصله يتصدعون أي يتصرفون فريق في الجنة وفريق في السعير أو فريق يعذب في الدنيا وفريق لا يعذب كيوم بدر ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي وباله في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يسوون منازل حسنة في القبور وفي الجنة ﴿لِيَجْزِىَ﴾ الله متعلق بيمهدون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ظاهر موضع الضمير لبيان مناط جزائهم ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ متعلق بيجزي، قال ابن عباس ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم اقتصر على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات وأن الله إنما يريد الإثابة إلا من أبى وظلم على نفسه واختار النار لأجل كفرهم كما يدل عليه قوله ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهم بكفرهم لم يستحقوا تفضله، وقال الشيخ جلال الدين قوله ليجزي متعلق بيصَّدَّعُونَ وقد ذكر جزاء الفريقين فإن قوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ٤٥] معناه أنه يعاقبهم والله أعلم.

وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ دالٌّ على أن الإثابة تفضل محض وتأويله بالعطاء أو الزيادة على الثواب عدول عن الظاهر، قلتُ: ويؤيده ما أخرج أحمد في الزهد عن أبي الحارث قال أوحى الله تعالى إلى داود أنذر عبادي الصالحين فلا يعجبوا بأنفسهم ولا يتكلوا على أعمالهم فإنه ليس عبد من عبادي أنصبه للحساب وأقيم عليه عدلي إلا عذبته، وأخرج أبو نعيم عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عبداً لحساب يوم القيامة أشاء أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيته من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»(١) وأخرج الطبراني عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له فيقول الله تبارك وتعالى بأي الأمرين أحب إليك أن أجزي بعملك أو بنعمتي عليك، قال أي رب أنت أعلم أني لم أعصك قال خذوا عبدي بنعمة من نعمتي فما يبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة فيقول بنعمتك ورحمتك، وأخرج البزار عن أنس عن النبيّ ﷺ «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى، يقول الله تعالى لأصغر نعمة من ديوان النعم خذي منك من العمل الصالح فتستوعب العمل الصالح فيقول وعزتك ما استوعبت ويبقى الذنوب وقد ذهب العمل الصالح كله فإذا أراد الله تعالى أن يرحم عبداً قال يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزتُ عن سيئاتك ووهبتُ لك نعمتي»(٢) وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله كان له بها عهداً عند الله ومن قال سبحان الله كتب له بها مائة ألف حسنة»، فقال رجل: يا رسول الله كيف نهلك بعد هذا؟ قال «والذي نفسي بيده إن الرجل ليجيء يوم القيامة بعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم نعمة من نعم الله تعالى فكان كله

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.
(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٨٠.

يستنفد ذلك كله يوماً يتفضل الله به من رحمته»(١) وأخرج الشيخان عن عائشة وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدخل الجنة أحداً عمله»، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرته ورحمته»(٢) وعند مسلم عن جابر نحوه، وقد ورد هذا أيضاً من حديث أبي سعيد أخرجه أحمد ومن حديث ابن أبي موسى وشريك بن طارق أخرجهما البزار ومن حديث شريك بن طريف وأسامة بن شريك وأسد بن كرز أخرجها الطبراني.

وهاهنا إشكالان **أحدهما** أنه لا يبقى حينئذ فائدة في الطاعة وترك المعصية فإن الله تعالى لو لم يتفضل عذّب أهل الطاعة ولو تفضل غفر أهل المعصية وأدخل الجنة **وثانيهما** أنه معارض لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] فإنه يدل على أن دخول الجنة مسبب بالأعمال. والجواب عن الأول أن الطاعة يقتضي محبة الله عبده حيث قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال رسول الله ﷺ حكايةً عن الله سبحانه: «ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة في حديث طويل، والمحبة تقتضي التفضل والتفضل سبب لجلب كل خير ودفع كل ضرر، وعن الثاني بأن للجنة منازل تنال فيها بالأعمال فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأما أصل دخولها والخلود فيها فبفضل الله ورحمته، يؤيده ما أخرجه هناد في الزهد عن ابن مسعود قال تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقسمون المنازل بأعمالكم وأخرج أبو نعيم عن عون بن عبد الله مثله والله أعلم.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ دلائل قدرته ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ من الشمال إلى الجنوب وبالعكس ومن المشرق إلى المغرب وبالعكس على حسب إرادته من غير محرك كما يشهد به الحس، قرأ حمزة(٤) والكسائي الريح على إرادة الجنس ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر حال من الرياح ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ المذوقات من الحبوب والثمار وغيرها معطوف على معنى مبشرات كأنه قال ليبشركم وليذيقكم أو على محذوف تقديره يرسل الرياح ليذهب عنكم الحر والسموم وليذيقكم ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ من للابتداء ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ بالرياح ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ الأرباح بالتجارة في البحر ﴿مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعم الله فيها فتجلبوا ثمراته في الدنيا والآخرة جملة من آياته متصل بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ الآية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالدلالات الواضحات على

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٤٣٧.
(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.
(٤) هذا وهم لأنهم أجمعوا على قراءته بالجمع، والمختلف فيه: الرياح فتثير، والذي وقع بعد هذا: فقرأه بالتوحيد ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

صدقهم فآمن بهم قوم وكفر بهم آخرون يدل عليه قوله ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ﴾ أي عذبنا الذين كفروا بهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على جملة محذوفة تقديره ونصرنا الذين آمنوا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وفيه إشعار بأن الانتقام من الكفار كان لأجل نصر المؤمنين وإظهار كرامتهم. فإن قيل هذه الآية تدل على وجوب نصر المؤمنين تفضلاً فيلزم منه أن لا يغلب الكفار عليهم قط وقد يرى خلاف ذلك؟ قلنا: اللام والإضافة في نصر المؤمنين للعهد والمراد أن المؤمنين الذين جاهدوا الكفار خالصاً لإعلاء كلمة الله والموعود من الله أن ينصرهم ولو بعد حين وعن أبي الدرداء قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقّاً على الله.................. أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا هذه الآية «وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين»[1] أخرجه الترمذي وحسنه وأخرجه إسحاق بن راهويه والطبراني وغيرهما من حديث أسماء بنت يزيد، وقد يوقف على حقّاً على أنه متعلق بالانتقام ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متصلاً تارة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في سمتها كقوله تعالى ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ حال من مفعول يبسط أي سائراً أو واقعاً مطبقاً أو غير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قطعاً تارةً أخرى، قرأ ابن عامر[2] بسكون السين على أنه مخففاً أو جمع كسفة أو مصدر وصف به ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في التارتين ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني بلدهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بمجيء الخصب ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ مخففة من الثقيلة يعني وأنهم كانوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر خفف المكي والبصري ينزل ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم ليس في قراءة ابن مسعود كلمة من قبله ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ اللام فارقة وقيل إن نافية واللام بمعنى إلا والمعنى وما كانوا من قبله إلا آيسين ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يعني آثار الغيث من النبات والأشجار والحبوب والثمار ولذلك جمعه ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وقرأ الجمهور أثر رحمت الله مفرداً أي على إرادة الجنس ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالإنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ يحييهم بعدما يميتهم فما وجه إنكاركم أيها الكفار بعدما تشاهدون ما يماثله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على السواء ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ موجباً ليبس الأرض ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي رأوا الأثر أو الزرع فإنه مدلول عليه بما تقدم ﴿مُصْفَرًّا﴾ واللام جواب قسم مقدر ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ بنعمة الله جواب للقسم سدَّ مسد الجزاء مبنية حال الكفار لقلة تثبتهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم، والنظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله ويلتجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبس المطر عنهم

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٢) بخلاف عن وهب وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

ولا ييأسوا من حرمة الله، وأن يبادروا إلى الشكر والاستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولا يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا على بلائه إذا ضرب بزرعهم آفة ولا يكفروا نعمه ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[١] وهم مثلهم لسدهم عن الحق مشاعرهم ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ قرأ ابن كثير لا يسمع بالياء على الغيب على البناء للفاعل من المجرد ورفع الصم والجمهور على صيغة الخطاب من الأفعال ونصب ﴿ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالةً فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام يفطن منه بواسطة الحركات شيئاً ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ﴾ أي الكفار قرأ حمزة تهدي بصيغة المضارع سماهم عمياً لفقدهم المقصود الحقيقي من الإبصار أو لعمى قلوبهم ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ﴾ سماع إفهام وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى ويجوز أن يراد بالمؤمن المشارف للإيمان أو من قدر الله له الإيمان ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لما تأمرهم به.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي ابتداؤكم ضعف أي ضعف الطفولية أو جعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧] أو المعنى خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة أي ذي ضعف كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠] ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ أي ضعف الطفولية ﴿قُوَّةً﴾ أي شباباً ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة من ضعف في المواضع الثلاثة بفتح الضاد وكذلك روى حفص عن عاصم فيهن غير أنه ترك ذلك واختار الضم اتباعاً منه لرواية حدثه بها الفضل بن مرزوق عن عطية العوفي عن عبد الله بن عمر أنه ﷺ أقرأ ذلك بالضم وردَّ عليه الفتح، كذا أخرج

---

(١) أخرج مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثة أيام حتى جيفوا ثم أتاهم فقام يناديهم فقال يا أمية بن خلف يا أبا جهل بن هشام يا عتبة بن ربيعة هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فسمع عمر صوته فجاء فقال يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون يقولُ الله إنك لا تُسمعُ الموتى فقال والذي نفسي بيده ما أنتم باسمع منهم ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا ـ وروى مثله عن ابن عمر قلت إذا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الموتى تسمع كلام الحي فمعنى قوله تعالى إنك لا تسمع الموتى باختيارك وقدرتك كما أنت تسمع الحيّ على ما جرى به عادة الله تعالى لكن الله تعالى يسمع الموتى كلام الأحياء إذا شاء أو انك لا تسمع الموتى سماعاً تترتب عليه الفائدة ـ ١٢ ـ نوّر الله مرقده ـ.

أبو داود والترمذي عن ابن عمر وهذه الرواية ضعيفة كذا قال الداني وما رواه حفص عن عاصم عن أئمته أصح والباقون بضم الضاد فيهن كذا قال الداني، وقال البغوي في التفسير قرأ حفص بضم الضاد وفتحها والآخرون بفتحها وهما لغتان فالضمة لغة قريش والفتح لغة تميم، وفي القاموس الضعف بالفتح في الرأي وبالضم في البدن ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من الضعف والقوة والشباب والشيب ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على كل ما يشاء ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وصارت علماً لها بالغلبة كالكواكب للزهرة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ في الدنيا والقبور بدليل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ من الزمان استقلوا مدة لبثهم إضافةً إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً أو لأن ما مضى صار كأن لم يكن قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق ﴿كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق حيث كانوا يشركون بالله ويقولون أن لا بعث ﴿وَقَالَ﴾ عطف على يقسم المجرمون ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ أي الملائكة والأنبياء والمؤمنون رداً لقولهم ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ زماناً كتب الله لكم لبثه ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أو زماناً كائناً في كتاب الله أي مكتوباً فيه مدة لبثكم أو لبثتم لبثاً كائناً في كتاب الله أي اللوح المحفوظ أو صحف الملائكة الموكلين بالأرحام حيث قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله» الحديث، أو القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ متعلق بقوله لبثتم ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، جملة معترضة أو جواب شرط محذوف تقديره إن كنتم تنكرون البعث فهذا يوم البعث أي فأنتم مبطلون وقد تبين بطلان إنكاركم ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق لتفريطكم في النظر ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ قرأ الكوفيون لا ينفع بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية لتأنيث الفاعل لكنه غير حقيقي ومفصول ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم العتبى أي الرضاء كذا في القاموس يعني لا يطلب منهم موجبات رضاء الله منهم من التوبة والطاعة كما طلب منهم في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فأعتبتهُ أي استرضاني فأرضيتُه أو المعنى لا يطلب رضاؤهم بالله كما يطلب من المؤمنين رضاؤهم، عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تعط أحداً من الخلق فيقول أما أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا وما أفضل من ذلك؟ فيقول أحلُّ لكم رضواني فلا أسخط بعده»(١) متفق عليه، وقال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ٢١].

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٧، والرقاق باب ٥١، ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢، والجنة حديث ٩.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ أي بيّناً ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي أنواع الحكايات التي هي في الغرابة كالأمثال مثل صفة المبعوثين من الكفار يوم القيامة وما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون لهم من الانتفاع بالمعذرة وعدم استغنائهم، أو بينّا لهم من كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾ جواب قسم محذوف ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ من آيات القرآن لو معجزة كعصا موسى ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من فرط غباوتهم وقساوة قلوبهم ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي قائلون بالأباطيل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي طبعاً مثل ذلك الطبع الذي طبعنا على قلوب كفار مكة الذين قالوا إن أنتم إلا مبطلون ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله أو لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع عن إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنصرتك وإظهار دينك على سائر الأديان ﴿حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي لا يجملنك على الخفة والقلق أو لا يحملنك على الجهل وأتباعهم في الغي ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم ــ.

تم تفسير سورة الروم خامس عشر رجب سنة ألف ومائتين
وست والحمد لله رب العالمين ويتلوه
إن شاء الله تعالى سورة لقمان
والحمد لله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة لقمان

آياتها أربع(١) وثلاثون وهي مكيّة

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي حكمة أو وصف الكتاب بصفة الله عز وجلّ على الإسناد المجازي والإضافة بمعنى من هدى ورحمة قرأ حمزة بالرفع على أنه خبر بعد خبر لتلك أو خبر لمحذوف أي هي ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ والحمل على المبالغة كزيد عدل أو بحذف المضاف أي ذات هدًى والباقون بالنصب على الحال من الآيات والعامل فيه معنى الإشارة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ بيان لإحسانهم أو تخصيص بهذه الثلاثة من شعبه لفضل اعتداد بها وتكرير الضمير للتوكيد ولما حيل بينه وبين خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ فائزون مقاصدهم لاستجماعهم العقيدة والعمل الصالح.

أخرج جويبر عن ابن عباس قال اشترى النضر بن الحارث قينة فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول أطعميه وأسقيه وغنيه هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فنزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي ما تلهي وتشتغل عما يفيد من الأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتبار فيها

---

(١) وفي الأصل: تسع وثلاثون صدر هذا من سبق قلم لا شك فيه لأن آياتها ثلاث وثلاثون عند أهل الحجاز وأربع وثلاثون للباقي ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

والمضاحيك وفضول الكلام، والإضافة بيانية بمعنى من إن أراد بالحديث المنكر أو تبعيضية أيضاً بمعنى من إن أراد به الأعم منه، وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنيةً، وروى البغوي عن أبي سلمة قال قال رسول الله ﷺ: «لا يحل تعليم المغنيات وأثمانهن حرام»(١) وفي مثل هذا نزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآية وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب ولا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت، أخرج الترمذي وغيره عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام»(٢) في مثل هذا أنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ وقال البغوي قال مقاتل والكلبي نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان يتَّجر فيأتي الحيرة ويشتري بها أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فأنزل الله هذه الآية، وكذا أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس وقال مجاهد يعني القينات والمغنين، ومعنى الآية على هذا من يشتري ذات لهو أو ذا لهو الحديث أو المعنى من يشتري لهو الحديث أي يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن، قال مكحول من اشترى جارية ضرابةً لتمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليه حتى يموت لم أصلّ عليه لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآية، وعن ابن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث الغناء والآية نزلت فيه، وقال أبو الصهباء البكري سألتُ ابن مسعود عن هذه الآية قال هو الغناء والله الذي لا إله إلا هو يردّدها ثلاث مرات، وقال ابن جريج هو الطبل قلتُ مورد النص وإن كان خاصّاً وهو الغناء أو قصص الأعاجم لكن اللفظ عام والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ومن هاهنا قال قتادة هو كل لهو ولعب وقال الضحاك هو الشرك.

مسألة: اتخاذ المعازف والمزامير حرام باتفاق فقهاء(٣) الأمصار عن أبي هريرة أن

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) أخرجه الترمذي حديث ١٢٨٢، ٣١٩٥.

(٣) في المتفق ضرب المزامير واستماعها حرام في الفتاوى الكبرى يحرم ضرب الطبل واستماعه لأنه من الملاهي إلا طبول الحرب القافلة لأن فيها اعلاماً للغزاة والرفاء وأنه طاعة وفي الملتقط ومن الناس من يقول لا بأس بالغناء في الأعراس والوليمة ألا ترى أنه لا بأس بضرب الدف في الأعراس والوليمة وإن كان في ذلك نوع لهو وإنما لم يكن به بأس لأنه فيه إظهار النكاح وإعلان وبه أمر صاحب الشرع حيث قال أعلنوا النكاح ولو بالدف وكذلك الفتوى ـ وفي الذخيرة ومنهم من قال لا بأس بالدفّ في الأعياد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً في بيته يوم العيد وفي دهليزه جاريتان تغنيان بالدف فجاء أبو بكر وقال لهما أتغنيان في دهليز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام دعهما فإن هذا اليوم يوم عيد ـ ١٢ ـ قدس سره ـ.

النبيّ ﷺ «نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمارة»[١] رواه البغوي، وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يشربون الناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ويضرب على رؤوسهم المعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير»[٢] رواه ابن ماجه وصححه ابن حبان وأصله في صحيح البخاري، وعن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء»، قيل وما هي يا رسول الله؟ قال: «إذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وأطاع الرجل زوجته وعقّ أمه وبرّ صديقه وجفا أباه وارتفعت الأصوات في المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شرّه وشربت الخمر ولبست الحرير واتخذت القينات والمعازف ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً أو مسخاً»[٣] رواه الترمذي وقال غريب.

مسألة: قالت الفقهاء الغناء حرام بهذه الآية لكونه لهو الحديث وبما ذكرنا من الأحاديث، وقالت الصوفية كان من الرجال ذي قلب مطمئن بذكر الله فارغاً عن غيره لا يلتفت إلى ما سوى الله ولا يكون المغنّي محلاً للشهوة وكان المجلس خالياً عن الأغيار ولا يكون وقت صلاة أو نحوها جاز له السماع بل يستحب، لأن في السماع خاصية أنه يستعمل به نار المحبة الجامدة المستورة في القلب وذلك هو السبب لحرمته في حق العامة فإن العوام قلوبهم مشغولة بحب النساء أو الغلمان فعند السماع يشتعل ذلك المحبّة ويشغلهم عن ذكر الله فكان في حقهم لهو الحديث، ومن كان قلبه مشغولاً بمحبة الله وذكره فارغاً عن غيره يكون السماع في حقه موجباً لاشتغال محبة الله فيكون في حقه مستحباً[٤]، والجواب عن النصوص

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/ ٣٦٩، ٨/ ٣٠٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب ٢٢.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٣٨.

(٤) في شرح الكافي واعلم أن المكروه من السماع عند علمائنا ما يكون على سبيل اللهو وإرادة العصيان بأن يجتمع الفساق على ذلك ويتركون الصلاة وقراءة القرآن. وأما ما كان من أهل الصلاة وأهل القرآن من جملة الصالحين فسماع هؤلاء حلال بلا خلاف بين علمائنا إذ لا يريدون بذلك إلا وجه الله وحضوره ويذكرون الله وخوف الآخرة وكل ذلك محمود غير مذموم والتواجد والرقص أيضاً غير مذموم بهذا المعنى ـ وفي شرح البزدوي المسمى بالنوري صنفه أبو القاسم بن محمد بن عبدالله الدمشقي ـ اعلم أن السماع إنما يختلف علماءنا في حقه فهو ما كان على سبيل اللهو واللعب يجتمع الفساق وشاربو الخمر وتاركو الصلاة ـ فأما من سمع السماع وهو صالح دائم الصلاة لا تارك الورد وقراءة القرآن فهو حلال بلا خلاف بين علمائنا وكذلك الرقص والتواجد وفي الاقناع ان السماع يحصل به رقة القلب والخشوع وإثارة الشوق إلى لقاء الله تعالى والخوف من سخطه وعذابه والمفضى إلى ذلك قربة فإذا كان السماع هكذا فكيف يكون فيه شائبة اللهو والهواء وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف والسماع يستجلب الرحمة من الله الكريم والله أعلم ـ وفي فتاوى الخلاصة يجب أن يعلم أن التغني لدفع الوحشة عن نفسه لا يكره عند البعض وبه أخذ الإمام السرخسي والمكروه عندهم ما يكون على سبيل اللهو ومنهم من يقول جميع ذلك مكروه وبه أخذ الإمام خواهر زاده وفي الجامع المضمرات قال ذكر في النافع والذخيرة أن المتغنى إذا لم يُسمع غيره ولكن يُسمع =

أن الآية ناطقة بالحرمة لما هو لهو الحديث وسماع الصوفية ليس منه والأحاديث الموجبة لحرمة الغناء مخصوصة بالبعض لورود أحاديث أخر دالة على الإباحة فحملنا أحاديث حرمة الغناء على ما كان منه على قصد اللهو لا لغرض مشروع داعياً إلى الفسوق، فلنذكر الأحاديث الدالة على إباحة الغناء بل على إباحة ضرب الدف أيضاً منها حديث الربيع بنت معوّذ بن عفراء قالت: «جاء النبيّ ﷺ فدخل حين بنى عليَّ فجلس على فراشي كمجلسك مني فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر إذ قالت إحداهن:

وفـيـنـا نـبـي يـعـلـم مـا فـي غـد

فقال: دعي هذه وقولي ما كنت تقولين»(١).

رواه البخاري وروى ابن ماجه نحوه وفيه «أما هذا فلا تقولوه لا يعلم ما في غد إلا الله»(٢) وعن عائشة قالت: زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله ﷺ: «ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو»(٣) رواه البخاري، وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدُّفوف»(٤) رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن عائشة قالت: كانت عندي جارية من الأنصار زوجتها فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ألا تغنين فإن هذا الحي من الأنصار يحبون الغناء»(٥) رواه ابن حبان في صحيحه، وعن ابن عباس قال أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أهديتم الفتاة»، قالوا: نعم قال: «أرسلتم معها من تغنّي؟» قالت لا، فقال رسول الله ﷺ: «إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم»(٦)

رواه ابن ماجه، وعن عامر بن سعد قال دخلتُ على قرظ بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوار تغنين فقلتُ أي صاحب رسول الله ﷺ وأهل بدر يفعل هذا عندكم؟ فقالا اجلس إن شئت فاستمع معنا وإن شئت فاذهب فإنه قد رخص لنا في اللهو

= نفسه لإزالة الوحشة فلا بأس به وقال سمعتُ الشيخ الإمام الأجل نجم الدين رحمه الله أنه قال لو سمعه من جاريته يباح له ذلك وأحاله إلى واقعات الحسانية وفي العوارف أو زوجته كذا في فتاوى ابراهيم شاهي ـ وفي المحيط ذكر محمد في السير الكبير عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان يتغنى ـ ١٢ ـ منه برّد الله تربته ـ.

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ٤٨، والمغازي باب ١٢، وأبو داود في الأدب باب ٥١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في النكاح باب ٢١.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح باب ٦٣.

(٤) أخرجه الترمذي في النكاح باب ٦.

(٥) أخرجه الترمذي في مشكاة المصابيح ٣١٥٤.

(٦) أخرجه ابن ماجه في النكاح باب ٢١، وأحمد في المسند ٣/ ٣٩١.

عند العرس، وعن عائشة أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدففان وتضربان والنبيّ ﷺ مُتَغشٌ بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبيّ ﷺ عن وجهه فقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد تلك أيام منى»(١) رواه البخاري وعند ابن ماجه «إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا»(٢) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأةً قالت يا رسول الله إني نذرتُ أن أضرب على رأسك بالدف قال: «أوفي بنذرك»(٣) رواه أبو داود، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية الله»(٤) رواه مسلم، وروي أن النبيّ ﷺ لمّا قدم المدينة ونزل في بني نجار صرن جوار من بني النجار يتغنين ويقلن:

نحن جوار من بني نجار يا حبذا محمداً من جار

رواه ابن ماجه عن أنس، وفيه فقال النبيّ ﷺ: «الله يعلم إني لأحبكن»(٥) وروى البيهقي عن عائشة أن النبيّ ﷺ حين قدم المدينة جعل النساء والولائد والصبيان يقلن شعر:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعى لله داع

أيها المبعوث فينا جئتَ بالأمر المطاع

وروى أحمد عن أنس لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحاً برسول الله ﷺ(٦)، وعن محمد بن حاطب الجمحي عن النبيّ ﷺ قال: «فصل ما بين الحلال والحرام الصوت والدّف في النكاح»(٧) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، فظهر أن المحرم من الغناء ما يدعوا إلى الفسق ويشغل عن ذكر الله وما ليس كذلك فليس بحرام(٨) غير أنه لم يثبت عن النبيّ ﷺ ولا عن الصحابة رضي الله عنهم استماع الغناء تقرباً إلى الله تعالى، ولأجل ذلك ما اختار الكرام من النقشبندية وغيرهم ارتكابه وإن لم يرتكبوا الإنكار عليه والله أعلم.

﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دينه أو ذكره وقراءة كتابه قرأ ابن كثير

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين باب ٢٥، والمناقب باب ١٥.
(٢) أخرجه ابن ماجه في النكاح باب ٢١.
(٣) أخرجه أبو داود في الأيمان باب ٢٢، والترمذي في المناقب باب ١٧، وأحمد في المسند ٥/٣٥٣، ٣٥٦.
(٤) أخرجه مسلم في النذر حديث ٨، وأبو داود في الأيمان باب ٢٧، ٢٨، وأحمد في المسند ٤/٤٣٠.
(٥) أخرجه ابن ماجه حديث ١٨٩٩.
(٦) أخرجه أحمد في المسند ٣/١٦١.
(٧) أخرجه الترمذي في النكاح باب ٦، والنسائي في النكاح باب ٧٢، وابن ماجه في النكاح باب ٢٠، وأحمد في المسند ٣/٤١٨.
(٨) في الإحياء السماع في أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهيجاً له مباح إن كان ذلك السرور مباحاً كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي الوليمة والعقيقة وعند ولادة الولد وختانه وعند حفظ القرآن. قلت وكذا عند تفويض الولد للمقرىء لأجل التعليم ـ ١٢ ـ منه أنار الله برهانه ـ.

وأبو عمرو[١] ليضل بفتح الياء على صيغة المجرد بمعنى يلبث على ضلاله ويزيد فيه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن، وقال قتادة بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ أي آيات الله قرأ حمزة[٢] والكسائي ويعقوب[٣] وحفص بالمنصب عطفاً على قوله ليضل والباقون بالعطف على قوله يشتري بالرفع ﴿هُزُوًا﴾ مهزوّاً به سخرية ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ﴾ لا يتوجه إليه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبراً الجملة الشرطية عطف على يشتري ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال من المستكن في ولي أو مستكبراً أو استئناف ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ﴾ قرأ نافع أذْنِه[٤] بلفظ المفرد على إرادة الجنس ﴿وَقْرًا﴾ ثقلاً مانعاً من السماع بدل من كأن لم يسمعها أو حال من المستكن في لم يسمعها أو استئناف ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أي أخبره وذكر البشارة على التهكم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يحيق به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ أي نعيم الجنات عكس للمبالغة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدر من الضمير في لهم أو من جنات والعامل ما تعلق به اللام أي مقدراً خلودهم فيها إذا دخلوها ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعد الله وعداً مصدر مؤكد لنفسه لكون ما قبله وعد ﴿حَقًّا﴾ أي حق ذلك الوعد حقاً مصدر مؤكد لغيره لأن كون الوعد حقاً أمر مغاير لنفس الوعد ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء لا يمنعه شيء من إنجاز وعده ووعيده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما يقتضيه الحكمة.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صفة للحكيم بحذف الموصول تقديره الذي خلق أو حال من الضمير المستتر فيه بتقدير قد أو استئناف في محل التعليل ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ جملة ترونها صفة لعمل والضمير راجع إليه وهو صادق بأن لا عمد لها أصلاً أو الضمير راجع إلى السماوات والجملة لا محل لها من الإعراب وقد سبق في الوعد ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً راسخات كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أو لأن لا تميد بكم ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي من كل صنف حسن كثير المنفعة فيه التفات من الغيبة إلى التكلم كأنه استدل به على عزته التي هي كمال قدرته وحكمته التي هي كمال العلم ومَهَّدَ به قاعدة التوحيد وقررها بقوله ﴿هَٰذَا﴾ أي ما ذكرت مما تعاينون ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الفاء للسببية يعني كل ما ترونه مخلوق لله تعالى فماذا خلق آلهتكم حتى استحقوا مشاركته في العبادة ماذا منصوب بخلق أو ما استفهام إنكار مبتدأ وإذا بمعنى الذي مع صلته خبره فأروني معلق عن العمل وما بعده سد مسدّ المفعولين ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيتكم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على من له أدنى تأمل ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنهم ظالمون.

---

(١) ورويس بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.

(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٣) هذا سهو لأن يعقوب قرأ بالرفع بلا خلاف كأبي عمرو ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

(٤) هذا ليس بشيء قرأ نافع: أُذْنَيه، بإسكان الذال، لا بالإفراد ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ﴾ بن باعور بن ناخور بن تارخ وهو آزر كذا قال البغوي، وقال قال وهب كان ابن أخت أيوب عليه السلام، وقال مقاتل ذكر أنه كان ابن خالة أيوب عليه السَّلام. وذكر البيضاوي وغيره أنه عاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه ثم ترك الفتيا بعد مبعثه وقال ألا أكتفي إذا كفيت، وقال الواقدي كان قاضياً في بني إسرائيل، وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب المملوكين وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً وكذا ذكر البغوي عن خالد الربعي، وقال قال مجاهد كان عبداً أسود عظيم الشفتين متشقق القدمين، وقال قال سعيد بن المسيب كان خياطاً وقيل كان راعي غنم والله أعلم ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ في القاموس وهي العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل والمراد بالحكمة في قوله ﷺ «إن من الشعر لحكمة»(١) هو العلم وما ورد في قوله ﷺ: «إلا وفي رأسه حكمة» المراد به العقل وكل من المعاني المذكورة يحتمل المقام، قال البغوي اتفق العلماء على أنه كان حكيماً أي فقيهاً عليماً ولم يكن نبيّاً إلا عكرمة فإنه قال كان نبيّاً وتفرد بهذا القول، وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه أنه سئل أكان لقمان نبيّاً قال لا لم يوح إليه وكان رجلاً حكيماً وكذا أخرج ابن جرير عن مجاهد، وقال بعضهم خُيّر لقمان بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة، قال البغوي وروي أنه كان نائماً في نصف النهار فنودي يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض فتحكم بين الناس بالحق فأجاب الصوت فقال إن خيرني ربي قبلتُ العافية وإن عزم علي فسمعاً وطاعةً فإني أعلم إن فعل ذلك أعانني وعصمني فقالت الملائكة بصوت (لا يراهم) لم يا لقمان؟ قال لأن الحكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان إن أصاب لقمان فبالحريّ أن ينجو وإن أخطأ أخطأ

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٠، وأبو داود في الأدب باب ٨٧، والترمذي في الأدب باب ٦٩، وابن ماجه في الأدب باب ٤١، والدارمي في الاستئذان باب ٦٨، وأحمد في المسند ٣/٤٥٦، ٥/١٢٥.

طريق الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ومن يختار الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن نطقه فنام نومه فأعطى الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها - ونودي داود عليه السَّلام بعدها فقبلها ولم يشترط ما شرط لقمان فهوى في الخطيئة غير مرة كل ذلك يعفو الله عنه وكان يوازره لقمان لحكمته وهذه الرواية تدل على أنه ليس المراد بالحكمة العدل في الحكم بين الناس، ولنعم ما قال الجزري في النهاية في تفسير الحكمة أنها عبارة عن معرفة الأشياء بأفضل العلوم، قلتُ أفضل الأشياء ذات الله تعالى قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقال عزَّ وجلَّ ﴿أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩] وأفضل علم لا يعتريه الغفلة وهو العلم الحضوري فإن العلم الحصولي لا ينفك عن غفلة وأيضاً لا يمكن درك الله سبحانه بالعلم الحصولي فإنه حصول صورة الشيء في الذهن وهو سبحانه منزه عن الصورة والتحيز بل العلم الذي يتعلق بذات الله سبحانه هو فوق العلم الحضوري والعلم الحضوري الذي يتعلق بذات العالم بالنسبة إلى ذلك العلم كالحصولي بالنسبة إلى الحضوري وهو من خصائص قلب الإنسان ومن ثم وقع في الحديث القدسي «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن» ويحصل ذلك لأخص الخواص من أولياء الله والله أعلم.

أخرج الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس أن لقمان كان عبداً لداود وهو يسرد الدروع فلم يسأله عنها فلمَّا أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمة حكمة وقليل فاعله، وروي أنه سئل أيّ الناس شر قال الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئاً، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير عن خالد الربعي قال كان عبداً حبشيّاً نجاراً فقال له سيده اذبح شاةً وأتني بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمر بأن يأتي بأخبث مضغتين منهما فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ الظاهر أن تقديره وقلنا له أن اشكر لله على ما أعطاك من الحكمة، وقال أكثر المفسرين أن مفسرة فإن في إيتاء الحكمة معنى القول، قلتُ: وتوجيه ذلك أن إيتاء الحكمة عبارة عن تعليمها والتعليم يكون بالقول غالباً فالمعنى آتيناه الحكمة أي أمرناه بالشكر وهذا يدل على أن الحكمة هو الشكر وإيتاء الحكمة الأمر بالشكر والمراد بالأمر الأمر التكويني دون التكليفي فإن أمر التكليفي يعم لقمان وغيره وهو لا يستلزم حصول الشكر بخلاف التكويني فإنه يستلزمه كما يستلزم إيتاء الحكمة حصولها، وتفسير الحكمة بالشكر مبني على المجاز فإن الشكر لازم للحكمة فيجوز إطلاق أحدهما على الآخر مبالغة مجازاً والشكر عبارة عن إظهار النعمة وضده الكفران وهو ستر النعمة، وفي القاموس الشكر بالضم عرفان الإحسان قيل هو مقلوب عن الشكر أي الكشف فإنه إظهار النعمة وهو ثلاثة أضرب شكر القلب تصور النعمة وشكر اللسان الثناء على النعمة وشكر الجوارح مكافآت النعمة بالطاعات، قيل أصله من عين شكر أي ممتلئة فالشكر على هذا الامتلاء من ذكر النعم ونعمته ومن أجل هذا قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣] ووصف الله تعالى في القرآن رجلين من عباده بالشكر أحدهما إبراهيم قال فيه ﴿شَاكِرًا

﴿لِأَنْعُمِهِۚ﴾ [النحل: ١٢١] وثانيهما نوح حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] قال في النهاية الشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية فيثني من المنعم بلسانه ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أنه مولاها وهو من شكرت الإبل شكراً إذا أصاب مرعى فسمنت عليه وجاز أن يكون تقديره وقلنا له أن اشكر لله على ما آتيناك من الحكمة وغيرها ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ الله ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ﴾ الله ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾ أي لنفع نفسه فإن الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود وموجب تقرب إلى الرب المعبود وثواب في دار الخلود قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] الآية ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ نعمة الله ﴿فَإِنَّ﴾ وباله عليه و ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن شكره لا يحتاج إليه ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمد ينطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ اسمه أنعم أو أشكم أو ما ثان ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ حال من لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير إشفاق قرأ ابن كثير بإسكان الياء وحفص بفتح الياء والباقون بكسرها ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ متعلق بلا تشرك وجاز أن يكون قسماً جوابه ما بعده قيل كان ابنه كافراً فلم يزل به حتى أسلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للنهي، الظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ويقال على التجاوز عن الحق قليلاً كان التجاوز أو كثيراً ولهذا يستعمل في الذنب الصغير والكبير ولا شك إن الشرك لظلم عظيم فإنه وضع العبادة في موضع لا يحتمل صلاحيتها أصلاً وتسوية من لا نعمة إلا منه بمن لا يصلح الإنعام مطلقاً ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي أمرناه أن يبرَّهما ويشكرهما جملة معترضة بين قصة لقمان ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ معترضة في معترضة مؤكدة للتوصية في حق الأم خاصة، عن أبي هريرة قال قال رجل يا رسول الله: «من أحق بحسن صحابتي؟ قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك»(١) متفق عليه، وقال عليه السَّلام «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات»(٢) متفق عليه في حديث للمغيرة ﴿وَهْنًا﴾ كائناً ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ صفة لوهن وهو حال من فاعل حملته تقديره ذات وهن أو يوهن وهناً، قال ابن عباس معناه شدةً على شدةٍ، وقال الضحاك ضعفاً على ضعف، وقال مجاهد مشقة على مشقة فإن المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة الحملُ ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف والرضاع ضعف ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي فطامه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ أي في انقضاء عامين وكانت ترضع في تلك المدة، واحتج بهذه الآية الشافعي وأبو يوسف ومحمد أن أقصى مدة الرضاع حولان وقد ذكرنا مسألة الرضاع في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] الآية، وفي سورة النساء في تفسير قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ تفسير لوصينا أو بدل من والديه بدل اشتمال ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ قال سفيان بن عيينة في هذه الآية من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا لوالديه في

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ٢، والنسائي في الزكاة باب ٥١، وابن ماجه في الأدب باب ١.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٢، والاعتصام باب ٣، والأدب باب ٦، ومسلم في الأقضية حديث ١١، ١٤.

إدبار الصلوات الخمس فقد شكر لوالديه ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع فيه وعد ووعيد يعني أجازيك على شكرك وكفرك ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ عطف على قوله أن أشكر ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ باستحقاق الإشراك يعني فكيف وأنت تعلم بطلان الإشراك بالأدلة القاطعة ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك فإن حق الله غالب على حق كل ذي حق قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق»(١) رواه أحمد والحاكم وصححه عن عمران والحكيم بن عمر والغفاري وفي الصحيحين وسنن أبي داود والنسائي عن عليّ نحوه ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ صحاباً ﴿مَعْرُوفًا﴾ يرتضيه الشرع والعقل.

مسألة

يجب بهذه الآية الإنفاق على الأبوين الفقيرين وصلتهما وإن كانا كافرين عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عقد قريش فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أفأصلها؟ قال «نعم صليها»(٢) متفق عليه ـ وقد مرّ في سورة العنكبوت أن هاتين الآيتين نزلتا في سعد بن أبي وقاص وأمه.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ دين ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أي أقبل ﴿إِلَيَّ﴾ وأطاعني وهو النبيّ ﷺ، قال عطاء عن ابن عباس يريد الله سبحانه به أبا بكر وذلك حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وقالوا قد صَدَّقتَ هذا الرجل وآمنتَ به؟ قال نعم هو صادق فآمِنوا به ثم حملهم إلى النبيّ ﷺ حتى أسلموا فهؤلاء سالفة الإسلام أسلموا بإرشاد أبي بكر قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني أبا بكر.

مسألة: لا يجوز إطاعة الوالدين إذا أمرا بترك فريضة أو مكروه تحريماً لأن ترك الامتثال لأمر الله والامتثال لأمر غيره إشراك معنى ولما روينا من قوله عليه السَّلام «لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق» ويجب إطاعتهما إذا أمرا بشيء مباح لا يمنعه العقل والشرع، وهل يجب إطاعتهما إن أمرا بترك إكثار الذكر والنوافل وكسب الأموال فوق الحاجة ونحو ذلك والظاهر عندي أنه لا يجب ذلك لأن الله سبحانه أمر باتباع سبيل من أناب إليه وإكثار النوافل وترك النوافل وترك ما لا يعنيه وترك الدنيا والتبتل إلى الله سبيل المنيبين لا محالة ولا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم تركوا الأوطان وهاجروا وبذلوا أنفسهم وأموالهم على خلاف مرضاة آبائهم وأمهاتهم وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] فكيف يجوز ترك المجاهدة في سبيل الله مع النفس والشيطان لابتغاء مرضاة الآباء والأمهات، أخرج الحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال قال أبو قحافة لأبي بكر أراك تعتق رقاباً ضعافاً

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/١٣١، ٤٠٩، ٥/٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة باب ٢٩، والجزية باب ١٨، والأدب باب ٨، ومسلم في الزكاة حديث ٥٠.

فلو أنك أعتقت رجالاً أجلد يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال يا أبت إنما أريد ما عند الله فنزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ١٨] حين أعتق بلالاً وعامر بن فهير وأم عميس وزبيرة ونحوهم، وهاجر أبو بكر مع أربعة آلاف درهم مع رسول الله ﷺ ولم يترك لأهله شيئاً على خلاف مرضاة أبيه كما ذكرنا في قصة هجرة النبيّ ﷺ في سورة التوبة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيك على إسلامك وأجازيهما على كفرهما، هذان الآيتان معترضتان في أثناء وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال ووصينا بمثل ما وصى لقمان وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع كونهما تلوا الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقا الطاعة في الإشراك فما ظنك بغيرهما ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بكسرها ﴿إِنَّهَا﴾ أي الخصلة من الإساءة أو الإحسان وقال قتادة الضمير راجع إلى الخطيئة وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبت إن عملتُ الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله فقال إنها ﴿ تَكُ﴾ في الصغر مثلاً ﴿مِثْقَالَ﴾ وزن ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ اسم تك ضمير مستتر وخبره مثقال على قراءة الجمهور بالنصب وقرأ نافع[(١)] مثقال بالرفع على أنه اسم تكُ وهي تامة وتأنيث الفعل لإضافة المثقال إلى الحبة وضمير إنها للقصة على هذه القراءة ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني في أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة أو أعلاه كمحدب السماوات أو أسفله كمقعر الأرض، وقال قتادة في صخرة في جبل، وقال ابن عباس هي صخرة تحت الأرضين السبع وهي التي يكتب فيها أعمال الفجار وخضرة السماء منها، وقال السديُّ خلق الله الأرض على حوت وهو النون الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ في القرآن ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القلم: ١] والحوت في الماء على ظهر صفاة[(٢)] والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة (وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض) والصخرة على الريح ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ﴾ يحضرها فيحاسب عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي ودقيق ﴿خَبِيرٌ﴾ عليم بكنه كل شيء، قال الحسن معنى الآية هو الإحاطة بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها، قال البغوي وفي بعض الكتب إن هذه الكلمة آخر ما تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ قرأ حفص والبزي بفتح[(٣)] الياء والباقون بكسرها ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلاً لنفسك ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ﴾ من الشدائد والأذى بسبب الأمر والنهي أو غير ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الصبر أو كل

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٢) الصخرة والحجر الأملس.
(٣) وقنبل بإسكانها ـ أبو محمد ـ.

ما أمره ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من الأمور التي عزمه الله أي قطعه قطع إيجاب قال رسول الله ﷺ: «خير الأمور عوازمها»(١) أي فرائضها التي عزم الله عليك بفعلها، والعزم في الأصل عقد القلب على إمضاء أمر فالعزم على هذا مصدر بمعنى المفعول أو المعنى من الأمور التي يعزم عليها بجد لوجوبها ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي(٢) ولا تصاعر من المفاعلة وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بتشديد العين من غير ألف ﴿خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمل عنهم ولا تولهم صفحة وجهك تكبراً، قال ابن عباس تقول لا تتكبر فتحقر وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فرحاً وبطراً مصدر وقع موقع الحال أي يمرح مرحاً أو العلة أي لأجل المرح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ متبختر في مشيه ﴿فَخُورٍ﴾ على الناس علة للنهي نشر على غير ترتيب اللف لرعاية القافية ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي توسط فيه فوق الدبيب لأنه دليل الخيلاء ومشي المتكبرين ودون الإسراع لأنه مشى السفهاء ويذهب البهاء قال رسول الله ﷺ: «سرعة المشي يذهب بهاء المؤمن»(٣) أخرجه ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة وأخرجه ابن عدي أيضاً من حديث أبي سعيد وابن عمر، والمراد بالإسراع المنهي ما يكون بجد فوق مشيه الطبعي وأما الإسراع على عادته دون الخبب فمحمود، روى ابن سعد عن يزيد بن مرثد أنه ﷺ كان إذا مشى أسرع حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه، وروى الطبراني والبيهقي عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسكينة عليكم......(٤) بالقصد في المشي بجنائزكم»(٥) وأخرج الستة قوله ﷺ: «أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحةً يتقدمونها وإن يكن غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»(٦) فهذه الأحاديث تدل على أن المراد بالإسراع ما ذكرت والمراد بالقصد هو الإسراع دون الخبب ﴿وَٱغْضُضْ﴾ قال مقاتل أي اخفض ﴿مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ يعني أوحشها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ تعليل لغضّ الصوت يعني أن صوت الحمير منكر جداً لكونه جهيراً جداً فلا يكن صوتك مثل صوتها أول صوتها زفير وآخرها شهيق وهما صوت أهل النار، قال موسى بن أعين سمعتُ سفيان الثوري يقول

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٢٥.

(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٣) أخرجه القرطبي في تفسيره ١٤/ ٧١، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٧٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤١٦٢٠، ونعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٩٠.

(٤) بياض في الأصل.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ٢٧٢، ٢٧٣، و٢٧٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٢٣٤٢، ٤٢٨٨٥.

(٦) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٥١، ومسلم في الجنائز حديث ٥٠، ٥١، وأبو داود في الجنائز باب ٤٦، والنسائي في الجنائز باب ٤٤، وابن ماجه في الجنائز باب ١٥، ومالك في الجنائز حديث ٥٨، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٠، ٢٨٠، ٤٨٨.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ هي العطسة القبيحة المنكرة، قال وهب تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة وأدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا
يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ
نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى
ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ
ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ
ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا
يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ
وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ لأجل نفعكم ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال من الأرض ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المعادن والنباتات والحيوانات بأن مكّنكم من الانتفاع بها بوسط أو بغير وسط ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أي أتم وأكمل ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وحفص بفتح العين وضم الهاء على الجمع والإضافة والباقون بسكون العين وبالتاء منونةً على صيغة الواحد بإرادة الجنس ﴿ظَٰهِرَةً﴾ مع ما عطف عليه حال من نعمه والنعمة الظاهرة هي المحسوسة من حسن الصورة وتسوية الأعضاء والرزق والعافية وغيرها من نعماء الدنيا والإسلام والرسول والقرآن وتخفيف الشرائع وتوفيق اتباع الرسول وظهر الإسلام والنصر على الأعداء ﴿وَبَاطِنَةً﴾ من القلب والعقل والحواس الباطنة وحسن الأخلاق والأمداد بالملائكة والإلهام بالاعتقاد الحق وستر الذنوب وعدم التعجيل في العقوبة ونور معرفة الله ونار عشقه ورسوله وشفاعة رسوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ النبيّ ﷺ عطف على ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦] وما بينهما معترضات ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من الدليل، قال البغوي نزلت في النضر بن الحارث

وأبي بن خلف وأشباههما ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجع إلى الرسول ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ منزل من الله بل بالتقليد كما قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ﴾ لا نتبع ما أنزل الله ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فيه منع من التقليد في أصول الدين قال الله تعالى: أيتبعون بتقدير يعني قل أيتبعون آباءهم ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ الواو للحال أو للعطف على مقدم يعني لو لم يكن ولو كان ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ الضمير إمالهم أو لآبائهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بإلقاء حسن التقليد أو حسن الإشراك في قلوبهم والاستفهام للإنكار والتعجب.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ أي توجهه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبل بشراشره عليه يعني لا يفعل فعلاً ولا يترك شيئاً إلا ابتغاء مرضاته ويفوض أمره إليه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله قال رسول الله ﷺ «الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه»(١) يعني بالحضور التام ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ يعني تمسك بأوثق ما يتمسك به وأعتصم بأقوى ذريعة لا يحتمل انقطاعه تمثيل لطيف للمتوكل على المتشبث بالعروة الوثقى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ إذ الكل صائر إليه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يسلم وجهه إلى الله ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ تقديره فقد أضرَّ نفسه وأوبقه ولا يضرك شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولمَّا كان عدم الضرر موجباً لعدم الحزن أورده في مورده، قرأ نافع لا يحزنك بضم الياء وكسر الزاء من الإحزان ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الدارين ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ بالتعذيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ من الاعتقادات والخطرات فضلاً عما في الظاهر فيجازي كلاً على حسب اعتقاده وعمله ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ أي نمهلهم ليتمتعوا ﴿قَلِيلًا﴾ أي تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً في الدنيا إلى انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نلجئهم ونردهم في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي عذاباً يثقلهم ثقل الأجرام الغلاظ وهو عذاب النار ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى الإقرار به ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما ألزمهم وألجئهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم يتنبهوا ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً فلا يستحق العبادة غيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن حمد الحامدين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمد.

أخرج ابن إسحاق عن عطاء بن يسار وكذا ذكر البغوي أنه قال نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا ألم يبلغنا عنك أنك تقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً إيانا تريد أم قومك؟ فقال «كلاً عنيتُ»، قالوا ألستَ تتلو فيما جاءك إنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ «هي في علم الله قليل» فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يعني لو ثبت كون الاشجار كلها أقلاماً وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الآحاد ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ المحيط ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ أي يزيده وينصب فيه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من خلفه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فاعل

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣١، باب ٢، والإيمان باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ٥٧.

يمده، قرأ أبو عمر ويعقوب البحر بالنصب عطفاً على اسم إن أو بإضمار فعل يفسره يمده والباقون بالرفع عطفاً على أن ومعمولها وعلى هذا يمده حال، وجاز أن يكون البحر مبتدأ وما بعده خبره والجملة مستأنفة أو في محل النصب على أنه حال، فإن قيل ليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال؟ قلتُ هو كقولك جئتُ والجيش قادم ونحو ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظرف وكان مقتضى الكلام أن يقال ولو أن الأشجار أقلام والبحر مداد يمده من بعده سبعة أبحر لكن أغنى عن ذكر المداد قوله يمُدُّه لأنه من مد الدواة وأمدها، وقال البغوي في الآية إضمار تقديره (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) يكتب بها كلمات الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المعبر بها عن معلومات الله بتلك الأقلام وبذلك المداد ولا بأكثر من ذلك بالغاً ما بلغ لأن معلوماته تعالى غير متناهية لا يمكن نفادها ولذلك اختار صيغة جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥] فقالوا أتزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فنزلت هذه الآية، فعلى ما ذكرنا من الروايات في سبب النزول الآية مدنية وقيل الآية مكية وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يسألوا رسول الله ﷺ ويقولوا له ذلك وهو بعد بمكة، وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة وابن جرير عن قتادة قال قال المشركون إنما هذا الكلام يوشك أن ينفد فنزل ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ الآية ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ أجمعين ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ﴾ أي إلا كخلق نفس ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن ويكفي لوجود الكل تعلق إرادته مع قدرته الذاتية فلا يتعذر عليه خلق الكل كما لا يتعذر عليه خلق نفس واحدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل شيء لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض آخر فكذلك الخلق أو المعنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال المشركين أن لا بعث بصير بأعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ﴾ عطف على يولج أو حال بتقدير قد ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ واحد من النيرين ﴿يَجْرِىٓ﴾ في السماء ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت معين وهو يوم القيامة الفرق بينه وبين قوله لأجل مسمى أن الأجل منتهى الجري وثمة غرضه حقيقةً أو مجازاً وكلا المعنيين حاصل في الغايات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ وجملة ألم تر متصل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحج: ٦٥] مقرر له ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من سعة علمه وشمول قدرته وعجائب صنعه ﴿بِأَنَّ﴾ أي بسبب أنَّ ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت أي الواجب وجوده وجميع كمالاته أو الثابت ألوهيته ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي[1]

(١) ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ.

بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من الآلهة ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته أو الباطل دعوى الألوهية فيه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المترفع على كل شيء والمتسلط عليه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الظاهر الباهر كبرياؤه ومن كان هذا شأنه يجب أن يكون علمه وقدرته شاملاً لجميع الأشياء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متصل بقوله ألم تر أن الله يولج ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي بإحسانه في تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وشمول إنعامه والباء للصلة أو للحال ﴿لِيُرِيَكُم﴾ الله ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي بعض دلائل قدرته من عجائب البحر الذي أدركتموه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يعني صبار على المشاق فيتعب نفسه بالتفكر في الآفاق والأنفس ويعرف النعم ويشكر عليها مانحها ـ أو المراد لآيات للمؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر»[1] رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس يعني يشكر في السراء ويصبر في الضراء ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي علاهم وغطاهم الظرف متعلق يدعو الله فيه معنى الشرط والجزاء والجملة معطوفة على تجري في البحر خبر لأنَّ وضمير غشيهم راجع إلى أهل الفلك رابط بين الاسم والخبر ﴿مَّوْجٌ﴾ في البحر ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ جمع الظلة شبَّه بها الموج يأتي منه شيء بعد شيء قال مقاتل كالجبال وقال الكلبي كالسحاب ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بأن ينجيهم ولا يدعون غيره لما تقرر في الأذهان أنه لا كاشف لضر إلا الله سبحانه ويزول بما غلبهم من الخوف الشديد ما ينازع الفطرة السليمة من الهوى والتقليد ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ متعلق بنجاهم بتضمين معنى أوصلهم وجملة فلما نجاهم معطوفة على ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قيل هو جواب لمَّا والظاهر أن جواب لما محذوف وهذا دليل عليه تقديره فلمَّا نجاهم إلى البرّ اختلفوا فمنهم شاكر لنعمة الله ومنهم كافر ومنهم مقتصد، يعني متوسط في الكفر لانزجاره بعض الانزجار وكان بعض الكفار أشد افتراءً وأشد قولاً من بعض فذكر المقتصد لدلالته على جانبه كذا قال الكلبي معنى المقتصد، وقال أكثرهم معنى المقتصد المقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد لما قيل إن الآية نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب عام الفتح إلى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن أنجانا الله من هذه لأرجعن إلى محمد ولأضعن يدي في يده فسكنت الرياح فرجع إلى مكة والنبيّ ﷺ ثمه وأسلم وحسن إسلامه، والتقدير على هذا فمنهم مقتصد ومنهم كافر يدل عليه قوله ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المنزلة أي بحقيقتها أو بدلائل قدرتنا ومنها الإنجاء من الموج ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي غدار فإنه نقض العهد الفطري أو العهد الذي عاهد في الشدة والخترُ أسوأ الغدر ﴿كَفُورٍ﴾ للنعم ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي احذروا عذابه ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى﴾ أي لا يغني ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ الراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزي فيه والد مؤمن عن ولده الكافر ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ مؤمن عطف

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/٦٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٦١.

على والد ﴿هُوَ جَازٍ﴾ صفة لمولود يعني ولا يجزي مولود مؤمن من شأنه أن يكون هو جاز ﴿عَن وَالِدِهِ﴾ الكافر متعلق بلا يجزي، وإنما قيدنا بالكافر لأن المؤمن يشفع للمؤمن قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] وقال الله ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣] ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب على المصدرية أي لا يجزي شيئاً من الأجزاء وجاز أن يكون مولودٌ مبتدأ خبره هو جاز عن والده وتغير النظم للتأكيد فإن هذه الجملة واردة على نهج من التأكيد لم يرد عليه المعطوف عليه لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية وقد انضم إلى ذلك لفظ المولود وفيه تأكيد آخر لأن المولود إنما يطلق على من ولد بلا واسطة والولد يطلق عليه وعلى ولد الولد كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١] فإذا كان المولود لا ينفع أباه فلا ينفع أجداده بالطريق الأولى، ووجه إيراده على التأكيد أن الخطاب كان للمؤمنين في ذلك الزمان وغالباً مات آباؤهم على الكفر فأريد حسم أطماعهم من أن ينفعوا آباءهم بالشافعة في الآخرة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن تخلفه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ الفاء للسببية ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها فإنها فانية ولذّاتها ضعيفة مشوبة بالمكاره ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان بأن يرجيكم المغفرة فيجسركم على الذنوب.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد مرسلاً قال جاء رجل من أهل البادية وسماه البغوي الحارث بن عمرو بن الحارث بن محارب بن حفصة فسأل النبيّ ﷺ عن الساعة أي وقتها، وقال امرأتي حبلى فأخبر ما تلد وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ بأيّ أرض ولدتُ فأخبرني أين أموت فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها جملة مستأنفة في جواب متى يكون ذلك اليوم ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ متى شاء لا يعلم نزولها إلا هو ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى لا يعلمها غيره ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلا الله ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يدري أحد متى يجيء المطر إلا الله»(١) رواه أحمد والبخاري، وروى البغوي في تفسير هذه الآية عن ابن عمر بهذا اللفظ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس إنّ الله عنده علم الساعة وينزّلُ الغيثَ وَيَعلَمُ مَا في الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت»(٢) وفي الصحيحين في قصة سؤال جبرئيل في حديث أبي هريرة في خمس يعني ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ لا يعلمهن إلا الله ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن خيثمة أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا؟ قال ملك

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٦، باب ١، وسورة ٣١، باب ٢، وأحمد في المسند ٢/١٢٢.
(٢) أخرجه البغوي في تفسيره ٥/٢٢٠.

الموت، فقال كأنَّه يريدني فمُرِ الريح أن يحملني ويلقيني بالهند ففعل فقال الملك كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أمرتُ أن أقبض روحه بالهند وهو عندك والله أعلم.

وإنما جعل العلم لله والدراية للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العلمين في القاموس دريتُه علمتُه أو لضرب من حيلة فعنه إشارة إلى أن العبد أن عمل حيلة وبذل فيها وسعه لم يعرف ما هو لاحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره ما لم يحصل له علم بتعليم من الله تعالى بتوسط الرسل أو بنصب دليل عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها حكى أن منصوراً رأى في منامه ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار إليه بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنين أو بخمسة أشهر أو بخمسة أيام، فقال أبو حنيفة هو إشارة إلى هذه الآية فإن هذه العلوم الخمسة مختصة بالله تعالى والله أعلم.

تم تفسير سورة لقمان من التفسير المظهري ليلة الثانية
والعشرين من رجب سنة ألف ومائتين
وست ويتلوه تفسير سورة السجدة
إن شاء الله تعالى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة السجدة

آياتها ثلاثون وهي مكيَّة

﴿الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا
تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ
ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ
وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ (١٠) ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ (١١)﴾

﴿الٓمٓ (١)﴾ إن جعل اسماً للسورة أو القرآن فهو مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على أنه بمعنى المنزل والإضافة من قبيل إخلاق ثياب وإلا فهو خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل أو مبتدأ خبره ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فيكون ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حالاً من الضمير في فيه لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر ويجوز أن يكون خبراً ثانياً أو خبراً أولاً ولا ريب فيه اعتراضاً لا محل له والضمير في فيه راجع إلي مضمون الجملة كأنَّه قيل لا ريب في كونه منزلاً من رب العالمين والخبر ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ولا ريب فيه حال من الكتاب أو اعتراض ومن رب العالمين متعلق بتنزيل والضمير في فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه تقرير له، ونظم الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه بقوله الٓمٓ ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين وقرر ذلك بنفي الريب عنه ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجباً منه فإن أم منقطعة بمعنى بل والهمزة للإنكار ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله وبيَّن المقصود من تنزيله فقال ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد إذ كانوا أهل الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ وجملة ما أتاهم صفة لقوم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الله مبتدأ والموصول مع صلته خبره ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها

الجمعة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عطف على خلق وقد بسطنا الكلام في الاستواء على العرش في سورة يونس وذكرنا في سورة الأعراف أيضاً ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يعني إذا جاوزتم مرضاته لا ينصركم في مواطن النصر والشفيع متجوز به للناصر فإذا أخذ لكم لم يبق لكم ولي ولا ناصر استئناف أو حال من فاعل استوى ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا تتفكرون فلا تتذكرون.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ استئناف أو حال من فاعل استوى أو خبر بعد خبر لله أو خبر أول والموصول مع صلته صفة لله وما لكم حال يعني يدبر أمر الدنيا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي بأسباب سماوية نازلة آثارها ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ أي يصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ ويثبت في علمه موجوداً أو المعنى يدبر الأمر أي يحكم بالأمر وينزل الوحي مع جبرئيل أو ينزل القضاء والقدر مع الملك الموكل به من السماء وإلى الأرض ثم يعرج أي يصعد جبرئيل أو غيره من الملائكة إليه أي إلى الله يعني إلى حيث يرضاه ﴿فِي يَوْمٍ﴾ من أيام الدنيا، والمراد باليوم هاهنا مطلق الوقت لا بياض النهار لأن نزول الملائكة وصعودها غير مختص بالنهار ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ حال بتقدير قد أي وقد كان مقدار عروجه ونزوله ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يعني لو سار أحد من بني آدم لم يقطعه إلا في ألف سنة لكن الله بكمال قدرته جعل نزوله وعروجه في طرفة عين، قال البغوي هذا وصف عروج الملائكة ونزولها من السماء إلى الأرض وأما قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤] مدة المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبرئيل يقول يسير جبرئيل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم من أيام الدنيا أي برهة من الزمان هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك، قلتُ: وجاز أن يكون المراد في الآيتين المسافة التي بين الأرض والسدرة المنتهى على اختلاف سير السائرين فإنه ورد في حديث العباس بن عبد المطلب عند الترمذي بعد ما بين السماء والأرض إما واحدة وإما اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة وفي حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي «مسافة ما بينهما وبين كل سماءين خمس مائة سنة» ولا وجه لتطبيقهما إلا باعتبار اختلاف سير السائرين والله أعلم.

وقيل معنى الآية يدبر الأمر أي أمر الدنيا من السماء أي بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلة آثارها إلى الأرض ثم يرجع الأمر والتدبير إليه وحده بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الأمراء وحكم الحكام في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة، لما روى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام نصف يوم»(١) وأما قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤] أراد به أيضاً يوم القيامة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاة كنزه إلا أحمي عليه في نار جهنّم

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٣٧.

فيجعل صفائح فتكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[١] الحديث. ووجه التطبيق بين الحديثين أن يوم القيامة يختلف طوله بالنسبة إلى الأشخاص يكون ذلك اليوم على بعض الناس مقدار خمسين ألف سنة وعلى بعضهم مقدار ألف سنة وعلى بعضهم أخف من أيام الدنيا، أخرج الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً «طول ذلك اليوم على المؤمنين كمقدار بين الظهر والعصر»[٢] وكذا ذكر البغوي قول إبراهيم التيمي وأخرج أبو يعلى وابن حبان والبيهقي بسند حسن عن أبي سعيد قال: «سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»[٣] وقال البغوي قال ابن أبي مليكة دخلتُ أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان على ابن عباس فسأله عن هذه الآية وعن قوله تعالى: ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤] فقال له ابن عباس أيام سماه الله تعالى لا أدري ما هي وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم، وأخرج البيهقي من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال هذا في الدنيا وقوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة، واختار جلال الدين المحلي هذه الرواية في تفسيره وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر، وقيل يدبر الأمور به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلصين في الأعمال.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المدبر الخالق للسماوات والأرض وما بينهما مبتدأ خبره ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي ما غاب عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما حضر عندهم فيدبر الأمور على وفق الحكمة ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على العباد في تدبيره وفيه إيماء بأنه يراعى المصالح تفضلاً وإحساناً صفتان لعالم الغيب والشهادة أو خبر ثان وثالث لذلك ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ الموصول مع الصلة صفة بعد الصفتين المذكورتين أو خبر رابع لذلك ﴿كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر[٤] بسكون اللام فهو بدل اشتمال من كل شيء يعني أحسن خلق كل شيء موافراً عليه ما يستعده ويليق به على وفق الحكمة كذا قال قتادة وقال ابن عباس أتقنه وأحكمه، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ قال أما إن است القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها، وقال مقاتل أي

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٢٦، وأبو داود في الزكاة باب ٣٢، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٢، ٣٨٣.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٧٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٧، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٦٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٩٠٠٣.

(٤) وأبو جعفر ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

علم كيف يخلق كل شيء من قولك فلان يحسن كذا إذا كان يعلم، وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على صيغة الماضي على أنه صفة لشيء ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿مِن طِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ سميت به لأنها تنسل منه أي تنفصل ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي نطفة سميت سلالة لأنها تسل من الإنسان ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ضعيف بدل من سلالة أو بيان له ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي الإنسان قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾ أي في الإنسان ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ الضمير إما راجع إلى الإنسان أو إلى الذي أحسن خلق كل شيء تشريفاً وإظهاراً بأنه خلق عجيب له شأن عظيم ممكن له نسبة بما لا مثل له ولا كيف ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا بعدما كنتم نطفاً بغير سمع وبصر وتعقّل ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ما زائدة مؤكدة للقلة أي شكراً قليلاً أو في زمان قليل تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه وتعبدونه.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي منكري البعث عطف على ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي غبنا فيها يعني صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض بحيث لا يتميز بينهما وأصله من قولهم ضل الماء في اللبن إذا اختلط به وغاب فيه، قرأ ابن عامر إذا بهمزة واحدة على الخبر والعامل فيه ما دل عليه ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ وهو نبعث ونجدد خلقاً، قرأ نافع والكسائي ويعقوب إنا بهمزة واحدة على الخبر والقائل أبي بن خلف والإسناد إلى جميعهم لرضائهم به والاستفهام لإنكار البعث استبعاداً ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي بما بعد البعث من الجزاء ﴿كَٰفِرُونَ﴾ لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ منه وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في الآخرة ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ أي يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً أو لا يبقي منكم أحداً والتفعل والاستفعال يستعمل أحدهما مقام الآخر يقال تقصَّيتُه واستقصيتُه وتعجلتُه واستعجلتُه ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهو عزرائيل عليه السلام، روى البغوي عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «الأمراض والأوجاع كلها بريد الموت ورسول الموت فإذا حان الأجل أتى ملك الموت فقال أيها العبد كم خبر بعد خبر وكم رسول بعد رسول وكم بريد بعد بريد أنا الخبر ليس بعدي خبر وأنا الرسول ليس بعدي رسول أجب ربك طائعاً أو مكرهاً، ولمَّا قبض روحه وتصارخوا عليه قال على من تصرخون وعلى من تبكون والله ما ظلمتُ له أجلاً ولا أكلتُ له رزقاً بل دعاه ربه فليبك الباكي على نفسه فوالله إن لي عودات وعودات حتى لا أبقي فيكم أحداً»[1] ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي وكل بقبض أرواحكم وله أعوان من الملائكة وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ملك الموت وأعوانه في تفسير سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

مسألة: ملك الموت لا يعلم بوقت أحد ما لم يؤمر به، أخرج أحمد وابن أبي الدنيا

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

عن معمر قال بلغنا أن ملك الموت لا يعلم متى يحضر أجل الإنسان حتى يؤمر بقبضه وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن جريج قال بلغنا أنه يقال لملك الموت اقبض فلاناً في وقت كذا في يوم كذا.

مسألة: ملك الموت يظهر للمؤمن بأحسن صورة وللكافر بأقبحها، أخرج ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود وابن عباس قالا لمّا اتخذ الله إبراهيم خليلاً سأل ملك الموت أن يأذن له أن يبشر له بذلك فأذن له فجاء إبراهيم فبشره فقال الحمد لله ثم قال يا ملك الموت أرني كيف تقبض أنفاس الكفار قال يا إبراهيم لا تطيق ذلك قال بلى قال فأعرض فأعرضَ ثم نظر فإذا برجل أسود ينال رأسه السماء يخرج من فيه لهب النار وليس من شعرة في جسده إلا في صورة زجل يخرج من فيه ومسامه لهب النار فغشي على إبراهيم ثم أفاق وقد تحول ملك الموت في الصورة الأولى، فقال يا ملك الموت لو لم يلق الكافر من البلاء والحزن إلا صورتك لكفاه فأرني كيف تقبض أرواح المؤمنين قال فأعرض فأعرضَ ثم التفت فإذا هو برجل شاب أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً في ثياب بيض فقال يا ملك الموت لو لم ير المؤمن عند الموت من قرة عين والكرامة إلا صورتك هذه يكفيه، وأخرج عن كعب أن إبراهيم أراه ملك الموت الصورة التي يقبض بها المؤمن قال فرآه من النور والبهاء شيئاً لا يعلمه إلا الله والتي يقبض بها الكفار الفجار فرعب إبراهيم رعباً حتى أرعدت فرائصه وألصق بطنه بالأرض وكادت نفسه تخرج.

مسألة: كيف يكون الموت سوى الآدميين، أخرج أبو الشيخ والعقيلي في الضعفاء والديلمي عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «آجال البهائم وحشاش الأرض كلها في التسبيح فإذا انقضى تسبيحها قبض الله أرواحها وليس إلى ملك الموت من ذلك شيء»[١] وله طريق آخر أخرجه الخطيب من حديث ابن عمر مثله، قال ابن عطية والقرطبي معنى ذلك أن الله تعالى يعدم حياتها بلا مباشرة ملك الموت، قلتُ جعل ملك الموت وأعوانه للإنسان إكراماً للمؤمنين وإهانةً وتعذيباً للكافرين، وأخرج الخطيب في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال وكل ملك الموت بقبض أرواح الآدميين فهو الذي يقبض أرواحهم وملك في الجن وملك في الشياطين وملك في الوحش والطير والسباع والحيتان والنمل فهو أربعة أملك والملائكة يموتون في الصعقة الأولى وأن ملك الموت يلي قبض أرواحهم ثم يموت، فأمّا الشهداء في البحر فإن الله يلي قبض أرواحهم لا يكل ذلك إلى ملك الموت لكرامتهم عليه حيث ركبوا سيح البحر في سبيله، وفيه جويبر ضعيف جدّاً والضحاك عن ابن عباس منقطع ولآخره شاهد مرفوع أخرجه ابن ماجه عن أبي أمامة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله وكل ملك الموت بقبض الأرواح إلا شهداء البحر فإن الله يتولى قبض أرواحهم»[٢] قلتُ فشهداء بحر العشق والمعرفة أولى بذلك الكرامة والله أعلم.

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٢١.

(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٧٩.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يعني بعد الموت يصعد بروح المؤمن ملائكة الرحمة إلى السماوات حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة وبروح الكافر ملائكة العذاب حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له فيطرح روحه طرحاً وقد مر الحديث في سورة الأنعام، أو المعنى ترجعون بعد الحشر أحياءً إلى موقف الحساب فيجزي كل نفس بما عملت وقد مرَّ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ذكر الله سبحانه حالهم بعد الحشر فقال ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمّد ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي المشركين الذين ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ﴾ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ حال من الضمير في المجرمون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ندامةً وحزناً يقولون حال من فاعل ناكسو أو حال مرادف له أو استئناف في جواب ما يقولون حينئذ ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتنا وكنا مكذّبيه ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك فيما كذّبناهم، وقيل معناه أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ مجذوم في جواب الدعاء ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن بما كنا شاكّين فيه قبل وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً، ويجوز أن يكون لو للتمني والمضي في لو وإذ لكون الثابت في علم الله بمنزلة الواقع ولا يقدر لترى مفعول لأن المعنى لو يكون منك رؤية في هذا الوقت أو يقدر ما دل عليه صلة إذ يعني لو ترى نكوس رؤوسهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أن نؤتي كل نفس هُدَاها أي ما يهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح وخلق الانقياد للرسول باختياره قلباً وقالباً أو المعنى لو شئنا هداية كل نفس ﴿لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ﴾ عاقلة من الجن والإنس ﴿هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي ثبت قضائي بعدم هدايتهم وعدم اهتدائهم وكون مصيرهم إلى النار أو سبق وعيدي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ اللام فيهما للعهد والمراد المجرمون من الفريقين الذين مّر ذكرهم بدليل قوله ﴿أَجْمَعِينَ﴾ عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»(١) رواه مسلم، وعن

---

(١) أخرجه مسلم في القدر حديث ٣١.

عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة»، قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٦] الآية[١] متفق عليه، وعن عبد الله بن عمرو قال: خرج رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا لا يا رسول الله ألا تخبرنا، فقال للذي في يمينه «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً»، ثم قال للذي في شماله «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء لأهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً»، فقال أصحابه ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال «سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيّ عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيّ عملٍ» ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما ثم قال «فرغ ربُّكم من العباد فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السعير»[٢] رواه الترمذي.

وجملة ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب قسم محذوف وبيان للقول المذكور بتقدير هو أو بدل عنه وجاز أن يكون حق القول في حكم القسم يقال حقاً لأفعلن كذا فعلى هذا يكون لأملأنَّ جواباً له، وقال مقاتل المراد بالقول هو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾ [ص: ٨٥] وفي هذه تصريح بأن عدم إيمانهم مسبب بعدم المشيئة ـ وحق القول إما تقرير لعدم المشيئة والمعنى ولكن شئتُ كفرهم ومصيرهم إلى النار أو تعليل لعدم المشيئة بسبق القضاء ولا يدفعه جعل ذوق العذاب مُسبباً عن نسيانهم العاقبة وعدم تفكرهم فيها بقوله ﴿فَذُوقُوا﴾ الفاء للسببية يعني لما حق القول مني كذلك فيقول لهم خزنة جهنم إذا دخلوها ذوقوا عذاب جهنم ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ أي بسبب نسيانكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾ يعني البعث والرجوع إلى الله أي إلى موقف حسابه ﴿هَٰذَا﴾ صفة ليومكم حتى عملتم موجبات العذاب ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي تركناكم من الرحمة أو في العذاب ترك المنسي وفي استئنافه وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الانتقام منهم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كرر الأمر للتوكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله وتعليله بأعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي كما علله بتركهم تدبر أمر العاقبة والتفكر فيها دلالةً على أن كل منهما يقتضي ذلك وهذه الآية حجة لنا على الجبرية والقدرية، أما على الجبرية فلقوله ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ حيث جعل سبب ذوق العذاب نسيانهم وتركهم الإيمان والأعمال الصالحة باختيارهم، وأما على القدرية فإنهم يقولون إن الله يشاء من عباده كلهم الإيمان والأعمال الصالحة وهم تركوا الإيمان

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٨٢، ٨٣، ومسلم في القدر حديث ٦.
(٢) أخرجه الترمذي في القدر باب ٨، وأحمد في المسند ٢/١٦٧.

بمشيئتهم واختيارهم فالآية تدل على أنه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي وعظوا ﴿خَرُّوا﴾ وقعوا على وجوههم خوفاً من عذاب الله ﴿سُجَّدًا﴾ أي ساجدين ﴿وَسَبَّحُوا﴾ أي نزهوا عما لا يليق به كالعجز عن البعث ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ متلبسين بحمده يعني حامدين له شكراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهداية قائلين سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿تَتَجَافَى﴾ حال من فاعل سجوا أي ترتفع وتتنحى ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي الفرش التي ينامون عليها ﴿يَدْعُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في جنوبهم وهو فاعل تتجافى على طريقة ﴿دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] ﴿رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من سخطه وعذابه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته وثوابه، أخرج هناد عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قال قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي أين الذين كانوا يحمدون الله تعالى في السراء والضراء؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يعود فينادي أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يقوم سائر الخلق فيحاسبون»(١) وأخرج ابن راهويه وأبو يعلى في مسنديهما من حديثها نحوه وفيه ينادي أولاً بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم، قال الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة العلماء هم المتهجدون الذين يقومون لصلاة الليل، روى أحمد والترمذي وابن ماجه وابن أبي شيبة وابن راهويه في مسنديهما والحاكم عن معاذ قال قلتُ يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال «لقد سألتَ من عظيم وإنه يسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت»، ثم قال «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل» ثم تلا ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ يعملون، ثم قال «ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلتُ بلى يا نبي الله، قال رأس الأمر الإسلام وعموده الصلواة وذروة سنامه الجهاد ثم قال أَلَا أخبرك بملاك ذلك كل قلتُ بلىٰ يا نبي الله فأخذ بلسانه وقال كف عليك هذا، فقلتُ يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»(٢).

وعن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلّى بالليل والناس نيام»(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، وروى الترمذي عن علي نحوه، وعن

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٩٢٠، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٥٢، والقرطبي في تفسيره ١٥/ ٥٧.
(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ٨، وابن ماجه في الفتن باب ١٢، وأحمد في المسند ٥/ ٢٣١، ٢٣٧.
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٣٠١، والحاكم في المستدرك ١/ ٨٠، ٣٧١.

أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»(١) رواه مسلم وروى أحمد الفصل الأخير بلفظ «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة في جوف الليل»(٢) وروى البغوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله رغبة فيما عندي وشفقة ممّا عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه في انهزامه وماله في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي حتى أهريق دمه»(٣) وروى البغوي عن أبي هريرة ما قال ابن(٤) رواحة(٥):

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أنَّ ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

وقد ذكرنا ما ورد من الأحاديث في فضائل صلاة الليل في تفسير سورة المزّمّل، وأخرج الترمذي وصححه عن أنس أن هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة، وقال البغوي قال أنس نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار كنا نصلّي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع رسول الله ﷺ، وقال عن أنس أيضاً قال نزلت في أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يصلّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، أخرجه ابن مردويه عن أنس وأصله في سنن أبي داود وهو قول أبي حاتم ومحمد بن المنكدر وقالا هي صلاة الأوابين، روى ابن نصر عن محمد بن المنكدر مرسلاً من صلّى ما بين المغرب والعشاء فإنها صلاة الأوابين، وأخرج البزار بسند ضعيف عن بلال قال كنا نجلس في المجلس وناس من أصحاب النبيّ ﷺ يصلّون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ وقال البغوي عن أبي الدرداء وأبي ذر وعبادة بن الصامت هم الذين يصلون العشاء الآخرة والفجر في جماعة، وروى مسلم وأحمد عن عثمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلّى الصبح في جماعة فكأنما صلّى الليل كله»(٦) وعن

(١) أخرجه مسلم في الصيام حديث ٢٠٢، ٢٠٣.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٤٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٢٩١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢١٤٣٣.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤١٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٦٤، والبغوي في تفسيره ٥/ ٢٢٥.
(٤) هذا في كتب الرجال هو عبد الله بن رواحة الخزرجي شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الأصل ابن أبي رواحة ـ ١٢ ـ.
(٥) الأبيات من الطويل، وهي في ديوان عبد الله بن رواحة ص٢٤١.
(٦) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٢٦٠.

أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمون ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً»[١] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد والنسائي.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قيل أريد به الصدقة المفروضة وقيل عام في وجوه الخير ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ لا ملك مقرَّب ولا نبي مرسل ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ قرأ حمزة ويعقوب بياء ساكنة على أنه مضارع أخفيت ويؤيده قراءة ابن مسعود نخفي بالنون والباقون بفتحها على أنه ماضٍ مبني للمفعول ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من زائدة وقرة أعين في محل النصب على قراءة حمزة وفي محل الرفع على قراءة الجمهور أي مما تقربه أعينهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ تعالى: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفسٌ أخفى لهم من قرة أعين)»[٢] متفق عليه، قال هذا ما لا تفسير له ﴿جَزَآءَۢ﴾ منصوب على المصدرية أو على العلية يعني يجزون جزاءً وأخفى للجزاء ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ذكر البغوي وأخرج الواحدي وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه أنه كان بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط تنازع وكلام في شيء فقال الوليد لعلي عليه السلام اسكت فإنَّك صبي وأنا والله أبسط منك لساناً وأشجع منك جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال علي اسكت فإنك فاسق فأنزل الله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ﴾ وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار مثله وأخرج الخطيب في تاريخه وابن عدي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله وأخرج الخطيب وابن عساكر من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط وذلك بسباب كان بينهما، والاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيستوى عليٌّ ولي الله المرتضى ووليد عدو الله ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ﴾ يعني خارجاً عن أهل الإيمان لا يكون ذلك ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ في الشرف والمثوبة أورد صيغة الجمع لأن المراد جنس المؤمن والكافر والجملة تقرير لإنكار الاستواء ولمَّا كان الاستواء مجملاً فصَّله بقوله ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ فإنها المأوى الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة يأوي إليها المؤمنون ويأبى عن دخولها الكافرون باختيارهم الشرك بالله ﴿نُزُلًۢا﴾ وهو ما يعد للضيف حال من جنات وهو فاعل للظرف ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ أي كفروا ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ استبدلوها بجنات المأوى ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ عبارة عن خلودهم فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانة لهم وزيادةً في غيظهم.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ٩، ٣٢، والشهادات باب ٣٠، ومسلم في الصلاة حديث ١٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٥، وبدء الخلق باب ٨، وتفسير سورة ٣٢، باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٣١٢، والجنة حديث ٢ ـ ٥.

ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى
مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ
وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾
أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا
يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ
وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا
يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ عطف على ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يعني عذاب الدنيا، قال أبي بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم يعني مصائب الدنيا وأسقامها وهو رواية الوالبي عن ابن عباس، وقال عكرمة أراد بها الحدود، وقال مقاتل الجوع سبع سنين بمكة حين أكلوا الجيف والعظام والكلاب وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر وهو قول قتادة والسديّ ﴿دُونَ﴾ أي قبل ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يعني العذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإيمان يعني من بقي منهم بعد القحط وبعد البدر ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ ولم يتدبر فيها وثم لاستبعاد الإعراض عن مثل هذه الآيات مع فرط وضوحها وإرشادها إلى السعادة في الدارين ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف بمن كان هو أظلم من كل ظالم ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ جواب قسم محذوف وهو مع ما عطف عليه معترضة بين قوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني كما آتيناك القرآن آتينا قبل ذلك موسى الكتاب يعني التوراة ﴿فَلَا تَكُن﴾ يا محمد ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي الكتاب مصدر مضاف إلى المفعول والفاعل محذوف يعني من أن لقيت الكتاب إلى القرآن فإنه غير مبتدع مِمَّا لم يكن قبل حتى ترتاب فيه، أو من أن لقي الموسى الكتاب بالرضاء والقبول كذا قال السدي، وأخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قال لقاء موسى ربه، وقيل معناه لا تكن في شك من لقائك موسى أي ليلة المعراج قاله ابن عباس وغيره. روى الشيخان عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «رأيتُ ليلة أسري بي موسى رجلاً أدماً طوالاً جعداً كأنَّه من رجال شنوءة ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ورأيتُ مالكاً خازن النار والدجال في آيات أراهن الله إياه فلا تكن في مرية من لقائه»[(١)] وعن ابن عباس قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فمررنا بواد فقال «أيّ واد هذا؟» فقالوا وادي الأزرق، قال «كأني أنظر إلى موسى فذكر من لونه وشعره واضعاً أصبعيه في أذنيه له جؤار[(٢)] إلى الله بالتلبية ماراً بهذا الوادي»، قال ثم سرنا حتى أتينا على ثنية فقال «أيُّ ثنية

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٢٤، و٤٨، وبدء الخلق باب ٧، واللباس باب ٦٨، ومسلم في الإيمان حديث ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٠.
(٢) رفع الصوت والاستغاثة.

هذه؟» فقالوا ورشاً أولغت فقال «كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف خطام ناقته حلبته ماراً بهذا الوادي ملبياً»[١] رواه مسلم، وقد ذكر في سورة بني إسرائيل في حديث المعراج أن النبيّ ﷺ رأى موسى في السماء السادسة ومراجعته في أمر الصلاة، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لمّا أسري بي إلى السماء رأيتُ موسى يصلي في قبره»[٢] ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ يعني الكتاب الذي أنزل على موسى، وقال قتادة يعني موسى كذا أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «جعل موسى هدى لبني إسرائيل»[٣] ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير يقتدى بهم يعني الأنبياء الذين كانوا فيهم وقال قتادة إتباع الأنبياء ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الأحكام ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم أو بتوفيقنا لهم ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قرأ حمزة والكسائي[٤] لما بكسر اللام وتخفيف الميم أي لصبرهم والباقون بفتح اللام وتشديد الميم أي حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر وفيه دليل على أن الصبر يورث إمامة الناس ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها بالنظر ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ يقضي ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيميز المحق من المبطل متصل بقوله إنّا من المجرمين منتقمون وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف والفاعل ضمير راجع إلى ربك أو ما دل عليه قوله ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ تقديره ألم يعتبروا بمن سبقهم ولم يهد لهم ربك أو كثرة إهلاكه ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية بسبب كفرهم ﴿يَمْشُونَ﴾ أهل مكة في أسفارهم ﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي مساكن المهلكين ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلالات على قبح ما فعلوا من الكفر والمعاصي وعلى قدرتنا على الانتقام ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيعرضون عن آياتنا فلا يسمعون سماع تدبر واتعاظ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يتفكروا ولم يروا أي لم يعلموا بل قد علموا ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي جرز نباتها أي قطع وأزيل ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ أي من الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتين والورق ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحب والثمر ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا يلقون أنظارهم فلا يبصرون ما ذكرنا فيستدلون به على كمال قدرتنا وفضلنا وعلى أنا قادرون على بعثهم بعد الموت، أخرج ابن جرير وذكره البغوي عن قتادة قال قال الصحابة للمشركين إن لنا يوماً أوشك أن نستريح فيه ونتنعم ويحكم الله بيننا وبينكم، قلتُ: لعلهم يعنون يوم القيامة الذي يحكم الله فيه

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٦٨، ٢٦٩، وابن ماجه في المناسك باب ٤، وأحمد في المسند ١/ ٢١٦.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٥٠، والبغوي في تفسيره ٥/ ٢٢٧، وشرح السنة ١٣/ ٣٥١.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٠، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٧٩، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٦٠، وابن كثير في تفسيره ٦/ ٣٧٢.

(٤) ورويس ـ أبو محمد ـ.

بين العباد وقال الكلبي يعنون فتح مكة، وقال السديُّ يوم بدر لأن أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يقولون إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم فقال المشركون استهزاءً متى هذا الفتح فنزلت ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة عطف على مضمون ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فإن نفي إبصار آيات القدرة إنكار للقدرة يعني أينكرون القدرة ويقولون استهزاءً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون فبينوا لنا وقته ﴿قُلْ﴾ يا محمد جملة مستأنفة في جواب ماذا أقول لهم حين قالوا ذلك ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ المتبادر منه أن المراد بيوم الفتح يوم القيامة لأن إيمان ذلك اليوم لا ينفع البتة ومن حمل الفتح على فتح مكة أو يوم بدر قال معناه لا ينفع الذين كفروا وقتلوا وماتوا على الكفر إيمانهم حين رأوا العذاب بعد موتهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون ووجه تطبيق هذا الجواب بسؤالهم عن يوم الفتح أن سؤالهم ذلك كان استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من عرضهم في سؤالهم، فكأن التقدير لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا فكأنّي بكم وأنتم في ذلك اليوم وآمنتم به فلم ينفعكم إيمانكم واستنظرتم في درك العذاب فلم تنظروا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الفاء للسببية يعني إذا عرفتَ حالهم ومالهم فأعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم، قال ابن عباس نسختها آية السيف ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ موعدي لك بالفتح ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك حوادث الزمان وقيل انتظر عذابنا فيهم فإنهم ينتظرون ذلك.

عن أبي هريرة قال: «كان النبيّ ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١] ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]»(١) وعن جابر قال: «كان النبيّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١] ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾(٢) [الملك: ١] رواه أحمد والترمذي والدارمي وقال الترمذي هذا حديث صحيح، وعن خالد بن معدان قال: «بلغني في الٓمٓ تنزيل ومثله في تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلكُ أن رجلاً كان يقرأهما ما يقرأ شيئاً غيرهما وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه وقالت رب اغفر له فإنه يكثر قراءتي فشفعها الرب تعالى فيه وقال اكتبوا له بكل خطيئةٍ حسنةً وارفعوا له درجة» وقال أيضاً إنها تجادل عن صاحبها في القبر تقول إن كنتُ من كتابك فشفعني فيه وإن لم أكن من كتابك فامنحني عنه وإنها تكون كالطير تجعل جناحها عليه فتشفع له فتمنعه من عذاب القبر وقال فضلنا على كل سورة في القرآن بستين حسنة» رواه الدارمي وعن ابن عباس قوله ﷺ: «من قرأ آلمّ تنزيل وتبارك الملك أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر» رواه الثعلبي وابن مردويه وروى ابن مردويه عن ابن عمر نحوه. قال السيوطي هذا حديث موضوع والله أعلم.

تم تفسير سورة الٓمٓ تنزيل يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب من السنة السادسة بعد الألف ومائتين سنة ١٢٠٦ ويتلوه إن شاء الله تعالى سورة الأحزاب

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٥٤، وابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ١٤١.
(٢) أخرجه الترمذي حديث ٢٨٩٢، ٣٤٠٤، وأحمد في المسند ٣/ ٣٤٠.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأحزاب

آياتها ثلاث وسبعون وهي مدنيَّة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا
يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٣﴾
مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ
أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ
هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ
أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ
وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن
تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾﴾.

قال أبي بن كعب لزرٍّ كم تعدون سورة الأحزاب؟ قال ثلاثاً وسبعين آية، قال فوالذي يحلف به أبيٌّ إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا نَكَالاً مّنَ الله والله عزيزٌ حكِيمٌ.

أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبيّ ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطراً من أموالهم وخوَّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية ناداه بالنبيّ ولم يقل يا محمد وأمره بالتقوى تعظيماً وتفخيماً لشأن التقوى، وقال البغوي نزلت الآية في أبي سفيان بن الحرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور عمرو بن سفيان السلمي وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد أعطاهم النبيّ ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن أبي سعد وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبي ﷺ (وعنده عمر بن الخطاب) ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق على النبيّ ﷺ قولهم فقال عمر يا رسول الله ائذن لي في قتلهم، فقال: «إني قد أعطيتُهم الأمان» فقال اخرجوا في لعنة الله وغضبه فأمر النبيّ ﷺ أن يخرجوهم من المدينة فأنزل الله تعالى هذه الآية. قيل الخطاب مع رسول الله ﷺ والمراد به الأمة، وقال الضحاك معناه اتق

ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم، وقيل الخطاب للنبي ﷺ للأمر بالثبات عليه ليكون مانعاً عمَّا نهى عنه بقوله ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة يعني أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من أهل المدينة عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد وطعمة بن أبيرق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه ومصالحم ومفاسدهم ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم إلا على وفق الحكمة.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من التوحيد والإخلاص لله، هذه الجملة بمنزلة التأكيد للتقوى وعدم إطاعة الكفار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قرأ أبو عمرو بالياء في يعملون خبيراً يعملون بصيراً للغيبة والضمير عائد للكافرين والمنافقين يعني أن الله خبير بمكائدهم يجازيهم عليها، وقرأ الباقون بالتاء خطاباً للنبي ﷺ وأصحابه فإن الأمر بالتقوى وإن كان بصيغة الواحد لكن المراد هو وأمته، وعلى هذا الجملة تأكيد لامتثال الأمر طمعاً في حسن الجزاء وخوفاً عن قبحه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ثق به ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمور كلها تذييل، وقال الزجاج عطف على توكل لفظه خبر ومعناه أمر أي اكتف بالله وكيلاً تميز من النسبة أي اكتف بالله وكيلاً يعني اكتف بوكالته وفي صيغة الأمر إشعار على التعليل للأمر بالتوكل والاكتفاء يعني من كان الله مع كمال علمه وقدرته ورحمته موكولاً إليه أموره لا يحتاج إلى توكيل غيره فتوكيل أموره إلى غيره سفه والله أعلم ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ من زائدة وهو في محل النصب على أنه مفعول أول لجعل ولرجل مفعوله الثاني ﴿فِي جَوْفِهِۦ﴾ ظرف لغو أو صفة لقلبين أعلم أن القلب معدن للروح الحيواني ومنبع للقوى بأسرها وذلك يمنع التعدد، إذ لو كان لرجل قلبان فإما أن يفعل بكل واحد منهما شيئاً واحداً من أفعال القلوب فالثاني فضلة لا حاجة إليه وإما أن يفعل بكل واحد غير ما يفعل به الآخر وحينئذ يفضي إلى التناقض، ذكر البغوي وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ وابن نجيح عن مجاهد إنها نزلت في أبي معمر جميل بن معمر الفهري كان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع فقالت قريش ما حفظ أبو معمر هذه إلا وله قلبان وكان يقول إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل مما عقل محمد، فلما انهزم قريش يوم بدر وانهزم فيهم أبو معمر لقيه أبو سفيان وإحدي نعليه في يده والأخرى برجله فقال له يا أبا معمر ما حال الناس، قال انهزموا، قال مالك إحدى نعليك بيدك والأخرى برجلك، قال أبو معمر ما شعرتُ إلا أنهما في رجلي فعلموا يومئذٍ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده وأخرج ابن أبي حاتم من طريق خصيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا كان رجل يدعى ذا القلبين فنزلت فيه، وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس مثله ومن طريق قتادة عن الحسن مثله وزاد وكان يقول نفسي يأمرني ونفسي ينهاني. وأخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال قام النبيّ ﷺ فخطر خطرة فقال المنافقون الذين معه ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم وقلباً مع أصحابه فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال الزهري ومقاتل هذا مثل ضربه الله عز وجل للمظاهر من امرأته وللمتبني ولد غيره يقول فكما لا يكون لرجل قلبان لامتناع اجتماعهما لا تكون امرأة المظاهر أمّاً له لامتناع اجتماع النسبتين ولا يكون ولد غيره ولداً له لامتناع اجتماع النسبتين.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى﴾ قرأ قالون وقنبل[١] آلآء هنا وفي المجادلة والطلاق بالهمزة[٢] من غير ياء وورش[٣] بياء مختلسة[٤] الكسرة خلفاً من الهمزة وإذا أوقف صيرها ياءً ساكنةً والبزي وأبو عمرو[٥] بياء ساكنة[٦] بدلاً من الهمزة في الحالين، والباقون بالهمزة بعدها ياء في الحالين وحمزة إذا وقف جعل الهمزة بين بين على أصله ومن همز منهم ومن لم يهمز أشبع التمكين للألف في الحالين إلا ورشاً[٧] فإن المد والقصر جائزان عنه ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ قرأ عاصم بضم التاء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء من المفاعلة وحمزة والكسائي[٨] بفتح التاء والهاء وبالألف مخففاً من التفاعل بحذف إحدى التاءين وقرأ ابن عامر بفتح التاء والهاء[٩] وتشديد الظاء وبالألف أيضاً من التفاعل لكن بإدغام التاء بعد القلب بالظاء والإسكان في الظاء والباقون بفتح التاء والهاء وتشديد الظاء بغير ألف من التفعل بإدغام التاء في الظاء على ما بيّنا ﴿مِنْهُنَّ﴾ عدى التظاهر بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقاً في الجاهلية فعدل في الشرع إلى الحرمة المنتهية بالكفارة ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ صورة المظاهر أن يقول الرجل لزوجته أنتِ عليّ كظهر أمي وقد ذكرنا مسائل الظهار في سورة المجادلة، قال البيضاوي ذكر الظهر في الظهار للكناية عن البطن الذي هو عموده فإن ذكره تقارب ذكر الفرج أو للتغليظ في التحريم فإنهم كانوا يحرمون إتيان المرأة وظهرها إلى السماء ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ الله ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ أي الذين تبنيتهم جمع دعي على الشذوذ وكان قياسه دعوى كجرحى جمع جريح لأنه فعيل بمعنى مفعول كأنّه شبه بفعيل بمعنى فاعل فجمع جمعه كتقيّ وأتقياء وسخي وأسخياء وشقي وأشقياء ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ فلا يثبت بالتبني شيء من أحكام البنوة من الإرث وحرمة النكاح وغير ذلك، وفي الآية ردّ لما كانت العرب تقول من أن اللبيب لا ريب له قلبان والزوجة المظاهر منها تبين من زوجها وتحرم عليه كالأمر ودعي الرجل ابنه يرثه ويحرّم بالتبني ما يحرم بالنسب وقد كان النبيّ ﷺ أعتق زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي وتبنّاه قبل الوحي وآخا بينه وبين حمزة بن عبد المطلب، فلما تزوَّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بعدما طلقه زيد وكان امرأته وقال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عن ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى كل ما ذكر ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني لا حقيقة لها في الأعيان كقول الهاذيّ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ يعني ما له

---

(١) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.
(٢) المحققة ـ أبو محمد ـ.
(٣) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٤) أي بهمزة مسلمة بغير ياء ـ أبو محمد ـ.
(٥) بخلاف عنه.
(٦) وميلاً والوجه الثاني لهما كورش ـ أبو محمد ـ.
(٧) ومن معه ـ أبو محمد ـ.
(٨) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٩) المشددة ـ أبو محمد ـ.

حقيقة في الأعيان تطابق قوله ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي يرشد إلى سبيل الحق، روى الدارمي عن عائشة قالت جاءت سهلة بنت سهل بن عمرو (وكانت تحت أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة) عند رسول الله ﷺ فقالت إن سالماً مولى أبي حذيفة يدخل علينا وإنا فضل[١] وإنما نراه ولداً وكان أبو حذيفة تبنّاه كما تبنى النبيّ ﷺ زيداً فأنزل الله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ يعني أنسبوهم إلى آبائهم الذين خلقوا من نطفهم إفراد للمقصود من أقواله الحقة ﴿هُوَ﴾ الدعاء لآبائهم ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعليل لقوله ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ وأقسط اسم تفضيل أريد به الزيادة مطلقاً من القسط بمعنى العدل ومعناه البالغ في الصدق، وأخرج البخاري عن ابن عمر قال ما كنا نقول زيد بن الحارثة إلا زيد بن محمد ﷺ حتى نزل القرآن ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ حتى تنسبوا إليه ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فقولوا هذا أخي في الدين ومولاي.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي إثم ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي فيما نسبتم المتبنى إلى المتبنِّي مخطئين قبل النهي أو بعده على النسيان أو سبق اللسان ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي لكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم أو لكن ما تعمدت قلوبكم ففيه الجناح عن سعيد بن أبي وقاص وأبي بكرة قالا قال رسول الله ﷺ: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام»[٢] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد وأبو داود وابن ماجه، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «من إدعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله المتابعة إلى يوم القيامة»[٣] رواه أبو داود، وقال السيوطي صحيح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعفو عن المخطىء، قال البيضاوي اعلم أن التبنّي لا عبرة له عندنا (يعني عند الشافعي رحمه الله) وعند أبي حنيفة رحمه الله يوجب عتق مملوكه ويثبت النسب لمجهوله الذي يمكن إلحاقه به، وهذا سهو منه، فإن عند أبي حنيفة رحمه الله لا يعتق المملوك بقوله تبنيتُك وجعلتُك ابني وكذا لا يثبت النسب إذا قال لمجهول النسب تبنيتُك وجعلتُك ابني بل عنده إن السيد إذا قال لعبده هذا ابني يعتق عليه سواء كان يولد مثله لمثله أولا تصحيحاً لكلامه وحملاً له على المجاز كأنَّه قال هذا حر إطلاقاً للسبب على المسبّب إذ البنوة سبب للحرية لقوله ﷺ: «من ملك ذا رحم محرم منه عتق عليه»[٤]. رواه أحمد وأصحاب السنن، وقد خالف أبا حنيفة صاحباه فيما إذا قال لعبده هو أكبر سناً منه هذا ابني فإنهما قالا لا يعتق بناءً على خلافية في

---

(١) فضل: أي مبتذلة في ثياب مهنتها. يقال: تفضلت المرأة، إذا لبست ثياب مهنتها أو كانت في ثوب واحد، فهي فضل. والرجل فضل أيضاً.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٥، والفرائض باب ٢٩، ومسلم في الإيمان حديث ١١٥، وأبو داود في الأدب باب ١٢٠، وابن ماجه في الحدود باب ٣٦، والوصايا باب ٦، وأحمد في المسند ١/ ١٧٤، ١٧٩، ٥/ ٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في الحج حديث ٤٦٧، والعتق حديث ٢٠، وأبو داود في الأدب باب ١٢٠.

(٤) أخرجه أبو داود في العتاق باب ٧، والترمذي في الأحكام باب ٢٨، وابن ماجه في العتق باب ٥، وأحمد في المسند ٥/ ١٥، ١٨.

الأصول إن المجاز عنده خلف عن الحقيقة في التكلم دون الحكم فإذا صح التكلم بالحقيقة صح التجوز عنده وعتق عليه وعندهما خلف له في الحكم فإذا لم يمكن الحكم بالحقيقة لم يصح التجوز خلفاً ولم يعتق عليه، ومن قال لمجهول النسب هذا ابني وهو بحيث يمكن ثبوت النسب منه يثبت نسبه لكونه مأخوذاً بإقراره والتزام النسب خالص حقه ولأجل ذلك من قال لمجهول النسب هذا أخي لا يثبت نسبه من أبيه، غير أنه إذا مات المقر بالنسب على الغير مُصرّاً على إقراره ولم يكن له وارث آخر يرث المقر له منه لعدم المزاحم وهو مقدم على بيت المال عندنا لا على أحد من الورثة وإن كانوا من ذوي الأرحام ولا علم الموصي له بجميع المال والله أعلم. قال البغوي قيل كان رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا فنزلت ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني من بعضهم لبعض في نفوذ الحكم عليهم ووجوب طاعته عليهم فلا يجوز إطاعة الآباء والأمهات في مخالفة أمر النبي ﷺ وهو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه، قال ابن عباس وعطاءٌ يعني إذا دعاهم النبي إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعتهم للنبي أولى بهم من طاعتهم لأنفسهم وذلك لأنه عالم بمصالحهم ومفاسدهم بتعليم الله تعالى ولا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا ما فيه صلاحهم ونجاحهم قال الله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] بخلاف أنفسهم فإنها أمّارة بالسوء إلا من رحم الله وهي ظلوم جهول فيجب عليهم أن يكون الله أحب إليهم من أنفسهم فأمره أنفذ عليهم من أمرها وشفقته أوفر من شفقتها عليها، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١) متفق عليه من حديث أنس، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة إقرؤوا إن شئتم (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»(٢) رواه البخاري ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ في تعظيم حقهن وتحريم نكاحهن على التأبيد لا في النظر إليهن والخلوة بهن فإنه حرام في حقهن كما في حق الأجنبيات قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ولا يقال لبناتهن أخوات المؤمنين ولا لإخوتهن وأخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم، قال الشافعي تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر وهي أخت أم المؤمنين عائشة ولم يقل هي خالة المؤمنين، قلت وزوج رسول الله ﷺ بناته بعلي وعثمان، قال البغوي روى الشعبي عن مسروق أن امرأةً قالت لعائشة يا أمه فقالت لستُ لك بأم إنما أنا أم رجالكم، وكذا أخرج البيهقي في سننه فَبَانَ بهذا أنه تعالى أراد تحريم النكاح وفي قراءة أبي بن كعب وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم يعني في الدين فإن كل نبي أب لأمته من حيث إنه أصل فيما بها الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوة ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٨، والأيمان باب ٣، ومسلم في الإيمان حديث ٦٩، ٧٠.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣٣، باب ١.

﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حكم الله أو في اللوح المحفوظ أو في القرآن وهو هذه الآية أو آية المواريث يعني في التوارث ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا».

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ صلة لأولي ومن تفضيلية والآية ناسخة لما كان في ابتداء الإسلام التوارث بالهجرة والموالاة في الدين، قال البغوي......[1] قال قتادة كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، وقال الكلبي آخى رسول الله ﷺ بين الناس وكان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر عصبةً حتى نزلت ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وهذه الآية بعمومه حجة لنا على الشافعي في توريث أولي الأرحام ممن ليس بذي فرض ولا عصبة عنه عدم ذوي الفروض والعصبات وعند عدم أحد من أولي الأرحام يوضع المال في بيت المال ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾ أي أصدقائكم من المؤمنين والمهاجرين ﴿مَّعْرُوفًاۚ﴾ أي وصية فالموصي له من الأصدقاء أولى من الورثة وهذا عام خص منه البعض بالسنة والإجماع فهو أولى من الورثة في ثلث المال دون كله، وهذا استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع أو منقطع وذلك أن الله لمَّا نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصي بمن يتولاه بما أحب من الثلث، وقيل من في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيانية والمعنى وأولو الأرحام من المؤمنين بعضهم أولى ببعض يعني لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾ أي أقربائكم وصية وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة، قال البغوي هذا قول قتادة وعكرمة وعطاء، قلتُ وعلى هذا يخلو فُعَلُ من اللام والإضافة ومن التفضيلية ثم كون أولي الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض لا يقتضي نفي التوارث بين المسلم والكافر لا بالمنطوق وهو ظاهر ولا بالمفهوم لأن كون المؤمن أولى لا يدل على نفي ميراث كافر من مؤمن عند عدم وارث مؤمن والله أعلم ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي في اللوح المحفوظ أو القرآن وقيل في التوراة ﴿مَسْطُورًا﴾ ثابتاً مرقوماً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ

(١) بياض بالأصل.

دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟
ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ
أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿و﴾ اذكر ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أجمعين ﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾ عهودهم حين أخرجوا من صلب آدم، قال أخذ الله ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وينصر بعضهم بعضاً وينصحوا لقومهم ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ خصهم بالذكر بعد التعميم لفضلهم لكونهم أصحاب الشرائع والكتب وأولي العزم من الرسل وقدم النبيّ ﷺ في الذكر تعظيماً له وإشعاراً بما أخبر عنه ﷺ، حيث قال: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث»(١) رواه ابن سعد عن قتادة مرسلاً ورواه البغوي متصلاً عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة وقال قال قتادة وذلك قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ الآية فبدأ به ﷺ قبلهم، وروى ابن سعد وأبو نعيم في الحلية عن ميسرة الفجر بن سعد عن أبي الجدعاء والطبراني في الكبير عن ابن عباس بلفظ «كنتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد» ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا﴾ عهداً على الوفاء بما عهدوا ﴿غَلِيظًا﴾ شديداً عظيم الشأن أو مؤكداً بالأيمان والتكرير لبيان هذا الوصف ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ﴾ أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم أو عن تصديقهم إياهم تبكيتاً لهم، أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادقٌ أو المؤمنين الذين صدقوا عهودهم حتى أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على أخذنا من جهة أن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين أو على ما دل عليه قوله ليسأل كأنَّه قال فأثاب للمؤمنين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾ ظرف لنعمة ﴿جُنُودٌ﴾ أي كفار قريش وغطفان ويهود قريظة كانوا زهاء اثنى عشر ألف حتى حاصروا المسلمين مع رسول الله ﷺ وحفر رسول الله ﷺ خندقاً حولهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ يعني الصبا، روى البخاري عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «نصرتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»(٢) أرسل الله عليهم ريحاً باردةً في ليلة شاتية فقطعت الأوتاد وأطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وجالت الخيل بعضها في بعض ﴿وَجُنُودًا﴾ من الملائكة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ حتى كثر تكبير الملائكة

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٩٦/١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١٩١٦، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٩١٩/٣.

(٢) أخرجه البخاري في الاستسقاء باب ٢٦، والمغازي باب ٢٩، وبدء الخلق باب ٥، وأحاديث الأنبياء باب ١، ومسلم في الاستسقاء حديث ١٧، وأحمد في المسند ٢٢٣/١، ٢٢٨، ٣٢٤، ٣٤١، ٣٥٥، ٣٧٣.

في جوانب عسكرهم وألقى الرعب في قلوبهم حتى كان سيد كل قوم يقول يا بني فلان هلموا إليَّ فإذا اجتمعوا عنده قال النجاء النجاء أبيتم فانهزموا من غير قتال ولم تقاتل الملائكة يومئذٍ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ، أيها المؤمنون من حفر الخندق والتهيؤ للقتال هذا على قراءة الجمهور، وأما على قراءة البصريين فالمعنى وكان الله بما يعمل المشركون من التحزب والمحاربة ﴿بَصِيرًا﴾ رائياً وكان ذلك الوقعة في شوال سنة أربع من الهجرة كذا في مواهب اللدنية من قول موسى بن عقبة بعد ثمانية أشهر من إجلاء بني النضير وكان إجلاؤهم وتفرقهم في البلاد ولحوق سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحيي بن أخطب وغيرهم بخيبر في ربيع الأول سنة أربع والمشهور أنه في شوال سنة خمس من الهجرة كذا قال محمد بن إسحاق.

قال البغوي قال محمد بن إسحاق حدثني يزيد بن رومان مولى آل الزبير عن عروة بن الزبير وعن عبد الله بن كعب بن مالك وعن الزهري وعاصم بن عمرو بن قتادة وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعن محمد بن كعب القرظي وغيرهم من علمائنا دخل حديث بعضهم بعضاً أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهودة بن قيس وأبو عامر الوائيُّ في نفر من النضير ونفر من بني وائل (وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ) خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقال لهم قريش يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه (قال فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] إلى قوله ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥] فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا إلى ما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فأجمعوا لذلك، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس بن غيلان فدعوهم إلى ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد بايعوهم فأجابوهم.

قلتُ: روي أنه كان رجال بني نضير وبني وائل نحواً من عشرين رجلاً فقال لهم أبو سفيان بن حرب مرحباً بكم أحب الرجال عندنا من عاهدنا على عداوة محمد، فقالوا لأبي سفيان اختر لنا خمسين رجلاً من بطون قريش وتكون منهم حتى ندخل نحن وأنتم في أستار الكعبة ونلزق صدورنا بجدران الكعبة ثم نحلف على أن نتفق على عداوة محمد وتكون كلمتنا واحدة ونتعاهد على أن نحارب محمداً ما بقي منا رجل واحد ففعلوا ذلك، ولما قدم اليهود على غطفان بعد المعاهدة مع قريش حرضوهم على القتال مع النبيّ ﷺ ووعدوهم على ذلك بتمر سنة ما كان على نخيل خيبر وقيل بنصف ذلك فأجاب عيينة بن حصين الفزاري رئيس غطفان قولهم بذلك الشرط أي بشرط إعطاء تمرسنة وكتب عيينة إلى حلفائه من بني أسد فجاؤوا عنده، قال البغوي فخرجت قريش قائدهم أبو سفيان بن حرب

وغطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في بني فزارة والحارث بن عوف بن أبي حارثة المزي في بني مرة ومسعر بن رحيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع، قلتُ روي أن أبا سفيان جمع العسكر أربعة آلاف رجل وأعطى رايته عثمان بن أبي طلحة وكان في عسكرهم ثلاث مائة فرس وألف بعير حين خرجوا من مكة ونزلوا من الظهران واجتمع هناك أسلم وأشجع وبنو مُرّة وبنو كنانة وفزارة وغطفان حتى صاروا عشرة آلاف وساروا بأجمعهم إلى المدينة ولذلك سمى غزوة الأحزاب.

قال البغوي فلمّا سمع رسول الله ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ سلمان الفارسي، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ حر فقال يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله ﷺ حتى أحكموه، قلتُ: روي أنه رسول الله ﷺ لما سمع الخبر قال حسبنا الله ونعم الوكيل، وجمع أسراء المهاجرين والأنصار واستشارهم في ذلك وأشار سلمان بضرب الخندق فاستحسنه رسول الله ﷺ واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وخرج غازياً وأعطى لواء المهاجرين زيد بن حارثة ولواء الأنصار سعد بن عبادة وخرج معه ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، قلتُ: روي أن معهم ستة وثلاثون فرساً وخرج معه صبيان لم يبلغوا الحلم فردهم إلى المدينة من كان منهم لم يبلغ خمسة عشر سنة وأجاز منهم للقتال من كان منهم ابن خمسة عشر سنة منهم عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري وبراء بن عازب، فطلب رسول الله ﷺ موضعاً لأجل الخندق في بعض أطراف المدينة فاختار موضعاً بقرب جبل سلع جعل جبل سلع على ظهر العسكر وخط خطّاً للخندق بينه وبين الكفار، قال البغوي أخبرنا عن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه قال خط رسول الله ﷺ عام الأحزاب ثم قطع لكل عشر أربعين ذراعاً، قال احتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً، فقال المهاجرون سلمان منا وقال الأنصار سلمان منا فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»(١).

قال عمر بن عوف كنتُ أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً فحفرنا حتى إذا كنا بجنب ذي باب أخرج الله من بطن الخندق صخرةً مرودةً كسرت حديدنا وشقت علينا، فقلتُ يا سلمان أرق إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبر هذه الصخرة فإن رأى أن نعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، قال فخرجت صخرة بيضاء من مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يجيبك فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك فإنا لا نحب أن نجاوز خطك فهبط رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٩٨، والطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢٦١، والطبراني في تفسيره ٢١/ ٨٥، والبغوي في تفسيره ٥/ ٢٣٤.

مع سلمان الخندق والتسعة التي في الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأنَّ مصباحاً في بيت جوف مظلم فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبّر المسلمون ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأنَّ مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها، فأخذ بيد سلمان ورقى فقال سلمان بأبي أنتَ يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيتُ مثله قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال رأيتم ما يقول سلمان قالوا نعم، قال «ضربتُ ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبرئيل عليه السَّلام أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربتُ ضربة الثانية فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمرة من الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا» فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله الذي موعده صدق وعدنا النصر بعد الحصر، فقال المنافقون ألا تعجبون من محمد يمنّيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الغرق لا تستطيعون أن تبرزوا قال فنزل القرآن ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢] وأنزل في هذه القصة ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية.

روى البخاري في الصحيح عن أنس قال: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

إن العيش عيش الآخره ... فاغفر للأنصار والمهاجره

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمّدا ... على الجهاد ما بقينا ابدا»[1]

وروي أيضاً في الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب وخَنْدَقَ رسول الله ﷺ رأيتُه ينقل تراب الخندق حتى وارى على الغبار جلد بطنه وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول[2]:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١، والجهاد باب ٣٣، ومناقب الأنصار باب ٩، والمغازي باب ٢٩.

(٢) الرجز في ديوان عبد الله بن رواحة ص١٠٨.

ثم يمدّ صوته بآخرها[١]، وفي رواية والله لولا الله ما اهتدينا إلى آخره، قلت: وروي أن سلمان كان رجلاً قوياً يعمل في الخندق عمل عشرة من الرجال ويروى أنه كان يحفر الخندق كل يوم خمسة أذرع في عمق خمسة أذرع، فأصابه عين من قيس بن أبي صعصعة فصرع فأمر رسول الله ﷺ قيساً أن يتوضأ لسلمان ويجعل وضوءه في إناء ويغسل به سلمان ويلقى الإناء خلفه منكوساً ففعلوا ذلك فبرىء سلمان.

وروى أحمد والبخاري في الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: «كنا يوم الخندق مع رسول الله ﷺ فعرضت لنا كُدية[٢] شديدة فجاؤوا النبيّ ﷺ فقالوا هذه كُدية من الجبل عرضت فقال أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ رسول الله ﷺ المعول فعادت كثيبًا أهيل[٣] أو أهيم، فقلتُ يا رسول الله ائذن لي البيت، فقلتُ لامرأتي إني رأيت من رسول الله ﷺ خمصاً[٤] شديداً أما في ذلك صبرٌ فعندك شيء فأخرجت لي جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن[٥] فذبحتُها وطحنت ففرغَت إلى فراغي وقطعتها في برمتها[٦] والعجين قد انكسر[٧] والبرمة بين الأثافي[٨] في قدر كادت أن تنضج، ثم وَلَّيتُ إلى رسول الله ﷺ فقالت لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئتُه فساررته فقلتُ طعيم لي يا رسول الله فقم أنتَ ورجل أو رجلان قال كم هو فذكرتُ له، قال كثير طيب قل لها لا تنزع البرمة والخبز من التنور حتى آتيكم واستقر صحافاً، ثم صاح رسول الله ﷺ فقال يا أهل الخندق إن جابراً صنع لكم سوراً[٩] فحي[١٠] هلا بكم، فقلت ويحك[١١] جاء النبيّ ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم فقالت بك وبك[١٢] هل سألك فقلت نعم فقالت الله ورسوله أعلم، فدخل رسول الله ﷺ فقال ادخلوا ولا تضاغطوا[١٣] فأخرجتُ له عجيناً فبسق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبسق فيها وبارك ثم قال يا جابر ادع خابزة فلتخبز معك واقدحي[١٤] من برمتك ولا تنزلوها، وجعل رسول الله ﷺ يكسر الخبز

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٣٤، والمغازي باب ٢٩، ٣٨.

(٢) بضم الكاف القطعة الصلبة الضماء.

(٣) أي تراباً سابلاً.

(٤) أي جوعاً.

(٥) الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.

(٦) البرمة: القدر.

(٧) أي لان ورطب وتمكن من الخبز.

(٨) الحجارة التي توضع عليها القدر.

(٩) أي طعاماً يدعو إليه الناس واللفظة فارسية.

(١٠) حي هلا كلمة استدعاء فيها حث أي هلموا مسرعين.

(١١) ويح كلمة ترحم.

(١٢) بك وبك: أي جعل الله بك كذا وكذا، أو فعل بك كذا وكذا، والموحدة متعلق بمحذوف.

(١٣) أي لا تزدحموا.

(١٤) أي اغرفي.

ويجعل عليه اللحم يخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف اللحم حتى شبعوا وهم ألف، قال جابر فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط[١] كما هي وإن عجيننا ليخبزكما هو ثم قال رسول الله ﷺ كلي وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة فلم نزل نأكل ونهدي يومنا»[٢] قلت وقد صح أنهم قد فرغوا من أمر الخندق في ستة أيام.

قال البغوي رجعنا إلى حديث ابن إسحاق فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش بمجتمع الأخبال من دومة الجرف والغابة في عشر آلاف من أحابيشهم[٣] ومن تابعهم من أهل التهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا إلى الآطام[٤].

وخرج عدو الله حيي بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده ذلك فلما سمع كعب بحيى بن أخطب غلق دونه حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حيي يا كعب افتح لي فقال ويحك يا حيي أمر شؤم إني قد عهدتُ محمداً فلستُ بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا الوفاء والصدق، قال ويحك افتح أكلمك قال ما أنا بفاعل قال والله إن غلقتَ دوني إلا لخشيتك أن آكل معك منها فاحفظ الرجل ففتح له الباب، فقال يا كعب جئتك بعز الدهر ببحر طام[٥] جئتُك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتُهم بمجتمع الأسبال من دومة وغطفان على قادتها وسادتها حتى أمسى بذنب نقمى إلى جانب أحد فتعاهدوني وتعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، فقال كعب بن أسد جئتني والله بذل الدهر وبجهام[٦] قد أهرق[٧] ماؤه برعد وبرق ليس فيه شيء فدعني ومحمداً وما أنا عليه فإني لم أر من محمّد إلا صدقاً ووفاءً، فلم يزل حيي بن أخطب بكعب يفتله في الذروة والغارب[٨] حتى سمح له على أن أعطاه من الله عهداً وميثاقًا لئن رجعت قريش ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد

---

(١) تغط: أي تغلي وتفور.
(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٢٩، والدارمي في المقدمة باب ٧.
(٣) أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشا ـ نهاية منه ـ.
(٤) الأبنية المرتفعة كالحصون.
(٥) أي مرتفع.
(٦) السحاب الذي لا ماء فيه.
(٧) أي أهرق.
(٨) يفتله في الذروة والغارب: هذا مثل، وأصله في البعير يستصعب عليك فتأخذ القرار من ذروته وغرب سنامه، وتفتل هناك فيجد البعير مهرة فيستأنس عند ذلك. فضرب هذا الكلام مثلاً في المراوضة والمخاتلة، والذروة والغارب: أعلى ظهر البعير، يعني لم يخل يخدعه.

عهده وبريء ممَّا كان عليه فيما بينه وبين محمّد رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى رسول الله الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أحد بني الأشهل وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله ابن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج وخوَّات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف فقال انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغني عن هؤلاء القوم أم لا فإن كان حَقّاً الحنوا إليَّ لحناً(١) أعرفه لا تفتوا أعضاد(٢) الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به الناس، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوا على أخبث ما بلغهم منهم ومالوا من رسول الله ﷺ وقالوا لا عقد بيننا وبين محمد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه وكان رجلاً فيه فقال سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى(٣) من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وقالوا عضل(٤) والقارة لعذر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم(٥) النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وحتى قال أوس بن قبطي أحد بني حارثة يا رسول الله إن بيوتنا عورة وذلك على ملأٍ من رجال قومه فأذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة، قلتُ روي أنه لما نقض كعب عهده الذي كان بينه وبين رسول الله ﷺ وعزم على ذلك جمع أشراف قومه منهم زبير بن بلطا ونباش بن قيس وعقبة بن زيد وغيرهم وأخبرهم بذلك لاموه أشد ملامة وكرهوا ذلك حتى ندم كعب على ذلك ولكن لم ينفعه لِمَا كان ذهب عنان الأمر من يده وكان ذلك ما أراد الله إهلاك قريظة، وروى الشيخان في الصحيحين عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم» فانطلقتُ فلما رجعتُ جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال فداك أبي وأمي» قلتُ وكان إرسال الزبير إلى بني قريظة قبل إرسال سعد وسعد إليهم، روي أنه لما جاء الزبير من بني قريظة إلى رسول الله ﷺ أخبره بأنهم يصلحون حصونهم ويسدون الطرق والثغور ويجمعون دوابهم ومواشيهم فقال النبيّ ﷺ: «لكل نبي حوارياً وحواريي الزبير»(٦).

(١) اللحن قول يفهم المخاطب ويخفس على غيره.

(٢) أي لا تكسروا قواتهم بإدخال الرعب في قلوبهم.

(٣) أزيد.

(٤) العضل: المنع والشدة.

(٥) ظهر النفاق.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٠، ٤١، ١٣٥، وفضائل الصحابة باب ١٣، والمغازي باب ٢٩، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٤٨.

قال البغوي فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلةً قريباً من شهر ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى، فلمّا اشتد البلاء على رسول الله ﷺ أرسل إلى عيينة بن حصين وأبي الحارث بن عمرو وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله ﷺ بأصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم يصنع الشهادة، وذكر رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فيه فقالا يا رسول الله أشيء أمرك الله به لا بد لنا من عمل به أم أمر تحبه فتصنعه أم شيء تصنعه لنا؟ قال بل لكم والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم[1] من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم، فقال لهم سعد بن معاذ قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا تمرةً إلا قرىً أو بيعاً فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ومالنا بهذا حاجة والله لا نعطهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فقال رسول الله ﷺ فأنت وذلك فتناول سعد الصحيفة فمحى ما في الكتاب ثم قال ليجتهدوا علينا. قلتُ: وروي أن أسيد بن حضير قال ذلك لرسول الله ﷺ أولاً ثم قال مثله سعد وسعد وكان عيينة بن حصين أطال رجله في ذلك المجلس فقال له أسيد يا عين الهجرس اطوِ رجلك ولولا مهابة مجلس رسول الله ﷺ لوضعت رمحي في خاصرتك فانقلب عيينة والحارث خائبين وعلموا أن لا يكون لهم سلطان على المدينة وحيث رأوا قوة الأنصار وشدتهم تزلزلوا.

قال البغوي: فأقام رسول الله ﷺ وعدوهم فحاصروهم ولم يكن بينهم قتال إلا فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس بن لؤي أخو بني محارب بن فهر قد تلبسوا القتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني كنانة وقالوا تهيئوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان، ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا[2] مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيولهم فاقتحمت فجالت بهم في المسبحة بين الخندق والسلع، وخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعيق[3] نحوهم وكان عمرو بن عبد ود قاتلَ يوم بدر حتى أثبت الجراحة فلم يشهد أحداً فلما كان يوم الخندق خرج معلماً[4] ليرى مكانه فلمّا

---

(١) كالبوكم: أي اشتدوا عليكم، وأصله من الكلب.
(٢) أي قصدوا.
(٣) أي تسرع.
(٤) أي جعل لنفسه علامة تعرف بها البراز للحرب.

وقف هو وخيله قال له عليٌّ يا عمرو إنك كنتَ تعاهد الله لا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما، قال أجل، قال له علي بن أبي طالب فإني أدعوك إلى الله وإلى سوله وإلى الإسلام، قال لا حاجة لي بذلك، قال فإني أدعوك إلى النزال، قال لِمَ يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك، قال علي لكن والله أحب أن أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على عليّ فتناولا وتجادلا فقتله عليٌّ وخرجتُ خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبد السياق بن عبد الدار أصابه سهم فمات عنه بمكة ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وكان قد اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يا معشر العرب قتله أحسن من هذه فنزل له عليٌّ فقتله فغلب المسلمون، فسألوا رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسده فقال رسول الله ﷺ لا حاجة لنا في جسده وثمنه فشأنكم فخلى بينهم وبينه.

قالت عائشة أم المؤمنين كنا يوم الخندق في حصن بني حارثة وكان أحرز حصون المدينة وكان سعد بن معاذ معنا في الحصن وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، فخرج سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وبيده حربة وهو يقول[1]:

يا ليت قلام لا يدرك الهيجاء جملْ
لا بأس بالموت إذا حان الأجلْ

فقالت أمه الحق[2] يا بني فقد والله أخرتَ، فقلت لها يا أم سعد والله لوددتُ أن درع سعد كانت أسبغ مما هي وخفت عليه حيث أصاب السهم قالت أمه يقضي الله ما هو قاض، فرمى يومئذ بسهم قطع منه الأكحل رماه حيان بن قيس الغرفة أحد بني عامر بن لؤي فلما أصاب السهم قال خذها وأما ابن الغرفة فقال سعد وجعك الله في النار ثم قال سعد اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش فأبقني له فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه وإن كنتَ قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادةً ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قال مجاهد ومحمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال كانت صفية بنت عبد المطلب في رقاع حصن حسان بن ثابت قالت وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة ما بينها وبين رسول الله ﷺ وما بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذ أتانا آت فقلت يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى

---

(١) يروى الرجز بلفظ:
لبِّث قليلاً يلحق الهيجا حملْ ما أحسن الموت إذا حان الأجل
وهو لحمل بن سعدانة بن عليم العليمي في تاج العروس (حمد).

(٢) يعني أي يسر بشتاب وبارسول كريم ملحق شو وبخداكه توديركردى ـ منه رحمه الله ـ.

يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدخل عورتنا من ورائنا من اليهود وقد شغل عنّا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتلهِ فقال يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفتِ وما أنا بصاحب هذا، فلمّا قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزتُ[١] ثم أخذتُ عموداً ثم نزلتُ عن الحصن إليه فضربتُ عنقه بالعمود حتى قتلتُه فلمّا فرغتُ منه رجعتُ إلى الحصن فقلتُ يا حسان أنزل عليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل قال ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب. قلتُ: روي أن بني قريظة أرادوا أن يبيتوا على المدينة وطلبوا في ذلك مدداً من قريش فبلغ ذلك رسول الله ﷺ سلمة بن أسلم مع مائتي رجل وزيد بن حارثة مع ثلاث مائة رجل حتى يحرسوا بقاع المدينة وحصونها، وروي أن عباد بن بشر مع أصحابه كانوا يحرسون كل ليلة خيمة رسول الله ﷺ وكان المشركون يريدون أن يجاوزوا الخندق والصحابة يمنعونهم برمي السهام والحجارة وكان رسول الله ﷺ يحرس بنفسه الكريمة.

روى الشيخان في الصحيحين عن عائشة قالت: «سهر رسول الله ﷺ مقدمة المدينة ليلة فقال: «ليت لي رجلاً صالحاً يحرسني» إذ سمعنا صوت سلاح فقال «من هذا؟» قال سعد، قال «ما جاء بك؟» قال وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام»[٢] وفي رواية قالت عائشة أحب سعداً من يوم كان يحرس رسول الله ﷺ في أيام الخندق كان من الخندق موضعاً يخاف عبور الكفار من ذلك الموضع كان رسول الله ﷺ يحرس ذلك الموضع وإذا اشتد عليه البرد يأتيني ويستدفأ بي ثم يذهب ويحرس ويقول لا أخاف على العسكر إلا من هذا الموضع فجاءني رسول الله ﷺ مرة ليستدفأ بي وقال ليتَ لي رجلاً صالحاً يحرسني الليلة حتى أنام إذ سمعنا صوت سلاح فقال من هذا؟ قال سعد، قال أحرسنا ذلك الموضع ففعل فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ صوت نفسه.

وروي عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يحرس بنفسه الكريمة وكان البرد شديداً فكان رسول الله ﷺ في ليلة من الليالي صلّى في خيمته ثم ذهب يحرس فقال هؤلاء فرسان المشركين حول الخندق فنادى عباد بن بشير فقال لبيك يا رسول الله فقال هل معك أحد؟ فقال نعم رجال من قومي يحرسونك، فقال اذهب برجال قومك فإن رجالاً من المشركين حول الخندق يريدون أن يبيتوا وقال رسول الله ﷺ: «اللّهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم» فذهب عباد بن بشير بأصحابه إلى الخندق فإذا أبو سفيان ورجال من المشركين دخلوا في مضيق الخندق والمسلمون يرمونهم بالسهام والحجارة فلحقهم عباد بن بشير، قال عباد فرميتهم مع المؤمنين حتى انهزم المشركون فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يصلّي فلمّا فرغ

(١) أي شددت المئزر.

(٢) أخرجه البخاري في التمني باب ٤، والجهاد باب ٧٠، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٣٩، ٤٠.

من الصلاة أخبرته الخبر، فقالت أم سلمة فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ صوته ولم ينتبه حتى أذن بلال للصبح فخرج فصلّى بالناس وكانت أم سلمة تقول اللهم ارحم عباد بن بشير. وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ نائماً في خيمته فإذا انتصفت الليل ارتفعت الأصوات وسمعتُ يقولون يا خيل الله اركبوا وكان هذا في تلك الغزوة شعار المهاجرين (وفي رواية كان رسول الله ﷺ قال إذا بيتوا أي الكفار فشعاركم ﴿حمٓ ۝١﴾ لا ينصرون ووجه الجمع أن هذا كان شعار الأنصار وذلك شعار المهاجرين) فانتبه رسول الله ﷺ من النوم وخرج من خيمته على رجال كانوا يحرسون خيمته منهم عباد بن بشير فسأله ما تلك الأصوات وأمر عباداً أن يأتي بالخبر، فذهب عباد وانتظر رسول الله ﷺ حتى أتى وقال يا رسول الله هذا عمرو بن عبد ود مع جمع من المشركين يحاربون مع المؤمنين يترامون بالسهام والحجارة فدخل رسول الله ﷺ خيمته ورفع سلاحه فخرج وركب الفرس وسار إلى المعركة بجمع من الصحابة ثم رجع بعد ساعة فرحان وقال قد ذهب الله بشرهم وانهزم بجراحات كثيرة، فاضطجع رسول الله ﷺ ونام حتى سمعتُ صوت نفسه ثم ارتفعت الأصوات مرةً ثانيةً فانتبه رسول الله ﷺ وقال يا عباد انظر ما تلك الأصوات فذهب عباد ثم رجع وقال يا رسول الله هذا ضرار بن الخطاب بجمع من المشركين يحارب المسلمين بالنبال والحجارة فخرج رسول الله ﷺ وعليه سلاح وذهب هناك وحاربهم حتى أصبحوا، ثم رجع، وقال انهزموا بجراحات كثيرة. قالت أم سلمة كنتُ مع رسول الله ﷺ في غزوة مريسع وخيبر وحديبية وفتح مكة وحنين وما كان شيء منها أشد وأشق على عهد رسول الله ﷺ من غزوة الخندق وأصاب المسلمون في تلك الغزوة جراحات كثيرة وكان برداً شديداً وعسرة.

وروي أن يوماً من الأيام اجتمعت الكفار وأخذوا حوالي الخندق وحاربوا حرباً شديداً حتى غابت الشمس ولم يجد النبيّ ﷺ فرصةً للصلاة حتى فات عنه صلاة الظهر والعصر والمغرب فصلاّها في وقت العشاء، روى الترمذي والنسائي عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود أنه قال إن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء الله فأمر بلالاً فأذّن ثم أقام فصلّى الظهر ثم أقام فصلّى العصر ثم أقام فصلّى المغرب ثم أقام فصلّى العشاء قال الترمذي ليس بإسناده بأس إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه فهو منقطع، وروى النسائي في سننه عن أبي سعيد الخدري قال: «حبسنا يوم الخندق عن الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى كُفينا ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ فقام رسول الله ﷺ فأقام فصلّى الظهر كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلّى العصر كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلّى المغرب كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلّى العشاء كما كان يصليها قبل ذلك وذلك قبل أن ينزل فرجالاً أو ركباناً» رواه ابن حبان في صحيحه ولم يذكر فيه العشاء لأنها كانت في وقتها وذكرها في الرواية الأخرى باعتبار أنها تأخرت عن وقتها المعتاد. وأخرج البزار عن جابر بن عبد الله أنه صلّى

الله عليه وسلم شغل يوم الخندق عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى ذهب ساعة من الليل فأمر بلالاً فأذّن وأقام فصلّى الظهر ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى العصر ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى المغرب ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى العشاء ثم قال: «ما على ظهر الأرض قوم يذكرون الله في هذه الساعة غيركم» وفيه عبد الكريم بن أبي المخارق مضعف. وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله «أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس جعل يسبُّ كفار قريش وقال يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس تغرب، قال النبيّ ﷺ: «والله ما صليتُها» فنزلنا مع النبيّ ﷺ بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلّى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلّى بعدها المغرب» وفي الصحيحين عن عليّ عن النبيّ ﷺ: أنه قال يوم الخندق: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» وفي رواية لمسلم ثم صلاّها بين المغرب والعشاء، وهذه الأحاديث جاز أن يكون وقائع مختلفة لأن أيام وقعة الخندق كانت كثيرة وجاز أن يكون واقعة حال واحد ويمكن الجمع بينها كما لا يخفى.

مسألة: إذا فاتت صلوات يؤذَّن للأولى ثم يقيم لكل صلاة والأولىٰ أن يؤذَّن ويقيم لكل صلاة كما يدل عليه حديث البزار والله أعلم.

ولمَّا اشتد البلاء على المؤمنين دعا رسول الله ﷺ على الكفار فاستجاب الله دعاءه، روى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب قال: «اللّهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللّهم اهزمهم وزلزلهم»[1] قلتُ وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه «أنه صلّى الله عليه وسلّم دعا على الأحزاب ثلاثة أيام متتابعات في مسجد الفتح قيل هو يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء فاستجاب الله دعاءه يوم الأربعاء بين الظهر والعصر فرأينا الفرح في وجهه، قال فما ناب لنا نائبة ودعانا الله تعالى في تلك الساعة إلا استجاب الله دُعاءنا.

قال البغوي: ثم نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني قد أسلمتُ وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرنا بما شئت فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعتَ فإن الحرب خدعة»[2] قلتُ: وفي رواية قال نعيم يا رسول الله ائذن لي أن أقول ما شئت فأذن له، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديم في الجاهلية فقال لهم يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم خاصةً، قالوا: صدقتَ لستَ عندنا بمتهم، فقال لهم إن قريشاً وغطفان جاؤوا للحرب قد ظاهرتموهم عليه وإن قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم البَلَدُ بلدكم به أموالكم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٩٨، والمغازي باب ٢٩، والتوحيد باب ٣٤، والدعوات باب ٥٩، ومسلم في الجهاد حديث ٢١.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ١١٤٠٥، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٢٥.

وأولادكم ونساؤكم ولا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأولادهم ونساؤهم بعيدة إن رأوا نهزةً وغنيمةً أصابوها وإن رأوا غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلُّوا بينكم وبين الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكون بأيديكم ثقة على أن تقاتلوا معكم محمداً حتى تناجزوه[١]، فقالوا لقد أشرتَ بنصح، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي إياكم وبرائي من محمد وقد بلغني أمر رأيتُ حقّاً أن أبلغكم نصحاً لكم فاكتموا عليَّ قالوا نفعل، قال لتعلمن أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أنا ندمنا على ما صنعنا فهل يرضيكم عنا من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكم فيضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم فأرسل إليهم أن نعم فإذا بعثتْ إليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ ولا أراكم تتهموني قالوا صدقتَ قال فاكتموا عليَّ قالوا نفعَل ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

فلمَّا كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان ممَّا صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورقة بن غطفان وعكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة وقالوا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ ممّا بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإنا نخشى إن ضرتكم الحرب واشتد عليكم القتال ترجعون إلى بلادكم وتتركونا والرجال في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد، فلمَّا رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان لتعلمن والله أن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا إلى بني قريظة والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصةً انتهزوها[٢] وإن كان غير ذلك اشمأزوا[٣] إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان أما والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم فخذل الله بينهم وبعث عليهم الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

فلمَّا بلغ إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم

---

(١) المناجزة في الحرب: المبارزة.
(٢) اغتنموها.
(٣) اجتمعوا.

لينظر ما فعل القوم ليلاً، روى محمد بن إسحاق عن زيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي وروى غيره عن إبراهيم التيمي عن أبيه قالا قال فتخامن أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه قال نعم يا ابن أخي قال كيف تصنعون قال والله لقد كنا نجهر، قال الفتى والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا، فقال حذيفة يا ابن أخي والله لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله ﷺ فقال من يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا خبرهم أدخله الله الجنة فما قام منا رجل ثم صلّى رسول الله ﷺ هوياً[1] من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم وما قام منا رجل، ثم صلّى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال من رجل فيقوم فينظر لنا ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلمَّا لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فقال يا حذيفة فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقلت لبيك يا رسول الله وقمتُ حتى أتيتهُ وإن جنبيَّ لتضطربان فمسح رأسي ووجهي ثم قال ائت هؤلاء القوم حتى تأتي بخبرهم فلا تحدثن شيئاً حتى ترجع إليَّ، ثم قال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته» فأخذتُ سهمي وشددتُ عليّ أسلابي ثم انطلقتُ أمشي نحوهم كأني أمشي في حمام فذهبتُ فدخلت في القوم قد أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً وأبو سفيان قاعد يصطلي[2]، فأخذتُ سهمي فوضعتُ في كبد قوسي فأردتُ أن أرميه فلو رميتُه أصبتُه فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لاتحدثن شيئاً حتى ترجع إليَّ» فرددتُ سهمي فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم لا تقرُّبهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً فقام وقال يا معشر قريش ليأخذ كل رجل منكم جليسه فلينظر من هو فأخذتُ بيد جليسي فقلتُ من أنتَ؟ فقال سبحان الله أما تعرفني أنا فلان بن فلان فإذا برجل من هوازن، فقال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام قد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم وسمعتُ غطفان فعلت ما فعلت قريش فاستمروا راجعين إلى بلادهم، قال فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ كأنّي أمشي في حمام فأتيتُه وهو قائم يصلّي فلمّا سلم أخبرتُه بخبر القوم فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل، قال فلمَّا أخبرتُه وفرغتُ وزرت وذهب عني الدفاء أدناني النبيّ ﷺ فأتاني عند رجليه وألقى عليّ طرف ثوبه وألزق صدري ببطن قدميه فلم أزل نائماً حتى أصبحتُ فلما أصبحتُ قال قم يا نومان.

قلتُ وعند ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة لما بعث الله على عسكر المشركين ريحاً

(١) الهوي، بالفتح: الحين الطويل من الزمان، وقيل: هو مختص بالليل.
(٢) الاصطلاء: الاستدفاء بالنار.

وكبَّرت الملائكة في جوانب العسكر قال طليحة بن خويلد الأسدي أمَّا محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجا النجا[(١)] فانهزموا من غير قتال.

قلتُ: قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره إنه لولا كان رسول الله ﷺ رحمة للعالمين ما تركت الريح أحداً من الكفار إلا جعلته كالرميم كما جعلت عاد الريح العقيم، وفي رواية في حديث حذيفة أنه قال لما رجعتُ عن عسكر الكفار إلى رسول الله ﷺ رأيتُ في أثناء الطريق عشرين فارساً بيضاء عمائمهم قالوا لي قل لصاحبك إن الله سبحانه كفاك ودفع عنك شر أعدائك، وروى الشيخان في الصحيحين عن جابر يقول قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «من يأتينا بخبر القوم، فقال الزبير أنا، ثم قال من يأتينا بخبر القوم؟ قال الزبير أنا، ثم قال من يأتينا بخبر القوم؟ قال الزبير أنا، فقال النبيّ ﷺ: «إن لكل نبي حواري وحواري الزبير» وروى البخاري في الصحيح عن سليمان بن صرد يقول سمعتُ رسول الله ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم»[(٢)] وروي أيضاً في الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ «كان إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة ببلدة يكبر ثلاث مرات ثم يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»[(٣)] قال محمد بن عمر استشهد في غزوة الخندق ستة رجال من المسلمين وقتل من المشركين أيضاً ستة.

﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدل من ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾ ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من أعلى الوادي من قبل المشرق وهم أسد وغطفان عليهم مالك بن عوف النظري وعيينة بن حصين الفزاري في ألف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني من بطن الوادي من قبل المغرب وهم كنانة وقريش عليهم أبو سفيان بن حرب في قريش ومن تبعهم وأبو أعور عمرو بن سفيان السلمي من قبل الخندق ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي مالت عن مستوى نظرها حيرةً وشخوصاً[(٤)] من العدو ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ رعباً فإن الرئة تنتفخ من شدة الروع فترتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وهي طرف الحلقوم وهذا مثل يعبر عنه عن شدة الخوف ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أنواعاً من الظن فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه وظن المؤمنون النصر والظفر لما سبقهم من الوعد في إعلاء دينه ولحق ضعاف القلوب التزلزل، قرأ أبو بكر وأهل المدينة وابن عامر الظُّنُونَا الرَّسُولا السَّبِيلاَ بإثبات الألف وصلاً ووقفاً لأنها مثبتة في

(١) النجا: السرعة أي: أسرعوا سرعة.
(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٢٩.
(٣) أخرجه البخاري في العمرة باب ١٢، والجهاد باب ١٣٣، والمغازي باب ٢٩، والدعوات باب ٥٣، ومسلم في الحج حديث ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٢٩.
(٤) شخوص البصر: ارتفاع الأجفان إلى فوق وتحديد النظر.

المصاحف وقرأ أهل البصرة وحمزة بغير ألف في الحالين على الأصل والباقون بالألف في الوقف لموافقة رؤوس الآي واتباع الخط وبغير ألف في الوصل على الأصل.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إمتحنوا ليمتاز المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وهم معقب بن قشير وعبد الله بن أبيّ وأصحابه وإذ بدل من هُنَالِكَ ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد وجبن ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ قال البغوي هذا قول أهل النفاق يعدُنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله هذا والله الغرور، وأخرجه ابن أبي حاتم عن السديّ قال فقال رجل يعني منافق من الأنصار يدعى بشير بن معتب فذكر نحوه ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من المنافقين وهو أوس بن قبطي وأصحابه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني المدينة، وقال أبو عبيدة اسم أرضٍ مدينةُ رسول الله ﷺ في ناحية منها، قال البغوي ورد في بعض الأخبار أن النبيّ ﷺ نهى أن تسمى المدينة يثرب، وقال هي طابة كأنّه كره هذا اللفظ لأنه مشتق من ثربه يثربه وثرّبه وعليه وأثربه لامه وعَيَّره بذنبه والمُثْرب القليل العطاء كذا في القاموس ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ قرأ الجمهور بفتح الميم أي لا موضع قيام لكم هاهنا وقرأ حفص بالضم على أنه مكان أو مصدر من أقام ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم عن القتال ورفاقة محمد ﷺ أولاَ مُقَامَ لَكُم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا أو لا مُقَامَ لَكُم يثرب فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من فاعل يستأذنون ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي غير حصينة يجيء عليها العدو والسارق فكذّبهم الله وقال ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يريدون بذلك القول الكاذب ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ المدينة أي دخل هؤلاء الأحزاب ﴿عَلَيْهِم﴾ في المدينة أو في بيوتهم وحذف الفاعل إيماءً بأن دخول هؤلاء الأحزاب وغيرهم في اقتضاء الحكم المترتب عليه سواء ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي الشرك أو مقاتلة المسلمين ﴿لَـَٔاتَوْهَا﴾ قرأ أهل الحجاز بالقصر أي لجاؤوها وفعلوها والباقون بالمد أي لأعطوا ما سئلوا من الفتنة ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ أي بالفتنة يعني بإتيانها وإعطائها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي زماناً يسيراً يعني زمان السؤال والجواب كذا قال أكثر المفسّرين وقيل معناه ما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا زماناً قليلاً ثم يهلكون أو يجلون، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ غزوة الخندق ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ عدوهم ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي لا ينهزمون قال يزيد بن رومان وهم بنو حارثة هموا يوم أحد أن يقتلوا بني سلمة فلمّا نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها، وقال قتادة هم أناس قد غابوا عن وقعة بدر ولمّا رأوا ما أعطاه الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن اشهدنا الله قتالاً فلنقاتلنَّ فسلق الله إليهم ذلك ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ عن الوفاء به يجازى عليه ﴿قُل﴾ لهم يا محمَّد ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ لأنه من حضر أجله لا بد له من أن يموت سواء بالقتل أو حتف أنفة ومتى لا يحضر أجله لا يموت قطعاً ﴿وَإِذًا﴾ أي إذا فررتم ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا حيّاً ﴿إِلَّا

﴿قَلِيلًا﴾ أي تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً وقيل معناه إن نفعكم الفرار فرضاً فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع إلا قليلاً لكون الدنيا فانية لا محالة ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ أي عذاباً ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ يعني ومن ذا الذي يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمةً فاختصر الكلام كما في قوله متقلداً سيفاً ورمحاً وجاز أن يكون حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ قريباً ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضر.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾
أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ
ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ
يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا
وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا
عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ
بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ
ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا
﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ من التعويق بمعنى التصريف والعوق الصرف والعائق الصارف عن الخير والمراد الذين يصرفون الناس عن ملازمة النبيّ ﷺ وهم المنافقون ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ من ساكني المدينة ﴿هَلُمَّ﴾ أي قربوا أنفسكم ﴿إِلَيْنَا﴾ ودعوا محمداً فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك، قال قتادة هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يثبّطون أنصار النبيّ ﷺ ويقولون لإخوانهم ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس وكانوا لحماً لالتقمه أبو سفيان وأبو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فإنه هالك، وقال مقاتل إن اليهود أرسلت إلى المنافقين وقالوا ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه فإنهم إن قدروا في هذه المرة لم يستبقوا منكم أحداً وأنا مشفق عليكم أنتم إخواننا وجيراننا هلم إلينا فأقبل عبد الله بن أبيّ وأصحابه على المؤمنين يعوّقونهم ويخوّفونهم بأبي سفيان ومن معه وقالوا لئن قدروا عليكم لم يستبقوا منكم أحداً ما ترجون من محمد ما عنده خير ما هو إلا أن يقتلنا هاهنا انطلقوا بنا إلى إخواننا يعنون اليهود فلم يزدادوا المؤمنون بقول المنافقين إلا إيماناً واحتساباً فنزلت تلك الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ﴾ أي المنافقون ﴿ٱلْبَأْسَ﴾ أي الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إتياناً ﴿قَلِيلًا﴾ أو زماناً أو بأساً قليلاً فإنهم كانوا

يعتذرون ويثبّطون المؤمنين ما أمكن لهم أو يخرجون مع المؤمنين ولكن لا يقاتلون إلا قليلاً رياءً وسمعةً من غير احتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً، وقيل إنه تتمة كلامهم ومعناه ولا يأتي محمد وأصحابه حرب الأحزاب ولا يقادمونهم إلا قليلاً.

﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح ونصبها على الحال من فاعل يأتون أو المعوقين أو على الذم يعني بخلاً ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالمعاونة أو النفقة في سبيل الله أو الظفر والغنيمة ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم من الخوف ﴿يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كنظر المغشي عليه أو كدوران عينيه أو مشبهين وشبهة بعينيه وذلك أن من قرب موته وغشيه أسبابه يذهب عقله ويشخص أبصارهم لشدة الخوف ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ قال ابن عباس يعني نقصوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة، وقيل آذوكم ورموكم في حالة الأمن وقال قتادة بسطوا ألسنتهم منكم وقت قسمة الغنيمة يقولون أعطونا قد شهدنا معكم القتال فلستم أحق منا بالغنيمة ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ نصب على الحال أو الذم وليس بتكرير لأن كلًّا منهما مقيد من وجه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بقلوبهم ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني أبطل الله أعمالهم يعني لم يعتد بها لعدم الإخلاص وحسن النية وإنما الأعمال بالنيات كذا قال مجاهد ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيّناً لأن تعلق الإرادة يكفي لوجود كل ممكن لأراد لفعله ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي هؤلاء لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم يذهبوا ففروا إلى داخل المدينة ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرّة ثانيةً ﴿يَوَدُّواْ﴾ تمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ يعني لو ثبت أنهم خارجون إلى البدو يقال بدا يبدا بدواً وبداوةً إذا خرج إلى البادية ﴿فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾ حال من الضمير في بادون أو خبر بعد خبر لأن أي كائنون في الإعراب ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم من المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي عما جرى عليكم جملة يسألون خبر بعد خبر أو حال مترادف أو متداخل وجواب لو محذوف يعني لكان خيراً ﴿وَلَوْ كَانُواْ﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿فِيكُم﴾ ولم يفروا من عندكم في هذه الكرة وكان قتال ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وخوفاً من التعيير كذا، قال مقاتل ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي رَسُولِ[1] ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأسوة معناه القدوة وهو ما يقتدى به والمراد هاهنا أن لكم في شأن رسول الله خصلة حسنة من حقها أن يؤسى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، أو هو يعني رسول الله ﷺ لكم قدوة يحسن التأسي به كقولك في البيضة عشرون منّاً حديد أي من في البيضة هذا القدر من الحديد، وقيل هو فعلة من الايتساء كالقدوة من الاقتداء اسم وضع موضع المصدر أي لكم برسول الله اقتداء حسن أي تنصرون دين الله كما هو ينصر وتصبرون على ما يصيبكم

---

(١) عن ابن عباس أن عمر أكب على الركن فقال إني لأعلم أنك حجر ولو لم أر حبيبي صلى الله عليه وسلم قبّلك واستلمك ما استلمتك ولا قبّلتك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. وعن يعلى بن منبه قال طفت مع عمر فلما كنت عند الركن الذي يلي الباب مما يلي الحجر أخذت بيده ليستلم قال ما طفت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت بلى قال فهل رأيته يستلمه قلت لا قال فابعد عنك فإن لك في رسول الله أسوة حسنة ـ منه رحمه الله ـ.

كما هو يصبر كما فعل هو إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقُتِل عمه وأوذي بضروب الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم أيضاً كذلك واستنوا بسنته ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ أي يرجو ثواب الله ولقائه ونعيم الآخرة كذا قال ابن عباس أو أيام الله واليوم الآخر خصوصاً وهذا كقولك أرجو زيداً وفضله، وقال مقاتل أي يخشى الله ويخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال وقوله ﴿لِّمَن كَانَ﴾ صلة لحسنة أو صفة لها، وقيل بدل من لكم والأكثر على أن الضمير المخاطب لا يبدل منه ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في السراء والضراء قرن بالرجاء كثرة الذكر المؤدي إلى دوام الطاعة فإن المؤسى بالرسول من كان كذلك.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بقوله تعالى في سورة البقرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤] إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] فإن الآية يتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء ولعل رسول الله ﷺ أخبرهم بوقعة الأحزاب قبل وقوعه ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فيما أخبر به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ تحزب الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ أي تصديقاً بما جاء به الرسول عليه السلام ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمره وقدره

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي قاموا بما عاهدوا رسول الله من الثبات معه في القتال مع أعداء الدين من صدقني إذا قال لك الصدق فإن العاهد إذا وفى بعهده فقد صدق فيه ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي فرغ من نذره ووفى بعهده فلم يبق في ذمته شيء ما عاهده يعني صبر على الجهاد والطاعة حتى استشهد أو مات والنحب النذر والنحب أيضاً الموت يقال قضى نحبه أي أجله فقتل على الوفاء يعني حمزة وأشباهه، وقيل قضى نحبه أي بذل جهده في الوفاء بالعهد من قول العرب نَحِبَ فلان في مسيرة يومه وليلته أجمع ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ والفراغ من نذره يرجو أن يموت على الوفاء ﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ العهد ولا غيروه ﴿تَبْدِيلًا﴾ شيئاً من التبديل، روى الشيخان والترمذي وابن أبي شيبة والطيالسي وابن سعد والبغوي عن أنس بن مالك أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك غاب عن بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلمّا كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال أنس بن النضر اللهم إني أعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء يعني أصحابه وأبرأ أليك مما فعل هؤلاء يعني المشركين فانتهى إلى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم فقال ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل القوم، فلقيه سعد بن معاذ دون أحد فقال سعد إنا معك قال سعد فاستقبل أنس القوم فلم أستطع أن أصنع ما صنع أنس فقال يا سعد (وفي لفظ يا أبا عمرو) هالريح الجنة ورب النضر إني لأجد ريحها دون أحد، ثم تقدم فقاتل حتى قتل فوجدوا في جسده بضعاً وثمانين ضربة من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، قال أنس ووجدنا قد مثل به المشركون فما عرفه أحدٌ منّا إلا أخته بشامَّة ببنانه فكنا نرى أو نظنُّ أن هذه نزلت فيه وفي

أشباهه ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾. وروى البغوي عن خباب بن الأرت قال هاجرنا مع رسول الله ﷺ فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد فلم نجد شيئاً نكفن فيه إلا نمرة فكنا إذا وضعنا على رأسه خرجت رجلاه وإذا وضعنا على رجليه خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ: «ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه الإذخر» ومنا من انبعث له ثمرته فهو يهديها، وروى الترمذي عن جابر بن عبد الله قال نظر رسول الله ﷺ إلى طلحة بن عبيد الله فقال: «من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي على وجه الأرض وقد قضى نحبه[١] فلينظر إلى هذا»[٢]، وروى البخاري عن قيس بن حازم قال رأيتُ يد طلحة شلاء وقى بها النبيَّ ﷺ يوم أحد[٣]، وروى الترمذي وابن حبان والحاكم وغيرهم من حديث الزبير مرفوعاً «أوجب طلحة»[٤] ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في العهود ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ أي جزاء صدقهم أو بسبب صدقهم وهو الوفاء بالعهد ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ أن يموتوا على الكفر والنفاق فيعذبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا وأخلصوا دينهم لله قوله: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ متعلق بقوله صدقوا ما عاهدوا الله تعليل للمنطوق والمعرض به كأنَّ المنافقين قصدوا بالتبديل التعذيب كما قصد المخلصون بالوفاء الثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي الأحزاب من قريش وغطفان ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي كائنين بغيظهم متغيظين لعدم نيلهم بما أرادوا ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ﴾ أي ظفراً ولا مالاً حال بعد حال يتداخل أو يعاقب ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ بالريح والملائكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ في ملكه على إحداث ما يريده ﴿عَزِيزًا﴾ في انتقامه ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم﴾ أي عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهم بنو قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حصونهم جمع صيصة وهي ما يحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبي وشوكة الديك والحائك صئصة ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي الخوف ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال فعند ابن إسحاق أنهم كانوا ست مائة وبه جزم أبو عمرو في ترجمة سعد بن معاذ وعند ابن عائذ من مرسل قتادة كانوا سبع مائة، وقال السهيلي المكثر يقول إنهم ما بين ثمان مائة إلى تسع مائة وفي حديث جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح إنهم كانوا أربع مائة مقاتل فيحتمل في طريق الجمع أن

---

(١) عن عيسى بن طلحة قال دخلت على عائشة أم المؤمنين وعائشة بنت طلحة وهي تقول لأسماء بنت أبي بكر أنا خير منك وأبي خير من أبيك فجعلت أسماء تشمها وتقول أنت خير مني فقالت عائشة ألا أقضي بينكما قالتا بلى قال فإن أبا بكر دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنت عتيق من النار قالت فمن يومئذ سمي عتيقاً ثم دخل طلحة فقال انت يا طلحة من قضى نحبه ـ وأخرج الترمذي عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول طلحة ممن قضى نحبه ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٢١.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي باب ١٨، وابن ماجه في المقدمة باب ١١، وأحمد في المسند ١/ ١٦١.

(٤) أخرجه الترمذي في الجهاد باب ١٧، والمناقب باب ١٧، وأحمد في المسند ١/ ١٦٥.

يقال إن الباقين كانوا اتباعاً وقد حكى ابن إسحاق أنه قيل إنهم كانوا تسع مائة ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذراري وكانوا سبع مائة وخمسين، وقيل تسع مائة وذكر في سبيل الرشاد أن السبي كان ألفاً من النساء والصبيان ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ مزارعهم ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ حصونهم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ من النقود والأجناس والمواشي ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ بعد.

قال مقاتل وابن زيد يعني خيبر، وقال قتادة كنا نحدث أنها مكة، وقال الحسن فارس والروم، وقال عكرمة كل أرض يفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدر على ذلك.

قصة غزوة بني قريظة: قال محمد بن عمر عن شيوخه لما انصرف المشركون عن الخندق خاف بنو قريظة خوفاً شديداً وروى أحمد والشيخان مختصراً والبيهقي والحاكم وصححه مطولاً عن عائشة وأبو نعيم والبيهقي من وجه آخر عنها وابن عابد عن حميد بن هلال وابن جرير عن ابن أبي أوفى والبيهقي عن عروة وابن سعد عن الماجشون وعن يزيد بن الأصم ومحمد بن عمر عن شيوخه أن رسول الله ﷺ والمسلمين لمَّا رجعوا عن الخندق مجهودين وضعوا السلاح ودخل رسول الله ﷺ بيت عائشة ودعا بماء فأخذ يغسل رأسه، وذكر البغوي أنه ﷺ كان عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه، وقد غسلت شقه، قالت عائشة فسلّم علينا رجل ونحن في البيت، قال محمد بن عمر ووقف موضع الجنائز فنادى عذيرك[١] من محارب فقام رسول الله ﷺ فزعاً فوثب وثبةً شديدةً فخرج إليه فقمت في أثره أنظر من خلل الباب فإذا هو دحية الكلبي فيما كنت أرى وهو ينفض الغبار عن رأسه (فقال ابن إسحاق معتجراً[٢] بعمامة) فقال يا رسول الله ما أسرع ما حللتم عذيرك من محارب عفا الله عنك قد وضعتم السلاح ما وضعت الملائكة منذ نزل بك العدوُّ وفي لفظ منذ أربعين ليلة وما رجعنا الآن إلا من طلب القوم حتى بلغنا حمراء الأسد، يعني الأحزاب وقد هزمهم أن الله يأمرك بقتال بني قريظة وأنا عامد إليهم بمن معي من الملائكة لأزلزل بهم الحصون فأخرج بالناس، قال حميد بن هلال فقال رسول الله ﷺ إن في أصحابي جهداً فلو أنظرتهم أياماً فقال انتهض إليهم فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا[٣] ثم لأضعضعنَّها، قالت عائشة فلمَّا دخل رسول الله ﷺ قلت من ذاك الرجل الذي كنت تكلمه قال ورأيته قلتُ نعم قال بمن تشبهيه؟ قلتُ بدحية الكلبي قال ذاك جبرئيل أمرني أن أمضي إلى بني قريظة، قال حميد فأدبر جبرئيل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار، قال أنس فيما رواه البخاري كأنّي أنظر إلى الغبار ساطعاً[٤]، وقال قتادة فيما رواه ابن عابد أن رسول الله ﷺ

(١) يعني هات من يعذرك فعيل بمعنى الفاعل.

(٢) الاعتجار: لف العمامة دون التلحي.

(٣) الحجارة.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي باب ٣٠.

بعث يومئذٍ منادياً ينادي يا خيل الله اركبي[١] وأمر بلالاً فأذَّن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة، وروى الشيخان عن ابن عمر والبيهقي عن عائشة وابن عقبة والطبراني عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «عزمتُ عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر»[٢] ووقع في مسلم في حديث ابن عمر «صلاة الظهر إلا ببني قريظة» فأدرك بعضهم صلاة العصر وفي لفظ صلاة الظهر في الطريق فقال بعضهم لا نصليها حتى نأتي بني قريظة إنا لفي عزيمة رسول الله ﷺ وما علينا من إثم فصلوا العصر ببني قريظة حين وصلوها بعد غروب الشمس، وقال بعضهم بل نصلّي لم يرد منا أن ندع الصلاة فصلوا فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فلم يعنف واحداً من الفريقين.

فائدة: وجه الجمع بين حديث صلاة الظهر وصلاة العصر أن طائفة منهم راحت بعد طائفة قيل للطائفة الأولى لا يصلين الظهر إلا ببني قريظة وقيل للطائفة الأخرى لا يصلين العصر، وقيل في وجه الجمع أنه ﷺ قال لأهل القوة أولمن كان منزله قريباً لا يصلين أحد الظهر وقال لغيرهم أحد العصر.

مسألة: هذا الحديث يدل على أن المجتهد لا إثم عليه إن أخطأ حيث لم يَعنف رسول الله ﷺ على أحد من الفريقين من صلّى في الطريق ومن لم يصل، قال في زاد المعاد ما حاصله أن كُلاً من الفريقين مأجور بقصده إلا أن صلّى في الطريق جاز الفضيلتين فضيلة امتثال الأمر في الإسراع في المشي إلى بني قريظة لأن المراد بأمره ﷺ أن لا يصلوا إلا في بني قريظة المبالغة في الإسراع مجازاً وفضيلة امتثال الأمر في المحافظة على الوقت والله أعلم.

ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فدفع إليه لواءه وكان اللواء على حاله لم يحل عن مرجعه من الخندق فابتدره[٣] الناس، قال محمد بن عمرو بن سعد وابن هشام والبلاذري استعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، قال محمد بن عمرو خرج رسول الله ﷺ لسبع بقين من ذي القعدة، قال البغوي سنة خمس من الهجرة ولبس السلاح والدرع والمغفر والبيضة وأخذ قناه[٤] بيده وتقلد الترس وركب فرسه اللحيف وحف به أصحابه قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل وكانت ستة وثلاثين فرساً فسار في أصحابه والخيل والرحال حوله قال ابن سعد وكان معه ثلاثة آلاف.

مسألة: هذه القصة تدل على جواز البداية بالقتال في الشهر الحرام لكن خطبته ﷺ في حجة الوداع وفيها المنع من القتال في الأشهر الحرام متأخر عنه ولعل الله سبحانه أحل

---

(١) يعني: يا ركبان الخيل اركبوا.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٩٧٣٧، وابن كثير في البداية والنهاية ٤/١١٧.

(٣) سارعوا إليه.

(٤) الرمح.

لرسوله ذلك القتال في أشهر الحرم كما أباح له القتال في حرم مكة من النهار عام الفتح، ويمكن أن يقال إن هذا ليس بداية بالقتال بل كانت البداية من بني قريظة حيث ظاهروا قريشاً ومن معهم والله أعلم.

روى الطبراني عن أبي رافع وابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أتى بني قريظة ركب على حمار عري يقال له يعفور والناس حوله، وروى الحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن عائشة ومحمد بن عمرو عن شيوخه وابن إسحاق أن رسول الله ﷺ مرَّ بنفر من بني النجار بالصَّورَيَن[1] فيهم حارثة بن النعمان قد صفوا عليهم السلاح فقال هل مرّ بكم أحد؟ قالوا نعم دحية الكلبي مرَّ على بغلة عليها رحاله عليها من استبرق وأمرنا بحمل السلاح فأخذنا سلاحنا فصففنا وقال هذا رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن، قال حارثة بن النعمان وكنا صفين فقال رسول الله ﷺ ذاك جبرئيل بعث إلى بني قريظة لتزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم وسبق علي بن أبي طالب في نفر من المهاجرين والأنصار وفيهم أبو قتادة. روى محمد بن عمر عن أبي قتادة قال انتهينا إلى بني قريظة فلمَّا رأونا أيقنوا بالشر وغرز عليٌّ الراية عند أصل الحصن فاستقبلونا في صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه قال أبو قتادة وسكتنا وقلنا السيف بيننا وبينكم، وانتهى رسول الله ﷺ ونزل قريباً من حصنهم على بئر أُنا[2] بأسفل حرَّة بني قريظة فلمَّا رآه علي رضي الله عنه رجع إليه وأمرني أن ألزم اللواء فلزمته وكره أن يسمع رسول الله ﷺ إذا هم وشتمهم فقال يا رسول الله لا عليك أن لا تدنوا من هؤلاء الأخابيث فقال أتأمرني بالرجوع فقال أظنك سمعت منهم أذًى قال نعم فقال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فسار رسول الله ﷺ وتقدَّمه أسيد بن حضير فقال يا أعداء الله لا نبرح عن حصونكم حتى تموتوا جوعاً إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر، فقالوا يا ابن الحضير نحن مواليك دون الخزرج فقال لا عهد بيني وبينكم ولا إلَّ.

ودنا رسول الله ﷺ وترسنا عنه ونادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم، فقال أجيبوا يا أخوة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت هل أخزاكم الله أنزل بكم نقمته أتشتموني فجعلوا يحلفون ما فعلنا ويقولون يا أبا القاسم ما كنتَ جهولاً وفي لفظ ما كنت فاحشاً، وإجتمع المسلمون عند رسول الله ﷺ عشاءً وبعث سعد بن عبادة بأحمال تمر لرسول الله ﷺ فكان طعامهم قال رسول الله ﷺ: «نعم الطعام التمر» وغدا رسول الله ﷺ سحراً وقدَّم الرماة فأحاطوا بحصون يهود وراموهم بالنبل والحجارة وهم يرمون من حصونهم حتى أمسوا فباتوا حول الحصون وجعل المسلمون يعتقبون يعقب بعضهم بعضاً

---

(١) الصوريين: تثنية صور، بالفتح ثم السكون: اسم للنخل المجتمع الصغار، وموضع في أقصى بقيع الغرقد.

(٢) أُنا: بالضم وتخفيف النون، وقيل: بالفتح والتشديد: كحتى.

فما برح رسول الله ﷺ براميهم حتى أيقنوا الهلكة وتركوا رمي المسلمين، فقالوا دعونا نكلمكم فقال رسول الله ﷺ: نعم، فأنزلوا نباش بن قيس فكلم رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على مانزلت عليه بنو النضير من الأموال والحلقة ونخرج من بلادك بالنساء والذراري ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة فأبى رسول الله ﷺ، فقالوا تحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه، وعاد نباش إليهم بذلك فلمّا عاد نباش إلى قومه وأخبرهم الخبر قال كعب بن أسد يا معشر بني قريظة والله قد نزل بكم ما ترون وإني أعرض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا ما شئتم منها قالوا وما هي؟ قال نبايع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي وما منعنا معه من الدخول إلا الحسد للعرب حيث لم يكن نبيّاً من بني إسرائيل فهو حيث جعله الله تعالى، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد والعقد ولكن البلاء والشؤم من هذا الجالس يعني حيي بن أخطب (وكان حيي دخل معهم في حصنهم حين رجعت منهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه) أتذكرون ما قال لكم ابن جَوَّاس حين عليكم تركت الخمُر والحمير والتأمير وحنت إلى الشفاء والتمر والشعير قالوا وما ذاك؟ قال إنه يخرج بهذه القرية نبي فإن يخرج وأنا حي أتبعه وأنصره وإن خرج بعدي فإياكم أن تخدعوا عنه فاتبعوه وكونوا أنصاره وأولياءه وقد آمنتم بالكتابين كلاهما الأول والآخر اقرئوه مني السّلام وأخبروه أني مصدق به.

قال فتعالوا فلنبايعه ولنصدقه فقالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، قال فإذا أبيتم على هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مُصَلتين بالسيوف لم نترك ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا فصلاً نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء قالوا لا نقتل هؤلاء المساكين فما خير في العيش بعدهم، قال فإن أبيتم عن هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فأنزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرةً قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان من قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ، فقال ما بات منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدةً من الدهر جازماً، فقال ثعلبة وأسيد ابنا سَعْيَة وأسد بن عبيد ابن عمهم وهو نفر من هذيل ليسوا من بني قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك وهو بنو عم القوم يا معشر بنو قريظة والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله وإن صفته عندنا حدثنا بها علماؤنا وعلماء بني النضير هذا أولهم يعني حيي بن أخطب مع خبر بن الهَيَّانِ أصدق الناس عندنا هو أخبر بصفته عند موته قالوا لا نفارق التوراة فلما رأى هؤلاء النفر آباءهم نزلوا تلك الليلة في صبحها فأسلموا وآمنوا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وقال عمرو بن سعد يا معشر يهود إنكم خالفتم محمداً على ما خلفتموه عليه فنقضتم عهده الذي كان بينكم وبينه ولم أدخل فيه ولم أشرككم في غدركم فإن أبيتم فاثبتوا على اليهودية

وأعطوا الجزية فوالله ما أدري يقبلها أم لا، قالوا فنحن لا نقر للعرب بخرج[١] في رقابنا يأخذونه القتل خير من ذلك قال فإني بريء منكم وخرج تلك الليلة مع ابني سعية فمرَّ بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد بن مسلمة فقال محمد من هذا قال عمرو بن سعد، قال محمد اللّهم لا تحرمني عشرة الكرام وخلّي سبيله فخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات حتى أصبح فلمَّا أصبح غداً فلم يدر أين هو حتى الساعة فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال ذاك رجل نجاه الله بوفائه.

قال أهل المغازي: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة (أحد بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس) نستشير في أمورنا فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوا أقام إليه الرجال وجهش[٢] إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقّ لهم، فقالوا يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي حتى عرفتُ أني خنتُ الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد على عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني حتى أموت أو يتوب الله على ما صنعتُ وعاهدتُ الله أن لا أطأ أرض بني قريظة أبداً أو لا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً وبلغ رسول الله ﷺ ذهابي وما صنعتُ، فقال دعوه حتى يحدث الله فيه ما شاء لو كان جاءني استغفرتُ فإذا لم يأتني وذهب فدعوه وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧] قال أبو لبابة ثم إن الله أنزل توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة فسمعتُ رسول الله ﷺ يضحك فقلتُ بم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟ قال تيب على أبي لبابة فقلتُ ألا أبشره بذلك؟ قال بلى إن شئتِ قالت فقمت إلى باب حجرتي (وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب) فقلت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فثار[٣] الناس ليطلقوه قال لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده فلمَّا مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى الصبح أطلقه، روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين عليهما السلام أن فاطمة عليها السلام جاءت تحله فقال إني حلفتُ أن لا تحلني إلا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إن فاطمة بضعة مني» علي بن جدعان ضعيف ورواية علي بن الحسين مرسلة، قال أبو لبابة وأذكر رؤيا رأيتُها في النوم ونحن محاصرون بني قريظة كأني في حماة أسنة[٤] فلم أخرج منها حتى كدت أموت من ريحها ثم أرى نهراً جارياً فأراني اغتسلتُ فيه حتى استقيتُ أراني أجد ريحاً طيباً

(١) خرج وخراج ما يؤدى كل سنة.
(٢) أسرع متباكياً.
(٣) أي قاموا.
(٤) طين أسود متغيرة.

فاستعبرتُها أبا بكر فقال لتدخلن في أمر تغتم له ثم يفرج عنك فكنتُ أذكر قول أبي بكر وأنا مرتبط فأرجو أن ينزل الله توبتي، قال فلم أزل كذلك حتى ما أسمع الصوت من الجهد ورسول الله ﷺ ينظر، قال ابن هشام أقام مرتبطاً ست ليال تأتيه امرأته وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلّي ثم ترتبط، (قال ابن عقبة زعموا أنه ارتبط قريباً من عشرين ليلة قال في البداية وهذا أشبه الأقاويل وقال ابن إسحاق أقام مرتبطاً خمساً وعشرين ليلة وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة أو أراد أن يذهب لحاجته فإذا فرغ أعادت الرباط والظاهر أن زوجته تحله مرة وابنته أخرى وأنزل الله في توبة أبي لبابة ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢].

قال البغوي: وحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب فلما جهدهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ فكتفوا رباطاً وجعل على كتافهم محمد بن سلمة ونحوا ناحية وأخرج النساء والذرية من الحصون واستعمل عليهم عبد الله بن سلام، وجمعت أمتعتهم ووجدوا فيها ألفاً وخمس مائة سيف وثلاث دروع وألفي رمح وألفاً وخمس مائة ترس وجحفةً وأثاثاً كثيراً وآنية كثيرة وخمراً وسكراً فهريق ذلك كله ولم يخمسه ووجد من الجمال النواضح عدة ومن الماشية شيئاً كثيراً فجمع هذا كله وتنحى رسول الله ﷺ وجلس، ودنت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله حلفاؤنا دون الخزرج وقد رأيتَ ما صنعت ببني قينقاع بالأمس حلفاء ابن أبيّ وهبتَ لهم ثلاث مائة حاسر[(١)] وأربع مائة دارع[(٢)] وقد ندم حلفاءنا على ما كان من نقضهم العهد فهبهم لنا ورسول الله ﷺ ساكت لم يتكلم حتى أكثروا عليه وألحُّوا فقال رسول الله ﷺ أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم قالوا بلى قال فذلك إلى سعد بن معاذ وقال ابن عقبة قال رسول الله ﷺ اختاروا من شئتم من أصحابي فاختاروا سعد بن معاذ، وكان سعد بن معاذ، قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده ﷺ وكانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة الذي ليس له من يقوم بأمره وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب، فلمَّا جعل رسول الله ﷺ الحكم إلى سعد خرجت الأوس حتى جاؤوه فحملوه على حمار عربي بشنذة[(٣)] من ليف وعلى الحمار قطيفة فوق الشَنَذَة وخطامه[(٤)] من ليف وكان رجلاً جسيماً فخرجوا حوله يقولون يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاّك أمر مواليك لتحسن فيهم فأحسن فيهم فقد رأيت ابن أبيّ وما صنع في حلفائه وأكثروا وهو ساكت لا يتكلم حتَّى إذا أكثروا عليه قال قد آن[(٥)] لسعد أن لا

---

(١) من لا درع له. (٢) صاحب درع.

(٣) الشنذة، بشين معجمة، فنون فذال مفتوحات: شبه الإكاف يجعل لمقدمته اعوجاج.

(٤) الخطام: ما يقاد به الدابة.

(٥) بالفتح والمد دنا وقرب.

يأخذه في الله لومة لائم، فقال الضحاك بن خليفة بن ثعلبة الأنصاري واقوماه وقال غيره نحو ذلك ثم رجع الضحاك إلى الأوس فنعى بهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد كلمته التي سمع منه.

وفي الصحيحين فلما دنا سعد من المسجد أي الذي كان رسول الله ﷺ أعده في بني قريظة أيام حصارهم للصلاة قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» وفي لفظ «إلى خيركم» فأما المهاجرون من قريش فيقولون إنما أراد الأنصار وأما الأنصار فيقولون عم بها رسول الله ﷺ المسلمين وعند أحمد «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» وكان رجال من بني عبد الأشهل يقولون قمنا له على أرجلنا صفين وفي حديث جابر عند ابن عائذ قال رسول الله ﷺ: «احْكُم فيهم يا سعد» فقال الله ورسوله أحق بالحكم، قال عليه السلام أمَرَك الله أن تحكم فيهم، وقالت الأوس الذين بقوا عنده يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك الحكم في أمر مواليك فأحسن فيهم فقال سعد أترضون حكمي لبني قريظة، قالوا نعم قد رضينا بحكمك وأنت غائب اختياراً منا لك ورجاءً أن تمنَّ علينا كما فعل غيرك بحلفائه بني قينقاع وآثرنا عندك أثرنا وأحوج ما كان اليوم إلى مجازاتك فقال سعد ما أتوكم جهداً فقالوا ما يعني بقوله هذا، ثم قال سعد عليكم عهد الله وميثاقه أن أحكم فيهم ما حكمتُ قالوا نعم قال سعد وعلى من هاهنا للناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عنها إجلالاً لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ نعم، قال سعد فإني أحكم فيهم أن يقتل كل من جرين عليه الموسى وتسبى النساء والذرية وتقسم أموالهم ويكون الديار للمهاجرين والأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[1]» وفي رواية قال عليه السلام: «بذلك طرقني الملك سَحَراً» وكان سعد بن معاذ في الليلة التي في صبحتها نزلت بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ قد دعا اللّهم إن كنت أبقيتَ من حرب قريش فأبقني لها فإني لا قوم أحبّ إليَّ أن أقاتلهم من قوم كذبوا رسولك وأذوه وأخرجوه وإن كانت الحرب قد وضعت أوزارها عنّا وعنهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة فأقر الله سبحانه عينيه منهم.

فانصرف رسول الله ﷺ يوم الخميس لتسع ليال وقيل لخمس خلون من ذي الحجة وأمر بهم رسول الله ﷺ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث من بني النجار، فلمَّا أصبح رسول الله ﷺ غدا إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم فأمر بأخدود فخدت في السوق ما بين موضع دار أبي الجهم العدوي إلى أحجار الزيت بالسوق فكان أصحابه يحضرون وجلس رسول الله ﷺ ومعه أصحابه ودعا برجال بني قريظة فكانوا يخرجون يضرب أعناقهم في تلك الخنادق، فقالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً يا كعب ما ترى محمداً يصنع بنا؟ قال ما يسوءكم ويلكم على كل حال لا تعقلون ألا ترون الداعي

---

(١) السموات قال ابن الأعرابي: سموا بالرقيع لأنها مرقوعة بالنجوم.

لا ينزع وإنه من ذهب منكم لا يرجع هو والله السيف قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم قالوا ليس هذا بحين عتاب لولا أنا كرهنا أن نرمي برأيك ما دخلنا في نقض العهد الذي كان بيننا وبين محمد، قال حيي بن أخطب اتركوا التلاوم فإنه لا يرد عنكم شيئاً وأصبوا للسيف وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما ثم أتى حيي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه عليه حلة فقاحية قد لبسها للقتل، ثم عمد إليها فشقها أنملة أنملة لئلا يسلبه إياها أحد فقال رسول الله ﷺ حين اطلع ألم يمكنني الله منك يا عدو الله؟ قال بلى والله أنا ما لمتُ نفسي في عداوتك وقد التمستُ العز في مظانه فأبى الله إلا أن يمكنك مني ولقد قلقلتُ كل مقلقل ولكنه من يخذل الله يُخْذَل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدره ملحمة على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ أحسنوا أساراهم وأقيلوهم واسقوهم حتى يبردوا فاقتلوا من بقي لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السيف وكان يوماً صائفاً فقيلوهم وسقوهم فلمَّا أبردوا راح رسول الله ﷺ فقتل من بقي وأتى رسول الله ﷺ بكعب بن أسد فقال رسول الله ﷺ ما تنفعتم بنصح ابن جَوَّاس لكم وكان مصدقاً بي أما أمركم باتباعي وإن رأيتموني أن تقرئوني منه السلام قال بلى والتوراة يا أبا القاسم ولولا أن يعيرني اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك ولكنه على دين يهود قال رسول الله ﷺ قدمه فاضرب عنقه وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت منهم.

روى أحمد وأصحاب السنن، عن عطية القرظي قال كنتُ غلاماً فوجدوني لم أنبت فخلّوا سبيلي، وروى الطبراني عن أسلم الأنصاري قال جعلني رسول الله ﷺ على أسارى بني قريظة فكنتُ أنظر إلى فرج الغلام فإن رأيته أنبت ضربتُ عنقه وإن لم أره جعلته في مغانم المسلمين وكان رفاعة بن شمول القرظي رجلاً قد بلغ فلاذ بسلمى بنت قيس أم المنذر أخت سليط بن قيس وكانت إحدى خالات النبي ﷺ يعني خالة جده عبد المطلب فإن أمه كانت من بني النجار وكانت سلمى قد صلّت للقبلتين، فقالت يا نبي الله بأبي أنت وأمي هب لي رفاعة فإنه زعم سيصلّي ويأكل لحم الجمل فوهبه لها فاستحيته فأسلم بعد، ولم تزل ذلك الدأب حتى قتلوا إلى أن غاب الشفق ثم رد عليهم التراب في الخندق كل ذلك بعين سعد بن معاذ فاستجاب الله دعوته رضي الله عنه، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة من بني النضير يقال لها بنانة كانت تحت رجل من بني قريظة يقال له الحكم وكان يحبها وتحبه فلما اشتد عليهم الحصار بكت إليه وقالت إنك لمفارق فقال هو والتوراة ما ترين وأنت امرأة فدلّي عليهم هذه الرحى فإنا لم نقتل منهم أحداً بعد وأنتِ امرأة وإن يظهر محمد علينا فإنه لا يقتل النساء وإنما أكره أن تُسبى فأحِبُّ أن تقتل، وكانت في حصن الزبير بن باطا فَدَلَّت الرحى من فوق الحصن وكان المسلمون ربما جلسوا تحت الحصن يستظلون في فيئه فلمَّا رآها القوم انفضوا وتدرك خلاد بن سويد فتشدخ رأسه ومات، روى عروة عن عائشة أنها قالت والله إنها لعندي تحدث وتضحك ظهراً لبطن ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف وفي رواية وهي تقول سراة بني قريظة يقتلون إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت أنا

والله قلتُ ويلك مالكِ قالت اقْتَلُ، قلتُ لِمَ؟ قالت حدث أحدثتُه، قالت فانطلقت فضرب عنقها بخلاد بن سويد وكانت عائشة تقول لا أنسى طيب نفس بنانة كثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل.

مسألة: هذا الحديث حجة لمن حكم بالقصاص على القتل بالمثقل وعليه الجمهور، وقال أبو حنيفة لاقصاص بالمثقل ولو رماه بأبي قبيس لقوله ﷺ «لا قود في النفس وغيره إلا بحديدة»(١) وقد مرَّ الخلاف في هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾.

وروى محمد بن إسحاق عن الزهري أن الزبير بن باطا القرظي وكان يكنى أبا عبد الرحمن قدم على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بعاث لأخذه فجر ناصيته ثم خلّى سبيله فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال ثابت يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال وهل يجهل مثلي لمثلك قال إني أريد أن أجزيك بيدك عندي، قال إن الكريم يجزي، قال ثم أتى ثابتٌ رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله قد كان للزبير عندي يد وله عليّ منة فأحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه فقال رسول الله ﷺ هو لك، فأتاه فقال له إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أهله وولده قال فهم لك، فأتاه فقال له إن رسول الله ﷺ أعطاني امرأتك وولدك فهم لك، قال أهل بيت في الحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله ﷺ، فقال: ما له يا رسول الله قال: هو لك، فقال إن رسول الله ﷺ أعطاني مالك فهو لك، فقال أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية(٢) حسنة يتراءى فيه عذار الحي كعب بن أسد، قال قتل، قال فما فعل سيد الحاضر والبادي سيد الحيَّيْن كليهما يحملهم في الحرب ويطعمهم في المحل حيي بن أخطب؟ قال قتل، قال فما فعل مقدمتنا(٣) إذا شددنا وحاشيتنا إذا كررنا عزّالة بن شمول؟ قال قتل، قال فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة؟ وبني عمرو بن قريظة قال ذهبوا فقتلوا، قال فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت إلا ما ألحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير ارجع إلى دار قد كانوا حلولاً فيها فاخلد فيها بعدهم لا حاجة لي في ذلك ولكني يا ثابت انظر إلى امرأتي وولدي فاطلب إلى صاحبك فيهم أن يطلقوا وأن يردوا أموالهم فطلب ثابت من النبيّ ﷺ أهل الزبير وماله وولده فرد رسول الله ﷺ أهله وماله إلا السلاح، قال الزبير يا ثابت أسألك بيدك عندي إلا ألحقتني بالقوم فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح(٤) حتى ألقى الأحبة، قال ابن

---

(١) أخرجه الزيلعي في نصب الراية ٤/ ٦٤٣.

(٢) منسوبة إلى الصين. (٣) مقدمة الحرب: أوله.

(٤) فتلة دلو ناضح قال ابن اسحاق بالفاء والتاء الفوقانية أي مقدار ما يأخذ الرجل الدلو الذي خرجت من البئر فيصبها في الحوض ثم يفتلها أي يردها إلى موضعها. وقال ابن هشام إنما هو بالقاف والموحدة =

إسحاق فقدمه ثابت فضرب عنقه وقال محمد بن عمر قال ثابت ما كنت لأقتلك قال الزبير لا أبالي من قتلني فقتله الزبير بن العوام رضي الله عنه، ولمَّا بلغ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قوله «ألقى الأحبة» قال يلقاهم في نار جهنم خالداً مخلدا.

ثم قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأموالهم على المسلمين وكان أول فيء وقع فيه السهمان وكان المسلمون ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثين وكان سهمان الخيل والرجال على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهماً للفرس سهمان ولصاحبه سهم، وقاد رسول الله ﷺ ثلاثة أفرس فلم يضرب السهم إلا لفرس واحد، وهذا حجة لأبي حنيفة ومالك والشافعي حيث قالوا لاسهم إلا لفرس واحد وقال أبو يوسف ومحمد وأحمد يسهم لفرسين ولا يسهم لأكثر من ذلك إجماعاً وقد مرَّ المسألة في سورة الأنفال، وأسهم رسول الله ﷺ لخلاد بن سويد وقد قتل تحت الحصن وأسهم لسنان بن محصن ومات ورسول الله ﷺ محاصرهم وكان يقاتل مع المسلمين، وهذا حجة للأئمة الثلاثة حيث قالوا الغنيمة لمن شهد الوقعة وإن مات قبل هزيمة الكفار وإحراز الغنيمة بدار الإسلام وقد روى ابن أبي شيبة بسند صحيح الغنيمة لمن شهد الوقعة موقوفاً على عمر وأخرجه الطبراني مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أصح وروى الشافعي موقوفاً على أبي بكر وفيه انقطاع وقال أبو حنيفة لا يتأكد الحق في الغنيمة إلا بالإحراز بدار الإسلام فمن مات أو قتل قبل الإحراز لا سهم له ولا يورث منه، والمدد إذا لحق بدار الحرب بعد الوقعة قبل الإحراز بدار الإسلام يسهم لهم وقد مر مسألة المدد في سورة الأنفال.

مسألة: وفي هذه القصة حجة للجمهور على أبي حنيفة حيث قالوا للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه، وقال أبو حنيفة سهم له وسهم لفرسه وقد مرَّ المسألة في سورة الأنفال والله أعلم.

مسألة: الغنيمة لمن شهد الوقعة وإن مات قبل الإحراز.

مسألة: أعطى النساء اللاتي حضرن القتال ولم يسهم لهنَّ.

فائدة: أخذ رسول الله ﷺ من السبي خمساً فكان يعتق ويهب منه من أراد وكذلك النخل عزل خمسه وكل ذلك يسهم عليه خمسة أجزاء وصار الخمس إلى محمية بن جز الزبيدي، ثم قسم أربعة أخماس على الناس وأعطى رسول الله ﷺ النساء اللآتي حضرن القتال ولم يسهم لهن وهن صفية بنت عبد المطلب وأم عمارة نسية وأم سليط وأم العلاء الأنصارية والسميري بنت قيس وأم سعد بن معاذ وكبشة بنت رافع، وبعث رسول الله ﷺ طائفة مع السبايا مع سعد بن عبادة يشتري بهم سلاحاً وخيلاً كذا قال محمد بن عمر. وقال ابن إسحاق بعث سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي بسبايا من بني قريظة فابتاع لهم بها خيلاً

= وقال بل الدلو هو الذي يأخذها من المستقى ـ ولفظ الخبر عن أبي عبيد فلست صابراً عنهم إفراغه دلواً ـ ١٢ ـ نوّر الله مرقده ـ.

وسلاحاً، واشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف طائفة فاقتسما يقال لما قسم جعل الشوابّ على حدة والعجائز على حدة ثم خير عبد الرحمن عثمان فأخذ العجائز فربح عثمان مالاً كثيراً وذلك لأنه كان يوجد عند العجائز من المال ولم يوجد عند الشواب، قال ابن سيرة وإنما يؤخذ ما جاءت به العجائز فيكون في الغنيمة لأنه لم يوجد معهن إلا بعد شهر أو شهرين، وجعل عثمان على كل من اشتراه من سبيهم شيئاً موقتاً فمن جاء منهن بالذي وقت لهن عتق فلم يتعرض لهن، ونهى رسول الله ﷺ أن يفرق في القسم والبيع بين النساء والذرية وقال: «لا يفرق بين الأم وولدها حتى يبلغ» قيل يا رسول الله ما بلوغه قال: «تحيض الجارية، ويحتلم الغلام»(١) رواه الحاكم وصححه، عن عبادة بن الصامت عنه ﷺ قال «لا تفرقوا بين الأم وولدها»، فقيل إلى متى؟ قال «إلى أن يبلغ الغلام وتحيض الجارية»(٢) وقال ابن الجوزي قال الدارقطني في سنده عبد الله بن عمر بن حسان ضعيف الحديث رواه علي بن المديني بالكذب، وروى الترمذي عن أبي أيوب الأنصاري قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»(٣) وقال الترمذي حديث حسن غريب وصححه الحاكم على شرط مسلم، وفيه نظر لأن في سنده حيي بن عبد الله ولم يخرجه في الصحيح واختلف فيه ولذا لم يصححه الترمذي، وروى الحاكم في المستدرك عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ «ملعون من فرق بين والدة وولدها»(٤) وقال إسناده صحيح وفيه طليق بن محمد يرويه تارة عنه عن عمران بن حصين وتارة عنه عن أبي بردة وتارة عن طليق عن النبيّ ﷺ مرسلاً.

قلتُ: ويمكن الجمع بأن طليقاً لعله سمعه عمران وعن أبي بردة كليهما فيرويه تارةً عنه وتارةً عنه وتارةً مرسلاً، وقال ابن القطان لا يصح الحديث لأن طليقاً لا يعرف حاله، قال ابن همام يريد خصوص ذلك وإلا فللحديث طرق كثيرة وشهرة وألفاظه توجب صحة المعنى المشترك وهو منع التفريق، وروى الدارقطني بسنده عن ميمون بن أبي شعيب عن علي عليه السلام أنه فرق بين جارية وولدها فنهاه النبيّ ﷺ عن ذلك فرد البيع، ورواه أبو داود ورده بالانقطاع بين ميمون بن أبي شعيب وعلي، قال ابن الهمام إن الإرسال عندنا لا يضر ورواه الحاكم وصحح إسناده ورجحه البيهقي.

مسألة: ومن ههنا قال أبو حنيفة لا يجوز أن يفرق بالبيع أو الهبة أو نحوهما بين مملوكين صغيرين وكذا بين صغير وكبير يكون بينهما رحم ومحرمية وكذا بين كبيرين كذلك عند أحمد، وقال مالك لا يفرق بين الأم وولدها خاصة، وقال الشافعي لا يفرق بين صغير

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/ ٤٣٤.
(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٣) أخرجه الترمذي في السير باب ١٧.
(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٢٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥، والدارقطني في سننه ٣/ ٦٧.

وبين أبويه وإن عليا، وجه قول مالك أن الحديث المذكور ورد في المنع من التفريق بين الأم وولدها خاصةً وألحق الشافعي بالأم الأصول مطلقاً، ووجه قول أبي حنيفة وأحمد في المنع من التفريق بين اثنين بينهما رحم ومحرمية أن في بعض الأحاديث ورد المنع في غير الأصول والفروع أيضاً عن علي عليه السّلام قال وهب لي رسول الله ﷺ غلامين أخوين فبعتُ أحدهما فقال رسول الله ﷺ: «يا علي ما فعل غلامك» فأخبرته، قال: «رده رده»[١] قال الترمذي حديث حسن غريب وتعقبه أبو داود، بأنه من رواية ميمون بن أبي شعيب عن علي وهو لم يدرك عليّاً قلنا فهو مرسل والمرسل عندنا حجة، وأخرجه الحاكم والدارقطني من طريق آخر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي قال قدم على النبيّ ﷺ سبيٌ فأمرني ببيع أخوين فبعتهما وفرقتُ بينهما ثم أتيتُ النبيّ ﷺ فأخبرته فقال: «أدركهما فارتجعهما ولا تبعهما إلا جميعاً ولا تفرق بينهما»[٢] وصححه الحاكم على شرط الشيخين ونفى ابن القطان العيب عنه، وقال هو أولى ما اعتمد عليه في هذا الباب ومن طريق آخر عند أحمد والبزار قال ابن همام فيه انقطاع لكن لا يضر على أصلنا على ما عرف، وروى الدارقطني عن طليق بن عمران عن أبي بردة عن أبي موسى قال لعن رسول الله ﷺ من فرق بين الوالدة وولدها وبين الأخ وأخيه، وإذا ثبت المنع من التفريق بين أخوين أيضاً ظهر أن علة المنع الرحم مع المحرمية ولا يمنع من التفريق المحرمية بالرضاع ونحو ذلك ولا رحم بلا محرمية كابن العم لأنه ليس في معناه.

مسألة: من فرق بين والدة وولدها يأثم لكن ينعقد البيع وينفذ عند أبي حنيفة ومحمد وعند مالك والشافعي وأحمد لا ينعقد بل هو باطل وكذا لا ينعقد البيع في غير قرابة الولاد أيضاً عند أحمد، وقال أبو يوسف يفسد البيع في قرابة الولاد خاصة وعنه أنه يفسد مطلقاً سواء كان قرابة ولاد أو غيرها ومبنى الخلاف على خلافية أصولية فإن النهي عن الشرعيات بلا قرينة يوجب البطلان عندهم ويوجب الفساد عند أبي حنيفة وصاحبيه، لكن أبا حنيفة ومحمداً قالا إن النهي في هذا البيع إنما هو لمعنًى مجاور كالبيع وقت أذان الجمعة فلا يوجب الفساد بخلاف ما كان لوصف لازم، وجه قول أبي يوسف إنه ﷺ أمر عليّاً برد البيع والارتجاع وذا لا يمكن إلا عند فساد العقد وحمل أبو حنيفة الارتجاع على طلب الإقالة.

مسألة: يجوز التفريق إن كانا بالغين كما يدل عليه حديث عبادة بن الصامت، وقال أحمد لا يجوز عملاً بإطلاق الأخبار المذكورة، وردَّ ابن الجوزي حديث عبادة كما ذكرنا، ولنا أيضاً حديث سلمة بن الأكوع قال خرجنا مع أبي بكر فغزونا فزارة إلى إن قال فجئتُ بهم إلى أبي بكر وفيهم امرأة معها ابنة لها من أحسن العرب فنفلني أبو بكر ابنتها فقدمتُ

---

(١) الترمذي في البيوع باب ٥٢، وابن ماجه في التجارات باب ٤٦، وأحمد في المسند ١/١٠٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٩٨، ١٢٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/١٥٧، والحاكم في المستدرك ٢/٥٤، والدارقطني في سننه ٣/٦٦.

المدينة فقال النبيّ ﷺ: «يا سلمة هب لي المرأة» قلتُ هي لك، ففدى بها أسارى ثلاثة، وما روي أنه ﷺ فرق بين مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وسيرين أختها أهداهما المقوقس ملك الإسكندرية إلى رسول الله ﷺ فوهب رسول الله ﷺ سيرين لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن بن حسان، ذكر الحديث ابن عبد البر في الاستيعاب وذكر البزار أن هذا الحديث في صحيح ابن خزيمة والله أعلم.

مسألة: الصغير إذا سبي مع أحد والديه كافر يعتبر كافراً وإن سبي لا مع أحدهما يعتبر مسلماً.

مسألة: إذا كان مع الصغير أبواه لا يبيع واحداً منهم ولو كان أم وأخ أو أم وعمة أو خالة أو أخ جاز البيع سوى الأمر في ظاهر الرواية لأن شفقة الأم تغني عمن سواه، ولو كان له ستة إخوة ثلاثة كبار وثلاثة صغار فباع مع كل صغير كبيراً جاز، ولو كان مع الصغير جدة وعمة وخالة جاز بيع العمة والخالة ولو كان معه عمة وخالة بدون جدة لا يباع إلا معاً، والأصل أنه إذا كان معه عدد بعضهم أبعد من بعض جاز البيع سوى الأقرب وإن كانوا في درجة واحدة فإن كانوا من جنسين مختلفين كالأب والأم والخالة والعمة لا يفرق بل يباع الكل أو يمسك الكل وإن كانوا من جنس واحد كالأخوين والعمين جاز أن يمسك مع الصغير واحداً عنهم ويبيع ما سواه والله أعلم.

مسألة: ذكر في سبيل الرشاد أنه كان يباع الأمر وولدها الصغار من سبي بني قريظة من اليهود ومن المشركين من العرب وإذا كان الولد صغيراً ليس معه أو لم يبع من المشركين ولا من اليهود إلا من المسلمين وذا لأن الصغير إذا سبى مع أحد أبويه يعتبر كافراً فيجوز بيعه من الكافر مشركاً كان أو يهودياً فإن الكفر ملة واحدة، وإن سبى (مع أحد أبويه يعتبر مسلماً بتبعية الدار والله أعلم واستشهد يوم بني قريظة خلاد بن سويد ومنذر بن محمد.

فائدة: اصطفى رسول الله ﷺ لنفسه ريحانة بنت زيد بن عمرو بن حذافة من بني النضير المتزوجة في بني عمرو بن قريظة وكانت جميلة فعرض عليها الإسلام فأبت فعزلها ووجد في نفسه فأرسل إلى ابن سعية، فذكر له ذلك فقال ابن سعية فداك أبي وأمي هي تسلم فخرج حتى جاءها فجعل يقول لها لا تبتغي قومِك فقد رأيتِ ما أدخل عليهم حيي بن أخطب فأسلمي يصطفيك رسول الله ﷺ فأجابت إلى ذلك، فبينا رسول الله ﷺ في أصحابه إذ سمع وقع نعلين فقال إن هاتين لنعلا ابن سعية يبشرني بإسلام ريحانة فجاءه فقال يا رسول الله ﷺ لقد أسلمتْ ريحانة، فسرَّ رسول الله ﷺ بذلك وكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله ﷺ يحرص عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركني في مِلكك فهو أخف عليَّ وعليك فتركها والله أعلم.

فائدة: ولمَّا انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ، قالت عائشة فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء

عمرو إني لفي حجرتي وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾.

مسألة: جواز البكاء على ميت صالح.

مناقب سعد بن معاذ

عن أنس قال لمَّا حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون ما أخف جنازته وذلك لحكمه في بني قريظة فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال: «إن الملائكة كانت تحمله»(١) رواه الترمذي، وعن جابر قال سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»(٢) متفق عليه، وعن البراء بن عازب قال أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يمسونها ويتعجبون من لينها فقال: «أتعجبون من لين هذا لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»(٣) متفق عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

ذكر البغوي وغيره أن أزواج النبيّ ﷺ سألنه من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهم على بعض فهجرهن رسول الله ﷺ وآلى أن لا يقربهن شهراً ولم يخرج إلى أصحابه، فقالوا ما شأنه وكانوا يقولون طلّق رسول الله ﷺ نساءه، فقال عمر لأعلمكم ما شأنه فدخلت على رسول الله ﷺ فقلتُ يا رسول الله أطلّقتَ نساءك؟ قال لا، قلتُ يا رسول الله إني دخلتُ المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله ﷺ فأخبرهم أنك لم تطلقهن، قال نعم إن شئتَ، فقمتُ على باب المسجد فناديتُ بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ [النساء: ٨٣] فكنتُ أنا استنبطتُ ذلك الأمر

---

(١) أخرجه الترمذي حديث ٣٨٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ١٢، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ١٢، والأيمان باب ٣، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٢٦.

فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي السعة والتنعم فيها وزخارفها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أصل تعال أن يقوله من كان في مكان مرتفع لمن كان في مكان دونه ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة كلها بمعنى أقبِل إليَّ والمعنى هاهنا أقبلن بإرادتكن واختياركن لطلب الطلاق ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي أعطكن المتعة ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي أطلقن ﴿سَرَاحًا﴾ طلاقاً ﴿جَمِيلًا﴾ من غير ضرار ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ﴾ أي مراتب القرب إلى الله ومرضاته وقرب ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ ونعماء ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ﴾ يعني لمن أرادت رضوان الله ورسوله والدار الآخرة فإنها هي المحسنة إذ الإحسان أن تعبد ربك بالحضور كأنك تراه ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال البغوي وكانت تحت رسول الله ﷺ يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وأم سلمة بنت أمية وسودة بنت زمعة، وأربع من غير قريش زينب بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية وجويرية بنت الحارث المصطلقية، ولمَّا نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ورأت الفرح في وجه رسول الله ﷺ وتابعنها على ذلك، قال قتادة: فلمَّا اخترن الله ورسوله شكرهن على ذلك وقصره عليهن فقال: (لا يحل لك النساء من بعد).

أخرج مسلم وأحمد والنسائي من طريق أبي الزبير عن جابر قال أقبل أبو بكر ليستأذن على رسول الله ﷺ فلم يؤذن له ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه واجماً[١] ساكتاً، قال فقال عمر لأقولن شيئاً أضحك النبيّ ﷺ، فقال لو رأيتَ بنت خارجة تسألني النفقة فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها فضحك رسول الله ﷺ وقال هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقولان لا تسألنَّ رسول الله ﷺ أبداً ما ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً وتسعاً وعشرين ثم نزلت هذه الآية، قال فبدأ بعائشة قال «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحبُّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك»، فقالت وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآيات، فقالت أفيك يا رسول الله أستشير أبويَّ بل أختارُ الله ورسوله والدار الآخرة أسألك أن لا تخبر امرأةً من نسائك، قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتُها أن الله لم يبعثني جحوداً ولا مفتناً ولكنه بعثني مبشراً معلماً»[٢]. وفي الصحيح عن الزهري أن النبيّ ﷺ أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهراً قال الزهري فأخبرني عُروة عن عائشة قالت، فبدأني فقلت يا رسول الله إنك أقسمت أن لاتدخل علينا شهراً فإنك بتسع وعشرين

(١) الوَجِم ككتف صاحب العبوس المطرق لشدة الحزن وَجَمَ كَوَعَدَ وَجماً وَوُجوماً سكت على غيظه ـ ١٢ ـ قاموس منه رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق حديث ٢٩، وأحمد في المسند ٣/ ٣٢٨.

أعدهن قال: «إن الشهر تسع وعشرون»(١).

فائدة: قال البغوي اختلف العلماء في هذا الخيار هل كان ذلك تفويض الطلاق حتى يقع الطلاق بنفس اختيارها نفسها أم لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم أنه لم يكن تفويض الطلاق بل خيرهن في طلب الطلاق فإن اخترن الدنيا فارقهن بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق لو اخترن أنفسهن كان طلاقاً.

مسألة: إذا قال الزوج لامرأته اختاري ونوى بذلك أن تطلق نفسها إن شاءت فلها أن تطلق نفسها ما دامت في المجلس فإن قامت منه أو أخذت في عمل آخر خرج الأمر من يدها لأنه تمليك الفعل منهياً والتمليكات يقتضي جواباً في المجلس كما في البيع، قال صاحب الهداية لها خيار المجلس بإجماع الصحابة رضي الله عنهم، وقال ابن همام قال ابن المنذر اختلفوا في الرجل يخير زوجته؟ فقالت طائفة أمرها بيدها في المجلس فإن قامت من مجلسها فلا خيار لها روينا هذا القول عن عمر بن الخطاب وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم وفي أسانيدها مقال وبه قال جابر بن عبد الله وبه قال عطاء ومجاهد والشعبي والنخعي ومالك وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرازي، وقالت طائفة أمرها بيدها في المجلس وبعدها وهو قول الزهري وقتادة وأبي عبيدة وابن نصر قال ابن المنذر وبه نقول لقوله ﷺ لعائشة «لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» وحكى صاحب المغني هذا القول من الصحابة عن علي رضي الله عنه وأجاب ابن الهمام عن قول ابن المنذر أن الرواية عن علي لم يستقر فقد روى عنه قول الجماعة كذا نص محمد في بلاغاته حيث قال بلغنا عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وجابر رضي الله عنهم في الرجل يخير امرأته أن لها الخيار ما دامت في مجلسها ذلك فإذا قامت من مجلسها فلا خيار لها ولم يرو عن غيره من الصحابة ما يخالف ذلك فكان إجماعاً سكوتياً، وقوله في أسانيدها مقال لا يضر بعد تلقي الأمة بالقبول مع أن رواية عبد الرزاق عن جابر وابن مسعود جيدة، وأما التمسك بقوله ﷺ «لا تعجلي» فضعيف لأنه ليس في الآية تخيير الطلاق وتفويضه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

مسألة: لا بد من النية في قوله اختاري لأنه يحتمل تخيرها في نفسها ويحتمل تخيرها في تصرف آخر غيره.

مسألة: إذا قال الزوج اختاري فقالت اخترتُ نفسي فالمروي عن عمر وابن مسعود وابن عباس أنها تقع واحدة رجعية وبه أخذ الشافعي وأحمد لأن قوله اختاري بمنزلة قوله طلقي نفسك، وقولها اخترتُ نفسي بمنزلة قوله طلقتُ نفسي والواقع بها رجعي إجماعاً وبأن

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان باب ٢٠، والنكاح باب ٨٣، ٩١، ٩٢، ومسلم في الرضاع حديث ٩٧، والطلاق حديث ٣٢.

الكتاب دل على أن الطلاق يعقب الرجعة إلا الثالث، وروي عن زيد بن ثابت أنه يقع الطلقات الثلاث وبه أخذ مالك في المدخول بها وفي غيرها يقبل منه دعوى الواحدة. وجه قول زيد أن اختيارها يقتضي ثبوت اختصاصها بها بحيث لا يكون لزوجها إليها سبيل من غير رضاءها وإلا لا يحصل فائدة التخيير إذا كان له أن يراجعها في الحال شاءت أو أبت وذلك الاختصاص لا يتصور إلا في البائن والطلاق يعقب الرجعة بالكتاب إلا أن يكون ثلاثاً فيقع الثلاث، وثبت عن علي رضي الله عنه أن الواقع به واحدة بائنة وبه قال أبو حنيفة رحمه الله لما ذكرنا أن اختصاصها بنفسها لا يتصور إلا بالبينونة والبينونة قد يكون بواحدة إجماعاً كالطلاق بمال والطلاق قبل الدخول فيحمل عليه لحصول المقصود ولا وجه لجعله ثلاثاً بعد حصول المقصود بواحدة، وقد روى الترمذي عن ابن مسعود وعمر أن الواقع بها بائنة كما روى عنهما الرجعية فاختلف الرواية عنهما، قلتُ البينونة يتنوع إلى غليظة وخفيفة فإن نوى بها الزوج الغليظة لا بد أن يقع به ثلاثاً، لكن أبا حنيفة رحمه الله يقول إن قوله اختاري لا يدل على البينونة بل يفيد الخلوص والصفاء والبينونة يثبت فيه اقتضاءً فلا يعم بل يقدر بقدر الضرورة بخلاف أنتِ بائن ونحوه فلا يقع الثلاث بقوله اختاري وإن نوى الثلاث لأن النية إنما تعمل فيما يحتمله اللفظ ويقع بقوله أنتِ بائن ثلاثاً إن نوى الثلاث وبخلاف قوله اختاري اختاري لأن تعدد اللفظ يدل على تعدد المقصود.

مسألة: لو قالت اخترتُ زوجي بعدما قال لها اختاري لا يقع شيء عند الجمهور لأن الزوج لم يطلقها بل جعل أمرها باختيارها وهي لم تختر الطلاق بل اختارت إبقاء النكاح، وعن علي رضي الله عنه أنه يقع رجعية كأنه جعل نفس اللفظ إيقاعاً، قال ابن همام لكن قول عائشة «خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ولم يعُدَّه علينا شيئاً»[1] رواه الستة، وفي لفظ الصحيحين «فلم يعدد» يفيد عدم وقوع شيء كما قاله الجمهور، قلتُ لما ذكرنا فيما سبق أن تخيير أزواج النبيّ ﷺ لم يكن تخييراً للطلاق بل كان تخييراً في طلب الطلاق فلا يكون قول عائشة حجت على ما قاله الجمهور والله أعلم.

مسألة: ولا بد من ذكر النفس في كلامه أو كلامها حتى لو قال اختاري فقالت اخترتُ لا يقع الطلاق لأن هذا اللفظ ليس لفظاً للطلاق فكان القياس أن لا يقع بها شيء لأن التمليك فرع ملك المملك والزوج لا يملك إيقاع الطلاق بهذا اللفظ لكنا تركنا القياس وقلنا بوقوع الطلاق باختيارها بإجماع الصحابة والإجماع إنما هو في المفسّر من أحد الجانبين بالنفس، ولأن قوله اختاري مبهم يحتمل تخيرها في نفسها وتخيرها في تصرف آخر غيره، والمبهم لا يصلح تفسيراً للمبهم ولا تعيين مع الإبهام، ولمَّا كان وقوع الطلاق بقوله اختاري معدولاً عن سنن القياس مقتصراً على مورد الإجماع لا يكتفي بالنية وإن كان مع القرينة الحالية دون المقالية لعدم الإجماع هُناك، وقال الشافعي وأحمد يكتفى بالنية مع

(١) أخرجه البخاري في الطلاق باب ٥، ومسلم في الطلاق حديث ٢٦ ـ ٣٠، (الرضاع ٩١ ـ ٩٥).

القرينة الحالية بعد أن نوى الزوج وقوع الطلاق به وتصادقا عليه وقال أبو حنيفة النية بدون احتمال اللفظ يلغو وإلا لوقع بمجرد النية مع لفظ لا يصلح له أصلاً كاسقني وإنما تركنا القياس بموضع الإجماع، قلتُ لكن قوله النية بدون احتمال اللفظ يلغو ليس في محله فإن لفظ اختاري واخترتُ بدون ذكر النفس يحتمل تخيرها الطلاق واختارها إياه وغير ذلك وإن لم تكن نصّاً فيه ولذلك لو قال اختاري فقالت اخترتُ نفسي يقع الطلاق إن نوى الزوج لأن كلامها مفسرة وما نواه الزوج من محتملات كلامه، وكذا لو قال اختاري اختياره فقالت قد اخترتُ طلقت أيضاً لأن الهاء في اختياره ينبيء عن الاتحاد والانفراد واختيارها نفسها يتحد مرة ويتعدد أخرى فصار مفسراً من جانبه.

مسألة: ولو قال الزوج اختاري فقالت أنا أختار نفسي فهي طالق والقياس أن لا يطلق لأن هذا مجرد وعد أو يحتمله فصار كما إذا قال طلقي نفسك فقالت أنا أطلق نفسي، قال صاحب الهداية وجه الاستحسان قول عائشة لا بل اختار الله ورسوله واعتباره ﷺ جواباً منها، لا يقال ذكر فيما سبق أن قصة عائشة لم يكن تخيراً في التطليق بل في طلب الطلاق لأنا نقول مقصودنا يحصل باعتباره ﷺ جواباً للاختيار سواء كان الاختيار متعلقاً بالتطليق أو طلب التطليق، ولأن قولها أنا أختار نفسي حكاية عن حالة قائمة وهو اختيار نفسها بخلاف قولها أطلق نفسي لأن حمله على الحال متعذر لأنه ليس حكاية عن حالة قائمة والله أعلم.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قال ابن عباس أراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر نضعف بالنون على التكلم وكسر العين وتشديدها بغير ألف من التفعيل والعَذَابَ بالنصب على المفعولية، والباقون بالياء التحتانية على الغيبة وفتح العين على صيغة المجهول وَالعَذَابُ بالرفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله فيقرأ أبو جعفر وأبو عمرو(١) بتشديد العين بلا ألف من التفعيل والباقون بالتخفيف والألف من الأفعال ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي ضعفي عذاب غيرهن والضعف من الألفاظ المتضايفة التي يتوقف فهمه على شيء آخر كالنصف والزوج وهو تركب قدرين متساويين ومعنى أضْعَفْتُ الشيء وضَعَّفْتُه واحد وهو ضممتُ إليه مثله وكذا ضاعفتُه، والضعفين المثلين الذين يضم أحدهما إلى صاحبه كالزوجين فإن أحدهما يضاعف الآخر ويزاوجه، وقد يطلق الضعف على مجموع المثلين كما في قوله تعالى حكاية عن الاتباع من الكفار ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] من النار أي مثلي ما نحن فيه من العذاب لأنهم ضلوا وأضلونا.

وإذا أضيف الضعف إلى عدد يراد به ذلك العدد مع مثله فضعف عشرة عشرون وضعف مائة مائتان وضعف الواحد اثنان وإذا أضيف الضعفين إلى واحدٍ يثلثه، وفي القاموس ضعف الشيء مثله وضعفاه مثلاه أو الضعف المثل إلى ما زاد يقال لك ضعفه

(١) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

يريدون مثليه وثلاثة أمثال لأنه زيادة غير محصورة، وفسّر الجزري في النهاية الضعف الواقع في حديث أبي الدحداح بأنه مثلي الآخر وقال يقال إن أعطيتني درهماً فلك ضعفه أي درهمان وربما قالوا فلك ضعفاه وقيل ضعف الشيء مثله وضعفاه مثلاه، وقال الزهري الضعف في كلام العرب المثل فما زاد وليس بمقصود على مثلين فأقل الضعف محصور في الواحد وأكثره غير محصور ومنه الحديث: «تضعف صلاة الجماعة على صلاة الفذ خمساً وعشرين درجة»[١] وقال الله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٣] أي يزاد عليها يقال ضعَّفتُ الشيء وأضعفتُه وضاعفتُه إذا زدتَه، قال البغوي ضَعَّفَ وضَاعَفَ لغتان مثل بعَّدَ وباعد، قال أبو عمرو وأبو عبيد ضعَّفتُه إذا جعلتَه مثليه وضاعفتُه إذا جعلتَه أمثاله، وشدد أبو عمرو هاهنا لقوله تعالى: ضعفين وقوله تعالى ضعفين منصوب على المفعولية لأن التضعيف والمضاعفة يتضمنان معنى التصيير أو على المصدرية من قبيل ضربته ضربتين أو ضربتُه سوطين أو على الحال من العذاب ووجه تضعيف العذاب أن الذنب منهن مع توافر النعمة أقبح ولذلك جعل حد الحر ضعف حد العبد ولأن في صدور الذنب منهن هتك حرمة مصاحبة سيّد البشر ﷺ وذلك أشد وأقبح ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي تضعيف العذاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ جملة معترضة ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ القنوت الطاعة قرأ يعقوبُ مَن تَأتِ وتَقنُتْ بالتاء[٢] الفوقانية فيهما نظراً إلى المعنى والباقون بالياء التحتانية نظراً إلى كلمة مَن يعني من يدم على الطاعة ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ﴾ قرأ حمزة والكسائي[٣] بالياء التحتانية حملاً على لفظة من والباقون بالتاء الفوقانية، نظراً إلى المعنى ﴿صَٰلِحًا﴾ منصوب على المصدرية أو المفعولية ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي مثلي أجر غيرها مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضاء النبيّ ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة قال مقاتل مكان كل حسنة عشر حسنات، قرأ حمزة والكسائي[٤] يُؤتِهَا بالياء التحتانية على أن فيه ضمير اسم الله تعالى والباقون بالنون على التكلم ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي جليل القدر وهو الجنة زيادةً على أجرها قلتُ وذلك لأنهن يرزقن بمتابعة النبيّ ﷺ ما يرزق النبيّ ﷺ.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ﴾ أي ليست كل واحدة منكن أو المعنى لم توجد جماعة واحدة من جماعات النساء مثلكن في الفضل ﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وجملة لستن تعليل لمضمون ما ذكر وأصل أحد وحد بمعنى الواحد ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير قال ابن عباس أي ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم عليَّ وثوابكن أعظم لَدَيَّ، هذه الآية تدل على فضلهن على سائر النساء ويعارضها

---

(١) روي الحديث بلفظ: «تفضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ خمساً وعشرين درجة» أخرجه بهذا اللفظ أحمد في المسند ٢/ ٥٢٥.

(٢) هذا ليس بشيء، بل قرأهما يعقوب بالياء كالجمهور ـ أبو محمد رحمه الله ـ.

(٣) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٤) وخلف ـ أبو محمد ـ.

قوله تعالى في حق مريم ابنة عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] والقول بأن المراد من نساء العالمين نساء زمانه يأباه ما رواه الترمذي عن أنس أن النبيّ ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ وآسية امرأة فرعون»[١] فالواجب أن يقال إن النساء في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ من حيث إنكن أزواج سيد البشر ﷺ يعني ليست أحد من النساء شريكة لكُنَّ في هذا الفضل، والجمهور على أن أفضل نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ وخديجة بنت خويلد خير نساء الرسول الله ﷺ ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وعائشة الصديقة بنت الصديق الأكبر حبيبة رسول الله ﷺ، روى الشيخان في الصحيحين وأحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[٢] وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»[٣] وفي رواية كريب وأشار وكيع إلى السماء والأرض، وفي الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة قالت قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين»[٤] وعن حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قط قبل هذه ا لليلة استأذن ربه أن يسلم عليَّ ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[٥] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب.

﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفة حكم الله ورضاء رسوله شرط استغنى عن الجزاء بما مضى ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ الفاء للسببية يعني إذا ثبت فضلكن على سائر النساء بشرط التقوى فلا بد أن لا يظهر منكن ما ينافي التقوى من الخضوع بالقول للرجال يعني أن تكلم المرأة مع الرجل الأجنبي كلاماً ليناً بما تطمعه منها، وذكر الجزري في النهاية نهى رسول الله ﷺ أن يخضع الرجل لغير امرأته أن يلين لها بالقول بما يطمعها منه والخضوع الانقياد والمطاوعة وذكر أيضاً في النهاية أن رجلاً مرّ في زمان عمر رضي الله عنه برجل وامرأة قد خضعا بينهما حديثاً فضربه حتى شجه فأهدره عمر رضي الله عنه أي ليّنا بينهما الحديث وتكلما بما يطمع

---

(١) أخرجه الترمذي حديث ٣٨٧٨، وأحمد في المسند ٣/ ١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣٢، ٤٦، وفضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٣٠، والأطعمة باب ٢٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٥، ٤٦، والنكاح باب ١٢.

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ٤٣، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٩٨، ٩٩، وأحمد في المسند ٦/ ٢٨٢.

(٥) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٣٠.

كُلاً منهما من الآخر، وروى الطبراني بسند حسن عن عمرو بن العاص أن النبيّ ﷺ «نهى أن يكلم النساء إلا بإذن أزواجهن»[١] وروى الدارقطني في الأفراد عن أبي هريرة أنه ﷺ «نهى أن يتمطى الرجل في الصلاة أو عند النساء إلا عند امرأته وجواريه»[٢] ﴿فَيَطْمَعَ﴾ في الفجور منصوب في جواب النهي بأن المقدرة بعد الفاء ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي شائبة من النفاق فإن المؤمن الكامل الذي مطمئن بالإيمان ويرى برهان ربه لا يطمع فيما حرمه الله تعالى والذي إيمانه ضعيفٌ كان فيه شائبة النفاق يشتهي إلى ما حرم الله عليه، وفي غير المتواتر من القراءة فيطمع مجزوم عطفاً على محل النهي فهو نهي لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول.

مسألة: المرأة مندوبة إلى الغلظة في المقال إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يعني ما يعرفه حسناً بعيداً من الريبة ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ نافع وعاصم[٣] بفتح القاف من قَرَّ يَقَرُّ بكسر العين في الماضي وفتحها في الغابر أصله اقْرَرْنَ حذفت الراء الأولى ونقلت حركتها إلى القاف واستغنى عن همزة الوصل والباقون بكسر القاف من قَرَّ يَقِرُّ قَراراً بفتح العين في الماضي وكسرها في الغابر وهما لغتان فيه ومعناهما واحد وكذا تعليلهما واحدة، أمر بالقرار في البيوت وعدم الخروج بقصد المعصية كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ فإنه عطفٌ تفسيري وتأكيد معنًى وليس في الآية نهي عن الخروج من البيت مطلقاً وإن كان للصلاة أو الحج أو لحاجة الإنسان كما زعمه الذين في قلوبهم مرض من الروافض حتى طعنوا في الصديقة الكبرى بنت الصديق الأكبر حبيبة رسول الله ﷺ أنها خرجت من بيتها إلى مكة وذهبت منها إلى البصرة في وقعة الجمل وكان خروجها إلى مكة للحج وبعد خروجها استشهد عثمان رضي الله عنه وأظهر أهل المصر فتنة في المدينة حتى هرب منها طلحة وزبير رضي الله عنهما ولحقا بعائشة وأشارا بالخروج للإصلاح ذات البين ولَمَّا أبت احتجا بقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] فخرجت إلى البصرة ووقع الصلح بين من كان معها ومن كان مع علي رضي الله عنهما ثم أثار نار الفتنة عبد الله بن سبأ اليهودي المنافق الذي تزيَّ بزي شيعة عليّ رضي الله عنه حتى وقع القتال بين المسلمين في وقعة الجمل وقد ذكرنا القصة في كتابنا السيف المسلول، والتبرج من البروج بمعنى الظهور والمراد بها إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال وقال ابن نجيح التبرج التبختر[٤] قال البيضاوي في تفسيره لا تبخترن في مشيتكن ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ منصوب على المصدرية

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٢) الحديث لم أجده.
(٣) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٤) أي التكبر والإعجاب بنفسه.

أي تبرجاً مثل تبرج الجاهلية الأولى والمراد بالجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام والجاهلية الأخرى جاهلية الفسق بعد الإسلام، قال الشعبي هي ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقال أبو العالية هي زمن داود وسليمان عليهما السلام كانت المرأة تلبس قميصاً من الدر غير مخيط للجانبين فيرى خلقها فيه، وقال الكلبي كان ذلك في زمن نمرود الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال، وروى عكرمة عن ابن عباس الجاهلية الأولى فيما بين نوح وإدريس وكان ألف سنة وكان سبطين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة، وكان النساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل وأجر نفسه منه فكان يخدمه واتخذ شيئاً مثل الذي يدمو الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فانتابوهم يسمعون إليه واتخذوا عبداً يجتمعون إليه فتبرج النساء للرجال وتزين الرجال لهن وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك فرأى الرجال والنساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فنزلوا معهم فظهرت الفاحشة فيهن فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وقد تذكر الأولى وإن لم يكن لها أخرى كقوله تعالى: ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠] ولم يكن لها أخرى أو المعنى الجاهلية التي كانت قبل زمانكم ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما أمرتن به ونهيتن عنه فإن ذلك هو التقوى الذي هو شرط أفضليتكن على سائر نساء ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ كلام مستأنف يعم حكمة نساء النبيّ ﷺ وغيرهن من أولاده ﷺ، ولقصد التعميم أورد ضمير المذكر وقد أورد الله سبحانه هذا الكلام في مقام التعليل لما سبق يعني إنما يريد الله سبحانه فيما أمركن به ونهاكن عنه لإذهاب الرجس يعني عمل الشيطان من الإثم والقبائح الشرعية والطبعية الذي ليس فيه مرضاة الله تعالى عنكن وعن غيركن من أهل البيت ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيت النبيّ ﷺ منصوب على النداء أو المدح، قال عكرمة ومقاتل أراد بأهل البيت نساء النبيّ ﷺ ورضي عنهن لأنهنّ في بيته وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وتلا قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ رواه ابن أبي حاتم وروى ابن جرير عن عكرمة نحوه وهم استدلوا بسياق الآية وسباقها لكن القول بتخصيص الحكم بهن يأباه ضمير المذكرين وذهب أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهما إلى أنهم علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم لحديث عائشة قالت: «خرج رسول الله ﷺ مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين بن علي فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] رواه مسلم،

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس حديث ٣٦، وفضائل الصحابة حديث ٦١، وأحمد في المسند ٦/ ١٦٢.

وحديث سعد بن أبي وقاص قال لما نزلت هذه الآية ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللَّهم هؤلاء أهل بيتي»[١] رواه مسلم وحديث واثلة بن الأسقع أنه ﷺ تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ الآية وقال لعلي وفاطمة وابنيهما «اللَّهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[٢] وأخرج الترمذي وغيره عن عمر بن أبي سلمة وابن جرير وغيره عن أم سلمة أن النبيّ ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ فحللهم بكساء فقال: «اللَّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم وطهرهم تطهيراً»[٣]، وهذه الأحاديث ونحوها لا تدل على تخصيص الحكم بهؤلاء الأربعة رضي الله عنهم ويأباه ما قبل الآية وما بعدها ويأباه العرف واللغة لأن الأصل في استعمال أهل البيت لغة النساء وأما الأولاد وغيرهم فإنها يطلق عليهم تبعاً لأن لهم بيوتاً متغايرةً غالباً وقد قال الله تعالى حكايةً عن قول الملائكة لسارة امرأة إبراهيم عليه السلام ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود: ٧٣] والحق ما ذكرنا أن الآية يعم جميع أهل البيت وإن كان سوق الكلام للنساء عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «في بيتي أنزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ قالت فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال: «هؤلاء أهل بيتي» فقلتُ: يا رسول الله أما إنا من أهل البيت قال: «بلى إن شاء الله» رواه البغوي وغيره، هذا الحديث يدل على أن أهل البيت يعم كلهم وكلمة إن شاء الله للتبرك وقال زيد بن أرقم أهل بيته من حرم عليه الصدقة آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس وآل الحارث بن عبد المطلب ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ من نجاسة الآثام بالحفظ في الدنيا والمغفرة في الآخرة.

بين الله سبحانه أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسوله المأثم وليتصفوا بالتقوى، استعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهارة لأن عرض المقترف بالمعاصي ملوثٌ كما يتلوث بدنه بالنجاسة والمتقي نقي كالثوب الطاهر النقي، ولكمال المناسبة بين الآثام والأرجاس قال أبو حنيفة يتنجس الماء المستعمل للقربة أو لرفع الحدث ولما ثبت أنه ﷺ قال: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»[٤] متفق عليه من حديث عثمان، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء»[٥]

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٣٢، وأحمد في المسند ١/ ١٨٥.

(٢) أخرجه الترمذي حديث ٢٩٩٢، ٣٢٠٥.

(٣) أخرجه الترمذي حديث ٣٧٢٤، ٣٨٧٠، ٣٨٧١.

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٣٣، والنسائي في الطهارة باب ٨٤، وابن ماجه في الطهارة باب ٦، ومالك في الطهارة حديث ٣٠، وأحمد في المسند ١/ ٦٦.

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٣٢، والترمذي في الطهارة باب ٢.

الحديث رواه مسلم، احتجت الروافض بهذه الآية على أن علياً وفاطمة والحسن والحسين معصومون وهم الخلفاء بعد رسول الله ﷺ دون غيرهم. وعلى أن إجماعهم ومن دونهم من الأئمة حجة قالوا إذا أراد الله تطهيرهم فهم معصومون لأن مراد الله تعالى لا ينفك عن الإرادة والأثيم غير طاهر والعصمة شرط للإمامة وأبو بكر وعمر وعثمان غير معصومين بالإجماع فهم الأئمة لا غيرهم. وهذا الاستدلال باطل بوجوه: الأول أن الآية غير مختص حكمها بعلي وفاطمة وابنيهما كما ذكرت بل هي نازلة في أمهات المؤمنين لكن هؤلاء الكرام داخلون في حكمهن، والثاني أن الآية لا تدل على العصمة وقد ورد مثل ذلك في آية الوضوء لجميع الأمة حيث قال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] لا يقال مقتضى آية الوضوء إن الله يريد أن يطهر أبدانكم من الأنجاس والأحداث إن توضأتم ومقتضى هذه الآية يريد الله أن يطهركم من الآثام فأين هذا من ذلك لأنا نقول إنهما من واد واحد فإن الله كما يريد أن يطهر أبدان المؤمنين إذا توضؤوا واستعملوا الماء في مواضعه كذلك يريد أن يطهر أهل بيت النبي ﷺ من الآثام إن اتقوا ولذلك بين لهم طريقة استعمال الماء لطهارة الظاهر وبين لهم التقوى بقوله فلا تخضعن لطهارة الباطن فكما أن طهارة ظاهر البدن يتوقف على اختيار العبد في استعمال الماء كذلك الطهارة من الآثام يتوقف على اختياره التقوى والله أعلم، والثالث أن العصمة ليست بشرط الإمامة بل يجوز أن يكون الإمام غير معصوم مع وجود المعصوم فيهم ألم تر أن الله تعالى جعل الملك والإمامة لطالوت مع وجود النبي المعصوم فيهم وهو اشموئيل وداود عليهما السلام ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] إلى قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] والله أعلم.

﴿وَاذْكُرْنَ﴾ عطف على أطعن الله ورسوله وما بينهما اعتراض للتعليل ﴿مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ يعني الوحي الغير المتلو وهو السنة، وقال مقاتل يعني أحكام القرآن ومواعظه، وقال البيضاوي يعني اذكرن الكتاب الجامع بين الأمرين، وهو تذكير لما أنعم الله عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برحاء الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثاً على الائتمار والانتهاء فيما كلفن به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بكم يعظكم ويعلمكم ما يصلح في الدين ﴿خَبِيرًا﴾ بكل شيء يعلم من يصلح لنبوته ومن يصلح أن يكون أهل بيته وفي صحبته قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦] والله أعلم.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ
حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ
رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ
وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا
كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ
إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ
لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٤٨﴾».

ذكر البغوي أن أزواج النبيّ ﷺ قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لا يقبل منا طاعة الله فأنزل الله تعالى: «إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ» الآية، وروى الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن سعد عن قتادة نحوه، وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس قال قال النساء يا رسول الله ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فنزلت، ورواه ابن جرير من حديث قتادة مرسلاً وأخرج الترمذي وحسنه عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبيّ ﷺ فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال وما نرى النساء يذكرن بشيء فنزلت، وذكر البغوي أنه قال مقاتل قالت أم سلمة بنت أبي أمية وآيسة بنت الكعب الأنصارية للنبيّ ﷺ ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه نخشى أن لا يكون فيهن خيراً فنزلت هذه الآية، وروي أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبيّ ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن قلن لا فأتت النبيّ ﷺ فقالت يا رسول الله إن النساء في خيبة وخسارة قال ومم ذلك قالت إنهن لا يذكرن بخيركما يذكر الرجال فأنزل الله تعالى هذه الآية «إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ» أي المنقادين لحكم الله ورسوله المفوضين أمورهم إلى الله المتوكلين عليه من الرجال والنساء «وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ» المصدقين بما جاء به رسول الله ﷺ الذين أمن الناس من يوابقهم من الرجال والنساء «وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ» المداومين على الطاعة من الفريقين «وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ» في القول والعمل أعني عاملين أعمالاً يصدق من يثني عليها «وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ» في المصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي واتباع الشهوات «وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ» المتواضعين غير متكبرين من الرجال والنساء «وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ» مما رزقهم الله ابتغاء مرضاة الله «وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ» فرضاً ونفلاً «وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ» فروجهن عما لا يحل «وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ»

الله تعالى بقلوبهم وألسنتهم[١].

قال البغوي قال مجاهد لا يكون العبد من الذّاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً يعني لا يفتر ذكرهم في حين من الأحيان، قلتُ وذلك لا يتصور إلا بعد فناء القلب واستغراق القلب في الذكر وحصول الحضور الدائم قال رسول الله ﷺ: «سبق المفردون»، قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[٢] رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»، قالوا «ولا الجهاد في سبيل الله، قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع»[٣] رواه البيهقي في الدعوات الكبير من حديث عبد الله بن عمر، وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل وأرفع درجةً عند الله يوم القيامة؟ قال «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»، قيل يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال «لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً فإن الذاكر لله أفضل منه درجة»[٤] رواه أحمد والترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن مالك قال بلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل خلف الفارّين وذاكر الله في الغافلين كغصن شجر أخضر في شجر يابس وذاكر الله في الغافلين مثل مصباح في بيت مظلم وذاكر الله في الغافلين يريه الله مقعده من الجنة وهو حيٌّ وذاكر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل فصيح وأعجم والفصيح بنو آدم والأعجم بهائم»[٥] رواه رزين.

قال البغوي: قال عطاء بن أبي رباح من فوض أمره إلى الله فهو داخل في قوله: إن المسلمين والمسلمات ومن أقر بأن الله ربه ومحمداً رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل في قوله والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله في الفرائض والرسول في السنة فهو داخل في قوله ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ ومن صبر على الطاعة وخاف من المعصية وصبر على الرزية فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ ومن صلّى ولم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ

---

(١) عن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلاً سأله فقال أي المجاهدين أعظم أجراً فقال أكثرهم لله ذكراً قال فأي الصائمين أعظم أجراً قال أكثرهم لله ذكراً ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أكثرهم لله ذكراً فقال أبو بكر لعمر يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل ـ ١٢ ـ نوّر الله مرقده ـ.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٤، والترمذي حديث ٣٥٩٩، وأحمد في المسند ٣٢٣، ٤١١.

(٣) أخرجه بنحوه السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٥٠، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/ ١٨٩.

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٥، وأحمد في المسند ٣/ ٧٥.

(٥) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٨٠، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ١٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٦٨.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ ومن صام في كل شهر أيام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ ومن حفظ فرجه عما لا يحل له فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ ومن صلى الصلوات الخمس فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ قال البيضاوي عطف الإناث على الذكور ضروري لاختلاف الجنسين وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين ليس بضروري ولذلك ترك في قوله تعالى: مسلمات مؤمنات قانتات الخ، وفائدتُه الدلالة على أن الأعداد والموعود لهم للجمع بين هذه الصفات ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لما صدر منهم من الذنوب ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعتهم والله أعلم.

أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال خطب النبيّ ﷺ زينب بنت جحش وهو يريد لزيد بن الحارثة فظنت أنه يريدها لنفسه فلمَّا علمت أنه يريدها لزيد أبت فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية فرضيت وسلمت، قال البغوي كان رسول الله ﷺ اشترى زيداً في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه فلمَّا خطب رسول الله ﷺ رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وكرهت وكذلك أخوها عبد الله بن جحش كره ذلك (وكانت أم زينب وأخيها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ) وأخرج ابن جرير من طريق عكرمة ومثله من طريق العوفي عن ابن عباس، قال خطب رسول الله ﷺ زينبَ بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت أنا خير منه حسباً فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ يعني عبد الله بن جحش ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني زينب بنت جحش يعني لا يجوز لأحد ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ يعني آمراً أمراً على وجه التحتم ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يعني أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا بل يجب عليهم ما أمرهم الله به وأن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختيار الله ورسوله، وجمع الضمير الأول لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما نكرتين في حيز النفي وجمع الثاني للتعظيم قرأ الكوفيون وهشام يَكُونَ بالياء التحتانية لأجل الفصل بين الفعل وفاعله والباقون بالتاء الفوقانية لأجل التأنيث، والخيرة والخيار بمعنى واحد وهذه الآية دليل على أن مطلق الأمر للوجوب ويستفاد من هاهنا أن العالم ومن له فضل من حيث الدين كفء للعلوي وغيره من الشرفاء، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال نزلت الآية في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول من هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوَّجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوَّجنا غيره فنزلت ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ بين الإنحراف عن الصواب فإن كان عصيان رَدّ وإنكار فهو ضَلالٌ كفر وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فضلالُ فسقٍ جملة فَقَدْ ضَلَّ تعليل لجزاء الشرط المحذوف تقديره يهلك فَقَد ضَلَّ.

قال البغوي: فلما نزلت هذه الآية وسمعت زينب بنت جحش وأخوها رضيا بذلك وسلما وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ وكذلك أخوها فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً فدخل

بها وساق رسول الله ﷺ عليها عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً ودرعاً وإزاراً وملحفة وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر، ومكثت عنده حيناً ثم إن رسول الله ﷺ أتى ذات يوم لحاجة فأبصر زينب قائمة في درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها فقال «سبحان الله مقلب القلوب» فانصرف فلمَّا جاء زيد ذكرت له ذلك ففطن زيد فألقى في نفسه كراهتها في الوقت وأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أفارق صاحبتي فقال: «ما لك أرأيت منها شيئاً» قال لا والله يا رسول الله ما رأيتُ منها إلا خيراً ولكنَّها تتعظّم عليّ لشرفها وتؤذيني بلسانها فقال النبيّ ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله» في أمرها كذلك روى ابن جرير عن أبي زيد فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ إذ تقول يا محمد الآية، وأخرج الحاكم عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش فقال النبيّ ﷺ «أمسك عليك أهلك» فنزلت وإذ تقول ﴿لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي هداه للإسلام ورزقه مصاحبتك وألقى في قلبك محبته والرحمة عليه ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإنفاق والإعتاق وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني زينب بنت جحش ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها فلا تطلقها فإن الطلاق من أبغض المباحات ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ قوله أمسك مقولة تقول وجملة تخفي معطوف على قوله تقول يعني وكنت تسرُّ في نفسك ما الله مظهره، أخرج البخاري عن انس أن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، قال الحسن أعجبه قول زيد وأخفى رسول الله ﷺ ذلك في نفسه حياء وكرماً وقيل وقع في قلبه أنه لو فارقها زيد تزوجها، وقال ابن عباس حبها، وقال قتادة ودَّ أنه طلقها.

وقال البغوي: روى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي ابن الحسين زين العابدين عليهما السلام ما يقول الحسن في قوله عزّ وجلّ ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ قلتُ يقول لما جاء زيد إلى النبيّ ﷺ فقال يا نبي الله إني أريد أن أفارق زينب أعجبه ذلك فقال: «أمسك عليك زوجك واتق الله» قال علي بن الحسين ليس كذلك كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال إني أريد أن أطلقها قال أمسك عليك زوجك فعاتبه الله وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمناك أنها ستكون من أزواجك، وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله تعالى أعلم أن يبدىء ويظهر ما أخفاه ولم يظهر الله غير تزويجها منه فقال: (زَوَّجْنَاكَهَا) فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك وإنما أخفى رسول الله ﷺ استحياء أن يقول لزيد التي تحتك وفي نكاحك ستكون امرأتي، قال البغوي وهذا قول مرضي حسن وإن كان القول الآخر وهو أنه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها زيد لا يقدح في حال الأنبياء لأن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه فإن مثل هذه الأشياء ما لم يقصد لا إثم فيه لأن الود وميل النفس من طبع البشر، وقوله أمسك عليك زوجك واتق الله أمر بالمعروف وهو حسنة لا إثم فيه، قلتُ

بل هو أعظم أجراً فإنه أمر بالمعروف على خلاف طبعه قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وما قال الحسن يؤيده قوله ﷺ حين رأى زينب سبحان الله مقلب القلوب فإنها تدل على أنه تعالى قلّب قلب النبيّ ﷺ إلى أن يتزوجها بعدما كان في قلبه أن يتزوجها زيداً ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ عطف على تُخْفي يعني تخاف لأئمة الناس أن يقولوا أمر رجلاً أن يطلق امرأته ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ الجملة حال من فاعل تخشى، قال عمر وابن مسعود وعائشة رضي الله عنهم ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد من هذه الآية، وروي عن مسروق قال قالت عائشة لو كتم النبيّ ﷺ شيئاً مما أوحى إليه لكتم (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) قال البغوي لم يرد الله بهذه الآية، أنه ﷺ لم يكن يخشى الله فإنه ﷺ قال: «إني أخشاكم وأتقاكم»[١] قلتُ وقد قال الله تعالى في شأن الأنبياء كلهم ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء قلتُ فمعنى الآية أنك تخشى لأئمة الناس وتخشى الله أشد خشية من خشية الناس فإن الله أحق أن تخشاه فمن أجل خشية الناس والحياء منهم أخفيتَ ما أضمرتَ ومن أجل خشية الله أمرتَ بالمعروف ولم تترك شيئاً مما أمرك الله به ولا منافاة بينهما ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] أنهم لا يخشون أحداً فيما يفضي خشيتهم ترك امتثال أمر الله تعالى وأما خشية الناس حياءً فيما عدا ذلك فحسن «فإن الحياء من الإيمان»[٢] متفق عليه مرفوعاً من حديث ابن عمر، وفي الصحيحين عن عمران ابن حصين قوله ﷺ «الحياء خير كله»[٣] وعن ابن عمر عن النبيّ ﷺ «إن الحياء والإيمان قرنا جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»[٤] وفي رواية ابن عباس «فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وروى مالك عن زيد بن طلحة مرسلاً وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس وابن عباس أنه قال رسول الله ﷺ: «إن لكل دين خُلقاً وخُلق الإسلام الحياء»[٥] والله أعلم.

وأخرج مسلم وأحمد والنسائي وأبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وذكره البغوي وهذا لفظ البغوي عن أنس أنه قال لمَّا انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد «اذهب فاذكرها عليَّ» فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمّر عجينها، قال زيد فلمَّا رأيتُها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن انظر إليها حين علمتُ أن رسول الله ﷺ ذكرها

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري في النكاح باب ١، ومسلم في الصيام حديث ٧٤، ٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣، ١٦، والأدب باب ٧٧، ومسلم في الإيمان حديث ٥٧، ٥٨، ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٦١، وأحمد في المسند ٤/٤٢٦، ٤٣٦، ٤٤٢، ٤٤٦.

(٤) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٥٧٥٦، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٠٩٣، ٥٠٩٤.

(٥) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ١٧، ومالك في حسن الخلق حديث ٩.

فوليتُها ظهري ونكصتُ على عقبي، فقلتُ يا زينب أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك قالت ما أنا بصانعة حتى أوامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الآية وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن فقال لقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقي رجلان يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ فاتبعته فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويسلمن عليه ويقلن يا رسول الله كيف وجدتَ أهلك؟ فقال ما أدري أنا أخبرتُ أن القوم قد خرجوا أو أخبروني فانطلق حتى دخل البيت قال أنس فذهبتُ أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ أي من أهله وهي زينب بنت جحش ﴿وطراً﴾ أي حاجة بحيث ملَّها ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها، قيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي جعلناها زوجتك روى البخاري وأحمد والترمذي والحاكم وابن مردويه وعبد بن حميد والبيهقي في سننه عن أنس أنه قال: «كانت زينب تفخر على أزواج النبيّ ﷺ وتقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات»[1] وفي لفظ إن الله تولَّى نكاحي وأنتُنَّ زوجكن أولياؤكن، قال البغوي قال الشعبي كانت زينب تقول للنبي ﷺ إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن جدي وجدك واحد وإني أنكحنيك الله في السماء وإن السفير لجبرئيل عليه السّلام، وعن أنس قال: «ما أولم النبي ما أولم بزينب أولم بشاة»[2] وعن أنس قال: أولم رسول الله ﷺ حين ابتنى بزينب بنت جحش فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق بالتحريم ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ جمع دعيّ وهو المتبني يعني زوجناك زينب امرأة زيد الذي تبنيته ليعلم أن زوجة المتبني حلال، وإن كان قد دخل بها المتبني بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب، وفيه دليل على أن حكم الرسول وحكم الأمة واحد ما لم يقم دليل على تخصيص الحكم بالنبي ﷺ ﴿إِذَا قَضَوْاْ﴾ أي الأدعياء ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي من أزواجهم ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي قضاؤه ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوناً لا محالة كما كان تزويج زينب.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ متعلق بمضمون من حرج لا من لفظه لأن معمول المجرور لا يتقدم على الجار ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق من زائدة وحرج اسم كان ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي فيما قسم له وقدر له من عدد النساء من قولهم فرض له في الديوان ومنه فروض العسكر لأرزاقهم، وقيل معنا فيما أحل له ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لفعل محذوف أي سن الله سنَّة، أو منصوب بنزع الخافض أي كسنَّة الله أو على الإغراء أي التزموا سنة الله ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٢، والترمذي في تفسير سورة ٣٣، باب ١٦، والنسائي في النكاح باب ٢٦، وأحمد في المسند ٣/ ٢٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح باب ٦٨، ٦٩، ومسلم في النكاح حديث ٩٠، ٩١، وأبو داود في الأطعمة باب ٢، وابن ماجه في النكاح باب ٢٤، وأحمد في المسند ٣/ ١٧٢، ٢٢٧.

قَبۡلُۚ﴾ من الأنبياء الماضين قال الكلبي أراد داود عليه السَّلام حيث جمع بينه وبين المرأة التي هواها فكذلك جمع بين محمد ﷺ وزينب، وقيل أشار بالسنّة إلى النكاح فإنه سنَّة الأنبياء وقيل أشار إلى كثرة الأزواج مثل داود وسليمان عليه السّلام ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقۡدُورًا﴾ أي قضاءً ماضياً لا محالة ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا من قبل أو مدح لهم منصوب أو مرفوع ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ كما أنت تخشى الله ولا تخشى غيره فيما أمرك الله به ونهاك عنه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف أو محاسباً فينبغي أن لا يخشى إلا منه.

أخرج الترمذي عن عائشة أنها قالت لما تزوج النبيّ ﷺ زينب قال الناس تزوج حليلة ابنه فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ يعني ليس محمد ﷺ أباً لزيد بن حارثة فيحرم عليه نكاح زوجته، فإن قيل كان له أبناء القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذلك الحسن والحسين فإن رسول الله ﷺ قال للحسن إن ابني هذا سيد؟ قلنا إن أبناء الرسول ﷺ ماتوا صغاراً لم يبلغوا مبلغ الرجال وإطلاق الابن على الحسنين عليهما السلام على التجوز ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكل رسول أب لأمته لكن لا من حيث النسب حتى يحرم عليه ما يحرم بالنسب بل من حيث الشفقة والنصيحة ﴿وَخَاتَمَ﴾ قرأ عاصم بفتح التاء على الاسم بمعنى الآخر والباقون بكسر التاء على وزن فاعل، يعني الذي ختم ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ حتى لا يكون بعده نبي، قال ابن عباس يريد الله سبحانه أنه لو لم يكن أختم له النبين لجعلتُ ابنه بعده نبيّاً، وروى عطاء عن ابن عباس أن الله تعالى لما حكم أن لا نبي بعده لم يعطه ولداً ذكراً يعني رجلاً، أخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال في إبراهيم حين توفي لو عاش لكان نبيّاً، ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده لأنه إذا ينزل يكون على شريعته مع أن عيسى عليه السَّلام صار نبياً قبل محمد ﷺ وقد ختم الله سبحانه الاستنباء بمحمد ﷺ وبقاء نبي سابق لا ينافي ختم النبوة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم من يليق به ختم النبوة وكيف ينبغي شأنه، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة فكنت أنا سددتُ موضع اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل» وفي رواية «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[(١)] متفق عليه، وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[(٢)] متفق عليه، وعن

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ١٨، ومسلم في الفضائل حديث ٢٠ ـ ٢٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥٧، ٣٩٨، ٤١٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ١٧، وتفسير سورة ٦١، باب ١، ومسلم في الفضائل حديث ١٢٤، ١٢٥.

أبي موسى الأشعري قال: «كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: «أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة»[١] رواه مسلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ قال ابن عباس لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله فأمر به في الأحوال كلها فقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وقال: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ بالليل والنهار في البر والبحر والصحة والسقم في السر والعلانية، وقال مجاهد الذكر الكثير أن لا ينساه أبداً، قلتُ وهذا لا يتصور إلا بعد فناء القاب ودوام الحضور ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي صلوا له ﴿بُكْرَةً﴾ يعني صلاة الصبح ﴿وَأَصِيلًا﴾ قال الكلبي يعني صلاة الظهر والعصر والعشاءين، وقال مجاهد يعني قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم فعبر بالتسبيح عن أخواته، وقيل المراد بالذكر الكثير هذه الكلمات يقولها الطاهر والمحدث والجنب، قلتُ أمر الله سبحانه أولاً بتعميم الذكر أبداً بحيث لا ينساه، ثم خصه بأوقات مخصوصة فالمراد بالأول هو الذكر الخفي والحضور الدائم وبالثاني الذكر الجلي والعبادات الراتبة من الفرائض والسنن، وقيل خص أوّل النهار وآخره بالذكر لأن ملائكة الليل والنهار يجتمعون فيها، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم (وهو أعلم بهم) كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وآتيناهم وهم يصلون»[٢] متفق عليه وقيل: بكره وأصيلاً معمولان للفعلين على سبيل التنازع والفعلان كلاهما متوجهان إليهما يعني اذكروه بُكْرَةً وَأَصِيلاً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً يعني أدوا الصلوات وسائر العبادات ذاكراً لله حاضرين غير غافلين، عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله عزّ وجلّ مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت وإذا التفت انصرف عنه»[٣] رواه أحمد وأبو داود والنسائي والدارمي، قال البغوي قال أنس لما نزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال أبو بكر ما خصّك الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فأنزل الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه، قال البغوي الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار وقيل الصلاة من الله على العبد إشاعة الذكر الجميل له في العباد وقيل الثناء عليه، وفي القاموس الصلاة الدّعاءُ والرحمة والاستغفار وحسنُ الثناء من الله تعالى على رسوله وعبادةٌ فيها ركوعٌ وسجودٌ،

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت باب ١٦، والتوحيد باب ٢٣، ٣٣، ومسلم في المساجد حديث ٢١٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٦١، والنسائي في السهو باب ١٠، والدارمي في الصلاة باب ١٣٤، وأحمد في المسند ٥/ ١٧٢.

وهذه العبارة تقتضي كونها لفظاً مشتركاً فمن أجاز استعمال اللفظ المشترك في الأكثر من معنى واحد أجاز أن يكون معناه أن الله يرحم عليكم وملائكته يستغفرونه لكم، وأما عند الجمهور فلا يجوز عموم المشترك فيقال المراد بالصلاة هاهنا المعنى المجازي المشترك بين المعنيين الحقيقيين وهو العناية لصلاح أمركم وظهور تشرفكم ويسمى عموم المجاز، وقال كثير من أهل اللغة الصلاة هو الدعاء يقال صليتُ عليه أي دعوتُ له قال عليه السَّلام «إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب [و] إن كان صائماً فليصل»[١] أي ليدع لأهله وقال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وإنما سميت الأركان المخصوصة صلاة لاشتمالها على الدعاء وهو قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] تسمية الكل باسم الجزء والصلاة من الله تعالى على عباده أن يطلب من نفسه لأجل عباده الرحمة والمغفرة ويناسب الطلب من نفسه الإيجاب من نفسه على نفسه المستفاد من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فإن الإيجاب والطلب بمعنى واحد فإن الطلب حتماً هو الإيجاب والمراد بالإيجاب الالتزام تفضلاً وإذا أريد بالصلاة هاهنا الدعاء لا يلزم عموم المشترك، قال البغوي قال النبيّ ﷺ: «قالت بنو إسرائيل لموسى أيصلي ربنا فكبر هذا الكلام على موسى فأوحى الله إليه أن قل لهم إني أصلي وإن صلاتي رحمتي وسعت كل شيء»[٢].

﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ يعني أنه برحمته ودعاء الملائكة يديم إخراجكم ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي ظلمات الكفر والمعاصي ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي نور الإيمان والطاعة ويمكن أن يقال ليخرجكم ساعة بعد ساعة أبداً من ظلمات البعد إلى نور القرب ومن استوى يوماه فهو مغبون ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيث اعتنى بصلاح أمرهم وإعلاء قدرهم واستعمل في دعائهم الملائكة المقربين الجملة معطوفة على الصلة أي الَّذي يصلي عليكم والذي كان بالمؤمنين رحيماً ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية المؤمنين منه تعالى أضيف المصدر إلى المفعول، أي يحيون منه تعالى ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يعني يوم لقائهم إياه سبحانه يعني عند الموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة أو عند رؤية الله سبحانه ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي يسلم الله عليهم تحية ويسلمهم الله من جميع المكاره، قال البغوي روي عن البراء بن عازب قال: «تحيتهم يوم يلقونه يعني يوم يلقون ملك الموت سلامٌ أي لا يقبض روح مسلم إلا سلم عليه» وعن ابن مسعود قال إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقيل يسلم عليهم الملائكة ويبشرهم حين أخرجوا من قبورهم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني الجنة ورؤية الله ورضوانه.

---

(١) روي الحديث بلفظ: «إذا دُعي أحدكم إلى الوليمة فليجب...» أخرجه مسلم في النكاح حديث ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣ ـ ١٠٦، وأبو داود في الصوم باب ٧٤، والأطعمة باب ١، وابن ماجه في النكاح باب ٢٥، والترمذي في الصوم باب ٦٣.

(٢) أخرجه بنحوه المتقي الهندي في كنز العمال ١٠٣٩٩، ١٠٤٠٠.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ على أمتك، أخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيب قال ليس من يوم إلا ويعرض على النبي ﷺ أمته غدوةً وعشيةً فيعرفهم بسيماهم ولذلك يشهد عليهم أو شاهداً لأمتك مصدقاً لهم حين يشهدون للرسل على الأمم بالتبليغ أخرج البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلَّغت فيقول نعم فيدعى أمته فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير ما أتانا أحد فيقال من يشهد لك فيقول محمد وأمته»[١] الحديث وفي الباب أحاديث كثيرة فهو حال مقدرة كقولك مررتُ برجل معه صقر صائداً به غداً ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة من آمن بالرسل ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالنار لمن كذب الرسل ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى توحيده وطاعته أو إلى جنته أو لقائه الغير المتكيفة ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بأمره وتيسيره قيد به الدعوة إيذاناً بأنه أمر صعب لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه خصوصاً الدعوة إلى لقائه، فإن إيصال العبد إليه تعالى أمر لا يمكن إلا بفضله قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] إلى صراط[٢] مستقيم، عن ربيعة الجرشي قال: «أتى النبيّ ﷺ فقيل له لتنم عيناك ولتسمع أذنك ولتعقل قلبك قال فنامت عيني وسمعت أذناي وعقل قلبي، قال فقيل لي سيد بنى داراً وصنع مأدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة وسخط عليه السيد قال فالله السيد ومحمد الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة»[٣] رواه الدارمي، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ سماه سراجاً لأنه يستضاء به ويهتدى به كالسراج يستضاء به ويهتدي به في ظلمة الليل يعني أنه ﷺ كان بلسانه داعياً إلى الله وبقلبه وقالبه كان مثل السراج يتلون المؤمنون بألوانه ويتنورون بأنواره كالعالم يتنور بنور الشمس والبيت بالسراج، ولأجل ذلك اختصت الصحابة رضي الله عنهم بمزيد الفضل على الناس فإن علومه التي تلقتها الأمة من لسانه لم يتفاوت فيه الناس من الصحابة وغيرهم بل رب مبلغ أوعى من سامع، وأما التنوُّرُ بأنواره فإنه وإن كان حاصلاً للناس بتوسط أصحابه وأصحاب أصحابه إلى يوم القيامة لكن ليس النائب فيه كالشاهد بل مَثَلُه كمثل بيت تنوَّرَ بنور الساحة التي تنوَّرت بنور الشمس لأجل مقابلتها وأين هذا من ذلك والله أعلم، عن عطاء بن يسار قال لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص قلتُ أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتُك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢، باب ١٣، والاعتصام باب ١٩، وأحمد في المسند ٣/ ٣٢.

(٢) هكذا في الأصل، وفي القرآن بعد ﴿من يشاء﴾، ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ جمع المؤلف قدس سرّه جملتين من مقامين ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢، والدارمي في المقدمة باب ٢.

سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر لن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً عمياء وآذاناً صماء وقلوباً غلقاء» رواه البخاري وكذا الدارمي عن عطاء بن سلام نحوه والله أعلم.

أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن الربيع بن أنس أنه قال لما نزلت ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] ثم نزل بعدها ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] قال رجال من المؤمنين هنيئاً لك يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ وكذا أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن وقال أنس الفضل الكبير الجنة والجملة معطوفة على إنّا ارسلناك ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعتك تحريض له على ما هو عليه من مخالفتهم ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة، يعني اصبر على إيذائهم إياك فالمصدر مضاف إلى الفاعل والمعنى اجعل إيذائهم إياك في جانب ولا تبال به ولا تخف منه وقال الزجاج يعني لا تجادلهم ولا تتصد على أذاهم يعني لا تؤذهم فالمصدر مضاف إلى المفعول وعلى هذا قيل إنه منسوخ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه يكفيك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ يعني إذا جعلت الله موكولاً إليه أمورك فهو يكفيك لا يدع حاجة لك إلى غيره، قال البيضاوي، وصف الله نبيه ﷺ بخمس صفات وقابل كلاً منها بخطاب يناسبه فحذف مقابل الشاهد وهو الأمر بالمراقبة لأن ما بعده كالتفصيل له وقابل المبشر بالأمر ببشارة المؤمنين والنذير بالنهي عن مراقبة الكفار والمبالاة بأذاهم والداعي إلى الله بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه والسراج المنير بالاكتفاء به فإنه من أناره برهاناً على جميع خلقه كان حقيقاً أن يكتفى به عن غيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خص المؤمنات بالذكر مع أن نكاح المؤمنين بالكتابيات أيضاً جائز وحكمهن في الطلاق قبل الدخول مثل حكم المؤمنات إيماء إلى أن اللائق بالمؤمنين أن ينكح المؤمنة دون الكتابية، ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ قال البغوي فيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع لأن الله رتب الطلاق على النكاح حتى لو قال لامرأة أجنبية

إذا انكحتُكِ فأنتِ طالق أو قال كل امرأة أنكحها فهي طالق فنكحها لا يقع الطلاق، وهو قول علي وابن عباس ومعاذ وجابر وعائشة رضي الله عنهم وبه قال سعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير وعروة والقاسم وطاوس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم، وبه قال الشافعي وكذا قولهم في الإعتاق المعلق بالملك، وروي عن ابن مسعود أنه يقع الطلاق وهو قول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأي أعني أبا حنيفة وأصحابه وقال ربيعة والأوزاعي ومالك إن عين امرأة يقع وإن عمم امرأة لا يقع، وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال كذبوا على ابن مسعود، وإن كان قالها فزلة من عالم وإن قال في الرجل إن تزوجتُ فلانة فهي طالق يقول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن، واستدل البغوي بحديث جابر قال قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح»(١).

قلتُ: أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه وقال أنا متعجب من الشيخين كيف أهملاه وهو على شرطهما، وقال أحمد إن علق طلاق الأجنبية بالنكاح ينعقد وإن علق العتاق بالملك فعن أحمد فيه روايتان، وقال مالك إن خص بلداً أو قبيلة أو صنفاً أو امرأةً وعلق طلاقها بالنكاح ينعقد وإن عمم مطلقاً لا ينعقد واحتج ابن الجوزي لمذهب أحمد بستة أحاديث:

أحدها: حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبيّ ﷺ «ليس على رجل طلاق فيما لا يملك ولا عتاق فيما لا يملك ولا بيع فيما لا يملك»(٢) رواه ابن الجوزي من طريق أحمد ورواه أصحاب السنن وقال الترمذي هو أحسن شيء روي في هذا الباب ورواه البزار بلفظ «لا طلاق قبل نكاح ولا عتق قبل ملك» قال البيهقي في الخلافيات قال البخاري هذا أصح شيء في الباب.

ثانيها: حديث عمرو بن شعيب عن طاوس عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجوز طلاق ولا عتاق ولا بيع ولا وفاء نذر فيما لا يملك»(٣) رواه الدارقطني، وروى الدارقطني من طريق آخر عن إبراهيم أبي إسحاق الضرير عن يزيد بن عياض عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق إلا بعد نكاح وإن سميت المرأة بعينها»(٤) قال الحافظ ابن حجر منقطع ويزيد بن عياض متروك وذكر الذهبي في استيعاب أسماء الرجال، قال مالك يزيد بن عياض كذاب وقال يحيى بن معين ضعيف ليس

---

(١) أخرجه ابن ماجه حديث ٢٠٤٨، ٢٠٤٩، وعبد الرزاق في المصنف ١١٤٥٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/١٨٩.

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه ٤/١٤.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/٣١٨، والحاكم في المستدرك ٢/٤١٩، وابن أبي شيبة في المصنف ٥/١٦.

بشيء، وقال أحمد بن صالح كان يضع للناس يعني الحديث وقال البخاري ومسلم منكر الحديث، وقال أبو داود ترك حديثه وقال النسائي متروك وقال في موضع آخر كذاب.

ثالثها: ما رواه الدارقطني قال حدثنا بقية بن الوليد عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أبي ثعلبة الخشني قال قال لي عم لي أعمل بي عملاً حتى أزوجك لابنتي فقلتُ إن تزوجتها فهي طالق ثلاثاً، ثم بدا لي أن أتزوجها فأتيتُ النبيّ ﷺ فسألتُه فقال لي: «تزوجها فإنه لا طلاق إلا بعد نكاح» فتزوجتُها فوَلدت لي أسعد وسعيداً[1]، قال الذهبي في الميزان قال النسائي وغيره بقية بن الوليد إذا قال حدثنا وأخبرنا فهو ثقة قال غير واحد كان مدلساً فإذا قال عن فليس بحجة وثور بن يزيد ثقة صحيح الحديث مشهور بالقدر وهذا رواية بقية بلفظ عن وطعن ابن همام على هذا وقال فيه علي بن قرين كذبه أحمد، قلتُ: ما رواه ابن الجوزي ليس من طريق الدارقطني وليس فيه علي بن قرين والله أعلم.

رابعها: حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن رجل أنه قال يوم أتزوج فلانة فهي طالق قال: «طلق ما لا يملك»[2] رواه الدارقطني وفيه أبو خالد الواسطي وهو عمرو بن خالد قال الذهبي ضعفه أبو حاتم وقال ابن همام قال أحمد وابن معين كذاب، ورواه ابن عدي عن نافع عنه بلفظ «لا طلاق إلا بعد نكاح» قال ابن حجر إسناده ثقات.

خامسها: حديث طاوس عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «لا نذر إلا فيما أطيع الله فيه ولا يمين في قطعة رحم ولا طلاق ولا عتاق فيما لا يملك»[3] رواه الدارقطني ورواه الحاكم من طريق آخر وفيه من لا يعرف كذا قال ابن حجر، وروى الحاكم عن ابن عباس ما قالها ابن مسعود وإن كان قالها فزلة من عالم في الرجل يقول إن تزوجتُ فلانة فهي طالق وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن، وقيل لا يصح عن النبيّ ﷺ «لا طلاق قبل نكاح» وأصح شيء فيه حديث المنكدر عن طاوس عن النبيّ ﷺ مرسلاً.

سادسها: حديث عائشة قالت: «بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب على نجران اليمن فكان فيما عهد إليه أن لا يطلق الرجل ما لا يتزوج ولا يعتق ما لا يملك»[4] قال ابن حجر قال ابن أبي حاتم في العلل حديث منكر، ورواه الحاكم من طريق الحجاج بن منهال عن هشام الدستوائي عن عروة عن عائشة مرفوعاً، قال ابن الجوزي وقد روي نحو هذا من حديث علي وجابر ولكنها طرق مجتنبة بمرة، قلتُ أما حديث علي فرواه ابن ماجه عنه يرفعه لا طلاق قبل النكاح وفيه جويبر وهو ضعيف وأما حديث جابر فقد ذكرنا من قبل وفي الباب

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ٤/٣٦.
(٢) أخرجه الدارقطني في سننه ٤/١٦.
(٣) أخرجه الدارقطني في سننه ٤/١٦، ١٥٩.
(٤) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

حديث المسور بن مخرمة أنه قال رسول الله ﷺ «لا طلاق قبل النكاح ولا عتق قبل الملك».

وجه قول أبي حنيفة أن المعلق بالشرط ليس بطلاق فإن التعليق بالشرط مانع من أن يكون السبب سبباً دون الحكم فقوله إن دخلتِ الدار فأنتِ طالق وكذا قوله إن نكحتكِ فأنتِ طالق يمين مانع من دخول الدار ومن النكاح الذين هما شرطان لوجود الطلاق فهو مانع من الطلاق فلا يصلح أن يكون سبباً موجباً للطلاق لتمانع الوصفين، أعني كونه مانعاً وكونه سبباً لكن له عرضة أن يصير طلاقاً عندالحنث وهو وجود الشرط، وإذا لم يكن طلاقاً فلا يجوز الاحتجاج بالآية والأحاديث الناطقة بنفي الطلاق قبل النكاح، وأما حديث ابن عمر وحديث أبي ثعلبة الخشني فلا يصح شيء منهما وقد ذكرنا وجه القدح فيهما. فإن قيل إذا لم يكن المعلق بالشرط طلاقاً فما وجه الفرق بين قوله للأجنبية إن دخلتِ الدار فأنت طالق وإن نكحتكِ فأنتِ طالق حيث ينعقد الثاني دون الأول؟ قلنا: وجه الفرق أن اليمين ما يكون مانعاً من الفعل إما بخوف الإثم كما في اليمين بالله تعالى: وإما بخوف الوقوع فيما لا يريد من الطلاق أو العتاق أو نحو ذلك ولا شك أن تعليق الطلاق والعتاق بالملك يصلح مانعاً من التملك بخلاف تعليق الطلاق والعتاق للأجنبية بدخول الدار حيث لا يصلح أن يكون مانعاً لها من دخول الدار فلا يصلح أن يكون يميناً كما لا يصلح أن يكون طلاقاً فيلغو، قال ابن همام ومذهبنا مروى عن عمرو بن مسعود وابن عمرو، أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن سالم والقاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز والشعبي والنخعي والزهري والأسود وأبي بكر بن عبد الرحمان ومكحول الشامي في رجل قال إن تزوجتُ فلانةً فهي طالق أو لو أتزوجها فهي طالق أو كل امرأة أتزوجها فهي طالق قالوا هو كما قال وفي لفظ يجوز عليه ذلك وقد نقل مذهبنا أيضاً عن سعيد بن المسيب وعطاء وحماد بن أبي سليمان وشريح رحمهم الله، وقال الشافعي المعلق بالشرط تطليق والتعليق ليس مانعاً من سببية السبب بل هو مانع من الحكم كالبيع بشرط الخيار وحديث أبي ثعلبة الخشني نص فيه مفسر وقد ذكره ابن الجوزي بسنده ولم يتعرض بالطعن عليه وهو غير متهم في إظهار الحق وقوله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح» وما في معناه الظاهر أنه منع أو نفي لتعليق الطلاق بالنكاح، وأما تنجيز الطلاق قبل النكاح فلا يتصور من عاقل وبطلانه ظاهر فلا يحمل عليه كلام الحكيم الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم فإنه حينئذ في قوة قول من يقول لا يجب الصلاة على من لم يولد بعد.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ أيام يتربصن فيها ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ تستوفون عددها هذا حكم أجمع عليه الأمة وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ دلالة على أن العدة حق الرجال لأنها لصيانة الماء وعدم وقوع الشك في النسب والنسب إلى الرجال، ومن هاهنا قال أبو حنيفة إنه إذا طلق ذمي ذمية وكان معتقدهم أنه لا عدة فلا عدة عليها وأما إذا كان معتقدهم وجوب العدة يجب عليها العدة والحربية إذا خرجت إلينا مسلمة فلا عدة عليها وإن تزوجت على الفور جاز نكاحها لأن الحربي يلحق بالجمادات حتى كان

محلاً للتملك فلا حق له إلا أن تكون حاملاً لأن في بطنها ولد ثابت النسب، وعن أبي حنيفة أنه يجوز النكاح ولا يطأها كالحبلى من الزنى والأول أصح ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي أعطوهن ما يستمتعن به قال ابن عباس هذا إذا لم يسم لها صداقاً فلها المتعة فإن كان قد فرض لها صداق فلها نصف الصداق ولا متعة لها، فالآية على قول ابن عباس مخصوصة وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ومرجع القولين واحد يعني لا متعة وجوباً ولا استحباباً لمن طلّقت قبل المسيس وقد سمى لها مهراً، وقيل هذا أمر ندب فالمتعة لها مستحب مع نصف المهر وروي عن الحسن وسعيد بن جبير أن المتعة لها واجب بهذه الآية ونصف المسمّى بما في البقرة وقد ذكرنا الخلاف في وجوب المتعة واستحبابها ومقدارها في سورة البقرة فلا نعيده ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أي أخرجوهن من بيوتكم وخلوا سبيلهن إذ ليس لكم عليهن من عدة ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضرار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني مهورهن لأن المهر أجر على البضع وتقييد الإحلال له بإعطائها إنما هو خرج على حسب الواقع ومخرج عادة النبيّ ﷺ فإنه كان يعطهن مهورهن معجلة أو لإيثار الأفضل ولا مفهوم له إجماعاً ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ يعني رد الله عليك من الكفار بأن تسبى فتملك مثل صفية وجويرية وهذا القيد ليس للاحتراز أيضاً ولا مفهوم لها عند القائلين بالمفهوم، لأن مارية أم إبراهيم لم تكن مسبية بل كانت مما أهدى إليه مقوقس ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ يعني نساء قريش ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ يعني نساء بني زهرة ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ وكلمة مع للموافقة في نفس الفعل لا بحسب الزمان كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٤٤] والمراد المهاجرات مطلقاً، قال البغوي فمن لم يهاجر منهن لم يجز نكاحها، أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس عن أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة خطبني فاعتذرتُ إليه فعذرني فأنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أكن من المهاجرات وكنتُ من الطلقاء[1]، وروى ابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هاني قالت نزلت في هذه الآية ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أراد النبيّ ﷺ أن يتزوجني فنهي عني إذ لم أهاجر، قال البغوي ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل وقيل المراد بالهجرة الإسلام أي أسلمن معك قال رسول الله ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[2] رواه البخاري، وبتأويلهم ذلك يدل على أنه لم يكن نكاح غيرالمسلمة من اليهودية

(١) وعن أبي صالح مولى أم هاني قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أم هاني بنت أبي طالب فقالت يا رسول الله إني مرتمة وبني صغار فلما أدرك بنوها عرضت نفسها عليه فقال أما الآن فلا إن الله أنزل عليّ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك إلى قوله اللاتي هاجرن معك ولم تكن من المهاجرات ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٤، والرقاق باب ٢٦.

والنصرانية حلالاً له عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال البغوي فأما غير المؤمنة فلا تحل له إذا وهبت نفسها له واختلفوا في أنه هل كان حلالاً له نكاح اليهودية والنصرانية بالمهر فذهب جماعة إلى أنه لا يحلُّ له ذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ وقد ذكرنا تأويل بعضهم قوله تعالى ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ بالإسلام شرط مستغن عن الجزاء بما مضى وقوله وامرأة منصوب بفعل فسره ما قبله يعني ونحل لك امرأة مؤمنة أو عطف على ما سبق ولا يدفعه التقييد بأن التي للاستقبال فإن معنى الإحلال الإعلام بالحل إن أعلمناك حل ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ لك ولا تطلب مهراً إن اتفق ولذلك نكرها ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ شرط للشرط الأول معنى تقديره إن أراد النبيُّ أن يستنكح الواهبة نفسها أحللنا له إن وهبت نفسها فإن هبتها نفسها شرط للنكاح فإنها بمنزلة الإيجاب منها لا توجب له حلها ما لم يرد النبي نكاحها فإنها جارية مجرى القبول بها يتم النكاح فالحل موقوف على كلا الشرطين، وهما شطرا العلة أي النكاح والعدول من الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكرراً ثم الرجوع إليه بقوله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ حيث يجب عليهم المهر بالوطء أو الموت وإن لم يذكر إيذان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاق الكرامة لأجله وخالصة مصدر مؤكد على وزن عافية أي خلص إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلوصاً لك، وهذا التأويل إنما يتصور إذا كانت القيود احترازية والظاهر أنه حال من الضمير في وهبت والمعنى أنه وهبت حال كونها خالصة لك بلا مهر أو صفة لمصدر محذوف أي هبة خالصةً، أخرج ابن سعد عن عكرمة في قوله تعالى ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ الآية قال نزلت في أم شريك الدوسية، وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدوسي أن أم شريك عزية بنت جابر بن حكيم الدوسي عرضت نفسها على النبيّ ﷺ وكانت جميلة فقبلها فقالت عائشة ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير قالت أم شريك فأنا تلك فسماها الله مؤمنة، فقال: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ فلمّا نزلت هذه الآية قالت عائشة إن الله يسرع لك في هواك.

أخرج ابن سعد عن أبي رزين قال: همّ رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه فلمّا رأين ذلك جعلنه في حل من أنفسهن يؤثر من يشاء على من يشاء منهن فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ إلى قوله ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ يدل على أنه كان من خصائص النبيّ ﷺ أن ينعقد النكاح في حقه بغير مهر وذلك هو المراد بقوله تعالى: إن وهبت نفسها للنبي، يعني إن زوجت نفسها بغير مهر كما أن الزيادة على أربع من النساء كان من خصائصه ﷺ، وقيل هذه الآية تدل على أن انعقاد النكاح بلفظ الهبة كان من خصائص النبيّ ﷺ ولا يجوز ذلك لغيره، قال البغوي وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء وبه قال ربيعة ومالك والشافعي قالوا لا ينعقد النكاح لغير النبيّ ﷺ إلا بلفظ النكاح والتزويج، قلتُ وبه قال أحمد وذكر في ترجمة الآية في اختلاف الائمة قول أحمد إنه ينعقد النكاح بلفظ الهبة مع ذكر المهر، وقال أبو حنيفة

انعقاد النكاح بلفظ الهبة ليس من خصائص النبيّ ﷺ بل يجوز نكاح كل أحد بلفظ الهبة والبيع والصدقة والتمليك وكل لفظ وضع لتمليك العين مؤبداً ولا يجوز بلفظ الإجارة والإعارة وقال الكرخي يجوز بلفظ الإجارة والإعارة أيضاً لأن الثابت بهما تمليك المنفعة وذلك في النكاح أيضاً وقد أطلق الله سبحانه لفظ الأجرة على المهر حيث قال ﴿أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ قلنا الإجارة والإعارة ليسا سببين لملك المتعة فلا طريق للاستعارة هُناك ولا بلفظ الوصية لأنها توجب الملك مضافاً إلى ما بعد الموت، وعن الطحاوي أنه ينعقد به النكاح لأنه يثبت به ملك الرقبة في الجملة وعن الكرخي أنه قيد الوصية بالحال فإن قال أوصيتُ لك بنتي هذه الآن ينعقد لأنه صار به مجازاً عن التمليك، قلنا: الإضافة مأخوذ في مفهوم الوصية وعدمه في النكاح فيتضادان، وقال قوم لا ينعقد النكاح إلا بلفظ النكاح أو التزويج في حق النبيّ ﷺ أيضاً كما لا يصح في حق الأمة لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ وإنما أطلق لفظ الهبة في الآية على النكاح مجازاً.

قال البيضاوي محتجاً بهذه الآية على مذهب الشافعي أن اللفظ تابع للمعنى وقد خص النبيّ ﷺ بالمعنى إجماعاً، وهذا القول غير سديد فإن جواز إطلاق لفظ الهبة في النكاح إنما هو بطريق المجاز ولا وجه لتخصيص التكلم بالمجاز بحضرة الرسالة ﷺ والنكاح يصلح أن يكون معنى مجازياً للفظ الهبة ولا اختصاص بالنبي ﷺ لمعناه المجازي، فإن قيل معناه الحقيقي غير مراد في الآية البتة لأن المعنى الحقيقي للهبة تمليك العين وهو غير مراد بل المراد تمليك البضع بغير عوض فإذا اختص به معناه المجازي واللفظ تابع للمعنى فلا يجوز لغيره ﷺ النكاح بلفظ الهبة مجازاً، قلنا المعنى المجازي للهبة غير منحصر في تمليك البضع بغير عوض بل يجوز أن يطلق لفظ الهبة وأريد به تمليك البضع مطلقاً سواء كان بعوض أو بغير عوض وقال ابن همام إنما الكلام في تحقق طريق المجاز فنفاه الشافعي بناءً على انتفاء ما يجوز به التجوز إما إجمالاً فلأنه لو وجد لصح أن يتجوز بلفظ كل منهما عن الآخر بأن يقال نكحتُك هذا الثوب مراداً به وهبتُك أو ملكتُك وليس فليس وإما تفصيلاً فلأن التزويج هو التلفيق وضعاً والنكاح الضم ولا ضم ولا ازدواج في المالك والمملوك ولذا يفسد النكاح عند ورود ملك أحد الزوجين على الآخر ولو كان لم ينافه تأكد به، ولنا على الشافعي أولاً النقض الإجمالي وهو أنه لولا العلاقة المصححة للمجاز بين الهبة والنكاح لما جاز نكاح النبيّ ﷺ بلفظ الهبة وذلك جائز ولمّا ثبت العلاقة المصححة للمجاز بينهما وبين النكاح بلا عوض ثبت بينها وبين مطلق النكاح أيضاً لوجود الأعم في ضمن الأخص، وثانياً أن معنى الحقيقي للهبة تمليك العين وتمليك العين سبب لملك المتعة في محلها بواسطة ملك الرقبة وملك المتعة في محلها هو الثابت بالنكاح والسببية طريق المجاز، وأما عدم جواز استعارة النكاح لتمليك العين فلما ذكر في الأصول أنه لا يجوز استعارة اسم المسبب للسبب عندنا إلا إذا كان المقصود من السبب شرعيته كالبيع لملك الرقبة وليس ملك المتعة الذي هو موجب النكاح هو المقصود من التمليك بل ملك الرقبة، وقوله لا ضم

ولا ازدواج بين المالك والمملوك ممنوع والله أعلم.

قال البغوي اختلفوا في أنه هل كانت عند النبيّ ﷺ امرأة وهبت نفسها له قال ابن عباس ومجاهد لم تكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين وقوله ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ على طريق الشرط والجزاء وقال آخرون كانت عنده منهن، قال الشعبي هي زينب بنت خزيمة الأنصارية يقال لها أم المساكين وقال قتادة ميمونة بنت الحارث، وقال علي بن الحسين عليهما السلام والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر من بني أسد، أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن علي بن الحسين وابن سعد عن عكرمة أنها أم شريك بنت جابر وقال عروة بن الزبير هي خولة بنت حكيم من بني سليم.

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا﴾ أي ما أوجبنا ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على المؤمنين ﴿فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ من شرائط النكاح ووجوب القسم والمهر بالوطء حيث لم يسم وأن لا يتزوجوا أكثر من أربع ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ بالشراء وغيره بأن يكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية وأن يستبرأ قبل الوطء وما وسع الله الأمر فيهن في العدد، وعدم وجوب القسم والجملة معترضة ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ متعلقة بقوله خالصة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ لما يعسّر التحرز عنه ﴿رَّحِيمٗا﴾ بالتوسعة في مضانّ الحرج.

أخرج الشيخان في الصحيحين عن عائشة «أنها كانت تقول أما تستحيي المرأة أن تهب نفسها»[1] فأنزل الله ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾ الآية فقالت عائشة أرى ربك ليسارع لك في هواك[2]، وفي لفظ قالت عائشة كنتُ أغار على اللآتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول أتهب المرأة نفسها فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ الآية قلتُ ما أرى ربك إلا يسارع في هواك، قرأ نافع وحمزه والكسائي وحفص[3] تُرْجى بإسكان الياء بغير همز والباقون بهمزة مضمومة أي تؤخر من تشاء ﴿مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ﴾ قال البغوي اختلف المفسرون في معنى الآية فأشهر الأقاويل أنها في القسم بينهن وذلك أن التسوية في القسم بينهن كان واجباً عليه فلمّا نزلت هذه الآية سقط عنه فصار الاختيار إليه فيهن، قال أبو زيد وابن زيد نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبيّ ﷺ وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن النبيّ ﷺ شهراً حتى نزلت آية التخيير فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة وأن يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك من اختارت الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين فلا ينكحن أبداً وعلى أنه يؤوى إليه من يشاء منهن ويرجى من يشاء منهن فيرضين به قسم لهنَّ أو لم يقسم أو قسم لبعض دون بعض أو فضَّل بعضهن في النفقة والقسم، فيكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ٢٩، ومسلم في الرضاع حديث ٥٠، وابن ماجه في النكاح باب ٥٧.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣٣، باب ٧، والنكاح باب ٢٩، ومسلم في الرضاع حديث ٤٩.
(٣) وأبو جعفر وخلف ـ أبو محمد ـ.

خصائصه ﷺ فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط، قلتُ وليس هذا من خصائص النبيّ ﷺ بل الحكم كذلك في الأمة أيضاً فمن كان تحته نساء وقال لهن من تشاء منكن حقوق النكاح من النفقة والتسوية في القسم ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ومن رضي منكنَّ أن تبقى في نكاحي بلا مطالبة في النفقة على أن آوي إليَّ من أشاء منكن وأرجى منكن من أشاء سواء أقسم لكن أو لم أقسم أو أقسم لبعض دون بعض أو أفضل بعضكن على بعض في النفقة والكسوة والقسم فقلن له نحن نختارك وتركنا حقنا في النفقة والقسم يكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء والله أعلم.

قال البغوي: واختلفوا في أنه هل أخرج أحداً منهن عن القسم فقال بعضهم لم يخرج أحداً بل كان رسول الله ﷺ مع ما جعل الله له من ذلك يسوى بينهن في القسمة إلا سودة، فإنها رضيت بترك حقها من القسم وجعل يومها لعائشة، وقيل أخرج بعضهن. روى ابن جرير عن منصور عن أبي رزين قال لما نزل التخيير أشفقن أن يطلقهن فقلن يا رسول الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئتَ ودعنا على حالنا فنزلت هذه الآية ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ فأرجى رسول الله ﷺ بعضهن وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة فكان يقسم بينهن سواء وأرجى منهن خمساً أم حبيبة وسودة وصفية وميمونة وجويرية وكان يقسم لهن ما يشاء. روى البخاري عن معاذة عن عائشة أن رسول الله ﷺ «كان يستأذن في يوم المرأة منّا بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ الآية، فقلتُ لها ما كنتِ تقولين، قالت كنتُ أقول له إن كان ذاك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً» وقال مجاهد معناه ترجي من تشاء منهن يعني تعزل منهن من تشاء بغير طلاق وتردّ إليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد، وقيل معناه تطلّق منهن من تشاء وتمسك منهن من تشاء، وقال الحسن معناه تترك نكاح من شئتَ وتنكح من تشاء من نساء أمتك وقال كان النبيّ ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لغيره أن يخطبها حتى يتركها رسول الله ﷺ، وقيل معناه تقبل من تشاء من المؤمنات اللآتي وهبن أنفسهن لك فتؤويها إليها وتترك من تشاء فلا تقبل.

روى البغوي عن هشام عن أبيه قال كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة أما تستحي امرأة أن تهب نفسها للرجل فلمّا نزلت هذه الآية ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ فقلت: يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك، ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي طلبت واردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن عن أنفسهن ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا إثم ﴿عَلَيْكَ﴾ في شيء من ذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي أقرب إلى قرة أعينهن وعدم حزنهن ورضائهن جميعهن لأن حكم كلهن فيه سواء ثم من أويتَ منهن إليك وجدت ذلك تفضلاً ومن عزلتَ منهن علمتُ أنه بحكم الله وعلمتُ منك تفضلاً أيضاً حيث أبقيتَ في نكاحك من غير حاجة منك إليها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فاجتهدوا في إحسانه وفيه وعيد لمن لم ترض منهن بمشيئة رسوله ﷺ، وقيل معناه الله يعلم ما في قلوبكم من أمر النساء والميل إلى بعضهن

وإنما خيرناك فيهن تيسيراً لك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يتقي. أخرج ابن سعد عن عكرمة قال لما خَيَّرَ رسول الله ﷺ أزواجه واخترن الله ورسوله أنزل الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتاء الفوقانية والباقون بالياء التحتانية لأن تأنيث الجمع غير حقيقي ﴿لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي بعد هذا اليوم حتى لو ماتت واحدة منهن لم يحل له نكاح أخرى ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أصله تتبدل حذفت إحدى التاءين من مضارع التفعل ﴿بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾ من مزيدة، لتأكيد النفي، يعني لا يجوز لك أن تطلق منهن واحدة وتنكح مكانها أخرى، قال البغوي وذلك أن النبيّ ﷺ لما خيرهن واخترن الله ورسوله شكرهن الله وحرم على نبيه من النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن والاستبدال بهن وهذا قول ابن عباس وقتادة، واختلفوا في أنه هل أبيح له من بعد، أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي من طريق عطاء عن عائشة قالت لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم بقوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ فإن تلك الآية وإن تقدمها قراءة مسبوق بها نزولاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن أم سلمة مثله وأخرج ابن سعد عن ابن عباس مثله وذكر البغوي قول أنس مات رسول الله على التحريم، وقال البغوي قال عكرمة والضحاك معنى الآية لا يحل لك النساء بعد اللاتي أحللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها.

وقيل لأبي بن كعب لو مات نساء النبيّ ﷺ كان له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قيل قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال إنما أحل الله له ضرباً من النساء فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآية ثم قال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال أبو صالح أمرأن لا يتزوج أعرابية ولا عربية ويتزوج من نساء قومه من بنات العمّ وبنات العمَّة وبنات الخال وبنات الخالة إن شاء ثلاث مائة، وقال مجاهد لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن بقول لا يكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلا ما ملكت يمينك أُحل له ما ملكت يمينه من الكتابيات أن يتسرى بهن، وروي عن الضحاك معنى أن تبدَّل بهن أي ولا أن تبدل بأزواجك اللاتي في حبالتك أزواجاً غيرهن بأن تطلقهن وتنكح غيرهن فحرم عليه طلاق النساء اللاتي كن عنده إذ جعلهن أمهات المؤمنين وحرمهن على غيره حين اخترنه فأما نكاح غيرهن فلم يمنع عنه وقال ابن زيد في قوله ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾ إنهم كانوا يتبادلون في الجاهلية بأزواجهم يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي بأن تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله تعالى ولا أن تبدَّل بِهِنَّ من أزواج يعني لا تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته إلا ما ملكت يمينك فلا بأس بأن تبدل بجاريتك ما شئت وأما الحلائل فلا. عن أبي هريرة قال دخل عيينة بن حصين على النبيّ ﷺ بغير إذن وعائشة رضي الله عنها عنده فقال رسول الله ﷺ فأين الاستئذان؟ قال يا رسول الله ما استأذنتُ على

رجل من مصر منذ أدركتُ، ثم قال من هذه الحميرى إلى جنبك قال هذه عائشة أم المؤمنين، قال عيينة أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قد حرَّم ذلك»، فلمَّا خرج قالت عائشة من هذا يا رسول الله؟ قال هذا أحمق مطاع وإنه على ما ترين لسيد قومه ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي حسن الأزواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل دون مفعوله وهو قوله من أزواج لتوغله في التنكير وتقديره مفروضاً إعجابك بهن، قال البغوي يعني ليس لك أن تطلق أحداً من نسائك وتنكح بدلها أخرى ولو أعجبك جمالها قال ابن عباس إنها بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فلمَّا استشهد جعفر أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها فنهى عن ذلك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ محل ما الرفع استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء وقيل الاستثناء منقطع قال ابن عباس ملك رسول الله ﷺ بعد ذلك مارية يعني أم إبراهيم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ فتحفظوا أمركم ولا تتجاوزوا عمَّا حد لكم.

مسألة: قال البغوي في الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد نكاحها من النساء عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم امرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعو إلى نكاحها فليفعل»(١) رواه أبو داود وعن المغيرة بن شعبة قال خطبتُ امرأة فقال النبيّ ﷺ هل نظرتَ إليها؟ قلتُ لا، قال: «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وعن أبي هريرة أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار فقال النبيّ ﷺ: «انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيء»(٣) رواه مسلم، قال الحميدي فإن في أعينهن صفرة والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

أخرج الشيخان في الصحيحين عن أنس قال: «لمَّا تزوج النبيّ ﷺ زينب بنت جحش

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح باب ١٨.
(٢) أخرجه الترمذي في النكاح باب ٥، والنسائي في النكاح باب ١٧، وابن ماجه في النكاح باب ٩، وأحمد في المسند ٤/ ٢٤٥، ٢٤٦.
(٣) أخرجه الترمذي في النكاح باب ٥.

دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فإذا كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلمّا رأى ذلك قام فلمَّا قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبيّ ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا فانطلقتُ فجئتُ فأخبرتُ النبيّ ﷺ أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبتُ أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه» فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، وذكر البغوي حديث ابن شهاب عن أنس أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة قال أمهاتي يواطئنني على خدمة النبي ﷺ فخدمتُه عشر سنين وتوفي النبيّ ﷺ وأنا ابن عشرين سنة وكنتُ أعلم الناس بشأن الحجاب حين نزل كان أول ما نزل في مبنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أصبح النبيّ ﷺ بها عروساً فدعي القوم فأصابوا من الطعام الحديث، فذكر مثل رواية البخاري وفي رواية للبخاري قال أنس كنتُ أعلم الناس بهذه الآية آية الحجاب لما أهديت زينت إلى النبيّ ﷺ كانت معه في البيت صنع طعاماً ودعا القوم فقعدوا يتحدثون فجعل النبيّ ﷺ يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون فأنزل الله تعالى تلك الآية وضرب الحجاب وقام القوم، وفي رواية له قال أنس أولم حين بنى النبيّ ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلتُ على الطعام داعياً فيجيء القوم فيأكلون ويخرجون فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه فقلت يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه فقال ارفعوا طعامكم وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبيّ ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله فقالت وعليك السَّلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك بارك الله لك فذهب إلى حجر نسائه كِلّهن يقول لهن كما قال لعائشة ويقلن له كما قالت ثم رجع النبيّ ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون وكان النبيّ ﷺ شديد الحياء فخرج منعطفاً نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرتُه أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في إسكفة الباب داخلةً الأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه ونزلت آية الحجاب، وفي رواية للبخاري قال أنس أولم رسول الله ﷺ حين بنى بزينب فأشبع الناس خبزاً ولحماً ثم خرج إلى حجرات أمهات المؤمنين كما كان يصنع صبيحة بنائه فيسلم عليهن ويدعو لهن ويسلمن عليه ويدعون له، فلمَّا رجع هو إلى بيته رأى رجلين جرى بينهما الحديث فلمَّا رآهما رجع عن بيته فلمَّا رأى الرجلان نبي الله ﷺ قاموا فرجع حتى دخل البيت وأرخى الستر بيني وبينه، وأخرج الترمذي وحسنه عن أنس قال كنتُ مع رسول الله ﷺ فأتى باب امرأة عرس بها فإذا عندها قوم فانطلق ثم رجع وقد خرجوا فدخل وأرخى بيني وبينه ستراً فذكرتُه لأبي طلحة فقال لئن كان كما تقول لينزلن في هذا شيء فنزلت آية الحجاب.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت: «كنتُ آكل مع النبيّ ﷺ في قعب فمرَّ عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه إصبعي فقال أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزلت آية الحجاب» وكذا أخرج البخاري في الأدب المفرد والنسائي وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال دخل رجل على النبيّ ﷺ فأطال الجلوس فخرج النبيّ ﷺ ثلاث مرات ليخرج فلم يفعل فدخل عمر فرأى الكراهية في وجهه فقال للرجل لعلّك آذيتَ النبي ﷺ؟ فقال

النبيّ ﷺ لقد قمتُ ثلاثاً لكن يتبعني فلم يفعل، فقال له عمر يا رسول الله لو اتخذتَ حجاباً فإن نساءك لسن كسائر النساء وذلك أطهر لقلوبهم فنزلت آية الحجاب، وقد مرّ في سورة البقرة ما رواه البخاري وغيره عن عمر قال: وافقت[1] ربي في ثلاث فقلتُ لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلّى فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وقلت يا رسول الله إن نسائك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه من الغيرة فقلت لهن ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] فنزلت كذلك، وكذا أخرج النسائي من رواية أنس. وذكر البغوي نحوه عن ابن عباس وقال البغوي وقد صح في سبب نزول آية الحجاب أن أزواج النبيّ ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المصانع وهو صعيد أفيح وكان عمر يقول للنبي ﷺ أحجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل فخرجت سودة بنت زمعة ذات ليلة من الليالي عشاءً وكانت امرأة طويلة فناداها عمر أن قد عرفناك حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله تعالى الحجاب، قال الحافظ ابن حجر يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبيل قصة زينب فلقربه منها أطلق نزول الآية بهذا السبب ولا مانع من تعدد السبب.

﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء مفرغ منصوب على الظرف أو على المصدر أو على الحال يعني لا تدخلوا في وقت إلا وقت أن يؤذن لكم أو لا تدخلوا دخولاً إلا دخولاً مأذوناً لكم أو لا تدخلوا في حال إلا حال أن يؤذن لكم ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلق بيؤذن لتضمنه معنى يدعى وفيه إشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أذن كما هو إشعار في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي غير منتظرين وقت نضجه حال من فاعل لا تدخلوا أو المجرور في لكم داخل في الاستثناء أي لا تدخلوا إلا بإذن وإلا غير ناظرين وهذا الاستثناء مختص بمن أراد الدخول لأجل الطعام لا مطلقاً، أمال حمزة والكسائي[2] إناه فهو حينئذ مصدر أنى الطعام إذا أدرك يقال إني الحميم إذا انتهى حره وإني أن يفعل كذا أي حان وقال البغوي إنى بكسر الهمزة مقصورة فإذا فتحتها مددت وقلت الآناء وفيه لغتان آنى يأني مثل رمى يرمي وأن يأبنُ مثل بَاعَ يَبِيْعُ، وفي القاموس إِنَى الشيء يأني أيناً وإناء وإناً بالكسر فهو إني كغِنًى حان وأدرك وإنى الحميم انتهى حره، فهو آن وبلغ هذا أناه يعني بالفتح وبكسر يعني بلغ غايته أو نضجه أو إدراكه ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ ويعني أكلتم الطعام ﴿فَانتَشِرُوا﴾ يعني تفرقوا وأخرجوا من منزله ولا تمكثوا بعد الأكل ﴿وَلَا

(١) عن ابن مسعود قال فضل على الناس عمر بن الخطاب بأربع بذكره الاسارى يوم بدر أمر بقتلهم فأنزل الله لولا كتاب من الله سبق الآية وبذكره الحجاب أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم أن يحتجبن فقالت له زينب إنك لتغار علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا فأنزل الله تعالى وإذا سألتموهن متاعاً فاسئلوهن من وراء حجاب وبدعوة النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أيد الإسلام بعمر وبرأيه في أبي بكر كان أول الناس من بايعه ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) وهشام وخلف وقاله ورش من طريق الأزرق ـ أبو محمد ـ.

﴿مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ مجرور معطوف على ناظرين أو منصوب أي لا تدخلوها مستأنسين وقيل تقديره ولا تمكثوا مستأنسين فهو عطف جملة على جملة نهوا أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض، لأجل حديث يحدثه به ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ اللبث ﴿كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ لتضيق المنزل عليه وعلى أهله واشتغاله بما لا يعنيه تعليل لما سبق ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ ولا يخرجكم عطف على الجملة الاسمية السابقة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ عطف أو حال أو معترضة أي لا يترك الله تأديبكم حياءً فإن التأديب حق، وقال البيضاوي يعني إخراجكم حق فينبغي أن لا يترك حياءً كما لا يترك الله الحق فيأمركم بالخروج ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي نساء النبيّ ﷺ لدلالة بيوت النبي عليهن لأن فيها نساؤه ﴿مَتَٰعًا﴾ أي شيئاً ينتفع به استعارةً أو استهاباً أو ردًّا للعارية ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ المتاع ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي الستر الجملة الشرطية معطوفة على قوله ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ قال البغوي فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله ﷺ منتقبة كانت أو غير منتقبة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي السؤال من وراء الحجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر الشيطانية الجملة تعليل لما سبق.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال بلغ النبيّ ﷺ أن رجلاً يقول لو توفي النبيّ ﷺ تزوجتُ فلانة من بعده فنزلت ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي ما صح ﴿لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي تفعلوا ما يكرهه ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي من بعد وفاته أو فراقه ﴿أَبَدًا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال نزلت في رجل هَمَّ أن يتزوج بعض نساء النبيّ ﷺ بعده، قال سفيان ذكر أنها عائشة وأخرج عن السديّ قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا لئن حَدَثَ حَدَثٌ لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت هذه الآية، وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال نزلت في طلحة بن عبيد الله لأنه قال إذا توفي رسول الله ﷺ تزوجتُ عائشة، وأخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلاً أتي بعض أزواج النبيّ ﷺ فكلمها وهو ابن عمها فقال النبيّ ﷺ لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا فقال يا رسول الله إنها ابنة عمي والله ما قلتُ لها منكراً ولا قالت لي، قال النبيّ ﷺ قد عرفتُ ذلك إنَّه ليس أحدٌ أغيرُ من الله وإنَّه ليس أحد أغير مني فمضى فقال يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجها من بعده فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس فأعتق ذلكِ الرجل رقبة وحمل عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبة من كلمته، قال البغوي روى معمر عن الزهري أن العالية بنت ظبيان التي طلقها النبيّ ﷺ تزوجت رجلاً وولدت له وذلك قبل تحريم أزواج النبيّ ﷺ على الناس قال البيضاوي خصمت التي لم يدخل بها النبي ﷺ، روي أن الأشعث بن قيس تزوج المستعيذة في أيام عمر رضي الله عنه فهمّ عمر برجمها فأخبر أنه ﷺ فارقها قبل أن يمسها فتركه من غير نكير ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي ذنباً عظيماً قلتُ وجاز أن يكون ذلك لأجل أن النبيّ ﷺ حيٌّ في قبره ولذلك لم يورث ولم يتئم أزواجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليَّ عند قبري سمعتُه ومن صلّى عليَّ نائياً أبلغتُه» رواه البيهقي

في شعب الإيمان ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ من أذى النبيّ ﷺ أو من نكاحهن ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم قال البغوي نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة رضي الله عنها بعد رسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ تعليل لجزاء محذوف أقيم مقامه تقديره يعلمه الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه وفي هذا التعميم والبرهان على المقصود بعد التصريح بالنهي عن نكاحهن مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد ولذلك أعتق ذلك الرجل الذي هم بنكاح بعض أزواج النبيّ ﷺ رقبة وحمل عشر أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبةً من كلمته كما مر في حديث ابن عباس قال البغوي ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ أي، في ترك الاحتجاب من آبائهن ﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ وإنما لم يذكر العم والخال لأنه لما ذكر أبناء أخوانهن وأبناء أخواتهن يظهر بدلالة النص حكم الأعمام والأخوال لأنهن عمات بالنسبة إلى أبناء الأخوة وخالات بالنسبة إلى أبناء الأخوات والعم والعمة من جنس واحد كالخال والخالة.

روى البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة قالت: «استأذن أفلح أخ أبي القعيس بعدما أنزل الحجاب فقلت لا آذن حتى استأذن فيه رسول الله ﷺ فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أرضعني ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس، فدخل عليَّ النبيّ ﷺ فقلتُ يا رسول الله إن أفلح أخا أبي القعيس استأذن فأبيتُ أن آذن له حتى أستأذنك، فقال النبيّ ﷺ: «تأذنين عمك؟ قلتُ يا رسول الله إن الرجل ليس هو أرضعني ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس فقال ائذّني له فإنه عمكِ تربت يمينكِ»[(١)] قال عروة فلذلك كانت عائشة تقول حرموا من الرضاع ما تحرموا من النسب ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني مؤمنات حرائر ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء وقيل من الإماء خاصة كما ذكرنا في سورة النور ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ هذه الجملة معطوفة على مضمون ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ يعني واتقين الله في البروز للأجانب وفي كل ما أمرتن به وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لمزيد التأكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أفعال العباد ﴿شَهِيدًا﴾ فيجازي عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ قال ابن عباس إن الله يرحم النبيّ ﷺ والملائكة يدعون له، وعن ابن عباس أيضاً يصلون أي يبركون وقيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار، قال أبو العالية صلاة الله عليه ثناؤه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء وقد ذكرنا الكلام في الصلاة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ ادعوا له واسألوا الله تعالى أن يرحمه ﴿وَسَلِّمُواْ﴾ عليه ﴿تَسْلِيمًا﴾ يعني حياة بتحية السّلام وقولوا السّلام عليك أيها النبي ورحمة

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ٦٤، والأطعمة باب ٥٩، ومسلم في النكاح حديث ٨٧، ٩٢، ٩٤، ٩٥.

الله وبركاته، والآية تدل على وجوب الصلاة والسّلام في الجملة ولو في العمر مرة وبه قال أبو حنيفة ومالك رحمهما الله وإختاره الطحاوي، قال ابن همام موجب الأمر القاطع الافتراض في العمر مرة لأنه لا يقتضي التكرار وقلنا به، وقيل يجب في كل صلاة بعد التشهد في القعدة الأخيرة وبه قال الشافعي وأحمد قال في رحمة الأمة في اختلاف الأئمة الصلاة على النبيّ ﷺ في التشهد الأخير عند أبي حنيفة ومالك سنة وفرض عند الشافعي وقال أحمد في أشهر روايتيه يبطل صلاته بتركها، وقال ابن الجوزي فرض عند أحمد وعنه أنها سنة، وقيل يجب الصلاة كلما جرى ذكره ﷺ وبه قال الكرخي. استدل من يقول بوجوبها في الصلاة بحديث سهل بن سعد أن النبيّ ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يصل على النبيّ ﷺ»(١) رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني وفيه عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده، قال الدارقطني عبد المهيمن ليس بالقوي وقال ابن حبان لا يحتج به ورواه ابن الجوزي بلفظ «لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ولا صلاة لمن لم يصل على النبيّ ﷺ ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار»(٢) وفيه عبد المهيمن ضعيف لا يحتج به وأخرج الطبراني عن أبيّ بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده مرفوعاً نحوه قالوا حديث عبد المهيمن أشبه بالصواب مع أن جماعة قد تكلموا في أبيّ بن عباس وبحديث أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى صلاةً لم يصل فيها عليَّ ولا على أهل بيتي لم يقبل منه»(٣) رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني قال ابن الجوزي وفيه جابر الجعفي ضعيف، وقد اختلف فيه فوقفه على ابن مسعود تارة ورفعه أخرى وذكره ابن همام عن ابن مسعود قال قال ابن الجوزي فيه جابر ضعيف وقد اختلف فيه فوقفه تارةً ورفعه أخرى، وروى الحاكم والبيهقي عن يحيى بن السباق عن رجل من بني الحارث عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسّلام: «إذا تشهد أحدكم فليقل اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد كما صليتَ وباركتَ وترحمتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(٤)، قال الحافظ ابن حجر رجاله ثقات إلا هذا الرجل الحارثي فينظر فيه قال ابن همام حديث لا صلاة لمن لم يصل عليَّ ضعفه أهل الحديث كلهم ولو صح فمعناه كاملةً أو لمن لم يصل عليّ في العمر مرةً.

وقال الحافظ ابن حجر أقوى من هذا الحديث حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبيّ ﷺ فقال: «عجَّلَ هذا» ثم دعاه ثم

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣٣، باب ٨، والأدب باب ٩٣.
(٢) أخرجه الدارقطني في سننه ١/ ٣٥٥.
(٣) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٦.
(٤) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

قال له ولغيره «إذا صلّى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبيّ ﷺ ثم ليدع بما شاء»[١] رواه أبو داود والنسائي والترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم، قال ولفظ الترمذي «بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل فصلّى فقال اللّهم اغفر لي وارحمني فقال رسول الله ﷺ: «عجلت أيها المصلي إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله وصل عليَّ ثم ادعه» قال ثم صلّى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلّى على النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «أيها المصلّي أدع تجب»[٢] رواه الترمذي وروى أبو داود والنسائي نحوه، قلتُ: ويمكن الاستدلال على وجوب الصلاة على النبيّ ﷺ في الصلاة بعد التشهد بأن المراد بالأمر في هذه الآية أن يصلي عليه ﷺ في الصلاة كما إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③﴾ [المدثر: ٣] تكبير التحريمة وبقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله تعالى: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧] والقيام والركوع والسجود في الصلاة وبقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠] القراءة في الصلاة يدل على هذا ما رواه البخاري عن كعب بن عجُرة وكذا في حديث أبي سعيد الخدري: قيل يا رسول الله أما السّلام عليك فقد عرفنا فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا اللّهم صل على محمد إلى آخره» يعني قد عرفنا السَّلام في التشهد وهو قوله السَّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فكيف نصلّي حينئذ فعلَّم رسول الله ﷺ بقوله: «اللّهم صلّ على محمد» إلى آخره، وقد تلقته الأمة بالقبول وأجمعوا على جعلها بعد التشهد وإن اختلفوا في كونها فريضة فعلم بهذا الحديث أن مراد الله سبحانه بالأمر في هذه الآية جعلها بعد التشهد والله أعلم.

واستدل من يقول بوجوب الصلاة كلَّما جرى ذكره ﷺ بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرتُ عنده فلم يصل عليَّ ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة»[٣] رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه، وحديث جابر بن سمرة عنه ﷺ «من ذكرتُ عنده فلم يصلّ عليّ فدخل النار فأبعده الله عزّ وجلّ»[٤] وحديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «أتاني جبرئيل من ذكرتَ عنده فلم يصل عليك فدخل النار فأبعده الله عز وجل»[٥] روى الحديثين الطبراني وروى ابن السني عن جابر مرفوعاً بلفظ «من ذكرتُ عنده فلم يصل علي فقد شقي»[٦] وعن عليّ قال قال رسول الله ﷺ: «البخيل من ذكرتُ عنده فلم

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣٧٩، والحاكم في المستدرك ١/ ٢٦٩.
(٢) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٣، وأحمد في المسند ٦/ ١٨.
(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٦٤.
(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١٠٠.
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٣٨.
(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٢٩٢.

يصل عليّ»[١] رواه الترمذي ورواه أحمد عن الحسين بن علي رضي الله عنهما وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب، وروى الطبراني بسند حسن عن الحسين بن علي رضي الله عنهما مرفوعاً «من ذكرتُ عنده فخطىء الصلاة عليَّ خطىء طريق الجنة»[٢] وروى النسائي بسند صحيح عن أنس «من ذكرت عنده فليصل عليّ فإنه من صلى عليَّ صلّى الله عليه وسلَّم عشراً»[٣].

فصل

في فضل الصلاة والسَّلام على النبيّ ﷺ وكيفيتها: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة فقال ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبيّ ﷺ فقلتُ بلى فأهدها لي، فقال: «سألنا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت فإن الله قد علّمنا كيف نسلّم عليك؟ قال: «قولوا اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمد كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[٤] متفق عليه إلا أن مسلماً لم يذكر على إبراهيم في الموضعين، وعن أبي حميد الساعدي قال قالوا يا رسول الله كيف نصلّي عليك فقال رسول الله ﷺ «قولوا اللّهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صلّيت على آل إبراهيم وبارك على محمَّد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[٥] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشراً»[٦] رواه مسلم، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليَّ صلاة واحدة صلّى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات»[٧] رواه أحمد والبخاري في الأدب والنسائي والحاكم وصححه، وعن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم صلاة»[٨] رواه الترمذي، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السّلام»[٩] رواه النسائي

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣٩.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٣٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٢٠٨، ٢١٥٧، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٥٠٨.

(٣) أخرجه النسائي في الأذان باب ٣٧، والسهو باب ٥.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٠، وتفسير سورة ٣٣، باب ١٠، والدعوات باب ٣٢، ٣٣، ومسلم في الصلاة حديث ٦٥ ـ ٦٦.

(٥) أخرجه البخاري في أحادث الأنبياء باب ١٠، ومسلم في الصلاة حديث ٦٩.

(٦) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ٧٠.

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٦٨، ٣٧٢، ٣٧٥، ٤٨٥.

(٨) أخرجه الترمذي في الوتر باب ٢١.

(٩) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١٢٩، والنسائي في السهو باب ٤٦، والدارمي في الرقاق باب ٥٨، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٧، ٤٤١، ٤٥٢، ٢/ ٢٥١.

والدارمي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردّ الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السَّلام»[(١)] رواه أبو داود والبيهقي في الدعوات الكبير، وعنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[(٢)] وعن أبي طلحة «أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشر في وجهه فقال: «إنه جاءني جبرئيل فقال إن ربك يقول أما يرضيك يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليتُ عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمتُ عليه عشراً»[(٣)] رواه النسائي والدارمي.

وعن أبي بن كعب قال قلتُ يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال «ما شئتَ»، قال الربع؟ قال «ما شئت وإن زدت فهو خير لك»، قلتُ النصف؟ قال «ما شئتَ وإن زدت فهو خير لك»، قلتُ فالثلثين؟ قال «ما شئتَ فإن زدت فهو خير لك»، قلتُ أجعل لك صلاتي كلها قال: «إذاً تكفى همك ويكفر لك ذنبك»[(٤)] رواه الترمذي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلّى علينا أهل البيت فليقل اللّهم صلّ على محمد النبيّ ﷺ الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليتَ على إبراهيم إنك حميد مجيد»[(٥)] رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: «من صلّى على النبيّ ﷺ واحدة صلّى الله عليه وملائكته سبعين صلاةً»[(٦)] رواه أحمد، وعن رويفع أن رسول الله ﷺ قال: «من صلّى على محمّد وقال: «اللّهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»[(٧)] رواه أحمد، وعن عبد الرحمن بن عوف قال خرج رسول الله ﷺ حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خشيتُ أن يكون الله توفاه قال فجئتُ أنظر فرفع رأسه فقال «ما لك؟» فذكرتُ ذلك له قال فقال: «إن جبرئيل عليه السلام قال لي ألا أبشرك أن الله عزَّ وجلَّ يقول لك من صلّى عليك صليتُ عليه ومن سلّم عليك سلمتُ عليه»[(٨)] رواه أحمد، وعن عمر بن الخطاب قال: «إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلّي على نبيك»[(٩)] رواه الترمذي، وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «من صلّى عليّ

(١) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٩٦.
(٢) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٩٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٧.
(٣) أخرجه النسائي في الأذان باب ٣٧، والسهو باب ٥، والدارمي في الرقاق باب ٥٨.
(٤) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٢٣.
(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٧٩.
(٦) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦٠.
(٧) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٠٨.
(٨) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٥٩.
(٩) أخرجه الترمذي في الوتر باب ٢١.

صلاةً صلت عليه الملائكة ما صلّى عليّ فليقلل العبد من ذلك أو ليكثر»[١] رواه البغوي وعن عليّ قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ صلاةً كتب له قيراط والقيراط مثل أحد»[٢] رواه عبد الرزاق في الجامع بسند حسن، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة»[٣][٤] رواه الطبراني في الكبير بسند حسن.

مسألة: هل يجوز الصلاة والسَّلام على غير الأنبياء والصحيح أنه يجوز تبعاً ويكره استقلالاً كما يكره أن يقال محمد عزّ وجلّ مع كونه عزيزاً جليلاً لاختصاصه بالأنبياء عرفاً كاختصاص ذلك بالله تعالى وقد ذكرنا هذه المسألة مبسوطاً في سورة التوبة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة ٣/ ١٩٨، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٨٩، ٥/ ٤٨.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في جامع المسانيد ٢/ ٢٨.

(٣) وعن أبي بكر الصديق قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فسلم فرد النبي صلى الله عليه وسلم وأطلق وجهه وأجلسه إلى جنبه فلما قضى الرجل حاجته نهض فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر هذا الرجل يرفع له كل يوم كعمل أهل الأرض قلت ولم ذاك قال إنه كلما أصبح صلى عليّ عشر مرات كصلاة الخلق أجمع قلت وما ذاك قال يقول اللهم صل على محمد النبي عدد من صلى من خلقك وصل على محمد النبي كما ينبغي لنا أن نصلي عليه وصل على محمد النبي كما أمرتنا أن نصلي عليه، عن أبي بكر الصديق قال الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أمحق للخطايا من الماء للنار والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من عتق الرقاب وحب الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل من مهج الأنفس أو قال من ضرب السيف في سبيل الله ـ منه نوّر الله مرقده ـ.

(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٤٥٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٢٠، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٨٩، ٥/ ٥١، ١٣٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢١٦٤.

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ قال البغوي قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا عزير ابن الله ويد الله مغلولة، وقالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء، وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله. وثالثُ ثَلاَثَة. وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد» وفي رواية ابن عباس «وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً»[1] رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر يبدي الأمر أقلب الليل والنهار»[2] متفق عليه، وقيل معنى يؤذيني يلحدون في أسمائه وصفاته وقال عكرمة هم أصحاب التصاوير، عن أبي زرعة أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرةً وليخلقوا حبة أو شعيرة»[3] متفق عليه، وروى البخاري عن ابن عباس «من صور صورةً فإن الله معذبه حتى ينفخ فيه الروح فليس بنافخ فيها أبداً»[4] وقيل معنى الأذى مخالفة أمر الله وارتكاب معاصيه وإنما ذكر على ما يتعارف الناس بينهم والله منزه من أن يلحقه اذىً من أحد ويؤذون ﴿رَسُولَهُۥ﴾ قال ابن عباس هو أنه شج وجهه وكسرت رباعيته وقيل ساحر شاعر معلم مجنون، وهذا الذي ذكرنا إنما يستقيم على قول من جوز إطلاق اللفظ الواحد على معنيين وعند الجمهور معناه أن الذين يرتكبون ما يكرهه الله ورسوله وجاز أن يكون معنى الآية الذين يؤذون رسول الله وذكر الله لتعظيم الرسول كأنَّ من آذى الرسول فقد آذى الله. أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس أن الآية نزلت في الذين طعنوا على النبيّ ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس إنها نزلت في عبد الله ابن أبيّ وناس معه قذفوا عائشة الصديقة الطيبة فخطب النبيّ ﷺ وقال من يعذرني من رجل

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢، باب ٨، والنسائي في الجنائز باب ١١٧، وأحمد في المسند ٢/ ٣٥١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٥، باب ١، والتوحيد باب ٣٥، والأدب باب ١٠١، ومسلم في الألفاظ حديث ١، ٢، ٥، ٦.

(٣) أخرجه البخاري في اللباس باب ٩٠، والتوحيد باب ٥٦، ومسلم في اللباس حديث ١٠١.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع باب ١٠٤.

يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني فنزلت، عن أنس وأبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال قال الله تعالى: «من أهان - ويروى - من عادى ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما رددتُ في شيء أنا فاعله ما رددت في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه وما تقرب بي عبدي المؤمن بمثل الزهد في الدنيا ولا يعبدني بمثل ما افترضتُه عليه»(١) رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى يقول: «يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني قال يا ربّ كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمتَ أنك لو عدتَّه لوجدتني عنده يا ابن آدم استطعمتُك فلم تطعمني»(٢) الحديث نحوه. رواه مسلم، قلتُ ولا شك أن معاداة الأولياء لمَّا كان معاداة ومحاربة مع الله تعالى وأسند الله سبحانه مرض أوليائه إلى نفسه تعالى عن ذلك علواً كبيراً لأجل وصل غير متكيف فإسناد إيذاء الرسول ﷺ إلى الله تعالى أولى وقيل نظراً إلى ما ذكرنا من الأحاديث معنى الآية ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ أولياء الله على حذف المضاف كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] يعني أهل القرية وهذا القول عندي غير سديد لأن ذلك يفضي إلى تقديم ذكر الأولياء على ذكر الرسول الله ﷺ فإن قيل هو تخصيص بعد تعميم فإن الرسول داخل في أولياء الله؟ قلنا لو كان كذلك لزم التكرار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾، جملة إن الذين يؤذون الله ورسوله مستأنفة كأنه في جواب من سأل أنا أمرنا بالصلاة والسّلام على النبيّ ﷺ فما شأن من آذاه فقال الله تعالى لعنهم الله الخ.

مسألة: من آذى رسول الله ﷺ بطعن في شخصه أو دينه أو نسبه أو صفة من صفاته أو بوجه من وجوه الشين فيه صراحة أو كناية أو تعريضاً أو إشارة كفر ولعنة الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ له عذاب جهنم، وهل يقبل توبته؟ قال ابن همام كل من أبغض رسول الله ﷺ بقلبه كان مرتداً فالسبَابُ بالطريق الأولىٰ ويقتل عندنا حدّاً فلا تقبل توبته في إسقاط القتل قالوا هذا مذهب أهل الكوفة ومالك، ونقل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولا فرق بين أن يجيء تائباً بنفسه أو شهدوا عليه بذلك بخلاف غيره من موجبات الكفر فإن الإنكار فيها توبة ولا تعمل الشهادة معه حتى قالوا بقتل أن سبَّ سكران ولا يعفى عنه، ولا بد من تقييده بما إذا كان سكره بسبب محظور باشره باختياره بلا إكراه وإلا فهو كالمجنون، وقال الخطابي لا أعلم أحداً خالف في وجوب قتله وأما قتله في حق من حقوق الله تعالى فتعمل توبته في إسقاط قتله ولا يحكم بارتداد من أتى بكلمة الكفر سكران في غير سباب النبيّ ﷺ وإن كان السكر بسبب محظور باشره باختياره بلا إكراه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي من غير أن يعملوا ما يوجب

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨، وأحمد في المسند ٦/ ٢٥٦.
(٢) أخرجه مسلم في البر حديث ٤٣.

أذاهم وقال يقعون فيهم ويرمون بغير جرم ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ تنكير البهتان والإثم للتفخيم، قال مقاتل نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل نزلت في شأن عائشة رضي الله عنها، قلتُ اللفظ عام في كل من يؤذي مؤمناً[(١)] أو مؤمنة بأيٍّ وجه كان وإن كان المورد خاصّاً عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[(٢)] رواه الترمذي والنسائي، وسب عائشة هو سب النبيّ ﷺ عرفاً وعقلاً ونقلاً لما ذكرنا في قول جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قوله ﷺ «من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني»[(٣)] يعني عبد الله بن أبيّ حين قذف عائشة فقول من قال هاهنا إنها نزلت في شأن عائشة معناه أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ نزلت في شأن عائشة لا الجملة الأخيرة وحدها، وكذا من سبّ علياً فقد آذى رسول الله ﷺ حيث قال رسول الله ﷺ: «أنت مني وأنا منك»[(٤)] رواه الشيخان في الصحيحين عن البراء بن عازب بل سب الصحابة عامتهم يفضي إلى إيذاء النبيّ ﷺ عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»[(٥)] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب والله أعلم.

وقال الضحاك والكلبي نزلت الآية في شأن الزناة الذين يمشون في طُرق المدينة وهم المنافقون يتبعون النساء إذا برزن في الليل لقضاء حوائجهن فيغمزون المرأة فإن سكتت اتبعوها وإن زجرتهم انتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة لأن زي الكل كان واحداً يخرجن في درع وخمار الحرة والأمة فشكون ذلك إلى أزواجهن فذكروها لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ثم نهين الحرائر أن يتشبهن بالإماء في الآية اللاحقة والله أعلم.

أخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك وأخرج نحوه عن الحسن ومحمد بن كعب القرظي قال كان نساء النبيّ ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين فشكون ذلك فقيل ذلك للمنافقين فقالوا إنما نفعله بالإماء فنزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ﴾ أمر بتقدير اللام أي ليدنين ﴿عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ جمع

---

(١) عن قتادة في الآية قال إياكم وأذي المؤمنين فإن الله يحوطه ويغضب له ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٤، ٥، والرقاق باب ٢٦، ومسلم في الإيمان حديث ٦٤، ٦٥.

(٣) روي الحديث بلفظ: «من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي»، أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٤، باب ٦، والمغازي باب ٣٤٠، والشهادات باب ٢، ١٥، ومسلم في التوبة حديث ٥٦، وأحمد في المسند ٦/١٩٦.

(٤) أخرجه الترمذي حديث ٣٧١٦، وأحمد في المسند ١/١٠٨، ١٦٢، ٦/٦٨، ٤٣٢.

(٥) أخرجه الترمذي حديث ٣٨٦٢، وأحمد في المسند ٥/٥٤، ٥٧.

جلباب وهي الملحفة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، روى البخاري عن عائشة قالت: «خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين قالت فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق فدخلت، فقالت يا رسول الله إني خرجتُ لبعض حاجتي فقال عمر كذا وكذا قالت فأوحى الله تعالى إليه ثم رفع عنه وإن العرق[1] في يده ما وضعه فقال: «إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن»، قلتُ يعني أذن لكن أن تخرجن متجلببات، قال ابن عباس وأبو عبيدة أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحداً ليعلم أنهن الحرائر ومن للتبعيض لأن المرأة ترخي بعض جلبابها ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ بإضمار إلى متعلق بأدنى أي أقرب إلى أن يعرفن أو بتقدير المضاف أي أدنى أسباب معرفتهن أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ عطف على يعرفن أي فلا يتعرضهن أهل النفاق والفسق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعى مصالحهم حتى الجزئيات منها، قال أنس مرّت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع[2] أتشبهين بالحرائر ألقي القناع.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم وعما يتعرضون للنساء ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي ضعف إيمان وقلة ثبات عليه أو فجور عن تزلزلهم في الدين أو فجورهم ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الذين يوقعون في المدينة الرجفة وهو الزلزلة والاضطراب الشديد، وذلك أن أناساً من المنافقين كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله ﷺ يوقعون في الناس الأخبار الكاذبة يقولون إنهم قتلوا وانهزموا ويقولون قد أتاكم العدو ونحوها وقال الكلبي (يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) ويفشون الأخبار يعني الكاذبة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ جواب لقسم محذوف لفظاً وللقسم والشرط معاً معنى أي لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء أو لنسلطنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطف على لنغرينك لأنه يجوز أن يجاب به القسم لصحة قولك لأن لم ينتهوا لا يجاورونك ولمّا كان الجلاء عن الوطن من أعظم المصائب عطف بثم لبعد حاله عن حال المعطوف عليه أي لا يساكنونك ﴿فِيهَآ﴾ أي في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي زماناً قليلاً أو جوازاً قليلاً حتى يخرجوا منها أو يقتلوا ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ منصوب على الذم والشتم أو الحال والاستثناء شامل له أيضاً أي لا يجاورنك إلا ملعونين ولا يجوز أن ينتصب بقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي وجدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبله والتشديد في قتلوا يدل على التكثير

---

(١) العرق بالسكون: العظم إذ أخذ عنه معظم اللحم، ويقال: عرقت العظم واعترقته وتعرقته: إذا أخذت عنه اللحم بأسنانك.

(٢) اللكع عند العرب: العبد، ثم استعمل في الحمق والذم، يقال للرجل: لكع، وللمرأة: لكاع. وأكثر ما يقع في النداء. وهو اللئيم، وقيل: الوسخ. قد يطلق على الصغير.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ مصدر مؤكد أي سنَّ الله ذلك في الأمم الماضية وهو أن يقتل الذين نافقوا بالأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه أين ما ثقفوا أو منصوب بنزع الخافض أي كسنة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأن الله تعالى لا يبدل سنته وغيره لا يقدر على أن يبدلها.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي عن وقت قيامها استهزاءً أو تعنتاً أو امتحاناً فالمشركون كانوا يستهزئون ويسألون عن الساعة إنكاراً واستهزاءً واليهود كانوا يسألون إما تعنتاً وإما امتحاناً لأن الله عمى وقتها في التوراة وفي سائر الكتب ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لم يطلع الله عليه أحداً من الأنبياء والملائكة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأي شيء يعلمك وقت قيامها إذا لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي شيئاً قريباً أو يكون الساعة عن قريب أو انتصابه على الظرف ويجوز أن يكون تذكير قريب لأن الساعة في معنى اليوم، وكونه قريباً مبنى على أن كل ما هو آت قريب ولعل لوجوب الوقوع وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للمتعنتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ ناراً شديد الإيقاد ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير في لهم أي مقدرين خلودهم ﴿فِيهَآ﴾ أي في السعير ﴿أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب عنهم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ ظرف لقوله لا يجدون أو منصوب باذكر أي يوم تصرف ﴿وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ من جهة إلى جهة كاللحم يشوى بالنار أو من حال إلى حال خصت الوجوه بالذكر لأنها أكرم مواضع من الجسد أو الوجه عبارة عن الجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في وجوههم والمضاف جزء من المضاف إليه وهو مسند إليه فيصح وقوع الحال عنه ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾ أي يا قومنا ليتنا وقيل يا للتنبيه ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾ في الدنيا ﴿وَأَطَعْنَا﴾ في الدنيا ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ فلم نبتل بهذا العذاب في الآخرة زيدت الألف، في الرسولا والسبيلا لرعاية الفواصل والدلالة على انقطاع واستئناف ما بعده ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ﴾ يا ربنا ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ يعنون قادتهم الذين سنوا لهم الكفر قرأ ابن عامر ويعقوب ساداتنا بكسر التاء وألف قبلها على جمع الجمع للدلالة عى الكثرة والباقون بفتح التاء بلا ألف قبلها ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بما زيّنوه لنا ﴿رَبَّنَآ﴾، أي يا ربنا ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي مثلي ما آتيتنا منه لأنهم ضلوا وأضلونا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ عاصم بالباء الموحدة أي أشد اللعنُ وأعظمه والباقون بالثاء المثلثة أي كثير العدد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ يعني قالوا فيه ما يشينه ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ فأظهر براءته قيل ذلك ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً كريماً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقال ما يستر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة فأراد الله أن يبرئه مما قالوا، فخلا وحده وخلع ثيابه ووضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلمّا فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها فإذا الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله

فأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ موسى ثوبه ولبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لبقيا من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله تعالى: « ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾»[1] رواه البخاري والترمذي وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وعبد الرزاق وعبد بن حميد. وقال أبو العالية هو أن قارون استأجر امرأة لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ فعصمه الله فبرأ موسى من ذلك وأهلك قارون وقد مر القصة في سورة القصص، وقال قوم أذاهم موسى أنه لما مات هارون في التيه ادَّعوا على موسى أنه قتله فأمر الله الملائكة حتى مروا به على بني إسرائيل فعرفوا أنه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا، أخرجه ابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم والله أعلم.

روى البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: «قسَّم النبي ﷺ قسماً فقال رجل إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبيّ ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه فقال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[2] ﴿وَكَانَ﴾ موسى ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي كريماً ذا جاه يقال وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه إذا كان ذو جاه وقدر، قال ابن عباس كان عند الله بحيث لا يسأل شيئاً إلا أعطاه وكذا قال الحسن وقيل كان مجيباً مقبولاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤذى رسوله ﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قال ابن عباس صواباً، وقال قتادة عدلاً وقال الحسن صدقاً وقيل مستقيماً وقيل قاصداً إلى الحق والمآل واحد يعني صدقاً غير كذب ولا مجازفة فإن الكذب يمحق والصدق يبقى، قيل المراد منه نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل وما خاضوا فيه من حديث إفك عائشة، قال عكرمة هو قول لا إله إلا الله.

﴿يُصْلِحْ﴾ مجزوم في جواب الأمر وكذا ما عطف عليه ﴿لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ قال ابن عباس يقبل حسناتكم، وقال مقاتل يزكي أعمالكم يعني يصلحها للقبول والإثابة عليها وقيل معناه يوفقكم للأعمال الصالحة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ﴾ أي يجعلها مكفرة باستقامتكم على القول والعمل ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ظفر بالخير كله يعيش في الدنيا حميداً أو يبعث في الآخرة سعيداً ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ﴾ وهاهنا أبحاث الأول في أن الأمانة ما هي الثاني في أن المراد بالسماوات والأرض والجبال ما هي أعيانها أو أهلها كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٢٨، والترمذي في تفسير سورة ٣٣، باب ٢٤، وأحمد في المسند ٢/ ٥١٥.

(٢) أخرجه البخاري في الخمس باب ١٩، وأحاديث الأنبياء باب ٢٧، والمغازي باب ٥٦، والأدب باب ٥٣، و٧١، والاستئذان باب ٤٧، ومسلم في الزكاة حديث ١٤٠، ١٤١.

[يوسف: ٨٢] يعني أهلها والثالث إن المراد بالعرض الخطاب اللفظي أو الحالي والرابع في معنى الحمل والأباء عنه قال ابن عباس الأمانة الطاعة والفرائض التي فرض الله تعالى على عباده عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال يعني على أعيانها بالخطاب اللفظي على أن أدتها أثابهن وإن ضيعتها عذبهن، وقال ابن مسعود الأمانة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث والعدل في الكيل والوزن وأشد من هذا كله الودائع، وقال مجاهد الأمانة أداء الفرائض وحفظ الدين وقال أبو العالية ما أمروا به ونهوا عنه وقال زيد بن أسلم هي الصوم والغسل من الجنابة وما يخفى من الشرائع يعني ما لا مدخل للرياء فيه وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أول ما خلق الله من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعكها فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له، وقال بعضهم هي أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً ولا معاهداً في شيء قليل ولا كثير وهي رواية الضحاك عن ابن عباس، ومرجع هذه الأقوال أن الأمانة هي التكليفات الشرعية والمراد بالسماوات والأرض أعيانها قال البغوي هذا قول ابن عباس وجماعة وأكثر السلف والعرض بالخطاب اللفظي، قال البغوي، قال الله تعالى لهن أتحملن هذه الأمانة بما فيها قلن وما فيها؟ قال إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن فقلن لا يا رب نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً، قلن ذلك خوفاً وخشيةً وتعظيماً لدين الله أن لا يتأدى منهن حقه لا معصيةً ومخالفةً وكان العرض عليهن تخييراً لا إلزاماً ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، وقيل المراد بالعرض الخطاب اللفظي وبالسماوات والأرض والجبال أهلها كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها دون أعيانها وقيل المراد بالسماوات والأرض والجبال أعيانها وبالعرض اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن بآبائهن الآباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوماً جهولاً ما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلى هذا يحسن أن يكون هذان الصفتان باعثتين للجمل عليه.

قال البيضاوي لعل المراد بالأمانة العقل أو التكليف ومن فوائد العقل أن يكون مهيمناً على القوتين حافظاً لهما عن التعدّي ومجاوزة الحدود الشرعية ومعظم مقصود التكليف تعديلها وكسر شوكتها، وأيضاً قال البيضاوي هذه الآية تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء والمعنى إنها لعظم شأنها بحيث لو عرضت على الأجرام العظام، وكانت ذات شعور وإدراك لأبت أن تحملها وأشفقت منها وحملها الإنسان مع ضعف بُنيته ورخاوة قوته لا جرم فاز الراعي بها والقائم بحقوقها بخير الدارين، قلتُ ونظيره قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١] فهذه الآية على هذا التأويل كأنه مثل ضرب وهذان القولان يعني قول من ارتكب التجوز في لفظ السماوات ونحوها وقول من ارتكب التجوز في العرض والخطاب مبنيان على استبعاد الخطاب مع الجمادات، فقال

بعضهم في دفع هذا الاستبعاد أنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال إني فرضتُ فريضةً وخلقتُ جنةً لمن أطاعني وناراً لمن عصاني فقلن نحن مسخرات على ماخلقنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثواباً، ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فتحمله وكان ظلوماً لنفسه بتحمله ما يشق عليه جهولاً لو خامة عاقبته، أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه وفيه فكان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة قدر ما بين الظهر والعصر.

وقيل في دفع الاستبعاد: إن الجمادات كلها وإن كانت غير عاقلةٍ بالنسبة إلينا لكنها بالنسبة إلى الله تعالى عاقلةً خاضعةً مطيعةً ساجدةً له قال الله تعالى: للسماوات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨] قيل المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ آدم عليه السَّلام، قال الله تعالى لآدم إني عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها قال وأنت آخذ بما فيها قال يا رب وما فيها قال إن أحسنت جوزيتَ وإن أسأت عوقبتَ فحملها آدم فقال بين أذني وعاتقي فقال الله تعالى إذا قبلتَ فسأعينك وأجعل لبصرك حجاباً فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل فضع عليه حجابه واجعل للسانك لحيين وغالقاً فإذا خشيتَ فأغلق وأجعل لفرجك لباساً فلا تكشف على ما حرمت عليك، قال مجاهد فما كان بين أن حملها وبين ما خرج من الجنة إلا مقدار ما بين الظهر والعصر، قلتُ: لعل الحكمة في إخراجه من الجنة بعد حمل الأمانة أن الجنة ليست محلاً لأداء الأمانة بل هي محل للثواب على أدائها فأُخرج إلى الدنيا التي هي مزرعة الآخرة لأداء الأمانة، قال البغوي حكى النقاش بإسناده عن ابن مسعود أنه مُثِّلت الأمانة كصخرة ملقاة ودعيت السماوات والأرض والجبال إليها فلم يقربن منها وقلن لا نطيق حملها وجاء آدم من غير أن دعي وحرك الصخر وقال لو أمرتُ بحملها لحملتُها فقال له احملها فحملها إلى ركبتيه ثم وضعها وقال والله إن أردت أن أزداد لزدتُ فقلن له أحمل فحملها حتى وضعها عى عاتقه فأراد أن يضعها فقال الله تعالى مكانك فإنما هي في عنقك وعنق ذريتك إلى يوم القيامة، وذكر الزجاج وغيره من أهل المعاني المراد بالأمانة الطاعة التي يعم الطبيعية والاختيارية وبعرضها استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من الاختيار وإرادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها ومنه قولهم حامل لأمانة ومحتملها لمن لا يؤديها فيبرأ ذمته فيكون الإباء عنه إتيانها بما يمكن أن يتأتى والظلم والجهالة للخيانة والتقصير قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وحكي عن الحسن على هذا التأويل أنه قال وَحَمَلَهَا الإنسان ويعني الكافر والمنافق حملا الأمانة أي خانا.

قال البغوي قول السلف هو الأول قلتُ ولمَّا كان مقتضى سياق الآية اختصاص الإنسان بحمل الأمانة دون غيره من المخلوقات فالقول بأن الأمانة هي التكليفات الشرعية غير مناسب لاشتراك الجن والملائكة فيها، ويلزم منه فضل الملائكة على الإنسان لأدائهم

الأمانة بكمالها لعصمتهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠] بخلاف الإنسان لأن منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ومن ثم قالت الصوفية العلية المراد بالأمانة نور العقل ونار العشق فنور العقل يحصل به معرفة الله سبحانه بالاستدلال ونار العشق يحصل بها معرفة الله سبحانه بحرق الحجب والملائكة وإن كانوا عباد الله المقربين لكنهم مخلوقين في مقام معلوم من القرب والعرفان قال الله تعالى حكاية عنهم ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] فالترقي إلى المراتب الغير المتناهية بنار العشق إنما هو من خصائص الإنسان، وعندي على ما استفدتُ من كلام المجدد للألف الثاني رضي الله عنه أن الأمانة ما أودع الله سبحانه في ماهية الإنسان من الاستعداد للتجليات الذاتية الدائمة فإن الجن وإن كان بعد الإيمان والإتيان بالأعمال الصالحة يلحق بالملائكة وتستعد للتجليات الصفاتية لكن التجلي الذاتي لا يتحملها من لا مزاج له من الأرض وهذا الاستعداد هو المستوجب للخلافة وهذا العلم هو المعنى بقوله تعالى للملائكة في حق آدم عليه السَّلام ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] يعني اعلموا أن التجلي الذاتي لا يتحملها من لا مزاج له من الأرض وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ يعني مركباً للقوى السبعية الداعية إلى التفوق والتعلي المقتضية للترقيات إلى أعلى الشواهق ﴿جَهُولًا﴾ مَرْكَباً للقوى البهيمية التي يطيق بها صاحبها تحمل رياضات ومشاق لا بد منها للعاشق في طلب وصل المحبوب فهو تعليل ومنقبة له، وتلك القوتين جميعاً ناشئتان من الأرض فإن مادة الأرض لكمال كثافة يتحمل التجلي الذاتي كما أن الأجرام الأرضية لكثافتها تتنور بنور الشمس دون الأجرام اللطيفة والملائكة المقربون منحصرون في مقاماتهم وولاياتهم وإن كانت ولايتهم فوق ولاية الأنبياء لكونها مستفادة من الصفات من حيث البطون أعني من حيث قيامها بذات الله سبحانه وولاية الأنبياء من الصفات من حيث الظهور أعني من حيث هي، هي لا من حيث قيامها بالذات، ومن هذه الاعتبارات هي مبادي لمبادي تعينات العالم لكن لاحظ للملائكة من التجلي الذاتي الذي هي كمالات النبوة، ولأجل ذلك اختص النبوة بنوع البشر دون غيرهم وصار خواص البشر أي الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وصارت الجنة للشر والملائكة تدخلون عليهم من كل باب ومن قال إن المراد بالأمانة التكليفات الشرعية وبتحملها قبولها بالاختيار فمعنى هذه الجملة عندهم أنه كان ظلوماً لنفسه بتحمله ما يشق عليه جهولاً بوخامة عاقبته وما يلحقه العذاب بترك أدائه وليس فيه مذمة للإنسان بل هي بيان للواقع، وقال البيضاوي حين قال هذه الآية تقرير للوعد السابق ما معناه أن الأمانة مع عظم شأنها بحيث لا يطيق حملها الأجرام العظام لو فرضت ذات شعور وحملها الإنسان مع ضعف بنيته فاز الراعي لها بخير الدارين أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيث لم يف بها ولم يراع حقها جهولاً بكنه عاقبتها وصف للجنس باعتبار الأعم الأغلب.

وقال صاحب بحر المواج معناه أن الإنسان كان ظلوماً حيث زعم نفسه قادراً على أداء ما أشفقت عنه السماوات وأمثالها ثم لم يؤدّها جهولاً لعجزه عن أدائها، وهذا التأويل

ليس عندي بمرض لأن تحمل الأمانة كان من آدم عليه السلام وهو المراد بالإنسان وهو كان نبيّاً معصوماً قد أدى ما حمل عليه وضمير أنَّه راجع إلى من حمل، وقالت الصوفية معنى الآية أنه أي الإنسان باعتبار أكثر أفراده كان ظلوماً على نفسه حيث ضيع استعداده للمعرفة والتجليات الإلهية الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها جهولاً يحسن ما فات عنه وقبح ما اكتسبه قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه»(١) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة، قلتُ: لما سمعتَ أن الظلم كناية عن القوة السبعية والجهل عن القوة البهيمية وحسن القوتين وقبحهما ليس إلا بحسب متعلقهما ومصرفهما ألا ترى أن القوة السبعية إن صرفت لدفع أعداء الدين من الشيطان وأمثاله وكسب التفوق والتعلي إلى مدارج القرب كانت حسنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤] وأن الله يحب معالي الهمم، وإن صرفت في قهر المعصومين والتكبر والتعلي في مقابله رب العالمين كانت قبيحة ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] وكذا القوة البهيمية إن صرفت في كسب السعادة كانت حسنة وإن صرفت في كسب اللذات كانت قبيحة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ولا شك أن حسن تعلقهما موقوف على تزكية النفس والقلب والعناصر قال رسول الله ﷺ: «إن في جسد بني آدم لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(٢) رواه البخاري. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] وامتثال التكليفات الشرعية سبب لتزكيتها فإن كان المراد بالأمانة التكليفات الشرعية فقوله إنَّه كان ظلوماً جهولاً إشارة إلى علة تحميل الإنسان وتحمله تلك الأمانة فالمعنى إنَّه كان ظلوماً جهُولاً ولأجل ذلك عرضنا عليه الأمانة وتحمله آدم عليه السَّلام حتى يتزكى بها عن الرذائل ويستعد للفضائل ويكون محموداً في الدارين وإن كان المراد بالأمانة التجليات الذاتية فهو إشارة إلى أنه كان أهلاً لتلك الأمانة دون غيره لأن تلك الأمانة لا يتصور حملها إلا من كان جامعاً لتلك الصفتين كما ذكرنا وغيرهما من الحواس والقوى.

وعلى كلا التقديرين لَمَّا كانت الصفتان المذكورتان على تقدير عدم التزكية والخذلان من الله تعالى وكونهما مصروفتين في الباطل موجبتين للعذاب وعلى تقدير التزكية والتأييد من الله وكونهما مصروفتين في الحق موجبتين للرحمة والثواب حسن تعليل حمل الأمانة وعرضها الذي هو مقتضى تلك الصفتين المركبتين في الطبيعة الإنسانية بقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ اللام للعاقبة كما في قوله: لدوا للموت وابنو للخراب ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٨٠، ٩٣، وتفسير سورة ٣٠، باب ١، ومسلم في القدر حديث ٢٢، ٢٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٣، ٢٧٥، ٣٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٩، ومسلم في المساقاة حديث ١٠٧، وابن ماجه في الفتن باب ١٤، والدارمي في البيوع باب ١.

﴿وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ المضيعين للأمانة والمنهمكين في الظلم واللذات ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ أي يرجع بالرحمة والمغفرة والجذب والاجتباء وإعطاء مراتب القرب ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ المؤدين للأمانات المستغرقين في التجليات، قال ابن قتيبة أي عرضنا الأمانة يعني التكليفات الشرعية أو الاستعداد المودع ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهم الله ويظهر إيمان المؤمن (قلتُ وعرفان العارف) فيتوب عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات قلتُ وبالتجليات الذاتية الدائمة والوصل بلا كيف من غير حجاب وذكر التوبة في الوعد إشعار بأن كونهم ظلوماً جهُولاً في جبلتهم فلا يخلو عن فرطات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للمؤمنين حيث تاب على فرطاتهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث أثابهم على طاعاتهم تفضلاً وأفاض عليهم تجلياته وبركاته.

تم تفسير سورة الأحزاب (ويتلوه سورة سبأ إن شاء الله تعالى)
غرة شهر المحرم من السنة السابعة بعد الألف
ومائتين سنة ١٢٠٧ وصلّى الله على
محمَّد وآله وأصحابه

تم الجزء الخامس ويليه إن شاء الله تعالى الجزء السادس

فهرس المحتويات

تفسير سورة الحج

تفسير سورة المؤمنون

تفسير سورة النور

تفسير سورة الفرقان

تفسير سورة الشعراء

تفسير سورة النمل

تفسير سورة القصص

تفسير سورة العنكبوت

تفسير سورة الروم

تفسير سورة لقمان

تفسير سورة السجدة

تفسير سورة الأحزاب